٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الحج وسورة المؤمنون

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر/قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن عشر

الدرر السنية

www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحج وسورة المؤمنون)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية للنشر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثامن عشر - سورة الحج وسورة المؤمنون/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية للنشر - الظهران، ١٤٤٠هـ

٧٥٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ١-٧٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٠/١٠٧٩٥

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١٠٧٩٥

ردمك: ١-٧٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية

ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

ت:٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس:٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ -بريدإلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَرِيمِ

(سورة الحج وسورة المؤمنون)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤَسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

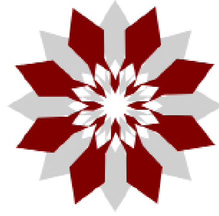
الشَّيخ عَلَوي بن عبدِ القادِر السَّقَّاف

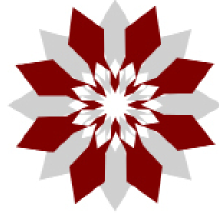
المجلد الثامن عشر

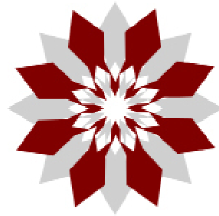
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ
سُورَةِ الحَجِّ







سورةُ الحَجِّ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (الحَجِّ)[١].

فعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((في سُورةِ الحَجِّ سَجدتانِ))[٢].

وعن عبدِ الله بنِ ثعلبةَ: (أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضي اللَّه عنه صلَّى بهم بالجابيةِ[٣]، فقرأ سورةَ الحجِّ، فسجَد فيها سَجْدتينِ)[٤].

فَضائلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

فُضِّلَت هذه السُّورةُ على سائِرِ السُّوَرِ بسَجدَتينِ:

كما دلَّ على ذلك قولُ ابنِ عباسٍ، وفعلُ عُمرَ -فيما تقدَّم- رضي الله عنهم أجمعينَ[٥].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الحَجِّ؛ لاشتِمالِها على مناسكِ الحَجِّ، وتَعظيمِ الشَّعائِرِ، وتأذينِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ للنَّاسِ بالحَجِّ، وقد نزلَتْ قبلَ أن يُفْرَضَ الحجُّ على المسلمينَ بالاتِّفاقِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٧٩).

(٢) أخرجه الحاكم (٣٤٧٢)، والبيهقي (٣٨٩٣) موقوفًا.

صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٤٢٣)، وابن حزم في ((المحلى)) (٥/ ١٠٧).

(٣) الجابِيةُ: مدينةٌ بالشَّامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٧٦٩).

(٤) أخرجه الشافعي في ((الأم)) (٨/ ٦٩٤)، والحاكم (٣٤٧١)، والبيهقي (٣٨٨٧).

صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٤٢٣)، وابن الملقن في ((شرح البخاري)) (٨/ ٣٨٧).

(٥) أمَّا السجدةُ الأُولَى ففي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨]. وقد أجمَع العلماءُ على السجودِ فيها، وممن نقَل الإجماعَ: ابنُ حزمٍ، وابنُ قُدامةَ، وابنُ حَجَرٍ. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٣١)، ((الكافي)) لابن قدامة (١/ ٢٧٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٥١). =

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

اختلف العُلَماءُ في هذه السُّورةِ على أقوال:

الأوَّل: أنَّها مَدَنيَّةٌ(١).

الثاني: أنَّها مكِّيَّةٌ(٢).

= أمَّا السجدةُ الثانيةُ ففي قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧]، وفيها خلاف، والسجودُ فيها مذهبُ الشافعيَّةِ والحنابلةِ وبعضِ المالكيَّةِ، وهو اختيارُ ابنِ المُنذِرِ، وابنِ تيميَّةَ، والشَّوكانيِّ، وابنِ عُثيمينَ. يُنظر: ((المجموع)) للنووي (٤/ ٦٢)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (١/ ١٥٥)، ((المنتقى)) للباجي (١/ ٣٥١)، ((الأوسط)) لابن المنذر (٥/ ٢٧٢)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٧٠)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٤/ ٩٦).

(١) ممن اختار أنَّ السُّورةَ مَدَنيَّةٌ كلُّها: عبد الرزاق، والماوَرْدي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٧).

وقيل: مدنية إلَّا أربعَ آياتٍ منها نزَلَت بمكَّة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج: ٥٢] إلى قولِه تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

وممن قال اختار هذا القولَ: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وابن جزي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٥٣)، ((تفسير القرآن العزيز)) لابن أبي زمنين (٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩١).

(٢) وممن اختار أنَّ السورةَ مكِّيَّةٌ: عبدُ القاهر الجرجاني، وابن كثير، والنسفي. يُنظر: ((درج الدرر في تفسير الآي والسور)) لعبد القاهر الجرجاني (٣/ ١٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٦).

وقيل: مكيَّةٌ غيرَ سِتِّ آياتٍ، وهي قَولُه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ...﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: ١٩- ٢٤]، ونقل الاتفاقَ على ذلك: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٣).

وممن اختار هذا القولَ: البغويُّ، والزمخشري، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٤).

وقيل: مكيَّةٌ سوى ثلاثِ آياتٍ، هي قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ [الحج: ١٩] إلى تمامِ ثلاثِ =

الثَّالث: أنَّها مختلِطةٌ(١).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ الحَجِّ:

بَيانُ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وإثباتُ البَعثِ(٢).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

١- افتُتِحَت السُّورةُ بالأمرِ بتقوى اللهِ، والحَديثِ عن أهوالِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه.

٢- بيانُ الأدِلَّةِ على أنَّ البَعثَ حَقٌّ.

٣- ذِكرُ جِدالِ المُشرِكينَ، وعِبادةِ المُنافِقينَ.

٤- بَيانُ حُكمِ اللهِ بين العِبادِ، والفَصلِ بينهم، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ في الكَونِ يَسجُدُ لله، وأنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ حَقَّ عليه العَذابُ.

٥- عَقْدُ مُقارَنةٍ بين خَصمَينِ اختَصَموا في رَبِّهم مِنَ المُؤمِنينَ والكافِرينَ، مع بيانِ عاقِبةِ كُلٍّ منهما.

= آياتٍ. وممن قال بهذا القولِ: السمرقنديُّ، ومكي، والرازي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤٧)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨٣٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ١٩٩).

(١) وممن اختار أنَّ السورةَ مختلطةٌ؛ منها المكِّيُّ، ومنها المدنيُّ: ابنُ عطية، والقرطبي -ونسباه للجمهورِ-، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٤٠).

قال ابنُ عاشور: (أرادوا أنَّ كثيرًا منها مكيٌّ، وأنَّ مثلَه أو يقاربُه مدنيٌّ، وأنَّه لا يتعيَّنُ ما هو مكيٌّ منها، وما هو مدنيٌّ؛ ولذلك عبَّروا بقولِهم: هي مختلطةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٩/ ٢٧٠).

٦- الحَديثُ عن فريضةِ الحَجِّ وما جَعَل اللهُ فيه من المنافِعِ، وصَدِّ المُشرِكينَ عن المسجدِ الحَرامِ.

٧- التَّحذيرُ مِنَ الشِّركِ.

٨- الإذْنُ للمُسلِمينَ بالقِتالِ، وضَمانُ النَّصرِ والتَّمكينِ في الأرضِ لهم.

٩- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن تكذيبٍ.

١٠- عَرضُ نماذِجَ مِن تكذيبِ المكَذِّبينَ مِن قَبلُ، ومِن مَصارِعِ المكَذِّبينَ ومَشاهِدِ القُرى المُدَمَّرةِ على الظَّالِمينَ.

١١- عَرضُ طَرَفٍ مِن كَيدِ الشَّيطانِ للرُّسُلِ والنبيِّينَ في دَعوتِهم، وتثبيتِ اللهِ لِدَعوتِه، وإحكامِه لآياتِه.

١٢- التَّذكيرُ بألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى على الخَلقِ، وأنَّ الله اصطفى خَلْقًا مِنَ الملائِكةِ جعَلَهم رُسُلًا إلى النَّاسِ.

١٣- تَوجيهُ بَعضِ الإرشاداتِ إلى المؤمِنينَ بعِبادتِه سُبحانَه، وفِعلِ الخَيراتِ، والجِهادِ، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والاعتِصامِ باللهِ.



الآيتان (١-٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَلۡزَلَةَ﴾: الزَّلزَلةُ: الحَركةُ الشَّديدةُ، واضطِرابُ الأرْضِ، وأصلُها مِن: زَلَّ عن الموضِعِ، أي: زال عنه وتحَرَّكَ[1].

﴿تَذۡهَلُ﴾: أي: تَنسَى وتَترُكُ، والذُّهولُ: نِسيانُ ما مِن شَأنِه ألَّا يُنسَى؛ لوجودِ مُقتَضى تذَكُّرِه، وأصلُ (ذهل): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بذُعرٍ أو غَيرِه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: يا أيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكم، واحذَروا عِقابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيهِ، إنَّ ما يَحدُثُ يوم القيامةِ مِن أهوالٍ عظيمةٍ شَيءٌ عَظيمٌ، يومَ تَرَونَ زلزلةَ السَّاعةِ تَنسى المرضِعةُ رَضيعَها الذي ألقَمَتْه ثَدْيَها، وتشتغِلُ عنه؛ لِمَا نَزَل بها مِنَ الكربِ، وتُسْقِطُ الحامِلُ حَمْلَها مِنَ الرُّعبِ، وتَغيبُ عُقولُ النَّاسِ، فيَصيرون كالسُّكارى؛ مِن شِدَّةِ الهَولِ والفَزَعِ، ولَيسُوا بسُكارى مِن الخَمرِ، ولكِنَّ شِدَّةَ العذابِ أفقَدَتْهم عُقولَهم وإدراكَهم!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٩).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكم الذي خلَقَكم، والذي يرزُقُكم ويدَبِّرُ أمورَكم، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه[1].

﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: اتَّقُوا اللهَ؛ لأنَّ أمامَكم أهوالًا عَظيمةً، يَحصُلُ منها رُعبٌ هائِلٌ، وفَزَعٌ كَبيرٌ يومَ القيامةِ، ولا نجاةَ مِن ذلك إلَّا بتَقواهُ سُبحانَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٤).

قال ابن عاشور: (أوَّلُ تقواهُ هو تنزيهُه عن النَّقائِصِ، وفي مقَدِّمةِ ذلك تنزيهُه عن الشُّرَكاءِ، باعتقادِ وحدانيَّتِه في الإلهيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣-٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٤ - ٢٦١).

ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: شدَّتَها وهَوْلَها، ومَا يَحْصُلُ لِلنُّفوسِ مِنَ الْفَزَعِ وَالرُّعْبِ: ابنُ كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣).

قال الشنقيطي عن هذه الزلزلةِ: (معناها: شِدَّةُ الخوفِ والهولِ والفزعِ؛ لأنَّ ذلك يُسمَّى زِلْزالًا، بدليلِ قولِه تعالَى فيما وقَع بالمسلمينَ يومَ الأحزابِ مِن الخوفِ: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ١٠- ١١]؛ أي: وهو زلزالُ فزعٍ وخوفٍ، لا زلزالُ حركةِ الأرضِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦١). =

= وممن اختار أنَّها زلزلةٌ حقيقة وهي شدةُ الحركةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والعليمي، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٧).

ونسَب ابنُ عطيةَ للجمهورِ أنَّ زلزلةَ السَّاعةِ هي كالمعهودةِ في الدنيا، إلَّا أنَّها في غايةِ الشدَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٥).

قال الشنقيطي: (اخْتَلَف العلماءُ في وقتِ هذه الزَّلْزَلةِ المذكورةِ هنا، هل هي بعدَ قيامِ النَّاسِ مِن قُبورِهم يومَ نشورِهم إلى عَرَصاتِ القيامةِ، أو هي عِبارَةٌ عن زلزلةِ الأرضِ قبلَ قِيامِ النَّاسِ مِن القُبورِ؟

فقالَتْ جماعَةٌ مِن أهلِ العلمِ: هذه الزَّلزلةُ كائنةٌ في آخِرِ عُمْرِ الدُّنيا، وأوَّلِ أحوالِ السَّاعةِ. ومِمَّنْ قالَ بهذا القولِ: عَلْقَمةُ، والشَّعبيُّ، وإبراهيمُ، وعُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ، وابنُ جُريجٍ. وهذا القولُ مِن حيثُ المعنَى له وجهٌ مِن النَّظَرِ، ولكِنَّه لم يَثْبُتْ ما يُؤَيِّدُه مِن النَّقلِ، بل الثَّابِتُ مِن النَّقلِ يُؤَيِّدُ خلافَه، وهو القولُ الآخَرُ. وحُجَّةُ مَن قالَ بهذا القولِ حديثٌ مرفوعٌ جاءَ بذلك، إلَّا أنَّه ضعيفٌ لا يجوزُ الاحتجاجُ به.

وأمَّا حُجَّةُ أهلِ القولِ الآخَرِ القائِلينَ بأنَّ الزَّلزلةَ المذكورةَ كائنةٌ يومَ القيامةِ بعدَ البعثِ مِن القبورِ، فهي ما ثَبَت في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم مِن تصريحِه بذلك. وبذلك تعلمُ أنَّ هذا القولَ هو الصَّوابُ كما لا يخفَى). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٥٧).

وممَّن اختار أنَّها زلزلةٌ واقعةٌ في الدنيا قُبَيل يوم القيامة، وأنَّها من أشراطِه ومُقَدِّماتِه: السمعاني، وابن جزي، وابن عاشور، ونسبه القرطبيُّ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: علقمةُ، وعامرٌ الشعبيُّ، وابنُ جريجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢١).

قال أبو حيان: (قال الجمهورُ: في الدنيا آخرَ الزمانِ، ويتبعُها طلوعُ الشمسِ مِن مغربِها). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٠).

وممن اختار أنَّ الزلزلةَ كائنةٌ بعدَ بعثِ الناس وقيامِهم مِن قبورِهم: ابنُ جريرٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٧- ٢٦٠).

ومن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ، والسُّدِّي، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدَمُ. فيقولُ: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ[(١)]، والخَيرُ في يَدَيك! فيقولُ: أخرِجْ بَعْثَ النَّارِ[(٢)]. قال: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِن كُلِّ ألفٍ تِسعَ مئةٍ وتِسعةً وتِسعينَ. فعِندَه يَشيبُ الصَّغيرُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وأيُّنا ذلك الواحِدُ؟! قال: أبشِروا؛ فإنَّ منكم رجُلًا، ومِن يأجُوجَ ومَأجوجَ ألْفًا. ثمَّ قال: والَّذي نَفْسي بيَدِه، إنِّي أَرْجو أنْ تَكونوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّةِ. فكبَّرْنا! فقال: أَرْجو أنْ تَكونوا ثُلُثَ أهلِ الجَنَّةِ. فكبَّرْنا! فقال: أَرْجو أنْ تَكونوا نِصْفَ أهلِ الجَنَّةِ. فكبَّرْنا! فقال: ما أنتُم في النَّاسِ إلَّا كالشَّعرةِ السَّوداءِ في جِلدِ ثَورٍ أبيضَ، أو كشَعرةٍ بَيضاءَ في جِلدِ ثَورٍ أسوَدَ!))[(٣)].

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾.

أي: يومَ تَرَونَ زلزلةَ السَّاعةِ -أيُّها النَّاسُ- تَشْتغِلُ كُلُّ مُرضِعةٍ حِينَها عمَّن تُرضِعُه، وتَغفُلُ عنه حائِرةً مَدهوشةً، قد اشتدَّ بها الكَربُ؛ مِن هَولِ ما تراهُ[(٤)].

= (١٦/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢١).

(١) لَبَّيْكَ: أي: أدومُ على طاعتِك دوامًا بعد دَوامٍ، وإقامةً بعد إقامةٍ؛ مِن ألَبَّ بالمكانِ: إذا أقامَ به. وسَعْدَيْكَ: أي: ساعدتُ طاعتَك يا رَبِّ مُساعدةً بعد مُساعدةٍ، وهي الموافَقةُ والمُسارعةُ، أو أسعَدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدَعوتِك سعادةً بعد سعادةٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٧٣).

(٢) بَعْثَ النَّارِ: بمعنى المبعوثِ المُوَجَّهِ إليها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٩٧).

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٤، ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤، ٥)، ((تفسير =

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾.

أي: وتُسقِطُ كُلُّ امرأةٍ حاملٍ جَنينَها الذي في بَطنِها قَبلَ تمامِه؛ لِشِدَّةِ الكَربِ والفَزَعِ والهَولِ[١].

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾.

أي: وترى[٢] النَّاسَ تَحسَبُهم سُكارى قد دَهِشَت عقولُهم، وغابت أذهانُهم؛ مِن شِدَّةِ الفَزَعِ والكَربِ والهَولِ، ولَيسُوا بسُكارى حقيقةً مِن شُربِ الخَمرِ[٣]!

= ابن كثير)) (٥/ ٣٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٥).

قال الزمخشري: (﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾: عن إرضاعِها. أو: عن الذي أرْضَعته، وهو الطفلُ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٢).

وقال السعدي: (﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ مع أنَّها مجبولةٌ على شدةِ محبتِها لولدِها، خصوصًا في هذه الحالِ، التي لا يعيشُ إلَّا بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٦).

قال السمعاني: (فإن قال قائِلٌ: كيفَ تضَعُ المرأةُ حَمْلَها يومَ القيامةِ؟

الجوابُ: قُلْنا: أمَّا على قَولِنا: إنَّ الزَّلزلةَ قبل قيامِ السَّاعةِ، فمعنى وَضعِ الحَملِ على ظاهِرِه، وإنْ قُلْنا: إنَّ الزَّلزلةَ عند قيامِ السَّاعةِ، فالجوابُ مِن وَجهَينِ: أحدُهما: أنَّ المرادَ مِن الآيةِ النِّساءُ اللَّواتي مِتنَ وهنَّ حَبالى. والوَجهُ الثَّاني -وهو الأصَحُّ: أنَّ هذا على وَجهِ تعظيمِ الأمرِ، وذِكرِ شِدَّةِ الهَولِ، لا على حقيقةِ وَضعِ الحَملِ، والعرَبُ تقولُ: أصابَنا أمرٌ يَشيبُ فيه الوليدُ، وهذا على طَريقِ عِظَمِ الأمرِ وشِدَّتِه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، والمرادُ ما بَيَّنَّا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤١٧). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٠).

(٢) قال ابنُ جرير: (وترى النَّاسَ يا محمَّدُ...). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٨).

وقال السعدي: (أي: تحسَبُهم -أيُّها الرَّائي لهم ...). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

أي: ولكِنَّ الذي أوجَبَ لهم هذه الحالةَ خَوفُهم مِن شِدَّةِ عذابِ اللهِ الذي رأوْهُ، فأذهَبَ هَولُه عُقولَهم، وأفرَغَ قُلوبَهم، وملأها فَزَعًا ورُعبًا[١]!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ يخاطِبُ اللهَ النَّاسَ كافَّةً بأن يتَّقوا رَبَّهم الذي ربَّاهم بالنِّعَمِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، فحقيقٌ بهم أن يتَّقوه بتركِ الشِّركِ والفُسوقِ والعصيانِ، ويمتَثِلوا أوامِرَه مهما استطاعوا، ثمَّ ذكَر ما يُعينُهم على التقوى، ويحَذِّرُهم مِن تركِها، وهو الإخبارُ بأهوالِ القيامةِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فحقيقٌ بالعاقِلِ الذي يعرِفُ أنَّ هذا أمامَه أن يُعِدَّ له عُدَّتَه، وألَّا يُلهِيَه الأملُ فيترُكَ العمَلَ، وأن تكونَ تقوَى اللهِ شِعارَه، وخوفُه دِثارَه[٢]، ومحبَّةُ اللهِ وذِكرُه رُوحَ أعمالِه[٣]، فعِظَمُ الهولِ يومَ القيامةِ موجِبٌ واضحٌ لِلاستعدادِ لذلك الهولِ بالعملِ الصَّالحِ في دارِ الدُّنيا قبلَ تعَذُّرِ الإمكانِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- من أسرارِ بلاغةِ القُرآنِ: أنَّه تعالى جعل الافتتاحَ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢).

(٢) الشِّعارُ: ما وَلِيَ الجَسَدَ مِن الثِّيابِ. والدِّثارُ: ما كان مِنَ الثِّيابِ فَوقَ الشِّعارِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٠٢، ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٢، ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦١).

﴿رَبَّكُمْ﴾ لسورتين في القرآن: إحداهما: سورةُ النساءِ، وهي السُّورةُ الرَّابعةُ مِن النِّصفِ الأوَّلِ مِن القرآنِ، وعلَّل الأمرَ بالتَّقوى فيها بما يدُلُّ على معرفةِ المبدأِ بأنَّه خلق الخَلْقَ من نفْسٍ واحدةٍ، وهذا يدُلُّ على كمالِ قُدرةِ الخالقِ، وكمالِ عِلمِه وحكمتِه. والثانيةُ: سورةُ الحجِّ، وهي الرابعةُ أيضًا مِن النِّصفِ الثَّاني مِن القرآنِ، وعلَّلَ الأمرَ بالتَّقوى فيها بما يدُلُّ على معرفةِ المعادِ، فجعلَ صدْرَ هاتين السورتينِ دليلًا على معرفةِ المبدأِ والمعادِ، وقدَّم السُّورةَ الدالَّةَ على المبدأِ على السُّورةِ الدالَّةِ على المعادِ، وهذا سِرٌّ عظيمٌ[١]! وهذا على القولِ بأنَّ ترتيبَ السُّوَرِ توقيفيٌّ.

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تسميةُ الزَّلزلةِ بـ «شيء» إمَّا لأنَّها حاصلةٌ مُتيقَّنٌ وقوعُها، فيُستسهَلُ لذلك أن تسمَّى شيئًا، وهي معدومةٌ؛ إذ اليقينُ يُشبِهُ الموجوداتِ. وإمَّا على المآلِ، أي: هي إذا وقعت شيءٌ عظيمٌ، وكأنَّه لم يُطلِقِ الاسمَ الآنَ، بل المعنى: أنَّها إذا كانت فهي إذَنْ شيءٌ عظيمٌ؛ ولذلك تَذهَلُ المراضِعُ، وتَسكَرُ النَّاسُ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ دَلالةٌ على إجازةِ المُبالغةِ في الأشياءِ، حتى يُسمَّى بأضدادِها، كما يُقالُ: «فلانٌ ميتٌ» إذا كان بليدًا في أمْرِه خاليًا مِن المنافِعِ، و«فلانٌ شيطانٌ» إذا كان داهيةً، وأشباه ذلك، ألَا تراه قال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ يعني -واللهُ أعلَمُ- مِن الشَّرابِ، ولكنْ مِن غَلبةِ الفَزَعِ لِمَا عايَنوا مِن الزَّلزَلةِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١/ ١٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٤).

٤- قد يكونُ سَبَبُ السُّكرِ مِن الأَلَم، كما يكونُ من اللَّذَّةِ، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فَأخبَرَ أنَّهم يُرَونَ سُكارى وما هم بسُكارى[١]!

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ في التَّعبيرِ عن الذَّاتِ العَلِيَّةِ بصِفَةِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ المُخاطبينَ: إيماءٌ إلى استحقاقِه أنْ يُتَّقى؛ لِعَظمتِه بالخالِقيَّةِ، وإلى جَدارةِ النَّاسِ بأنْ يَتقُّوه؛ لأنَّه بصِفَةِ تَدبيرِ الرُّبوبيَّةِ لا يأمُرُ ولا يَنْهى إلَّا لمُراعاةِ مَصالحِ النَّاسِ، ودَرْءِ المفاسِدِ عنهم[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالتَّقوى، كما يُفيدُه حَرفُ التَّوكيدِ (إنَّ) الواقِعُ في مَقامِ خِطابٍ لا تَردُّدَ للسَّامِعِ فيه، والتَّعليلُ يَقْتضي أنَّ لِزَلزلةِ السَّاعةِ أثرًا في الأمْرِ بالتَّقوى؛ وهو أنَّه وقْتٌ لحُصولِ الجزاءِ على التَّقوى وعلى العصيانِ، وذلك على وَجْهِ الإجمالِ المُفصَّلِ بما بعْدَه في ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٣].

- والإتيانُ بلفْظِ ﴿شَيْءٌ﴾؛ للتَّهويلِ بتوغُّلِه في التَّنكيرِ، وللإيذانِ بأنَّ العُقولَ قاصِرةٌ عنْ إدراكِ كُنْهِها، والعِبارةَ ضَيِّقةٌ لا تُحيطُ بها إلَّا على وَجْهِ الإبهامِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٧).

﴿كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ تَمثيلٌ لبَيانِ شِدَّةِ الأمرِ وتَفاقُمِه[١].

- قولُه: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ ...﴾ بيانٌ لجُملةِ: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾؛ لأنَّ ما ذُكِرَ يُبيِّنُ معنَى كونِها شيئًا عظيمًا، وهو أنَّه عظيمٌ في الشَّرِّ والرُّعبِ[٢].

- وتَقديمُ ﴿يَوۡمَ﴾ على عامِلِه ﴿تَرَوۡنَهَا﴾؛ للاهتمامِ بالتَّوقيتِ بذلك اليومِ، وتوقُّعِ رُؤيتِه لكلِّ مُخاطَبٍ مِنَ النَّاسِ، وأصْلُ نظْمِ الجُملةِ: تَذهَلُ كلُّ مُرضعةٍ عمَّا أرضعَتْ يومَ تَرونَ زَلزلةَ السَّاعةِ[٣].

- وذكَرَ لفْظَ الذُّهولِ في قولِه: ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾ دُونَ النِّسيانِ؛ لأنَّ الذُّهولَ أدَلُّ على شِدَّةِ التَّشاغُلِ. وأطلَقَ ذُهولَ المُرضِعِ وذاتِ الحمْلِ، وأُريدَ ذُهولُ كلِّ ذي عِلْقٍ نَفيسٍ عن عِلْقِه[٤] على طَريقةِ الكِنايةِ. وزِيادةُ كلمةِ ﴿كُلُّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الذُّهولَ يَعْتري كلَّ مُرضِعٍ، وليس هو لبَعضِ المراضِعِ باحتِمالِ ضَعفٍ في ذاكرتِها، وهي كِنايةٌ عن تَعميمِ هذا الهولِ لكلِّ النَّاسِ، وهذا مِن بَديعِ الكِنايةِ عن شِدَّةِ ذلك الهولِ؛ لأنَّ استلزامَ ذُهولِ المُرضِعِ عن رَضيعِها لشِدَّةِ الهولِ يَستلزِمُ شِدَّةَ الهولِ لغَيرِها بطَريقِ الأَولى؛ فهو لُزومٌ بدرجةٍ ثانيةٍ، وهذا النَّوعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٨).

(٤) الذُّهولُ عن الشَّيءِ: نِسيانُه والغَفلةُ عنه. والعِلْقُ: النَّفيسُ مِن كُلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٣، ٢١٦).

مِن الكِنايةِ يُسمَّى الإيماءَ[١]. وقولُه: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ هو كِنايةٌ أيضًا كقولِه: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾[٢].

- وقيل: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ دونَ (مُرضِع)؛ لأنَّ المُرضِعةَ: الَّتي هي في حالِ الإرضاعِ مُلْقِمةٌ ثَدْيَها الصَّبيَّ. والمُرضِعُ: الَّتي شأْنُها أنْ تُرضِعَ وإنْ لم تُباشِرِ الإرضاعَ في حالِ وَصْفِها به؛ فمِن شأنِ العربِ إذا ذَكرتِ الأوصافَ المختصَّةَ بالإناثِ فأرادتِ المباشرةَ بالفِعلِ أدْخلتْ عليها التاءَ، وإذا أرادتْ مُطلَقَ الوَصفِ والنَّسَبِ جَرَّدتْها من التاءِ، فإنْ قالوا: هي مُرضِعٌ -يُريدون أنَّها ذاتُ رَضاعٍ- جَرَّدوه مِن التاءِ. وإن قالوا: هي مُرضعةٌ بمعنى أنَّها تَفعَلُ الرَّضاعَ، أي: تُلقِمُ الولدَ الثديَ، قالوا: هي مرضعةٌ -بالتَّاءِ-. فقيل هنا:

(١) الكِناية: هي في اللُّغة: التكلُّمُ بشيءٍ يُرادُ به غيرُه، أو الدَّلالةُ على الشَّيءِ مِن غير تَصريحٍ باسمِه. وفي اصطلاحِ البلاغيِّين: هي لفظٌ أُريدَ به غيرُ مَعناهُ الذي وُضِعَ له، مع جوازِ إرادةِ المعنى، حيثُ يُريدُ المتكلِّمُ إثباتَ معنًى مِن المعاني فلا يَذكُره باللفظِ الموضوعِ له مِن اللُّغةِ، ولكن يَجيءُ إلى معنى هو تاليهِ ورَديفُه في الوجودِ، فيُشيرُ به إليه، ويجعلُه دليلًا عليه؛ فيدُلُّ على المرادِ مِن طريقٍ أولى، مِثل قولهم: «طويل النِّجاد» و«كثير الرماد»؛ يعنون طويلَ القامةِ، وكثيرَ الضِّيافةِ؛ فتوصَّلوا إلى المرادِ بذِكرِ معنًى آخَرَ هو رديفُه في الوجودِ؛ لأنَّ القامةَ إذا طالتْ طال النِّجادُ، وإذا كَثُرَ القِرَى كَثُر الرَّمادُ. والكنايةُ مِن ألطفِ أساليبِ البلاغةِ وأدقِّها، وهي أبلغُ مِن الحَقيقةِ والتصريحِ. وتنقسمُ الكِنايةُ أيضًا باعتبارِ الوسائطِ (اللوازم) والسِّياق إلى أربعةِ أقسام: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء. والإيماءُ أو الإشارة: هو الذي قلَّتْ وسائطُه، مع وضوحِ اللزومِ بلا تعريضٍ، كقولِ الشاعر:

أوَ ما رأيتَ المجدَ ألْقَى رحْلَه ... في آلِ طلحةَ ثُمَّ لمْ يتحوَّلِ

كِناية عن كونِهم: أمجادًا أجوادًا، بغايةِ الوُضوحِ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦- ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٩، ١٩٠).

﴿مُرْضِعَةٍ﴾؛ ليدُلَّ على أنَّ ذلك الهولَ إذا فُوجِئَتْ به هذه وقد أَلْقَمتِ الرَّضيعَ ثَدْيَها نزعَتْهُ عن فِيهِ؛ لِمَا يَلْحَقُها مِن الدَّهشةِ، وهو تصويرٌ بليغٌ يدُلُّ على شِدَّةِ الهولِ؛ لأنَّه لا يُتصوَّرُ في الشفقةِ والحنوِّ أعظمُ حالًا مِن تلك المرضعةِ التي أَلْقَمتْ حبيبَها الثديَ؛ فهي تتدفَّقُ حنانًا، ومع ذلك تذهَلُ عنه إذا رأَتْ تلك الأهوالَ؛ لشِدَّتِها وعظَمتِها، وعلى هذا فقولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ أبلغُ مِن (مُرضِع) في هذا المقام؛ فإنَّ المرأةَ قد تذهَلُ عن الرضيعِ إذا كان غيرَ مُباشِرٍ للرَّضاعةِ، فإذا الْتقَمَ الثديَ واشتغلتْ برَضاعِه لم تذهَلْ عنه إلَّا لأمرٍ أعظمَ عندَها مِن اشتغالِها بالرَّضاعِ[1].

- قولُه: ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ (ما) في قولِه: ﴿عَمَّآ﴾ مَوصولةٌ، والإتيانُ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ في تَعريفِ المَذهولِ عنه دونَ أنْ يقولَ: (عنِ ابْنِها)؛ للدَّلالةِ على أنَّها تَذهَلُ عن شَيءٍ هو نُصْبُ عَينِها، وهي في عمَلٍ مُتعلِّقٍ به، وهو الإرضاعُ؛ زِيادةً في التَّكنِّي عن شِدَّةِ الهولِ. وقيل: إنَّ (مَا) مَصدريَّةٌ، أي: تَذهلُ عنْ إرضاعِها، والأوَّلُ أدَلُّ على شِدَّةِ الهولِ، وكَمالِ الانزعاجِ[2].

- والتَّعبيرُ بـ﴿ذَاتِ حَمۡلٍ﴾ دونَ التَّعبيرِ (بحامِلٍ)؛ لأنَّه الجاري في الاستِعمالِ في الأكثرِ، مع ما في هذه الإضافةِ مِنَ التَّنبيهِ على شِدَّةِ اتِّصالِ الحمْلِ بالحاملِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٠).

فيدُلُّ على أنَّ وَضْعَها إيَّاهُ لسبَبٍ مُفظعٍ[١]. وأيضًا في عُدولِه سُبحانَه عن (كُلِّ حَامِلٍ) سِرٌّ بديعٌ؛ فإنَّ الحامِلَ قد تُطْلَقُ على المُهيَّأةِ للحمْلِ، وعلى مَن هي في أوَّلِ حَمْلِها ومبادئِه، فإذا قيل: (ذاتُ حمْلٍ) لم يكُنْ إلَّا لمَن ظهَرَ حمْلُها وصلَحَ للوضْعِ كاملًا أو سِقطًا، كما يُقالُ: (ذاتُ ولَدٍ)، فأَتَى في المُرضعةِ بالتَّاءِ التي تُحقِّقُ فِعلَ الرَّضاعةِ دونَ التَّهيُّؤِ لها، وأتى في الحامِلِ بالسَّببِ الَّذي يُحقِّقُ وُجودَ الحمْلِ، وقَبولَه للوضْعِ[٢].

- قولُه: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا ... وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ فيه الاختلافُ بالجَمْعيَّةِ والإفرادِ؛ لأنَّ المَرئِيَّ في الأوَّلِ هي الزَّلزلةُ الَّتي يُشاهِدُها الجميعُ، وفي الثَّاني حالُ مَن عدا المُخاطَبِ منهم؛ فلا بُدَّ من إفرادِ المُخاطَبِ على وَجْهٍ يعُمُّ كلَّ واحدٍ منهم؛ لكنْ مِن غيرِ اعتِبارِ اتِّصافِه بتلك الحالةِ؛ فإنَّ المُرادَ بيانُ تأثيرِ الزَّلزلةِ في المَرئيِّ لا في الرَّائي باختلافِ مَشاعِرِه، كأنَّه قيلَ: ويَصيرُ النَّاسُ سُكارى... إلخ. وإنَّما أُوثِرَ عليه ما جاء في التَّنزيلِ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾؛ للإيذانِ بكَمالِ ظُهورِ تلك الحالةِ فيهم، وبُلوغِها من الجلاءِ إلى حَدٍّ لا يَكادُ يَخْفى على أحدٍ[٣]. والمُرادُ مِنَ الأوَّلِ التَّهديدُ بالوُقوعِ، ومن الثَّاني التَّعجُّبُ مِن حالِهم[٤]. وقيل: الخِطابُ في ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ، وهو كلُّ مَن تتأتَّى منه الرُّؤيةُ مِن النَّاسِ؛ فهو مُساوٍ في المعنى للخِطابِ الَّذي في قولِه: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾، وإنَّما أُوثِرَ الإفرادُ هنا للتَّفنُّنِ؛ كَراهيةَ إعادةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٠، ١٩١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (٤/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٣٣).

الجمْعِ[١]. وقيل: قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾ وبَعْدَه: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ مُحَوَّلٌ على (أيَّها المُخاطَبُ)، أي: لو حضَرْتَ أيُّها المُخاطَبُ لرَأيتَه بهذه الصِّفةِ[٢].

- وعُدِلَ عن فِعلِ المُضِيِّ إلى المُضارِعِ في قولِه: ﴿وَتَرَى﴾؛ لاستحضارِ الحالةِ، والتَّعجيبِ منها[٣].

- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ وُصِفَ النَّاسُ بذلك على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، وقولُه بعْدَه: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ قَرينةٌ على قَصْدِ التَّشبيهِ؛ فنَفى عنهم الحقيقةَ -وهي السُّكْرُ مِن الخمْرِ؛ وذلك لِمَا هُم فيه مِن الحيرةِ وتَخليطِ العقْلِ[٤].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ استدراكٌ لِمَا تقدَّمَ مِن الحالةِ اللَّيِّنةِ، وهو الذُّهولُ والوضْعُ ورُؤيةُ النَّاسِ أشباهَ السُّكارى؛ وكأنَّه قيل: وهذه أحوالٌ هيِّنةٌ، ولكنَّ عذابَ اللهِ شَديدٌ، وليس بهيِّنٍ ولا ليِّنٍ[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٣).

الآيتان (٢-٤)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّرِيدٖ﴾: أي: مُتَمَرِّدٍ خارجٍ عن الطَّاعةِ، مُتجرِّدٍ للفَسادِ، وأصلُ (مرد): يدُلُّ على تجريدِ الشَّيءِ مِن قِشرِه، أو ما يَعلوه مِن شَعرِه(١).

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: السعيرُ اسْمٌ مِن أسماءِ جَهَنَّمَ، يُقال: سَعرْتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: ومِن النَّاسِ مَن يجادِلُ في دينِ اللهِ وفي قُدرته تعالى على البَعثِ، مِن غيرِ علمٍ، ويتَّبِعُ كُلَّ شَيطانٍ طاغٍ مُتَمَرِّدٍ على اللهِ ورُسُلِه. قضى اللهُ وقدَّر أنَّ ذلك الشَّيْطانَ يُضِلُّ كُلَّ مَن اتَّبَعه، ولا يَهديه إلى الحَقِّ، بل يَسوقُه إلى عذابِ جَهنَّمَ المُوقَدةِ؛ جَزاءَ اتِّباعِه إيَّاه.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى بيَّن أنَّه معَ هذا التحذيرِ الشَّديدِ بذِكرِ زلزلةِ الساعةِ وشدائدِها، فإنَّ مِن الناسِ مَن يجادلُ في الله بغيرِ علمٍ[(١)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أهوالَ يَومِ القيامةِ؛ ذكَرَ مَن غَفَل عن الجزاءِ في ذلك اليومِ، وكذَّبَ به[(٢)].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ صِنفٌ يجادِلُ في شأنِ اللهِ وفي دينِه بجَهلٍ، من غيرِ علمٍ صحيحٍ، جدلًا ناشئًا عن سوءِ نظرٍ، وسوءِ تفكيرٍ لإحقاقِ الباطلِ وإبطالِ الحقِّ، فينكرُ وحدانيَّةَ اللهِ وقدرتَه على إحياءِ الموتَى، ويُكذِّبُ ما جاءَتْ به رسلُه[(٣)].

﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾.

أي: ويتَّبِعُ الجاهِلُ في جِدالِه في اللهِ بلا عِلمٍ كُلَّ شَيطانٍ عاتٍ طاغٍ مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ، مُتجَرِّدٍ مِنَ الخيرِ، مُتمَرِّدٍ على اللهِ، فيَقبَلُ وَسوَسَته، وينقادُ للعَمَلِ بها بلا تَفكيرٍ ولا تَرَدُّدٍ[(٤)].

﴿ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ ﴾.

أي: قضَى اللهُ على الشَّيطانِ المتَمَرِّدِ وقدَّر أنَّ مَنِ اتَّخَذه وليًّا فأقبَلَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٢، ١٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦١).

واتَّبَعه؛ فإنَّ الشَّيطانَ يُضِلُّه في الدُّنيا عن الحَقِّ، ويَدُلُّه إلى طريقِ النَّارِ المُوقَدةِ ويَدْعوه إليها، فيَسوقُه إلى عَذابِها بما يُزَيِّنُه له مِنَ الباطِلِ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ ذَمٌّ لكلِّ مَن جادلَ في اللهِ بغَيرِ عِلمٍ، وهو دليلٌ على أنَّه جائزٌ بالعِلم، كما فَعَلَ إبراهيمُ بقَومِه(٢)، فهذه الآيةُ بمَفهومِها تدُلُّ على جوازِ المجادلةِ الحَقَّةِ؛ لأنَّ تخصيصَ المجادلةِ مع عدَمِ العلمِ بالدَّلائِلِ يدُلُّ على أنَّ المجادلةَ مع العلمِ جائزةٌ، فالمجادَلةُ الباطلةُ هي المرادُ مِن قَولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ [الزخرف: ٥٨]، والمجادلةُ الحقَّةُ هي المرادُ مِن قَولِه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾(٣) [النحل: ١٢٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ بَيَّنَ سُبحانَه حالَ مَن يُجادِلُ في الدِّينِ بلا عِلمٍ، والعِلمُ: هو ما بَعَث اللهُ به رَسولَه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو: السُّلطانُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ [غافر: ٥٦]، فمَن تكَلَّمَ في الدِّينِ بغَيرِ ما بَعَث اللهُ به رَسولَه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان متكَلِّمًا بغيرِ عِلمٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧، ٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٣، ١٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٩).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ * كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذا الذي يُجادِلُ في اللهِ قد جمَعَ بين ضَلالِه بنَفْسِه، وتصَدِّيهِ إلى إضلالِ النَّاسِ، وهو مُتَّبِعٌ ومُقَلِّدٌ لكُلِّ شَيطانٍ مَريدٍ، ظُلُماتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ! ويدخُلُ في هذا جُمهورُ أهلِ الكُفرِ والبِدَعِ؛ فإنَّ أكثَرَهم مُقَلِّدةٌ، يجادِلونَ بغيرِ عِلمٍ(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ هذا حالُ أهلِ الضَّلالِ والبِدَعِ؛ المُعرِضينَ عن الحَقِّ، المتَّبِعينَ للباطِلِ، يَترُكونَ ما أنزَلَه اللهُ على رَسولِه مِنَ الحَقِّ المُبينِ، ويتَّبِعونَ أقوالَ رُؤوسِ الضَّلالةِ؛ الدُّعاةِ إلى البِدَعِ بالأهواءِ والآراءِ(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ الكِتابةُ في هذه الآيةِ هي كِتابةٌ كَونيَّةٌ، ويُقابِلُها الكِتابةُ الشَّرعيَّةُ الأَمريَّةِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فالأُولى كِتابةٌ بمعنى القَدَرِ، والثَّانيةُ كِتابةٌ بمَعنى الأَمْرِ(٣).

٥- عن مُضارِبِ بنِ إبراهيمَ، قال: (سألتُ الحُسَينَ بنَ الفَضلِ، فقُلتُ: إنَّك تُخرِجُ أمثالَ العَرَبِ والعَجَمِ مِنَ القُرآنِ، فهل تجِدُ في كتابِ اللهِ: «مَن أعان ظالِمًا سُلِّطَ عليه»؟ قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾)(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٤/ ٤٨، ٤٩).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ * كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والجَهميَّةِ؛ إذ هو يقولُ جلَّ جَلالُه نصًّا مِن غَيرِ تأويلٍ: إنَّ الشَّيطانَ يُضِلُّ وَلِيَّه، ويَهدِيه إلى عذابِ السَّعيرِ بما كتَبَه عليه مِن ذلك[1].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ ...﴾ كَلامٌ مُبتدأٌ جِيءَ به بعدَ بَيانِ عَظيمِ شأْنِ السَّاعةِ المُنبئةِ عن البعثِ؛ بيانًا لحالِ بَعضِ المُنكِرينَ لها[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه التَّعبيرُ بلفْظِ الهِدايةِ على سَبيلِ التَّهكُّمِ[3]. ولمَّا كان الضَّلالُ مُشتهِرًا في معنى البُعْدِ عن الخيرِ والصَّلاحِ، لم يُحْتَجْ في هذه الآيةِ إلى ذِكرِ مُتعلَّقِ فِعْلِ ﴿يُضِلُّهُۥ﴾؛ لظُهورِ المعنى. وذُكِرَ مُتعلِّقُ فِعْلِ ﴿يَهْدِيه﴾، وهو: إلى ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ لأنَّ تعلُّقَه به غريبٌ؛ إذِ الشَّأْنُ أنْ يكونَ الهُدى إلى ما يَنفَعُ، لا إلى ما يَضُرُّ ويُعذِّبُ[4].



(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٥).

الآيات (٥-٧)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ
ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ
إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى
وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ
هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ
بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا
وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَيْبٍ﴾: الرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو الشَّكُّ معَ الخَوفِ، ومعَ تُهمةِ المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيءِ، والرَّيبُ مصدرُ رابني الشيءُ: إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وهي قلقُ النفْسِ واضطرابُها(١).

﴿نُطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: هي المنيُّ، وقيل: الماءُ الصَّافي(٢)، وقيل: الماءُ القليلُ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٢) وقال الشنقيطي: (النُّطْفَةُ مختلِطةٌ مِنْ ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لمنْ زَعَم أنَّها مِنْ ماءِ الرَّجلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدليلَ على ذلك، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِنْ ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

﴿عَلَقَةٍ﴾: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ(١).

﴿مُّضۡغَةٍ﴾: المُضْغةُ: القِطعةُ الصَّغيرةُ مِن اللَّحمِ قَدْرَ ما يُمضَغُ، وأصلُها: مِن المَضْغِ(٢).

﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾: أي: مخلوقةٍ تامَّةِ الخَلقِ، وأصلُ (خلق): يدلُّ على تقديرِ الشَّيءِ(٣).

﴿وَنُقِرُّ﴾: أي: نُثبِّتُ، وأصلُه يدُلُّ على التمَكُّنِ(٤).

﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾: أي: سِنَّ الفُتُوَّةِ واستِجماعِ القُوى، وأصلُه مِنَ الشِّدَّةِ والقُوَّةِ والجَلادةِ، وقيلَ: أصلُه الارتفاعُ؛ مِن: شَدَّ النَّهارُ، إذا ارْتفَع(٥).

﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾: أي: أرْدَئِه، وهو الهَرَمُ والخَرَفُ؛ لأنَّ الهَرَمَ أسوأُ العُمُرِ وشَرُّه، والأرذَلُ مِن كُلِّ شَيءٍ: الرَّديءُ منه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٧٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠١).
قال أبو حيان: (وأشُدُّ جمعُ شِدَّةٍ أو شَدٍّ أو شُدٍّ، أو جمعٌ لا واحدَ له مِن لفظِه، أو مُفردٌ لا جمعَ له؛ أقوالٌ خمسةٌ). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٩).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٧)، =

﴿هَامِدَةً﴾: أي: مَيْتةً يابِسةً، لا نباتَ فيها، وأصلُ (همد): يدُلُّ على خُمودِ شَيءٍ[١].

﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: أي: تحرَّكَت بالنَّباتِ عندَ وقوعِ الماءِ عليها، وأصلُ (هزز): يدُلُّ على اضطرابٍ في شَيءٍ وحَركةٍ[٢].

﴿وَرَبَتْ﴾: أي: انتَفَخَت وعَلَت وزادت، وأصلُ (ربا): يدُلُّ على الزِّيادةِ والنَّماءِ والعُلُوِّ[٣].

﴿زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾: أي: جِنسٍ وصِنفٍ حَسَنٍ، والبَهيجُ بمعنى المُبهِجِ، وهو الحَسَنُ الصُّورةِ الذي تُمتِّعُ العَينُ برُؤيتِه؛ مِن البَهجةِ: أي: حُسنِ الشَّيءِ ونَضارَتِه، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها النَّاسُ، إنْ كُنتُم في شَكٍّ مِن أنَّ اللهَ يُحيي الموتى،

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٢٨١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٧٤).

فإنَّا خلقْنا أباكم آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ تناسَلَت ذُرِّيَّته مِن مَنِيٍّ، فيتحَوَّلُ بقُدرةِ اللهِ إلى عَلَقةٍ، وهي قِطعةُ دَمٍ حمراءُ جامِدةٌ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ، ثمَّ إلى مُضغةٍ -وهي قِطعةُ لَحمٍ صَغيرةٌ قَدْرَ ما يُمضَغُ-، مخلَّقةٍ وغَيرِ مُخلَّقةٍ؛ لنبيِّنَ لكم تَمامَ قُدرَتِنا. ونُبقي في الأرحامِ ما نشاءُ مِن الأجنَّةِ إلى وَقتِ ولادتِه، ثم نخرِجُكم مِن بطونِ أمَّهاتِكم أطفالًا صِغارًا، ثم تكبَرُون حتى تَبلُغوا الأشُدَّ، وهو وَقتُ اكتِمالِ القُوَّةِ والعَقلِ، ومِنكم مَن يَموتُ قبْلَ ذلك، ومِنكم مَن يَكبَرُ حتى يبلُغَ سِنَّ الهَرَمِ وضَعْفِ العَقلِ، فلا يعلَمُ هذا المعمَّرُ شَيئًا مِمَّا كان يَعلَمُه قبْلَ ذلك!

وترى الأرضَ يابِسةً مَيْتةً لا نباتَ فيها، فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ تحَرَّكَت بالنَّباتِ وارتفَعَت وانتفَخَت، وأنبَتَت مِن كلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ النَّباتِ الحَسَنِ الذي يَسُرُّ النَّاظِرينَ. ذلك المذكورُ مِمَّا تقدَّمَ مِن آياتِ قُدرةِ اللهِ تعالى؛ لِتَعلَموا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو الحقُّ، الذي لا تَنبغي العبادةُ إلَّا له، وأنَّه يُحيي الموتى، وهو قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ سُبحانَه عن الكافِرينَ الجِدالَ بغَيرِ العِلمِ في إثباتِ الحَشرِ

والنَّشرِ، وذَمَّهم عليه، أورَدَ الدَّلالةَ على صِحَّةِ ذلك[١]؛ فقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، إنْ كُنتُم في شَكٍّ واشتِباهٍ مِن قُدرَتي على بَعْثِكم بعدَ مَوتِكم، فتَذَكَّروا أنَّني خلقْتُ أباكم آدَمَ مِن ترابٍ؛ فالذي قدَرَ على خَلقِكم أوَّلًا قادِرٌ على خَلْقِكم ثانيًا[٢].

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾.

أي: ثمَّ خَلَقْناكم -يا بَني آدَمَ- مِن مَنيٍّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٤٠].

﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾.

أي: ثمَّ خَلَقْناكم مِن قِطعةِ دَمٍ حمراءَ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦١)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨، ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٥).

قال الشنقيطي: (التحقيقُ في معنى خَلْقِه للنَّاسِ مِن ترابٍ: أنَّه خلق أباهم آدَمَ منه، ثمَّ خلق منه زَوجَه، ثمَّ خَلَقَهم منهما عن طريقِ التناسُلِ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فلمَّا كان أصلُهم الأوَّلُ مِن تراب، أَطلَق عليهم أنَّه خلَقَهم من ترابٍ؛ لأنَّ الفُروعَ تَبَعٌ للأصلِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير الشعراوي)) (١٦/ ٩٧٠٦).

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾.

أي: ثمَّ خَلَقْناكم مِن قِطعةِ لَحمٍ صَغيرةٍ بمِقدارِ ما يُمضَغُ، مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ(1).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦١ - ٤٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٦ - ٢٦٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمُخَلَّقةِ: المُصَوَّرةُ خَلقًا تامًّا، وأنَّ غَيرَ المُخَلَّقةِ تعني السِّقْطَ قبلَ تمامِ خَلْقِه: ابنُ جرير، والواحدي -ونسبه للأكثرينَ-، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣).

قال ابنُ جَرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب: قولُ مَن قال: «المُخلَّقَة» المُصوَّرة خلقًا تامًّا، و﴿غيرُ مُخلَّقة﴾: السِّقْطُ قَبلَ تَمام خَلْقه؛ لأنَّ المُخلَّقةَ وغيرَ المُخلَّقةِ مِن نعْت المُضغَةِ، والنُّطفةُ بعدَ مَصيرها مُضغةً لم يَبقَ لها حالٌ -حتَّى تصيرَ خَلقًا سويًّا- إلَّا التصويرَ، وذلك هو المرادُ بقوله: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]؛ خلقًا سويًّا، وغيرَ مُخلَّقة بأنْ تُلقيَه الأمُّ مُضغةً، ولا يُصَوَّرُ، ولا يُنفَخُ فيها الرُّوحُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٣).

قال الواحديُّ: (ويدلُّ على صحَّة هذا التفسيرِ: ما رَوَى عَلْقمةُ، عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ: «إذا وقعتِ النُّطفةُ في الرَّحمِ بعَث اللهُ عَزَّ وجَلَّ مَلَكًا، فقال: يا ربِّ، مُخلَّقةٌ أمْ غيرُ مُخلَّقةٍ؟ فإنْ قال: غيرُ مُخلَّقةٍ، مجَّتْها الأرحامُ، وإنْ قال: مُخلَّقةٌ، قال: يا ربِّ، ما صِفةُ هذه النُّطفةِ؟ أذَكَرٌ أمْ أُنثى؟ ما رِزقُها؟ ما أجَلُها؟ أشقيٌّ أم سعيدٌ؟»). ((البسيط)) (١٥/ ٢٦١).

قال الشِّنقيطيُّ: (هذا القولُ الذي اختارَه الإمامُ الجَليلُ الطبريُّ رحمه الله تعالى، لا يَظهَر صوابُه، وفي نفْسِ الآيةِ الكريمةِ قرينةٌ تدُلُّ على ذلك، وهي قولُه جلَّ وعلا في أوَّلِ الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]؛ لأنَّه على القولِ المذكورِ الذي اختاره الطبريُّ يصير المعنى: ثُم خلَقْناكم مِن مُضغةٍ مُخلَّقةٍ، وخلَقْناكم مِن مُضغةٍ غيرِ مُخلَّقةٍ. وخطابُ الناس بأنَّ الله خَلَق بعضَهم مِن مُضغةٍ غيرِ مُصوَّرةٍ، فيه مِن التناقُض كما ترَى؛ فافهَمْ.

فإنْ قيل: في نفْسِ الآيةِ الكريمةِ قرينةٌ تدُلُّ على أنَّ المرادَ بغيرِ المخلَّقةِ: السِّقْطُ؛ لأنَّ قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] يُفهمُ منه أنَّ هناك قِسمًا آخَرَ =

= لا يُقِرُّه اللهُ في الأرحامِ إلى ذلك الأجلِ المسمَّى، وهو السِّقطُ؟
فالجوابُ: أنَّه لا يتعيَّنُ فَهْمُ السِّقْطِ مِن الآيةِ؛ لأنَّ اللهَ يُقِرُّ في الأرحام ما يشاءُ أنْ يُقِرَّه إلى أجلٍ مسمًّى؛ فقد يُقِرُّه سِتَّةَ أشهرٍ، وقد يُقِرُّه تِسعةً، وقد يُقِرُّه أكثرَ مِن ذلك كيفَ شاء.
أمَّا السِّقطُ: فقد دلَّتِ الآيةُ على أنَّه غيرُ مرادٍ، بدليلِ قولِه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾؛ لأنَّ السِّقطَ الذي تُلقيه أمُّه ميِّتًا -ولو بعدَ التشكيلِ والتخطيطِ- لم يَخلُقِ اللهُ منه إنسانًا واحدًا مِن المخاطَبينَ بقولِه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآيةَ؛ فظاهرُ القرآنِ يَقتضي أنَّ كُلًّا مِن المخلَّقةِ وغيرِ المخلَّقةِ: يُخلَقُ منه بعضُ المخاطبين في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ الآيةَ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٧).
وقال الواحديُّ: (قال ابن الأعرابي: ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾ قد بدَا خَلقُه، ﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ بعدُ لم يُصوَّر... وأمَّا أهلُ التفسيرِ: فإنَّ مُجاهدًا والسُّدِّيَّ اتَّفقَا على أنَّ المخلَّقةَ وغيرَ المخلقةِ: يعني بهما السِّقطَ... وذهب آخرون إلى أنَّ المخلَّقةَ في غيرِ السِّقطِ، وغيرَ المخلَّقة: هو السقطُ... وعلى هذا القولِ معنى «المخلَّقة»: المخلوقةُ...
وفي هذا مذهبٌ ثالثٌ، وهو: أنَّ المُخلَّقةَ وغيرَ المُخلَّقة كِلاهما مِن صِفة الولدِ الذي يُولد، وليسَا ولا أحدُهما مِن صفةِ السِّقطِ، وهو مذهبُ قَتادةَ، واختيارُ أبي إسحاقَ وثَعلبٍ). يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٥٩).
وقيل: المرادُ: يَخلُق المُضَغَ متفاوِتةً؛ منها ما هو كاملُ الخِلقةِ، أملَسُ مِن العيوبِ، ومنها ما هو على عكسِ ذلك، فيَتبعُ ذلك التفاوتَ تفاوتُ الناسِ في خَلقِهم وصُوَرِهم، وطُولهم وقِصَرِهم، وتَمامِهم ونُقصانِهم. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٨).
وقال الرازيُّ في بيانِ ترجيح هذا القولِ: (لأنَّه تعالى قال في أوَّلِ الآيةِ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾، وأشار إلى الناسِ؛ فيجبُ أنْ تُحمَلَ ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ على مَن سيصيرُ إنسانًا، وذلك يَبعُدُ في السِّقطِ؛ لأنَّه قد يكون سِقطًا ولم يتكامَلْ فيه الخِلقةُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٤).
واختاره محيي الدين زاده، وقال: (لأنَّه أوفَقُ لبناءِ التَّفعيلِ الدَّالِّ على تكثيرِ الخَلقِ؛ فإنَّ الإنسانَ ذو أعضاءٍ مُتبايِنةٍ، وقُوًى مُتفاوِتةٍ، فإذا كَمَل فيه جميعُ ما يَتِمُّ به خِلقةُ النَّوعِ فقد كثُرَ فيه الخَلقُ). ((حاشية زاده على البيضاوي)) (٦/ ٨٩).
وقال ابن عاشور: (فقوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ صِفةُ ﴿مُّضۡغَةٖ﴾، وذلك تطوُّرٌ مِن تطوُّرات المُضغةِ...؛ ولذلك لم يَذكر مِثلَ هذين الوصفين عند ذِكر النُّطفةِ والعَلَقةِ؛ إذ ليس =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثنا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك، ثم يَبعَثُ اللهُ ملَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقِيٌّ أو سَعيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))[1].

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

أي: لنُعَرِّفَكم بابتداءِ خَلْقِكم، ونُظهِرَ لكم قُدرَتَنا[2].

= لهما مِثلُ هذين الوصفينِ، بخِلافِ المُضغةِ. وإذ قد جُعِلت المضغةُ مِن مبادِئ الخلقِ تَعيَّن أنَّ كِلَا الوصفين لازِمان للمُضغةِ؛ فلا يستقيم تفسيرُ مَن فسَّر «غير المخلَّقة» بأنها التي لم يَكمُلْ خلْقُها فسقَطتْ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٨، ١٩٩).

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٩).

قيل: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ متعلِّقٌ بجعلِ المضغةِ مخلَّقةً وغيرَ مخلَّقةٍ. وذهب إليه ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٣).

وقيل: متعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿خَلَقْنَاكُم﴾ في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾. وممن قال بذلك: أبو حيان، وأبو السعود، والألوسي، واستَظْهره الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٩).

وقال ابن جزي: (﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ اللامُ تتعلَّقُ بمحذوفٍ تقديرُه: ذكَرْنا ذلك لنُبيِّنَ لكم قدرتَنا على البعثِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤١٢).

وقال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ اختلَفوا في مفعولِ التَّبيينِ؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ: لِنُبَيِّنَ لكم ما تأتُون وما تَذَرون. يعني أنَّ اللهَ تعالى خَلَق بني آدَمَ لِيُبَيِّنَ لهم ما يَحتاجون إليه في العبادةِ. وقال الزَّجَّاجُ: أي: ذكَرْنا أحوالَ خَلقِ الإنسانِ لِنُبَيِّنَ لكم قُدرتَنا على ما نَشاءُ، =

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

أي: ونُثبِتُ في أرحامِ الأمَّهاتِ ما نشاءُ إبقاءَه مِن الأجِنَّةِ إلى الوَقتِ الذي قدَّرْناه للوِلادةِ[1].

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

أي: ثمَّ نُخرِجُكم مِن بُطونِ أمَّهاتِكم -إذا بلَغْتُمُ الأجَلَ الذي قدَّرْناه لخُروجِكم منها- أطفالًا[2].

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾.

أي: ثمَّ لِتَبلُغوا بالتَّدريجِ كَمالَ قُوَّتِكم وعُقولِكم[3].

= ونُعرِّفَكم ابتداءَنا خَلقَكم. وقال صاحبُ النظمِ [أبو عليٍّ الجُرْجانيُّ]: لِنُبيِّنَ لكم أنَّ البعثَ حقٌّ، يدُلُّ على هذا أنَ الآيةَ أُنزلتْ دَلالةً على البعثِ. وقال ابنُ مسلمٍ: لِنُبيِّنَ لكم كيف نَخلُقُكم في الأرحامِ. وقال أهلُ المعاني: لِنَدُلَّكم على مَقدورِنا بتصريفِ ضُروبِ الخَلقِ). ((البسيط)) (١٥/ ٢٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٩).
قال الشِّنقيطيُّ: (الأَجِنَّةُ تختَلِفُ في ذلك حسبَما يشاؤُه اللهُ جلَّ وعلا؛ فتارةً تَضعُه أمُّه لسِتَّةِ أشهُرٍ، وتارةً لِتسعةٍ، وتارةً لأكثرَ مِن ذلك. وما لم يشأِ اللهُ إقرارَه مِن الحَملِ مَجَّتْه الأرحامُ وأسقَطَتْه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣).
قال البِقاعيُّ: (﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ بعدَ ذلك ﴿طِفْلًا﴾ أي: في حالِ الطُّفولةِ؛ مِن صِغَرِ الجُثَّةِ، وضَعْفِ البَدَنِ والسَّمعِ والبَصَرِ، وجميعِ الحواسِّ؛ لئلَّا تُهلِكوا أُمَّهاتِكم بكِبَرِ أجرامِكم، وعِظَمِ أجسامِكم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٩). =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

أي: ومِنكم -أيُّها النَّاسُ- مَن يموتُ قَبلَ أن يبلُغَ أشُدَّه، ومنكم مَن يُؤخَّرُ مَوتُه إلى أن يَبلُغَ أخسَّ العُمُرِ وأدْوَنَه، فيَصيرُ ضَعيفًا في بَدَنِه وعَقْلِه، لا علمَ له ولا فَهمَ، بعد أن كان قَوِيًّا ذا فَهمٍ وعِلمٍ بالأشياءِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ

= قال ابنُ عطيَّة: (اختلف الناسُ في «الأَشُدِّ» مِن ثمانيةَ عشَرَ إلى ثلاثين، إلى اثنين وثلاثين، إلى سِتَّة وثلاثين، إلى أربعين، إلى خمسةٍ وأربعين، واللفظةُ تُقال باشتراك، فأَشُدُّ الإنسان على العموم غيرُ أشدِّ اليتيمِ الذي هو الاحتلامُ، والأشدُّ في هذه الآية يَحتمِلُ المَعنيَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٩٢).

وقال السمعاني: (الأكثرونَ على أنَّ الأشُدَّ: ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً، وإليها تَنْتهي، يعني: قوَّةَ الشَّبابِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٠).

وقال ابن جزي: (﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ هو كمالُ القوَّةِ والعقلِ والتمييز، وقد اختُلِف فيه مِن ثماني عشْرةَ سنةً إلى خمسٍ وأربعينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٠).

جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ ﴾ [يس: ٦٨].

ثمَّ ذكَر برهانًا قاطعًا آخرَ على البعثِ[1]، فقال:

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ ﴾.

أي: وترى[2] الأرضَ يابسةً قاحِلةً ساكِنةً سُكونَ الأمواتِ، لا نباتَ فيها ولا زَرْعَ، فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ[3] تحرَّكَتْ بالنَّباتِ[4]، ....

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٨).

(٢) قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿وَتَرَى﴾ أي: يا نبيَّ اللهِ. وقيل: وترى أيُّها الإنسانُ المُخاطَبُ، وهي رؤيةٌ بصَريَّةٌ تتعَدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٢).

(٣) قيل: المراد به: المطَرُ من السَّماءِ. قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٦).
وقيل: أعَمُّ من ذلك، سواءٌ كان مِن المطَرِ، أو الأنهارِ، أو العيونِ، أو السَّواني. وممن اختاره: أبو حيان، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٨).

(٤) قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: تحَرَّكت بالنَّباتِ، والمعنى على هذا: تحَرَّكَت بالنَّباتِ عند وُقوعِ الماءِ؛ وذلك أنَّ الأرضَ ترتَفِعُ عن النَّباتِ إذا ظَهَر، فذلك تحرُّكُها، وهو معنى قَولِه: ﴿وَرَبَتۡ﴾، أي: ارتَفَعت وزادت). ((البسيط)) (١٥/ ٢٧٣).
وقال أبو حيان: (واهتزازُها: تخلخلُها، واضطرابُ بعضِ أجسامِها؛ لأجلِ خروجِ النباتِ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٧).
وقال القرطبي: (فالأرضُ تهتزُّ بالنباتِ؛ لأنَّ النباتَ لا يخرجُ منها حتَّى يزيلَ بعضَها مِن بعضٍ إزالةً خفيَّةً). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣).

وقال السَّمعاني: (وقيلَ: في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ، ومعناه: ورَبَت واهتزَّت، ويقالُ: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي: النَّباتُ، ﴿وَرَبَتۡ﴾ أي: ارتفَع، وإنَّما أنَّث؛ لِذِكرِ الأرضِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٢٢).
وقال الشِّنقيطي: (﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي: تحرَّكت بالنباتِ. ولَمَّا كان النباتُ نابتًا فيها، متَّصلًا بها، كان اهتزازُه كأنَّه اهتزازُها؛ فأُطلِق عليها بهذا الاعتبارِ أنَّها اهتزَّت بالنبات. وهذا أسلوبٌ عربيٌّ =

وارتفَعَت وانتفَخَت[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

أي: وأخرجَت الأرضُ بذلك الماءِ مِن كُلِّ صِنفٍ حَسَنٍ يَسُرُّ النَّاظرينَ مِن أصنافِ النَّباتاتِ والزُّروعِ والثِّمارِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٦﴾.

= معروف). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٢، ٢٠٣).

قال ابن عاشور: (ورَبَت: حصَل لها رُبُوٌّ -بضمِّ الراء، وضمِّ الموحَّدةِ- وهو ازديادُ الشيء؛ يُقال: رَبَا يَربُو رُبُوًّا، وفُسِّر هنا بانتفاخ الأرض مِن تفتُّق النبتِ والشجرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٣).

واستظهَر الشنقيطيُّ أنَّ معنى الزيادةِ الحاصلةِ في الأرضِ، هي أنَّ النباتَ لَمَّا كان نابتًا فيها متَّصلًا بها صارَ كأنَّه زيادةٌ حصَلتْ في نفْسِ الأرضِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَرَّر اللهُ سُبحانَه الدَّليلَينِ السَّابِقَينِ، رَتَّب عليهما ما هو المَطلوبُ والنَّتيجةُ(١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: ذلك الذي ذكَرْنا لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن أطوارِ خَلْقِكم، وإحياءِ الأرضِ بالماءِ بعدَ مَوتِها؛ لِتَعلَموا بأنَّ الذي قدَرَ على فِعلِ ذلك هو الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه، الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه؛ فعِبادتُه حَقٌّ، وعِبادةُ ما سِواهُ باطِلةٌ(٢).

﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

أي: ولِتَعلَموا بأنَّ الذي قَدَرَ على تلك الأشياءِ العَجيبةِ قادِرٌ على إحياءِ الموتَى(٣).

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قادِرٌ لا يُعجِزُه شَيءٌ مِنَ البَعثِ وغَيرِه(٤).

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).
وممن قال بالمعنى المذكورِ لكَلِمةِ الحقِّ هنا: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: المصدران السابقان.
ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٥).
وقال الواحدي: (يعني أنَّ جميعَ ما يأمُرُ به ويفعلُه هو الحَقُّ لا الباطِلُ). ((البسيط)) (١٥/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾.

أي: ولِتُوقنوا بأنَّ القيامةَ قادِمةٌ، لا شَكَّ ولا اشتِباهَ في وقوعِها(١).

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ يُحيي الموتى مِن قُبورِهم، فيُخرِجُهم إلى مَوقِفِ الحِسابِ؛ لِيُجازِيَهم بأعمالِهم؛ خَيرِها، وشَرِّها(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

إذا تأمَّلتَ ما دَعَا اللهُ سُبحانَه في كتابِه عِبادَه إلى الفِكرِ فيه، أوقَعَك على العِلمِ به سُبحانَه وتعالى وبوَحدانيَّتِه، وصِفاتِ كَمالِه ونُعوتِ جَلالِه؛ من عُمومِ قُدرتِه وعِلمِه، وكَمالِ حِكمتِه ورَحمتِه، وإحسانِه وبِرِّه، ولُطْفِه وعَدْلِه، ورِضاهُ وغَضَبِه، وثوابِه وعِقابِه؛ فبهذا تعرَّف إلى عبادِه، وندَبَهم إلى التفَكُّرِ في آياتِه، ونذكُرُ لذلك أمثِلةً مِمَّا ذكَرَها اللهُ سُبحانَه في كتابِه، يُستَدَلُّ بها على غَيرِها؛ فمن ذلك: خَلقُ الإنسانِ، وقد نَدَبَ سُبحانَه إلى التفَكُّرِ فيه والنَّظَرِ، في غيرِ مَوضِعٍ مِن كِتابِه؛ كقَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥]، وقولِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[١] [الذاريات: ٢١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾، في جَعلِ كُلِّ واحِدةٍ مِن هذه المراتِبِ مَبدأً لخَلقِهم لا لخَلقِ ما بَعدَها مِنَ المراتِبِ -كما في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾ [المؤمنون: ١٤]- مزيدُ دَلالةٍ على عَظيمِ قُدرَتِه تعالى، وكَسرٌ لِسَورةِ استِبعادِهم[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ استدلَّ به مَن قال باستواءِ غيرِ المُخَلَّقةِ مع المخلَّقةِ في إثباتِ الولَدِ، وانقضاءِ العِدةِ، ووجوبِ الغُرَّةِ[٣]؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ أنَّ غيرَ المخلَّقةِ لها حُكمُ المخَلَّقةِ[٤]، وهذا على أحدِ الأقوالِ في معنى الآيةِ.

٣- إذا قيل: ما وجهُ الإفرادِ في قَولِه: ﴿يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ مع أنَّ المعنى نخرِجُكم أطفالًا؟

فالجوابُ من أوجهٍ:

منها: أنَّ من أساليبِ اللُّغةِ العربيةِ التي نزَل بها القرآنُ أنَّ المفردَ إذا كان اسمَ جِنسٍ، يكثُرُ إطلاقُه مرادًا به الجَمعُ مع تنكيرِه -كما في هذه الآيةِ- فمِن أمثلتِه

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).

(٣) الغُرَّةُ: عَبدٌ أو أَمَةٌ، وهو اسمٌ لكُلِّ واحِدٍ منهما، كأنَّه عبَّرَ بالغُرَّةِ عن الجِسمِ كُلِّه، كما قالوا: أعتَقَ رَقَبةً. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨١).

في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ [القمر: ٥٤] أي: وأنهارٍ، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمد: ١٥]؛ وقولُه: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] أي: أئمَّةً، وقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ [النساء: ٤] أي: أنفُسًا، وقولُه تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩] أي: رُفَقاءَ، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] أي: مظاهِرونَ[١].

ومنها: أنَّه أفرده؛ لأنَّه مصدرٌ في الأصلِ مِثلُ عَدلٍ، فيستوي فيه الواحِدُ وغيرُه.

ومنها: أنَّه أفرده باعتبارِ كلِّ واحدٍ منهم، أي: يُخرِجُ كُلَّ واحدٍ منكم طِفلًا[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾، جُعِلَ بُلوغُ الأشُدِّ عِلَّةً؛ لأنَّه أقْوى أطوارِ الإنسانِ، وأجْلَى مَظاهِرِ مَواهِبِه في الجِسْمِ والعقلِ، وهو الجانِبُ الأهَمُّ، كما أومَأَ إلى ذلك قولُه بعْدَ هذا: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾، فجعَلَ (الأشُدَّ) كأنَّه الغايةُ المقصودةُ مِن تَطويرِه[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ فيه سؤالٌ: كيفَ قال: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾، مع أنَّه يعلَمُ بعضَ الأشياءِ كالطِّفلِ؟ **الجواب**: المرادُ أنَّه يزولُ عَقلُه، فيصيرُ كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٠).

لا يَعلمُ شيئًا؛ لأنَّ مِثلَ ذلك قد يُذكَرُ في النفيِ لأجلِ المبالَغةِ[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ جُعِلَ انتفاءُ عِلْمِ الإنسانِ عندَ أرذَلِ العُمرِ عِلَّةً لِرَدِّه إلى أرذَلِ العُمرِ، باعتبارِ أنَّه عِلَّةٌ غائيَّةٌ لذلك؛ لأنَّه ممَّا اقتضَتْهُ حِكْمةُ اللهِ في نِظامِ الخَلْقِ؛ فكان حُصولُه مَقصودًا عندَ رَدِّ الإنسانِ إلى أرذَلِ العُمرِ، فإنَّ ضَعْفَ القُوى الجِسميَّةِ يَستتبِعُ ضَعْفَ القُوى العَقليَّةِ[٢].

٧- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ ارتقاءٌ في الاستدلالِ على الإحياءِ بعْدَ الموتِ بقياسِ التَّمثيلِ[٣]؛ لأنَّه استدلالٌ بحالةٍ مُشاهَدةٍ؛ فلذلك افتُتِحَ بفِعْلِ الرُّؤيةِ، بخلافِ الاستدلالِ بخَلْقِ الإنسانِ؛ فإنَّ مَبدأَهُ غيرُ مُشاهَدٍ، فقيل في شأْنِه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآيةَ. ومَحلُّ الاستدلالِ مِن قولِه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾؛ فهو مُناسِبٌ قولَه في الاستدلالِ الأوَّلِ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ فهُمودُ الأرضِ بمَنزِلةِ موتِ الإنسانِ، واهتزازُها وإنباتُها بعْدَ ذلك يُماثِلُ الإحياءَ بعْدَ الموتِ[٤].

٨- في قولِه تعالى مِن أوَّلِ سُورةِ الحجِّ إلى قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٢).

(٣) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٣).

﴿ٱلْقُبُورِ﴾ خَمْسُ نَتائِجَ، تُسْتَنْتَجُ مِن عَشْرِ مُقدِّماتٍ:

أولًا: قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، ثبَتَ عندنا بالخبرِ المتواترِ أنَّه سُبحانَه أخبَرَ بزلزلةِ السَّاعةِ مُعظِّمًا لها، وذلك مقطوعٌ بصِحَّتِه؛ لأنَّه خبَرٌ أخبَرَ به مَن ثبَتَ صِدقُه عمَّن ثبَتَتْ قُدرتُه، فهو حَقٌّ، ولا يُخبِرُ بالحقِّ عمَّا سيكونُ إلَّا الحقُّ؛ فاللهُ هو الحقُّ.

ثانيًا: أخبَرَ سُبحانَه أنَّه يُحْيي الموتى؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ عن أهْوالِ السَّاعةِ بما أخبَرَ، وحُصولُ فائدةِ هذا الخبرِ مَوقوفةٌ على إحياءِ الموتى لِيُشاهِدوا تلك الأهوالَ، وقد ثبَتَ أنَّه قادرٌ على كلِّ شَيءٍ، ومن هذه الأشياءِ إحياءُ الموتى.

ثالثًا: أخبَرَ أنَّه على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ؛ لأنَّه أخبَرَ أنَّه مَن يَتَّبِعِ الشَّياطينَ ومَن يُجادِلْ فيه بغيرِ علْمٍ يُذِقْهُ عذابَ السَّعيرِ، ولا يَقدِرُ على ذلك إلَّا مَن هو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

رابعًا: أخبَرَ أنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا رَيبَ فيها؛ لأنَّه أخبَرَ بالخبرِ الصَّادقِ أنَّه خلَقَ الإنسانَ مِن تُرابٍ إلى قولِه: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، ومَن خلَقَ الإنسانَ على ما أخبَرَ به، فأوجَدَهُ بالخلْقِ ثمَّ أعدَمَهُ بالموتِ، ثمَّ يُعِيده بالبعثِ، وكذلك فِعْلُه في الأرضِ المواتِ، وصدَقَ خَبرُه في ذلك كلِّه بدَلالةِ الواقعِ الشَّاهدِ على المُتوقَّعِ الغائبِ حتَّى انقلَبَ الخبَرُ عِيانًا؛ صدَقَ خبَرُهُ في الإتيانِ بالسَّاعةِ.

خامسًا: لا تأتي السَّاعةُ إلَّا ببَعثِ مَن في القُبورِ، وهو سُبحانَه يَبعَثُ مَن في القُبورِ[١].

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٤/ ٦١)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (١/ ٣٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٩٧، ٣٩٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ للعَهْدِ، والمعهودُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ التَّعبيرُ عن اعتقادِهم في حَقِّه بالرَّيبِ مع التَّنكيرِ المُنْبِئِ عن القلَّةِ، معَ أنَّهم جازِمونَ باستحالتِه، وإيرادُ كلمةِ الشَّكِّ مع تَقرُّرِ حالِهم في ذلك، وإيثارُ ما عليهِ النَّظْمُ الكريمُ عَلى أنْ يُقالَ: (إنِ ارتبْتُم في البعثِ)؛ إمَّا للإيذانِ بأنَّ أقْصى ما يُمكِنُ صُدورُه عنهم -وإنْ كانوا في غايةِ ما يكونُ من المُكابَرةِ والعِنادِ- هو الارتيابُ في شأْنِه، وأمَّا الجزمُ المذكورُ فخارِجٌ مِن دائرةِ الاحتمالِ، كما أنَّ تَنكيرَه وتَصديرَه بكلمةِ الشَّكِّ؛ للإشعارِ بأنَّ حَقَّه أنْ يكونَ ضَعيفًا مَشكوكَ الوُقوعِ، وإمَّا للتَّنبيهِ على أنَّ جَزْمَهم ذلك بمَنزِلةِ الرَّيبِ الضَّعيفِ؛ لكَمالِ وُضوحِ دَلائلِ الإعجازِ ونِهايةِ قُوَّتِها، وإنَّما لم يَقُلْ: (وإنِ ارتبْتُم في البعثِ...)؛ للمُبالغةِ في تَنزيهِ الإيمانِ بالبَعثِ عن شائبةِ وُقوعِ الرَّيبِ فيه، والإشعارِ بأنَّ ذلك إنْ وقَعَ فمِن جِهَتِهم لا مِن جِهَتِه العاليةِ، واعتبارُ استقرارِهم فيه وإحاطتُه بهم لا يُنافي اعتبارَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٣٩).

ضَعْفِه وقِلَّتِه؛ لِمَا أنَّ ما يَقْتضيه ذلك هو دوامُ مُلابسَتِهم به، لا قُوَّتُه وكَثرتُه[١].

- قولُه: ﴿خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ...﴾ عُطِفَتِ النُّطفةُ بـ (ثُمَّ)؛ لأنَّ الَّذي خُلِقَ من تُرابٍ هو أصْلُ النَّوعِ، وهو آدمُ عليه السَّلامُ، وسُلِّطَ الفِعلُ عليهم من حيث هُم مِن ذُرِّيتِه، وخُلِقتْ زوجُه حواءُ مِنه، ثمَّ كُوِّنَت في آدَمَ وزَوْجِه قُوَّةُ التَّناسُلِ؛ فصار الخلْقُ منَ النُّطفةِ؛ فـ(ثُمَّ) الَّتي عُطِفَ بها ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ عاطفةٌ مُفرداتٍ؛ فهي للتَّراخي الحقيقيِّ. و(مِن) المُكرَّرةِ أربَعَ مرَّاتٍ هنا ابتدائيَّةٌ، وتَكريرُها تَوكيدٌ[٢].

- وعبَّرَ بقولِه: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مع المُضْغةِ؛ لمَّا كان الإنسانُ فيه أعضاءٌ مُتباينةٌ، وكلُّ واحدٍ منها مُختصٌّ بخَلْقٍ، حسُنَ تَضعيفُ الفِعْلِ؛ لأنَّ فيه خلْقًا كثيرةً[٣].

- وفي قولِه: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ كان مُقْتضى التَّرتيبِ السَّابقِ المَبْنيِّ على التَّدرُّجِ مِن المبادئِ البعيدةِ إلى القريبةِ: أنْ يُقدَّمَ غيرُ المُخلَّقةِ على المُخلَّقةِ، وإنَّما أُخِّرَت عنها؛ لأنَّ المُخلَّقةَ أدخَلُ في الاستدلالِ، وذكَرَ بعْدَه غيرَ المُخلَّقةِ؛ لأنَّه إكمالٌ للدَّليلِ، وتَنبيهٌ على أنَّ تَخليقَها نشَأَ عن عدَمٍ؛ فكِلَا الحالينِ دليلٌ على القُدرةِ على الإنشاءِ، وهو المَقصودُ مِن الكَلامِ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، أي: لنُظْهِرَ لكم -إذا تأملتُم- دليلًا واضحًا على إمكانِ الإحياءِ بعْدَ الموتِ[٤].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٨، ١٩٩).

- قولُه: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ وُرودُ الفِعْلِ غيرَ مُعَدًّى إلى المُبَيَّنِ: إعلامٌ بأنَّ أفعالَه هذه يَتبيَّنُ بها مِن قُدرتِهِ وعِلْمِه ما لا يَكْتنِهُه الذِّكْرُ، ولا يُحِيطُ به الوصْفُ(١). وقيل: لِنُبيِّنَ أمْرَ البعثِ، فهو اعتراضٌ بينَ الكلامينِ(٢). ولمَّا اشتمَلتْ تلك الأطوارُ السَّابقةُ على احتقارِ المُنكَّرِ مِن كَونِه نُطفةً وعَلَقةً ومُضغةً؛ أُبْرِزَ ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾؛ تَنبيهًا على اختصامِه مع احتقارِه(٣). وقيل: حُذِفَ مفعولُ ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه يَدخُلُ فيه كلُّ ما يُمكِنُ أنْ يُحيطَ به العقولُ(٤).

- وتَقديمُ التَّبْيينِ على ما بعدَهُ مع أنَّ حُصولَه بالفِعْلِ بعْدَ الكلِّ؛ للإيذانِ بأنَّه غايةُ الغاياتِ، ومَقصودٌ بالذَّاتِ(٥). وأيضًا لمَّا كانت دَلالةُ الأوَّلِ عَلى كَمالِ قُدرتِه تعالى على جَميعِ المقدُوراتِ -الَّتي مِنْ جُملتِها البَعْثُ المَبْحوثُ عنه- أجْلى وأظهَرَ؛ قدَّم قولَه تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾ على الإقرارِ والإخراجِ(٦).

- قولُه: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ حالِهم بعْدَ تَمامِ خلْقِهم(٧). أو ﴿وَنُقِرُّ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾، وعُدِلَ عن فِعْلِ المُضِيِّ إلى الفِعْلِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على استِحضارِ تلك الحالةِ؛ لِمَا فيها مِن مُشابَهةِ استقرارِ الأجسادِ في الأجداثِ، ثمَّ إخراجِها منها بالبَعْثِ، كما يَخرُجُ الطِّفلُ مِن قَرارةِ الرَّحِمِ مع تَفاوُتِ القرارِ؛ فمِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤١).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأجِنَّةِ ما يَبْقى سِتَّةَ أشهُرٍ، ومنها ما يَزيدُ على ذلك، وهو الَّذي أفادَهُ إجمالُ قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾. والاستدلالُ في هذا كلِّه بأنَّه إيجادٌ بعْدَ العدَمِ، وإعدامٌ بعْدَ الوُجودِ؛ لتَبْيينِ إمكانِ البعثِ بالنَّظيرِ وبالضِّدِّ[١].

- وعُطِفَت جُملةُ ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ بحَرْفِ (ثمَّ)؛ للدَّلالةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ إخراجَ الجنينِ هو المقصودُ[٢]. ويجوزُ أنْ تكونَ (ثم) في الموضعَينِ -﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾، ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾- للتراخي الزَّمني، على اعتبار أنَّ بلوغَ الأشُدِّ متراخٍ زمنًا عن إخراجِهم طفلًا، وهو -أي: إخراجُهم طفلًا- متراخٍ عن إقرارِهم في الأرحامِ، لكنَّ الأنسبَ للمقامِ أنْ تكونَ للتراخي الرُّتبيِّ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ الأشُدُّ: كَمالُ القُوَّةِ والعَقْلِ والتَّمييزِ، وهو مِن ألْفاظِ الجُموعِ الَّتي لم يُسْتعمَلْ لها واحدٌ -على قولٍ مِن الأقوالِ-، وكأنَّها شِدَّةٌ في غيرِ شَيءٍ واحدٍ؛ فبُنِيَت لذلك على لفْظِ الجَمْعِ[٤].

- وإيثارُ البُلوغِ مُسنَدًا إلى المُخاطَبينَ ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ على التَّبليغ مُسنَدًا إليه تعالى (لِنُبلِّغَكم)، كالأفعالِ السَّابقةِ (خَلَقْنَاكُمْ- لِنُبَيِّنَ- نُقِرُّ- نُخْرِجُكُمْ)؛ لأنَّ ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ هو المُناسِبُ لبَيانِ حالِ اتِّصافِهم بالكَمالِ، واستقلالِهم بمَبْدئيَّةِ الآثارِ والأفعالِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي)) (٦ / ٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).

- وإعادةُ اللَّامِ هاهنا في ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ﴾ مع تَجْريدِ الأوَّلَينِ عنها (نُقِرُّ، نُخرِجُكم)؛ للإشعارِ بأصالتِه في الغَرضيَّةِ بالنِّسبةِ إليهما؛ إذْ عليه يَدورُ التَّكليفُ المُؤدِّي إلى السَّعادةِ والشَّقاوةِ[1].

- وقوله: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ وقَعَ في سُورةِ (غافرٍ): ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾ [غافر: ٦٧]، فعُطِفَ طورُ الشَّيخوخةِ على طَورِ الأشُدِّ، باعتبارِ أنَّ الشَّيخوخةَ مَقصِدٌ للأحياءِ؛ لحُبِّهم التَّعميرَ، وتلك الآيةُ ورَدَتْ مَورِدَ الامتنانِ؛ فذكَرَ فيها الطَّورَ الَّذي يَتملَّى المَرْءُ فيه بالحياةِ، ولم يُذْكَرْ هنا في آيةِ سُورةِ (الحجِّ)؛ لأنَّها ورَدَتْ مَورِدَ الاستدلالِ على الإحياءِ بعْدَ العدَمِ؛ فلم يُذْكَرْ فيها من الأطوارِ إلَّا ما فيه ازديادُ القُوَّةِ ونَماءُ الحياةِ دونَ الشَّيخوخةِ القريبةِ مِن الاضمحلالِ، ولأنَّ المُخاطبينَ بها فَريقٌ مُعيَّنٌ مِن المُشركينَ كانوا في طَورِ الأشُدِّ، وقد نُبِّهوا عَقِبَ ذلك إلى أنَّ منهم نفَرًا يُرَدُّونَ إلى أرذَلِ العُمرِ -وهو طَورُ الشَّيخوخةِ- بقولِه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾[2].

- وجِيءَ بقولِه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ على وَجْهِ الاعتراضِ؛ استقراءً لأحوالِ الأطوارِ الدَّالَّةِ على عَظيمِ القُدرةِ والحِكْمةِ الإلهيَّةِ، مع التَّنبيهِ على تَخلُّلِ الوُجودِ والعدمِ أطوارَ الإنسانِ بَدْءًا ونهايةً، كما يَقْتضيه مَقامُ الاستدلالِ على البَعْثِ[3].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ هو عديلُ قولِه تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾، وسكَتَ عن ذِكْرِ الموتِ بعْدَ أرذَلِ العُمرِ؛ لأنَّه مَعلومٌ بطريقةِ لَحْنِ الخِطابِ[١]؛ فأصْلُ الكلامِ: (ومنكم مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمرِ ثُمَّ يُتوفَّى)، فحُذِفَت جُملةُ (ثُمَّ يُتوفَّى)؛ لدَلالةِ الجُملةِ المذكورةِ عليها[٢].

- قولُه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ فيه إيرادُ (التَّوفِّي) و(الرَّدِّ) على صِيغَةِ المَبْنيِّ للمفعولِ؛ للجَرْيِ على سَنَنِ الكِبْرياءِ؛ لتَعيُّنِ الفاعلِ[٣].

- قولُه: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ عُبِّرَ بـ﴿شَيۡـٔٗا﴾؛ مُبالَغةً في انتقاصِ عِلْمِه، وانتكاسِ حالِه[٤]؛ فقد جاءت نَكِرةً لإفادةِ العُمومِ[٥].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ للتَّأكيدِ[٦].

---

(١) ينقسِمُ المفهومُ من الكلامِ إلى مَفهومِ موافقةٍ، ومفهومِ مُخالفةٍ؛ فمفهومُ الموافقةِ هو ما يُوافِقُ حُكْمُه المنطوقَ؛ فإنْ كان أَوْلى سُمِّيَ فحْوى الخِطابِ، كدَلالةِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣] على تحريمِ الضَّربِ؛ لأنَّه أشَدُّ، وإنْ كان مُساوِيًا سُمِّيَ لحنَ الخِطابِ، أي: معناه، كدَلالةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ [النساء: ١٠] على تحريمِ الإحراقِ؛ لأنَّه مُساوٍ للأكلِ في الإتلافِ. وعُرِّف لحنُ الخطابِ أيضًا بأنَّه دلالةٌ للاقتِضاءِ، وهو دلالةُ اللفظِ التزامًا على ما لا يستقلُّ الحكمُ إلَّا به، وإن كان اللفظُ لا يقتضيه وضعًا. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ على قولِه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ لكونِ الدَّلائلِ الآفاقيَّةِ مُرتبطةً بالأنْفُسيَّةِ، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، ومُشتبِكةً بعْضُها مع بعْضٍ، خُصوصًا دَلالةَ إحياءِ الأرضِ بعْدَ مَوتِها، وكانت أنْموذجًا للبعْثِ والنَّشرِ[١].

- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ فيه الإتيانُ بالفِعْلِ على صِيغَةِ المُضارعِ ﴿وَتَرَى﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ سِيقَ هذا الوصْفُ إدماجًا للامتنانِ في أثناءِ الاستدلالِ؛ امتنانًا بجَمالِ صُورةِ الأرضِ المُنْبِتةِ؛ لأنَّ كونَه بَهيجًا لا دخْلَ له في الاستدلالِ، فهو امتنانٌ مَحْضٌ[٣].

- وأيضًا مِن فُنونِ البلاغةِ الَّتي اشتَمَلَ عليها قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾: العدولُ عن لَفْظي الحَركةِ والسُّكونِ إلى أردافِهما من لَفظَيِ (الهُمودِ) و(الاهتِزازِ)؛ لِمَا في لَفظَيِ الإردافِ من المُلاءَمةِ للمعنى المُرادِ؛ لأنَّ الهُمودَ يُرادُ به الموتُ، والأرضُ في حالِ عَطَلِها مِن السَّقْيِ والنَّباتِ مواتٌ؛ فكان العُدولُ إلى لفْظِ (الهُمودِ) المُعبَّرِ به عن الموتِ أَولى من لفْظِ (السُّكونِ)، والاهتزازُ مُشعِرٌ بالعطاءِ كاهتزازِ المَمدوحِ للمدْحِ؛ فلأجْلِ ذلك عُدِلَ عن لفْظِ الحركةِ العامِّ إلى لَفظِ الحركةِ الخاصِّ وهو الاهتزازُ؛ لِمَا يُشعِرُ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٤).

الأرضَ ستُعْطي عندَ سَقْيِها ما يُرْضِي مِن نَباتِها بتَنزُّلِ السَّقْيِ لها مَنزِلةَ ما يَسُرُّها؛ فاهتزَّتْ لتَشعُرَ بالعطاءِ؛ فظهَرَتْ فائدةُ العُدولِ إلى لفْظِ الإردافِ.

ومنها: حُسْنُ التَّرتيبِ؛ حيث تقدَّمَ لفْظُ (الاهتزازِ) على لَفْظِ (الرُّبُوِّ)، ولَفظُ (الرُّبُوِّ) على (الإنباتِ)؛ لأنَّ الماءَ إذا نزَلَ على الأرضِ فرَّقَ أجزاءَها ودخَلَ في خِلالِها، وتَفريقُ أجزاءِ الجَماداتِ هو حركَتُها حالةَ تفرُّقِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ انقسامَ الشَّيءِ يدُلُّ على انتقالِ قِسْمَيه أو أحَدِهما عن حَيِّزِه، ولا معنى للحركةِ إلَّا هذا؛ فالاهتزازُ يجِبُ أنْ يُذْكَرَ عَقِيبَ السَّقْيِ، كما جاء (الرُّبُوُّ) بعْدَ (الاهتزازِ)؛ فإنَّ التُّرابَ إذا دخَلَهُ الماءُ ارتَفَعَ بالنِّسبةِ إلى حالِه قبْلَ ذلك، وهذا هو الرُّبُوُّ بعَينِه؛ فحصَلَ حُسنُ الترتيبِ مع حُسنِ النَّسقِ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ جِيءَ به إثْرَ تَحقيقِ حَقِّيَّةِ البعثِ، وإقامةِ البُرهانِ عليه مِن العالَمينِ الإنسانيِّ والنَّباتيِّ؛ لبَيانِ أنَّ ذلك مِن آثارِ أُلوهيَّتِه تعالى وأحكامِ شُؤونِه الذَّاتيَّةِ والوصفيَّةِ والفِعْليَّةِ[(٢)]. وهو فَذلكةٌ[(٣)] لِمَا تقدَّمَ؛ فالجُملةُ تَذييلٌ[(٤)].

- و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن خلْقِ الإنسانِ على أطوارٍ مُختلفةٍ، وإحياءِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٣٩٥-٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥).

(٣) الفَذْلكةُ: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ؛ من قولهم: (فذَلِك كذا)، ومعناها: ذِكرُ مُجمَلِ ما فُصِّل أولًا وخلاصتِه. وقد يُرادُ بالفذلكةِ النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٤).

الأرضِ بعْدَ مَوتِها، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنزِلَتِه في الكَمالِ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ فيه قَصرٌ إضافيٌّ[٢]، أي: دونَ غَيرِه مِن مَعبوداتِكم؛ فإنَّها لا وُجودَ لها[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ تَخصيصُ إحياءِ الموتى بالذِّكْرِ مع كَونِه من جُملةِ الأشياءِ المقدورِ عليها؛ للتَّصريحِ بما فيه النِّزاعُ، والدَّفعِ في نُحورِ المُنكِرينَ. وتَقديمُه؛ لإبرازِ الاعتناءِ به[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاح البلاغيِّين هو تَخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأولُ: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. وينقسمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥).

توكيدٌ لقولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الفاعلِ ﴿ءَاتِيَةٞ﴾ على الفِعلِ؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ إتيانِها وتَقرُّرِه الْبتَّةَ؛ لاقتضاءِ الحِكْمةِ إيَّاهُ لا مَحالةَ[(٢)].

- وصِيغةُ نَفْيِ الجِنْسِ على سَبيلِ التَّنصيصِ في قوله تعالى: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ صِيغةُ تأكيدٍ[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٥، ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٦).

الآيات (٨-١٠)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾: أي: لاوِيًا عُنُقَه تَكَبُّرًا، والثَّنْيُ: لَيُّ الشَّيءِ، والعِطْفُ: الجانِبُ، وعِطْفا الرَّجُلِ: جانِباه عن يَمينٍ وشِمالٍ مِنْ لَدُنْ رأسِه إلى وَرِكِه، وهو المَوضِعُ الذي يَعطِفُه الإنسانُ، أي: يَلويه ويُميلُه عندَ الإعراضِ عن الشَّيءِ[1].

﴿خِزۡيٞ﴾: أي: هوانٌ، وهلاكٌ، وأصلُ الخِزيِ: الإبعادُ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ومِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ رُسُلَ اللهِ وأتباعَهم في شأنِ اللهِ تعالى بغيرِ عِلمٍ ولا دَلالةٍ صَحيحةٍ، ولا كتابٍ مِن اللهِ فيه بُرهانٌ وحُجَّةٌ واضِحةٌ، لاويًا جانِبَه وعُنُقَه، متكبِّرًا مُعرِضًا عن الحَقِّ؛ لِيَصُدَّ عن دينِ اللهِ، فله خِزيٌ في الدُّنيا وذِلَّةٌ، ونذيقُه يومَ القيامةِ عذابُ النَّارِ. ويُقالُ له: ذلك العَذابُ بسَبَبِ ما فَعَلْتَ مِنَ المعاصي، واكتسَبْتَ مِنَ الآثامِ، واللهُ ليس بظلَّامٍ للعبيدِ، فلا يعَذِّبُ أحَدًا بغيرِ ذَنبٍ.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ الضُّلَّالِ الجُهَّالِ المقَلِّدينَ، في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾؛ ذكَرَ في هذه حالَ الدُّعاةِ إلى الضَّلالِ مِن رُؤوسِ الكُفرِ والبِدَعِ، فقال[1]:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ رُسُلَ اللهِ وأتباعَهم في شأنِ اللهِ وتوحيدِه وقدرتِه بجَهلٍ، مِن غَيرِ عِلمٍ[2] صَحيحٍ[3].

﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

أي: ويُجادِلُ في اللهِ بمُجَرَّدِ رأيِه وهواهُ، بغيرِ دَلالةٍ صَحيحةٍ يَهتَدي بها للصَّوابِ، ولا كِتابٍ إلهيٍّ نيِّرٍ[4] بيِّنِ الحُجَّةِ يُنيرُ عن حُجَّتِه ورأيِه، وإنَّما يقولُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩).

(٢) قيل: المرادُ بالعِلمِ هنا: العِلمُ الضَّروريُّ الحاصِلُ بدونِ نظَرٍ واستِدلالٍ. وممَّن قال بذلك: الزمخشري، والرازي، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).
وقال الشوكاني: (قيل: والمرادُ بالعلمِ هو العلمُ الضَّروريُّ... والأَولى حمْلُ العِلمِ على العُمومِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٤) قال ابنُ تيمية: (قَولُه: ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ؛ فيعُمُّ كُلَّ كتابٍ مُنيرٍ، ولو لم =

يقولُ مِنَ الجَهلِ بمجرَّدِ ظُنونِه(١).

﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفَتحِ الياءِ، أي: ليَضِلَّ هو(٢).

= يكُنْ إلَّا الإنجيلُ لقيل: ولا الكتابِ المنيرِ). ((الجواب الصحيح)) (٢/ ٣٥٠).

ممن اختار أنَّ المرادَ بالكتابِ المنيرِ: الوحيُ: النسفي، وأبو السعود، والألوسي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

وقيل: المرادُ بالكتابِ المنيرِ هنا: القرآنُ. وممن قال بذلك: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

قال ابنُ تَيميَّة: (وهذا -والله أعلمُ- مِن بابِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، أو الانتقالِ مِن الأدنَى إلى الأعلَى). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٦٧، ٢٦٨).

وممَّن جعَل الهُدى بمعنى الاستِدلالِ والنظرِ والحُجةِ العقليةِ الصَّحيحةِ: ابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

وقال الشوكانيُّ: (قيل: والمرادُ... بالهدى هو العلمُ النَّظريُّ الاستدلاليُّ. والأَوْلَى... حمْلُ الهدَى على معناه اللغويِّ، وهو الإرشادُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، واختُلف عن رُوَيْس في القراءة بها. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٢).

٢- قراءةُ ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياءِ، أي: لِيُضِلَّ غَيرَه[١].

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

أي: يجادِلُ بالباطِلِ لاوِيًا جانِبَه وعُنُقَه؛ إعراضًا وتكبُّرًا عن قَبولِ الحَقِّ، واحتِقارًا لِداعيه؛ لِيَصُدَّ[٢] عن دينِ اللهِ وشرعِه[٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٣).

(٢) قيل: اللامُ هنا للعاقبةِ. وممن قال بذلك: ابنُ الجوزي، والرسعني، والقرطبي، والألوسي. يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١١٧).
وقيل: اللامُ هنا للتعليلِ. وممن قال بذلك: الزمخشري، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١).
قال الشنقيطي: (والمفسِّرُونَ يقولونَ: إنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ونحوِها مِنَ الآياتِ مِمَّا لم تَظْهَرْ فيه العلَّةُ الغائيَّةُ، كقولِه: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾. ونحوِ ذلك - لامُ العاقِبَة... ونقول هنا: إنَّ الظاهر في ذلك أنَّ الصوابَ فيه غير ما ذَكروا، وأنَّ اللام في الجميع لامُ التعليل، والمعنى واضحٌ لا إشكالَ فيه، كما نبَّه عليه الحافظُ ابنُ كثير رحمه الله في مواضعَ مِن تفسيره. وإيضاح ذلك: أنَّ الله هو الذي قدَّر على الكافرِ في أزلِه أن يُجادِلَ في الله بغيرِ عِلمٍ في حال كونِه لاويَ عُنُقِه؛ إعراضًا عن الحق، واستكبارًا. وقد قدَّر عليه ذلك ليَجعلَه ضالًّا مُضِلًّا، وله الحِكمةُ البالغة في ذلك). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨١).
وقال ابن عاشور: (واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِيُضِلَّ﴾ لتعليلِ المجادَلةِ، فهو متعَلِّقٌ بـ﴿يُجَٰدِلُ﴾؛ أي: غَرَضُه مِن المجادَلةِ الإضلالُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾.

أي: لذلك المُجادِلِ في اللهِ بالباطِلِ ذُلٌّ ومَهانةٌ في الدُّنيا(١).

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١).

قال ابنُ جرير: (لهذا المجادلِ في الله بغيرِ عِلمٍ في الدُّنيا خِزيٌ، وهو القَتلُ والذُّلُّ والمهانةُ بأيدي المؤمِنينَ، فقتَلَه الله بأيديهم يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١).

وممَّن قال بنحو ذلك: ابنُ عاشور، فقال: (خِزيُ الدُّنيا: الإهانةُ، وهو ما أصابهم مِنَ القَتلِ يَومَ بَدرٍ، ومِنَ القَتلِ والأَسرِ بعد ذلك، وهؤلاء هم الذين لم يُسلِموا بعدُ. ويَنطبقُ الخزيُ على ما حصَل لأبي جَهلٍ يومَ بدْرٍ؛ مِن قتْلِه بيدِ غُلامينِ مِن شبابِ الأنصارِ، وهما ابنا عَفْراءَ. وباعتلاءِ عبدِ الله بن مسعودٍ على صَدْره وذَبْحِه، وكان في عظَمتِه لا يَخطِرُ أمثالُ هؤلاء الثلاثةِ بخاطرِه. وينطبقُ الخزيُ أيضًا على ما حلَّ بالنضرِ بنِ الحارثِ؛ مِن الأَسرِ يومَ بدْرٍ، وقتْلِه صبرًا... وإذ كانتْ هذه الآيةُ ونظيرتُها التي سبَقتْ ممَّا نزَل بمكَّةَ لا محالةَ، كان قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ مِنَ الإخبارِ بالغَيبِ، وهو مِن مُعجزاتِ القرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٩).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالخِزيِ هو القتلُ ببَدرٍ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، ومكِّيٌّ، والسمعاني، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١١٧)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٤٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُريج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١).

وذكَرَ الماتُريدي أنَّ عامَّةَ أهلِ التَّأويلِ يَصرِفونَ الآيةَ إلى النَّضرِ بنِ الحارِثِ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٣٩٤).

وقيل: المرادُ بالخِزيِ ما يصيبُه مِن هوانٍ وذُلٍّ بما يجري له مِن الذِّكرِ القَبيحِ على ألسنةِ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠] الآيةَ، وقَولِه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]. قاله القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦).

أي: ونُذيقُه يومَ القِيامةِ ألَمَ عَذابِ النَّارِ المُحرِقةِ[١].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾.

أي: يُقالُ له حينَ يذوقُ عَذابَ النَّارِ يَومَ القيامةِ: هذا العَذابُ الواقِعُ بك[٢] بسَبَبِ ما قَدَّمَتْه يداك في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي[٣].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

أي: وفعَلْنا ذلك؛ لأنَّ اللهَ ليس بِذِي ظُلمٍ للعِبادِ، فلم يكُنْ لِيُعَذِّبَهم بغيرِ ذَنبٍ اقترَفوه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢).

(٢) قيل: الإشارةُ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى: عذابِ النَّارِ المُشارِ إليه في قَولِه: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، والقرطبي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢).

وقيل: الإشارةُ إلى العذابِ الدُّنيويِّ والأُخرويِّ في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾. وممن قال بذلك: النسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢).

قال الشِّنقيطيُّ: (المعنى: هذا العذابُ الذي يُذيقُكه اللهُ حصَل لك بسببينِ؛ وهما: ما قدَّمَتْه يداك من عمَلِ السوءِ مِن الكفرِ والمعاصي، وعدالةُ مَن جازاك ذلك الجزاءَ الوِفاقَ وعَدَمُ ظُلمِه). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ يدُلُّ على أنَّ الجِدالَ مع العِلمِ والهُدى والكِتابِ المُنيرِ حَقٌّ حَسَنٌ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ هذا من آياتِ اللهِ العَجيبةِ؛ فإنَّك لا تجِدُ داعِيًا مِن دُعاةِ الكُفرِ والضَّلالِ إلَّا وله مِن المَقتِ بينَ العالَمينَ، واللَّعنةِ والبُغضِ والذَّمِّ- ما هو حقيقٌ به، وكُلٌّ بحَسَبِ حالِه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ الكَريمةِ أنَّ مَن ثَنَى عِطْفَه استِكبارًا عن الحَقِّ وإعراضًا عنه، عامَلَه اللهُ بنَقيضِ قَصْدِه، فأذَلَّه وأهانه، وذلك الذُّلُّ والإهانةُ نَقيضُ ما كان يؤَمِّلُه مِن الكِبرِ والعَظَمةِ[٣]، فلمَّا استكبَرَ عن آياتِ الله لقَّاه اللهُ المذلَّةَ في الدُّنيا، وعاقَبه فيها قبْلَ الآخرةِ؛ لأنَّها أكبرُ همِّه، ومبلغُ علمِه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ

= ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨٢).

وقال البِقَاعي: (﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ﴾ أي: بذِي ظُلمٍ ما ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾، ولو ترَكَكم بغيرِ ذلك لكان في مجاري عاداتِكم ظُلمًا؛ أوَّلًا: بتسويةِ المُحسِنِ بالمُسيءِ. وثانيًا: بتَركِ الانتصارِ للذين عادَوك فيه، وأذيَّتِهم مِن أجْلِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١، ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٩٩).

مُّنِيرٖ﴾ رَتَّبَ سُبحانَه هذه الأمورَ الثَّلاثةَ أحسَنَ ترتيبٍ؛ فبدأ بالأعَمِّ، وهو العلمُ، وأخبَرَ أنَّه لا علمَ عندَ المُعارِضِ لآياتِه بعَقلِه، ثمَّ انتقَلَ منه إلى ما هو أخَصُّ، وهو الهُدى، ثمَّ انتقَلَ إلى ما هو أخَصُّ، وهو الكِتابُ المُبينُ؛ فإنَّ العلمَ أعَمُّ مِمَّا يُدرَكُ بالعَقلِ والسَّمعِ والفِطرةِ، وأخَصُّ منه الهُدى الذي لا يُدرَكُ إلَّا مِن جهةِ الرُّسُلِ، وأخَصُّ منه الكِتابُ الذي أنزلَه اللهُ على رَسولِه؛ فإنَّ الهدى قد يَكونُ كِتابًا وقد يكونُ سُنَّةً[١].

٢- ذَكَر الله سُبحانَه التَّفصيلَ في مُجادَلةِ المتبوعِ الدَّاعي، وأنَّها: ﴿فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، واكتفَى في ذِكْرِ التابعِ -في قوله سُبحانَه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾- بنفيِ العلمِ، المستلزمِ لنفيِ هذه الثلاثةِ؛ فإنَّ مجادلةَ المتبوعِ أصلٌ؛ وهو أقعدُ بها مِن مجادلةِ التَّابعِ، ومصدرُها كِبْرٌ، ومصدرُ مجادلةِ التَّابعِ ضلالٌ وتقليدٌ؛ فذَكَرَ حالَ المتبوعِ على التفصيلِ؛ ولهذا ذَكَرَ فسادَ قصدِه وعِلْمِه، وذَكَر مِن عقوبتِه أشَدَّ ممَّا ذَكَرَ مِن عقوبةِ التَّابعِ، وهذا وأمثالُه مِن أسرارِ القرآنِ التي حرَّمَها اللهُ على مَن عارضَ بينَه وبينَ العقلِ، وقَدَّمَ العقلَ عليه[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾، أي: بعَمَلِك، ولكِنَّه جرت عادةُ العَرَبِ أن تُضيفَ الأعمالَ إلى اليَدِ؛ لأنَّها آلةُ أكثَرِ العَمَلِ، فبها يُزاوَلُ أكثرُ الأعمالِ، فغلبَتْ على غيرِها[٣]، ولكونِ مباشرةِ المعاصي تكونُ بها في الغالبِ[٤].

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٨٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٠٩٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ كُرِّرَ ذِكْرُ المُجادَلةِ؛ وقد سبَق قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]؛ وذلك مُبالَغةً في الذَّمِّ، ولكونِ كلِّ واحدةٍ اشتمَلَتْ على زِيادةٍ ليست في الأُخرى(١). أو أنَّهما في الدعاةِ المضلِّينَ، واعتُبِر تغايرُ أوصافِهم فيها، وعليه؛ فلا تَكرارَ(٢). وقيل: الأوَّلُ في المُقلِّدينَ، وهذا في المُقلَّدينَ(٣).

- قولُه: ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ والمُنيرُ: المُبيِّنُ للحقِّ؛ شُبِّهَ بالمصباحِ المُضِيءِ في اللَّيلِ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

- قولُه: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ كِنايةٌ عن الكِبْرياءِ والجَبروتِ؛ لأنَّ ذا الجَبروتِ لا تَعطُّفَ له ولا رَحمةَ؛ كأنَّه قِيلَ: مِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ في اللهِ مُتجبِّرًا في نَفْسِه، ولا يَعْطِفُ على أحدٍ. وقيل: مُعرِضًا عن الحقِّ؛ استخفافًا به(٥). أو هو تَمثيلٌ للتَّكبُّرِ والخُيلاءِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٧، ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٦، ٩٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٨).

- وإفرادُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿عِطۡفِهِۦ﴾ وما ذُكِرَ بعْدَه (لِيُضِلَّ - لَهُ - وَنُذِيقُهُ)؛ مُراعاةً لِلَفْظِ (مَن)، وإنْ كان معنَى تلك الضَّمائرِ الجَمْعَ(١).

- وقولُه: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تَعليلٌ للمُجادَلةِ. وعلى قِراءةِ ﴿لِيَضِلَّ﴾ فيكونُ غرَضُه مِن جِدالِه الضَّلالَ عن سَبيلِ اللهِ؛ وعُلِّلَ به؛ لأنَّه لمَّا أدَّى جِدالُه إلى الضَّلالِ، جُعِلَ كأنَّه غرَضُه، ولمَّا كان الهُدى مُمْكِنًا له، فترَكَه وأعرَضَ عنه، وأقبَلَ على الجِدالِ بالباطلِ؛ جُعِلَ كالخارجِ مِن الهُدى إلى الضَّلالِ(٢).

- وجُملةُ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌۖ﴾ مُستأْنَفةٌ، مَسوقةٌ لبَيانِ نَتيجةِ ما سلَكَه مِنَ الطَّريقةِ(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ فيه الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، والالْتفاتُ لتأْكيدِ الوعيدِ، وتَشديدِ التَّهديدِ، أو على إرادةِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: يُقالُ له يومَ القيامةِ(٤).

- والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بكَونِه في الغايةِ القاصيةِ مِن الهولِ والفَظاعةِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٧).

- وجُملةُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ، مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَها[١].

- وجاءت صِيغةُ المُبالَغةِ ﴿بِظَلَّٰمٖ﴾ -مع أنَّ نفْيَ المبالغةِ لا يَستلزمُ نفْيَ الفِعلِ مِن أصلِه، والمرادَ بنَفْيِ المبالغةِ هو نفيُ الظُّلْمِ مِن أصلِه-؛ لكَثرةِ العَبيدِ؛ فاللهُ جلَّ وعلَا نفَى ظُلْمَه للعبيدِ، والعبيدُ في غايةِ الكثرةِ، والظُّلمُ المنفيُّ عنهم تَستلزِمُ كَثْرتُهم كَثْرتَه؛ فناسَبَ ذلك الإتيانُ بصِيغةِ المبالَغةِ؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ المنفيِّ التابعةِ لكَثرةِ العبيدِ المنفيِّ عنهم الظُّلمُ؛ إذ لو وقَع على كلِّ عبدٍ ظُلمٌ، ولو قليلًا، كان مجموعُ ذلك الظُّلمِ في غايةِ الكَثرةِ؛ فالمرادُ بذلك نفْيُ أصْلِ الظُّلمِ عن كُلِّ عَبدٍ مِن أولئك العَبيدِ، الذين هم في غايةِ الكثرة، سُبحانَه وتعالى عن أنْ يَظلِمَ أحدًا شيئًا[٢].

وقيل: نفيُ صِيغةِ المبالغةِ إذا دلَّتْ أدلَّةٌ مُنفصِلةٌ على أنَّ المُرادَ به نفيُ أصْلِ الفِعلِ؛ فلا إشكالَ؛ لقِيامِ الدليلِ على المرادِ، والآياتُ الدالَّةُ على نفْيِ الظُّلمِ مِن أصلِه عن اللهِ تعالى كثيرةٌ معروفةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ ...﴾ [النساء: ٤٠]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وغيرِ ذلك من الآياتِ. أو: يكون المسوِّغُ لصِيغةِ المبالغةِ أنَّ عذابَه تعالَى بالغٌ مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ أنَّه لولا استحقاقُ المعذَّبينَ لذلك العَذابِ بكُفرِهم ومَعاصيهم - لكان مُعذِّبُهم به ظلَّامًا بليغَ الظُّلمِ مُتفاقِمَه؛ سُبحانَه وتعالى عن ذلِك عُلوًّا كَبيرًا. أو: يكون المرادُ بالنفيِ في قوله: ﴿وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١، ٦/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣).

رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ نفيَ نِسبةِ الظُّلمِ إليه؛ لأنَّ صِيغةَ (فَعَّال) تُستعمَل مُرادًا بها النِّسبةُ؛ فتُغني عن ياءِ النَّسبِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾، أي: وما رَبُّكَ بذِي ظُلمٍ للعَبيدِ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- و(العبيد) ذُكِر هنا في معنى مسكنتِهم، وقلَّةِ قدرتِهم؛ فلذلك جاءَت هذه الصيغةُ[٣].



(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١، ٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠٩).

الآيات (١١-١٣)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ
عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن
نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: أي: على شَكٍّ، والحَرفُ: الطَّرَفُ والجانِبُ، نحو حَرفِ الجبلِ الذي عليه القائمُ غيرُ مستقرٍّ، وأصلُ (حرف): يدلُّ على حَدِّ الشَّيءِ[1].

﴿فِتْنَةٌ﴾: أي: ابتلاءٌ واختبارٌ بمكروهٍ يُصيبُه في أهلِه أو مالِه أو نفْسِه، وأصْلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ[2].

﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾: أي: ارتَدَّ ورجَعَ عن دينِه إلى الكُفرِ، ويُطلَقُ الانقِلابُ كثيرًا على الانصرافِ مِنَ الجِهةِ التي أتاها إلى الجِهةِ التي جاء منها، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٣).

﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾: أي: الوَليُّ النَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[(١)].

﴿ٱلْعَشِيرُ﴾: أي: الصَّاحِبُ المُخالِطُ، وأصلُ (عشر): يدُلُّ على مُداخَلةٍ ومُخالَطةٍ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾

جملةُ ﴿يَدْعُواْ﴾ مُستأنفةٌ، و﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ اللامُ زائدةٌ في المفعولِ للتأكيدِ، و(مَن) اسمٌ موصولٌ في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به، أي: يدعو مَنْ ضرُّه أقرَبُ، و﴿ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ﴾ مبتدأٌ وخبَرٌ. ويؤيِّدُ هذا الوجهَ قراءةُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ: (يَدْعُو مَنْ ضَرُّه أَقْرَبُ)، وجملةُ ﴿ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ﴾ صِلةُ (مَن) لا محَلَّ لها. وقيلَ: اللَّامُ في ﴿لَمَن﴾ للابتِداءِ مُزَحْلقةٌ عن محَلِّها الأصليِّ، وهي تُفيدُ تأكيدَ مَضمونِ الجُملةِ الواقِعةِ بَعدَها، وقُدِّمَت مِن تأخيرٍ؛ إذ حَقُّها أن تدخُلَ على صِلَةِ (مَنْ) الموصولةِ، والأصلُ: يدعو مَن لَضَرُّه أقرَبُ مِن نَفعِه. واللَّامُ في ﴿لَبِئْسَ﴾ واقعةٌ في جوابِ قَسَمٍ مُقَدَّر. وقيل غيرُ ذلك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢١٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤١٥)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٦)، ((المجتبى)) للخراط (٢/ ٧٤٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِنَ النَّاسِ مَن يَعبدُ الله على شَكٍّ وتردُّدٍ، فإنْ أصابه خيرٌ مِن صِحَّةٍ وسَعَةٍ وغيرِهما، استمَرَّ على عبادتِه، وإنْ حصَلَ له ابتِلاءٌ بمَكروهٍ وشِدَّةٍ، رجَعَ عن دينِه، فهو بذلك قد خَسِرَ الدُّنيا؛ إذ لم يَظفَرْ بحاجَتِه منها، وحُرِمَ الطُّمأنينةَ ومُوالاةَ المُسلِمينَ، وخَسِرَ الآخِرةَ بدُخولِه النَّارَ، وذلك خُسرانٌ بيِّنٌ واضِحٌ.

يَدْعو ذلك المرتَدُّ آلِهةً مِن دُونِ اللهِ لا تضُرُّه ولا تنفَعُه، ذلك هو الضَّلالُ البَعيدُ عن الحَقِّ. يدعو مَن ضَرَرُه المحقَّقُ أقرَبُ مِن نَفْعِه، قَبُحَ ذلك المعبودُ نَصيرًا، وقَبُحَ عَشيرًا ومُصاحِبًا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُظهِرينَ للشِّركِ المُجادِلينَ فيه؛ عقَّبَه بذِكرِ المُنافِقينَ[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى قِسْمَيِ المصارِحينَ بالكُفرِ الكثيفِ والأكثَفِ صريحًا، وأفهَمَ المؤمِنَ المُخلِصَ؛ عطَفَ على ذلك المُذبذَبَ[2].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه قال في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦).

ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾: (كان الرَّجُلُ يَقدَمُ المدينةَ، فإنْ وَلَدَت امرأتُه غُلامًا، ونُتِجَت[١] خَيلُه، قال: هذا دِينٌ صالِحٌ. وإنْ لم تَلِدِ امرأتُه، ولم تُنتَجْ خَيلُه، قال: هذا دينُ سَوْءٍ!)[٢].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يَعبُدُ اللهَ على شكٍّ[٣]؛ فلم يَدخُلِ الإيمانُ قَلْبَه على نحوٍ يَقينيٍّ، بل هو في شَكٍّ وقَلَقٍ وتَرَدُّدٍ في دينِ اللهِ[٤].

---

(١) نُتِجَت: أي وَضَعت ووَلَدَت. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٢)، ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٤٦).

(٢) رواه البخاري (٤٧٤٢).

(٣) قال الواحدي: (قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾ أكثَرُ المفَسِّرين قالوا: على شَكٍّ وضَلالةٍ، وأصلُه مِن حَرْفِ الشَّيءِ: وهو طَرَفُه، نحوُ حَرفِ الجَبَلِ والدُّكَّانِ والحائطِ، الذي عليه القائِمُ غيرُ مُستَقِرٍّ؛ فالذي يَعبدُ اللهَ على حَرفٍ قَلِقٌ في دينِه، على غيرِ ثَباتٍ وطُمأنينةٍ، كالذي هو على حَرْفِ الجَبَلِ ونَحوِه؛ يَضطرِبُ اضطرابًا، ويَضعُفُ قيامُه، فهو يَعرِضُ أن يَقَعَ في أحدِ جانِبَيِ الطَّرَفِ، فقيل للشَّاكِّ في دينِه: إنَّه يَعبُدُ اللهَ على حَرفٍ؛ لأنَّه ليس على يَقينٍ في وَعدِه ووعيدِه، بخِلافِ المؤمِنِ؛ لأنَّه عبَدَه على يقينٍ وبَصيرةٍ، ولم يكُنْ على حَرفٍ يَسقُطُ عنه بأدنى شَيءٍ يُصيبُه). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦١).

وقال الشوكاني: (وقيلَ: الحرفُ: الشَّرطُ، أي: ومِن النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ على شرطٍ، والشَّرطُ هو قولُه: ﴿ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ أي: خيرٌ دُنيويٌّ مِن رخاءٍ وعافيةٍ وخِصْبٍ وكثرةِ مالٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٤) و(١٦/ ٤٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

وقال ابن عاشور: (هذا وصفُ فريقٍ يَضَعون أنفسَهم في مَعرِض الموازنةِ بين دِينِهم القديمِ ودِينِ الإسلامِ؛ فهُم يَقبلون دعوةَ الإسلامِ ويَدخُلون في عِداد متَّبعيه، ويَرقُبون ما يَنتابُهم بعدَ الدخولِ في الإسلامِ؛ فإنْ أصابهمُ الخيرُ عَقِبَ ذلك علِموا أنَّ دِينهم القديمَ ليس بحقٍّ، وأنَّ =

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾.

أي: فإنْ أصابَه خَيرٌ -كصِحَّةٍ، ورَخاءِ مَعيشةٍ، ورِزقٍ هَنيءٍ- ولم يقَعْ له مِنَ المكارِهِ شَيءٌ؛ رَضِيَ عن الإسلامِ، واستقَرَّ وثَبَت على عبادةِ اللهِ[1]!

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾.

أي: وإن أصابَتْه مِحنةٌ وإنْ قَلَّتْ -كبَلاءٍ في بَدَنِه أو أهلِه، أو ضيقٍ في مَعيشَتِه- ارتدَّ فرَجَع إلى الوجهِ الَّذي كانَ عليه مِن الكفرِ[2]!

= آلهتهم لا تَقدِر على شيءٍ؛ لأنَّها لو قدرَتْ لانتقمتْ منهم على نبْذِ عِبادتِها، وظنُّوا أنَّ الإسلامَ حقٌّ، وإنْ أصابهم شرٌّ مِن شرورِ الدُّنيا العارضةِ في الحياةِ، المسبَّبةِ عن أسبابٍ عاديَّةٍ، سَخِطوا على الإسلامِ، وانخلعوا عنه، وتوهَّموا أنَّ آلهتَهم أصابتْهم بسوءٍ؛ غضبًا مِن مفارقتِهم عِبادتَها!). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠، ٢١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

فسَّر كثيرٌ مِن المفسِّرينَ قولَه تعالى: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ بمعنى: رجَعَ إلى ما كان عليه مِنَ الكُفرِ بالله. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلف: مُجاهد، والضحَّاك، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (المُهتدون لَمَّا كانوا على هُدًى مِن ربِّهم، ونُورٍ وبيِّنةٍ وبصيرةٍ، صار مكانةً لهم استقرُّوا عليها، وقد تُحيط بهم، بخِلاف الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١]؛ فإنَّ هذا ليس ثابتًا مستقِرًّا مطمئنًّا، بل هو كالواقفِ على حَرْفِ الوادي، وهو جانبُه؛ فقد يطمئنُّ إذا أصابه خيرٌ، وقد ينقلِبُ على وجهِه ساقطًا في الوادي). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٦٣، ٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠ - ١١].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ أعرابيًّا بايَعَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الإسلامِ، فأصاب الأعرابيَّ وَعْكٌ[1] بالمدينةِ، فأتى الأعرابيُّ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أَقِلْني بيعَتي[2]، فأبى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ جاءَه، فقال: أَقِلْني بيعَتي، فأبى، ثمَّ جاءَه فقال: أَقِلْني بيعَتي، فأبى، فخرجَ الأعرابيُّ، فقال رَسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّما المدينةُ كالكِيرِ؛ تَنفي خَبَثَها، ويَنصَعُ طَيِّبُها[3]))[4].

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾.

أي: خَسِرَ هذا المُنقَلِبُ على وَجهِه خيرَ دُنياه، فلم يَظفَرْ بحاجَتِه منها،

= وقال البِقاعي: (﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ لِتَهيُّئِه للانقِلابِ، بكَونِه على شَفَا جُرُفٍ، فسقَط عن ذلك الطَّرَفِ مِن الدِّينِ سُقوطًا لا رجوعَ له بعدُ إليه، ولا حركةَ له معه؛ فإنَّ الإنسانَ مَطبوعٌ على المُدافَعةِ بكُلِّ عُضوٍ مِن أعضائِه عن وَجهِه، فلا يُمَكِّنُ منه إلَّا بعدَ نهايةِ العَجْزِ، والمعنى: أنَّه رجَع إلى الوَجهِ الذي كان عليه مِن الكُفرِ أو الشَّكِّ رُجوعًا مُتمَكِّنًا، وهذا بخِلافِ الرَّاسِخِ في إيمانِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٧).

(١) وعْكٌ: أي: الحُمَّى، أو ألَمُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٠٧).

(٢) أَقِلْني بَيعَتي: أي: أَقِلْني ما بايعتُك عليه مِنَ البقاءِ بالمدينةِ؛ مِن الإقالةِ: وهي تَركُ العَقدِ وإبطالُه. يُنظر: ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازري (٢/ ١٢١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٨٠).

(٣) يَنصَعُ طَيِّبُها: أي: يصفو ويَخلُصُ ويتمَيَّزُ. (طَيِّبُها) بفَتحِ الطاءِ وكسرِ الياءِ المشَدَّدةِ، على الروايةِ الصَّحيحةِ، ويُروى بكسر الطاءِ وضَمِّ الباءِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٥٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٨٨١).

(٤) رواه البخاري (٧٢١١) واللفظ له، ومسلم (١٣٨٣).

وحُرِمَ الطُّمَأنينةَ وثَناءَ المُسلِمينَ ومُوالاتَهم، وخَسِرَ خَيرَ آخِرتِه بدُخولِ النارِ، والحِرمانِ مِن الجَنَّةِ[(١)]!

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

أي: خَسارَتُه لِدُنياه وأُخراه هي الخَسارةُ العَظيمةُ البَيِّنةُ التي لا تَخفَى[(٢)].

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾.

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾.

أي: يدعو ذلك المرتَدُّ عن دينِ اللهِ آلِهةً سوى الله لا تضُرُّه ولا تَنفَعُه بذاتِها مُطلَقًا بأيِّ وَجهٍ مِن وُجوهِ الضُّرِّ أو النَّفعِ[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾.

أي: دُعاءُ غيرِ اللهِ هو الذَّهابُ البَعيدُ عن الحَقِّ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣٢) و (٢٨/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٤).

قال الرازي: (يخسَرُ في الدُّنيا العِزَّةَ والكرامةَ، وإصابةَ الغَنيمةِ، وأهليَّةَ الشَّهادةِ، والإمامةَ والقضاءَ، ولا يبقَى مالُه ودَمُه مصونًا، وأمَّا في الآخرةِ فيَفوتُه الثوابُ الدائِمُ، ويحصُلُ له العِقابُ الدَّائِمُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٧٢) و(٢٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨، ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٩)، ((أضواء =

﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

بعْدَ أن بيَّن لهم أنَّهم يعبدونَ ما لا غَناءَ لهم فيه، زاد فبيَّن أنَّهم يعبُدونَ ما فيه ضُرٌّ، فمضمونُ الجُملةِ ارتقاءٌ في تضليلِ عابدي الأصنامِ، وموضِعُ الارتقاءِ هو مضمونُ جملةِ ﴿مَا لَا يَضُـرُّهُۥ﴾ [الحج: ١٢]، كأنَّه قيل: ما لا يضُرُّه، بل ما ينجَرُّ له منه ضُرٌّ[١].

﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾.

أي: يَدعو المُشرِكُ مَخلوقًا ضَرَرُ عبادتِه أقرَبُ إليه مِن نَفعِها[٢].

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾.

أي: لَبِئسَ النَّاصِرُ هذا المعبودُ مِن دُونِ اللهِ! ولَبِئسَ المُعاشِرُ والمصاحِبُ هو؛ فإنَّه لا يَنصُرُ عابِدَه، ولا يجلِبُ له خيرًا ولا نَفعًا[٣]!

= البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٥، ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٦)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٦).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المراد: المعبودُ مِن دونِ الله: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والسِّعدي، وابن عاشور، والشِّنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٧).

قال السعديُّ: (فإنَّ المقصودَ من المولى والعشيرِ حصولُ النفع، ودفْعُ الضرر؛ فإذا لم يَحصُلْ شيء من هذا، فإنه مذمومٌ ملومٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٤). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ هذا بخِلافِ الرَّاسِخِ في إيمانِه؛ فإنَّه إن أصابَتْه سَرَّاءُ شكَر، وإنْ أصابَتْه ضَرَّاءُ حَمِدَ وصَبَر؛ فكُلُّ قَضاءِ اللهِ له خيرٌ[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾، وقال أيضًا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾؛ فلا بُدَّ مِن أذًى لكلِّ مَن كان في الدُّنيا، فإنْ لم يَصبِرْ على الأذى في طاعةِ اللهِ، بل اختارَ المعصيةَ؛ كان ما يَحصُلُ له مِن الشرِّ أعظَمَ ممَّا فرَّ منه بكثيرٍ؛ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾ [التوبة: ٤٩]. ومَنِ احتَملَ الهوانَ والأذى في طاعةِ اللهِ على الكَرامةِ والعِزِّ في مَعصيةِ اللهِ -كما فعَلَ يُوسُفُ عليه السلامُ وغيرُه مِن الأنبياءِ والصَّالحينَ- كانتْ العاقبةُ له في الدُّنيا والآخِرَةِ، وكان ما حصَل له مِن الأذى قد انقَلَب نعيمًا وسرورًا، كما أنَّ

= وممَّن قال بنحو هذا القول مِن السَّلف: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٧).

وقال ابن جرير: (وقولُه: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ يقولُ: لبئسَ ابنُ العمِّ هذا الَّذي يعبدُ اللَّه على حَرْفٍ. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ يقولُ: ولبئسَ الخليطُ المُعاشِرُ، والصَّاحِبُ هو). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٧).

وقال الرازي: (واعلَمْ أنَّ هذا الوَصفَ بالرُّؤساءِ أليَقُ؛ لأنَّ ذلك لا يكادُ يُستعمَلُ في الأوثانِ؛ فبَيَّن تعالى أنَّهم يَعدِلونَ عن عبادةِ الله تعالى الذي يَجمَعُ خَيرَ الدُّنيا والآخرةِ إلى عبادةِ الأصنام وإلى طاعةِ الرُّؤساءِ، ثمَّ ذَمَّ الرُّؤساءَ بقَولِه: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ والمرادُ: ذَمُّ مَن انتصَرَ بهم، والتجأَ إليهم). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧).

ما يَحصُلُ لأربابِ الذُّنوبِ مِن التنعُّمِ بالذُّنوبِ يَنقلِبُ حُزنًا وثُبورًا[١].

٣- العَبدُ على الحَقيقةِ مَن قام بعبوديَّةِ اللهِ على اختِلافِ الأحوالِ، وأمَّا عَبدُ السَّرَّاءِ والعافيةِ الذي ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾، فليس مِن عَبيدِه الذين اختارَهم لعُبوديَّتِه؛ فلا رَيبَ أنَّ الإيمانَ الذي يَثبُتُ على محَلِّ الابتِلاءِ والعافيةِ هو الإيمانُ النَّافِعُ وَقتَ الحاجةِ، وأمَّا إيمانُ العافيةِ فلا يكادُ يَصحَبُ العَبدَ، ويُبلِّغُه مَنازِلَ المُؤمِنينَ، وإنَّما يَصحَبُه إيمانٌ يَثبُتُ على البلاءِ والعافيةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنْ قِيلَ: إنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾، ومُقابِلُ الخيرِ هو الشَّرُّ، فلماذا قال: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾، ولم يقُلْ: (وإنْ أصابَه شَرٌّ انقلَبَ على وجهِه)؟

فالجوابُ: لأنَّ ما يَنفِرُ عنه الطبعُ ليس شرًّا في نفْسِه، بل هو سَببُ القُربةِ ورفعِ الدَّرجةِ بشرطِ التَّسليمِ والرِّضا بالقضاءِ[٣]، وأيضًا فلَمَّا كانتِ الشِّدَّةُ ليستْ بقبيحةٍ، لم يقُلْ تعالى: (وإنْ أصابَه شَرٌّ)، بلْ وصَفَه بما لا يُفيدُ فيه القُبحَ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ فيه سُؤالٌ: كيفَ قال: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾، والخيرُ أيضًا فِتنةٌ؛ لأنَّه امتحانٌ، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]؟

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٧، ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية زاده على البيضاوي)) (٦/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٣١).

الجوابُ: أنَّ مِثلَ هذا كثيرٌ في اللُّغةِ؛ لأنَّ النِّعمةَ بلاءٌ وابتلاءٌ، لقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥]، ولكن إنَّما يُطلقُ اسمُ (البَلاء) على ما يَثقُلُ على الطَّبعِ، والمنافقُ ليس عِندَه الخيرُ إلَّا الخيرُ الدُّنيويُّ، وليس عِندَه الشرُّ إلَّا الشرُّ الدُّنيويُّ؛ لأنَّه لا دِينَ له؛ فلذلك وردتِ الآيةُ على ما يَعتقِدونَه، وإنْ كان الخيرُ كلُّه فِتنةً، لكنْ أكثرُ ما يُستعمَلُ فيما يَشتدُّ ويَثقُلُ[1].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: إذا كانتِ الآيةُ في المنافِقِ؛ فمَا معنى قولِه: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، وهو في الحقيقةِ لم يُسلِمْ حتى يَنقلِبَ ويرتدَّ؟

والجوابُ: أنَّ المرادَ أنَّه أظهرَ بلسانِه خِلافَ ما كان أَظْهَره، فصارَ يَذُمُّ الدِّينَ عِندَ الشِّدَّةِ، وكان مِن قَبلُ يَمْدَحُه، وذلك انقلابٌ في الحقيقةِ[2].

٤- ذَكرَ اللهُ تعالى في آياتِ هذه السورةِ ثَلاثةَ أصنافٍ: صِنفٌ يُجادِلُ في اللهِ بغَيرِ عِلمٍ، ويَتَّبِعُ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ، مكتوبٍ عليه إضلالُ مَن تَولَّاه، وهذه حالُ المتَّبعِ لِمَن يُضلُّه. وصِنفٌ يُجادِلُ في اللهِ بغَيرِ عِلمٍ ولا هُدًى ولا كِتابٍ مُنيرٍ، ثانِيَ عِطْفِه ليُضِلَّ عن سَبيلِ اللهِ، وهذه حالُ المتبوعِ المُستكبِرِ الضالِّ عن سبيلِ اللهِ. ثُمَّ ذَكَر حالَ مَن يَعبُدُ اللهَ على حَرْفٍ، وهذه حالُ المتَّبعِ لهواهُ، الذي إنْ حصَلَ له ما يَهواه مِن الدُّنيا عبَدَ اللهَ، وإنْ أصابَه ما يُمتَحَنُ به في دُنياهُ ارتدَّ عن دِينِه؛ فهذه حالُ مَن كان مريضًا في إرادتِه وقصْدِه، وهي حالُ أهلِ الشَّهواتِ والأهواءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٨٨).

٥- كلُّ مَن يملِكُ الضُّرَّ والنفعَ فإنَّه هو المعبودُ حقًّا، والمعبودُ لا بدَّ أن يكونَ مالكًا للنفعِ والضَّررِ؛ ولهذا أنكَر الله تعالى على مَن عبَد مِن دونِه ما لا يملكُ ضرًّا ولا نفعًا، وذلك كثيرٌ في القرآنِ، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[1].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ * يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ فيه سؤالٌ: الضَّرَرُ والنَّفعُ مَنفيَّانِ عن الأصنامِ، مُثبَتانِ لها في الآيتَينِ، وهذا قد يُتوَهَّمُ أنَّه تناقُضٌ؟

وللعُلماءِ أوْجُهٌ في الجوابِ عن ذلِك:

منها: أنَّ الأصنامَ لا تَضرُّ ولا تَنفعُ بأنفُسِها، ولكنْ عِبادتُها نُسِب الضَّرَرُ إليها، كقولِه: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، أضافَ الإضلالَ إليهم؛ إذ كانوا سَببَ الضلالِ؛ فكذا هنا: نفْيُ الضررِ عنهم؛ لكونِها ليستْ فاعلةً، ثم أضافَه إليها؛ لكونِها سَببَ الضَّررِ[2].

ومنها: أنَّ الأصنامَ في الحقيقةِ لا تَضرُّ ولا تَنفَعُ، بيَّن ذلك في الآيةِ الأولى، ثم أثْبَتَ لها الضرَّ والنفعَ في الثانيةِ على طريقِ التَّسليمِ؛ أي: ولو سَلَّمْنا كونَها ضارَّةً نافعةً، لكان ضَرُّها أكثرَ مِن نفْعِها[3].

ومنها: أنَّ المنفيَّ هو فِعلُهم، بقولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾، والمُثبَتَ اسمٌ مضافٌ إليه، فإنَّه لم يقُلْ: (يَضرُّ أعظمَ ممَّا يَنفَعُ)؛ بل قال: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ

---

(١) ينظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿مِن نَّفۡعِهِۦ﴾، والشَّيءُ يُضافُ إلى الشَّيءِ بأدْنَى مُلابسةٍ؛ فلا يجبُ أنْ يكونَ الضَّرُّ والنَّفعُ المُضافانِ مِن بابِ إضافةِ المصدرِ إلى الفاعِلِ، بل قد يُضافُ المصدرُ مِن جِهةِ كونِه اسمًا، كما تُضافُ سائرُ الأسماءِ، وقدْ يُضافُ إلى مَحلِّه وزَمانِه ومكانِه وسَببِ حُدوثِه وإنْ لم يكُنْ فاعلًا؛ كقوله: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، ولا ريبَ أنَّ بينَ المعبودِ مِن دُونِ اللهِ وبين ضَرَرِ عابدِيه تعلُّقًا يَقتضي الإضافةَ، كأنَّه قيل: لَمَنْ شَرُّهُ أقربُ مِن خيرِه، وخَسارتُه أقربُ مِن رِبحِه. فهكذا المدعوُّ المعبودُ مِن دونِ اللهِ الذي لم يَأمُرْ بعِبادةِ نفْسِه؛ إمَّا لكونِه جَمادًا، وإمَّا لكونِه عبدًا مُطيعًا للهِ مِن الملائكةِ والأنبياءِ والصَّالحينَ مِن الإنسِ والجِنِّ؛ فما يُدْعَى مِن دُونِ اللهِ هو لا يَنفعُ ولا يَضرُّ، لكنْ هو السَّببُ في دُعاءِ الداعي له، وعِبادتِه إيَّاه، وعِبادةُ ذاك ودُعاؤُه هو الذي ضَرَّه؛ فهذا الضَّرُّ المضافُ إليه غيرُ الضَّرِّ المنفيِّ عنه[1]؛ فلمَّا كان الضَّرُّ الحاصلُ من الأصنامِ ليس ضَرًّا ناشئًا عن فِعلِها، بل هو ضَرٌّ مُلابِسٌ لها، أثبَتَ الضرَّ بطريقِ الإضافةِ للضميرِ دون طريقِ الإسنادِ؛ إذ قال تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾، ولم يقُلْ: (لَمَن يَضرُّ ولا يَنفعُ)؛ لأنَّ الإضافةَ أوسعُ مِن الإسنادِ؛ فلمْ يَحصُلْ تَنافٍ بين قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ [الحج: ١٢]، وقولِه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾[2] [الحج: ١٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ مثَلٌ لكونِهم على قلَقٍ واضطرابٍ في دِينِهم، لا على سُكونٍ وطُمأْنينةٍ، بتَمثيلِ حالِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٦).

المُتردِّدِ في عَمَلِه يُريدُ تَجرِبةَ عاقِبَتِه، بحالِ مَن يَمْشي على حَرفِ جبَلٍ أو حَرفِ وادٍ، فهو مُتهيِّئٌ لأنْ يَزِلَّ عنه إلى أسفَلِه، فيَنقلِبَ[١]، والحَرفُ هنا كِنايةٌ عن المقصدِ[٢].

- وقولُه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ كالتَّوضيحِ والبَيانِ للجُملةِ السَّابقةِ، وتَكريرُ معنى الخُسرانِ والتَّصويرِ؛ لأنَّ فائدةَ البدَلِ التَّفسيرُ والتَّوكيدُ[٣].

- وجُملةُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، وجُملةِ ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. والإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لزِيادةِ تَمييزِ المُسنَدِ إليه أتَمَّ تَمييزٍ؛ لتَقريرِ مَدلولِه في الأذهانِ[٤].

- والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بكونِه في غايةِ ما يَكونُ[٥].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ المُسنَدِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ قَصرٌ ادِّعائيٌّ[٦]، والمقصودُ منه: تَحقيقُ الخبَرِ، ونَفْيُ الشَّكِّ في وُقوعِه. وضَميرُ الفصْلِ أكَّدَ معنى القصْرِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨).

(٦) القصرُ الادِّعائي: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

فأفادَ تَقويةَ الخبرِ المقصورِ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

- قولُه: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لعِظَمِ الخُسرانِ(٢).

- وفي تَقديمِ الضَّرِّ على النَّفعِ: إشارةٌ إلى أنَّه تَملَّصَ مِن الإسلامِ تَجنُّبًا للضَّرِّ؛ لتوهُّمِه أنَّ ما لَحِقَه مِن الضَّرِّ بسببِ الإسلامِ وبسَببِ غضَبِ الأصنامِ عليه، فعاد إلى عِبادةِ الأصنامِ حاسِبًا أنَّها لا تضُرُّه. وفي هذا الإيماءِ تهكُّمٌ به، يَظهَرُ بتَعقيبِه بـ﴿ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾(٣).

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾؛ لزيادةِ تَمييزِ المُسنَدِ إليه أتَمَّ تَمييزٍ؛ لتَقريرِ مَدْلولِه في الأذهانِ. والقَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ المُسنَدِ ﴿ ٱلضَّلَٰلُ ﴾ قَصرٌ ادِّعائيٌّ، والمقصودُ منه: تَحقيقُ الخبرِ، ونَفْيُ الشَّكِّ في وُقوعِه. وضَميرُ الفصْلِ أكَّدَ معنى القَصرِ؛ فأفاد تَقويةَ الخبَرِ المقصورِ(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ مآلِ دُعائِه المذكورِ، وتَقريرِ كَونِه ضَلالًا بعيدًا، مع إزاحةِ ما عسَى يُتَوهَّمُ مِن نَفْيِ الضَّررِ عن مَعبودِه بطريقِ المُباشَرةِ، ونَفْيِه عنه بطَريقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢١٥).

التَّسبُّبِ أيضًا. ويجوزُ أنْ يكونَ الفِعْلُ ﴿يَدْعُواْ﴾ الثَّاني إعادةً للأوَّلِ، لا تأكيدًا له فقط، بل وتَمهيدًا لِمَا بعْدَه من بَيانِ سُوءِ حالِ مَعبودِه إثْرَ بَيانِ سُوءِ حالِ عبادتِه، بقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾؛ كأنَّه قِيلَ من جِهَتِه تعالى بعْدَ ذِكْرِ عبادتِه لِمَا لا يَضُرُّه ولا ينفَعُه: (يَدْعو ذلك)، ثمَّ قيلَ: (لَمَن ضَرُّه أقرَبُ مِن نَفعِهِ واللهِ لَبِئْسَ المَوْلى ولَبِئْسَ العَشيرُ)؛ فكلمةُ (مَن) وصِيغةُ التَّفضيلِ ﴿أَقْرَبُ﴾ للتَّهكُّمِ به[1].

- قولُه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ اللَّامُ للابتداءِ -على قولٍ-، وهي تُفِيدُ تأْكيدَ مَضمونِ الجُملةِ الواقعةِ بعْدَها، فلامُ الابتداءِ تُفِيدُ مُفادَ (إنَّ) مِن التَّأكيدِ[2].

- قولُه: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ فيه إيثارُ (مَن) على (مَا)، مع كونِ مَعبودِه جَمادًا، وإيرادُ صِيغَةِ التَّفضيلِ ﴿أَقْرَبُ﴾ مع خُلُوِّه عن النَّفعِ بالمرَّةِ؛ للمُبالَغةِ في تَقبيحِ حالِه، والإمعانِ في ذَمِّه[3]. وكونُه أقرَبَ مِن النَّفعِ كِنايةٌ عن تَمحُّضِه للضَّرِّ، وانتفاءِ النَّفعِ منه؛ لأنَّ الشَّيءَ الأقرَبَ حاصِلٌ قبْلَ البعيدِ؛ فيَقْتضي ألَّا يَحصُلَ معه إلَّا الضَّرُّ[4].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٦).

الآيات (١٤-١٧)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ
إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ
بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
شَهِيدٌ ١٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِسَبَبٍ﴾: أي: بحَبلٍ، وأصلُ (سبب): يدُلُّ على طولٍ وامتِدادٍ(١).

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: جمْعُ صابئٍ، ويُقالُ لكلِّ خارجٍ مِن دِينٍ إلى دينٍ آخَرَ، والصابئونَ فِرقٌ؛ منها: الصابئةُ الحُنفاءُ، ومنها صابئةٌ مشركونَ، ومنها صابئةٌ فلاسفةٌ، إلى غيرِ ذلك، وأصلُ (صبأ): يدُلُّ على خروجٍ وبُروزٍ، يُقالُ: صبأَتِ النُّجومُ؛ إذا خرَجتْ مِن مطالعِها(٢).

﴿وَٱلۡمَجُوسَ﴾: هم أهلُ دينٍ يُثبِتُ إلَهَينِ: إلهًا للخَيرِ، وإلهًا للشَّرِّ، وهم أهلُ فارسَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣١٩)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا الصَّالحاتِ، جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ، إنَّ اللهَ يَفعَلُ ما يريدُ. مَن كان يعتَقِدُ أنَّ اللهَ تعالى لن ينصُرَ رَسولَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدُّنيا وفي الآخرةِ، فلْيَمدُدْ حَبلًا إلى سَقفِ بَيتِه، ولْيَخنُقْ به نَفْسَه، ثمَّ لْيَنظُرْ: هل يُذْهِبَنَّ ذلك ما يجِدُ في نَفسِه مِن الغَيظِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى ناصِرٌ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُتِمٌّ نُورِه لا محالةَ.

وكما بَيَّنَ اللهُ تعالى الآياتِ السَّابِقةَ وأوضَحَها، أنزَلَ القُرآنَ آياتُه واضِحةٌ في لَفظِها ومَعناها؛ ولأنَّ اللهَ يَهدي بهذا القُرآنِ إلى الحَقِّ مَن يريدُ هِدايَتَه، أنزَلَه آياتٍ بيِّناتٍ.

إنَّ الذين آمَنوا باللهِ ورُسُلِه، واليَهودَ والصَّابئينَ والنَّصارى والمجوسَ والذين أشرَكوا؛ إنَّ الله يَفصِلُ بينهم جميعًا يومَ القيامةِ، فيُدخِلُ المُؤمِنينَ الجَنَّةَ، ويُدخِلُ الكافرينَ النَّارَ، إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ، لا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه في الآيةِ السَّابِقةِ حالَ عِبادةِ المُنافِقينَ وحالَ مَعبودِهم؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ صِفةَ عِبادةِ المُؤمِنينَ وصِفةَ مَعبودِهم[1].

= ((تاج العروس)) للزبيدي (١٦/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢١٠).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى المجادِلَ بالباطِلِ، وأنَّه على قِسمَينِ: مُقلِّد، وداعٍ؛ ذَكَر أنَّ المُتسمِّيَ بالإيمانِ أيضًا على قِسمَينِ: قِسْمٌ لم يَدخُلِ الإيمانُ قلبَه. والقِسمُ الثاني: المؤمِنُ حقيقةً، وهو الذي صدَّق ما معه من الإيمانِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، فأخْبَر تعالى أنَّه يُدخِلُ أصحابَ هذا القسمِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَر أنَّ الأصنامَ لا تَنفَعُ مَن عبَدَها، قابَلَ ذلك بأنَّ اللهَ يَنفَعُ مَن عَبَدَه بأعظَمِ النَّفعِ، وهو دُخولُ الجَنَّةِ[(٢)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ يومَ القيامةِ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ- جَناتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها[(٣)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَفعَلُ كُلَّ ما يُريدُ فِعلَه مِن نَفعٍ أو ضُرٍّ دونَ مُمانِعٍ، ويَحكُمُ في خَلقِه في الدُّنيا والآخرةِ بما يَشاءُ، ومِن ذلك إيصالُ أهلِ الجَنَّةِ إليها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨، ٩٩)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٣/ ٥١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).
قال الشوكاني: (إنْ أُريد بها الأشجارُ المتكاثفةُ الساترةُ لِما تحتَها، فجريانُ الأنهارِ مِن تحتِها ظاهرٌ، وإنْ أُريد بها الأرضُ فلا بدَّ مِن تقديرِ مضافٍ، أي: مِن تحتِ أشجارِها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: مَن كان يَظُنُّ[1] أنَّ اللهَ ليس بناصرٍ رَسولَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2]

---

(١) قيل: المرادُ: الكافرُ الحاسدُ. وممن قال بذلك: الشنقيطي. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨٧).
وقيل: المرادُ مَن يعبدُ الله على حَرفٍ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١١).

(٢) وممن قال بأنَّ الضميرَ في قولِه تعالى: ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائدٌ إلى محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلام: ابنُ جرير، وابنُ عطيةَ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير ابن عطية (٤/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٧).
قال الواحدي: (أكثرُ أهلِ التفسيرِ على أنَّ الهاءَ في ﴿يَنصُرَهُ﴾ كنايةٌ عن محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم). ((البسيط)) (١٥/ ٣٠٧).
وذكر القولَ الثاني، فقال أيضًا: (ومذهبُ مجاهدٍ والضحَّاكِ: أنَّ الهاءَ كنايةٌ عن ﴿مَن﴾ في قولِه ﴿مَن كَانَ﴾). ((البسيط)) (١٥/ ٣١٤).
وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جُزي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٩).
قال ابنُ جزي: (القَولُ الثَّاني: أنَّ الضَّميرَ في ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائدٌ على ﴿مَن﴾، والمعنى على هذا: مَن ظنَّ بسَبَبِ ضِيقِ صَدرِه وكَثرةِ غَمِّه أنْ لن يَنصُرَه اللهُ، فلْيَختَنِقْ ولْيَمُتْ بغَيظِه؛ فإنَّه لا يَقدِرُ على غيرِ ذلك، فمُوجبُ الاختناقِ على هذا القُنوطُ والسَّخَطُ من القَضاءِ، وسوءُ الظَّنِّ باللهِ حتى ييأسَ مِن نَصْرِه؛ ولذلك فَسَّر بعضُهم ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ بمعنى: أنْ لن يَرزُقَه. وهذا القَولُ أرجَحُ مِن الأوَّلِ؛ لِوَجهَينِ: أحَدُهما: أنَّ هذا القولَ مُناسِبٌ لِـ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾؛ لأنَّه إذا أصابَتْه فِتنةٌ انقلَب وقَنِطَ، حتى ظَنَّ أنَّ اللهَ لن يَنصُرَه، فيكونُ هذا الكلامُ مُتَّصِلًا بما قَبْلَه، ويدُلُّ على ذلك قَولُه قبلَ هذه الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، أي: الأمورُ بيَدِ اللهِ؛ فلا ينبغي لأحَدٍ أن يتسَخَّطَ مِن قَضاءِ اللهِ، ولا ينقلِبَ إذا أصابَتْه فِتنةٌ. والوَجهُ الثَّاني: أنَّ الضَّميرَ في ﴿يَنصُرَهُ﴾ على هذا القَولِ يعودُ على ما تقدَّمَه، وأمَّا على القَولِ الأوَّلِ فلا يعودُ على مذكورٍ قَبْلَه؛ لأنَّ النَّبيَّ =

في الدُّنيا والآخرةِ، فلْيُعَلِّقْ حَبلًا في سقفِ بيتِه، ويَشُدَّه في عُنُقِه[(١)].

= صلَّى الله عليه وسلَّم لم يُذكَرْ قبلَ ذلك بحيثُ يعودُ الضَّميرُ عليه، ولا يدُلُّ سِياقُ الكلامِ عليه دَلالةً ظاهِرةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى تفسيرِ النصرِ بالرزقِ. وضعَّفه ابنُ القيم، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٨).

وقال ابنُ عطية: (أَبْيَنُ وجوهِ هذه الآيةِ أن تكونَ مثلًا، ويكونَ «النصرُ» المعروفَ، و«القطعُ»: الاختناقَ، و«السماءُ»: الارتفاعَ في الهواءِ بسقفٍ أو شجرةٍ ونحوِه، فتأمَّلْه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٦، ٢٨٧).

قيل المراد: حَبْلٌ يُعلَّقُ في سَقفِ بَيتٍ أو غيرِه، وكلُّ شَيءٍ علاك وأظَلَّك فهو سماءٌ. وممن قال بذلك: ابن جرير، والسمعاني -ونسبه لجميعِ المفسرينَ-، وابن عطية، ونسبه ابنُ الجوزي إلى الأكثرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢٧). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٧).

قال الشنقيطي: (وحاصِلُ هذا القَولِ: أنَّ اللهَ يَقولُ لحاسِدِيه صلَّى الله عليه وسلَّم، الذين يَتربَّصون به الدَّوائِرَ، ويَظُنُّونَ أنَّ رَبَّه لن يَنصُرَه: موتوا بغَيظِكم؛ فهو ناصِرُه لا محالةَ على رَغمِ أُنوفِكم. وممَّن قال بهذا القولِ: مجاهِدٌ، وقتادةُ، وعِكرمةُ، وعطاءٌ، وأبو الجوزاءِ، وغيرُهم. كما نقله عنهم ابنُ كثير، وهو أظهَرُها عندي.

وممَّا يشهدُ لهذا المعنى من القرآنِ: قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١١٩]. ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨٧).

وقيل: المرادُ بالسماءِ: السماءُ المعروفةُ، ومعنى الآيةِ على ذلك: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصرَ اللهُ نبيَّه في أمرِه، فلْيَمْدُدْ ذلك الظانُّ بحَبلٍ إلى السماءِ، ولْيَرْقَ إليها، وليقطَعْ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم النصرَ النازِلَ عليه مِن السماءِ. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

قال الشنقيطي: (والمعنى: أنَّه إنْ أعمَلَ كُلَّ ما في وُسْعِه مِن كَيدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لِيَمنَعَ عنه نَصْرَ اللهِ، فإنَّه لا يَقدِرُ على ذلك، ولا يُذهِبُ كَيدُه ما يَغيظُه مِن نَصرِ اللهِ لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم. =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾.

أي: ثُمَّ لْيَختَنِقْ بالحَبلِ، فلْيَنظُرْ حينَها: هل يُذهِبَنَّ صَنيعُه هذا ما يَغيظُه؟! كلَّا، لا يُغْني ذلك عنه شيئًا، وإنما يقَعُ ضَرَرُ كَيدِه على نفْسِه، واللهُ مُتِمُّ نُورِه، وناصِرٌ نبيِّه(١).

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

= وممَّا يشهدُ لهذا القولِ مِن القُرآنِ قَولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١٠، ١١]. ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨٨).

وممن قال بنحو ذلك من السلف: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٧).

قال البغوي: (ليس هذا على سبيلِ الحَتمِ أن يفعَلَه؛ لأنَّه لا يمكِنُه القَطعُ والنَّظَرُ بعد الاختناقِ والموتِ، ولكنَّه كما يُقالُ للحاسِدِ: إن لم تَرْضَ هذا، فاختَنِقْ ومُتْ غَيظًا). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٧).

قال الزمخشري: (سمِّيَ الاختناقُ قطعًا؛ لأنَّ المختنقَ يقطعُ نفَسَه بحبسِ مجاريه... وسمِّي فعلُه كيدًا؛ لأنَّه وضَعه موضعَ الكيدِ، حيث لم يَقدِرْ على غيرِه. أو على سبيلِ الاستهزاءِ؛ لأنَّه لم يَكِدْ به محسودَه، إنَّما كاد به نفْسَه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٧، ١٤٨).

وقال ابن عاشور: (المعنى: فلْيَنُطْ حبلًا بالسَّماءِ مَربوطًا به، ثمَّ يَقطَعْه؛ فيَسقُطَ مِنَ السَّماءِ فيتَمَزَّقَ كُلَّ مُمزَّقٍ، فلا يُغنيَ عنه فِعلُه شَيئًا مِن إزالةِ غَيظِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٩).

أي: وكما بَيَّنَّا لكم الآياتِ السَّابِقةَ وأوضَحْناها، كذلك أنزَلْنا القُرآنَ كُلَّه آياتٍ واضِحاتِ الدَّلالةِ(١).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾.

أي: ولأنَّ اللهَ يَهدي بهذا القُرآنِ إلى الحَقِّ مَن يريدُ هِدايتَه، أنزَلَه آياتٍ بيِّناتٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سُبحانه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٤)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٨٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٢).

وممَّن قال بأنَّ المصدَرَ المُؤوَّلَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي﴾ على تقديرِ لامِ العِلَّةِ، وتعَلُّقِه بفِعلٍ مَحذوفٍ مؤَخَّرٍ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٢).

وذهب ابنُ جزي إلى أنَّ قولَه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ معطوفٌ على ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾؛ لأنَّه مقدَّرٌ بالمصدرِ، فالتقديرُ: أنزلناه آياتٍ بيناتٍ وهدًى لمن أراد الله أن يهديَه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥).

وقال ابنُ عطية: (وقَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ في مَوضِعِ خبرِ الابتِداءِ، والتَّقديرُ: والأمرُ أنَّ اللهَ يَهدي مَن يريدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٢).

وقال السعديُّ: (أي: وكذلك لَمَّا فصَّلْنا في هذا القُرآنِ ما فصَّلْنا، جعَلْناه آياتٍ بيِّناتٍ واضِحاتٍ دالَّاتٍ على جميعِ المطالِبِ والمسائِلِ النَّافِعةِ، ولكِنَّ الهِدايةَ بيَدِ اللهِ؛ فمَن أراد اللهُ هدايتَه اهتدَى بهذا القُرآنِ، وجعَله إمامًا له وقُدوةً، واستضاء بنُورِه، ومَن لم يُرِدِ اللهُ هدايتَه فلو جاءته كلُّ آيةٍ ما آمَن، ولم يَنفَعْه القُرآنُ شيئًا، بل يكونُ حُجَّةً عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكر قَبْلُ أنَّ اللهَ يَهدي مَن يُريدُ؛ عقَّبَ ذلك ببيانِ مَن يَهدِيه ومَن لا يَهديه؛ لأنَّ ما قَبْلَه يَقتضي أنَّ مَن لا يُريدُ هِدايتَه لا يَهديه، فدَلَّ إثباتُ الهِدايةِ لِمَن يُريدُ على نَفْيِها عمَّن لا يُريدُ(١).

وأيضًا لَمَّا اشتَمَلت الآياتُ السَّابِقةُ على بيانِ أحوالِ المتَرَدِّدينَ في قَبولِ الإسلامِ، كان ذلك مَثارًا لأنْ يُتساءَلَ عن أحوالِ الفِرَقِ بَعضِهم مع بَعضٍ في مُختَلِفِ الأديانِ، وأن يُسأَلَ عن الدِّينِ الحَقِّ؛ لأنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَدَّعي أنَّها على الحَقِّ وغَيرَها على الباطِلِ، وتجادِلُ في ذلك، فبَيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ الفَصلَ بينَ أهلِ الأديانِ فيما اختَصَموا فيه يكونُ يومَ القيامةِ؛ إذ لم تُفِدْهمُ الحُجَجُ في الدُّنيا(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: إنَّ المُؤمِنينَ باللهِ ورُسُلِه، واليَهودَ، والصَّابِئينَ(٣)، والنَّصارى، والمجوسَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٢).

(٣) الصابئةُ أمَّةٌ قديمةٌ قبلَ اليهودِ والنَّصارَى، وهم نوعان: صابئةٌ حنفاءُ موحِّدون، اتَّبَعوا مِلَّةَ إبراهيمَ، وصابئةٌ مشركون. يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٢٨٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٢٣٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٥٠)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٥٥١).

والمُشرِكينَ باللهِ- إنَّ اللهَ يَحكُمُ بينهم يومَ القيامةِ، ويُجازي كُلًّا بعَمَلِه؛ فيُدخِلُ المُؤمِنينَ منهم الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافرينَ النَّارَ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ مِن أعمالِ هؤلاء الأصنافِ، وغَيرِ ذلك مِن الأشياءِ كُلِّها- شَهيدٌ لا يخفى عليه شَيءٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ هذه الآيةُ الكَريمةُ فيها مِنَ الوَعدِ والبِشارةِ بنَصرِ اللهِ لدِينِه ولِرَسولِه وعبادِه المُؤمِنينَ ما لا يَخفَى، ومِن تَأييسِ الكافرينَ الذين يُريدونَ أن يُطفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم، واللهُ مُتِمُّ نُورِه، ولو كَرِهَ الكافِرونَ(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

المجوس: هم عبدةُ النيرانِ، القائلون: إنَّ للعالَمِ أصلينِ: النُّور والظُّلمة. وقيل: هم قومٌ عبَدوا الشَّمسَ والقمرَ. وقيل: هم الثنويةُ الذين يؤمنون بوجودِ إلهينِ؛ أحدُهما للخيرِ، والآخرُ للشرِّ. يُنظر: ((الملل والنحل)) للشَّهْرَسْتاني (٢/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

فيه أنَّ اللهَ فَصَّلَ في هذا القُرآنِ ما فَصَّلَ، وجعَلَه آياتٍ بَيِّناتٍ واضحاتٍ، دالَّاتٍ على جَميعِ المطالِبِ والمسائِلِ النَّافِعةِ، ولكِنَّ الهِدايةَ بيَدِ اللهِ، فمَن أراد اللهُ هدايَتَه، اهتَدَى بهذا القُرآنِ، وجعَلَه إمامًا له وقُدوةً، واستضاءَ بنُورِه، ومَن لم يُرِدِ اللهُ هِدايَتَه، فلو جاءَتْه كُلُّ آيةٍ ما آمَنَ، ولم ينفَعْه القُرآنُ شيئًا، بل يكونُ حُجَّةً عليه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ الإرادةُ في هذه الآيةِ هي إرادةٌ كونيَّةٌ -وهي التي بمعنى المَشيئةِ-، ويُقابِلُها الإرادةُ الشَّرعيَّةُ -وهي التي بمعنى المحبَّةِ-، كما في قَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾[٢] [البقرة: ١٨٥].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، وفي سُورة (البَقرةِ) و(المائدةِ) ذكَرَ أربعةَ أصنافٍ: المُسلمينَ، والذين هادُوا، والنَّصارى، والصَّابئِينَ، ثمَّ قال: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]؛ فذكَر سِتَّ أُممٍ، مِنهم: اثنتانِ شَقِيَّتانِ، وأربعٌ منهم مُنقسِمةٌ إلى شَقيٍّ وسعيدٍ، وحيثُ وعَدَ أهلَ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ منهم بالأجْرِ ذَكَرَهم أربعَ أُممٍ لَيس إلَّا؛ ففي آيةِ الفَصلِ بينَ الأممِ أَدخلَ معهم الأُمَّتَينِ، وفي آيةِ الوَعدِ بالجزاءِ لم يُدخِلْها معهم؛ فعُلِمَ أنَّ الصابئينَ فيهم المؤمنُ والكافرُ، والشَّقيُّ والسَّعيدُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٢٣٦، ٢٣٧). ويُنظر أيضًا: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٥٤-٤٥٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ذكرَ المِلَلَ السِّتَّ؛ ليُبيِّنَ أنَّه يَفصِلُ بيْنهم يومَ القيامةِ، ولم يُثْنِ عليهم، فلم يُثْنِ سُبحانَه على أحدٍ مِنَ المجوسِ والمُشرِكينَ، كما أثنى على بَعضِ الصَّابئينَ واليَهودِ والنَّصارى في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وهذا مما استدلَّ به جمهورُ العُلَماءِ على أنَّ المجوسَ لَيسُوا أهلَ كِتابٍ، فلا تُباحُ ذَبائِحُهم، ولا نِكاحُ نِسائِهم؛ إذ لو كانوا أهلَ كتابٍ لكان فيهم مَن يُثني اللهُ عليه، كما كان في اليَهودِ والنَّصارى[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ استئنافٌ جِيءَ به لبَيانِ كَمالِ حُسْنِ حالِ المُؤمنينَ العابدينَ له تعالى، وأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يتفضَّلُ عليهم بما لا غايةَ وراءَهُ مِن أجَلِّ المنافعِ، وأعظَمِ الخيراتِ[(٢)].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تَذييلٌ للكلامِ المُتقدِّمِ، وهو اعتراضٌ بينَ الجُمَلِ المُلْتَئِمِ منها الغرَضُ. وفي الجُملةِ أيضًا معنى التَّعليلِ الإجماليِّ

(١) يُنظر: ((الرَّدُّ على الشَّاذِليِّ)) لابن تيمية (ص: ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٨).

لاختلافِ أحوالِ النَّاسِ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ في الكلامِ اختصارٌ، والمعنى: إنَّ اللهَ ناصِرٌ رسولَه في الدُّنيا والآخرةِ؛ فمَن كان يَظُنُّ مِن حاسِديهِ وأعادِيهِ أنَّ اللهَ يَفعَلُ خِلافَ ذلك ويَطمَعُ فيه، ويَغِيظُه أنَّه يَظفَرُ بمَطلوبِه؛ فلْيستقْصِ وُسْعَه ولْيستفرِغْ مَجهودَه في إزالةِ ما يَغيظُه، بأنْ يَفعَلَ ما يفعَلُ مَن بلَغَ منه الغيظُ كلَّ مَبلغٍ، حتَّى مَدَّ حبْلًا إلى سماءِ بَيتِه فاختْنَقَ، فلْينظُرْ ولْيصوِّرْ في نَفْسِه أنَّه إنْ فعَلَ ذلك، هل يُذهِبُ نَصرَ اللهِ الَّذي يَغيظُه[٢]؟

- وفي قولِه: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ تَوبيخٌ، وهذا على جِهَةِ المثَلِ السَّائرِ: (دُونَك الحبْلَ فاختَنِقْ)، وسَمَّى الاختناقَ قطْعًا؛ لأنَّ المُختنِقَ يَقطَعُ نفَسَهُ بحبْسِ مَجاريه، أي: كَنَّى عن الاختناقِ بالقطْعِ؛ فإنَّه لازِمُه، كما تقولُ العربُ: قُطِعَ فُلانٌ؛ إذا اختنَقَ. ولأنَّ المُختنِقَ يمُدُّ السَّببَ إلى السَّقفِ، ثمَّ يَقطَعُ نفَسَهُ من الأرضِ حتَّى يَختنِقَ. وسَمَّى فِعْلَه كيدًا؛ لأنَّه وضَعَه مَوضِعَ الكيدِ، حيث لم يَقدِرْ على غيرِه. أو على سَبيلِ الاستهزاءِ؛ لأنَّه لم يَكِدْ به مَحسودَهُ، إنَّما كاد به نفْسَه[٣].

- وقد فُسِّرَ النَّصرُ بالرِّزقِ؛ فعلى هذا فالكلامُ تامٌّ ولم يَدخُلْه الاختصارُ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٧، ١٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٧، ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٠٧).

والضَّميرُ في ﴿يَنصُرَهُ﴾ لكلِّ أحدٍ، وهو راجعٌ إلى (مَنْ)؛ وحينئذٍ تكونُ الآيةُ مُتَّصِلةً بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾، ويكونُ قولُه: ﴿يَدۡعُواْ﴾ إلى آخِرِ الآياتِ مُعترِضةً مُؤكِّدةً لِمَعنى تَجهيلِهم، وأنَّ اللهَ هو القابِضُ الباسِطُ، وهو الضَّارُّ النَّافعُ وحْدَه[(١)]، وذلك على أحدِ الأوجُهِ في التفسيرِ.

- ويحتملُ أنْ يكونَ مَوقِعُ هذه الآيةِ استئنافًا ابتدائيًّا، أُرِيدَ به ذِكْرُ فَريقٍ ثالثٍ غيرِ الفريقينِ المُتقدِّمين. ويحتملُ أنْ يكونَ مَوقِعُها تذييلًا لقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج: ١١] الآيةَ، بعْدَ أنِ اعترِضَ بين تلك الجُملةِ وبين هاتِه بجُمَلٍ أُخرى، فيكونُ المُرادُ: أنَّ الفريقَ الَّذين يَعبدونَ اللهَ على حَرفٍ والمُخبَرَ عنهم بقولِه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، هم قومٌ يَظنُّونَ أنَّ اللهَ لا يَنصُرُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ بَقُوا على الإسلامِ. وعُلِّقَ فِعْلُ ﴿لَّن يَنصُرَهُ﴾ بالمجرورِ بقولِه: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ إيماءً إلى كَونِه مُتعلَّقَ الخُسرانِ في قولِه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، ولم تُورَدْ فيه جُملةُ (ومِن النَّاسِ) كما أُورِدَتْ في ذِكْرِ الفريقينِ السَّابقينِ، ويكونُ المقصودُ من الآيةِ تَهديدَ هذا الفريقِ؛ فيكونُ التَّعبيرُ عن هذا الفريقِ بقولِه: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ ...﴾ إلخ، إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ فإنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُؤْتَى بضَميرِ ذلك الفريقِ، فيُقالُ بعْدَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ...﴾ إلخ، عائدًا الضَّميرُ المُستتِرُ في قولِه: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ على ﴿مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج: ١١]. والعُدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ لوَجْهينِ؛ أحدُهما: بُعْدُ مُعادِ الضَّميرِ، وثانيهما: التَّنبيهُ على أنَّ عِبادتَه اللهَ على حَرفٍ ناشئةٌ عن ظَنِّه أنْ لنْ يَنصُرَه اللهُ في

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٥٥، ٤٥٦).

الدُّنيا والآخرةِ إنْ صَمَّمَ على الاستمرارِ في اتِّباعِ الإسلامِ؛ لأنَّه غيرُ واثقٍ بوعْدِ النَّصرِ للمُسلمينَ. والآيةُ -على هذا المعنَى في التفسيرِ- فيها إيجازٌ بَديعٌ؛ شُبِّهَت حالةُ استبطانِ هذا الفريقِ الكُفْرَ وإظهارِهم الإسلامَ على حَنَقٍ، أو حالةُ تَردُّدِهم بين البَقاءِ في المُسلمينَ وبين الرُّجوعِ إلى الكُفَّارِ، بحالةِ المُغْتاظِ ممَّا صنَعَ، فقيل لهم: عليكم أنْ تَفْعلوا ما يَفعَلُه أمثالُكم ممَّن ملَأَهمُ الغيظُ، وضاقت عليهم سُبُلُ الانفراجِ، فامْدُدوا حبْلًا بأقْصى ما يُمَدُّ إليه حبْلٌ، وتَعلَّقوا به في أعْلى مكانٍ، ثمَّ قَطِّعُوه؛ تَخِرُّوا إلى الأرضِ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، وذلك تَهكُّمٌ بهم في أنَّهم لا يَجِدون غِنًى في شَيءٍ مِن أفعالِهم، وإنذارٌ باستمرارِ فِتْنتِهم في الدُّنيا، مع الخُسرانِ في الآخرةِ(١).

- وقيل: مَفعولُ ﴿لْيَقْطَعْ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المَقامِ عليه. والتَّقديرُ: ثمَّ لْيَقْطَعْه، أي: لِيَقطَعَ السَّببَ، وهو الحبلُ. والأمْرُ في قولِه: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ للتَّعجيزِ؛ فيُعْلَمُ أنَّ تَعليقَ الجوابِ على حُصولِ شَرْطٍ لا يقَعُ(٢).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ ...﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ شَبَّهَ ذلك التَّبْيينَ بنفْسِه؛ كِنايةً عن بُلوغِه الغايةَ في جِنْسِه، بحيث لا يُلْحَقُ بأوضَحَ منه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ الَّتي قبْلَها عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ، والمُناسَبةُ ظاهرةٌ؛ فهي استئنافٌ ابتدائيٌّ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٨، ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ تَعليلٌ لكونِ القُرآنِ بيانًا، ومُعَلَّلُه مَحذوفٌ يدُلُّ عليه المذكورُ[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فَذلكةٌ[(٢)] لِمَا تقدَّمَ؛ حيث بيَّنَتْ هذه الآيةُ أنَّ الفصلَ بينَ أهْلِ الأديانِ فيما اختَصَموا فيه يكونُ يومَ القيامةِ؛ إذ لم تُفِدْهمُ الحُجَجُ في الدُّنيا. وهذا الكلامُ بما فيه مِن إجمالٍ هو جارٍ مَجْرى التَّفويضِ، ومِثْلُه يكونُ كِنايةً عن تَصويبِ المُتكلِّمِ طَريقتَه، وتَخْطئتِه طَريقةَ خَصْمِه؛ لأنَّ مثْلَ ذلك التَّفويضِ للهِ لا يكونُ إلَّا مِن الواثقِ بأنَّه على الحقِّ، وذلك مِن قَبيلِ الكِنايةِ التَّعريضيَّةِ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أُدْخِلَت (إنَّ) على كلِّ واحدٍ من جُزأيِ الجُملةِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ والتَّوكيدِ. وحسَّنَ دُخولَ (إنَّ) على الجُملةِ الواقعةِ خبرًا طولُ الفَصْلِ بينهما بالمعاطيفِ، وكونُ خبَرِها جُملةً[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢١).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٢).

تنقسمُ الكِناية باعتبارِ الوسائطِ (اللوازم) والسِّياق إلى أربعةِ أقسام: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتعريضُ لغة: خلافُ التصريح، واصطلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ، ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ، يُفهَمُ مِن السِّياق، نحو قولك للمؤْذِي: «المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمون مِن لِسانِه ويَدِه»؛ تعريضًا بنفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي.

يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦- ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير =

- وقدَّمَ الصَّابئينَ على النَّصارى؛ لتَقدُّمِ زَمانِهم[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ...﴾ فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث زاد في هذه الآيةِ ذِكْرَ المجوسِ والمُشرِكينَ، ولم يذكُرْهما في آيةِ (البقرةِ): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ٦٢]، وآيةِ (المائدةِ): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [المائدة: ٦٩]؛ لأنَّ الآيتينِ المُتقدِّمتينِ كانتا في مَساقِ بَيانِ فضْلِ التَّوحيدِ والإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ في كلِّ زمانٍ، وفي كلِّ أُمَّةٍ. وزِيدَ في هذه السُّورة ذِكْرُ المجوسِ والمُشرِكينَ؛ لأنَّ هذه الآيةَ مَسوقةٌ لبَيانِ التَّفويضِ إلى اللهِ في الحُكْمِ بين أهْلِ المِلَلِ، فالمجوسُ والمُشرِكونَ ليسوا من أهْلِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ[2]، فذكَر المللَ السِّتَّ هنا؛ ليبينَ أنَّه يفصلُ بينَهم يومَ القيامةِ، أما في سورة (البقرةِ) و(المائدةِ) فذكَرَ أربعةَ أصنافٍ: المُسلمينَ، والذين هادُوا، والنَّصارى، والصَّابِئينَ، ثمَّ قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]؛ فدَلَّ على أنَّ هذه الأربعةَ منهم مَن آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالِحًا، وأولئك هم السُّعَداءُ في الآخرةِ، بخلافِ مَن لم يكُنْ مِن هؤلاء مؤمِنًا باللهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالِحًا، وبخلافِ مَن كان مِن المجوسِ

= أبي السعود)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) (٦/ ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٠، ١٨١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٢، ٢٢٣).

والمُشرِكينَ؛ فهؤلاء كلُّهم لم يُذكَرْ منهم سعيدٌ في الآخرةِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للإعلام بإحاطةِ عِلْمِ اللهِ بأحوالِهم واختلافِهم، والصَّحيحِ مِن أقوالِهم[٢]، وهو تَعليلٌ لِمَا قبْلَه[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ناسَبَ الخَتْمُ بقولِه: ﴿شَهِيدٌ﴾ الفصلَ بين الفِرَقِ[٤].



(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٤)، ((الرد على الشاذلي)) لابن تيمية (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٤).

الآية (١٨)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨)﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿حَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المطابقةُ والموافقةُ، وأصلُ (حَقق): يَدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ألم تعلَمْ أنَّ اللهَ سُبحانَه يَسجُدُ له خاضِعًا مُنقادًا مَن في السَّمَواتِ مِنَ الملائكةِ، ومَنْ في الأرضِ مِن المَخلوقاتِ، والشَّمسُ والقَمَرُ، والنُّجومُ والجِبالُ، والشَّجَرُ والدوابُّ؟ ويَسجُدُ له طاعةً واختيارًا كثيرٌ مِن النَّاسِ، وهم المؤمِنونَ، وكثيرٌ مِن النَّاسِ حَقَّ عليه العذابُ فهو مَهينٌ، وأيُّ إنسانٍ يُهنْه اللهُ، فليس له أحَدٌ يُكرِمُه؛ إنَّ اللهَ يَفعَلُ في خَلْقِه ما يشاءُ وَفْقَ حِكمَتِه.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن أبان اللهُ عزَّ وجلَّ فيما سلف أنَّه يَقضي بين أربابِ الفِرَقِ السَّالفةِ يومَ القيامةِ، وهو شهيدٌ على أقوالِهم وأفعالِهم- أردَفَ هذا ببيانِ أنَّه ما كان ينبغي لهم أن يختَلِفوا، ألَا يَرَوْنَ أنَّ جميعَ العوالمِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ: كبيرَها وصغيرَها، شَمسَها وقمَرَها ونجومَها، وجبالَها وحيوانَها ونباتَها- خاضِعةٌ لجَبَروتِه، مُسخَّرةٌ لقُدرتِه[1]؟!

وأيضًا فهي مرتبطةٌ بمعنى قَولِه: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُـرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢، ١٣] ارتباطَ الدَّليلِ بالمطلوبِ؛ فإنَّ دلائلَ أحوالِ المخلوقاتِ كُلِّها -عاقِلِها وجمادِها- شاهدةٌ بتفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، وفي تلك الدَّلالةِ شَهادةٌ على بطلانِ دعوةِ مَن يدعو مِن دونِ اللهِ ما لا يضُرُّه وما لا ينفَعُه[2].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾.

أي: ألم تعلَمْ[3] أنَّ اللهَ يَسجُدُ له مَن في السَّموَاتِ مِن الملائكةِ، ومَن في الأرضِ مِن الخلقِ مِن الجنِّ وغيرِهم[4]، والشَّمسُ والقَمَرُ والنُّجومُ في السَّماءِ،

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٣) قيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يصلُحُ له، وهو مَن تتأتَّى منه الرؤيةُ. وممن قال بذلك: أبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٦).

وقيل: الخطابُ للنبيِّ مُحمَّد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٧).

والجِبالُ والشَّجَرُ والدوابُّ في الأرضِ[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۞ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨، ٤٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي ذَرٍّ حينَ غَرَبَتِ الشَّمسُ: ((أتدري أين تذهَبُ؟ قُلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: فإنَّها تذهَبُ حتى تسجُدَ تحتَ العَرشِ، فتَستَأذِنُ، فيُؤْذَنُ لها، ويُوشِكُ أن تَسجُدَ فلا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٨، ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٣).

قيل: سجودُ كلِّ شيءٍ بحسَبِه وما يختصُّ به. وممن قال بذلك: ابن تيميَّة، وابن كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٣).

وقيل: سُجودُ ذلك ظِلالُه حين تَطلُعُ عليه الشَّمسُ وحين تَزولُ، فإذا تحوَّل ظِلُّ كُلِّ شَيءٍ فهو سُجودُه. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٧).

وقيل: المرادُ بسُجودِها: خُضوعُها وذِلَّتُها وانقيادُها لخالِقِها فيما يريدُ منها. وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: الزجَّاج، والواحدي، وابن عطية، وابن القيم، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٤).

قال السمعاني: (قال الزَّجاج: السجودُ هاهنا بمعنَى الطاعةِ؛ أي: يُطيعُه، واستَحسَنوا هذا القولَ؛ لأنَّه موافِقٌ للكِتابِ، وهو قولُه تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، وأيضًا فإنَّ مِن اعتِقادِ أهلِ السُّنَّةِ أنَّ الحيوانَ والمواتَ مُطيعٌ كُلُّه لله تعالى). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٢٧).

يُقبَلُ منها، وتَستأذِنُ فلا يُؤْذَنُ لها، يُقالُ لها: ارجِعي مِن حَيثُ جِئْتِ، فتَطلُعُ مِن مَغرِبِها، فذلك قَولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]))[(١)].

﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن النَّاسِ -وهم المُؤمِنونَ- يَسجُدونَ لله طَوعًا مُختارينَ عابدِينَ[(٢)].

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن النَّاسِ -وهم الكافِرونَ- وَجَب عليهم عذابُ اللهِ؛ لامتِناعِهم عن السُّجودِ للهِ عن طواعِيَةٍ واختيارٍ[(٣)].

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾.

أي: ومَن يُهِنْهُ اللهُ فلا يَقدِرُ أحَدٌ أن يُكرِمَه[(٤)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: وذلك لأنَّ اللهَ يَفعَلُ في خَلْقِه ما يَشاءُ، فيُسعِدُ ويُكرِمُ مَن يشاءُ، ويُشقي ويُهينُ مَن يَشاءُ؛ فالخَلقُ خَلقُه، والأمرُ أمرُه[(٥)].

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٩) واللفظ له، ومسلم (١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإذا كانت المخلوقاتُ كُلُّها ساجِدةً لِرَبِّها، خاضِعةً لِعَظَمتِه، مُستكينةً لعِزَّتِه، عانيةً لِسُلطانِه؛ دَلَّ على أنَّه وَحْدَه الرَّبُّ المعبودُ، والمَلِكُ المَحمودُ، وأنَّ مَن عَدَلَ عنه إلى عبادةِ سِواه، فقد ضَلَّ ضَلالًا بعيدًا، وخَسِرَ خُسرانًا مُبينًا[١].

٢- قال ابن الجوزي: (نظرتُ في قولِ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾... فرأيتُ الجماداتِ كُلَّها قد وُصِفَت بالسجودِ، واستثنى مِن العقلاءِ، فذكرتُ قَولَ بَعضِهم:

ما جحَدَ الصامتُ[٢] مَن أنشَأه ... ومِن ذَوي النُّطقِ أتى الجُحودُ

فقلتُ: إنَّ هذه لقدرةٌ عظيمةٌ؛ يوهَبُ عَقلٌ للشَّخصِ، ثمَّ تُسلَبُ فائدتُه! وإنَّ هذا لأقوى دليلٍ على قادرٍ قاهرٍ، وإلَّا فكيف يَحسُنُ من عاقلٍ ألَّا يعرِفَ بوجودِه وجودَ مَن أوجدَه؟! وكيف يَنحِتُ صنمًا بيدِه ثم يَعبُدُه؟! غيرَ أنَّ الحقَّ سُبحانَه وتعالى وهَب لأقوامٍ مِن العقلِ ما يُثبِتُ عليهم الحُجَّةَ، وأعمَى قلوبَهم كما شاء عن المحجَّةِ)[٣].

٣- قاعِدةٌ شَريفةٌ: النَّاسُ قِسمانِ: عِليَةٌ وسَفِلةٌ؛ فالعِلْيَةُ: مَن عرَفَ الطَّريقَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٢) جَحَدَ: أي: كَفَر وأنكَرَ. والصَّامِتُ: الجَمادُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١١).

(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٤).

رَبِّه وسَلَكها قاصِدًا الوُصولَ إليه، وهذا هو الكريمُ على رَبِّه. والسَّفِلَةُ: مَن لم يَعرِفِ الطَّريقَ إلى رَبِّه، ولم يتعَرَّفْها، فهذا هو اللَّئيمُ الذى قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾[1].

٤- المعصيةُ سَبَبٌ لِهَوانِ العَبدِ على رَبِّه، وسُقوطِه مِن عَينِه؛ قال الحَسَنُ البَصريُّ: (هانُوا عليه فعَصَوه، ولو عَزُّوا عليه لعَصَمَهم!)، وإذا هان العبدُ على اللهِ لم يُكرِمْه أحدٌ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾، وإنْ عَظَّمَهم النَّاسُ في الظَّاهِرِ؛ لحاجَتِهم إليهم، أو خوفًا مِن شَرِّهم، فهم في قُلوبِهم أحقَرُ شَيءٍ وأهوَنُه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ قَولَه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لَفظُه لَفظُ العُمومِ، فيَدخُلُ فيه النَّاسُ، فلِمَ قال مرَّةً أُخرى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؟

الجوابُ: أنَّه لو اقتَصَر على ما تقدَّمَ، لأوهَمَ أنَّ كُلَّ النَّاسِ يَسجُدونَ، كما أنَّ كُلَّ الملائكةِ يَسجُدونَ، فبيَّنَ أنَّ كثيرًا منهم يَسجُدونَ طَوعًا دُونَ كثيرٍ منهم، فإنَّه يمتَنِعُ عن ذلك، وهم الذين حَقَّ عليهم العَذابُ[3].

٢- لا يجوزُ تَسميةُ بعضِ الزُّهورِ بـ «عَبَّادِ الشَّمسِ»؛ لأنَّ الأشجارَ لا تَعبُدُ الشَّمسَ، إنَّما تَعبُدُ اللهَ عزَّ وجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ﴾، وإنما يُقال عبارةٌ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢١٣، ٢١٤).

أُخرى ليس فيها ذِكْرُ العبوديَّةِ، كمُراقِبةِ الشَّمسِ، ونحو ذلك مِن العباراتِ[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ الإهانةُ إذلالٌ وتَحقيرٌ وخِزيٌ، وذلك قَدْرٌ زائِدٌ على ألَمِ العَذابِ؛ فقد يُعَذَّبُ الرَّجُلُ الكريمُ ولا يُهانُ[(٢)].

بلاغةُ الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ بيانٌ لِمَا يُوجِبُ الفصْلَ المذكورَ مِنْ أعمالِ الفِرَقِ المذكورةِ، مع الإشارةِ إلى كَيفيَّتِه وكَونِه بطَريقِ التَّعذيبِ والإثابةِ، والإكرامِ والإهانةِ[(٣)]. أو هي جُملةٌ مُستأنَفةٌ لابتداءِ استِدلالٍ على انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ. وما وقَعَ بين هاتينِ الجُملتينِ استِطرادٌ واعتراضٌ[(٤)].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، والخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والاستفهامُ تَقريريًّا[(٥)]. والمُرادُ بالرُّؤيةِ العِلْمُ؛ عبَّرَ عنه بها إشعارًا بظُهورِ المعلومِ[(٦)].

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١١٨). ومِن ذلك تسميةُ بعضُ الناسِ لها: دوَّار الشَّمسِ.

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٢٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٠).

- قولُه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (مَن) يجوزُ أنْ يعُمَّ أُولي العَقْلِ وغيرَهم على التَّغليبِ؛ فيكونُ قولُه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفرادًا لها بالذِّكْرِ؛ لشُهرتِها، واستبعادِ ذلك منها. أو جُعِلَتْ خاصَّةً بالعُقَلاءِ؛ لعدَمِ شُمولِ سُجودِ الطَّاعةِ لكُلِّهم[١]. وقيل: إنَّما ذكَر هذه على التنصيصِ؛ لأنَّها قد عُبِدت مِن دونِ الله، فبيَّن أنَّها تسجُدُ لخالقِها، وأنَّها مربوبةٌ مسخَّرةٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مِن بابِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ مِن حيثُ الفِعْلُ والفاعلُ؛ تَشريفًا لعبادِهِ الصَّالحينَ[٣].

- قولُه: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ جُملةُ ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ مُكنًّى بها عن تَرْكِ السُّجودِ للهِ، أي: حَقَّ عليهمُ العذابُ؛ لأنَّهم لم يَسْجُدوا للهِ[٤].

- والآيةُ مِن الاحتباكِ[٥]: فإثباتُ السُّجودِ في الأوَّلِ دليلٌ على انتفائِه في الثاني، وذِكرُ العذابِ في الثاني دليلٌ على حذفِ الثَّوابِ في الأوَّلِ[٦].

- وقولُه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ تَذييلٌ لقولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٧).

(٥) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ من الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفان معًا، وله في القرآن نظائرُ، وهو من إبداعاتِ القرآن وعناصر إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧).

﴿يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[١]. والتَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُهِنِ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ إيثارَ المُضارِعِ في الآيةِ للاستمرارِ، لا لِمُطلَقِ الإخبارِ[٢].

- ولَمَّا عُلِمَ بقولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ ...﴾ أنَّ الكُلَّ جارُونَ معَ الإرادةِ، مُنقادُونَ أتمَّ انقيادٍ تحتَ طوعِ المشيئةِ، وأنَّه إنَّما جُعِلَ الأمرُ والنهيُ للمُكلَّفينَ سببًا لإسعادِ السَّعيدِ منهم، وإشقاءِ الشقيِّ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم على ما يَتعارفونَه مِن أحوالِهم فيما بينهم؛ كان المعنى: فمَن يُكرِمِ اللهُ بتوفيقِه لامتِثالِ أمْرِه فما له مِن مُهينٍ؛ فعُطِفَ عليه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾، ولعلَّه إنَّما ذَكَره وطوَى الأوَّلَ؛ لأنَّ السِّياقَ لإظهارِ القُدرةِ، وإظهارُها في الإهانةِ أتمُّ، مع أنَّ أصلَ السِّياقِ للتَّهديدِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ في مَحلِّ العِلَّةِ للجُملتينِ المُعترِضتينِ؛ لأنَّ وُجودَ حَرْفِ التَّوكيدِ في أوَّلِ الجُملةِ مع عدَمِ المُنكِرِ يُمحِّضُ حَرْفَ التَّوكيدِ إلى إفادةِ الاهتمامِ، فنشَأَ مِن ذلك معنى السَّببيَّةِ والتَّعليلِ، فتُغْني (إنَّ) غَناءَ حَرْفِ التَّعليلِ أو السَّببيَّةِ[٤].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٧).

الآيات (١٩-٢٢)

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ
مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ
٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾: أي: الماءُ الشَّديدُ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يَدُلُّ على الحَرارةِ[1].

﴿يُصۡهَرُ﴾: أي: يُذابُ، والصَّهرُ: إذابةُ الشَّحمِ، وأصلُ (صهر): يدُلُّ على إذابةِ شَيءٍ[2].

﴿مَّقَٰمِعُ﴾: أي: سِياطٌ ومَطارِقُ ومَرازِبُ، مِن قَولِهم: قَمَعْتُ رأسَه: إذا ضَرَبْتَه ضَربًا عنيفًا، وأصلُ (قمع): يدُلُّ على إذلالٍ وقَهرٍ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: هذان فَريقانِ اختَلَفوا في شأنِ رَبِّهم وتوحيدِه: أهلُ الإيمانِ وأهلُ الكُفرِ؛ فالذين كَفَروا جُعِلَت لهم ثيابٌ مِن نارٍ يَلْبَسونَها، يُصَبُّ على رُؤوسِهم الماءُ المُتناهي في حَرِّه، يُذابُ بهذا الحَميمِ المصبوبِ فَوقَ رُؤوسِ الكُفَّارِ ما في بُطونِهم والجلودُ، وتَضرِبُهم الملائِكةُ على رُؤوسِهم بمَطارِقَ مِن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

حَديدٍ، كُلَّما حاولوا الخروجَ مِنَ النَّارِ؛ لِشِدَّةِ غَمِّهم وكَرْبِهم، أُعيدُوا فيها، وقيلَ لهم: ذُوقُوا عذابَ النَّارِ المُحرِقةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى أهلَ السعادةِ وأهلَ الشقاوةِ؛ ذكَر ما دار بينَهم مِن الخصومةِ في دينِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] يُثيرُ سُؤالَ مَن يَسألُ عن بَعضِ تَفصيلِ صِفَةِ العَذابِ الذي حَقَّ على كثيرٍ مِنَ النَّاسِ الذين لم يَسجُدوا لله تعالى؛ جاءت هذه الجُملةُ لِتَفصيلِ ذلك[2].

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾.

أي: هذان فَريقانِ اختَلَفوا في شأنِ رَبِّهم وتوحيدِه ودينِه، وتعادَوْا وتحارَبوا: المُؤمِنونَ والكافِرونَ؛ فالمُؤمِنونَ يُريدونَ نُصرةَ دينِ اللهِ، وإعلاءَ كَلِمتِه، والكافِرونَ يُريدونَ إطفاءَ نُورِ الإيمانِ، وقَمْعَ الحَقِّ، وإظهارَ الباطِلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٧، ٢٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٨).
قال ابن عاشور: (المرادُ من هذه الآية ما يعُمُّ جميعَ المؤمنينَ وجميعَ مُخالِفيهم في الدِّينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٨). =

عن قَيسِ بنِ عَبَّادٍ، قال: (سَمِعْتُ أبا ذَرٍّ يُقسِمُ قَسَمًا: إنَّ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ إنَّها نَزَلت في الذين بَرَزوا يومَ بَدرٍ: حَمزةُ وعَلِيٌّ وعُبَيدةُ بنُ الحارِثِ، وعُتَبةُ وشَيبةُ ابنا ربيعةَ، والوليدُ بنُ عُتبةَ)[١].

وعن قَيسِ بنِ عَبَّادٍ، عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: (أنا أوَّلُ

= وممَّن قال بالعُموم أيضًا: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن جُزي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٦).

قال ابن جزي: (﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ الإشارةُ إلى المؤمنينَ والكفَّارِ على العمومِ، ويدلُّ على ذلك ما ذُكِر قبلَها مِن اختلافِ الناسِ في أديانِهم، وهو قولُ ابنِ عباسٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٣).

وقال أبو السعود: (أي: فريقُ المؤمنينَ، وفريقُ الكفرةِ المقسَّمُ إلى الفِرَقِ الخَمسِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠١).

واختار هذا المعنى أيضًا: الألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٨). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٢٩).

وقيل: المرادُ بهم النَّفَرُ الذين برَزوا للقتالِ أوَّلَ المعركةِ يومَ بدرٍ. وممن قال بذلك: مكي، والقرطبي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥-٢٦). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩١).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢٨).

قال ابن جرير: (الآيَةَ قد تنزِلُ بسَبَبٍ مِن الأسبابِ، ثُمَّ تكونُ عامَّةً في كلِّ ما كانَ نظيرَ ذلك السَّبَبِ. وهذه مِن تلك؛ وذلك أنَّ الَّذينَ تبارَزوا إنَّما كانَ أحدُ الفريقينِ أهلَ شِرْكٍ وكفرٍ باللَّهِ، والآخَرُ أهلَ إيمانٍ باللَّهِ وطاعةٍ له، فكلُّ كافرٍ في حُكْمِ فريقِ الشِّركِ منهما في أنَّه لأهلِ الإيمانِ خَصْمٌ، وكذلك كلُّ مُؤمنٍ في حُكمِ فريقِ الإيمانِ منهما في أنَّه لأهلِ الشِّركِ خَصْمٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٣).

وقال الرازي: (السببُ وإن كان خاصًّا، فالواجبُ حملُ الكلامِ على ظاهرِه). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢١٥).

(١) رواه البخاري (٤٧٤٤)، ومسلم (٣٠٣٣) واللفظ له.

مَن يجثو[(١)] بينَ يدَيِ الرَّحمنِ للخُصومةِ يومَ القيامةِ)، وقال قيسُ بنُ عَبَّادٍ: وفيهم أُنزِلَت: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾، قال: (هم الذين تبارَزوا يومَ بَدرٍ: حمزةُ وعَليٌّ وعُبَيدةُ -أو أبو عبيدةَ بنُ الحارثِ-، وشَيبةُ بنُ رَبيعةَ، وعُتْبةُ بنُ رَبيعةَ، والوَليدُ بنُ عُتبةَ)[(٢)].

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾.

أي: فالذين كَفَروا بالله فُصِّلَت لهم ثِيابٌ مِن نارٍ، فيَعُمُّ العذابُ أجسادَهم[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠].

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾.

أي: يُصَبُّ على رُؤوسِ الكُفَّارِ الماءُ المُغْلَى الشَّديدُ الحَرارةِ[(٤)].

---

(١) يجثو: أي: يَجلِسُ على رُكبَتَيه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٣٩).

(٢) رواه البخاري (٣٩٦٥).

قال ابنُ جُزَي: (وقيل: نزَلَت في عليِّ بنِ أبي طالِبٍ، وحمزةَ بنِ عبدِ المُطَّلِب، وعُبيدةَ بنِ الحارثِ؛ حين بَرَزوا يومَ بَدرٍ لِعُتبةَ بنِ رَبيعةَ، وشَيبةَ بنِ رَبيعةَ، والوَليدِ بنِ عُتبةَ؛ فالآيةُ على هذا مَدَنيَّةٌ إلى تمامِ سِتِّ آياتٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦).

قال ابن عاشور: (الأظهرُ: أنَّ أبا ذَرٍّ عنَى بنزول الآية في هؤلاء أنَّ أولئك النفرَ السِّتَّة هم أبرزُ مِثالٍ وأشهرُ فَردٍ في هذا العمومِ؛ فعبَّر بالنزولِ وهو يُريد أنهم ممَّن يُقصَدُ مِن معنى الآيةِ، ومِثل هذا كثيرٌ في كلام المتقدِّمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٩).

كما قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧، ٤٨].

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكَرَ ما يُعذَّبُ به الجَسدُ ظاهِرُه وما يُصَبُّ على الرَّأسِ؛ ذكَرَ ما يَصِلُ إلى باطِنِ المُعذَّبِ(١).

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾.

أي: يُذابُ بالحَميمِ المصبوبِ فَوقَ رُؤوسِ الكُفَّارِ ما في بُطونِهم -مِنَ اللَّحمِ والشَّحمِ، والأمعاءِ والأحشاءِ(٢)-، والجلودُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٠).

(٣) قيل: (الْجُلُودُ) مرفوعٌ بفعلٍ محذوفٍ معطوفٍ على ﴿يُصۡهَرُ﴾، وتقديرُه: وتُحرقُ أو تُشوَى به الجلودُ. وممن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٠).

وقيل: المعنى: أنَّ الحميمَ يُذيبُ جلودَ الكافرين كما يُذيبُ ما في بطونِهم؛ لشدةِ حرارتِه. وممن اختاره: الرسعني، والعليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٠).

قال الشنقيطي: (وقولُه: ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ الظَّاهِرُ أنَّه معطوفٌ على «ما» مِنْ قولِه: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ الَّتي هي نائِبُ فاعلِ ﴿يُصۡهَرُ﴾، وعلى هذا الظَّاهِرِ المتَبادِرِ مِنَ الآيةِ فذلك الحميمُ يُذيبُ جُلودَهم، كما يُذيبُ ما في بطونِهم لِشِدَّةِ حرارَتِه؛ إذ المعنى: يُصْهَرُ به ما في بُطونِهم، وتُصْهَرُ به الجلودُ؛ أيْ: جُلودُهم، فالألِفُ وَاللَّامُ قامَتا مقامَ الإضافةِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٠).

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾.

أي: وللكُفَّارِ في جهَنَّمَ مَرازِبُ ومَطارِقُ مِن حَديدٍ، تَضرِبُهم وتَدفَعُهم بها[(١)] خَزَنةُ النَّارِ مِن الملائِكةِ[(٢)].

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

أي: كُلَّما أراد هؤلاءِ الكُفَّارُ أن يَخرُجوا مِنَ النَّارِ بسَبَبِ ما نالهم فيها مِنْ غَمٍّ، أُعيدُوا في النَّارِ مرَّةً أُخرى[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ * وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

أي: ويُقالُ لهؤلاء الكافرينَ: ذوقوا عَذابَ النَّارِ المُحرِقَ للقُلوبِ والأبدانِ[(٤)].

(١) قال ابنُ جرير: (تَضرِبُ رُؤوسَهم بها الخَزَنةُ إذا أرادوا الخروجَ مِن النَّارِ، حتى تَرجِعَهم إليها). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

حَذَّرَنا اللهُ تعالى في كتابِه مِن النَّارِ، وأخبَرَنا عن أنواعِ عَذابِها بما تتفَطَّرُ منه الأكبادُ، وتتفَجَّرُ منه القُلوبُ؛ حَذَّرَنا منها وأخبَرَنا عن أنواعِ عَذابِها؛ رحمةً بنا؛ لنزدادَ حَذَرًا وخوفًا، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قال تعالى: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ والاختِصامُ يَشمَلُ ما وقع أحيانًا مِن التَّحاوُرِ الحقيقيِّ بين أهلِ الأديانِ المذكورةِ، والمعنويَّ؛ فإنَّ اعتِقادَ كُلٍّ مِن الفريقَينِ بحَقِّيَّةِ ما هو عليه وبُطلانِ ما عليه صاحِبُه، وبناءَ أقوالِه وأفعالِه عليه: خُصومةٌ للفَريقِ الآخَرِ، وإنْ لم يَجْرِ بينهما التَّحاوُرُ والخِصامُ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ يُثيرُ سُؤالَ مَن يسأَلُ عن بَعضِ تَفصيلِ صِفَةِ العذابِ الَّذي حَقَّ على كَثيرٍ مِن النَّاسِ الَّذينَ لم يَسْجُدوا للهِ تعالى؛ فجاءت هذه

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٣٨).

الجُملةُ لتَفصيلِ ذلك. واسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَانِ﴾ مُشيرٌ إلى ما يُفيدُه قولُه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾، والإشارةُ إلى ما يُستَفادُ مِن الكلامِ بتَنزيلِه مَنزِلةَ ما يُشاهَدُ بالعينِ(١).

- قولُه: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ في قولِه: ﴿هَٰذَانِ﴾ تعيينٌ لطَرَفي الخِصامِ، وإزاحةٌ لِمَا عسى يَتبادَرُ إلى الوهْمِ مِن كَونِه بينَ كلِّ واحدةٍ من الفِرَقِ السِّتِّ وبين البواقي، وتَحريرٌ لِمَحلِّه، أي: فريقُ المُؤمِنينَ وفريقُ الكَفَرةِ المُقسَّمِ إلى الفِرَقِ الخَمْسِ(٢). وأُتِيَ باسمِ الإشارةِ الموضوعِ للمُثنَّى ﴿هَٰذَانِ﴾؛ لمُراعاةِ تَثنيةِ اللَّفظِ، وأُتِيَ بضَميرِ الجماعةِ ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾؛ لِمُراعاةِ العدَدِ(٣).

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٌ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ تَفصيلٌ لِمَا أُجْمِلَ في قولِه تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾(٤).

- قولُه: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٌ مِّن نَّارٖ﴾ تعبيرٌ بَليغٌ، كأنَّ اللهَ تعالى يُقدِّرُ لهم نِيرانًا على مقاديرِ جُثَثِهم، تَشتمِلُ عليهم كما تُقطَّعُ الثِّيابُ الملبوسةُ(٥).

- وأيضًا قولُه: ﴿قُطِّعَتۡ﴾ فيه مُبالغةُ القَطْعِ، وصِيغَت صِيغةَ الشِّدَّةِ في القَطْعِ؛ للإشارةِ إلى السُّرعةِ في إعدادِ ذلك لهم(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٠).

- جاء قولُه: ﴿قُطِّعَتْ﴾ بلفظِ الماضي؛ لأنَّ ما كان مِن أخبارِ الآخرةِ؛ فالموعودُ منه كالواقِعِ المُحقَّقِ(١).

- قولُه: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث إنَّه لمَّا ذكَرَ ما يُصَبُّ على رُؤوسِهم؛ إذ يَظهَرُ في المعروفِ أنَّ الثَّوبَ إنَّما يُغطَّى به الجسَدُ دونَ الرَّأسِ؛ فذكَرَ ما يُصِيبُ الرَّأسَ منَ العذابِ(٢).

- وفائدةُ زِيادةِ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِن فَوۡقِ﴾: أنَّها لابتِداءِ الغايةِ في أوَّلِ أمكنةِ الفوقيَّةِ، والحميمُ إذا صُبَّ فوقَهم عن بُعْدٍ، فإنَّه يُدرِكُه الهواءُ، فيَنقُصُ مِن حرارتِه، فإذا صُبَّ فوقَ رُؤوسِهم بالقُرْبِ نزَلَ كما هو؛ فأفادت زِيادةُ (مِن) أنَّه يُصَبُّ فوقَ رُؤوسِهم مِن أقرَبِ أمكنةِ الفوقيَّةِ إليهم حتَّى لَا يَنتقِصَ مِن حرارتِه شَيءٌ(٣).

- وفي الكلامِ تَقسيمٌ وجَمْعٌ وتَفريقٌ؛ فالتَّقسيمُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾، والجَمْعُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ [الحج: ١٩]، والتَّفريقُ: قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الحج: ٢٣]، ورُوعِيَ فيه معنى قولِه تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]؛ لأنَّه حينَ ذكَرَ فريقَ الكُفَّارِ ما أسنَدَ جزاءَهم إلى اللهِ تعالى، وحين ذكَرَ جزاءَ المُؤمِنينَ أتَى باسْمِه الجامِعِ (الله)، وصَدَّرَ الجُملةَ بـ(إنَّ)، وفصَلَها للاستئنافِ؛ ليكونَ أدَلَّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ١٨٥).

التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، وذيَّلَ الكلامَ بقولِه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.
وأمَّا تَوسيطُ قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ...﴾ الآيةَ؛ فلِلتَّفريعِ على اختلافِ الكَفرةِ، واستبعادِه معَ وُجودِ هذه الآياتِ الصَّارفةِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾

- أُخِّرَ قولُه: ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾؛ إمَّا لمُراعاةِ الفواصلِ، أو للإشعارِ بغايةِ شِدَّةِ الحرارةِ، بإيهامِ أنَّ تأْثيرَها في الباطِنِ أقدَمُ مِن تأْثيرِها في الظَّاهِرِ، مع أنَّ مُلابستَها على العكْسِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾

- قولُه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ لأنَّ الإعادةَ والرَّدَّ لا يكونُ إلَّا بعْدَ الخُروجِ؛ فالتَّقديرُ: كلَّما أرادوا أنْ يَخرُجوا منها مِن غَمٍّ، فخَرَجوا؛ أُعِيدوا فيها[٣]. وفائدةُ الحذْفِ: الإشعارُ بسُرعةِ تَعلُّقِ الإرادةِ بالإعادةِ، وأنَّه حين تَعلَّقَت إرادتُهم بالخُروجِ، حصَلَ وترَتَّبَ عليه الإعادةُ، كأنَّ إرادةَ الخُروجِ نفْسُ الخُروجِ، فأُعِيدوا بلا مُكْثٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ هذا القولُ إهانةٌ لهم؛ فإنَّهم قد عَلِموا أنَّهم يَذوقونَه[٥].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٦١، ٤٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٦).
(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٠).

- قولُه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ تَقديرُه: وقيل لهم: ذُوقُوا، كما في السَّجدةِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1] [السجدة: ٢٠].



(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٢).

الآيات (٢٢-٢٥)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣
وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن
يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أَسَاوِرَ﴾: جمعُ أَسْوِرَةٍ، وأَسْوِرَةٌ جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: هو الذي يُلبَسُ في المِعصَمِ مِن ذَهَبٍ، وهو اسمٌ مُعَرَّبٌ عن الفارسيَّةِ[1].

﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾: أي: المُقيمُ المُلازِمُ، والعُكوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ ومُلازَمتُه على سَبيلِ التَّعظيمِ له، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على الإقبالِ والحَبسِ[2].

﴿وَٱلۡبَادِ﴾: أي: الطَّارِئُ مِنَ البَدوِ، وأصلُ (بدو): يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ، وسُمِّيَ خِلافُ الحَضَرِ بَدْوًا مِن هذا؛ لأنَّهم في بَرازٍ مِن الأرضِ، وليسُوا في قُرًى تَستُرُهم أبنِيَتُها[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾: أي: ظُلمٍ ومَيلٍ عن الحَقِّ، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ عن استِقامةٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾

قَولُه: ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ بالنَّصبِ، وفيه أوجُهٌ، أوَّلُها: أنَّه مَعطوفٌ على مَوضِعِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾؛ لأنَّ مَوضِعَهما نصبٌ. والثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه الأوَّلُ، أي: ويُحَلَّونَ لُؤلؤًا. الثَّالثُ: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿أَسَاوِرَ﴾ و﴿مِنۡ﴾ زائِدةٌ فيه عند الأخفَشِ، ويَدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١].

وقُرِئَ ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ بالجَرِّ عَطفًا على ﴿ذَهَبٖ﴾، ثمَّ يحتَمِلُ أمرينِ؛ أحدُهما: أن يكونَ لهم أساوِرُ مِن ذَهَبٍ وأساوِرُ مِن لُؤلؤٍ، ويَحتَمِلُ أن تكونَ الأساوِرُ مُرَكَّبةً مِن الأمرَينِ معًا: الذَّهَبِ المُرَصَّعِ باللُّؤلؤِ. وقيل: مَجرورٌ عَطفًا على لَفظِ ﴿أَسَاوِرَ﴾[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٢٥٣).

قَولُه: ﴿جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾: ﴿سَوَآءً﴾ مَفعولٌ به ثانٍ لـ (جعَلْنا)، و﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلِّقٌ بـ (جَعَل)، و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ فاعِلٌ بـ ﴿سَوَآءً﴾؛ لأنَّه مصدَرٌ بمعنى اسمِ الفاعِلِ، والمعنى: جعَلْناه مُستَويًا فيه العاكِفُ والبادِي. وإنْ قُلْنا (جعل) يتعدَّى لواحدٍ، كانت ﴿سَوَآءً﴾ حالًا مِن هاءِ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾. وقُرِئَ ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرَّفعِ، على أنَّه خبَرٌ مُقَدَّمٌ، و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ مُبتدأٌ مؤخَّرٌ، والجُملةُ في محلِّ نَصبِ مَفعولٌ ثانٍ لـ (جعل)، أو حالٌ مِن الهاءِ. وخبَرُ ﴿إِنَّ﴾ محذوفٌ، تقديرُه: (نُذيقُهم مِن عَذابٍ أليمٍ)؛ لأنَّ قولَه: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يَدُلُّ عليه.

وقَولُه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ جارٌّ ومَجرورٌ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿يُرِدْ﴾، وقد ضُمِّنَ ﴿يُرِدْ﴾ معنى (يَهُمُّ) أو (يتلبَّسُ)؛ فلذلك تعدَّى بالباءِ. وقيل: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ مَفعولٌ به لـ ﴿يُرِدْ﴾، والباءُ زائِدةٌ في المفعولِ للتَّأكيدِ، أي: ومَن يُرِد فِيهِ إلحادًا بظُلمٍ. و﴿بِظُلْمٍ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿يُرِدْ﴾، والباءُ فيه للسَّبَبيَّةِ. وقيلَ غيرُ ذلك[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ اللهَ تعالى يُدخِلُ أهلَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ جَنَّاتٍ تجري مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ، يُزَيَّنونَ فيها بأساوِرِ الذَّهَبِ وباللُّؤلؤِ، ولِباسُهم في الجنَّةِ الحَريرُ، رِجالًا ونساءً. وهداهم اللهُ إلى طَيِّبِ القَولِ، وهداهم إلى طَريقِ اللهِ المحمودِ في أسمائِه وصِفاتِه.

إنَّ الذين كَفَروا بالله، ويَمنَعونَ غَيرَهم مِنَ الدُّخولِ في دينِ اللهِ، ومِن

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٢٥٥).

المَسجِدِ الحرامِ -الذي جعَلْناه لجَميعِ المُؤمِنينَ سواءً المُقيمُ فيه والقادِمُ إليه- نذيقُهم مِن عذابٍ أليمٍ مُوجِعٍ، ومَن يُرِدْ في المَسجِدِ الحَرامِ المَيْلَ عن الحَقِّ فيرتكِبْ ظُلمًا -وهو قاصِدٌ لذلك- نُذِقْه مِن عذابٍ أليمٍ مُوجِعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما لأحَدِ الخَصْمَينِ، وهم الكافِرونَ؛ أتبَعَه ما للآخَرِ، وهم المُؤمِنونَ[١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ- جناتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها[٢].

﴿ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ بالنَّصبِ على معنى: ويُحَلَّونَ لُولُؤًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٣) قرأ بها نافع، وعاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٧). =

٢- قِراءةُ ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ بالجَرِّ على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ وأساوِرَ مِن لُؤلُؤٍ، أو على معنى: يحلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلؤٍ، أي: يكونُ السِّوارُ الواحِدُ مُكَوَّنًا مِنَ الذَّهَبِ واللُّؤلؤِ معًا[١].

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

أي: يُحَلِّي اللهُ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ -رِجالًا ونساءً- أساوِرَ مِن ذَهَبٍ، ويُحلَّونَ فيها لُؤلؤًا[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ خليلي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((تَبلُغُ الحِليةُ[٣] مِن المُؤمِنِ حَيثُ يَبلُغُ الوُضوءُ))[٤].

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

أي: ولِباسُ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ ثِيابٌ مِن حَريرٍ[٥].

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٢٠،٤١٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٤).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).
قال القرطبي: (قال القُشيري: والمرادُ ترصيعُ السوارِ باللؤلؤِ، ولا يبعدُ أن يكونَ في الجنةِ سوارٌ مِن لؤلؤٍ مصمتٍ. قلت: وهو ظاهرُ القرآنِ، بل نصُّه). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩).

(٣) الحِليةُ: أي: البَياضُ. وقيل: الزِّينةُ في الجنَّةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٣٥١).

(٤) رواه مسلم (٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨).

وسَلَّمَ: ((لا تلبَسوا الحريرَ؛ فإنَّه مَن لَبِسَه في الدُّنيا، لم يَلبَسْه في الآخِرةِ))[(١)].

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم يقولُ: ((لا تَلبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تَشرَبوا في آنيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تأكُلوا في صِحافِها؛ فإنَّها لهم في الدُّنيا، ولنا في الآخِرةِ))[(٢)].

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾.

أي: وهدى اللهُ المُؤمِنينَ إلى الأقوالِ الطيِّبةِ[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٠٦٩).

(٢) رواه البخاري (٥٤٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٠٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠، ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾: شهادة أنْ لا إله إلا اللهُ. وممَّن اختاره: مقاتل بن سليمان، وابنُ جرير، وابن أبي زَمَنِين، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٧٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥).

قال ابن جزي: (﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ قيل: هو لا إلهَ إلَّا اللهُ. واللفظُ أعمُّ مِن ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧).

وممن ذهب إلى العمومِ: السعديُّ، فقال: (﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ الذي أفضلُه وأطيبُه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيِّبة التي فيها ذِكرُ الله، أو إحسانٌ إلى عباد الله). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

وقال ابنُ عطية: (الطيِّب من القولِ: لا إله إلا اللهُ، وما جرَى معها مِن ذِكرِ الله تعالى، وتسبيحِه وتقديسِه، وسائر كلامِ أهل الجَنَّة؛ من محاورةٍ وحديثٍ طيِّبٍ؛ فإنَّها لا تَسمعُ فيها لاغيةً). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٥).

وقيل: المعنى: أنَّ المؤمنين يُرشَدُون إلى المكان الذين يَسمعون فيه الأقوالَ الطيِّبةَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨). =

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

أي: وهَدى المؤمنينَ إلى طريقِ اللهِ المحمودِ في أسمائِه وصِفاتِه(١).

= قال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ كقولِه: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقولِه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرَّعْد: ٢٣، ٢٤]، وقولِه: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا * إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]؛ فهُدوا إلى المكانِ الذي يَسمَعون فيه الكلامَ الطيِّبَ، ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، لا كما يُهان أهلُ النارِ بالكلامِ الذي يُروَّعون به، ويُقرعون به؛ يُقالُ لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، [الحج: ٢٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٤).

وقال ابنُ كثيرٍ أيضًا: (وقد قال بعضُ المفسِّرين في قولِه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: القرآنِ. وقيل: لا إلهَ إلَّا اللهُ. وقيل: الأذكارُ المشروعةُ،... وكلُّ هذا لا يُنافي ما ذَكرناه، واللهُ أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨).

وقال الشوكاني: (وقد ورَدَ في القرآن ما يدلُّ على هذا القولِ المُجمَلِ هنا، وهو قولُه سبحانَه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٥).

قيل: المرادُ أنَّهم هُدوا في الدُّنيا إلى الإسلامِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جَرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبيُّ، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٥).

وقال مكي: (ومعنى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: إذا صاروا إلى الآخرةِ، وهُدوا إلى صراطِ الجنَّةِ، وطريقِها، فهو صراطُ الله عزَّ وجلَّ، يسلكُه المؤمنونَ إلى الجنَّةِ، ويعدلُ عنه الكافرونَ والمنافقونَ إلى طريقِ النارِ). ((الهداية)) (٧/ ٤٨٦٦).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: إلى المكانِ الَّذي يَحْمَدونَ فيه ربَّهم، على ما أحْسَن إليهم، وأنْعَم به، وأسْداه إليهم، كما جاءَ في الصَّحيحِ: «إنَّهم يُلْهَمونَ التَّسبيحَ =

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بعدَ أن فَصَل بينَ الكُفَّارِ والمؤمنينَ؛ ذكَرَ عِظَمَ حُرمةِ البَيتِ، وعِظَمَ كُفرِ هؤلاء[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى ما للفَريقَينِ، وتَضَمَّنَ هذا البيانُ ما للفريقِ الثَّاني مِن أعمالٍ دالَّةٍ على صِدقِ إيمانِهم؛ كرَّرَ ذِكرَ الفريقِ الأوَّلِ؛ لبيانِ ما يَدلُّ على استمرارِ كُفرِهم، ويُؤكِّدُ بيانَ جزائِهم؛ فقال[٢]:

= والتَّحميدَ، كما يُلْهَمونَ النَّفَسَ»). وذكَر أنَّ تفسيرَ صراطِ الحميدِ بالطَّريقِ المستقيمِ في الدُّنيا لا يُنافي ما اختاره. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٨).

وممَّن اختار أنَّ ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ صفةٌ لله: ابنُ جَرير، ومكي، والواحديُّ، والسمعاني، والبَغويُّ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٠)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٨٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١).

وقيل: ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ صِفةٌ للصراط، أي: الصراط المحمود. وممَّن قال بهذا المعنى: جلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

قال ابن جزي: (ويحتملُ أن يريدَ الصراطَ الحميدَ، وأضاف الصفةَ إلى الموصوفِ، كقولِك: مسجدُ الجامعِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧).

وقال السعديُّ: (﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: الصراط المحمود؛ وذلك لأنَّ جميعَ الشرع محتوٍ على الحِكمةِ والحمدِ، وحُسن المأمور به، وقُبح المنهيِّ عنه، وهو الدِّين الذي لا إفراطَ فيه ولا تفريط، المشتمِل على العِلم النافع والعمَل الصالح). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾.

أي: إنَّ الذين كَفَروا باللهِ، ويَمنَعونَ النَّاسَ مِن الدُّخولِ في دينِه، ومِنَ المَسجِدِ الحرامِ -الذي ليس مِلكًا لهم ولا لآبائِهم، بل جعَلْناه للمُؤمِنينَ كافةً سَواءً المُقيمُ منهم فيه والقادِمُ إليه، فهم يسْتَوون في تعظيمِه وأحقيَّةِ أداءِ العباداتِ وإقامةِ الشَّعائِرِ فيه[1]- ....

(١) قال البغويُّ: (اختَلفوا في معنى الآيةِ؛ فقال قومٌ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ يعني: في تعظيمِ حُرمتِه، وقضاءِ النُّسُكِ فيه. وإليه ذهب مجاهدٌ والحسنُ وجماعةٌ، وقالوا: المرادُ منه نفْسُ المسجِدِ الحرامِ، ومعنى التَّسويةِ: هو التَّسويةُ في تعظيمِ الكَعبةِ، وفي فضْلِ الصَّلاةِ في المسجِدِ الحرامِ، والطَّوافِ بالبَيتِ. وقال آخَرونَ: المرادُ منه جميعُ الحَرَمِ، ومعنى التسويةِ: أنَّ المقيمَ والباديَ سَواءٌ في النُّزولِ به، ليس أحَدُهما بأحقَّ بالمَنزِلِ يكونُ فيه مِن الآخَرِ، غيرَ أنَّه لا يُزعَجُ فيه أحدٌ إذا كان قد سبَق إلى مَنزِلٍ. وهو قولُ ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبير، وقتادة، وابن زيد). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابن جرير، والسمرقندي، ومكي، والقرطبي، والخازن، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٥)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٨٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٥/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٦).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: إنَّه المسجدُ نفْسُه، وهو ظاهرُ القرآن؛ لأنَّه لم يُذكر غيرُه. وقيل: الحرمُ كلُّه؛ لأنَّ المشركين صدُّوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه عنه عام الحُديبيَة، فنزَل خارجًا عنه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥]). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢).

والقول الثاني نسبه الواحدي للأكثرين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٤٤).

وقال ابنُ القيِّم: (المسجِدُ الحرامُ هنا: المرادُ به الحَرَمُ كلُّه، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، فهذا المرادُ به الحَرَمُ كُلُّه، وقَولِه سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وفي الصَّحيحِ: «أنَّه أُسرِيَ به من بيتِ أمِّ هانئٍ»... فالحرمُ ومشاعِرُه -كالصَّفا =

أولئك الذين كَفَروا نُذيقُهم[١] مِن عذابٍ مُؤلمٍ مُوجِعٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: ومَنْ يَهُمَّ أن يَميلَ ويَحيدَ في المَسجِدِ الحَرامِ عن الحَقِّ، ويَنحَرِفَ عن الاستِقامةِ بارتِكابِ ظُلمٍ[٣] ....

= والمروةِ والمَسعى، ومِنًى وعَرفةَ ومُزدلِفةَ- لا يختصُّ بها أحَدٌ دونَ أحدٍ، بل هي مُشتركةٌ بين النَّاسِ؛ إذ هي مَحلُّ نُسُكِهم ومُتعبَّدُهم؛ فهي مَسجِدٌ مِن الله وقَفَه ووضَعَه لخَلْقِه؛ ولهذا امتنعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُبنَى له بيتٌ بمنًى يُظِلُّه مِن الحرِّ، وقال: «مِنًى مُناخُ مَن سبَق»).
((زاد المعاد)) (٣/ ٣٨١، ٣٨٢). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ٢١٢، ٢١٣).
وقال ابن عاشور: (ليس في هذه الآيةِ حُجَّةٌ لحُكمِ امتِلاكِ دُورِ مكَّةَ إثباتًا ولا نَفيًا؛ لأنَّ سياقَها خاصٌّ بالمسجدِ الحرامِ دونَ غَيرِه، ويَلحَقُ به ما هو مِن تمامِ مَناسِكِه؛ كالمسعى، والموقِفِ، والمشعَرِ الحرامِ، والجِمارِ... ولا خلافَ بين المُسلِمينَ في أنَّ النَّاسَ سَواءٌ في أداءِ المناسِكِ بالمَسجِدِ الحرامِ وما يَتْبَعُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٨).
وقال ابن عطية: (أجمَع النَّاسُ على الاستواءِ في نفْسِ المسجِدِ الحرامِ، واختلفوا في مكَّةَ).
((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٧٩).

(١) قال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ خبرَ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ محذوفٌ كما ترَى. وَالَّذي تَدُلُّ عليه الآيةُ أنَّ التَّقديرَ: إنَّ الَّذينَ كفروا ويصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ، نُذيقُهم مِن عذابٍ أَلِيمٍ. كما دَلَّ على هذا قولُه في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وخيرُ ما يُفَسَّرُ به القرآنُ القرآنُ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٢).
وقيل: الخبرُ محذوفٌ مُقدَّرٌ عندَ قولِه: ﴿وَٱلْبَادِ﴾، تقديرُه: خَسِروا أو هَلَكوا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٥-٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٣) ممن ذهَب إلى القول بعمومِ المرادِ بالظُّلمِ هاهنا: ابنُ جَرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، وابن =

= عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٤).

قال ابنُ جَرير: (أَوْلى الأقوال التي ذَكرناها في تأويلِ ذلك بالصوابِ: القولُ الذي ذَكرناه عن ابن مسعودٍ، وابن عبَّاس، من أنه معنيٌّ بالظلم في هذا الموضع كلُّ معصية لله؛ وذلك أنَّ الله عمَّ بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، ولم يُخصِّص به ظلمٌ دون ظُلمٍ في خبرٍ ولا عقْلٍ؛ فهو على عُمومِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٠).

وقال القرطبيُّ: (هذا الإلحادُ والظلمُ يَجمع جميعَ المعاصي من الكُفر إلى الصغائر، فلِعِظَم حُرمة المكان توعَّدَ الله تعالى على نيَّة السيِّئة فيه، ومَن نوَى سيِّئة ولم يَعملْها لم يُحاسَبْ عليها إلا في مكَّة؛ هذا قولُ ابن مسعودٍ وجماعةٍ مِن الصحابة وغيرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٦).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، أي: يَهُمُّ فيه بأمرٍ فظيعٍ من المعاصي الكِبار. وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾، أي: عامدًا قاصدًا أنَّه ظُلْمٌ، ليس بمتأوِّل... وقال مجاهدٌ: ﴿بِظُلْمٍ﴾: يعمل فيه عملًا سيِّئًا. وهذا من خُصوصية الحرَم، أنه يُعاقَبُ البادي فيه الشرَّ، إذا كان عازمًا عليه، وإنْ لم يُوقِعْه... وهذه الآثارُ، وإن دلَّتْ على أنَّ هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعمُّ من ذلك، بل فيها تنبيهٌ على ما هو أغلظُ منها؛ ولهذا لَمَّا همَّ أصحابُ الفيل على تخريب البيت أرسلَ الله عليهم طيرًا أبابيلَ ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[الفيل: ٤- ٥]، أي: دمَّرهم وجعَلهم عبرةً ونكالًا لكلِّ مَن أراده بسوءٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١١، ٤١٢).

وقال الشِّنقيطيُّ: (الذي يَظهَر في هذه المسألةِ أنَّ كلَّ مخالفةٍ بترك واجب، أو فِعل محرَّم تدخل في الظُّلْم المذكور، وأما الجائزات كعِتاب الرجُلِ امرأتَه، أو عبْدَه؛ فليس من الإلحاد، ولا مِن الظُّلم). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٤).

وقال أيضًا: (قال بعضُ أهلِ العلمِ: مَن هَمَّ أنْ يعملَ سَيِّئَةً فِي مَكَّةَ، أذاقَه اللَّهُ العذابَ الأليمَ بسَبَبِ هَمِّه بذلك وإنْ لم يفعَلْها، بخلافِ غيرِ الحَرَمِ المكِّيِّ مِنَ البقاعِ، فلا يعاقَبُ فيه بالهمِّ... فهذه الآيةُ الكريمَةُ مُخَصِّصةٌ لعمومِ قولِه صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم: «ومَنْ همَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْها كُتِبَتْ له حسنَةٌ...» الحديثَ، وعليه فهذا التَّخصيصُ لشدَّةِ التَّغليظِ في المخالَفَةِ في الحَرَمِ المكِّيِّ، ووجهُ هذا ظاهِرٌ... ويحتملُ أنْ يكونَ معنى الإرادةِ في قولِه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ العزمَ المصَمِّمُ على ارتكابِ الذَّنْبِ فيه، والعزمُ المصَمِّمُ على الذَّنْبِ ذنبٌ يُعاقَبُ عليه في جميعِ بِقَاعِ اللَّهِ؛ =

-وهو قاصِدٌ لذلك- نُذِقْه مِن عذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ[(١)].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يغزو جَيشٌ الكَعبةَ، فإذا كانوا ببَيداءَ[(٢)] مِن الأرضِ يُخسَفُ بأوَّلِهم وآخِرِهم. قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُخسَفُ بأوَّلِهم وآخِرِهم، وفيهم أسواقُهم[(٣)] ومَن ليس منهم؟ قال: يُخسَفُ بأوَّلِهم وآخِرِهم، ثُمَّ يُبعَثونَ على نيَّاتِهم))[(٤)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، والعملُ الصالحُ مبنيٌّ على الإيمانِ، فعملٌ بلا إيمانٍ لا فائدةَ منه، فالمنافقون يعملون، ويذكرون الله، ويُصَلُّون، ويتصدَّقون، ولكن ليس عندَهم إيمانٌ؛ فلا ينفعُهم؛ ولهذا يقدِّمُ الله عزَّ وجلَّ الإيمانَ على العملِ الصالحِ[(٥)].

٢- الإيمانُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن عملٍ، والعملُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنةَ إلَّا مَن جمَع بينَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ؛

= مَكَّةَ وغيرِها). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠٥، ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٠ - ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٤، ٢٩٥).

قال الشنقيطي: (الظاهرُ أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿فِيهِ﴾ راجعٌ إلى المسجدِ الحرامِ، ولكنَّ حكمَ الحرمِ كلِّه في تغليظِ الذنْبِ المذكورِ كذلك). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٥).

(٢) ببَيداءَ مِن الأرضِ: أي: بُقعةٍ ومفازةٍ واسعةٍ منها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٨٦٦).

(٣) أسواقُهم: أي: أهلُ أسواقِهم، أو جَمعُ سُوقةٍ، وهي: الرَّعايا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٨٦٦).

(٤) رواه البخاري (٢٨٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾، وإذا ذُكِر ثوابُ الجنةِ مقيَّدًا أو معلَّقًا بالإيمانِ وحْدَه، فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصالحِ[١].

٣- العملُ لا ينفعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا؛ قال تعالى: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، والعملُ الصالحُ هو: الخالصُ الصوابُ؛ أي: ما ابتُغِي به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ فيه أنَّ الأعمالَ بالنيَّاتِ، والأُمورَ بمقاصدِها[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾ وهذا على سَبيلِ العُمومِ؛ فإنَّنا نَشهَدُ لكُلِّ مُؤمِنٍ عاملٍ للصَّالحاتِ أنَّه سيَدخُلُ الجَنَّةَ، لكِنْ لا نُطَبِّقُ الشَّهادةَ هذه على جميعِ أفرادِ العُمومِ، بمعنى: أن نَخُصَّ واحِدًا بعَينِه إلَّا مَن شَهِدَ اللهُ له بذلك، أو شَهِدَ له رَسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، أو أجمَعَت عليه الأمَّةُ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فيه الردُّ على الجبريةِ؛ إذ أضاف العملَ إليهم، والجبريةُ يقولونَ: إنَّ الإنسانَ لا يعملُ، ولا يضافُ العملُ إليه إلا مجازًا، وأنَّ عملَه ليس باختيارِه ولا بقصدِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢٧).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في هذه الآيةِ الكَريمةِ وُجوبُ احتِرامِ الحَرَمِ، وشِدَّةِ تَعظيمِه، والتَّحذيرُ مِن إرادةِ المعاصي فيه وفِعْلِها[1]، فالسَّيِّئةُ في الحَرَمِ أعظَمُ منها في غَيرِه، والهَمُّ بها فيه مأخوذٌ به[2]. فمِن خَواصِّ الحَرَمِ أنَّه يُعاقَبُ فيه على الهَمِّ بالسَّيِّئاتِ، وإنْ لم يفعَلْها، فتأمَّلْ كيف عَدَّى فِعْلَ الإرادةِ هاهنا بالباءِ، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، ولا يُقالُ: «أردتُ بكذا» إلَّا لَمَّا ضُمِّنَ معنى فِعْلِ «هَمَّ»؛ فإنَّه يُقالُ: «هَمَمْتُ بكذا»، فتَوعَّدَ مَن هَمَّ بأنْ يَظلِمَ فيه بأنْ يُذيقَه العذابَ الأليمَ[3].

٤- المَعصِيةُ في مكانٍ فاضلٍ أعظَمُ مِنَ المَعصيةِ في مكانٍ مَفضولٍ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4].

٥- إنْ قال قائِلٌ: وهل تُضاعَفُ السَّيِّئاتُ في الأمكِنةِ الفاضِلةِ والأزمِنةِ الفاضِلةِ؟

فالجوابُ: أمَّا في الكَمِّيةِ فلا تُضاعَفُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وهذه الآيةُ مَكِّيَّةٌ؛ لأنَّها مِن سورةِ (الأنعام)، وكُلُّها مكِّيَّةٌ، لكِنْ قد تُضاعَفُ السَّيِّئةُ في مكَّةَ مِن حَيثُ الكَيفيَّةُ، بمعنى أنَّ العقوبةَ تكونُ أشدَّ وأوجعَ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[5].

٦- قال الله تعالى في الحَرَمِ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨١).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير جزء عم)) لابن عثيمين (ص: ٣٢٤).
(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٦/ ٥١٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ١٦٩).

﴿أَلِيمٍ﴾ فسَمَّى اللهُ المعاصِيَ والظُّلْمَ إلحادًا؛ لأنَّها مَيلٌ عمَّا يَجِبُ أن يكونَ عليه الإنسانُ؛ إذ الواجِبُ عليه السَّيرُ على صِراطِ اللهِ تعالى، ومَن خالَفَ فقد ألحَدَ[1].

٧- يَقولُ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ويَقولُ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يَرويه عن رَبِّه تبارك وتعالى في آخِرِ الحَديثِ: ((وإنْ همَّ بسَيِّئةٍ فلم يَعمَلْها كتَبَها اللهُ تعالى عِندَه حَسَنةً كامِلةً))[2]، كيف نجمَعُ بين الآيةِ والحَديثِ؟

الجوابُ: الجَمعُ بينَ الآيةِ والحديثِ مِن أحَدِ وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، أي: مَن يَهُمّ فيَفعَلْ؛ لِقَولِ الله تبارك وتعالى في سورةِ (الأنعام)، وهي مَكِّيَّةٌ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ولم يَقُلْ: ومَن هَمَّ، بل قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فيكونُ المعنى: مَن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلْمٍ ويَفعَلْ. وعلى هذا؛ فلا تعارُضَ.

الوَجهُ الثَّاني: أن يُقالَ: إنَّ قَولَه: ((ومَن همَّ بسَيِّئةٍ فلم يَعمَلْها كُتِبَت له حَسَنةٌ)) هذا في غيرِ مكَّةَ، وتكونُ مكَّةُ مُستَثناةً مِن ذلك، أي: أنَّه يُؤاخَذُ الإنسانُ فيها بالهَمِّ، وفي غَيرِها لا يؤاخَذُ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٩٠٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) مِن حديثِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين، رقم اللقاء: (٢٥).

حَرِيرٞ ﴾ غُيِّرَ الأسلوبُ فيها بإسنادِ الإدخالِ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يكونَ هذا الكلامُ معطوفًا بالواوِ على جُملةِ ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ ﴾ [الحج: ١٩]، بأنْ يُقالَ: والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ يُدخِلُهم اللهُ جنَّاتٍ... إلى آخِره؛ فعُدِلَ عن ذلك الأسلوبِ إلى هذا النَّظمِ؛ لاسترعاءِ الأسماعِ إلى هذا الكلامِ إذ جاء مُبْتَدَأً به، مُسْتقِلًّا، مُفتتَحًا بحَرفِ التَّأكيدِ، ومُتوَّجًا باسمِ الجلالةِ؛ إيذانًا بكَمالِ مُباينةِ حالِهم لحالِ الكَفرةِ، وإظهارًا لمَزيدِ العنايةِ بأمْرِ المُؤمِنينَ، ودَلالةً على تَحقُّقِ مَضمونِ الكلامِ[(١)].

- وكرَّرَ قولَه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾؛ لأنَّه لمَّا ذكَرَ حُكْمَ أحدِ الخَصمينِ، وهو ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ ﴾، لم يكُنْ بُدٌّ مِن ذِكْرِ حُكْمِ الخَصمِ الآخرِ؛ لِمُقارَنتِه له، وإنْ تقدَّمَ ذِكْرُه[(٢)].

- في قولِه: ﴿ أَسَاوِرَ ﴾ أُشِيرَ بجمْعِ الجَمْعِ إلى التَّكثيرِ[(٣)].

- و(مِن) في قولِه: ﴿ مِنۡ أَسَاوِرَ ﴾ على القولِ بأنَّها زائدةٌ للتَّوكيدِ؛ فوَجْهُه: أنَّه لمَّا لم يُعْهَدْ تَحليةُ الرِّجالِ بالأساورِ، كان الخبَرُ عنهم بأنَّهم يُحلَّونَ أساورَ مُعرَّضًا للتَّردُّدِ في إرادةِ الحقيقةِ؛ فجِيءَ بالمُؤكِّدِ لإفادةِ المَعْنى الحقيقيِّ[(٤)].

- وقولُه: ﴿ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ غُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ فيه، حيث عُبِّرَ بالجُملةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٣٢).

الاسميَّةِ بعْدَ التَّعبيرِ بالفعليَّةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحريرَ ثِيابُهم المُعتادةُ، أو للمُحافَظةِ على هَيئةِ الفواصلِ[١].

وقيل: غُيِّرَ الأُسلوبُ للإيذانِ بأنَّ ثُبوتَ اللِّباسِ لهم أمْرٌ مُحقَّقٌ غَنِيٌّ عن البَيانِ؛ إذ لا يُمكِنُ عَراؤُهم عنه، وإنَّما المُحتاجُ إلى البَيانِ أنَّ لِباسَهم ماذا بخِلافِ الأساورِ واللُّؤلؤِ؛ فإنَّها ليستْ مِن اللَّوازمِ الضَّروريَّةِ؛ فجعَلَ بَيانَ تَحلِيَتِهم بها مَقصودًا بالذَّاتِ، ولعلَّ هذا هو الباعثُ إلى تَقديمِ بَيانِ التَّحليةِ على بَيانِ حالِ اللِّباسِ[٢].

وقيل: لمَّا كانتِ التَّحليةُ غيرَ اللِّباسِ، جِيءَ باسمِ اللِّباسِ بعْدَ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ بصِيغَةِ الاسمِ دونَ (يَلْبَسون)؛ لتَحصيلِ الدَّلالةِ على الثَّباتِ والاستمرارِ، كما دلَّتْ صِيغةُ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ على أنَّ التَّحليةَ مُتجدِّدةٌ بأصنافٍ وألْوانٍ مُختلفةٍ، ومِن عُمومِ الصِّيغتينِ يُفْهَمُ تَحقُّقُ مِثْلِها في الجانبِ الآخَرِ؛ فيكونُ في الكلامِ احتباكٌ[٣]؛ كأنَّه قيل: يُحلَّون بها، وحِلْيَتُهم مِن أساوِرَ مِن ذهَبٍ، ولِباسُهم فيها حَريرٌ يَلْبَسونه[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾

- جُملةُ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ مُعترِضةٌ، وهي كالتَّكملةِ لوصْفِ حُسْنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٢).

(٣) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٣).

حالِهم لمُناسَبةِ ذِكْرِ الهدايةِ في قولِه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾[١]. وشُبِّهَ الإسلامُ بالصِّراطِ؛ لأنَّه مُوصِلٌ إلى رِضا اللهِ[٢]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

- وقولُه: ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾، قيل: أي: المحمودِ نفْسُه أو عاقبتُه، وهو الجنَّةُ؛ فوَجْهُ تأْخيرِ هذه الهدايةِ لرِعايةِ الفواصلِ. وقيل: المُرادُ بالحميدِ: الحَقُّ المُستحِقُّ لِذَاتِه لغايةِ الحمْدِ، وهو اللهُ عَزَّ وجَلَّ، وصِراطُه الإسلامُ، ووَجْهُ التَّأخيرِ حينئذٍ: أنَّ ذِكْرَ الحمْدِ يَسْتدعِي ذِكْرَ المحمودِ[٣]. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ صِفَةً لـ ﴿صِرَٰطِ﴾، أي: المحمودُ لسالِكِه. فإضافةُ صراطٍ إليه مِن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ، والصِّراطُ المحمودُ هو صراطُ دينِ الله، وفي هذه الجُملةِ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: إيماءٌ إلى سَببِ استحقاقِ تلك النِّعمِ، وأنَّه الهدايةُ السَّابقةُ إلى دِينِ اللهِ في الحياةِ الدُّنيا[٤]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ هذا مُقابِلُ قولِه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٥).

بالنِّسبةِ إلى أحوالِ المُشركينَ؛ إذ لم يَسبِقْ لقولِه ذلك مُقابِلٌ في الأحوالِ المذكورةِ في آيةِ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ [الحج: ١٩]؛ فمَوقِعُ هذه الجُملةِ الاستئنافُ البَيانِيُّ. وفيه مع هذه المُناسَبةِ لِمَا قبْلَه: تَخلُّصٌ بَديعٌ إلى ما بعْدَه؛ مِن بَيانِ حَقِّ المُسلمينَ في المسجِدِ الحرامِ، وتَهويلِ أمْرِ الإلحادِ فيه، والتَّنويهِ به، وتَنزيهِه عن أنْ يكونَ مأْوًى للشِّرْكِ ورِجْسِ الظُّلمِ والعُدوانِ(١).

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ فيه تأْكيدُ الخبَرِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ به. وصِيغةُ الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ ذلك الفِعْلَ صار كاللَّقبِ لهم، مثْلُ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٢) [الحج: ٢٣].

- وقولُه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ والصَّدُّ عن المسجِدِ الحرامِ ممَّا شَمِلَه الصَّدُّ عن سَبيلِ اللهِ؛ فخُصَّ بالذِّكْرِ للاهتمامِ به، ولِيُنْتقَلَ منه إلى التَّنويهِ بالمسجِدِ الحرامِ، وذِكْرِ بنائِه، وشَرْعِ الحجِّ له مِن عَهْدِ إبراهيمَ(٣).

- والفِعْلُ المُضارِعُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ يُرادُ به استمرارُ الصَّدِّ منهم، وتَكرُّرُ ذلك منهم، وأنَّه دأْبُهم؛ ولذلك حسُنَ عطْفُه على الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾(٤).

- وفي التَّعقيبِ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٣).

﴿ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ عطْفًا على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على مِنوالِ العطْفِ السَّابقِ: تَتميمٌ ومُبالَغةٌ[1].

- وفائدةُ وصْفِ المسجِدِ الحرامِ بقولِه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ زيادةُ التَّشنيعِ للصَّادِّينَ عنه[2]، وللإيماءِ إلى عِلَّةِ مُؤاخذةِ المُشركينَ بصَدِّهم عنه لأجْلِ أنَّهم خالَفوا ما أراد اللهُ منه؛ فإنَّه جعَلَهُ للنَّاسِ كلِّهم، يَسْتوي في أحَقِّيَّةِ التَّعبُّدِ به العاكِفُ فيه، أي: المُستقِرُّ في المسجِدِ، والبادي، أي: البعيدُ عنه إذا دخلَهُ[3].

- وفي قولِه: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ لم يُبيِّنِ الاستواءَ في ماذا؛ لظُهورِ أنَّ الاستواءَ فيه بصِفَةِ كونِه مَسجدًا إنَّما هي في العبادةِ المقصودةِ منه[4]. والعاكِفُ: هو المُلازِمُ له في أحوالٍ كثيرةٍ، قيل: هو كِنايةٌ عن السَّاكنِ بمكَّةَ، وفي ذِكْرِ العُكوفِ تَعريضٌ بأنَّهم لا يَستحِقُّون بسُكْنى مكَّةَ مَزيَّةً على غيرِهم، وبأنَّهم حين يَمْنعون الخارجينَ عن مكَّةَ مِنَ الدُّخولِ للكعبةِ قد ظَلَموهم باستئثارِهم بمكَّةَ[5].

- قولُه: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ تَذييلٌ للجُملةِ السَّابقةِ؛ لِمَا في (مَن) الشَّرطيَّةِ مِن العُمومِ[6].

- والباءُ في ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ زائدةٌ للتَّوكيدِ، كما في قولِه: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٩).

[المائدة: ٦]، أي: مَن يُرِدْ إلحادًا وبُعْدًا عن الحقِّ والاستقامةِ، وذلك صَدُّهم عن زِيارتِه، على قولٍ في التفسيرِ. والباء في ﴿بِظُلۡمٍ﴾ للملابسةِ[١]. وقيل: ضُمِّنَ معنى فِعْلِ «هَمَّ»؛ فإنَّه يُقالُ: «هَمَمَتُ بكذا»[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٥١).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بَوَّأْنَا﴾: أي: هَيَّأْنا وبَيَّنَّا وعَرَّفْنا، وأصلُه مِن المَباءةِ: وهي مَنزِلُ القَومِ في كُلِّ مَوضِعٍ[(١)].

﴿رِجَالًا﴾: جمعُ راجِلٍ، أي: مُشاةً، يُقالُ للماشي بالرِّجْل: رَجِلٌ وراجِلٌ، وهو مشتقٌّ من الرِّجْلِ[(٢)].

﴿ضَامِرٍ﴾: الضَّامِرُ: البَعيرُ المهزولُ الَّذي أتْعَبه السَّفرُ، أو هو كلُّ ما يُركبُ مِن فرَسٍ وناقةٍ وغيرِ ذلك، وقيل: الخَفيفُ اللَّحمِ مِن الأعمالِ لا مِنَ الهُزالِ، وأصلُ (ضمر): يدُلُّ على دِقَّةٍ في الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢)، =

﴿فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: أي: مَسلَكٍ بَعيدٍ، والفَجُّ: الشَّقُّ بينَ جَبَلينِ، ويُستعمَلُ في الطَّريقِ الواسِعِ، وأصلُ (فجج): يدُلُّ على تفَتُّحٍ وانفِراجٍ، وأصلُ العُمْقِ: البعدُ سُفلًا[١].

﴿بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾: أي: الإبلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، والبهيمَةُ: مَا استَبْهم عن الجوابِ: أي: استَغْلَق، وما لا نطقَ له؛ وذلك لِما في صوتِه مِن الإبهامِ، وقيل: سُمِّيت بذلك لأنَّها أُبْهِمتْ عن أن تُميِّزَ، وأصلُ (بهم): أن يبقَى الشيءُ لا يُعرَفُ المأتَى إليه، وأصلُ (نعم): يدلُّ على تَرفُّهٍ، وطِيبِ عَيشٍ، وصلاحٍ[٢].

﴿ٱلْبَآئِسَ﴾: أي: الذي اشتَدَّتْ حاجتُه وساءَتْ حالُه وافتقَرَ، والبُؤسُ: شِدَّةُ الفَقرِ، يقالُ: بَئِسَ الرَّجُلُ بُؤْسًا: إذا اشتَدَّتْ حاجَتُه، فهو بائِسٌ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضارَعَها[٣].

﴿لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾: أي: لِيُزيلوا أدرانَهم وأوساخَهم، والتَّفَثُ في المَناسِكِ: ما كان مِن نَحوِ قَصِّ الأظفارِ والشَّارِبِ، وحَلْقِ الرَّأسِ والعانةِ، ورَمْيِ الجِمارِ، ونَحرِ البُدنِ، وأشباهِ ذلك، وأصلُه: يدلُّ على الوَسَخِ[٤].

= ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥، ٥٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١١) (٥/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٩، ٨١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٥)، =

﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾: أي: بَيتِ اللهِ الحَرامِ، وسُمِّي عَتيقًا؛ لأنَّه أقدَمُ بيتٍ للعبادةِ في الأرضِ، أو لأنَّ اللهَ تعالى أعتَقَه مِن الجَبابرةِ فلم يَظهَرْ عليه جبَّارٌ قَطُّ، وقِيل غيرُ ذلك، وأصلُ (عتق): يدُلُّ على الحُرِّيَّةِ والقِدَمِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إذ بيَّنَّا لإبراهيمَ عليه السَّلامُ مكانَ البَيتِ، وهيَّأْناه له، وقُلْنا له: لا تُشرِكْ بالله شَيئًا في عبادَتِه، وطَهِّرْ -يا إبراهيمُ- بَيتيَ للطَّائفينَ حَوْلَه، وللقائِمينَ في صلاتِهم، والرَّاكِعينَ السَّاجِدينَ، بتَنزيهِه مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، والبِدَعِ والمعاصي، والقبائِحِ وجَميعِ النَّجاساتِ الحسِّيَّةِ والمَعنَويَّةِ.

وأعلِمْ -يا إبراهيمُ- النَّاسَ بوُجوبِ الحَجِّ عليهم، يأتوك مُلَبِّينَ نِداءَك على مُختَلِفِ أحوالِهم، مُشاةً ورُكبانًا على الرَّواحِلِ التي هُزِلَت أبدانُها مِن طُولِ السَّفَرِ ومَشقَّتِه، تأتي هذه الرَّواحِلُ مِن كُلِّ طَريقٍ بعيدٍ؛ لِيَحضُرَ الحُجَّاجُ منافِعَ لهم في أمورِ دينِهم ودُنياهم، ولِيَذكُروا اسمَ اللهِ في أيَّامِ عشرِ ذي الحجَّةِ على ما رزَقَهم مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ.

فكُلوا مِن هذه الذَّبائِحِ، وأطعِموا منها الفَقيرَ الذي اشتَدَّ فَقرُه، ثُمَّ لْيُكمِلِ

= ((الغريبين)) للهروي (١/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٥)، ((باهر البرهان)) لأبي القاسم النيسابوري الغزنوي (٢/ ٩٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢).

الحُجَّاجُ ما بَقِيَ عليهم مِن النُّسُكِ، بإحلالِهم وخُروجِهم مِن إحرامِهم، وذلك بإزالةِ ما تراكَمَ مِن وسَخٍ في أبدانِهم، وقَصِّ أظفارِهم، وحَلْقِ شَعرِهم- ولْيُوفُوا بما أوجَبوه على أنفُسِهم في الحَجِّ، ولْيَطَّوَّفوا بالبَيتِ العَتيقِ القديمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ الكُفَّارِ، وصَدَّهم عن المَسجِدِ الحرامِ، وتوعَّدَ فيه مَن أراد فيه بإلحادٍ؛ ذكَرَ حالَ أبيهم إبراهيمَ، وتَوبيخَهم على سُلوكِهم غيرَ طَريقِه مِن كُفرِهم باتِّخاذِ الأصنامِ، وامتِنانَه عليهم بإيفادِ العالَمِ إليهم[(١)].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ هَيَّأْنا لإبراهيمَ مَكانَ الكَعبةِ، وأنزَلْناه فيه، وعرَّفْناه بالموضِعِ الذي يَبني فيه الكَعبةَ، وقُلْنا له: لا تُشرِكْ بالله شَيئًا في عبادَتِه، وأخلِصْ أعمالَك كُلَّها للهِ وَحْدَه، وابنِ هذا البَيتَ على اسْمِ اللهِ وَحْدَه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١١، ٥١٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٥، ٢٩٦).

قال ابن كثير: (هذا فيه تقريعٌ وتوبيخٌ لِمن عَبَد غيرَ اللهِ وأشرك به مِن قُرَيشٍ في البُقعةِ التي أُسِّسَت مِن أوَّلِ يومٍ على توحيدِ اللهِ وعبادتِه وَحْدَه لا شريكَ له). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١١).

وقال الشنقيطي: (وذهَبَت جماعةٌ مِن أهلِ العِلمِ إلى أنَّ أوَّلَ مَن بناهُ إبراهيمُ، ولم يُبْنَ قَبْلَه. =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦- ٩٧].

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

أي: وطَهِّرْ -يا إبراهيمُ- بَيتيَ للطَّائِفينَ حَوْلَه، وللقائِمينَ في صلاتِهم، والرَّاكِعينَ السَّاجِدينَ في صَلاتِهم عِندَه، بتَنزيهِه مِن كُلِّ ما لا يَليقُ به مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، والبِدَعِ والمعاصي، والقبائِحِ وجَميعِ النَّجاساتِ الحسِّيَّةِ والمَعنَويَّةِ[1].

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

أي: وأَعْلِمْ -يا إبراهيمُ[2]- النَّاسَ بوُجوبِ الحَجِّ عليهم، ونادِ فيهم أنْ حُجُّوا

= وظاهِرُ قَولِه حين ترك إسماعيلَ وهاجَرَ في مكَّةَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] يدُلُّ على أنَّه كان مَبنيًّا واندرَسَ، كما يدُلُّ عليه قَولُه هنا ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ لأنَّه يدُلُّ على أنَّ له مكانًا سابقًا كان معروفًا. والله أعلم). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٦ - ٢٩٨).
قال السعدي: (فهؤلاء لهم الحقُّ، ولهم الإكرامُ، ومِن إكرامِهم تطهيرُ البيتِ لأجْلِهم، ويدخلُ في تطهيرِه: تطهيرُه مِن الأصواتِ اللاغيةِ والمرتفعةِ التي تشوِّشُ المتعبِّدين بالصلاةِ والطوافِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

(٢) قال الشنقيطي: (والخِطابُ في قَولِه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ لإبراهيمَ، كما هو ظاهِرٌ مِنَ السِّياقِ، وهو قَولُ الجُمهورِ، خِلافًا لِمَن زعَمَ أنَّ الخِطابَ لنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وعلى إبراهيمَ وسَلَّم). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩٩).

أيُّها النَّاسُ بيتَ اللهِ؛ يأتُوا إليك مُشاةً على أرجُلِهم، مُلَبِّينَ نداءَك، حاجِّينَ بَيتَ اللهِ الحرامِ[(١)].

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾.

أي: وراكِبينَ على الرَّواحِلِ التي هُزِلَت أبدانُها مِن طُولِ السَّفَرِ ومَشقَّتِه[(٢)]، والتي تأتي مِن كُلِّ طَريقٍ ومَكانٍ واسِعٍ بَعيدٍ[(٣)].

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٨ - ٣٠٠).

(٢) قال ابنُ جزي: (الضامرُ يُرادُ به كلُّ ما يُركبُ؛ مِن فرَسٍ، وناقةٍ، وغيرِ ذلك، وإنَّما وصَفه بالضمورِ؛ لأنَّه لا يصلُ إلى البيتِ إلَّا بعدَ ضموره). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨). وممن قال بنحو ذلك: الرسعني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٩).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٨٨).

وقال ابن عاشور: (والضَّامِرُ: قليلُ لَحمِ البَطنِ... والضُّمورُ مِن مَحاسِنِ الرَّواحِلِ والخَيلِ؛ لأنَّه يُعِينُها على السَّيْرِ والحركةِ. فالضَّامِرُ هنا بمنزلةِ الاسمِ، كأنَّه قال: وعَلَى كُلِّ راحِلةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٤).

وقيل: المرادُ بها: الإبلُ المهازيلُ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والماوردي، والقرطبي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٤)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤١٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

وممن قال بهذا القول من السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالحَجِّ في قَولِه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾؛ ذكَرَ حِكمةَ ذلك الأمرِ، فقال[1]:

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾.

أي: لأجْلِ أن يَحضُرَ الحُجَّاجُ، فيُحَصِّلوا مَصالِحَ كَثيرةً لهم مِن أمورِ دينِهم ودُنياهم وآخِرَتِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[البقرة: ١٩٨ - ١٩٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((مَن حَجَّ هذا البَيتَ، فلم يَرْفُثْ[3]، ولم يَفسُقْ[4]؛ رجَعَ كيَومَ ولَدَتْه أُمُّه[5]))[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ١١٠ - ١١٤).

قال الرسعني: (قال ابنُ عبَّاسٍ وأكثرُ المفسِّرينَ: يعني: التجارةَ والأسواقَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٤).

(٣) الرَّفَثُ: الجِماعُ، أو الفُحشُ في القَولِ، أو خِطابُ الرَّجُلِ المرأةَ فيما يتعلَّقُ بالجِماعِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٩٧).

(٤) ولم يَفسُقْ: أي: لم يأتِ بسَيِّئةٍ ولا معصيةٍ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٩٧).

(٥) رجَعَ كيَومَ ولَدَتْه أمُّه: أي: بغَيرِ ذَنبٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١١٩).

(٦) رواه البخاري (١٨٢٠) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٠).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((العُمرةُ إلى العُمرةِ كفَّارةٌ لِما بينهما، والحجُّ المبرورُ[1] ليس له جَزاءٌ إلَّا الجنَّةُ))[2].

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

أي: ولِيذكُرَ الحُجَّاجُ اسمَ اللهِ في أيَّامِ عشرِ ذي الحجَّةِ[3] على ما رزَقَهم مِنَ

---

(١) الحجُّ المبرورُ: هو الذي لا يُخالِطُه شيءٌ مِن المآثمِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١٧).

(٢) رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

(٣) ممن اختار أن المراد بالأيام المعلومات هي العشر: ابن أبي زمنين، والثعلبي، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠).
ونسبه الثعلبي والبغوي والرسعني والخازن إلى أكثر المفسرين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٥).
وقال ابنُ رجب: (جمهورُ العُلَماءِ على أنَّ هذه الأيامَ المعلوماتِ هي عَشرُ ذي الحجَّةِ؛ منهم: ابنُ عُمر، وابنُ عبَّاسٍ، والحَسَنُ، وعَطاءٌ، ومُجاهِدٌ، وعِكْرمةُ، وقَتادةُ، والنَّخَعيُّ، وهو قولُ أبي حنيفةَ والشَّافعيِّ، وأحمدَ في المشهورِ عنه). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٩،٢٧٠).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ بها أيَّامُ النَّحرِ، مع اختِلافِهم: هل هي يومُ النَّحرِ ويومانِ بَعدَه أو ثلاثةٌ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمرقنديُّ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والشَّوكاني، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ١١٥).
قال الخازن: (﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨] يعني: الهدايا والضَّحايا مِنَ النَّعَمِ، وهي: الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ، وفيه دليلٌ على أنَّ الأيامَ المعلوماتِ: يومُ النَّحرِ، وأيَّامُ التَّشريقِ؛ لأنَّ التَّسميةَ على بهيمةِ الأنعامِ عند نحرِها ونحْرَ الهدايا يكونُ في هذه الأيَّامِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٥).
وقال القاسمي: (﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، أي: على ما ملَّكهم منها، وذلَّلها لهم؛ لِيَجعَلوها هَدْيًا وضَحايا... والأيَّامُ المعلوماتُ: أيَّامُ العَشرِ، أو يومُ النَّحرِ وثلاثةُ أيَّامٍ أو يومانِ بَعدَه، أو يومُ عَرفةَ والنَّحرِ ويومٌ بَعدَه: أقوالٌ للأئمَّةِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٤١).

الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ[١].

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾.

أي: فكُلوا مِنَ الأنعامِ التي ذكَرْتُم اسمَ اللهِ عليها، وأطعِموا منها مَن ساءت حالُه فاشتَدَّ به الفَقرُ، وضَرَّ به الجوعُ، فلا شيءَ له يُذهِبُ جوعَه، ويرفعُ عنه ضرَّه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤١، ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٢٥)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ١١٤).

وممَّن ذهَب إلى أن المعنى: على نَحْرِ وذَبحِ ما رَزَقَهم مِن بهيمةِ الأنعامِ: السمعاني، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤١- ٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ١١٤).

قال ابن رجب: (وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فقيل: إنَّ المراد ذِكرُه عند ذَبحِها، وهو حاصِلٌ بذِكرِه في يوم النَّحرِ؛ فإنَّه أفضلُ أيَّامِ النَّحرِ. والأصَحُّ: أنَّه إنَّما أُريدَ ذِكرُه شُكرًا على نِعمةِ تَسخيرِ بهيمةِ الأنعامِ لِعبادِه؛ فإنَّ لله تعالى على عِبادِه في بهيمةِ الأنعامِ نِعَمًا كثيرةً، قد عدَّد بَعضَها في مواضِعَ مِن القُرآنِ، والحاجُّ لهم خُصوصيَّةٌ في ذلك عن غيرِهم؛ فإنَّهم يَسيرونَ عليها إلى الحَرَمِ لِقَضاءِ نُسُكِهم). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٧٠،٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٣، ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

قال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ استَدَلَّ بهذه الآيةِ مَن ذهَب إلى وُجوبِ الأكْلِ مِن الأضاحي، وهو قَولٌ غريبٌ. والذي عليه الأكثرونَ أنَّه مِن باب الرُّخصةِ أو الاستِحبابِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨).

قال البغوي: (﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أمرُ إباحةٍ وليس بواجِبٍ، وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّ أهلَ الجاهليَّةِ =

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾.

أي: ثُمَّ لْيُكمِلِ الحُجَّاجُ ما بَقِيَ عليهم مِن مناسِكِ حَجِّهم؛ كرَمْيِ الجِمارِ، وحَلْقِ الرُّؤوسِ، ونَتفِ الآباطِ، وحلقِ العانةِ، والأخذِ مِن الشَّوارِبِ، وقَصِّ الأظفارِ، والطَّوافِ بالبَيتِ، وإزالةِ وَسخِ الأبدانِ(١).

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾.

أي: ولْيُوفِ الحُجَّاجُ بما أوجَبوه على أنفُسِهم في الحَجِّ(٢).

= كانوا لا يأكُلونَ مِن لُحومِ هداياهم شيئًا، واتَّفَق العُلَماءُ على أنَّ الهَدْيَ إذا كان تطوُّعًا يجوزُ للمُهدِي أن يأكُلَ منه، وكذلك أُضحيَّةُ التطوُّعِ... واختَلَفوا في الهَدْيِ الواجِبِ بالشَّرعِ: هل يجوزُ للمُهدِي أن يأكُلَ منه شيئًا؛ مِثلُ: دَمِ التَّمتُّعِ والقِرانِ، والدَّمِ الواجِبِ بإفسادِ الحَجِّ وفواتِه، وجزاءِ الصَّيدِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).
قال النيسابوري: (أجمع أهلُ التفسيرِ على أنَّ المرادَ هاهنا: إزالةُ الأوساخِ والزوائِدِ؛ كقَصِّ الشارِبِ والأظفارِ، ونتْفِ الإبْطِ، وحَلقِ العانة، فتقديرُ الآية: ثمَّ لْيَقضُوا إزالةَ تَفَثِهم). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٧٨). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٤٠٢).
قال ابن عاشور: (هذا من جُملةِ ما خاطب اللهُ به إبراهيمَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٠).
قال البغويُّ: (قولُه تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال مجاهِدٌ: أراد نَذْرَ الحَجِّ والهَدْيِ، وما يَنذِرُ الإنسانُ مِن شَيءٍ يكونُ في الحجِّ، أي: لِيُتمُّوها بقَضائِها. وقيل: المرادُ منه الوَفاءُ بما نذَر، على ظاهِرِه. وقيل: أراد به الخُروجَ عمَّا وجَب عليه، نذَرَ أو لم يَنذِرْ. والعرَبُ تقولُ لكُلِّ مَن خرجَ عن الواجِبِ عليه: وَفَى بنَذرِه). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٦). =

﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾.

أي: ولْيَطُفِ الحُجَّاجُ طَوافَ الإفاضةِ(١) ببَيتِ الله العتيقِ(٢)؛ ....

= وممَّن اختار القولَ الأوَّل في الجُملة: ابنُ جَرير، والسمرقندي، والواحديُّ، والرازيُّ، والسعديُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٠).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٧).

والقول الثاني هو ظاهر اختيار الشنقيطي. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٣٣).

(١) قال ابن جرير: (عُنِيَ بالطواف الذي أمَر جلَّ ثناؤه حاجَّ بيتِه العتيقِ به في هذه الآيةِ: طوافُ الإفاضةِ الذي يُطاف به بعد التعريفِ، إمَّا يومَ النحر، وإمَّا بعْدَه؛ لا خِلافَ بين أهل التأويل في ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣١).

وقال ابن جزي: (المراد هنا طوافُ الإفاضةِ، عند جميعِ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩).

وقال ابن عطية: (ويحتملُ بحسَبِ الترتيبِ أن تكونَ الإشارةُ إلى طوافِ الوداعِ؛ إذ المستحسنُ أن يكونَ ولا بدَّ، وقد أسنَد الطبريُّ عن عمروِ بنِ أبي سلمةَ، قال: سألتُ زهيرًا عن قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ فقال: هو طوافُ الوداعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٩). ويُنظر: ((موطأ مالك)) (٣/ ٥٣٩، ٥٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٢).

(٢) قال الشنقيطي: (في المرادِ بالعتيقِ هنا للعلماءِ ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ به القديمُ؛ لأنَّه أقدمُ مواضِعِ التَّعبُّدِ.

الثَّاني: أنَّ اللهَ أعتقَه مِنَ الجبابرةِ.

الثَّالثُ: أنَّ المرادَ بالعتقِ فيه الكرمُ... وإذا عَلِمتَ ذلك فاعْلَمْ: أنَّه قد دَلَّتْ آيةٌ مِنْ كتابِ اللَّهِ، على أنَّ العتيقَ في الآيةِ بمعنَى القديمِ الأوَّلِ، وهي قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾ الآيةَ [آل عمران: ٩٦]، معَ أنَّ المعنييْنِ الآخرينِ كلاهما حَقٌّ، ولكنَّ القرآنَ دَلَّ على ما ذكرنا، وخيرُ ما يُفَسَّرُ به القرآنُ القرآنُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٥٣).

وممن اختار أنَّ العتيقَ معناه القديمُ: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٣)، ((تفسير القرطبي)) =

الكعبةِ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

ينبغي للإنسانِ أنْ يَستَحضِرَ أنَّه في مجيئِه إلى مكَّةَ وإحرامِه، أنَّه إنما يفعَلُ ذلك تلبيةً لدُعاءِ الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، فالأذانُ بأمْرِ الله يُعتبرُ أذانًا مِن اللهِ، فإذا كان اللهُ هو الذي أذَّنَ، فأنا أجيبُه وأقولُ: «لَبَّيك اللهُمَّ لَبَّيك»(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- عُلِّقت القلوبُ على محبَّةِ الكعبةِ: البيتِ الحرامِ، حتى استطاب المحبُّونَ

= (١٢/ ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٣، ٢٥٤).

وقيل: العتيقُ: أي: المعتَقُ مِن تسلطِ الجبابرةِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠).

وممَّن جمَع بيْن المعنيينِ السابقينِ في الجملةِ: البِقَاعيُّ، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

قال البقاعي: (وصفه بقولِه: ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ إشارةً إلى استحقاقِه للتَّعظيمِ بالقِدَمِ والعِتقِ مِن كُلِّ سوءٍ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١).

وقال السعدي: (﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: القديمِ؛ أفضل المساجد على الإطلاق، المُعتَق مِن تسلُّط الجبابرةِ عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

وقال ابنُ عاشور: (والعتيقُ: المُحَرَّرُ، غيرُ المملوكِ لِلنَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)). (١٧/ ٢٥٠).

وقال النيسابوري: (سُمِّيَ بالبيتِ العَتيقِ؛ لأنَّه أوَّلُ بَيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ. عن الحَسَنِ. وقال قتادة: لأنَّه أُعتِقَ مِن تَسَلُّطِ الجبابرةِ عليه. وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، وابنِ الزُّبَير، وروَوه عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم. وعن ابنِ عُيَينةَ: لأنَّه لم يُملَكْ قَطُّ. وعن مجاهِدٍ: لأنَّه أُعتِقَ مِن الغَرَقِ أيامَ الطُّوفانِ. وقيل: معناه البيتُ الكريمُ). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٤/ ٥١٢).

في الوصولِ إليها هجرَ الأوطانِ والأحبابِ، ولَذَّ لهم فيها السَّفرُ الذي هو قطعةٌ مِن العذاب، فركِبوا الأخطارَ، وجابُوا المفاوِزَ والقِفارَ، واحتملوا في الوصولِ غايةَ المشاقِّ، ولو أمكنهم لسَعَوا إليها على الجفونِ والأحداقِ:

نعمْ أسعَى إليكَ على جُفوني وإنْ بَعُدت لمسراكَ الطريقُ

وسِرُّ هذه المحبَّةِ هي إضافةُ الرَّبِّ سُبحانَه له إلى نَفْسِه بقَولِه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾[1]؛ فقد أضافه الرحمنُ إلى نفْسِه، ولتَعظُمَ محبَّتُه في القلوب، وليكونَ أعظمَ لتطهيرِه وتعظيمِه؛ لكونِه بيتَ الرَّبِّ، للطائفينَ به، والعاكفينَ عنده، المقيمينَ لعبادةٍ من العباداتِ؛ مِن ذكرٍ، وقراءةٍ، وتعلُّمِ عِلمٍ وتعليمِه، وغير ذلك من أنواعِ القُرَبِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فقَرَن الطَّوافَ بالصَّلاةِ؛ لأنَّهما لا يُشرَعانِ إلَّا مُختَصَّينِ بالبَيتِ؛ فالطَّوافُ عندَه، والصَّلاةُ إليه في غالِبِ الأحوالِ، إلَّا ما استُثنيَ مِن الصَّلاةِ عندَ اشتِباهِ القِبلةِ، وفي الحَربِ، وفي النَّافلةِ في السَّفَرِ. والله أعلَمُ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّه لا يَجوزُ أن يُترَكَ عند بَيتِ اللهِ الحَرامِ قَذَرٌ مِنَ الأقذارِ، ولا نَجَسٌ مِنَ الأنجاسِ المعنويَّةِ ولا الحِسِّيَّةِ، فلا يُترَكُ فيه أحَدٌ يَرتَكِبُ ما لا يُرضي اللهَ، ولا أحَدٌ يُلَوِّثُه بقَذَرٍ مِن النَّجاساتِ[4]. فقوله: ﴿وَطَهِّرْ﴾ يَعُمُّ

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٣).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٨).

تطهيرَه مِن النَّجاسةِ الحِسِّيَّةِ، ومِن الكُفرِ والمعاصي والأصنامِ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ﴾ عطْفُ ﴿وَأَذِّن﴾ على ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن إكرامِ الزَّائِرِ: تَنظيفَ المَنزِلِ، وأنَّ ذلك يكونُ قَبلَ نُزولِ الزَّائِرِ بالمكانِ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ دَلالةٌ على اشتِراطِ طَهارةِ ثَوبِ المصَلِّي لِصِحَّةِ صَلاتِه؛ فإنَّه إذا أَمَرَ اللهُ تعالى بتطهيرِ المَحَلِّ -وهو مُنفَصِلٌ عن المصَلِّي- فاللِّباسُ الذي هو مُتَّصِلٌ به يكونُ الأمرُ بتطهيرِه مِن بابِ أَولَى(٣).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ﴾ جملةُ ﴿يَأۡتُوكَ﴾ جوابٌ للأمرِ، جعَلَ التأذينَ سَبَبًا للإتيانِ؛ تَحقيقًا لتَيسيرِ اللهِ الحَجَّ على النَّاسِ، فدَلَّ جوابُ الأمرِ على أنَّ اللهَ ضَمِنَ له استجابةَ نِدائِه(٤).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ فيه جوازُ المَشيِ والرُّكوبِ في الحَجِّ(٥).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ استَدَلَّ بعضُهم على تفضيلِ حَجِّ الرَّاجِلِ على الرَّاكِبِ بتَقديمِ الله تعالى ﴿رِجَالٗا﴾ على ﴿كُلِّ ضَامِرٖ﴾، وأنَّ ذلك دلَّ على أنَّ حَجَّ الرَّاجِلِ أفضَلُ

(١) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٤٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٢).
(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٢/ ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٣).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨١).

مِن حَجِّ الراكبِ[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ إنَّما قال: ﴿يَأْتُوكَ﴾ وإن كانوا يأتونَ الكَعبةَ؛ لأنَّ المناديَ إبراهيمُ، فمَن أتَى الكَعبةَ حاجًّا، فكأنَّما أتى إبراهيمَ؛ لأنَّه أجاب نِداءَه، وفيه تَشريفُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٢]. وقيل: تعليقُ فعل ﴿يَأْتُوكَ﴾ بضميرِ خطابِ إبراهيمَ، فيه دلالةٌ على أنَّه كان -في حياتِه- يحضرُ موسمَ الحجِّ كلَّ عامٍ، يبلِّغ للناسِ التوحيدَ، وقواعدَ الحنيفيةِ[٣].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ قد يُؤخَذُ منه بدَلالةِ الإيماءِ[٤]: الوعدُ بفتوحاتٍ شاملةٍ لمناطقَ شاسعةٍ؛ لأنَّ الإتيانَ مِنْ كلِّ فَجٍّ عميقٍ، يَدُلُّ على الإتيانِ إلى الحجِّ مِنْ بعيدٍ، والإتيانُ إلى الحجِّ يَدُلُّ على الإسلامِ، وبالتَّالي يَدُلُّ على مجيءِ المسلمينَ مِنْ بعيدٍ، وهو مَحَلُّ الاستدلالِ. والله تعالَى أعلمُ[٥].

١١- قولُه: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الفجُّ: الشَّقُّ بين جَبلينِ تَسيرُ فيه الرِّكَابُ؛ فغَلَبَ الفَجُّ على الطَّريقِ لأنَّ أكثرَ الطُّرقِ المُؤدِّيةِ إلى مكَّةَ تُسلَكُ بين الجبالِ[٦].

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٣).

(٤) دلالة الإيماء: هو اقترانُ الوصفِ بحكمٍ لو لم يَكُن الوصفُ -أو نظيرُه- للتَّعليلِ لكان ذلك الاقترانُ بَعيدًا مِن فصاحةِ كلامِ الشَّارعِ، وكان إتيانُه بالألفاظِ في غيرِ مواضِعِها، معَ كونِ كلامِ الشَّارعِ مُنَزَّهًا عن الحشوِ الَّذي لا فائدةَ فيه. يُنظر: ((شرح الكوكب المنير)) لابن النجار (٤/ ١٢٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ١٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٥).

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فائِدةُ قَولِه: ﴿مَّعْلُومَٰتٍ﴾ وَ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ التَّحريضُ على هذه الأيامِ، وعلى اغتِنامِ فَضْلِها، أي: لَيسَت كغَيرِها، فكأنَّه قال: هي مَخصوصاتٌ؛ فلْتُغتَنَمْ[١]. وقيل: إنَّ سَببَ تَسميتِها مَعلوماتٍ: الحِرصُ على عِلمِها بحِسابِها؛ لأنَّ وقتَ الحَجِّ في آخِرِها، وكثرةُ ذِكرِ اللهِ تعالى فيها بالتلبيةِ والتكبيرِ[٢]؛ ففي التعبيرِ بالعِلمِ إشارةٌ إلى وجوبِ استفراغِ الجُهدِ، بعدَ القطعِ بأنَّ الشهرَ ذو الحُجَّةِ اسمًا ومُسمًّى في تحريرِ أوَّلِه، وهذا على أنَّ المرادَ بـ(المعلومات) العشرُ مِن ذي الحجَّةِ. وأمَّا أيَّامُ التَّشريقِ، فإنَّها لَمَّا كانتْ مبنِيَّةً على العِلمِ بأمرِ الشهرِ الذي أُمِرَ به هنا، فأنتجَ العِلمَ بيومِ العيدِ، لم يُحتَجْ في أمرِها إلى غيرِ العَدِّ؛ فلذا عبَّرَ عنها به دون العِلمِ[٣].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ به الإكثارُ؛ إذ مُطلَقُ الذِّكرِ مَندوبٌ إليه في كُلِّ وَقتٍ[٤].

١٤- في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ دَلالةٌ على أنَّه يُشتَرَطُ في الأُضحِيَّةِ أنْ تكونَ مِن بهيمةِ الأنعامِ -وهي: الإبلُ والبَقَرُ والغَنَمُ- فلو ضَحَّى الإنسانُ بحيوانٍ آخَرَ أغلى منها، لم يُجْزِه، وكذلك الهديُ الذي نصَّ الشرعُ على كونِه مِن بهيمةِ الأنعامِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٧٢، ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

[البقرة: ١٩٦]، وقوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾(١) [البقرة: ١٩٦].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ دَلالةٌ على إباحة الأكلِ مِن الهَدْي كلِّه -تطوعِه وفرضِه-؛ إذْ مَخْرَجُ الإباحةِ في الأكلِ عامٌّ، فمَن خصَّ منه شيئًا فعليه أنْ يأتيَ بالبرهانِ(٢).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ * ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المرادَ بالأيَّامِ المعلوماتِ: ما قَبْلَ يومِ النَّحْرِ -وهو عشرُ ذي الحِجَّةِ-؛ وذلك لأنَّه سُبحانه جَعَلَ هذا كلَّه بعد ذِكْرِه في الأيَّامِ المعلوماتِ، وقَضاءُ التَّفَثِ -وهو شَعَثُ الحَجِّ وغُبارُه ونَصَبُه- والطوافُ بالبيتِ؛ إنَّما يكونُ في يومِ النَّحْرِ وما بعدَه، ولا يكونُ قبْلَه، وقد جَعَلَ اللهُ سُبحانَه هذا مرَتَّبًا على ذِكْرِه في الأيَّامِ المعلوماتِ بلَفظةِ «ثُمَّ»(٣).

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ النَّذرَ كان مشروعًا في شريعةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ(٤).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الوفاءَ بالنَّذرِ

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٧).

ولا خلافَ في جوازِ الأكلِ مِن هديِ التطوُّعِ إذا بلَغ محلَّه في الحرمِ، يُنظر: ((التمهيد)) لابن عبد البر (٢/ ١١٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ١٩٧).

وأمَّا الأكلُ مِن هدي القِرانِ والتمتعِ فالجمهورُ على استحبابِه. يُنظر: ((الهداية شرح البداية)) للميرغيناني (١/ ١٨٦)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٨٩)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٤/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٠).

عِبادةٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أمرٌ، والأمرُ بوفائِه يدُلُّ على أنَّه عِبادةٌ؛ لأنَّ العِبادةَ ما أُمِرَ به شَرعًا[١].

١٩- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الإيفاءِ بالنَّذرِ؛ فصيغةُ الأمرِ تَقتَضي الوُجوبَ -على الأصَحِّ- إلَّا لدَليلٍ صارفٍ عنه[٢]. ففيه دليلٌ على وُجوبِ إخراجِ النَّذْرِ إن كان دمًا أو هَدْيًا أو غيرَه، ويدُلُّ ذلك على أنَّ النَّذرَ لا يجوزُ أن يُؤكَلَ منه وفاءً بالنَّذرِ، وكذلك جزاءُ الصَّيدِ، وفِديةُ الأذى؛ لأنَّ المطلوبَ أن يأتيَ به كامِلًا مِن غيرِ نَقصِ لحمٍ ولا غيرِه[٣].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الطَّوافَ لا يجوزُ داخِلَ البَيتِ، ولا في شَيءٍ مِن هَوائِه[٤]، وأنَّه يَجِبُ الطَّوافُ مِنْ وَراءِ الحِجْرِ؛ لأنَّه مِنْ أصلِ البيتِ الَّذي بناه إبراهيمُ، وإنْ كانت قُرَيْشٌ قد أخْرَجوه مِنَ البيتِ، حِينَ قَصُرَتْ بهم النَّفَقةُ؛ ولهذا طافَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم مِنْ وراءِ الحِجرِ، وأخبرَ أنَّ الحِجْرَ مِنَ البيتِ، ولم يَسْتَلِمِ الرُّكنيْنِ الشَّامِيَّيْنِ؛ لأنَّهما لم يُتَمَّما على قواعِدِ إبراهِيمَ العتيقةِ[٥].

٢١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هذا أمرٌ بالطَّوافِ خُصوصًا، بعدَ الأمرِ بالمناسِكِ عُمومًا؛ لِفَضلِه وشَرَفِه، ولِكَونِه المقصودَ، وما قَبْلَه وسائِلُ إليه، ولعَلَّه -واللهُ أعلَمُ أيضًا- لفائدةٍ أُخرى، وهي: أنَّ الطَّوافَ

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٨). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٤).

مَشروعٌ كُلَّ وَقتٍ، وسواءٌ كان تابِعًا لنُسُكٍ أم مُستَقِلًّا بنَفْسِه[١].

٢٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ دَلَّ على لُزومِ طَوافِ الإفاضَةِ، وأنَّه لا صِحَّةَ للحجِّ بِدونِه[٢].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ختَمَ خِطابَ إبراهيمَ بالأمرِ بالطَّوافِ بالبَيتِ؛ إيذانًا بأنَّهم كانوا يَجعَلونَ آخِرَ أعمالِ الحَجِّ الطَّوافَ بالبيتِ، وهو المُسمَّى في الإسلامِ طَوافَ الإفاضةِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

- عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ عطْفَ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ. ويُعْلَمُ منها تَعليلُ الجُملةِ المعطوفةِ عليها، بأنَّ المُلحِدَ في المسجِدِ الحرامِ قد خالَفَ بإلحادِه فيه ما أرادَهُ اللهُ مِن تَطهيرِه حينَ أمَرَ ببنائِه، والتَّخلُّصُ من ذلك إلى إثباتِ ظُلْمِ المُشركينَ وكُفرانِهم نِعمةَ اللهِ في إقامةِ المسجِدِ الحرامِ وتَشريعِ الحجِّ[٤].

- قولُه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ (إذ) مَنصوبٌ بفِعْلٍ مُقدَّرٍ، أي: اذكُرْ ذلك الوقْتَ العظيمَ، وعُرِفَ معنى تَعظيمِه مِن إضافةِ اسمِ الزَّمانِ إلى الجُملةِ الفِعليَّةِ دونَ المصدرِ؛ فصار بما يدُلُّ عليه الفِعْلُ مِنَ التَّجدُّدِ كأنَّه زمَنٌ حاضرٌ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتَوجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقْتِ، مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه من الحوادثِ؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها؛ لِمَا أنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوقْتِ إيجابٌ لِذكْرِ ما وقَعَ فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها، فإذا استُحضِر كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[١].

- واللَّامُ في ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ لامُ العِلَّةِ؛ لأنَّ (إبراهيمَ) مفعولٌ أوَّلُ لـ ﴿بَوَّأْنَا﴾ الَّذي هو مِن باب (أعطى)؛ فاللَّامُ مِثْلُها في قولِهم: (شكرْتُ لك)، أي: شكرْتُك لأجْلِك. وفي ذِكْرِ اللَّامِ في مِثْلِه ضَربٌ من العِنايةِ والتَّكرمةِ[٢].

- وقولُه: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فيه إيجازٌ في الكلامِ، كأنَّه قيل: وإذ أعطيناهُ مكانًا لِيَتَّخِذَ فيه بَيتًا، فقال: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ لأنَّ هذا حكايةٌ عن قِصَّةٍ مَعروفةٍ لهم، وسبَقَ ذِكْرُها فيما نزَلَ قبْلَ هذه الآيةِ مِن القُرآنِ. والبيتُ مَعروفٌ معهودٌ عند نُزولِ القُرآنِ؛ فلذلك عُرِّفَ بلامِ العهْدِ، ولولا هذه النُّكتةُ لكان ذِكْرُ (مكان) حشْوًا[٣].

- قولُه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ إضافةُ البيتِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ تَشريفٌ للبَيتِ، وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ دلَّ عليه ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾، والتَّقديرُ: وأمَرْناهُ بِبناءِ البيتِ في ذلك المكانِ، وبعْدَ أنْ بَناهُ قُلْنا: لا تُشْرِكْ بي شيئًا، وطَهِّرْ بَيتي[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الصَّلاةِ بأركانِها؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٤١).

ولعلَّ ذلك للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ واحدٍ منها مُستقِلٌّ باقتضاءِ ذلك؛ فكيف وقد اجتمَعَتْ[(١)]؟!

- ولَمْ يَعطِفِ السُّجودَ؛ لأنَّه مِن جِنسِ الرُّكوعِ في الخُضوعِ، ويجوزُ أن يكونَ (القائِمينَ) بمعنى المُقيمين، و(الطَّائِفينَ) بمعنى الطَّارئينَ، فيكونَ المرادُ بالرُّكعِ السُّجودِ فقط المُصَلِّينَ[(٢)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾

- قولُه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ مُضاعفةُ الحُروفِ في قولِه: ﴿وَأَذِّن﴾ مُشعِرٌ بتكريرِ الفِعْلِ، أي: أكثِرِ الإخبارَ بالشَّيءِ[(٣)].

- الألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للجِنْسِ؛ فيَعُمُّ كلَّ البشَرِ[(٤)].

- قولُه: ﴿رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ الواوُ واوُ التَّقسيمِ الَّتي بمعنى (أو)؛ إذ معنى العَطْفِ هنا على اعتبارِ التَّوزيعِ بين راجلٍ وراكبٍ، والمقصودُ منه استيعابُ أحوالِ الآتِينَ؛ تَحقيقًا للوعْدِ بتَيسيرِ الإتيانِ المُشارِ إليه بجَعْلِ إتيانِهم جوابًا للأمْرِ. وقُدِّمَ قولُه: ﴿رِجَالٗا﴾؛ لكونِ هذه الحالِ أغرَبَ، ثمَّ ذُكِرَ بعْدَه ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾؛ تَكملةً لتَعميمِ الأحوالِ؛ إذ إتيانُ النَّاسِ لا يَعْدو أحَدَ هذينِ الوصفينِ[(٥)]. وقيل: تقديمُ الرِّجالُ على الرُّكبانِ فيه فائدةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٤٣، ٢٤٤).

جليلةٌ؛ وهي: أنَّ اللهَ تعالى شَرَط في الحجِّ الاستطاعةَ -ولا بُدَّ مِن السَّفَرِ إليه لغالِبِ النَّاسِ- فذَكَر نوعَيِ الحُجَّاجِ؛ لِقَطْعِ تَوَهُّمِ مَن يظنُّ أنَّه لا يجِبُ إلَّا على راكِبٍ، وقَدَّمَ الرِّجالَ؛ اهتِمامًا بهذا المعنى وتأكيدًا. ومِن النَّاسِ مَن يقولُ: قدَّمَهم جَبْرًا لهم؛ لأنَّ نفوسَ الرُّكْبانِ تَزدَريهم وتوَبِّخُهم، وتقولُ: «إنَّ اللهَ تعالى لم يكتُبْه عليكم، ولم يُرِدْه منكم!»، وربَّما توَهَّموا أنَّه غيرُ نافعٍ لهم، فبدأ به؛ جَبْرًا لهم ورحمةً[1].

- وكلمةُ (كلِّ) في قولِه: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ مُستعمَلةٌ في الكثرةِ، أي: وعلى رواحِلَ كثيرةٍ[2].

- قولُه: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الضَّامِرُ: البعيرُ المهزولُ الَّذي أتعبَه السَّفرُ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فوصَفَها اللهُ تعالى بالمآلِ الَّذي انتهَتْ عليه إلى مَكَّةَ، وذكَرَ سببَ الضُّمورِ، فقال: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، أي: أثَّرَ فيها طولُ السَّفرِ، ورَدَّ الضَّميرَ إلى الإبلِ؛ تكرِمةً لها؛ لقَصْدِها الحجَّ مع أربابِها، كما قال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١] في خَيلِ الجِهادِ؛ تكرِمةً لها حين سعَتْ في سَبيلِ اللهِ[3].

- قَولُه: ﴿يَأْتِينَ﴾ يجوزُ أن يكونَ صِفةً لـ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ لأنَّ لفظَ (كل) صيَّرَه في معنى الجمعِ، وإذ هو جَمْعٌ لِما لا يَعقِلُ فحقُّه التأنيثُ، وإنما أُسندَ الإتيانُ إلى الرواحِلِ دون النَّاسِ فلم يقُل: (يأتون)؛ لأنَّ الرواحِلَ هي سببُ إتيان الناسِ مِن بُعدٍ لِمن لا يستطيعُ السَّفَرَ على رجلَيه. ويجوزُ أن تُجعَلَ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٩).

جملةُ ﴿يَأْتِينَ﴾ حالًا ثانيةً من ضَميرِ الجَمعِ في ﴿يَأْتُوكَ﴾؛ لأنَّ الحالَ الأُولَى تَضمَّنتْ معنى التَّنويعِ والتَّصنيفِ؛ فصارَ المعنى: يَأتوكَ جماعاتٍ، فلمَّا تُؤوِّلَ ذلك بمعنى الجماعاتِ جرَى عليهم الفِعلُ بضَميرِ التأنيثِ، وهذا الوجهُ يَتضمَّنُ زِيادةَ التَّعجيبِ مِن تيسيرِ الحَجِّ حتَّى على المُشاةِ(١). وقيل: ﴿يَأْتِينَ﴾ فجمَع؛ لأنَّه أُريدَ بكُلِّ ضامرٍ النوقُ، ومعنى الكلِّ الجَمعُ؛ فلذلك قِيل: ﴿يَأْتِينَ﴾(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾

- قولُه: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ يَتعلَّقُ بقولِه: ﴿يَأْتُوكَ﴾؛ فهو عِلَّةٌ لإتيانِهم الَّذي هو مُسبَّبٌ على التَّأذينِ بالحجِّ، فآلَ إلى كونِه عِلَّةً في التَّأذينِ بالحجِّ(٣).

- قولُه: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي: لِيَحضُروا، فيُحَصِّلوا منافِعَ لهم؛ فكَنَّى بشُهودِ المنافعِ عن نَيلِها. ولا يُعْرَفُ ما وعَدَهم اللهُ على ذلك بالتَّعيينِ(٤).

- ونكَّرَ المنافِعَ؛ لأنَّه أراد منافِعَ مُختصَّةً بهذه العبادةِ دِينيَّةً ودُنيويَّةً لا تُوجَدُ في غيرِها من العباداتِ؛ فدَلَّ التَّنكيرُ فيها على تَفخيمِ المنافِعِ وتكثيرِها، بحيثُ لا توجَدُ في غيرِها(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٤٥، ٢٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٦).

- وفي قولِه: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ كنَّى عن النَّحرِ والذَّبحِ بذِكْرِ اسمِ اللهِ، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ الغرَضَ الأصلِيَّ فيما يُتقرَّبُ به إلى اللهِ أنْ يُذكرَ اسْمُه، وقد حسَّنَ الكلامَ تَحسينًا بيِّنًا: أنْ جُمِعَ بين قولِه: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾؛ فجُمِعَ بين ذِكْرِ الرَّازقِ والمرزوقِ على طَريقةِ التَّعليلِ، وذلك أنْ رُتِّبَ ذِكْرُ اسمِ اللهِ على الوصْفِ المُناسِبِ، هو كونُه رِزقًا منه، ولو قيل: (لِيَنْحَروا في أيَّامٍ مَعلوماتٍ بَهيمةَ الأنعامِ)، لم يُرَ شَيءٌ من ذلك الحُسْنِ والرَّوعةِ. ومع هذه النُّكتةِ الجليلةِ رُوعِيَ فيه معنى الإجمالِ والتَّفصيلِ[1].

- وفي جَعْلِ قولِه: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ غايةً للإتيانِ: إيذانٌ بأنَّه الغايةُ القُصوى دونَ غيرِه[2].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عُلِّقَ الفِعْلُ بالمرزوقِ وبُيِّنَ بالبهيمةِ؛ تَحريضًا على التَّقرُّبِ، وتَنبيهًا على الذِّكْرِ[3]. وأُدْمِجَ في هذا الحُكْمِ الامتنانُ بأنَّ اللهَ رزَقَهم تلك الأنعامَ، وهذا تَعريضٌ بطلَبِ الشُّكرِ على هذا الرِّزقِ بالإخلاصِ للهِ في العبادةِ، وإطعامِ المَحاويجِ من عِبادِ اللهِ مِن لُحومِها، وفي ذلك سَدٌّ لحاجةِ الفُقراءِ بتَزويدِهم ما يَكْفيهم لعامِهم؛ ولذلك فُرِّعَ عليه: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٦).

- قولُه: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ الأمْرُ بالأكْلِ منها يحتملُ أنْ يكونَ أمْرَ وُجوبٍ في شَريعةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فيكونَ الخِطابُ في قولِه: ﴿فَكُلُوا۟﴾ لإبراهيمَ ومَن معه. وقد عُدِلَ عن الغَيبةِ الواقعةِ في ضَمائرِ ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، إلى الخِطابِ بذلك في قولِه: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ...﴾ إلخ، على طَريقةِ الالتفاتِ، أو على تَقديرِ قولٍ مَحذوفٍ مأمورٍ به إبراهيمُ عليه السَّلامُ، وفي حِكايةِ هذا تَعريضٌ بالرَّدِّ على أهْلِ الجاهليَّةِ؛ إذ كانوا يَمْنعون الأكلَ مِنَ الهَدايا، ثمَّ عاد الأُسلوبُ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾. ويحتملُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا ...﴾ إلخ، مُعترِضةً مُفرَّعةً على خِطابِ إبراهيمَ ومَن معه تَفريعَ الخبَرِ على الخبَرِ؛ تَحذيرًا مِن أنْ يُمنَعَ الأكْلُ مِن بَعْضِها[1]. وقيل: التفتَ إلى الإقبالِ عليهم، وفي ذلك حَثٌّ على التقرُّبِ بالضَّحايا والهدايا[2].

- وفي قولِه: ﴿ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ لم يُعْطَفْ أحَدُ الوَصفينِ على الآخَرِ؛ لأنَّه كالبَيانِ له، وإنَّما ذُكِرَ البائسُ مع أنَّ الفَقيرَ مُغْنٍ عنه؛ لتَرقيقِ أفئدةِ النَّاسِ على الفقيرِ بتَذكيرِهم أنَّه في بُؤْسٍ؛ لأنَّ وَصْفَ (فقير) -لشُيوعِ تَداوُلِه على الألسُنِ- صار كاللَّقبِ غيرَ مُشعِرٍ بمعنى الحاجةِ، وقد حصَلَ من ذِكْرِ الوصفينِ التَّأكيدُ. وقيل: البائسُ الَّذي ظهَرَ بُؤْسُه في ثِيابِه وفي وَجْهِه، والفقيرُ: الَّذي تكونُ ثِيابُه نَقيَّةً ووَجْهُه وَجْهَ غَنِيٍّ؛ فعلى هذا التَّفسيرِ يكونُ البائسُ هو المُسكينَ[3]، ويكونُ ذِكْرُ الوَصفينِ لقَصدِ استيعابِ أحوالِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩).

(٣) وقد وقَع الخلافُ بينَ العلماءِ في الفقيرِ والمسكينِ أيُّهما أسوأُ حالًا. ينظر: ((معاني القرآن)) =

المُحتاجينَ(١).

- وكرَّرَ قولَه: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ في قولِه: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]؛ لأنَّ الأوَّلَ مُرتَّبٌ على ذَبْحِ بَهيمةِ الأنعامِ الشَّاملةِ للبُدْنِ والبقرِ والغَنمِ، والثَّانِيَ مُرتَّبٌ على ذَبْحِ البُدْنِ خاصَّةً، وإنْ وافقَهُ في حُكْمِ ذَبْحِ الآخرينَ(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ (ثمَّ) هنا عطَفَتْ جُملةً على جُملةٍ؛ فهي للتَّراخي الرُّتبيِّ لا الزَّمنيِّ؛ فتُفِيدُ أنَّ المعطوفَ بها أهَمُّ في الغرَضِ المسوقِ إليه الكلامُ مِن المعطوفِ عليه، وذلك في الوَفاءِ بالنَّذرِ والطَّوافِ بالبيتِ العتيقِ ظاهرٌ؛ إذ هما نُسكانِ أهَمُّ مِن نَحْرِ الهَدايا(٣).

- وفي قولِه: ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ شَبَّهَ البيتَ بالعبْدِ العتيقِ في أنَّه لا مِلْكَ لأحدٍ عليه -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، وفيه تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ كانوا يَمْنعونَ منه مَن يَشاؤونَ حتَّى جَعَلوا بابَه مُرتفِعًا بدونِ درَجٍ؛ لئلَّا يَدخُلَه إلَّا مَن شاؤوا(٤).

= للنحاس (٣/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٧٤، ٣٧٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٢٣) ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٢، ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٥٠).

الآيات (٣٠-٣٣)

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلرِّجْسَ﴾: هو اسمٌ لكُلِّ ما استُقذِرَ مِن عَمَلٍ، وكُلُّ قَذَرٍ رِجسٌ، وأصلُه يدُلُّ على الخُبثِ والقَذارةِ[1].

﴿ٱلزُّورِ﴾: أي: الكَذِبِ والفِرْيَةِ على اللهِ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ[2].

﴿حُنَفَآءَ﴾: جمعُ حَنيفٍ، وهو المُقبلُ على اللهِ، المُعرِضُ عمَّا سِواه، وقيل: الحنيفُ: هو المسلمُ المستقيمُ[3]، وقيل: المائلُ عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٧١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٧٩). ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(٣) وذلك بِناءً على قولِ مَن قال: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ، والحنفَ الاستقامةُ، وجعلوا الرَّجلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنفُ، على جهة التفاؤلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ: المفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ؛ وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشبهَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، =

التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخَرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها[١].

﴿خَرَّ﴾: أي: سَقَط على وَجهِه، وأصلُه يدُلُّ على اضطرابٍ وسُقوطٍ مع صَوتٍ[٢].

﴿سَحِيقٍ﴾: أي: بَعيدٍ، وأصلُ (سحق): يدُلُّ على بُعدٍ[٣].

﴿شَعَٰٓئِرَ﴾: جمْعُ شَعيرَةٍ، وهي ما جعَله اللهُ تعالى عَلَمًا لطاعتِه، وأصل (شعر): هنا يدلُّ على عِلْمٍ وعَلَمٍ[٤].

= ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

قال القرطبي: (ولفظةُ ﴿حُنَفَآءَ﴾ مِن الأضدادِ؛ تقعُ على الاستقامةِ، وتقعُ على الميلِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

﴿مَحِلُّهَآ﴾: المَحِلُّ: الموضِع الذي يَحِلُّ فيه نَحْر الهدْي، وقيل: هو وَقتُ النَّحْرِ ومكانُه، وأصلُ (حلل): فَتْحُ الشَّيْءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ذلك الذي أمَرَ اللهُ به مِن قَضاءِ التَّفَثِ والوَفاءِ بالنُّذورِ والطَّوافِ بالبَيتِ: هو ما أوجَبَه اللهُ عليكم؛ فعَظِّموه، ومَن يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ -ومنها مَناسِكُه- بأدائِها كامِلةً خالِصةً لله؛ فهو خيرٌ له في الدُّنيا والآخرةِ. وأحلَّ اللهُ لكم أكلَ الأنعامِ إلَّا ما حرَّمه فيما يُتلَى عليكم في القُرآنِ مِنَ المَيتةِ وغَيرِها، فاجتَنِبوه، وابتَعِدوا عن عِبادةِ الأصنامِ؛ فإنَّها قَذَرٌ، وعَنِ كُلَّ قَولٍ باطِلٍ، مُستَقيمينَ للهِ على إخلاصِ العَمَلِ له، مُقبِلينَ عليه بعِبادتِه وَحْدَه وإفرادِه بالطَّاعةِ، مُعرِضينَ عَمَّا سِواه بنَبذِ الشِّركِ؛ فإنَّه مَن يُشرِكْ بالله شَيئًا فمَثَلُه -في بُعْدِه عن الهُدى، وفي هلاكِه وسُقوطِه مِن رَفيعِ الإيمانِ إلى حَضيضِ الكُفرِ، وتَخَطُّفِ الشَّياطينِ له مِن كُلِّ جانبٍ- كمَثَلِ مَن سَقَط مِنَ السَّماءِ؛ فإمَّا أن تخطَفَه الطَّيرُ فتُقَطِّعَ أعضاءَه، وإمَّا أن تُلقيَ الرِّيحُ أوصالَه المُمَزَّقةَ في مَوضِعٍ بَعيدِ العُمقِ.

ذلك ما أمَرَ اللهُ به مِن تَوحيدِه وإخلاصِ العبادةِ له، ومَن يَمتَثِلْ أمْرَ اللهِ ويُعَظِّمْ مَعالِمَ الدِّينِ، ومنها الهدايا، وذلك باستِحسانِها واستِسْمانِها وتَكميلِها مِن كُلِّ وَجهٍ؛ فهذا التَّعظيمُ مِن أفعالِ أصحابِ القُلوبِ المتَّصِفةِ بتَقوى اللهِ وخَشيَتِه.

لكم في هذه الهَدايا منافِعُ تَنتَفِعونَ بها مِنَ الصُّوفِ واللَّبَنِ والرُّكوبِ وغيرِ ذلك ممَّا لا يَضُرُّها، إلى وَقتِ ذَبحِها عندَ بُلوغِها البَيتَ العَتيقَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

أي: ذلك الذي أمَرَ اللهُ به مِن قَضاءِ التَّفَثِ والوَفاءِ بالنُّذورِ والطَّوافِ بالبَيتِ العَتيقِ: هو ما أوجَبَه اللهُ عليكم -أيُّها النَّاسُ- في حَجِّكم؛ فعَظِّموه، ومَن يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ، فيَجتَنِبْ ما أمَرَه اللهُ باجتِنابِه؛ تَعظيمًا منه لحُدودِ اللهِ أن يُواقِعَها أو يَستَحِلَّها- فهو خَيرٌ له عِندَ رَبِّه في دِينِه ودُنياهُ وآخِرَتِه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥١، ٢٥٢).

ممَّن قصَر معنى قولِه: ﴿يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هنا على اجتنابِ ما أمَره اللَّهُ باجتنابِه في حالِ إحرامِه: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٥).

قال مقاتل بن سليمان: (﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني أمرَ المناسِكِ كلِّها). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بحُرُماتِ الله: مَعاصيه ومحارِمُه وما نهى عنه: البغوي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٤).

وممَّن اختار العُمومَ: الزَّجَّاجُ، والسَّعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

قال الزَّجَّاجُ: (وحُرُماتُ اللهِ: الحجُّ والعُمرةُ وسائِرُ المناسِكِ، وكُلُّ ما فَرَض اللهُ فهو مِن حُرُماتِ الله، والحُرمةُ ما وَجَب القيامُ به، وحَرُمَ تركُهُ والتَّفريطُ فيه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٤٢٤). =

﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

أي: وأَحَلَّ اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- الإبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ أن تأكُلوها إذا ذكَّيتُموها، إلَّا[1] ما يُتلى عليكم تحريمُه في القُرآنِ؛ كالمَيْتةِ، والدَّمِ، ولَحمِ الخِنزيرِ، وما أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ به[2].

= وقال السعدي: (وحُرُماتُ اللهِ: كلُّ ما له حُرمةٌ وأُمِرَ باحترامِه بعبادةٍ أو غيرِها؛ كالمناسِكِ كُلِّها، وكالحَرَمِ والإحرامِ، وكالهدايا، وكالعباداتِ التي أمرَ اللهُ العبادَ بالقيامِ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

وقال ابنُ عطية: (والحُرُماتُ المقصودةُ هاهنا في أفعالِ الحَجِّ: المشارُ إليها في قَولِه: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾، ويدخُلُ في ذلك تعظيمُ المواضِعِ. قاله ابنُ زيدٍ وغيرُه، ... ثمَّ لفظُ الآيةِ بعد ذلك يتناولُ كُلَّ حُرمةٍ لله تعالى في جميعِ الشَّرعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٠).

(١) قال الشنقيطي: (لم يُبيِّنْ هنا هذا الذي يُتلَى عليهم المُستثنى مِن حِلِّيَّةِ الأنعامِ، ولكِنَّه بيَّنَه بقَولِه تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وهذا الذي ذكَرْنا هو الصَّوابُ، أمَّا ما قاله جماعاتٌ مِن أهلِ التفسيرِ مِن أنَّ الآيةَ التي بيَّنَت الإجمالَ في قَولِه تعالى هنا: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أنَّها قَولُه تعالى في المائدة: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ [المائدة: ٣] الآيةَ؛ فهو غَلَطٌ؛ لأنَّ «المائدةَ» من آخِرِ ما نزَلَ مِن القرآنِ، وآيةُ «الحَجِّ» هذه نازلةٌ قبل نزولِ «المائدةِ» بكثيرٍ؛ فلا يَصِحُّ أن يُحالَ البَيانُ عليها في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، بل المُبَيِّنُ لذلك الإجمالِ آيةُ الأنعامِ التي ذكَرْنا؛ لأنَّها نازِلةٌ بمكَّةَ، فيَصِحُّ أن تكونَ مُبيِّنةً لآيةِ الحَجِّ المذكورةِ، كما نبَّهَ عليه غيرُ واحدٍ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٥٤).

وقال ابن عاشور: (استثنَى منه ما يُتلَى تحريمُه في القرآنِ، وهو ما جاء ذكرُه في سورةِ «الأنعام» في قولِه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وما ذُكِر في سورةِ «النحلِ»، وكلتاهما مكِّيتانِ سابقتانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَثَّ على تَعظيمِ حُرُماتِ اللهِ، وذكَرَ أنَّ تَعظيمَها خيرٌ لِمُعَظِّمِها عندَ اللهِ؛ أتبَعَه الأمرَ باجتِنابِ الأوثانِ وقَولِ الزُّورِ؛ لأنَّ تَوحيدَ اللهِ ونَفْيَ الشُّركاءِ عنه، وصِدْقَ القَولِ؛ أعظَمُ الحُرُماتِ[١].

وأيضًا لما أفْهَم قولُه: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ حلَّ السوائبِ وما معها، وتحريمَ المذبوحِ للأنصابِ، وكان سببُ ذلك كلِّه الأوثانَ؛ سبَّب عنه قولَه[٢]:

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

أي: فاجتَنِبوا -أيُّها النَّاسُ- عِبادةَ الأصنامِ؛ فإنَّها قَذَرٌ، ومِن ذلك الذَّبحُ إليها وعِندَها[٣].

= قال القرطبي: (﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الكتابِ مِن المحرَّماتِ، وهي الميتةُ والموقُوذَةُ وأخَواتُها، ولهذا اتِّصالٌ بأمرِ الحجِّ؛ فإنَّ في الحجِّ الذبحَ، فبيَّن ما يحِلُّ ذبحُه، وأكلُ لحمِه. وقيل: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٥، ٥٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٤، ٢٥٥).

وممن قال في الجملةِ بهذا المعنى المذكورِ، وأنَّ ﴿مِنَ﴾ هنا لبيانِ الجنسِ: ابنُ جرير، وابن =

﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴾.

أي: واجتَنِبوا -أيُّها النَّاسُ- كُلَّ قَولٍ باطِلٍ مائلٍ عن سَبيلِ الحَقِّ والاستِقامةِ، ومِن ذلك القَولُ على اللهِ بلا عِلمٍ؛ كتَحريمِ أكْلِ ما أحَلَّه اللهُ، أو تَحليلِ ما حرَّمَه(١).

= كثير، والشنقيطي، وذكر السعدي بأنَّه رأيُ كثيرٍ مِنَ المفسِّرينَ. يُنظر: المصادر السابقة. ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).

وقال ابن جرير: (ويجوزُ أن يكونَ مرادًا به: اجتنبوا أن ترجسوا أنتم أيُّها الناسُ مِن الأوثانِ بعبادتِكم إيَّاها). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٧).

وقيل: ﴿مِنَ﴾ للتبعيضِ لا لبيانِ الجنسِ، وأنَّ الرجسَ عامٌّ في جميعِ المنهياتِ المحرَّماتِ، فيكونُ منهيًّا عنها عمومًا، وعن الأوثانِ التي هي بعضُها خصوصًا. وممن قال بذلك السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧، ٥٣٨).

قال ابن عطية: (والكلامُ يحتَمِلُ مَعنيَينِ: أحَدُهما: أن تكونَ ﴿مِن﴾ لبيانِ الجِنسِ، فيقَعُ نَهْيُه عن رِجسِ الأوثانِ، فيقَعُ نهيُها في غيرِ هذا الموضعِ. والمعنى الثاني: أن تكونَ ﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ، فكأنَّه نهاهم عن الرِّجسِ عامًّا، ثمَّ عَيَّن لهم مبدأَ الذي منه يَلحَقُهم؛ إذْ عبادةُ الوَثَنِ جامعةٌ لكُلِّ فَسادٍ ورِجسٍ، ويظهَرُ أنَّ الإشارةَ إلى الذَّبائحِ التي كانت للأوثانِ، فيكونُ هذا ممَّا يُتلى عليهم، ومَن قال ﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ، قلَبَ معنى الآيةِ وأفسَدَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٠).

وقال القرطبي: (وسمَّاها رِجسًا؛ لأنَّها سببُ الرِّجزِ، وهو العذابُ. وقيل: وصفَها بالرجسِ، والرجسُ النجسُ؛ فهي نجسةٌ حُكمًا، وليست النجاسةُ وصفًا ذاتيًّا للأعيانِ، وإنما هي وصفٌ شرعيٌّ مِن أحكامِ الإيمانِ، فلا تُزالُ إلا بالإيمانِ، كما لا تجوزُ الطهارةُ إلا بالماءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٤).

وقيل: سمَّاها بذلك؛ لأنَّ وُجوبَ تجَنُّبِها أوكَدُ مِن وُجوبِ تجَنُّبِ الرِّجسِ، ولأنَّ عِبادَتَها أعظَمُ مِن التَّلوُّثِ بالنَّجاساتِ. أو وصفَها بذلك؛ استحقارًا واستِخفافًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٥).

وممَّن ذهَبَ إلى العمومِ في معنى الزور هنا: ابنُ تيميَّة، والبِقَاعي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٣- ١٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وعن أبي بكرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((ألَا أُنَبِّئُكم بأكبرِ الكبائرِ -ثلاثًا-؟ قالوا: بلى يا رَسولَ اللهِ، قال: الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ. وجلس وكان متَّكِئًا، فقال: ألَا وقَولُ الزُّورِ، قال: فما زال يُكرِّرُها حتى قُلْنا: ليتَه سَكَت))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

= قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بقَولِ الزُّورِ أربعةُ أقوالٍ: أحَدُها: شهادةُ الزُّورِ. قاله ابنُ مَسعودٍ. والثَّاني: الكَذِبُ. قاله مجاهد. والثَّالثُ: الشِّركُ. قاله أبو مالك. والرَّابعُ: أنَّه قَولُ المُشرِكينَ في الأنعامِ: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ. قاله الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٥).

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤) واللفظ له، ومسلم (٨٧).

((مَن لم يَدَعْ قَولَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يدَعَ طَعامَه وشَرابَه))(١).

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

أي: مُستقيمينَ لِلَّهِ على إخلاصِ التَّوحيدِ له، وإفرادِ الطَّاعةِ والعبادةِ له، مائِلينَ عن الباطِلِ إلى الحَقِّ، وعن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، مُقبِلينَ على اللهِ، مُعرِضينَ عن عبادةِ ما سِواه سُبحانَه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى باجتِنابِ عِبادةِ الأوثانِ وقَولِ الزُّورِ؛ ضَرَب مثلًا للمُشرِكِ، فقال(٣):

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾.

أي: ومَن يُشرِكْ باللهِ شَيئًا في عبادتِه، فمَثَلُه في هلاكِه وضَلالِه عن الهُدى

(١) رواه البخاري (١٩٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٤).

وقال ابن عاشور: (﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ حالٌ مِن ضميرِ ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟﴾؛ أي: تكونوا إن اجْتَنبتم ذلك حنفاءَ لله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٥).

والحَقِّ، وبُعدِه مِن ربِّه؛ كمَن سَقَط مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، فتمَزَّق جَسَدُه، فتُقَطِّعُه النُّسورُ سَريعًا، وتَستَلِبُ لَحمَه، فتأكُلُه ويتفَرَّقُ في حواصِلِها[١].

﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

أي: أو تُلقِي الرِّيحُ أوصالَه المُمَزَّقةَ في مَوضِعٍ بَعيدِ العُمقِ؛ لِشِدَّةِ هُبوبِها[٢].

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِنَ السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوُجوهِ، معهم المُسوحُ[٣]، فيَجلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ[٤]، ثمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتى يجلِسَ عندَ رأسِه، فيقولُ: أيَّتُها النَّفسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، فتفَرَّقُ في جَسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِن الصُّوفِ المَبلولِ[٥]! فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتى

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

قال السَّمعاني: (معنى الآية: أنَّ مَن أشرك فقد هلَك، وبعُد عن الحقِّ بُعدًا لا يصِلُ إليه بحالٍ ما دام مُشركًا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣٧).

وقال البيضاويُّ: (﴿أَوْ﴾ للتخيير... أو للتنويعِ؛ فإنَّ مِن المشركين مَن لا خلاصَ له أصلًا، ومنهم مَن يُمكنُ خلاصُه بالتوبة، لكن على بُعْد. ويجوز أنْ يكونَ من التشبيهاتِ المركَّبةِ؛ فيكونَ المعنى: ومَن يُشركْ بالله فقد هلَكتْ نفْسُه هلاكًا يُشبهُ أحدَ الهلاكينِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١).

(٣) المسوحُ: جَمعُ مِسحٍ، وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).

(٤) مَدَّ البَصَرِ: أي: قريبًا منه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

(٥) السَّفُّودُ: الحديدةُ التي يُشوى عليها اللَّحمُ، فيَبقَى معها بقيَّةٌ مِن المحروقِ فيَستصحِبُ عندَ =

يجعَلوها في تِلكَ المُسوحِ، ويَخرُجُ منها كأنتَنِ رِيحِ جيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ! فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على ملأٍ مِنَ المَلائِكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخَبيثُ؟! فيقولونَ: فلانُ بنُ فُلانٍ، بأقبَحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: اكتُبُوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلَى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرحًا، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] ...)) الحديثَ[(١)].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: هذا الذي ذكرتُ لكم وأمرْتُكم به؛ مِن اجتِنابِ الرِّجسِ مِنَ الأوثانِ، واجتِنابِ قَولِ الزُّورِ، والالتِزامِ بتَوحيدِ اللهِ: مِن تَعظيمِ شَعائِرِه[(٢)]، ومَن يُعَظِّمْ

= الجذبِ شيئًا مِن ذلك الصُّوفِ مع قُوَّةٍ وشِدَّة. يُنظر: ((شرح الطيبي على مشكاة المصابيح)) (٤/ ١٣٨١)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ متقاربةٍ.

صحَّح إسنادَه: ابنُ جرير في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠). وحسَّنَ الحديثَ: المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٥٠). وصَحَّحه ابنُ القيمِ في ((الروح)) (ص: ٤٦)، والألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٩).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ قيل: يكونُ في موضِعِ رَفعٍ بالابتداءِ، أي: ذلك أمرُ اللهِ. ويجوزُ أن يكونَ في موضعِ رَفعٍ على خبرِ ابتداءٍ محذوفٍ. ويجوزُ أن يكونَ في مَوضِعِ نَصبٍ، أي: اتَّبِعوا ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٦).

أعلامَ الدِّينِ الظَّاهرةَ، ومنها الهدايا، بإجلالِها والقيامِ بها، واستِسمانِها وتكميلِها مِن كُلِّ وَجهٍ؛ فإنَّه يُبرهِنُ بذلك على تَقواهُ وصِحَّةِ إيمانِه؛ فتَعظيمُها تابعٌ لِتَعظيمِ اللهِ وإجلالِه، وتَعظيمُها مِن فِعلِ المتَّقينَ أصحابِ القُلوبِ المُخلِصةِ الوَجِلةِ مِن خَشيةِ اللهِ(١).

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٣٣ ﴾.

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

أي: لكم -أيُّها الحُجَّاجُ- في البُدْنِ والهَدايا مَنافِعُ؛ مِن لَبَنِها وصُوفِها وأوبارِها وأشعارِها، ورُكوبِها وغيرِ ذلك، إلى وَقتِ نَحرِها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣٩ - ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٦، ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٥).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور في الجملة: ابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨). قال الرازي: (قوله تعالَى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لا يَليقُ إلَّا بأنْ تُحمَلَ الشَّعائِرُ على الهدْيِ الَّذي فيه منافعُ إلى وقْتِ النَّحرِ، ومَن يحمِلُ ذلك على سائِرِ الواجباتِ يقولُ: ﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ أي: في التَّمسُّكِ بها منافِعُ إلى أجلٍ يَنْقَطِعُ التَّكليفُ عندَه. والأوَّلُ هو قولُ جمهورِ المفسِّرينَ، ولا شكَّ أنَّه أقربُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٤).

وقيل: مَرجِعُ الضَّميرِ في ﴿فِيهَا﴾ يعودُ إلى الشَّعائِرِ عُمومًا، فيدخُلُ فيها الهَديُ وغَيرُه من مناسِكِ الحَجِّ وأعمالِه. وممن قال بذلك: ابنُ جرير. وجعل المنافِعَ والأجَلَ المسمَّى تختَلِفُ =

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾.

أي: ثمَّ يَحِلُّ نَحرُ تلك البُدْنِ عندَ بُلوغِها البيتَ العَتيقَ(١).

= بحَسَبِ العَمَلِ، فقال: (قد دلَّلْنا قبلُ على أنَّ قولَ الله تعالى ذِكرُه: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢] معنيٌّ به كلُّ ما كان مِن عمَلٍ أو مكانٍ جعَلَه الله عَلَمًا لمناسِكِ حَجِّ خَلْقِه؛ إذ لم يُخصِّصْ مِن ذلك جلَّ ثناؤه شَيئًا في خبرٍ ولا عقلٍ، وإذ كان ذلك كذلك فمَعلومٌ أنَّ معنى قَولِه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الحج: ٣٣]: في هذه الشَّعائرِ منافعُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى؛ فما كان مِن هذه الشَّعائِرِ بُدْنًا وهَدْيًا فمنافِعُها لكم مِن حينِ تَملِكونَ إلى أنْ أوجَبْتُموها هَدايا وبُدْنًا، وما كان منها أماكِنَ يُنسَكُ لله عندها فمنافِعُها التِّجارةُ لله عِندَها، والعَمَلُ بما أمَرَ به إلى الشُّخُوصِ عنها، وما كان منها أوقاتًا فأنْ يُطاعَ اللهُ فيها بعَمَلِ أعمالِ الحَجِّ، وبطَلَبِ المعاشِ فيها بالتِّجارةِ، إلى أن يُطافَ بالبَيتِ في بَعضٍ، أو يُوافَى الحرمُ في بعضٍ، ويُخرَجَ عن الحَرَمِ في بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩).

قال الماوردي: (﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ: أحدُها: أنَّ المنافعَ: التجارةُ، وهذا قولُ مَن تأوَّل الشعائرَ بأنَّها مناسكُ الحجِّ، والأجلُ المسمَّى: العَودُ. والثاني: أنَّ المنافعَ: الأجرُ، والأجلُ المسمَّى: القيامةُ، وهذا تأويلُ مَن تأوَّلها بأنَّها الدِّينُ. والثالث: أنَّ المنافعَ: الركوبُ والدرُّ والنسلُ، وهذا قولُ مَن تأوَّلها بأنَّها الهَدْيُ، فعلى هذا في الأجلِ المسمَّى وجهانِ: أحدُهما: أنَّ المنافعَ قبْلَ الإيجابِ وبعْدَه، والأجلُ المسمَّى هو النحرُ، وهذا قولُ عطاءٍ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

اختلف المفسِّرونَ في المُرادِ بالمحِلِّ هنا؛ تبعًا لاختلافِهم السابِقِ في مَرجِعِ الضَّميرِ في ﴿فِيهَا﴾.

وممَّن قال منهم بأنَّ المرادَ بالبيت العتيق: الحَرَمُ كُلُّه: مقاتل بن سليمان، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، والرازي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٨٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

قال الزمخشريُّ: (﴿مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ﴾، أي: وُجوبُ نَحْرِها، أو وقتُ وجوبِ نَحرِها في =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- تَعظيمُ حُرُماتِ اللهِ مِنَ الأمورِ المَحبوبةِ لله، المقَرِّبةِ إليه، التي مَن عَظَّمَها وأجَلَّها أثابَه اللهُ ثوابًا جَزيلًا، وكانت خيرًا له في دِينِه ودُنياه وأُخراهُ عِندَ رَبِّه؛ قال

= الحَرَمِ مُنتهيَةً إلى البَيتِ، كقَولِه: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، والمرادُ: نَحرُها في الحَرَمِ الذي هو في حُكمِ البَيتِ؛ لأنَّ الحَرَمَ هو حريمُ البيتِ، ومِثلُ هذا في الاتِّساعِ قَولُك: بلَغْنا البلدَ، وإنَّما شارَفْتُموه واتَّصل مَسيرُكم بحُدودِه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالبيتِ هنا: الكعبةُ: ابنُ كثير، وابن عاشور، يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

قال ابن كثير: (محَلُّ الهَدْيِ وانتهاؤُه إلى البَيتِ العَتيقِ، وهو الكعبةُ، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾[المائدة: ٩٥]، وقال: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٣).

وذكر ابنُ عاشور ما حاصِلُه أنَّ الله تعالى قال: ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، والكعبةُ لا يُنحَرُ فيها؛ وذلك أنَّ التقَرُّبَ بالهدايا يكونُ بواسطةِ تَعظيمِ الكعبةِ؛ لأنَّ الهدايا شُرِعَت تكمِلةً لِشَرعِ الحَجِّ، والحَجُّ قَصدُ البَيتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

وقال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ أي: حيثُ يَحِلُّ نَحرُها ﴿إِلَى الْبَيْتِ﴾ يعني: عند البيتِ. والمرادُ به: الحَرَمُ كلُّه، لأنَّا نَعلَمُ أنَّها لا تُذبَحُ عند البيتِ، ولا في المسجدِ. هذا على القَولِ الأوَّلِ. وعلى الثَّاني: يكونُ المعنى: ثمَّ مَحِلُّ النَّاسِ مِن إحرامِهم إلى البيتِ، وهو أن يَطوفُوا به بعد قضاءِ المناسِكِ).))تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٦).

وقال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يريدُ أنَّها تنتهي إلى البيتِ، وهو الطَّوافُ. فقولُه: ﴿مَحِلُّهَا﴾ مأخوذٌ من إحلالِ المُحرِمِ. والمعنى: أنَّ شعائِرَ الحَجِّ كُلَّها من الوُقوفِ بعَرَفةَ، ورَميِ الجِمارِ، والسَّعيِ: تنتهي إلى طوافِ الإفاضةِ بالبيتِ العتيقِ. فالبيتُ على هذا التَّأويلِ مرادٌ بنَفْسِه. قاله مالكٌ في الموطَّأ. وقال عطاءٌ: ينتهي إلى مكَّةَ. وقال الشافعي: إلى الحَرَمِ. وهذا بِناءً على أن الشَّعائِرَ هي البُدْنُ، ولا وجهَ لِتَخصيصِ الشَّعائِرِ مع عُمومِها، وإلغاءِ خُصوصيَّةِ ذِكرِ البيتِ. واللهُ أعلمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٧).

الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[1].

٢- أساسُ الطَّريقِ إلى اللهِ هو الصِّدقُ والإخلاصُ، وقد جمَعَ اللهُ بينهما في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾، ونُصوصُ الكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعُ الأمَّةِ: دالٌّ على ذلك في مواضِعَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقَولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾[2] [الزمر: ٣٢]. وكذلك يَقرِنُ اللهُ بينَ الكَذِبِ والشِّركِ، ومِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾[3] [الأعراف: ١٥٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ فالإيمانُ بمنزلةِ السَّماءِ؛ مَحفوظةً مَرفوعةً، ومَن تَرَكَ الإيمانَ بمَنزلةِ السَّاقِطِ منَ السَّماءِ عُرْضةٌ للآفاتِ والبَلِيَّاتِ، فإمَّا أن تَخطَفَه الطَّيرُ فتُقَطِّعَه أعضاءً، أوْ تَهوِيَ به الرِّيحُ في مَكانٍ بَعيدٍ، كذلك المُشرِكُ؛ إذا تَرَكَ الاعتِصامَ بالإيمانِ تخطَّفَتْه الشَّياطينُ مِن كُلِّ جانبٍ ومَزَّقوه، وأذهبوا عليه دِينَه ودُنياه[4]!

٤- التَّقوى أصلُها في القَلبِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾[5]؛ لذا ذُكِرَت القلوبُ؛ لأنَّها مَراكِزُ التَّقوى التي إذا ثَبَتَت فيها

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٧٧).
(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٣٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).
(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٧٦).

وتمَكَّنَت، ظهَرَ أثَرُها في سائِرِ الأعضاءِ[(١)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ فيه أنَّ تَعظيمَ شَعائِرِ اللهِ صادِرٌ مِن تَقوى القُلوبِ، فالمُعَظِّمُ لها يُبَرهِنُ على تقواهُ وصِحَّةِ إيمانِه؛ لأنَّ تعظيمَها تابِعٌ لِتَعظيمِ اللهِ وإجلالِه[(٢)].

٦- قال تعالَى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ فالمقصودُ تَقْوَى القلوبِ لِلَّهِ، وهو عبادَتُها له وحْدَه دونَ ما سِواهُ بغايَةِ العبودِيَّةِ له، وهذا مما يُبيِّنُ أنَّ عبادةَ القلوبِ هي الأصلُ، كما قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ في الجسدِ مُضْغةً إذا صَلَحت صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فسَدت فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ))[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ جَمَع الشِّركَ وقَولَ الزُّورِ في سِلكٍ واحدٍ؛ لأنَّ الشِّركَ مِن بابِ الزُّورِ؛ لأنَّ المُشرِكَ زاعِمٌ أنَّ الوَثَنَ تَحِقُّ له العِبادةُ، فكأنَّه قال: فاجتَنِبوا عِبادةَ الأوثانِ التي هي رأسُ الزُّورِ، واجتَنِبوا قَولَ الزُّورِ كُلَّه، ولا تَقرَبوا منه شَيئًا؛ لِتَماديه في القُبحِ والسَّماجةِ، وما ظَنُّك بشَيءٍ مِن قَبيلِه عِبادةُ الأوثانِ[(٤)]؟!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٨٥).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٣).

﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾ فيه تَشريعٌ لإباحةِ الانتِفاعِ بالهَدايا انتِفاعًا لا يُتلِفُها، وهو رَدٌّ على المُشرِكينَ؛ إذ كانوا إذا قَلَّدوا الهَدْيَ وأشعَروه، حَظَروا الانتفاعَ به؛ مِن رُكوبِه، وحَمْلٍ عليه، وشُربِ لَبَنِه، وغيرِ ذلك(١)، فالآيةُ فيها دلالةٌ على أنَّ البُدْنَ إذا جُعِلَتْ شعائرَ لم يَحْرُمِ الانتفاعُ في الظَّهرِ والدَّرِّ إلى أنْ تُنْحَرَ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ هذا دَليلٌ على أنَّ الزيادةَ في السِّمَنِ، وكَثرةَ الثَّمَنِ في البُدْنِ: أفضَلُ مِن تكثيرِ اللَّحمِ بعَدَدِ المهازيلِ(٣)!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اسمَ البيتِ غَلَبَ على الحَرَمِ كلِّه فسُمِّيَ به؛ لأنَّ العِلْمَ يُحيطُ أنَّ الشَّعائِرَ لا تُنحَرُ عندَ البَيتِ نَفْسِه، إنَّما مَناحِرُها أرضُ مِنًى(٤).

٥- مِمَّا يُحمَدُ به المَسجِدُ عِتْقُه، وكان السَّلَفُ يَرونَ العَتيقَ أفضَلَ مِنَ الجَديدِ؛ لأنَّ العَتيقَ أبعَدُ عن أن يكونَ بُنِيَ ضِرارًا، مِنَ الجَديدِ الذي يُخافُ ذلك فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾، وقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾؛ فإنَّ قِدَمَه يَقتَضي كثرةَ العِبادةِ فيه أيضًا، وذلك يقتَضي زيادةَ فَضْلِه(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٩).

لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ اسمُ الإشارةِ مُستعمَلٌ هنا للفصْلِ بينَ كلامينِ، أو بين وَجْهينِ مِن كلامٍ واحدٍ، والقصْدُ منه: التَّنبيهُ على الاهتمامِ بما سيُذْكَرُ بعْدَه. وهو مِن أساليبِ الاقتضابِ في الانتقالِ. وأُوثِرَ في الآيةِ اسْمُ إشارةِ البعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ للدَّلالةِ على بُعْدِ المَنزِلَةِ؛ كِنايةً عن تعظيمِ مَضمونِ ما قبْلَه؛ فاسمُ الإشارةِ مُبتدأٌ حُذِفَ خبَرُه لظُهورِ تَقديرِه، أي: ذلك بَيانٌ، ونحوُه. وهو كما يُقدِّمُ الكاتِبُ جُملةً مِن كتابِه في بَعضِ الأغراضِ، فإذا أراد الخوضَ في غَرضٍ آخرَ، قال: هذا وقد كان كذا وكذا[١].

- وجُملةُ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ...﴾ إلخ مُعترِضةٌ عطفًا على جُملةِ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ عطْفَ الغرَضِ على الغرضِ. وهو انتقالٌ إلى بَيانِ ما يجِبُ الحِفاظُ عليه مِن الحنيفيَّةِ، والتَّنبيهِ إلى أنَّ الإسلامَ بُنِيَ على أساسِها. والكلامُ مُوجَّهٌ إلى المُسلمينَ؛ تَنبيهًا لهم على أنَّ تلك الحُرماتِ لم يُعطِّلِ الإسلامُ حُرْمَتَها؛ فيكونُ الانتقالُ من غَرَضٍ إلى غرَضٍ، ومِن مُخاطَبٍ إلى مُخاطَبٍ آخَرَ؛ فإنَّ المُسلمينَ كانوا يَعْتَمِرون ويَحجُّون قبْلَ إيجابِ الحجِّ عليهم[٢].

- قولُه: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِ (مَن)؛ لتَشريفِه والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٥).

- وجُملةُ: ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ اعتراضٌ جِيءَ به؛ تَقريرًا لِمَا قبْلَه مِن الأمْرِ بالأكْلِ والإطعامِ، ودَفْعًا لِمَا عسى يُتوهَّمُ أنَّ الإحرامَ يُحرِّمُه كما يُحرِّمُ الصَّيدَ(١).

- وجِيءَ بالمُضارِعِ في قولِه: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ ليَشمَلَ ما نزَلَ مِن القُرآنِ في ذلك ممَّا سبَقَ نُزولَ سُورةِ (الحجِّ) بأنَّه تُلِيَ فيما مَضى ولم يَزَلْ يُتْلى. وقيل: وليَشمَلَ أيضًا ما عسى أنْ يَنزِلَ مِن بعْدُ، مِثْلُ قولِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ﴾ الآيةَ(٢) [المائدة: ١٠٣].

- وقولُه: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ غايةُ المُبالَغةِ في النَّهيِ عن تَعظيمِها، والتَّنفيرِ عن عِبادتِها(٣)، والفاءُ في ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ﴾ للتَّفريعِ، وهي جُملةٌ مُعترِضةٌ؛ للتَّصريحِ بالأمْرِ باجتنابِ ما ليس مِن حُرماتِ اللهِ. والأمْرُ باجْتنابِ الأوثانِ مُسْتعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ، كما في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٤) [النساء: ١٣٦].

- ووَصَفَ الأوثانَ بـ(الرِّجْسِ) وهو رِجْسٌ مَعنويٌّ؛ لكونِ اعتقادِ إلَهيَّتِها في النُّفوسِ بمَنزِلةِ تَعلُّقِ الخَبثِ بالأجسادِ؛ فإطْلاقُ الرِّجسِ عليها تَشبيهٌ بَليغٌ، وحين بيَّنَه بقولِه: ﴿مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ عُلِمَ منه تَشبيهُ الأوثانِ به، وهو مِن التَّشبيهِ الواقِعِ على طَريقِ التَّجريدِ(٥)؛ فجُرِّدَ مِن الرِّجْسِ شَيءٌ يُسمَّى وثَنًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٣).

(٥) التجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لقيتَ زيدًا لتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، =

وهو هو[١].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ بيانٌ للرِّجْسِ وتَمييزٌ له؛ لأنَّ الرِّجْسَ مُبْهَمٌ يتناوَلُ غيرَ شَيءٍ، كأنَّه قيل: فاجْتَنِبوا الرِّجسَ الَّذي هو الأوثانُ؛ فالرِّجْسُ أعَمُّ أُرِيدَ به هنا بعْضُ أنواعِه[٢].

- قولُه: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ تعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ؛ فإنَّ عِبادةَ الأوثانِ رأْسُ الزُّورِ، كأنَّه لمَّا حَثَّ على تَعظيمِ الحُرماتِ أَتْبَعَه ذلك؛ رَدًّا لِمَا كانت الكَفرةُ عليه مِن تَحريمِ البحائرِ والسَّوائبِ، وتَعظيمِ الأوثانِ، والافتراءِ على اللهِ تعالى بأنَّه حكَمَ بذلك[٣].

- قولُه: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وقولُه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ﴾ تَعريضٌ وإيماءٌ إلى بَيانِ نَوعينِ مِن قبائحِ المُشركينَ؛ أحدُهما: تَحريمُهم السَّوائِبَ والحامِيَ والوصيلةَ، وتَحليلُ الميتةِ والدَّمِ وغيرِهما. وثانيهما: عُكوفُهم على عِبادةِ الأوثانِ، فأَتى بهما تَخصيصًا بعْدَ تَعميمٍ؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّهما مِن أعظَمِ أنواعِ المُحرَّماتِ، ثمَّ ضَمَّ مع عِبادةِ الأوثانِ قولَ الزُّورِ، ولم يَعْطِفْ عليه، بل أعاد الفِعْلَ؛ لِيَكونَ مُستقِلًّا في الاجتنابِ عنهُ، وما اكْتَفى بذلك، بل

= وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. ويُطلقُ عندَ البعضِ على عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ كأنَّ الخاصَّ جُرِّد مِن العامِّ، وأُفرِد بالذِّكرِ؛ تفضيلًا، كما في هذه الآيةِ. وله إطلاقاتٌ أخرى في البديعِ والمعاني. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٥).

جعَلَ التَّعريفَ للجِنْسِ؛ ليَكونَ مِن بابِ عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾

- قولُه: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ زاد معنى ﴿حُنَفَآءَ﴾ بيانًا بقولِه: ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ...﴾ جُملةٌ مُبتدأةٌ مُؤكِّدةٌ لِمَا قبْلَها مِن الاجتنابِ عن الإشراكِ، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في مَقامِ الإضمارِ؛ لإظهارِ حالِ قُبْحِ الإشراكِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ يَجوزُ في هذا التَّشبيهِ أنْ يكونَ مِن المُركَّبِ والمُفرَّقِ؛ فإنَّ كان تَشبيهًا مُركَّبًا، فكأنَّه قال: مَن أشرَكَ باللهِ فقد أهلَكَ نفْسَه إهلاكًا ليس بعْدَه نِهايةٌ؛ فيكونُ قد شَبَّهَ مَن أشرَكَ باللهِ وعبَدَ معه غيرَه برجُلٍ قد تَسبَّبَ إلى هَلاكِ نَفْسِه هَلاكًا لا يُرْجى معه نَجاةٌ، بأنْ صَوَّرَ حالَهُ بصُورةِ حالِ مَن خَرَّ مِن السَّماءِ، فاختطَفَتْهُ الطَّيرُ، فتَفرَّقَ مُزَعًا في حواصِلِها، أو عصَفَتْ به الرِّيحُ حتَّى هوَتْ به في بعضِ المطارِحِ البعيدةِ، وعلى هذا لا تَنظُر إلى كلِّ فَرْدٍ من أفرادِ المُشبَّهِ ومُقابِلِه مِن المُشبَّهِ به. وإنْ كان مُفرَّقًا: فقد شَبَّهَ الإيمانَ في عُلُوِّه بالسَّماءِ، والَّذي ترَكَ الإيمانَ وأشرَكَ باللهِ بالسَّاقطِ مِن السَّماءِ، والأهواءَ الَّتي تتوزَّعُ أفكارَهُ بالطَّيرِ المُختطِفةِ، والشَّيطانَ الَّذي يُطوِّحُ به في

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٧٧، ٤٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٥).

وادي الضَّلالةِ بالرِّيحِ الَّتي تَهْوِي بما عصَفَتْ به في بعْضِ المهاوي المُتلِفَةِ؛ فيُقابَلُ كلُّ واحدٍ مِن أجزاءِ المُمثَّلِ بالمُمثَّلِ به، وعلى هذا فيكونُ قد شَبَّهَ الإيمانَ والتَّوحيدَ في عُلُوِّه وسَعَتِه وشَرَفِه بالسَّماءِ الَّتي هي مصْعَدُه ومَهْبَطُه؛ فمنها هبَطَ إلى الأرضِ، وإليها يَصعَدُ منها، وشَبَّهَ تارِكَ الإيمانِ والتَّوحيدِ بالسَّاقطِ مِن السَّماءِ إلى أسفَلِ سافِلينَ، مِن حيثُ التَّضييقُ الشَّديدُ والآلامُ المُتراكِمةُ، والطَّيرُ الَّتي تتَخطَّفُ أعضاءَهُ وتُمزِّقُه كلَّ مُمزَّقٍ، هي الشَّياطينُ الَّتي يُرسِلُها اللهُ سُبحانَه وتعالى عليه وتَؤزُّهُ أزًّا، وتُزعِجُه وتَدفَعُه إلى مَظانِّ هَلاكِهِ؛ فكلُّ شَيطانٍ له مُزْعَةٌ مِن دِينِه وقَلْبِه، كما أنَّ لكلِّ طَيرٍ مُزْعةً مِن لَحمِه وأعضائِه، والرِّيحُ الَّتي تَهْوِي به في مَكانٍ سَحيقٍ هو هواهُ الَّذي حمَلَهُ على إلْقاءِ نَفْسِه في أسفَلِ مَكانٍ وأبعَدِه مِن السَّماءِ[١].

- وقيل: شَبَّهَ الإيمانَ بالسَّماءِ؛ لعُلُوِّه، والإشراكَ بالسُّقوطِ منها؛ فالمُشرِكُ ساقِطٌ مِن أَوْجِ الإيمانِ إلى حَضيضِ الكُفْرِ، وهذا السُّقوطُ إنْ كان في حَقِّ المُرتَدِّ فظاهِرٌ، وهو في حَقِّ غيرِه باعتبارِ الفطرةِ؛ ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾؛ فإنَّ الأهواءَ المُرْدِيَةَ تُوَزِّعُ أفكارَهُ، وفي ذلك تَشبيهُ الأفكارِ المُوَزَّعةِ بخَطْفِ جَوارِحِ الطَّيرِ[٢].

- وقولُه: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ (أو) للتَّخييرِ في نَتيجةِ التَّشبيهِ، أو للتَّنويعِ؛ أشارتِ الآيةُ إلى أنَّ الكافرينَ قِسمانِ: قِسْمٌ شِرْكُه ذَبْذبةٌ وشَكٌّ؛ فهذا مُشبَّهٌ بمَن اختطَفَتْه الطَّيرُ، فلا يَستولي طائرٌ على مُزْعةٍ منه إلَّا انتهَبَها منه آخَرُ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٤٢، ١٤٣).

فكذلك المُذَبذَبُ؛ متى لاحَ له خَيالٌ اتَّبَعه وترَكَ ما كان عليه. وقِسْمٌ مُصمِّمٌ على الكُفْرِ، مُستقِرٌّ فيه، فهو مُشبَّهٌ بمَن ألْقَتْه الرِّيحُ في وادٍ سَحيقٍ، وهو إيماءٌ إلى أنَّ مِن المُشركينَ مَن شِرْكُه لا يُرْجَى منه خلاصٌ، كالَّذي تَخطَّفَتْه الطَّيرُ، ومنهم مَن شِرْكُه قد يَخلُصُ منه بالتَّوبةِ، إلَّا أنَّ تَوبَتَهُ أمْرٌ بَعيدٌ عسيرُ الحُصولِ؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ تَمثيليٌّ[١].

- قولُه: ﴿فَتَخَطَّفُهُ﴾ فيه التَّعبيرُ بمُضاعَفِ (خطَفَ) -على قراءةِ فتحِ الخاءِ وتشديدِ الطاءِ المفتوحةِ[٢]-؛ للمُبالَغةِ[٣]. وفي إيثارِ المُضارِع ﴿فَتَخَطَّفُهُ﴾ إشعارٌ باستحضارِ تلك الحالةِ العجيبةِ في مشاهَدةِ المُخاطَبِ؛ تَعجيبًا له[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ تكريرٌ لنَظيرِه السَّابقِ؛ ولكنْ مَضمونُ جُملةِ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾ أخصُّ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ...﴾، وذُكِرَ الأخصُّ بعْدَ الأعمِّ؛ للاهتمامِ[٥].

- قولُه: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ على القولِ بأنَّ (مِن) للتَّبعيضِ، فيكونُ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، أي: فإنَّ تَعظيمَها مِن أفعالِ ذَوي تَقْوى القُلوبِ. وإنْ جُعِلَت (مِن) للابتداءِ، لم يُحْتَجْ إلى إضمارِ (أفعال)، ولا (ذوي)؛ إذ المعنى:

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٢٨).

(٢) قرأ بها نافع وأبو جعفر، وقرأ الباقون بإسكان الخاء وتخفيف الطاء. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٦)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٢٩، ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٦).

فإنَّ تَعظيمَها ناشِئٌ مِن تَقْوى القُلوبِ[١]، ولأنَّ المُنافِقَ يُظهِرُ التَّقوى وقَلْبُه خالٍ عنها، فلا يكونُ مُجِدًّا في أداءِ الطَّاعاتِ، والمُخلِصُ التَّقوى للهِ في قَلْبِه، فيُبالِغُ في أدائِها على سَبيلِ الإخلاصِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: إلى مَوضِعِ النَّحرِ، فذكَرَ البيتَ؛ لأنَّه أشرَفُ الحرَمِ، وهو المقصودُ بالهدْيِ وغيرِه[٣]. وفيه: كِنايةٌ عن نِهايةِ أمْرِها، ونِهايةُ أمْرِها النَّحرُ أو الذَّبحُ[٤].

- ولَمَّا كانت هذه المنافعُ دُنيويَّةً، وكانت مَنفعةُ نَحْرِها إذا أُهْدِيَت دِينيَّةً؛ أشار إلى تَعظيمِ الثَّاني بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾[٥].

- وقد جاء في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ باعتبارِ مَبدأِ هذه الآياتِ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾[٦] [الحج: ٢٦].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٦)

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٧).

وقال ابنُ عاشور: (لأنَّ الهدايا إنما شُرعت تكملةً لشرع الحج، والحجُّ قصدُ البيت؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ فالهدايا تابعةٌ للكعبة؛ قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وإن كانتِ الكعبةُ لا يُنحَر فيها، وإنما المناحِر: مِنًى، والمروة، وفِجاج مكَّةَ، أي: طُرُقُها بحسَب أنواع الهدايا، وتبيينُه في السُّنة). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٩).

الآيتان (٣٤-٣٥)

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَنسَكًا﴾: أي: إراقةَ الدِّماءِ، وذَبْحَ القَرابينِ؛ مِن نَسَك يَنْسُكُ: إذا ذبحَ القُربانَ، أو هو الموضعُ الَّذي يُنْسَكُ للَّهِ فيه، ويُتَقَرَّبُ إليه فيه، أو: العيدُ، وأصلُ (نسك): يدُلُّ على عبادةٍ وتقَرُّبٍ إلى اللهِ تعالى[1].

﴿الْمُخْبِتِينَ﴾: أي: المُتواضِعينَ المُذعِنينَ له بالعُبوديَّةِ، والإخباتُ سكونُ الجوارحِ على وجهِ التواضعِ والخشوعِ لله، وأصلُ (خبت): يدُلُّ على خُشوعٍ[2].

﴿وَجِلَتْ﴾: أي: خَافَتْ، والوجلُ خوفٌ مقرونٌ بهيبةٍ ومحبةٍ، وقيل: الوَجَلُ: استِشعارُ الخَوفِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولِكُلِّ جَماعةٍ مُؤمِنةٍ سَلَفَت جعَلْنا لها مَناسِكَ مِنَ الذَّبحِ وإراقةِ الدِّماءِ؛ لِيَذكُروا اسمَ اللهِ تعالى عند ذَبحِ ما رزَقَهم مِن هذه الأنعامِ، ويَشكُروا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٠) (١٦/ ٥٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

له. فإلهُكم -أيُّها النَّاسُ- الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ إلهٌ واحِدٌ هو اللهُ؛ فانقادوا لأمْرِه بالطَّاعةِ، واخضَعوا لحُكمِه. وبشِّر -أيُّها النبيُّ- المتواضِعينَ الخاضِعينَ لرَبِّهم بخَيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ، وهم الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَه خَشَعَت قلوبُهم وخضَعَت؛ خوفًا مِن عِقابِه؛ والصَّابِرون على ما يقَعُ عليهم مِن أصنافِ البَلاءِ وأنواعِ الأذى، والمُؤَدُّونَ الصَّلاةَ تامَّةً، وهم مع ذلك يُنفِقونَ مِمَّا رزَقَهم اللهُ تعالى.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا جَعَلَ المشرِكونَ لأصنامِهم مَناسِكَ تُشابِهُ مناسكَ الحَجِّ، وجعَلوا لها مَواقيتَ ومَذابحَ، ذَكَّرَهم اللهُ تعالى بأنَّه ما جَعَلَ لكلِّ أُمَّةٍ إلَّا مَنسَكًا واحدًا للقُربانِ إلى اللهِ تعالى، الذي رَزَقَ النَّاسَ الأنعامَ التي يَتقرَّبون إليه منها؛ فلا يَحِقُّ أنْ يُجعَلَ لغيرِ اللهِ مَنْسَكٌ[(١)].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾.

أي: وكلُّ جَماعةٍ مُؤمِنةٍ ممَّن قَبْلَكم شرَعْنَا لهم التقرُّبَ إلى اللهِ بالذَّبحِ وإراقةِ الدِّماءِ؛ لِيَذكُروا اسمَ اللهِ وَحْدَه عندَ نَحرِ ما رزَقَهم مِنَ الإبِلِ أو البَقَرِ أو الغَنَمِ، ويجعَلوا نَسيكَتَهم لِوَجهِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٤)، =

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

في مُناسَبتِها لِمَا قَبْلَها وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه لَمَّا ذَكَرَ الأُمَمَ المتقدِّمةَ خاطبَها بقولِه: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أي: هو الذي شرَعَ المناسكَ لكم، ولِمَن تَقدَّمَ قَبْلَكم.

والثاني: أنَّه إشارةٌ إلى الذَّبائحِ، أي: إلهُكُم إلهٌ واحدٌ؛ فلا تَذْبحوا تقرُّبًا لغَيرِه[1].

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾.

أي: فمَعبودُكم الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له؛ فله وَحْدَه أخلِصوا عِباداتِكم، وانقادُوا له بالطَّاعةِ، واخضَعوا لحُكمِه[2].

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

وحرفُ (على) في قولِه: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ (يَذْكُرُوا)، وهو بمعنى الملابسةِ والمصاحبةِ، أي: على الأنعامِ، وهو على تقديرِ مضافٍ بعد (على)، أي: عِندَ إهداءِ ما رَزَقَهم، يعني: ونَحْرَها أو ذَبْحَها. ويجوزُ أنْ تكونَ (على) بمعنَى: لامِ التَّعليلِ، والمعنَى: لِيَذْكُروا اسمَ اللَّهِ لأجلِ ما رَزَقَهم مِنْ بهيمةِ الأنعامِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٥٩).

قال السعدي: (والحِكْمةُ في جَعْلِ اللهِ لكُلِّ أمَّةٍ مَنسَكًا: لإقامةِ ذِكرِه، والالتفاتِ لشُكرِه؛ ولهذا قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

قال البقاعي: (ولَمَّا ثبَت كونُه واحِدًا، وجَب اختِصاصُه بالعبادةِ؛ فلذا قال: ﴿فَلَهُۥٓ﴾ أي: وحْدَه ﴿أَسْلِمُوا۟﴾ أي: انقادُوا بجميعِ ظَواهِرِكم وبَواطِنِكم في كلِّ ما أمَر به أو نَهَى عنه، ناسِخًا كان =

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

أي: وبَشِّرْ -يا مُحمَّدُ- بخَيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ الخاضِعينَ الخاشِعينَ المُتواضِعينَ المُطمَئِنِّينَ لله، المُنيبينَ إليه[١].

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: الذين خَشَعَت قلوبُهم لذِكْرِ اللهِ، وخضَعَت مِن خَشيَتِه؛ خَوفًا مِن عِقابِه وسَخَطِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى

= أو لا، وإنْ لم تَفهَموا معناه، كغالِب مَناسِكِ الحَجِّ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٧، ٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (أي: فاترُكوا جميعَ المناسِكِ التي أُقيمَت لغيرِ اللهِ، فلا تَنسُكوا إلَّا في المَنسَكِ الذي جعَلَه لكم، تَعريضًا بالردِّ على المُشرِكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٨)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٨٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٨).

بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ ﴾.

أي: والصَّابِرينَ على ما يقَعُ عليهم مِن أصنافِ البَلاءِ وأنواعِ الأذى والمصائِبِ، فلا يَجري منهم التسَخُّطُ على ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

أي: والمُؤَدِّينَ الصَّلاةَ كامِلةً مُستقيمةً ظاهِرًا وباطِنًا، فيُحافِظونَ على أوقاتِها وواجباتِها، ويؤدُّونَها على الوَجهِ الذي أمَرَ اللهُ به(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ... وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٩].

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٨).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بالصَّبرِ: الصَّبرُ على ما يُصيبُهم مِن الأذى في سَبيلِ الإسلامِ، وأمَّا الصَّبرُ في الحُروبِ وعلى فقْدِ الأحبَّةِ فمِمَّا تتشرَّكُ فيه النُّفوسُ الجَلْدةُ مِن المتكبِّرينَ والمُخبِتينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

ممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ بها الفريضةُ: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥).

أي: ويُنفِقونَ مِمَّا آتيناهم مِن رِزقٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦١).

قال ابن جرير: (﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مِنَ الأموالِ ﴿يُنفِقُونَ﴾ في الواجِبِ عليهم إنفاقُها فيه؛ في زكاةٍ، ونَفَقةِ عِيالٍ، ومَن وجبت عليه نَفَقتُه، وفي سَبيلِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (المرادُ مِن الإنفاقِ: الإنفاقُ على المحتاجينَ الضعفاءِ مِن المؤمنينَ؛ لأنَّ ذلك هو دأبُ المخبتينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦١).

وممن اختار عمومَ النفقةِ في وُجوهِ البِرِّ: ابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

قال السعدي: (﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهذا يشمَلُ جميعَ النَّفَقاتِ الواجِبةِ؛ كالزَّكاةِ، والكفَّارة، والنَّفَقةِ على الزَّوجات والمَماليكِ، والأقارِبِ؛ والنَّفَقاتِ المُستحَبَّة؛ كالصَّدَقاتِ بجَميعِ وُجوهِها. وأُتِيَ بـ ﴿مِنْ﴾ المُفيدةِ للتَّبعيضِ؛ لِيُعلَمَ سُهولةُ ما أمَرَ اللهُ به ورغَّبَ فيه، وأنَّه جزءٌ يَسيرٌ مِمَّا رزَقَ اللهُ، ليس للعَبدِ في تحصيلِه قُدرةٌ، لولا تيسيرُ اللهِ له ورِزقُه إيَّاه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢١ - ٢٤].

وقال الله سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أتبَعَ صِفةَ المُخبتينَ بأربَعِ صِفاتٍ؛ وهي: وَجَلُ القُلوبِ عندَ ذِكرِ اللهِ، والصَّبرُ على الأذى في سَبيلِه، وإقامةُ الصَّلاةِ، والإنفاقُ، وكُلُّ هذه الصِّفاتِ الأربَعِ مَظاهِرُ للتَّواضُعِ، فليس المقصودُ مَن جَمَع تلك الصِّفاتِ؛ لأنَّ بَعضَ المُؤمِنينَ لا يَجِدُ ما يُنفِقُ منه، وإنما المقصودُ مَن لم يُخِلَّ بواحدةٍ منها عندَ إمكانِها(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وصَفَهم تعالى بالخَوفِ والوَجَلِ عندَ ذِكرِ اللهِ؛ وذلك لقُوَّةِ يَقينِهم، ومُراعاتِهم لرَبِّهم، وكأنَّهم بينَ يَدَيه(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه الآيةُ نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهذه حالةُ العارفينَ باللهِ، الخائِفينَ مِن سَطْوتِه وعُقوبتِه، لا كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٢).

يفعَلُه جُهَّالُ العَوامِّ، والمُبتَدِعةُ الطَّغامُ، مِن الزَّعيقِ والزَّئير، ومِن النُّهاقِ الذي يُشبِهُ نُهاقَ الحَمير، فيُقالُ لِمَن تعاطى ذلك وزعَمَ أنَّ ذلك وَجْدٌ وخُشوعٌ: إنَّك لم تبلُغْ أن تساوِيَ حالَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا حالَ أصحابِه في المَعرفةِ باللهِ تعالى، والخَوفِ منه، والتَّعظيمِ لجَلالِه، ومع ذلك فكانت حالُهم عند المواعِظِ الفَهمَ عن اللهِ، والبُكاءَ خَوفًا مِنَ الله، وكذلك وصَفَ اللهُ تعالى أحوالَ أهلِ المَعرفةِ عندَ سَماعِ ذِكرِه وتلاوةِ كِتابِه، ومَن لم يكُنْ كذلك فليس على هَدْيِهم ولا على طريقَتِهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، فهذا وَصْفُ حالِهم، وحِكايةُ مَقالِهم؛ فمَن كان مُستَنًّا فلْيَستَنَّ، ومَن تعاطى أحوالَ المجانينِ والجُنونِ، فهو مِن أخَسِّهم حالًا، والجُنون فُنون[١]!!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ فيه أنَّه وإنِ اختَلَفت أجناسُ الشَّرائِعِ، فكُلُّها مُتَّفِقةٌ على هذا الأصلِ، وهو أُلوهيَّةُ اللهِ، وإفرادُه بالعُبوديَّةِ، وتَركُ الشِّركِ به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الذَّبائحَ التي يُتقرَّبُ بها ليست مِن خَصائِصِ هذه الأمَّةِ، بل كانت لكُلِّ أمَّةٍ، وعلى أنَّ الضَّحايا لم تزَلْ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

الأنعامِ، وأنَّ التَّسميةَ على الذَّبحِ كانت مَشروعةً[(١)]، فالذَّبحُ تقرُّبًا إلى اللهِ تعالى مَشروعٌ في كُلِّ مِلَّةٍ لِكُلِّ أُمَّةٍ، وهو بُرهانٌ بَيِّنٌ على أنَّه عِبادةٌ ومَصلَحةٌ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ وأُمَّةٍ[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ ذَبحَ الأُضحِيَّةِ وذِكْرَ اسمِ اللهِ عليها عِبادةٌ مَقصودةٌ بذاتِها، وأنَّها مِن توحيدِ اللهِ وتمامِ الاستِسلامِ له، ورُبَّما كان هذا المقصودُ أعظَمَ بكَثيرٍ مِن مُجَرَّدِ انتِفاعِ الفَقيرِ بها[(٣)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ القُربانَ يَجِبُ أن يكونَ مِنَ الأنعامِ[(٤)].

٥- قَال اللهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ ناسَبَ تَبشيرُ مَن اتَّصَفَ بالإخباتِ هنا؛ لأنَّ أفعالَ الحَجِّ؛ مِن نَزعِ الثِّيابِ، والتجرُّدِ مِنَ المَخيطِ، وكَشْفِ الرَّأسِ، والتردُّدِ في تلك المواضِعِ الغَبرةِ المُحَجَّرةِ، والتلبُّسِ بأفعالٍ شاقَّةٍ لا يَعلَمُ مَعناها إلَّا اللهُ تعالى- مُؤْذِنٌ بالاستِسلامِ المَحْضِ، والتَّواضُعِ المُفرِطِ؛ حيثُ يَخرُجُ الإنسانُ عن مألوفِه إلى أفعالٍ غَريبةٍ؛ ولذلك وصَفَهم بالإخباتِ والوَجَلِ إذا ذُكِرَ اللهُ تعالى، والصَّبرِ على ما أصابَهم مِنَ المشاقِّ، وإقامةِ الصَّلواتِ في مواضِعَ لا يُقيمُها إلَّا المُؤمِنونَ المُصطَفَونَ، والإنفاقِ مِمَّا رزَقَهم، ومنها الهَدايا التي يُغالونَ فيها[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((أحكام الأضحية والذكاة)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٥/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٨).

٦- قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ اعلَمْ أنَّ وَجَلَ القُلوبِ عِندَ ذِكرِ اللهِ -أي: خَوْفَها مِنَ اللهِ عندَ سَماعِ ذِكرِه- لا يُنافي ما ذَكَرَه جلَّ وعلا مِن أنَّ المُؤمِنينَ تَطمَئِنُّ قُلوبُهم بذِكرِ اللهِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، ووَجهُ الجَمعِ بينَ الثَّناءِ عليهم بالوَجَلِ -الذي هو الخَوفُ عِندَ ذِكرِه جَلَّ وعلا- مع الثَّناءِ عليهم بالطُّمَأنينةِ بذِكرِه، والخَوفُ والطُّمَأنينةُ مُتَنافيانِ: هو أنَّ الطُّمَأنينةَ بذِكرِ اللهِ تكونُ بانشراحِ الصَّدرِ بمَعرفةِ التَّوحيدِ، وصِدْقِ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فطُمَأنينَتُهم بذلك قَويَّةٌ؛ لأنَّها لم تتطَرَّقْها الشُّكوكُ ولا الشُّبَهُ- والوَجَلَ عِندَ ذِكرِ الله تعالى يكونُ بسَبَبِ خَوفِ الزَّيغِ عن الهُدى، وعَدَمِ تقَبُّلِ الأعمالِ، كما قال تعالى عنِ الرَّاسِخينَ في العِلمِ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[1] [الزمر: ٢٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ﴾ عبَّر بالوصفِ دُون الفِعلِ (أقاموا)؛ إشارةً إلى أنَّه لا يُقيمُها على الوجهِ المشروعِ مع تِلك المشاقِّ والشواغِلِ إلَّا الأراسخُ في حُبِّها؛ فهُم -لِمَا تمكَّن مِن حُبِّها في قُلوبِهم، والخوفِ مِن الغَفلةِ عنها- كأنَّهم دائمًا في صَلاةٍ[2].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٩).

مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ ﴾ على الفِعلِ ﴿ جَعَلۡنَا ﴾؛ للتَّخصيصِ(١).

- قولُه: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ علَّلَ الجَعْلَ به؛ تَنبيهًا على أنَّ المقصودَ الأصليَّ مِن المناسِكِ تَذكُّرُ المعبودِ(٢).

- قولُه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ﴾ الفاءُ في ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ ﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ فإنَّ جَعْلَه تعالى لكلِّ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ مَنْسكًا ممَّا يدُلُّ على وَحدانيَّتِه تعالى. وإنَّما قيل: ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، ولم يقُلْ: (واحدٌ)؛ لِمَا أنَّ المُرادَ بَيانُ أنَّه تعالى واحدٌ في ذاتِه، كما أنَّه واحدٌ في إلهيَّتِه للكلِّ(٣). وهذا التَّفريعُ الأوَّلُ تَمهيدٌ للتَّفريعِ الَّذي عَقِبَهُ وهو المقصودُ، فوقَعَ في النَّظمِ تَغييرٌ بتَقديمٍ وتأْخيرٍ، وأصْلُ النَّظمِ: فلِلَّهِ أسْلِموا؛ لأنَّ إلهَكم إلهٌ واحدٌ(٤).

- وفي قولِه: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ﴾ تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ (له) على الأمْرِ ﴿أَسۡلِمُواْ﴾؛ للحصْرِ، أي: أسْلِموا له لا لغَيرِه(٥).

- قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ اعتراضٌ بينَ سَوقِ المِنَنِ، والخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٦)، وناسَبَ تَبشيرُ مَنِ اتَّصَفَ بالإخباتِ هنا؛ لأنَّ أفعالَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٠).
(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٠).

الحجِّ مُؤْذِنةٌ بالاستسلامِ المَحضِ، والتَّواضُعِ المُفرِطِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ (مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) على الفِعلِ ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ للاهتمامِ به، وللدَّلالةِ على كونِه أهمَّ، ولإفادةِ الاختصاصِ، ولتناسبِ رُؤوسِ الآيِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٩).

الآيتان (٣٦-٣٧)

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَٱلْبُدْنَ ﴾: أي: الإبِلَ، وقيل: الإبلَ والبقرَ، جَمعُ بَدَنةٍ، وسُمِّيَت بذلك؛ لِعِظَمِ بَدَنِها وضخامتِها، وهو اسمٌ مَأخوذٌ مِن البَدانةِ، وهي: عِظَمُ الجُثَّةِ والسِّمَنُ[1].

﴿صَوَآفَّ﴾: أي: قائِماتٍ قد صُفَّت قَوائِمُها في حالِ نَحْرِها، وأصلُها مِنَ الصَفِّ، وهو جَعْلُ الأجسامِ يلي أحَدُها الآخَرَ على مِنهاجٍ واحِدٍ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استواءٍ في الشَّيءِ، وتساوٍ بينَ شيئَيْنِ في المقَرِّ[2].

﴿وَجَبَتْ﴾: أي: وقَعَت وسَقَطت، وأصلُ (وجب): يدُلُّ على سُقوطِ الشَّيءِ ووقُوعِه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٣).

﴿ٱلْقَانِعَ﴾: أي: السَّائِلَ الذي يَتعرَّضُ لِما في أيدِي النَّاسِ، مِن: قَنَعَ يقْنَع قُنُوعًا: أي: ذلَّ للسُّؤالِ، فهو مِن القُنُوعِ، بمعنى: المسألةِ، وقيل: القُنوعُ بمعنى القَناعةِ -أي: الرِّضا بالقَليلِ، مِن: قَنِعَ[1].

﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: أي: المُتعَرِّضَ للنَّوالِ مِن غَيرِ طَلَبٍ ولا سُؤالٍ، يقالُ: اعْتَرَّني وعَرَّني، وعَراني واعْتَراني، أي: ألَمَّ بك لتعطيَه ولا يسألُ، وقيل: هو الذي يُطيفُ بك يَطلُبُ ما عِندَك، سألَك أو سكَت عن السُّؤالِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وجعَلْنا لكم الإبِلَ الضِّخامَ مِن شَعائِرِ الدِّينِ الظَّاهِرةِ؛ لتتقَرَّبوا بها إلى اللهِ، وفي حكمِها البقرُ. لكم فيها -أيُّها المتَقَرِّبونَ- خيرٌ في الدُّنيا، وأجرٌ في الآخِرةِ، فاذكُروا اسمَ اللهِ عِندَ نَحْرِكم الإبِلَ، وهي قائِمةٌ قد صُفَّت قَوائِمُها، فإذا سقَطَت على الأرضِ جُنوبُها، فكُلوا مِن لَحمِها، وأطعِمُوا منها الفَقيرَ السَّائِلَ بتذَلُّلٍ، والمتعرِّضَ للعَطاءِ دونَ سُؤالٍ، هكذا سخَّر اللهُ البُدْنَ لكم؛ لعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على تَسخيرِها لكم.

لن ينالَ اللهَ مِن لحومِ هذه الذَّبائِحِ ولا مِن دمائِها شَيءٌ، ولكِنْ ينالُه الإخلاصُ فيها، وأن يَكونَ القَصدُ بها وَجهَ اللهِ وَحْدَه، كذلك ذلَّلَها لكم -أيُّها المتقَرِّبونَ-

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ١٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٦).

لِتُعَظِّموا اللهَ، وتَشكُروا له على ما هَداكم مِنَ الحَقِّ؛ فإنَّه أهلٌ لذلك. وبشِّرْ -يا مُحمَّدُ- المُحسِنينَ بعبادةِ اللهِ وَحْدَه، والمُحسِنينَ إلى خَلْقِه؛ بكُلِّ خَيرٍ وفَلاحٍ في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قَدَّم اللهُ سُبحانَه الحَثَّ على التقَرُّبِ بالأنعامِ كُلِّها، وكانت الإبِلُ أعظَمَها خَلْقًا، وأجَلَّها في أنفُسِهم أمْرًا؛ خصَّها بالذِّكرِ[(١)].

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: والإبِلَ الضِّخامَ العِظامَ الأجسامِ[(٢)] -وفي حُكمِها البقرُ- جعَلْناها لكم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٩).

(٢) وممن خَصَّ البُدْنَ بالإبِلِ: الرازي، والقرطبي، والبِقاعي، والعليمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٢).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: مُجاهدٌ، والحَكَمُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥).

قال القرطبي مُستدِلًّا على صحَّةِ هذا القَولِ: (لِقَولِه عليه السَّلامُ في الحديثِ الصَّحيحِ في يومِ الجُمُعةِ: (مَن راحَ في السَّاعةِ الأُولى فكأنَّما قرَّب بَدَنةً، ومَن راح في السَّاعةِ الثَّانيةِ فكأنَّما قرَّب بقَرَةً...) الحديثَ. فتفريقُه عليه السَّلامُ بين البَقَرةِ والبَدَنةِ يدُلُّ على أنَّ البَقَرةَ لا يقالُ عليها بَدَنةٌ، والله أعلمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦١). =

-أيُّها النَّاسُ- مِن أعلامِ دِينِ اللهِ الظَّاهِرةِ التي يُتعبَّدُ ويُتقرَّبُ بها إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فشُرِعَ سَوقُها إلى البَيتِ، وتَقليدُها وإشعارُها، وتعظيمُها، ونَحْرُها والإطعامُ منها[1].

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

أي: لكم في الإبِلِ مَنافِعُ في الدُّنيا، وأجرٌ في الآخِرةِ[2].

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾.

أي: فاذكُروا اسمَ اللهِ عِندَ نَحْرِكم الإبِلَ، وهي قائِمةٌ قد صُفَّت قَوائِمُها[3].

= وقال الرسعني: (والصَّحيحُ ما قاله صاحِبُنا القاضي أبو يَعلَى بن الفرَّاء رحمةُ الله عليه: أنَّ البَدَنةَ: اسمٌ يختَصُّ الإبِلَ في اللُّغةِ، والبقَرةَ تقومُ مَقامَها في الحُكمِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم جعل البَدَنةَ عن سَبعةٍ، والبَقَرةَ عن سَبعةٍ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٠).

وقيل: تُطلَقُ على الإبِلِ والبَقَرِ. وممن ذهب إلى ذلك: الواحديُّ، وابن عطية، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥).

ونسَب الرسعنيُّ هذا القولَ إلى جمهور المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٠)

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عمرَ، وسعيدُ بنُ المسيبِ، والحسنُ البصري، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥).

قال ابنُ كثير: (أمَّا إطلاقُ البَدَنةِ على البعيرِ فمُتَّفَقٌ عليه، واختلفوا في صِحَّةِ إطلاقِ البَدَنةِ على البَقَرةِ؛ على قولين: أصَحُّهما: أنَّه يُطلَقُ عليها ذلك شرعًا، كما صحَّ في الحديثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) =

عن زيادِ بنِ جُبَيرٍ، ((أنَّ ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أتى على رَجُلٍ وهو يَنحَرُ بَدَنَتَه بارِكةً، فقال: ابعَثْها قِيامًا مُقَيَّدةً؛ سُنَّةَ نَبِيِّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))(١).

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾.

أي: فإذا سَقَطت الإبِلُ بعد نَحْرِها، ووقَعَت جُنوبُها على الأرضِ، فكُلوا مِن لَحمِها(٢).

﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾.

أي: وأطعِموا منها القانِعَ، وهو: الفَقيرُ السَّائِلُ بتذَلُّلٍ، وأطعِموا منها المُعْتَرَّ، وهو: الذي يأتي مُتعَرِّضًا للنَّوالِ مِن غيرِ طَلَبٍ ولا سُؤالٍ(٣).

= (ص: ٥٣٨).

قال السعدي: (تقامُ على قوائِمِها الأربَعِ، ثمَّ تُعقَلُ يَدُها اليُسرى، ثمَّ تُنحَرُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨). ويُنظر في حِكمة عقلِ يدِها اليسرى: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٤٠).

(١) رواه البخاري (١٧١٣)، ومسلم (١٣٢٠) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٠، ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٤).

قال ابنُ جرير: (قَولُه: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ هذا مَخرَجُه مَخرجُ الأمرِ، ومعناه الإباحةُ والإطلاقُ؛ يقولُ اللهُ: فإذا نُحِرَت فسَقَطت مَيتةً بعد النَّحرِ، فقد حَلَّ لكم أكلُها، وليس بأمرِ إيجابٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٢، ٥٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٩).

وممَّن اختار هذا المعنى للقانِعِ والمعترِّ في الجملة: ابنُ جرير، والسمعاني، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عباس في رواية عنه، وعِكرمةُ في رواية عنه، والحسَنُ البصري، والكلبي، ومقاتل، وزيد بن أسلم، ومالك بن أنس، وسعيد بن جُبَير في رواية عنه، وبكر بن عبد الله. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

أي: مِثلَ ذلك التَّسخيرِ العَجيبِ الذي تُشاهِدونَه ذَلَّلْنا لكم الإبِلَ -أيُّها النَّاسُ- ومكَّنَّاكم مِن التصَرُّفِ فيها، فتَنتَفِعونَ برُكوبِها والشُّربِ والأكلِ منها؛ لِتَشكُروا اللهَ على نِعمةِ تَسخيرِها لكم[1].

= (٥/ ٤٢٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٤).

وقيل: القانِعُ: الفقيرُ المتعَفِّفُ الذي لا يَسألُ، والمعتَرُّ: الفقيرُ الذي يسألُ. وممن اختار هذا القولَ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عباس في رواية عنه، ومجاهدٌ في رواية عنه، وعكرمةُ في رواية عنه، وقتادةُ، وإبراهيمُ النخَعي، وسعيد بن جُبَير في رواية عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٢٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٤).

قال الماوَرْدي: (﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ فيهم أربعةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: أنَّ القانِعَ: السَّائِلُ، والمُعتَرَّ: الذي يتعَرَّضُ ولا يَسألُ. وهذا قَولُ الحَسَنِ، وسَعيدِ بنِ جُبَيرٍ...

والثَّاني: أنَّ القانِعَ: الذي يَقنَعُ ولا يَسألُ، والمُعتَرَّ: الذي يَسألُ. وهذا قولُ قتادةَ.

والثَّالِثُ: أنَّ القانِعَ: المِسكينُ الطَّوَّافُ، والمُعتَرَّ: الصَّديقُ الزَّائِرُ. وهذا قَولُ زيدِ بنِ أسلَمَ.

والرَّابعُ: أنَّ القانِعَ: الطَّامِعُ، والمُعتَرَّ: الذي يَعتري البُدْنَ ويتعَرَّضُ لِلَّحمِ؛ لأنَّه ليس عنده لحمٌ. وهذا قَولُ عِكرمةَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٧).

وقال الواحديُّ: (القانع يجوزُ أن يكون السائلَ وغيرَ السائلِ، وكذا المُعتَرُّ، إلا أنه لا ينفكُّ مِن تعرُّض ونوعِ طلَبٍ. وعلى هذين الوجهين كلامُ المفسِّرين؛ منهم مَن يقولُ: القانعُ: الذي يسألُ، والمُعترُّ: الذي يأتيك بالسلامِ ويُريك وجهَه ولا يسأل،... ومنهم مَن يقولُ بعكس هذا؛ فيقول: القانع: المتعفِّف الجالس في بيتِه، والمُعترُّ: السائلُ الذي يَعتريك ويسألُ). ((البسيط)) (١٥/ ٤١٧، ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾.

أي: لن يَصِلَ إلى اللهِ شَيءٌ مِن لحومِ بُدْنِكم، ولا دِمائِها المُهراقةِ، ولم يَشرَعْ ذَبحَها لذلك؛ فهو غنيٌّ عنكم وعنها[1].

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

أي: ولكِنَّ الذي يَصِلُ إلى اللهِ ويَبلُغُه: تَقواكم وإخلاصُكم العمَلَ له وَحْدَه، فيتقَبَّلُه منكم، ويُثيبُكم عليه إنِ اتَّقَيتُموه فيما تَذبَحونَه مِنَ البُدْنِ، وأرَدْتُم بذلك وَجْهَه وَحْدَه، لا فَخرًا ولا رياءً، ولا سُمعةً ولا مُجَرَّدَ عادةٍ؛ وعَظَّمتُم بها حُرُماتِه، وعَمِلتُم فيها بما أمَرَكم به؛ فليس المقصودُ مُجَرَّدَ ذَبحِها فحَسْبُ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٧).
قال ابنُ عاشور: (المقصودُ مِن نَفيِ أن يَصِلَ إلى اللهِ لُحومُها ودِماؤُها: إبطالُ ما يَفعَلُه المُشرِكونَ مِن نَضحِ الدِّماءِ في المَذابِحِ وحَولَ الكعبةِ، وكانوا يَذبَحونَ بالمروةِ. قال الحسن: كانوا يُلَطِّخونَ بدِماءِ القرابينِ، وكانوا يُشَرِّحونَ لحومَ الهدايا ويَنصِبونَها حولَ الكعبةِ؛ قُربانًا لله تعالى. يعني: زيادةً على ما يعطونَه للمحاويجِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم))[١].

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

أي: هكذا سخَّرَ اللهُ لكم البُدْنَ؛ كي تَعرِفوا عظَمَتَه باقتدارِه على ما لا يَقدِرُ عليه سِواه، فتُوَحِّدُوه بالكِبرياءِ؛ شُكرًا له في مقابِلِ تَوفيقِه إيَّاكم لِدينِكم، ولِلنُّسُكِ في حَجِّكم[٢].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: وبَشِّرْ -يا مُحمَّدُ- المُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، وفي مُعامَلتِهم لعبادِ اللهِ، بالسَّعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال عزَّ مِن قائِلٍ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ مَنَّ سُبحانَه علينا بتَذليلِها وتَمكينِنا مِن تَصريفِها، وهي أعظَمُ مِنَّا أبدانًا، وأقوى منا أعضاءً؛ ذلك لِيَعلَمَ العَبدُ أنَّ الأمورَ ليست على ما يَظهَرُ إلى العَبدِ مِن التَّدبيرِ، وإنَّما هي بحَسَبِ ما يُريدُها العزيزُ القَديرُ، فيَغلِبُ الصَّغيرُ الكبيرَ؛ لِيَعلَمَ الخَلقُ أنَّ الغالِبَ هو اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ فوقَ عِبادِه[1]، فالرجُلُ الواحدُ يأخُذُ العدَدَ منها ويَسوقُها مُنقادةً، ويؤلِمُها بالإشعارِ ثمَّ بالطَّعنِ، ولولا أنَّ الله أودع في طباعِها هذا الانقيادَ، لَما كانت أعجَزَ مِن بعضِ الوحوشِ التي هي أضعَفُ منها، فتنفِرُ مِن الإنسانِ ولا تُسخَّرُ له[2]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ في هذا حَثٌّ وتَرغيبٌ على الإخلاصِ في النَّحرِ، وأن يكونَ القَصدُ وَجهَ اللهِ وَحْدَه، لا فَخرًا ولا رياءً، ولا سُمعةً ولا مُجَرَّدَ عادةٍ، وهكذا سائِرُ العباداتِ، إن لم يقتَرِنْ بها الإخلاصُ وتقوى اللهِ، كانت كالقُشورِ التي لا لُبَّ فيها، والجَسَدِ الذي لا رُوحَ فيه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ هذا دليلٌ على أنَّ الشَّعائِرَ عامٌّ في جميعِ أعلامِ الدِّينِ الظَّاهِرةِ، وقد أخبَرَ تعالى أنَّ مِن جُملةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

شَعائِرِه البُدْنَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ دَلالةٌ على جوازِ رُكوبِ البُدْنِ؛ لِعُمومِ قَولِه تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[٢].

٣- عن مالكِ بنِ أنسٍ، قال: (حجَّ سعيدُ بنُ المُسَيِّبِ، وحجَّ معه ابنُ حرملةَ، فاشترى سعيدٌ كبشًا فضحَّى به، واشترَى ابنُ حرملةَ بَدَنةً بستةِ دنانيرَ، فنحَرها، فقال له سعيدٌ: أمَا كانَ لك فينا أُسوةٌ؟ فقال: إنِّي سمعت الله يقول: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، فأحببتُ أن آخُذَ الخيرَ مِن حيثُ دلَّني الله عليه. فأعجب ذلك ابنَ المسيِّبِ منه! وجعَل يحدِّثُ بها عنه)[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ فيه استِحبابُ نَحرِ الإبلِ قِيامًا[٤]، فقوله: ﴿صَوَآفَّ﴾ يعني: قائمةً قد صُفَّتْ قوائمُها؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الإبلَ تُنحَرُ قائمةً[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فيه أنَّ البُدْنَ تُنحَرُ قائِمةً[٦]، فقولُه: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقَطتْ، وهو يُشعِرُ بكونِها كانت قائمةً[٧].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ بدأ سُبحانَه بذِكرِ الأكلِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّه ليس المقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٦٠).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٣).

(٧) يُنظر: ((إحكام الأحكام)) لابن دقيق العيد (٢/ ٨٣).

بالأُضحِيَّةِ الصَّدَقةَ بها، ولكنَّ المقصودَ التَّعَبُّدُ لله تعالى بنَحْرِها؛ تعظيمًا له جلَّ وعلا[(١)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سَقَطت على الأرضِ، والقَصدُ مِن هذا التَّوقيتِ المُبادَرةُ بالانتِفاعِ بها؛ إسراعًا إلى الخَيرِ الحاصِلِ مِن ذلك في الدُّنيا بإطعامِ الفُقَراءِ وأكلِ أصحابِها منها؛ فإنَّه يُستحَبُّ أن يكونَ فُطورُ الحاجِّ يَومَ النَّحرِ مِن هَدْيِه، وكذلك الخَيرُ الحاصِلُ مِن ثوابِ الآخرةِ[(٢)].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ استُنبِطَ مِن الآيةِ: أنَّها تُجزَّأُ ثلاثةَ أثلاثٍ؛ فيأكُلُ ثُلُثًا، ويُهدي ثُلثًا، ويتصَدَّقُ بثُلُثٍ[(٣)]؛ لأنه جعلها بين ثلاثةٍ؛ فدَلَّ على أنَّها بيْنهم أثلاثًا[(٤)].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ فيه رَدٌّ لِما اعتادَه بعضُ النَّاسِ مِن لَطخِ البُيوتِ بدِماءِ الأضاحيِّ[(٥)].

١٠- الأُضحِيَّةُ لا يُرادُ بها مُجرَّدُ الصَّدَقةِ بلَحمِها، أو الانتِفاعِ به؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾، ولكِنْ أهَمُّ شَيءٍ فيها هو التقَرُّبُ إلى اللهِ بالذَّبحِ[(٦)].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((اللقاء الشَّهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٤). ويُنظر أيضًا: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((المهذب في فقة الإمام الشافعي)) للشيرازي (١/ ٤٣٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٢٤).

فيه أنَّه يُستَحَبُّ أن يُضَمَّ إلى التَّسميةِ التَّكبيرُ عِندَ الذَّبحِ، فقد ذكَر سبحانَه في الآيةِ السابقةِ ذِكرَ اسمِه عليها، فقال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾، وذكَر هنا التكبيرَ؛ فيُستحَبُّ الجمعُ بينهما[(١)].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ فيه الاقتصارُ على البُدْنِ الخاصِّ بالإبِلِ؛ لأنَّها أفضَلُ في الهَدْيِ[(٢)].

- قولُه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِما قبْلَها[(٣)]، وكلمةُ ﴿لَكُمۡ﴾ فيها امتنانٌ على النَّاسِ، وتَقديمُها على المُبتدأِ ﴿خَيۡرٞ﴾؛ ليتأتَّى كونُ المُبتدَأِ نَكِرةً؛ ليُفيدَ تَنوينُه التَّعظيمَ، وتَقديمُ ﴿فِيهَا﴾ على مُتعلَّقِه وهو ﴿خَيۡرٞ﴾؛ للاهتمامِ بما تَجمَعُه وتَحْتوي عليه مِن الفوائدِ[(٤)].

- وإضافةُ الشَّعائرِ في قولِه: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾؛ تَعظيمٌ لها[(٥)].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ استئنافٌ؛ للامتنانِ بما خلَقَ مِن المخلوقاتِ لنَفْعِ النَّاسِ[(٦)]. وفي قولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ تَعريضٌ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٩٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٦).

بالمُشركينَ؛ إذ وَضَعوا الشِّرْكَ مَوضِعَ الشُّكرِ[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾، أي: دَلَّ على أنَّا سَخَّرناها لكم لِتَشْكُروني: أنَّه لا انتفاعَ للهِ بشَيءٍ مِن لُحومِها ولا دِمائِها[(٢)].

- ولَمَّا كان السياقُ للحَثِّ على التَّقريبِ له سُبحانَه، كان تقديمُ اسمِه على الفاعِلِ أنسَبَ للإسراعِ بنفيِ ما قد يُتوهَّمُ مِن لَحاقِ نفعٍ أو ضُرٍّ، فقال معبِّرًا بالاسمِ العلَمِ الذي حمى عن الشَّرِكةِ بكُلِّ اعتبارٍ: ﴿ٱللَّهَ﴾[(٣)].

- قولُه: ﴿وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ (مِن) ابتدائيَّةٌ، وعُبِّرَ بلفْظِ ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ دونَ: (تَقْواكم) أو (التَّقوى)، مُجرَّدًا مع كونِ المعدولِ عنه أوجَزَ؛ لأنَّ في هذا الإطنابِ زِيادةَ مَعنًى مِن البلاغةِ[(٤)].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ كرَّرَ تَذكيرَ النِّعمةِ بالتَّسخيرِ، ثمَّ قال: لِتَشْكُروا اللهَ على هِدايَتِه إيَّاكم لِأَعْلامِ دِينِه ومَناسِكِ حَجِّه، بأنْ تُكبِّروا وتُهلِّلوا، فاختصَرَ الكلامَ بأنْ ضَمَّنَ التَّكبيرَ معنى الشُّكرِ وعَدَّاهُ تَعْديتَه، فصارَ مدلولُ الجُملتينِ مُترادِفًا؛ فوقَعَ التَّأكيدُ[(٥)]. وإنَّما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٢، ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) =

حسُنَ تَسميةُ الشُّكرِ بالتَّكبيرِ؛ لأنَّ التَّكبيرَ على هِدايةِ اللهِ تعالى المكلَّفَ لِأعْلامِ الدِّينِ ومَناسِكِ الحجِّ: هو النِّداءُ على الجميلِ بسَببِ إحسانِه، وليس معنى الشُّكرِ اللِّسانيِّ إلَّا هذا، فوَضْعُ التَّكبيرِ هاهنا مَوضِعَ الشُّكرِ، كوضْعِ ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٨] مَوضِعَ (يَنحَروا)؛ للإيذانِ بأنَّ المقصودَ الأوَّليَّ مِن شَرعيَّةِ الأحكامِ التَّوحيدُ وذِكْرُ اللهِ تعالى وحْدَه وتَشْييدُه، وأنَّ رأْسَ الشُّكرِ هو الذِّكْرُ باللِّسانِ[1].

- قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الخِطابُ للمُسلمينَ، وتَغْييرُ الأُسلوبِ تَخريجٌ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ بالإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم قدِ اهتَدَوا وعَمِلوا بالاهتداءِ، فأحْسَنوا[2].



= (٧/ ٥١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٠).

الآيات (٣٨-٤١)

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ
يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ
حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ
وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ
وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَوَّانٍ﴾: أي: مُبالِغٍ في الخيانةِ بالإصرارِ عليها، والخِيانةُ: مُخالَفةُ الحَقِّ بنَقضِ العَهدِ، وأصلُ (خون): يدُلُّ على نُقصانِ الوَفاءِ(١).

﴿صَوَٰمِعُ﴾: أي: مَنازِلُ الرُّهبانِ، جَمعُ صَومَعةٍ، وهي كلُّ بناءٍ مُتَصَمِّعِ الرَّأسِ، أي: متلاصِقِه، وسُمِّيَت صومعةً؛ لانضمامِ طرَفَيْها، أو لأنَّها دقيقةُ الرَّأْسِ، وأصلُ (صمع): يدُلُّ على لَطافةٍ في الشَّيءِ وتَضامٍّ(٢).

﴿وَبِيَعٞ﴾: أي: كنائِسُ النَّصارى، جَمعُ بيعَةٍ، ولا يُعرَفُ أصلُ اشتِقاقِها، ولعَلَّها مُعَرَّبةٌ عن لُغةٍ أُخرى، قيل: هي الفارسيةُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٠)، ((التلخيص في معرفة أسماء الأشياء)) للعسكري (ص: ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٣١)، ((المعرب)) للجواليقي (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٨).

﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾: أي: كَنائِسُ اليَهودِ، وهي بالعِبرانيَّةِ صَلُوتَا، وقيل: مواضِعُ صلواتٍ، ويُسمَّى موضعُ العبادةِ الصَّلاةَ(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ ﴾: ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ في محلِّ جرٍّ نعتٌ للمَوصولِ الأوَّلِ في قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ﴾، أو بدلٌ منه. ويجوزُ أن يكونَ في محلِّ نصبٍ على المَدحِ، وأن يكونَ في محلِّ رفعٍ على إضمارِ مُبتدأٍ.

﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ ﴾ المصدَرُ المؤوَّلُ مَنصوبٌ على الاستثناءِ المُنقَطِعِ، وهذا ممَّا يُجْمِعُ العربُ على نصبِه؛ لأنَّه مُنقَطِعٌ لا يمكنُ تَوَجُّهُ العاملِ إليه؛ لأنَّك لو قلتَ: (الذين أُخْرِجوا مِنْ ديارِهم إلَّا أَنْ يقولوا ربُّنا اللهُ) لم يَصِحَّ. وقيل: إنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ مِن عُمومِ الحَقِّ، فـ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ في مَوْضِعِ جَرٍّ على البَدَلِ مِن ﴿ حَقٍّ ﴾؛ لِما في (غَيْرِ) من معنى النَّفيِ، والمعنى: أُخرِجُوا بلا حَقٍّ إلَّا بِقَولِهم رَبُّنا اللهُ، أي: أُخرِجوا بغيرِ مُوجِبٍ سِوى التَّوحيدِ الذي ينبغي أن يكونَ مُوجِبَ الإقرارِ والتَّمكينِ، لا الإخراجِ والتَّسييرِ. وهذا مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّهُ، ويُسمَّى عند أهلِ البَديعِ: تأكيدَ المَدحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٥٩]، أي: لا تَجِدون شَيئًا تَنقِمونَه غيرَ ما ذُكِرَ، وكُلُّ ذلك ليس حقيقًا بأن يُنقَمَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٣١)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٨/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ اللهَ تعالى يَدفَعُ عن المُؤمِنينَ عُدوانَ الكُفَّارِ، وكَيدَ الأشرارِ؛ لأنَّه عَزَّ وجَلَّ لا يُحِبُّ كُلَّ خوَّانٍ لأمانةِ رَبِّه، جَحودٍ لِنعمَتِه.

أَذِنَ اللهُ للمُسلِمينَ في القِتالِ؛ بسَبَبِ ما وقَعَ عليهم مِن الظُّلْمِ والعُدوانِ، وإنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على نَصرِهم، وإذلالِ عَدوِّهم؛ الذين أخرَجَهم الكُفَّارُ ظُلمًا مِن ديارِهم، لا لِشَيءٍ فَعَلوه إلَّا لأنَّهم أسلَموا وقالوا: ربُّنا اللهُ وَحْدَه. ولولا ما شَرَعَه اللهُ مِن دَفْعِ المُشرِكينَ بالمُجاهِدينَ بتشريعِ الجهادِ، لَخُرِّبَت الأرضُ، وهُدِّمَت فيها أماكِنُ العِبادةِ؛ مِن معابِدِ الرُّهبانِ، ومعابِدِ النَّصارى، ومَعابِدِ اليَهودِ، ومساجِدِ المُسلِمينَ التي يُصَلُّونَ فيها، ويَذكُرونَ اسمَ اللهِ فيها كثيرًا.

ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يجاهِدُ في سَبيلِه؛ لِتَكونَ كَلِمتُه هي العُليا؛ إنَّ اللهَ لَقَويٌّ لا يُغالَبُ، عزيزٌ لا يُرامُ.

الذينَ إنْ مكَّنَّاهم في الأرضِ، واستَخْلَفْناهم فيها، وأظهَرْناهم على عَدُوِّهم؛ أقاموا الصَّلاةَ، وأخرَجوا زكاةَ أموالِهم إلى أهلِها، وأمَروا بالمعروفِ، ونَهَوا عن المنكَرِ، ولله وَحْدَه مَصيرُ الأمورِ كُلِّها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى جُملةً مِمَّا يُفعَلُ في الحَجِّ، وكان المُشرِكونَ قد صَدُّوا رسولَ

= (٨/ ٢٨٢)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٥).

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عام الحُدَيبيَةِ، وآذَوا مَن كان بمكَّةَ مِن المُؤمِنينَ- أنزل اللهُ تعالى هذه الآياتِ مُبَشِّرةً المُؤمِنينَ بدَفْعِه تعالى عنهم، ومُشيرةً إلى نَصرِهم، وإذْنِه لهم في القِتالِ، وتَمكينِهم في الأرضِ برَدِّهم إلى ديارِهم، وفَتْحِ مَكَّةَ، وأنَّ عاقبةَ الأمورِ راجِعةٌ إلى اللهِ تعالى(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَدْفَعُ﴾ مِن دَفَع يَدفَعُ، والفِعلُ مِن طَرَفِه وَحْدَه(٢).

٢- قراءة ﴿يُدَٰفِعُ﴾ مِن دافَع يُدافِعُ، وهو بمعنى دفَعَ، وإن كان مِنَ المُفاعَلةِ، مِثلُ: عاقَبْتُ اللِّصَّ، وعافاه اللهُ. وقيل: على معنى تكَرُّرِ الفِعلِ؛ أي: يدفَعُ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يدْفَعُ شرَّ الكُفَّارِ وكَيدَ المُشرِكينَ عن عبادِه المُؤمِنينَ، فيُنَجِّيهم، ويَحفَظُهم، ويَنصُرُهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٤).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب البصري. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٧، ٤٧٨)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٢٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٨)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦١، ٢٦٢). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مَن يَخونُ أمانَتَه فيَبخَسُ حُقوقَ اللهِ عليه، ويُخالِفُ أمْرَه ونَهْيَه، ويَخونُ حُقوقَ عِبادِه فيَنقُضُ العَهدَ الذي بينه وبينَهم، ويَجحَدُ نِعَمَ اللهِ عليه، ولا يَشكُرُه عليها[1].

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ أي: يقاتِلُهم الكُفَّارُ[2].

٢- قراءةُ ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ بإسنادِ الفِعلِ إلى الفاعِلِ؛ أي: هم يُقاتِلون الكفَّارَ

= وهذا المعنى المذكورُ هو في الجُملة اختيار: ابنِ جَرير، وابن كَثير، وابنِ عاشور، والشِّنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وذهَب السعديُّ إلى معنًى أعمَّ من ذلك، فقال: (الله يُدافِعُ عنهم كلَّ مكروهٍ، ويَدفعُ عنهم كُلَّ شرٍّ بسَبَبِ إيمانِهم؛ مِن شرِّ الكفَّارِ، وشرِّ وَسوسةِ الشَّيطانِ، وشُرورِ أنفُسِهم، وسيِّئاتِ أعمالِهم، ويَحمِلُ عنهم عندَ نزولِ المكارهِ ما لا يَتحمَّلونَ، فيُخفِّفُ عنهم غايةَ التَّخفيفِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٢) قرأ بها نافعٌ، وحفصٌ عن عاصمٍ، وابنُ عامر، وأبو جعفر المدني. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٨١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٨، ٤٧٩).

الذين بَدؤُوهم بالقتالِ(١).

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾.

أي: أَذِنَ اللهُ للمُؤمنينَ في قِتالِ الكُفَّارِ الذين يُقاتِلونَهم؛ وذلك بسَبَبِ ظُلمِهم لهم، بمُحارَبتِهم في دِينِهم وأذِيَّتِهم، وإخراجِهم مِن ديارِهم(٢).

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٨١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٢).
قال ابن زَنْجَلَة: (قال عاصمٌ: لو كانتْ «يُقاتِلون» بكسر التاء، ففيمَ أُذِنَ لهم؟ فكأنَّهم ذهبوا إلى أن المشركين قد كانوا بَدؤوهم بالقتال، فأذِنَ اللهُ لهم حين قاتلوا أنْ يُقاتِلوا مَن قاتلهم. وهو وجهٌ حسَنٌ). ((حجة القراءات)) (ص: ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٢).
قال مكيُّ بن أبي طالب: (الآيةُ ناسِخةٌ عند الجَميعِ لكُلِّ ما في القرآنِ مِن الأمرِ بالصَّفحِ عنهم، والصَّبرِ على أذاهم، والمَنعِ مِن قتالِهم). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٧/ ٤٨٩٨).
وقال أبو بكرِ بنُ العربيِّ: (هذه الآيةُ ناسِخةٌ لكُلِّ آيةٍ في القُرآنِ تَقتَضي التوقُّفَ عن القِتالِ؛ مِن تَركٍ وإعراضٍ، وصَفحٍ ونحوِه...)، ثمَّ ذَكَر قَولَ مَن قال: إنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بقَولِه تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: (بل الآيةُ بالإذنِ في القتالِ نَسَخَت هذه الآيةَ؛ لأنَّها نَسَخَت أمثالَها بإجماعٍ مِن الأمَّةِ، ويَستحيلُ أن يبقى التَّركُ مع الأمرِ بالقتالِ، فكُلُّ ما في القرآنِ مِن نَظائِرِه فإنَّه جميعَه منسوخٌ به). ((الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم)) (٢/ ٣٠٤). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٥٧٠).
قال الشوكاني: (هذه الآيةُ مقرِّرةٌ أيضًا لمضمونِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾؛ فإنَّ إباحةَ القتالِ لهم هي مِن جملةِ دفْعِ اللهِ عنهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٠).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (أوَّلُ آيةٍ نَزَلت في القتالِ قَولُه تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج ٣٩]، فأذِنَ اللهُ لهم أوَّلًا فيه، ثمَّ كُتِبَ عليهم ثانيًا فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة ٢١٦]). ((الصفدية)) (٢/ ٣١٧). =

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ على نَصرِ المُؤمِنينَ على أعدائِهم لقديرٌ، ولو بغيرِ قِتالٍ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍ ﴾ [محمد: ٤].

﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ المؤمنينَ إنما أُذِن لهم في القتالِ لأجْلِ أنَّهم ظُلِموا؛ بيَّن تعالى ظُلمَهم لهم بهذينِ الوجهينِ: أحدُهما: أنَّهم أخرجوهم من ديارِهم، والثاني: أنَّهم أخرجوهم بسبَبِ أنَّهم قالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[2]، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾.

أي: الذين أخرَجَهم الكُفَّارُ ظُلمًا مِن ديارِهم بغيرِ حَقٍّ يُوجِبُ ذلك، وما كان

= وقال البِقاعي: (﴿ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ﴾ أي: للَّذين فيهم قوَّةُ المدافعة، في المدافعةِ بالقِتالِ بعدَ أنْ كانوا يُمنَعون منه بمكَّة ويُؤمَرون بالصفح). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٥٦).

وقال الشِّنقيطيُّ: (دلَّ قوله: ﴿ يُقَٰتَلُونَ ﴾ على أنَّ المرادُ مَن يَصلُح للقِتالِ منهم دونَ مَن لا يصلُحُ له؛ كالأعمى والأعرجِ، والمريضِ والضعيفِ، والعاجزِ عن السَّفرِ للجهادِ لفَقرِه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

قال السعدي: (﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ فليَسْتنصروه، وليَسْتَعينوا به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٢٩).

لهم ذَنبٌ يَنقِم عليهم أعداؤُهم بسَبَبِه إلَّا أنَّهم قالوا ربُّنا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له![1]

كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾.

أي: ولولا كَفُّ اللهِ المُشرِكينَ بالمُجاهِدينَ المُوحِّدينَ، وشَرْعُه جهادَهم، لهدَّمَ المُشرِكونَ مَواضِعَ العِبادةِ التي اتُّخِذَت قبْلَ الإسلامِ مِن أتباعِ الأديانِ السَّماويَّةِ قبْلَ تَحريفِها وتَبديلِها، فأذِنَ للمُسلِمينَ بالقِتالِ كما أذِنَ لأُمَمِ التَّوحيدِ مِن قَبلِهم؛ لكيلا يطغَى عليهم المُشرِكونَ، ولولا ذلك لَهَدَّموا المعابِدَ الصَّغيرةَ التي للرُّهبانِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧٩، ٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

قال ابن عطية: (قولُه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ...﴾ الآيةَ، تقويةٌ للأمرِ بالقتالِ، وذَكَرَ الحُجَّةَ بالمصلحةِ فيه، وذكر أنَّه متقدِّمٌ في الاسمِ، وبه صلحت الشرائِعُ، واجتمعت المتعَبَّداتُ، فكأنَّه قال: أُذِنَ في القتالِ فلْيُقاتِلِ المؤمنونَ، ولولا القتالُ والجهادُ لتُغُلِّبَ على الحَقِّ في كلِّ أمَّةٍ. هذا أصوبُ تأويلاتِ الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٤).

وقال أيضًا: (ومعاني هذه الأسماءِ هي في الأُمَمِ التي لها كتابٌ على قديمِ الدَّهرِ، ولم يُذكَرْ في هذه المجوسُ ولا أهلُ الإشراكِ؛ لأنَّ هؤلاء ليس لهم ما تجِبُ حمايتُه، ولا يوجَدُ ذِكرُ اللهِ إلَّا عند أهلِ الشَّرائعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٥).

وقال القرطبيُّ: (أي: لولا ما شرَعه اللهُ تعالى للأنبياءِ والمؤمنينَ مِن قِتالِ الأعداءِ لاستولَى أهلُ الشِّركِ، وعطَّلوا ما بَنَتْه أربابُ الدِّياناتِ مِن مواضِعِ العباداتِ، ولكنَّه دفَع بأنْ أوجبَ القِتالَ؛ ليتفرَّغَ أهلُ الدِّينِ للعبادةِ؛ فالجهادُ أمرٌ متقدِّمٌ في الأمَمِ، وبه صَلَحت الشَّرائعُ، واجتَمَعت المُتعبَّداتُ، فكأنَّه قال: أُذِنَ في القتالِ، فليُقاتِلِ المؤمنونَ، ثم قُوِّيَ هذا الأمرُ في القِتال بقولِه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآيةَ، أي: لولا القتالُ والجِهادُ لتُغلِّبَ على الحقِّ في كلِّ أمَّةٍ؛ فمَن =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

أي: ولهَدَّمَ المُشرِكونَ معابِدَ كَبيرةً للنَّصارى، وكنائِسَ لليَهودِ، ومساجِدَ للمُسلِمينَ، يُذكَرُ فيها[1] ....

= استَبشَع مِن النَّصارى والصَّابئين الجِهادَ فهو مُناقِضٌ لِمَذهبِه؛ إذ لولا القتالُ لَمَا بقِيَ الدِّينُ الذي يَذُبُّ عنه، وأيضًا هذه المواضِعُ التي اتُّخِذَت قبْلَ تحريفِهم وتبديلِهم، وقبل نَسْخِ تلك المِلل بالإسلامِ: إنَّما ذُكِرَتْ لهذا المعنى، أي: لولا هذا الدَّفعُ لهُدِّمَ في زَمَنِ موسى الكنائِسُ، وفي زمَن عيسى الصَّوامِعُ والبِيَعُ، وفي زَمَنِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المساجِدُ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٠).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: لولا دِفاعُ النَّاسِ عن مواضِعِ عِبادةِ المُسلِمينَ لضَرِيَ [أي: لاجْتَرأَ] المُشرِكونَ، ولَتَجاوَزوا فيه المُسلِمين إلى الاعتداءِ على ما يُجاوِرُ بلادَهم مِن أهلِ المِلَلِ الأخرى المُناوِيةِ لمِلَّةِ الشِّركِ، ولهدَّموا معابدَهم مِن صوامعَ وبِيَعٍ وصلواتٍ ومساجِدَ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيرًا؛ قصدًا منهم لمحوِ دعوةِ التَّوحيدِ، ومَحْقًا للأديانِ المخالِفةِ للشِّركِ... ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ: لولا ما سبَق قبلَ الإسلامِ مِن إذنِ اللهِ لأُمَمِ التَّوحيدِ بقِتالِ أهلِ الشِّركِ -كما قاتَلَ داوودُ جالوتَ، وكما تغلَّب سُليمانُ على مَلِكةِ سَبَأٍ- لَمَحَق المُشرِكونَ معالِمَ التَّوحيدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(١) قيل: الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ يعودُ على أقرَبِ مذكورٍ، وهو المساجِدُ، وممَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٦).

وقيل: هو عائدٌ على جميعِ المعابِدِ المذكورةِ: (الصَّوامِعُ، والبِيَعُ، والصَّلواتُ، والمساجِدُ)، وممن قال بذلك: السعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤١).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفةٌ، والغالب في الصِّفة الواردة بعد جُمَلٍ متعاطفة فيها أنْ تَرجِع إلى ما في تلك الجُمل من الموصوف بالصِّفة؛ فلذلك قيل =

اسمُ اللهِ كَثيرًا(١).

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

أي: ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يجاهِدُ في سَبيلِه؛ لِتَكونَ كَلِمتُه هي العُليا(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لقَوِيٌّ كاملُ القوةِ، عزيزٌ منيعٌ، غالبٌ لا يُغلَبُ ولا يُقهَرُ، ومَن كان القويُّ العزيزُ ناصِرَه، فهو المنصورُ ولو كان هو الأضعَفَ، وعَدُوُّه هو المقهورُ

= برُجوع صِفة ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ﴾ إلى ﴿صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾؛ للأربعة المذكورات قَبْلَها، وهي مُعاد ضمير ﴿فِيهَا﴾. وفائدةُ هذا الوصف الإيماءُ إلى أنَّ سبب هدْمِها أنَّها يُذكَر فيها اسمُ الله كثيرًا، أي: ولا تُذكَر أسماءُ أصنام أهل الشرك؛ فإنَّهم لَمَّا أخرجوا المسلمين بلا سببٍ إلَّا أنهم يَذْكرون اسمَ الله، فيقولون: ربُّنا الله؛ لِمَحْوِ ذِكرِ اسمِ الله مِن بلدهم؛ لا جرَمَ أنَّهم يُهدِّمون المواضعَ المجعولةَ لِذكر اسم الله كثيرًا، أي: دون ذِكر الأصنام). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٢، ٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٥).

وقال الشِّنقيطيُّ: (بيَّن اللهُ جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّه أقسَمَ لَيَنصُرَنَّ مَن يَنصُرُه، ومعلومٌ أنَّ نَصْرَ اللهِ إنَّما هو باتِّباعِ ما شرَعه؛ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، ونُصرةِ رُسُلِه وأتْباعِهم، ونُصرةِ دينِه، وجِهادِ أعدائِه وقَهرِهم؛ حتى تكونَ كَلِمتُه جلَّ وعلا هي العُليا، وكلمةُ أعدائِه هي السُّفلى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٦٥).

ولو كان هو الأقوى[١].

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصَفَ اللهُ سُبحانه نفْسَه بما يقتضي تمكينَ مَنصورِه الذي يَنصُرُه؛ وصَفَهم بما يُبيِّنُ أنَّ قتالَهم له لا لهم، بعْدَ أن وصَفَهم بأنَّهم أُوذوا بالإخراجِ مِن الدِّيارِ، الذي يعادِلُ القَتلَ، فقال[٢]:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

أي: الذين إنْ وَطَّنَّا لهم في البلادِ فقَهَروا المُشرِكينَ، وصارت لهم السُّلطةُ والغَلَبةُ والمُلْكُ، أقاموا الصَّلاةَ بحُدودِها وأركانِها وشُروطِها وواجباتِها، وأعطَوا زكاةَ الأموالِ لِمُستَحِقِّيها[٣].

﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾.

أي: وأمَروا النَّاسَ بالإيمانِ وتَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، ونَهَوهم عن الكُفرِ والشِّركِ به ومَعصِيتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٠).

قال القرطبي: (قال الضحَّاكُ: هو شَرطٌ شَرَطه اللهُ عَزَّ وجَلَّ على مَن آتاه المُلْكَ. وهذا حَسَنٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٧)، ((تفسير =

﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾.

أي: وإلى الله وَحْدَه تَرجِعُ أمورُ الخَلقِ، وتَصيرُ إليه سُبحانَه(١).

= ابن عطية)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠).

قال السعدي: (﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهذا يَشمَلُ كُلَّ معروفٍ حُسنُه شَرعًا وعَقلًا مِن حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ الآدميِّينَ ﴿وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ كُلِّ مُنكَرٍ شَرعًا وعَقلًا معروفٍ قُبحُه، والأمرُ بالشَّيءِ والنَّهيُ عنه يدخُلُ فيه ما لا يَتِمُّ إلَّا به؛ فإذا كان المعروفُ والمُنكَرُ يتوقَّفُ على تعلُّمٍ وتعليمٍ أجبَروا النَّاسَ على التعَلُّمِ والتَّعليمِ، وإذا كان يَتوقَّفُ على تأديبٍ مُقدَّرٍ شَرعًا أو غيرِ مُقدَّرٍ -كأنواعِ التَّعزيرِ- قاموا بذلك، وإذا كان يَتوقَّفُ على جَعْلِ أُناسٍ مُتصدِّين له لزِمَ ذلك، ونحوُ ذلك ممَّا لا يتمُّ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنكَرِ إلَّا به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠).

قيل: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: في الآخرةِ. وممن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والواحدي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٦٢). ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٤٤).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: ولله آخرُ أمورِ الخلقِ؛ يعني: أنَّ إليه مصيرَها في الثوابِ عليها، والعقابِ في الدارِ الآخرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٨).

وقال البغوي: (يعني: آخرُ أمورِ الخلقِ ومَصيرُهم إليه؛ يعني: يُبْطَلُ كلُّ مُلْكٍ سِوَى ملكِه، فتصيرُ الأمورُ كلُّها إليه، بلا مُنازِعٍ ولا مُدَّعٍ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٤٤).

وقال السعديُّ: (﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: جميع الأمور تَرجِع إلى الله، وقد أخبر أنَّ العاقبة للتقوى؛ فمَن سلَّطه اللهُ على العِباد من الملوك، وقام بأمْرِ الله، كانتْ له العاقبةُ الحميدة، والحالةُ الرشيدة، ومَن تَسلَّط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوَى نفْسِه، فإنَّه وإنْ حصَل له مُلكٌ مُوقَّتٌ، فإنَّ عاقبتَه غيرُ حميدة؛ فولايتُه مشؤومة، وعاقبتُه مذمومة). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠).

وقال البِقاعي: (﴿وَلِلَّهِ﴾، أي: المَلِكِ الأعلى المحيط بكُلِّ شيء ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ فتَمكينُهم كائنٌ لا محالةَ، لكنْ ذِكرُه للعاقبةِ وطيُّه للبادئةِ مُنبِّهٌ على أنه تعالى يَجعلُ للشيطان -كما هو المشاهَد في الأغلب- حظًّا في البادئة؛ ليتبينَ الصادقُ من الكاذب، والمزلزلُ مِن الثابت، وأمَّا العاقبةُ فهي مُتمحِّضة له إلى أنْ يكونَ آخِرُ ذلك القيامةَ التي لا يكونُ لأحدٍ فيها أمرٌ، حتى إنَّه =

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٩ - ١١١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا إخبارٌ ووَعدٌ وبِشارةٌ مِن اللهِ للذين آمنوا، وكُلُّ مُؤمِنٍ له مِن هذه المدافَعةِ والفَضيلةِ بحَسَبِ إيمانِه، فمُستَقِلٌّ ومُستَكثِرٌ[١]، فبحَسَبِ إيمانِه يكونُ دِفاعُ اللهِ عنه؛ فإنْ كَمَل إيمانُه كان دَفْعُ اللهِ عنه أتمَّ دَفعٍ، وإنْ مَزَج مُزِجَ له، وإن كان مرَّةً ومرَّةً فاللهُ له مرَّةً ومرَّةً، كما قال بَعضُ السَّلَفِ: مَن أقبَلَ على اللهِ بكُلِّيَّتِه أقبل اللهُ عليه جُملةً، ومن أعرَضَ عن الله بكُلِّيَّتِه أعرضَ اللهُ عنه جملةً، ومن كان مرَّةً ومرَّةً فاللهُ له مرَّةً ومرَّةً[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن أخلَصَ لله، صوَّبَ النَّاسُ إليه سِهامَ مَكرِهم، ولم يَدَعوا في أذاهُ شَيئًا مِن جُهدِهم[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ

= لا يَنطِقُ أحدٌ إلَّا بإذنٍ خاصٍّ. ((نظم الدرر)) (١٣/ ٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٧).

ﱣﭐﻟۡﻤُﻨﻜَﺮِﱢ فيه التَّنبيهُ على الشُّكرِ على نِعمةِ النَّصرِ، بأن يأتُوا بما أمَرَ اللهُ به مِن أصولِ الإسلامِ؛ فإنَّ بذلك دوامَ نَصرِهم، وانتِظامَ عَقدِ جماعتِهم، والسَّلامةَ مِن اختلالِ أمرِهم، فإن حادُوا عن ذلك فقد فرَّطوا في ضَمانِ نَصرِهم، وأمْرُهم إلى اللهِ؛ فأمَّا إقامةُ الصَّلاةِ فلِدَلالتِها على القيامِ بالدِّينِ وتجديدٍ لِمَفعولِه في النفوسِ، وأمَّا إيتاءُ الزَّكاةِ فلِيَكونَ أفرادُ الأمَّةِ مُتقاربينَ في نظامِ مَعاشِهم، وأمَّا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنكَرِ فلِتَنفيذِ قوانينِ الإسلامِ بين سائِرِ الأمَّةِ مِن تلقاءِ أنفُسِهم(١).

٤- في قوله تعالى: ﱣﭐﻭَﻟَﻴَﻨﺼُﺮَﻥَّ ٱﻟﻠَّﻪُ ﻣَﻦ ﻳَﻨﺼُﺮُﻩُۥٓۚ ﺇِﻥَّ ٱﻟﻠَّﻪَ ﻟَﻘَﻮِﻯٌّ ﻋَﺰِﻳﺰٌ ٤٠ ٱﻟَّﺬِﻳﻦَ ﺇِﻥ ﻣَّﻜَّﻨَّٰﻬُﻢۡ ﻓِﻰ ٱﻟۡﺄَﺭۡﺽِ ﺃَﻗَﺎﻣُﻮﺍْ ٱﻟﺼَّﻠَﻮٰﺓَ ﻭَﺀَﺍﺗَﻮُﺍْ ٱﻟﺰَّﻛَﻮٰﺓَ ﻭَﺃَﻣَﺮُﻭﺍْ ﺑِﭑﻟۡﻤَﻌۡﺮُﻭﻑِ ﻭَﻧَﻬَﻮۡﺍْ ﻋَﻦِ ٱﻟۡﻤُﻨﻜَﺮِﱢ بيانُ شُروطِ النَّصرِ وأسبابِه، فإذا تمَّت هذه الأسبابُ حَصَل النَّصرُ، أمَّا إذا تخَلَّف واحِدٌ منها فإنَّه يَفوتُ النَّصرُ بقَدرِ ما تخَلَّفَ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﱣﭐﻭَﻟَﻴَﻨﺼُﺮَﻥَّ ٱﻟﻠَّﻪُ ﻣَﻦ ﻳَﻨﺼُﺮُﻩُۥٓۚ ﺇِﻥَّ ٱﻟﻠَّﻪَ ﻟَﻘَﻮِﻯٌّ ﻋَﺰِﻳﺰٌ ٤٠ ٱﻟَّﺬِﻳﻦَ ﺇِﻥ ﻣَّﻜَّﻨَّٰﻬُﻢۡ ﻓِﻰ ٱﻟۡﺄَﺭۡﺽِ ﺃَﻗَﺎﻣُﻮﺍْ ٱﻟﺼَّﻠَﻮٰﺓَ ﻭَﺀَﺍﺗَﻮُﺍْ ٱﻟﺰَّﻛَﻮٰﺓَ ﻭَﺃَﻣَﺮُﻭﺍْ ﺑِﭑﻟۡﻤَﻌۡﺮُﻭﻑِ ﻭَﻧَﻬَﻮۡﺍْ ﻋَﻦِ ٱﻟۡﻤُﻨﻜَﺮِۗ ﻭَﻟِﻠَّﻪِ ﻋَٰﻘِﺒَﺔُ ٱﻟۡﺄُﻣُﻮﺭِﱢ دَليلٌ على وُجوبِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ لأنَّ نُصرةَ اللهِ -لا محالةَ- نُصرةُ دينِه؛ إذ هو جلَّ وتعالى قَوِيٌّ عزيزٌ -كما قال- لا يُرامُ، فإنَّما الواجِبُ على أهلِ دينِه نُصرةُ دينِه الذي شرَعَه لهم، ولا وصولَ إليه إلَّا بإيجابِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ إذ لو كانا غيرَ مفترَضينِ لَوَسِعَ القعودُ عنهما، وارتفعتِ المآثِمُ في تضييعِهما مِن أجلِ أنَّ أحدًا لا يُجبَرُ على عَمَلِ تَطوُّعٍ، ولا يُحرجُ بترَكِه، وفي ذلك زوالُ النُّصرةِ عن دينِ اللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٥).

ودخولُ الوَهَن عليه، وسببُه قعودُ الآمِرينَ بالمعروفِ والنَّاهينَ عن المُنكَرِ عنه، وهم قادِرونَ على التَّغييرِ، فلم يَجُزْ أن يُسَمَّى نهوضُهم إليه تطَوُّعًا(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وجهُ المُفاعَلةِ (المُدافَعة): أنَّ الكُفَّارَ يَستعمِلون كُلَّ ما في إمكانِهم لإضرارِهم بالمؤمِنينَ، وإيذائِهم، واللهُ جلَّ وعلا يَدْفَعُ كَيدَهم عن المُؤمنين؛ فكان دَفْعُه جلَّ وعلا لقُوَّةٍ عَظيمةٍ، أهلُها في طُغيانٍ شَديدٍ، يُحاولونَ إلحاقَ الضَّرَرِ بالمُؤمنَينَ، وبهذا الاعتبارِ كان التعبيرُ بالمفاعلةِ في قوله: ﴿يُدَٰفِعُ﴾، وإنْ كان جلَّ وعلا قادرًا على إهلاكِهم، ودفْعِ شَرِّهم عن عِبادِه المُؤمِنينَ(٢).

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الخَوَّان) و(الكَفور) كِلاهما صِيغةُ مُبالَغةٍ، والمُقرَّرُ في عِلمِ العَربيَّةِ: أنَّ نفْيَ المُبالغةِ في الفِعلِ لا يَستلزِمُ نفْيَ أصْلِ الفِعلِ؛ فلو قُلتَ: زيدٌ ليسَ بقَتَّالٍ للرِّجالِ، فقدْ نَفيتَ مُبالَغتَه في قتْلِهم، ولم يَستلزِمْ ذلك أنَّه لم يَحصُلْ منه قتْلٌ لبعضِهم، ولكنَّه لم يُبالِغْ في القَتْلِ؛ وعلى هذه القاعدةِ العربيَّةِ المعروفةِ: فإنَّ الآيَةَ قدْ صرَّحتْ بأنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُبالِغينَ في الكُفرِ والمُبالِغينَ في الخِيانةِ، ولم تَتعرَّضْ لِمَنْ يتَّصِفُ بمُطلَقِ الخِيانةِ ومُطلقِ الكُفرِ مِن غَيرِ مُبالَغةٍ فيهما، ولا شكَّ أنَّ اللهَ يُبغِضُ الخائنَ مُطلقًا، والكافِرَ مُطلقًا، وقدْ أوْضَح -جلَّ وعلا- ذلك في بعضِ المواضِعِ، فقال في الخائنِ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال في الكافِرِ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٢).

يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] [آل عمران: ٣٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ الكَريمة تَدُلُّ على أنَّ قِتالَ الكُفَّارِ مَأذونٌ فيه لا واجِبٌ، وقد جاءت آياتٌ تَدُلُّ على وجوبِه؛ كقَولِ الله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ [التوبة:٣٦]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ؟

الجَوابُ ظاهِرٌ: وهو أنَّه تعالى أَذِنَ فيه أولًا مِن غيرِ إيجابٍ، ثمَّ أوجَبَ بعد ذلك، ويدُلُّ لهذا ما قاله ابنُ عَبَّاسٍ، وعُروةُ بنُ الزُّبَيرِ، وزَيدُ بنُ أسلَمَ، ومُقاتِلُ بنُ حَيَّانَ، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وغَيرُ واحدٍ -كما نقَلَه عنهم ابنُ كَثيرٍ وغَيرُه- مِن أنَّ آيةَ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ﴾ هي أوَّلُ آيةٍ نَزَلت في الجِهادِ، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[2].

٤- إنَّ اللهَ تبارك وتعالى لِعِظَمِ حِكمتِه في التَّشريعِ إذا أراد أن يُشَرِّعَ أمرًا شاقًّا على النُّفوسِ كان تَشريعُه على سبيلِ التَّدريجِ؛ لأنَّ إلزامَه بَغتةً في وقتٍ واحدٍ مِن غيرِ تدريجٍ: فيه مشقَّةٌ عظيمةٌ على الذين كُلِّفوا به. قالوا: فمِن ذلك الجِهادُ؛ فإنَّه أمرٌ شاقٌّ على النُّفوسِ؛ لِما فيه من تعريضِها لأسبابِ الموتِ، ومع تعريضِ النُّفوسِ فيه لأعظَمِ أسبابِ الموتِ فإنَّه يُنفَقُ فيه المالُ أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف: ١١]، قالوا: ولَمَّا كان الجِهادُ فيه هذا مِن المشَقَّةِ، وأراد اللهُ تَشريعَه، شَرَعه تدريجًا، فأذِنَ فيه أوَّلًا مِن غيرِ إيجابٍ، بقَولِه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ الآية [الحج: ٣٩]، ثمَّ لَمَّا

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٨).

استأنَسَت به نفوسُهم بسَبَبِ الإذنِ فيه أوجب عليهم قتالَ مَن قاتَلَهم دونَ مَن لم يُقاتِلْهم، بقَولِه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وهذا تدريجٌ مِن الإذنِ إلى نوعٍ خاصٍّ مِن الإيجابِ، ثمَّ لَمَّا استأنَسَت نفوسُهم بإيجابِه في الجُملةِ أوجَبَه عليهم إيجابًا عامًّا جازِمًا في آياتٍ مِن كِتابِه؛ كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ [التوبة: ٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقَولِه تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]... إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ(٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ يُشيرُ إلى مَعنيَينِ:

أحدُهما: أنَّ فيه الإشارةَ إلى وعْدِه للنبيِّ وأصحابِه بالنَّصرِ على أعدائِهم، كما قال قَبْلَه قريبًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

والمعنى الثاني: أنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَنصُرَ المُسلِمينَ على الكافِرينَ مِن غَيرِ قِتالٍ؛ لقُدرتِه على إهلاكِهم بما شاءَ، ونُصرةِ المُسلِمينَ عليهم بإهلاكِه إيَّاهم، ولكنَّه شرَعَ الجِهادَ لحِكَمٍ؛ منها: اختبارُ الصادِقِ في إيمانِه، وغيرِ الصادِقِ فيه. ومنها: تَسهيلُ نَيلِ فَضلِ الشَّهادةِ في سَبيلِ اللهِ بقَتْلِ الكُفَّارِ لشُهداءِ المُسلِمينَ، ولولا ذلك لَمَا حصَّلَ أحدٌ فضْلَ الشهادةِ في سَبيلِ اللهِ، إلى غيرِ ذلك(٤).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يدُلُّ على حِكمةِ الجِهادِ، وأنَّ المَقصودَ منه إقامةُ دِينِ اللهِ، وذَبُّ الكُفَّارِ المُؤذِينَ للمُؤمِنينَ، البادِئينَ لهم بالاعتِداءِ، عن ظُلمِهم واعتِدائِهم- والتمَكُّنُ

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

مِن عِبادةِ الله، وإقامةُ الشَّرائعِ الظَّاهِرةِ[(١)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ فيه تَحريضٌ على القِتالِ المأذونِ فيه قَبْلُ، وأنَّه تعالى أجرى العادةَ بذلك في الأُمَمِ الماضيةِ، بأن ينتَظِمَ به الأمرُ، وتَقومَ الشَّرائعُ، وتُصانَ المتعَبَّداتُ مِنَ الهَدمِ، وأهلُها مِن القَتلِ والشَّتاتِ[(٢)].

٨- قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ فلولا مُدافَعةُ اللهِ النَّاسَ بَعضَهم ببَعضٍ بأسبابٍ مُتعدِّدةٍ، وطُرُقٍ مُتنوِّعةٍ قَدَريَّةٍ وشَرعيَّةٍ، وأعظَمُها وأجَلُّها وأزكاها الجِهادُ في سَبيلِه- لاستولى الكُفَّارُ الظَّالِمون، ومَحَقوا أديانَ الرُّسُلِ، فقَتَلوا المؤمِنينَ بهم، وهَدَّموا مَعابِدَهم، ولكِنَّ ألطافَ اللهِ عظيمةٌ، وأياديَه جَسيمةٌ، وبهذا وشِبْهِه يُعرَفُ حِكمةُ الجِهادِ الدِّينيِّ، وأنَّه مِن الضَّروريَّاتِ، لا كقِتالِ الظَّلَمةِ المبنيِّ على العَداواتِ والجَشَعِ، والظُّلمِ والاستِعبادِ للخَلْقِ، بل الجِهادُ الإسلاميُّ مَرماه وغَرَضُه الوحيدُ إقامةُ العَدلِ، وحُصولُ الرَّحمةِ، واستِعبادُ الخَلقِ لخالِقِهم، وأداءُ الحُقوقِ كُلِّها، ونَصرُ المظلومينَ، وقَمعُ الظَّالِمين، ونَشرُ الصَّلاحِ والإصلاحِ المُطلَقِ بكُلِّ وَجهٍ واعتِبارٍ، وهو مِن أعظَمِ محاسِنِ دينِ الإسلامِ[(٣)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ مِن الفَسادِ في الأرضِ هَدْمَ بيوتِ العبادةِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ١٠٩).

ﭽ ﮃ ﭼ [البقرة: ٢٥١]، فما في آيةِ (الحجِّ) هنا تفسيرٌ لقولِه تعالى في سورةِ (البقرة): ﭽ ﮁ ﮂ ﭼ؛ أو هو ذكرٌ لنوعٍ مِن الفسادِ(١). وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ هذه المواضعَ المذكورةَ لا يجوزُ أن تُهْدَمَ على مَن كانَ له ذِمَّةٌ أو عهدٌ مِن الكفَّارِ(٢).

١٠- قولُه: ﭽ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭼ لقائلٍ أنْ يقولَ: أيُّ مِنَّةٍ على المؤمنينَ في حِفظِ الصَّوامعِ والبِيَعِ والصَّلَوَاتِ عن الهَدْمِ، حتَّى امتنَّ عليهم بذلك؟!

فالجواب: المِنَّةُ عليهم فيها أنَّ الصَّوامعَ والبِيَعَ في حَرسِهم وحِفظِهم؛ لأنَّ أهلَهما مُحترَمون. أو المرادُ لهدِّمتْ صوامعُ وبِيعٌ في زَمَن عيسى عليه السَّلام، وكَنائِسُ في زمَن موسى عليه السَّلام، ومَساجِدُ في زَمنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فالامتنانُ على أهلِ الأديانِ الثلاثةِ، لا على المؤمنين خاصَّةً(٣).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﭽ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭼ فلولا دفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببَعضٍ، لاسْتولَى الكُفَّارُ على المُسلِمينَ، فخرَّبوا مَعابِدَهم، وفَتنوهم عن دِينِهم؛ فدلَّ هذا على أنَّ مما شُرِع له الجِهادُ دَفْعَ الصائِلِ والمُؤذِي، ودَلَّ ذلك على أنَّ البُلدانَ التي حَصَلتْ فيها الطُّمأنينةُ بعِبادةِ الله، وعَمَرتْ مَساجِدُها، وأُقيمَت فيها شَعائِرُ الدينِ كُلُّها؛ مِن فَضائِلِ المجاهِدينَ، وببَركتِهم دَفَعَ اللهُ عنها الكافِرينَ(٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﭽ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ

(١) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٣، ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٩).

﴿وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ لم يَذكُرْ بُيوتَ الشِّركِ، كبُيوتِ الأصنامِ والمَشاهِدِ، ولا ذكَرَ بُيوتَ النَّارِ؛ لأنَّ الصَّوامِعَ والبِيَعَ لأهلِ الكتابِ، فالممدوحُ من ذلك ما كان مبنيًّا قبل النَّسخِ والتَّبديلِ، كما أثنى على اليَهودِ والنَّصارى والصَّابِئينَ الذين كانوا قبْلَ النَّسخِ والتَّبديلِ يُؤمِنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ ويَعمَلونَ صالِحًا، بخلافِ بُيوتِ الأصنامِ وبُيوتِ النَّارِ، وبُيوتِ الصَّابئةِ المُشرِكينَ[١].

١٣- الجِهادُ أمرٌ مُتقدِّمٌ في الأُمَمِ، وبه صَلَحَت الشَّرائِعُ، واجتَمَعت المتعَبَّداتُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ﴾[٢].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ فيه تَرغيبٌ في الجهادِ مِن حَيثُ وَعَدَهم النَّصرَ[٣].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فيه أخذُ العَهدِ على مَن مكَّنَه اللهُ أن يَفعَلَ ما رُتِّبَ على التَّمكينِ في الآيةِ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ دلالةٌ على أنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ مِن أسبابِ

(١) يُنظر: ((الرد على البكري)) (٢/ ٥٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٨).

النَّصرِ[(١)].

١٧- الحُكمُ بغَيرِ ما أنزَلَ اللهُ مِن أعظَمِ أسبابِ تَغييرِ الدُّوَلِ، ومَن أراد اللهُ سَعادتَه جعَلَه يَعتبِرُ بما أصاب غَيرَه، فيَسلُكُ مَسلَكَ مَن أيَّدَه اللهُ ونصَرَه، ويجتَنِبُ مَسلَكَ مَن خذَلَه اللهُ وأهانَه؛ فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ في كتابه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾، فقد وعَدَ اللهُ بنَصرِ مَن يَنصُرُه، ونَصْرُه هو نَصرُ كِتابِه ودِينِه ورَسولِه، لا نَصرُ مَن يَحكُمُ بغَيرِ ما أنزَلَ اللهُ، ويتكَلَّمُ بما لا يعلَمُ[(٢)].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾ دَليلٌ على أنَّه لا وَعْدَ مِن اللهِ بالنَّصرِ إلَّا مع إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ فالذين يُمكِّنُ اللهُ لهم في الأرضِ ويَجعَلُ الكَلِمةَ فيها والسُّلطانَ لهم، ومع ذلك لا يُقيمونَ الصَّلاةَ ولا يُؤتُونَ الزَّكاةَ، ولا يأمُرونَ بالمَعروفِ ولا يَنهَونَ عن المُنكَرِ- فليس لهم وَعدٌ مِنَ اللهِ بالنَّصرِ؛ لأنَّهم ليسوا مِن حِزبِه، ولا مِن أوليائِه الذين وعَدَهم بالنَّصرِ، بل هم حِزبُ الشَّيطانِ وأولياؤُه[(٣)]!

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ هذه الآياتُ تدُلُّ على صِحَّةِ خِلافةِ الخُلَفاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (١/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٦).

الرَّاشِدينَ؛ لأنَّ اللهَ نَصَرَهم على أعدائِهم، لأنَّهم نَصَروه فأقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ، وأمَروا بالمعروفِ ونَهَوا عن المُنكَرِ، وقد مَكَّنَ لهم واستخلَفَهم في الأرضِ، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الآيةَ [النور: ٥٥]، والحَقُّ أنَّ الآياتِ المذكورةَ تَشمَلُ أصحابَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكُلَّ مَن قام بنُصرةِ دِينِ اللهِ على الوَجهِ الأكمَلِ(١).

٢٠- قال تعالى: ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ جَمَعتِ الآيةُ بينَ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ -مع أنَّ كلًّا منهما آيِلٌ إلى الآخَرِ- باعتبارِ أوَّلِ ما تَتوجَّهُ إليه نُفوسُ النَّاسِ عندَ مُشاهدَةِ الأعمالِ، ولِتَكونَ مَعرفةُ المعروفِ دَليلًا على إنكارِ المُنكَرِ وبالعكسِ؛ إذ بضِدِّها تَتمايَزُ الأشياءُ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، جوابًا لسُؤالٍ يَخطُرُ في نُفوسِ المُؤمنينَ، ينشَأُ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ. والكلامُ مُوجَّهٌ إلى المُؤمنينَ؛ ولذلك فافتِتاحُه بحَرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ) إمَّا لمُجرَّدِ تَحقيقِ الخبرِ، وإمَّا لِتَنزيلِ غيرِ المُتردِّدِ مَنزِلةَ المُتردِّدِ؛ لشِدَّةِ انتظارِهم النَّصرَ واستبطائِهم إيَّاهُ، والتَّعبيرُ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِمَا فيه مِن الإيماءِ إلى وَجهِ بناءِ الخبَرِ، وأنَّ دِفاعَ اللهِ عنهم لأجْلِ إيمانِهم(٣).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لم يَذكُرْ تعالى ما يَدفَعُه عنهم؛ لِيَكونَ أفخَمَ وأعظَمَ وأعمَّ[١]. أو حُذِفَ مَفعولُ ﴿يُدَٰفِعُ﴾؛ لدَلالةِ المَقامِ، أي: يُدافِعُ الكافرينَ الخائنينَ[٢].

- وصِيغةُ المُفاعَلةِ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ إمَّا للمُبالَغةِ، أو الدَّلالةِ على تَكرُّرِ الدَّفعِ؛ فإنَّها قد تُجرَّدُ عن وُقوعِ الفِعْلِ المُتكرِّرِ مِن الجانبَينِ؛ فيَبْقى تَكرُّرُه كما في المُمارَسةِ، أي: يُبالِغُ في دَفْعِ غائلةِ المُشركينَ وضَرَرِهم الَّذي مِن جُملَتِه الصَّدُّ عَن سَبيلِ اللهِ مُبالَغةَ مَن يُغالِبُ فيه، أو يَدفَعُها عنهم مَرَّةً بعْدَ أُخرَى حسبما تَجدَّدَ منهم القَصْدُ إلى الإضرارِ بالمُسلمينَ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ تَعليلٌ لِمَا في ضِمْنِ الوعدِ الكريمِ من الوعيدِ للمُشركينَ، وإيذانٌ بأنَّ دَفْعَهم بطَريقِ القَهْرِ والخِزْيِ[٤].

- وأفادتْ (كل) في سِياقِ النَّفْيِ عُمومَ نَفْيِ مَحبَّةِ اللهِ عن جَميعِ الكافرينَ[٥].

- وصِيغَةُ المُبالَغةِ في ﴿خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾؛ لبَيانِ أنَّهم كذلك، لا لتَقييدِ البُغْضِ بغايةِ الخِيانةِ والكُفْرِ، أو للمُبالَغةِ في نَفْيِ المَحبَّةِ على اعتبارِ النَّفْيِ أوَّلًا، وإيرادِ معنى المُبالَغةِ ثانيًا[٦].

وقيل: أَتى بالصِّفتَينِ على صيغة المُبالغةِ؛ لأنَّ نقائصَ الإنسانِ لا يُمكِنُه أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨).

يَفعلَها خاليةً عن المبالَغةِ؛ لأنَّه يَخونُ نفْسَه بالعَزمِ أوَّلًا، والفِعلِ ثانيًا، وغَيْرَه مِنَ الخَلْقِ ثالثًا، وكذا يَخون ربَّه سُبحانَه، وهكذا في الكُفرِ وغَيرِه، ولَمَّا كانت الخيانةُ مَنبَعَ النَّقائصِ، كانت المبالَغةُ فيها أكثَرَ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فالمأْذونُ فيه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المذكورِ عليه؛ فإنَّ مُقاتَلةَ المُشركينَ إيَّاهُم دالَّةٌ على مُقاتلَتِهم إيَّاهم دَلالةً نيِّرةً[٢].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ وَعْدٌ لهم بالنَّصرِ، وتأْكيدٌ لِمَا مَرَّ من العِدَةِ الكريمةِ بالدَّفعِ، وتَصريحٌ بأنَّ المُرادَ به ليس مُجرَّدَ تَخليصِهم مِن أيدي المُشركينَ، بل تَغليبُهم وإظْهارُهم عليهم. والإخبارُ بقُدرتِه تعالى على نَصْرِهم واردٌ على سَنَنِ الكِبرياءِ، وتأْكيدُه بكلمةِ التَّحقيقِ (إنَّ) واللَّامِ في ﴿لَقَدِيرٌ﴾؛ لِمَزيدِ تَحقيقِ مَضمونِه، وزِيادةِ تَوطينِ نُفوسِ المُؤمنينَ، أو تَعريضٌ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ المُتردِّدِ في ذلك؛ لأنَّهم استبْطَؤوا النَّصرَ[٣]. وأصْلُ الكلامِ: (قاتِلوا الَّذين ظَلَموكم، وإنِّي أنصُرُكم الْبَتَّةَ)؛ فعُدِلَ إلى لَفْظِ العَظمةِ والكِبْرياءِ بقولِه: ﴿أُذِنَ﴾؛ لِمَا عُلِمَ أنَّ الآذِنَ في مِثْلِ هذا الخِطابِ مَن هو. وقيل في جانبِ المَظلومِ: ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، كأنَّه لا يُريدُ المُخاطَبينَ، يعني: لِمَن هذا شأْنُه وعادتُه[٤].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٤٩٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الاستثناءُ فيه مُنْقطِعٌ، بمعنى: لكنْ أُخْرِجوا بقولِهم: ربُّنا اللهُ. أو هو مِن بابِ تَعقيبِ المَدْحِ بما يُشْبِهُ الذَّمَّ؛ فيُسْتفادُ مِن ذلك تأْكيدُ عدَمِ الحقِّ عليهم بسببَ استِقراءِ ما قد يُتخيَّلُ أنَّه حَقٌّ عليهم. وهذا مِن تأْكيدِ الشَّيءِ بما يُوهِمُ نَقْضَه[(١)].

- قولُه: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ اعتراضٌ بين جُملةِ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] إلخ، وبينَ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ [الحج: ٤١] إلخ؛ فالواوُ في قولِه: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ ...﴾ اعتراضيَّةٌ، وتُسمَّى واوَ الاستئنافِ، ومُفادُ هذه الجُملةِ: تَعليلُ مَضمونِ جُملةِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ إلخ؛ فتكونُ هذه الجُملةُ تَذييلًا لجُملةِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ ...﴾ ذِكْرُ الصَّوامعِ والبِيَعِ إدماجٌ[(٣)]؛

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) الإدماجُ، لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ؛ كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، فهذا مِن إدماجِ غَرضٍ في غَرضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم =

لِيَنْتَبِهوا إلى تأْييدِ المُسلمينَ؛ فالتَّعريفُ في (النَّاس) تَعريفُ العهْدِ، أي: النَّاسَ الَّذين يَتقاتلونَ، وهم المُسلمونَ ومُشرِكو أهْلِ مكَّةَ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: لولا ما سبَقَ قبْلَ الإسلامِ مِن إذْنِ اللهِ لِأُمَمِ التَّوحيدِ بقِتالِ أهْلِ الشِّركِ، لَمَحَقَ المُشرِكونَ معالِمَ التَّوحيدِ؛ فتكونَ هذه الجُملةُ تَذييلًا لجُملةِ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩]، أي: أُذِنَ للمُسلمينَ بالقِتالِ كما أُذِنَ لِأُمَمٍ قبْلَهم؛ لكَيْلا يَطْغى عليهم المُشرِكون كما طَغَوا على مَن قبْلَهم حين لم يأذَنِ اللهُ لهم بالقتالِ؛ فالتَّعريفُ في (النَّاس) تَعريفُ الجِنْسِ[1].

- قولُه: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ لمَّا كانتِ المواضِعُ كثيرةً ناسَبَ مَجيءُ التَّضعيفِ ﴿لَهُدِّمَتْ﴾؛ لكَثرةِ المواضِعِ؛ فتكرَّرَ الهَدْمُ لتَكثيرِها، والأظهَرُ أنَّه قُصِدَ بها المُبالَغةُ في ذِكْرِ المُتعبَّداتِ[2]. أو للمُبالَغةِ في الهَدْمِ، أي: لَهُدِّمَت هَدْمًا ناشِئًا عن غَيظٍ بحيث لا يُبْقُون لها أثَرًا[3].

- وفيه تَرتيبٌ حَسنٌ؛ حيث قُدِّمَ الصَّوامِعُ في الذِّكْرِ على ما بعْدَه؛ لأنَّ صَوامِعَ الرُّهبانِ كانت أكثَرَ في بلادِ العرَبِ مِن غَيرِها، وكانت أشهَرَ عنْدَهم؛ لأنَّهم كانوا يَهْتَدون بأضوائِها في أسفارِهم، ويأْوونَ إليها، وتَعقيبُها بذِكْرِ البِيَعِ للمُناسَبةِ؛ إذ هي مَعابِدُ النَّصارى مِثْلُ الصَّوامعِ. وأمَّا ذِكْرُ الصَّلواتِ

= البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٧، ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٧).

بعْدَهما؛ فلأنَّه قد تهيَّأَ المَقامُ لذِكْرِها. وتأْخيرُ المساجِدِ: إمَّا لأجْلِ قِدَمِ تلك وحُدوثِ هذه، وإمَّا لانتقالٍ مِن شَريفٍ إلى أشرَفَ، وإمَّا لأنَّها أعَمُّ، وشأْنُ العُمومِ أنْ يُعَقَّبَ به الخُصوصُ؛ إكْمالًا للفائدةِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ خُصَّتِ المساجِدُ بالصِّفةِ المادحةِ ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾؛ دَلالةً على فَضْلِها وفَضْلِ أهْلِها[٢]، وهذا على القولِ بأنَّ الضميرَ في ﴿فِيهَا﴾ يرجِعُ إلى (مَسَاجِدُ).

- قولُه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ فيه تأكيدٌ لِمَا وعَدَهُ مِن إظهارِ أوليائِه وإعلاءِ كَلِمَتِهم[٣]؛ حيث أُكِّدَ بلامِ القَسَمِ ونُونِ التَّوكيدِ في ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾. وهذه الجُملةُ تَذييلٌ؛ لِمَا فيها مِن العُمومِ الشَّاملِ للمُسلمينَ الَّذين أخرَجَهم المُشرِكون[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، أي: كان نَصْرُهم مَضْمونًا؛ لأنَّ ناصِرَهم قَديرٌ على ذلك بالقُوَّةِ والعِزَّةِ[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بَدلٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وما بينهما اعتراضٌ؛ فالمُرادُ مِن ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٧، ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

[الحج: ٤١]: المهاجِرونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ بَدلًا مِن (مَن) الموصولةِ في قولِه: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]؛ فيكون المُرادُ: كلَّ مَن نَصَرَ الدِّينَ مِن أجيالِ المُسلمينَ، أي: مكَّنَّاهم بالنَّصرِ الموعودِ به إنْ نَصَروا دِينَ اللهِ. وعلى الاحتمالينِ فالكلامُ مَسوقٌ للتَّنبيهِ على الشُّكرِ على نِعمةِ النَّصرِ بأنْ يأتوا بما أمَرَ اللهُ به مِن أُصولِ الإسلامِ؛ فإنَّ بذلك دوامَ نَصْرِهم(١).

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ تَقديمُ المجرورِ هنا؛ للاهتمامِ، والتَّنبيهِ على أنَّ ما هو للهِ فهو يُصرِّفُه كيف يشاءُ. وفيه: تأْنيسٌ للمُهاجرينَ؛ لِئَلَّا يَسْتبطِئوا النَّصرَ(٢). وفيه كذلك: تأكيدٌ لِمَا وعَدَه سبحانه مِن إظهارِ أوليائِه، وإعلاءِ كَلِمَتِهم(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠٩).

الآيات (٤٢-٤٥)

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَأَمْلَيْتُ﴾: أي: أمهَلْتُ وأطَلْتُ لهم المُدَّةَ، وأصلُ الإملاءِ: يدُلُّ على امتِدادِ زَمانٍ أو غيرِه[١].

﴿نَكِيرِ﴾: أي: نَكالي وعِقابي وانتِصاري لرُسُلي، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ[٢].

﴿خَاوِيَةٌ﴾: أي: خاليةٌ ساقِطةٌ، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على الخُلوِّ والسُّقوطِ[٣].

﴿عُرُوشِهَا﴾: أي: سُقوفِها، وأصلُ (عرش): يدُلُّ على الارتِفاعِ في شَيءٍ مَبنيٍّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦، ٢٢٨)، غريب القرآن للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤). ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٨٦)، ((غريب =

﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾: أي: مَتروكةٍ على هيئَتِها، وأصلُ (عطل): يدُلُّ على خُلوٍّ وفَراغٍ[(١)].

﴿مَّشِيدٍ﴾: أي: مُطَوَّلٍ مُرتَفِعٍ؛ مِن قَولِهم: شاد بناءَه: إذا رفَعَه. وقيل: مُجَصَّص؛ مِنَ الشِّيدِ، وهو الْجِصُّ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنْ يكَذِّبْك قَومُك -يا مُحمَّدُ- فقد كَذَّب مِن قَبلِهم قَومُ نُوحٍ، وعادٌ، وثمودُ، وقَومُ إبراهيمَ، وقَومُ لُوطٍ، وأصحابُ «مَدْيَنَ» الذين كذَّبوا شُعَيبًا، وكذَّب فِرعَونُ وقَومُه موسى، فأمهَلْتُ هؤلاء الكافرينَ ثمَّ أخَذْتُهم بالعَذابِ، فكيف كانت مُعاقَبتي لهم؟

فكثيرٌ مِن القُرى الظَّالِمةِ بكُفرِها أهلَكْنا أهلَها؛ فديارُهم مُهَدَّمةٌ خَلَتْ مِن سُكَّانِها، وآبارُها مُعطَّلةٌ لا يُستَقى منها، وقُصورُها العاليةُ المُزَخرفةُ خَلَت مِن سُكَّانِها ولم تدفَعْ عن أهلِها سُوءَ العَذابِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾.

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى -فيما تقدَّمَ- إخراجَ الكُفَّارِ المؤمِنينَ مِن ديارِهم بغَيرِ حَقٍّ، وأذِنَ في مُقاتَلتِهم، وضَمِنَ للرَّسولِ والمُؤمِنينَ النُّصرةَ، وبيَّنَ أنَّ لله عاقِبةَ الأمورِ- أردَفَه بما يجري مَجرى التَّسليةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الصَّبرِ على ما هم عليه مِن أذيَّتِه وأذيَّةِ المُؤمِنينَ بالتَّكذيبِ وغَيرِه(١).

وأيضًا لَمَّا نعَى اللهُ تعالى على المشركينَ مَساويَهم في شؤونِ الدينِ بإشراكِهم، وإنكارِهم البعثَ، وصَدِّهم عن الإسلامِ وعن المسجِدِ الحرامِ، وما ناسب ذلك في غرَضِه مِن إخراجِ أهلِه منه- عطَفَ هنا إلى ضلالِهم بتكذيبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقصدَ مِن ذلك تسليةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتمثيلَهم بأمثالِ الأمَمِ التي استأصلها اللهُ، وتهديدَهم بالمصيرِ إلى مصيرِهم(٢).

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: وإن يُكذِّبْك -يا مُحَمَّدُ- قَومُك المُشرِكونَ على ما جِئْتَهم به مِنَ الحَقِّ، فذلك سنَّةُ إخوانِهم مِن الأُمَمِ الخاليةِ المكذِّبةِ لرُسُلِ اللهِ، ولستَ بأوَّلِ رَسولٍ كُذِّبَ؛ فقد كذَّبَت قَبلَ قَومِك قومُ نوحٍ، وعادٌ: قومُ هودٍ، وثمودُ: قومُ صالحٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).
قال القرطبي: (هذا تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتعزيةٌ، أي: كان قبْلَك أنبياءُ كُذِّبوا، فصَبَروا إلى أن أهلَكَ اللهُ المكذِّبينَ؛ فاقتَدِ بهم واصبِرْ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٣).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٧).

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١].

وقال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال عز مِنْ قائل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣)﴾.

أي: وكذَّب قبلَ قَومِك -يا مُحَمَّدُ- قومُ إبراهيمَ، وقومُ لوطٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠].

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)﴾.

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾.

أي: وكذَّب قومُ شُعَيبٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾.

أي: وكذَّب فِرعَونُ وقَومُه رسولَهم مُوسى[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ * كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١- ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩- ١٠].

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾.

أي: فأمهَلْتُ الكافِرينَ فلمْ أُعاجِلْهم بالعُقوبةِ لَمَّا كَذَّبوا رسُلَهم، ثمَّ أخَذْتُهم بالعذابِ في الوقتِ المحدَّدِ لإهلاكِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٩).
قال ابنُ عاشور: (وهذا الأخذُ مَعلومٌ في آياتٍ أخرى، عدا أنَّ قومَ إبراهيمَ لم يتقدَّمْ في القرآنِ ذِكرٌ لعَذابِهم أو أخْذِهم، سِوى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠] مُشيرٌ إلى سوءِ عاقِبَتِهم مِمَّا أرادوا به مِن الكَيدِ، وهذه الآيةُ صَريحةٌ في ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملِي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه. قال: ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[١].

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فانظُرْ -يا مُحَمَّدُ- كيف كانت مُعاقَبتي لهم؟ فلْيَعتَبِرْ بذلك هؤلاء المكَذِّبونَ مِن قَومِك أن يُصيبَهم ما أصاب أولئكَ؛ فإنَّهم ليسوا خَيرًا منهم[٢]!

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى حالَ قَومٍ مِنَ المُكَذِّبينَ، وأنَّه عجَّلَ إهلاكَهم؛ أتبَعَه بما دلَّ على أنَّ لذلك أمثالًا، وإن لم يُذكَرْ مُفَصَّلًا[٣].

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

أي: فكثيرٌ مِنَ القُرى[٤] أهلَكْنا أهلَها بالعَذابِ الشَّديدِ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم، فصارت

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٢).

(٤) قال الشنقيطي: (لفظُ القَريةِ يُطلَقُ تارةً على نفسِ الأبنيةِ، وتارةً على أهلِها السَّاكنينَ بها؛ فالإهلاكُ في قَولِه تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾، والظُّلمُ في قَولِه تعالى: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: يُرادُ به أهلُها السَّاكِنونَ بها، وقَولُه تعالى: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يُرادُ به الأبنيةُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٦٩).

بيوتُهم مُهَدَّمةً قد سقَطَت جُدرانُها فَوقَ سُقوفِها[1].

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن الآبارِ الصَّالِحةِ للانتِفاعِ عَطَّلْناها بإهلاكِ أهلِها وواردِيها، فلا يُستقَى منها مع بقاءِ بِنائِها وفَورانِ مائِها! وكثيرٌ مِن القُصورِ العاليةِ المجصَّصةِ المَنيعةِ المُحكَمةِ خَلت من سُكَّانِها بعد هَلاكِهم، فغَدَت مُوحِشةً، بعد أن كانت بأهلِها عامِرةً ومُؤنسةً[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المُغتَمَّ بالشَّيءِ قد يتسَلَّى بأنْ يكونَ له في مُصيبتِه شَريكٌ، ألا ترى إلى اللهِ جَلَّ جَلالُه كيف عَزَّى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمُشاركةِ مَن مضى قَبْلَه مِن الأنبياءِ في تكذيبِ قَومِهم إيَّاهم، واحتِمالِ مَضَضِه وأذاهم؛ فدَلَّ على أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وغيرَه من الأنبياءِ صَلواتُ اللهِ عليهم كانوا يغتَمُّونَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٥، ٢٨٦).
قال الشنقيطي: (المعنى: أنَّ السُّقوفَ سَقَطت ثمَّ سَقَطت عليها حِيطانُها، على أظهَرِ التَّفسيراتِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٠، ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٦).

تكذيبِ قَومِهم إيَّاهم(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ مُناسَبةُ اختيارِ النَّكيرِ في هذه الآيةِ دُونَ العَذابِ ونَحوِه: أنَّه وقع بعد التَّنويهِ بالنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ ليُنَبِّهَ المُسلِمينَ على أن يَبذُلوا في تَغييرِ المُنكَرِ مُنتَهى استِطاعتِهم؛ فإنَّ الله عاقَبَ على المُنكَرِ بأشَدِّ العِقابِ، فعلى المؤمنينَ الائتِساءُ بصُنعِ اللهِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ مُناسَبةُ عَدِّ قَومِ إبراهيمَ هنا في عِدادِ الأقوامِ الَّذين أخَذَهم اللهُ دونَ الآياتِ الأُخرى الَّتي ذُكِرَ فيها مَن أُخِذُوا مِن الأقوامِ: أنَّ قَومَ إبراهيمَ أتَمُّ شَبَهًا بمُشركي قُريشٍ في أنَّهم كَذَّبوا رَسولَهم وآذَوهُ، وألْجؤوهُ إلى الخُروجِ مِن مَوطنِه ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]؛ فكان ذِكرُ إلْجاءِ قُريشٍ المُؤمِنينَ إلى الخُروجِ مِن مَوطِنِهم في قولِه: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠] مُناسَبةً لذِكْرِ قَومِ إبراهيمَ(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: (قَومُ موسى) عَطفًا على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؟

الجوابُ مِن أوجهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ ما كَذَّبَه قَومُه بنو إسرائيلَ، وإنَّما كذَّبَه غَيرُ قَومِه، وهم القِبطُ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الإبهامَ في بناءِ الفِعلِ للمَفعولِ؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، أي:

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٨٣، ٢٨٤).

وكُذِّبَ مُوسى أيضًا، مع وُضوحِ آياتِه، وعِظَمِ مُعجِزاتِه، فما ظَنُّك بغَيرِه[١]؟!
للإيذانِ بأنَّ تكذيبَهم له كان في غَايةِ الشَّناعةِ؛ لكونِ آياتِه في كَمالِ الوُضوحِ؛
فتَكذيبُه كان أشنَعَ، وآياتُه كانت أعظَمَ.

الوجهُ الثالثُ: أنَّه لمَّا صَدَّرَ الكلامَ بحِكايةِ تَكذيبِهم، ثمَّ عدَّدَ أصنافَ المُكذِّبينَ وطوائفَهم، ولم يَنْتَهِ إلى مُوسى إلَّا بعْدَ طُولِ الكلامِ؛ حسُنَ تَكريرُه؛ لِيَلِيَ قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾، فيَتَّصِل المُسبَّبُ بالسَّببِ[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإملاءَ للكافرينَ مَكْرٌ بهم واستِدراجٌ، وهو رَدٌّ على المُعتزلةِ والقَدَريَّةِ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فيه سؤالٌ: إن قيلَ: كيف يُوصَفُ ما يُنزِلُه بالكُفَّارِ مِن الهَلاكِ بالعذابِ المُعَجَّلِ بأنَّه نَكيرٌ؟

الجوابُ: إذا كان رادِعًا لغَيرِه، وصادِعًا له عن مِثلِ ما أوجَبَ ذلك، صار نكيرًا[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ إذا قيل: إنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يدُلُّ على تهَدُّمِ أبنيَةِ أهلِها، وسُقوطِها، وقَولَه تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٠).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٢).

يدُلُّ على بقاءِ أبنِيَتِها قائِمةً مَشيدَةً، فكيف الجَمعُ بينهما؟

فالجوابُ: أنَّ قُصورَ القُرى التي أهلَكَها اللهُ، وَقْتَ نُزولِ هذه الآيةِ منها ما هو مُتهدِّمٌ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، ومنها ما هو قائِمٌ باقٍ على بنائِه، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، ويدُلُّ على هذا الجَمعِ قولُه جَلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠]، فصَرَّحَ في هذه الآيةِ بأنَّ منها قائِمًا، ومنها حَصيدًا؛ فالقائِمُ هو الذي لم يَتهَدَّمْ، والحَصيدُ هو الذي تهَدَّمَ، وتفَرَّقَت أنقاضُه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ تَسليةٌ لرَسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مُتضمَّنةٌ للوعْدِ الكريمِ بإهلاكِ مَن يُعادِيه مِن الكَفرةِ، وتَعيينٌ لكَيفيَّةِ نَصرِه تعالى له الموعودِ بقولِه تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وعبَّرَ بصِيغَةِ المُضارعِ في الشَّرطِ ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ مع تَحقُّقِ التَّكذيبِ؛ لِمَا أنَّ المقصودَ تَسليتُه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا يَترتَّبُ على التَّكذيبِ مِن الحُزنِ المُتوقَّعِ(٢).

- وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه قولُه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾؛ إذِ التَّقديرُ: فلا عجَبَ في تَكذيبِهم، أو فلا غَضاضةَ عليك في تَكذيبِ قَومِك إيَّاك؛ فإنَّ تلك عادةُ أمثالِهم(٣).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ إذِ التَّقديرُ: رُسُلَهم، أي: كذَّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ وعادٌ وثمودُ وأصحابُ مدْينَ رسلَهم ممَّن ذُكِرَ وممن لم يُذكَرْ؛ وإنَّما حُذِفَ لكَمالِ ظُهورِ المُرادِ، أو لأنَّ المُرادَ نفْسُ الفِعْلِ، أي: فعَلَتِ التَّكذيبَ قومُ نُوحٍ... إلى آخِرِه(١).

- وإنَّما لم يُعبَّرْ عنهم بـ(قَومِ شُعيبٍ)، وعُبِّرَ عنهم بقولِه: ﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَ﴾؛ لئلَّا يَتكرَّرَ لفْظُ (قوم) أكثَرَ مِن ثلاثِ مَرَّاتٍ(٢).

- قولُه: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡ﴾، أي: فأمليْتُ لهم؛ فوضَعَ الظَّاهِرَ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ لذَمِّهم بالكُفْرِ، والتَّصريحِ بمُكذِّبِي مُوسى عليه السَّلامُ، حيث لم يُذْكَروا فيما قبْلُ صَريحًا، وللإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ الإملاءِ لهم ثمَّ أَخْذِهم هو الكُفْرُ بالرُّسلِ؛ تَعريضًا بالنِّذارةِ لمُشرِكي قُريشٍ(٣). والأخْذُ كِنايةٌ عن العِقابِ والإهلاكِ(٤).

- والفاءُ في ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ للتَّعقيبِ؛ دَلالةً على أنَّ تَقديرَ هَلاكِهم حاصِلٌ مِن وَقْتِ تَكذيبِهم، وإنَّما أُخِّرَ لهم، وهو تَعقيبٌ مُوزَّعٌ؛ فلكلِّ قَومٍ من هؤلاء تَعقيبُ إملائِه، والأخْذُ حاصِلٌ بعْدَ الإملاءِ بمُهلةٍ؛ فلذلك عُطِفَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٠)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٩).

فِعْلُه بحَرفِ المُهْلَةِ ﴿ثُمَّ﴾[١].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهامٌ إنْكاريٌّ، معناهُ التَّقريرُ، وهو حمْلُ المُخاطَبِ على الإقرارِ بما يَعرِفُه ويُماري فيه، ويَلْجأُ إلى المُكابَرةِ والسَّفسطةِ في مُخالَفَتِه[٢]. وقيل: استفهامٌ تعجُّبيٌّ، أي: فاعْجَبْ مِن نَكِيري كيف حصَلَ. ووَجْهُ التَّعجُّبِ منه: أنَّهم أُبْدِلوا بالنِّعمةِ مِحْنةً، وبالحياةِ هَلاكًا، وبالعمارةِ خَرابًا؛ فهو عِبرةٌ لغَيرِهم. وعُطِفَتْ جُملةُ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ حَقَّ ذلك الاستفهامِ أنْ يَحصُلَ عندَ ذِكْرِ ذلك الأخْذِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾

- قولُه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ (فكأيِّنْ) تَقْتضي التَّكثيرَ[٤]. وتَفرَّعَ ذِكْرُ جُملةِ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ على جُملةِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]؛ فعُطِفَتْ عليها بفاءِ التَّفريعِ -والتَّعقيبُ في الذِّكْرِ لا في الوُجودِ-؛ لأنَّ الإملاءَ لكَثيرٍ مِن القُرى، ثمَّ أخْذَها بعدَ الإملاءِ لها: يُبيِّنُ كيفيَّةَ نَكيرِ اللهِ وغضَبِه على القُرى الظَّالمةِ ويُفسِّرُه؛ فناسَبَ أنْ يُذكَرَ التَّفسيرُ عَقِبَ المُفسَّرِ بحَرفِ التَّفريعِ، ثمَّ هو يُفيدُ بما ذُكِرَ فيه مِن اسْمِ كَثرةِ العدَدِ شُمولًا للأقوامِ الَّذين ذُكِروا مِن قبْلُ في قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢] إلى آخِرِه، فيَكونُ لتلك الجُملةِ بمَنزِلَةِ التَّذييلِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٥).

- قولُه: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ أي: كمْ قَريةٍ أهْلَكْنا؟! وكم بِئْرٍ عطَّلْنا عن سُقاتِها؟! وقَصْرٍ مَشيدٍ أخليناهُ عن ساكِنِيه؟! فتُرِكَ ذلك؛ لدَلالةِ ﴿مُّعَطَّلَةٖ﴾ عليه(١).

- وفي قولِه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال ذلك هنا، وقال بَعدُ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ مُوافقةً لِمَا قبْلَهما؛ إذْ ما هنا تقدَّمَه معنى الإهلاكِ بقولِه: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡ﴾ أي: أهلَكْتُهم، وما بعْدُ تقدَّمَه ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾، وهو يدُلُّ على أنَّ العذابَ لم يأْتِهم في الوقْتِ؛ فحسُنَ ذِكْرُ الإهلاكِ في الأوَّلِ، والإملاءِ -أي: التَّأخير- في الثَّاني(٢).

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هنا: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾، فوصَفَ القَصْرَ بـ﴿مَّشِيدٍ﴾، ولم يُوصَفْ بـ (مُشَيَّد) كما في قولِه: ﴿فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النساء: ٧٨]. ووَجْهُه: أنَّ ذلك جمْعٌ ناسَبَ التَّكثيرَ فيه، وهذا مُفْرَدٌ. وأيضًا ﴿مَّشِيدٍ﴾ فاصلةُ آيةٍ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٢).
(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٢٦، ٩٢٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٢)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٤، ٣٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٠).

الآيات (٤٦-٤٨)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ذِكرُه: أفلم يَسِرِ المُكَذِّبونَ مِن قُرَيشٍ في الأرضِ؛ لِيُشاهِدوا آثارَ المُهلَكِينَ، فتكونَ لهم قلوبٌ واعِيةٌ يَعقِلونَ بها فيتفَكَّرون ويَعتَبِرون، أو تكونَ لهم آذانٌ يَسمَعون بها سَماعَ تدبُّرٍ فيتَّعِظونَ؟! فإنَّ العمى ليس عَمى البَصَرِ، وإنَّما العَمى المُهْلِكُ لصاحبِه هو عَمى البَصيرةِ عن إدراكِ الحَقِّ والاعتِبارِ.

ويَستَعجِلُك -يا مُحَمَّدُ- كفَّارُ قُرَيشٍ بالعَذابِ الذي أنذَرْتَهم به جَزاءَ كُفرِهم، ولن يُخلِفَ اللهُ ما وعَدَهم به مِنَ العَذابِ، فلا بدَّ مِن وُقوعِه، وإنَّ يَومًا عِندَ اللهِ كمِقدارِ ألْفِ سَنةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مِن سِنِي الدُّنيا.

وكثيرٌ مِن القُرى كانت ظالِمةً بإصرارِ أهلِها على الكُفرِ، فأمهَلْتُهم ولم أعاجِلْهم بالعُقوبةِ فاغتَرُّوا، ثمَّ أخَذْتُهم بعَذابي في الدُّنيا، وإليَّ مَرجِعُهم بعدَ هَلاكِهم، فأُعَذِّبُهم بما يَستَحِقُّونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَن كذَّبَ الرُّسُلَ مِن الأُمَمِ الخاليةِ، وكان عِندَ العَرَبِ

أشياءُ مِن أحوالِهم يَنقُلونَها، وهم عارِفونَ بِبلادِهم، وكثيرًا ما يَمُرُّونَ على كثيرٍ منها- قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾، فاحتَمَلَ أن يكونَ حَثًّا على السَّفَرِ لِيُشاهِدوا مصارِعَ الكُفَّارِ فيَعتَبِروا، أو يكونوا قد سافَروا وشاهَدوا فلم يَعتَبِروا، فجُعِلوا كأنْ لم يُسافِروا ولم يَرَوا[1]!

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾.

أي: أفلمْ يَسِرْ كُفَّارُ قُرَيشٍ في الأرضِ؛ لِيَنظُروا آثارَ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ مِن قَبلِهم، فيتسَبَّبَ عن ذلك أن تكونَ لهم قلوبٌ واعِيةٌ يَعقِلونَ بها ما رأَوه في الآياتِ المَرئِيَّاتِ مِنَ الدَّلالةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرَتِه وغيرِ ذلك، فيتَفَكَّروا ويتَّعِظوا قبْلَ أن يَحُلَّ بهم ما أصاب أولئك القَومَ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٤).

قال ابن عجيبة: (السَّيرُ في الأرضِ: إمَّا حِسِّيٌّ، أو معنويٌّ باعتبارِ سَماعِ أخبارِها مِنَ الغيرِ، أو قراءتِها في الكُتُبِ؛ فقولُه: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾: راجعٌ للسيرِ الحِسيِّ، وقولُه: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ﴾ للسَّيرِ المَعنويِّ). ((البحر المديد)) (٣/ ٥٤١). ويُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ١٩٢).

وقال ابنُ القيم: (كلُّ مَوضِعٍ أمَرَ اللهُ سُبحانَه فيه بالسَّيرِ في الأرضِ، سواءٌ كان السَّيرَ الحِسِّيَّ على الأقدامِ والدَّوابِّ، أو السَّيرَ المَعنويَّ بالتفكُّرِ والاعتبارِ، أو كان اللَّفظُ يَعُمُّهما -وهو الصَّوابُ؛ فإنَّه يدُلُّ على الاعتبارِ والحَذَرِ أن يَحُلَّ بالمُخاطَبينَ ما حَلَّ بأولئك). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٣).

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [مُحمَّد: ١٠].

﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

أي: أو يتسبَّبَ عن سَيرِهم ورُؤيتِهم آثارَ مَن سَبَقَهم مِن أُمَمِ الكُفرِ أن تكونَ لهم آذانٌ واعِيةٌ يَسمعَونَ بها سَماعَ تَدبُّرٍ وعِظَةٍ، فيُمَيِّزوا بين الحَقِّ والباطِلِ، ويَعرِفوا أخبارَ الأُمَمِ الماضيةِ، وسَبَبَ هلاكِهم، فيَحذَروا أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم(١)؟!

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: لا تَعمى أبصارُ الكُفَّارِ؛ فأَعيُنُهم مُبصِرةٌ يَرَونَ بها المَرئيَّاتِ، ولكِنَّ قُلوبَهم هي التي تَعمَى عن رُؤيةِ الحَقائِقِ وإدراكِها، والانتِفاعِ بها، فهذا هو العمَى المُهلِكُ لصاحِبِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر سبحانَه أنَّ المُشرِكينَ كَذَّبوا رسولَه، وبالَغوا في تكذيبِه، وسلَّاه على ذلك بأنَّك لستَ ببِدْعٍ في الرسُلِ؛ فكثيرٌ مِمَّن قبلَك منهم قد كُذِّبوا وأُوذُوا، فلا تبتَئِسْ بما يفعلونَ، واصبِرْ على ما تدعو إليه، ولا يضيرَنَّك ما يأتونَ وما يَذَرونَ- قفَّى على ذلك ببيانِ أنَّهم لاستهزائِهم به وشديدِ تكذيبِهم كانوا يَستَعجِلونَه العذابَ[1].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾.

أي: ويَستَعجِلُك الكُفَّارُ -يا مُحَمَّدُ- بنُزولِ عَذابِ اللهِ عليهم جَزاءَ شِرْكِهم به، واللهُ لن يُخلِفَ ما وعَدَ به مِن ذلك، وهو واقِعٌ بهم حَتْمًا في وَقتِه المَحَدَّدِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣- ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٥ - ٢٧٧).

وممن ذهب إلى أنَّ ذلك قد وقع عليهم يومَ بَدرٍ بقَتْلِهم: مقاتلٌ، وابنُ جريرٍ، والثعلبي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٤٠).

وذهب ابنُ كثيرٍ والسعدي إلى أنَّ ذلك واقعٌ بهم في الآخرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

أي: هُم يَستَعجِلونكَ بالعذابِ، ولكنَّ اللهَ تعالى حليمٌ لا يَعجَلُ به؛ فإنَّ مِقدارَ ألْفِ سَنةٍ عِندَ خَلْقِه كيَومٍ واحدٍ عِندَه، فالطَّويلُ عِندَهم مِنَ الزَّمنِ قَصيرٌ عِندَه، وليس عذابُهم عِندَه ببعيدٍ، فلا بدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ، فهو على الانتقامِ قادرٌ، لا يَفوتُه شَيءٌ، ولا فَرْقَ بيْن وُقوعِ ما يَستَعجِلون به مِنَ العذابِ وتأخُّرِه في القُدرةِ، إلَّا أنَّه تَفضَّلَ بالإمهالِ؛ فلذلك لا يَعجَلُ بعقوبةِ مَن أرادَ عقوبتَه حتَّى يَبلُغَ غايةَ مُدَّتِه وإنْ تَطاوَلُوها، واستَبطَؤوا نُزولَ العذابِ، فإنَّ اللهَ يُمهِلُ المُدَدَ الطَّويلةَ ولا يُهمِلُ، حتَّى إذا أَخَذَ الظَّالِمينَ بعذابِه لَمْ يُفْلِتْهُم[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٨، ٥٩٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

قيل: المعنى: إنَّ يومًا واحدًا مِن أيَّامِ العذابِ في الآخرةِ كألْفِ سَنةٍ مِمَّا يعُدُّونَ. وممَّن ذهب إلى هذا القول: السمرقنديُّ، والسمعانيُّ، والرازيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٤).

وقيل: المعنى: وإنَّ يَومًا عند رَبِّك من أيامِ الآخرةِ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تعُدُّونَ مِن أيَّامِ الدُّنيا. وممَّن ذهبَ إلى هذا القولِ: يحيى بنُ سلَّامٍ، وابنُ الجوزي، وابنُ جُزي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣).

قال الواحدي (﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: مِن أيَّام عذابِهم ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ وذلك أنَّ يومًا مِن أيَّام الآخرةِ كألْفِ سَنَةٍ في الدُّنيا). ((الوجيز)) (ص: ٧٣٦).

وقيل: إنَّ اليومَ المذكورَ في الآيةِ هو يومٌ مِنَ الأيَّامِ السِّتَّةِ التي خَلَقَ اللهُ فيها السَّمواتِ والأرضَ، فكُلُّ يومٍ منها كألْفِ سَنَةٍ.

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مُقاتِلُ بنُ سُليمانَ، وأحمدُ بن حنبل. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣١)، ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٧٠).

كما قال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَدخُلُ فُقَراءُ المُسلمينَ الجَنَّةَ قَبلَ أغنيائِهم بنصفِ يومٍ، وهو خَمسُ مئةِ عامٍ))[١].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّها عطْفٌ على جملةِ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ [الحج: ٤٧]، أو على جملةِ: ﴿ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ [الحج: ٤٧]؛ باعتِبارِ ما تَضمَّنَه استعجالُهم بالعذاب مِنَ التَّعريضِ بأنَّهم آيسون منه؛ لتأخُّرِ وُقوعِه، فذُكِّروا بأنَّ أُمَمًا كثيرةً أُمهِلَتْ، ثمَّ حلَّ بها العذابُ[٢].

وأيضًا لَمَّا دَلَّلَ اللهُ تعالى على نصْرِ أوليائِه، وقَسْرِ أعدائِه، بشَهادةِ تلك القُرى، وخَتَمَ بالتَّعجيبِ مِن استعجالِهم، مع ما شاهَدوا مِن إهلاكِ أمثالِهم، وأعلَمَهم ما هو عليه مِنَ الأناةِ، واتِّساعِ العظَمةِ، وكِبَرِ المِقدارِ، عَطَفَ على ﴿ فَكَأَيِّن ﴾ -مُحذِّرًا مِن نَكالِه، بَعدَ طَويلِ إمهالِه- قولَه[٣]:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٥٤) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٤٨)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وأحمد (٩٨٢٣).

صححه الترمذي، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٧٦)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٩٨٢٣)، وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ١٣٨): رواته محتَجٌّ بهم في الصحيح، وقال ابن كثير في ((نهاية البداية والنهاية)) (٢/ ٣٤٥): (مرفوعٌ، إسنادُه على شرطِ مسلمٍ)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٥٤): (حسن صحيح).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٧).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ٤٨﴾.

أي: وكَثيرٌ مِن القُرى أمهَلْتُ أهلَها، ولم أُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، مع ظُلمِهم بالشِّركِ والعِصيانِ، ثُمَّ عاقَبْتُهم في الدُّنيا، ومَرجِعُهم في الآخرةِ إليَّ، فأُعَذِّبُهم فيها أيضًا؛ فلْيَحذَرْ هؤلاء الظَّالِمونَ مِن ذلك، ولا يَغتَرُّوا بإمهالِ اللهِ لهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ المقصودُ منه ذِكرُ ما يتكامَلُ به ذلك الاعتِبارُ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ لها حَظٌّ عَظيمٌ في الاعتِبارِ، وكذلك استِماعُ الأخبارِ فيه مَدخَلٌ، ولكِنْ لا يَكمُلُ هذان الأمرانِ إلَّا بتدَبُّرِ القَلبِ؛ لأنَّ مَن عايَن وسَمِع، ثمَّ لم يتدبَّرْ ولم يَعتَبِرْ، لم ينتَفِعْ البتَّةَ، ولو تفكَّرَ فيما سَمِعَ لانتفَعَ؛ فلهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[(٢)].

٢- القَلبُ مِن شَأنِه أن يُبصِرَ؛ فإنَّ بَصَرَه هو البَصَرُ، وعَماه هو العَمى، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[(٣)]، وعن قَتادَةَ في قولِه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ قال: (ما هذه الأبصارُ التي في الرؤوسِ؛ فإنَّها جعَلها الله منفعةً وبلغةً، وأمَّا البصرُ النافعُ فهو في القلبِ)[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٤٩٨).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، فسَترجِعُ إلى اللهِ فيُعَذِّبُها بذُنوبِها؛ فلْيَحذَرِ الظَّالِمونَ مِن حُلولِ عِقابِ اللهِ، ولا يغتَرُّوا بالإمهالِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ يدلُّ على أنَّ محلَّ العقلِ والفَهمِ في القلبِ(٢)، فقد أضاف العقلَ إلى القلبِ؛ لأنَّه محلُّه، كما أنَّ السمعَ محلُّه الأذنُ(٣)، ولا يُنكَرُ أنَّ للدماغِ اتِّصالًا بالقلبِ يُوجِبُ فسادَ العقلِ متى اختلَّ الدماغُ(٤).

٢- قال تعالى لمُكَذِّبي الرُّسُلِ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، ذكَر ذلك بعدَ قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٧).

قال شيخُ الإسلامِ بَعدَ أنْ ذَكَر الخلافَ في محَلِّ العقلِ: (والتَّحقيقُ: أنَّ الرُّوحَ التي هي النَّفْسُ لها تعلُّقٌ بهذا وهذا، وما يَتَّصِفُ مِنَ العقل به يَتعلَّقُ بهذا وهذا، لكنَّ مَبدأَ الفِكرِ والنَّظرِ في الدِّماغِ، ومَبدأَ الإرادةِ في القلبِ. والعقلُ يُرادُ به العِلمُ، ويُرادُ به العملُ، فالعِلمُ والعَملُ الاختياريُّ أصْلُه الإرادةُ، وأصلُ الإرادةِ في القلبِ، والمريدُ لا يكونُ مُريدًا إلَّا بَعد تصوُّرِ المرادِ، فلا بدَّ أنْ يكونَ القلبُ مُتصوِّرًا، فيكون منه هذا وهذا، ويَبتدئُ ذلك مِنَ الدِّماغِ، وآثارُه صاعدةٌ إلى الدِّماغِ، فمنه المبتدأُ، وإليه الانتهاءُ. وكِلا القولَينِ له وجْهٌ صحيحٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٩/ ٣٠٣، ٣٠٤).

ﵟثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍﵞ [الحج: ٤٢-٤٥]، ثمَّ قال تعالى: ﵟأَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِﵞ الآية، ثمَّ قال تعالى: ﵟوَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُﵞ، فذكَرَ إهلاكَ مَن أهلَكَ، وإملاءَه لِمَن أملَى؛ لئلَّا يغترَّ المغترُّ فيقولَ: نحن لم يُهلِكْنا[1]!

٣- قال تعالى: ﵟوَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُﵞ، وِزانُ هذه الآيةِ وِزانُ قولِه آنِفًا: ﵟفَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞﵞ [الحج: ٤٥] إلخ، إلَّا أنَّ الأُولى قُصِد منها كثرةُ الأُمَمِ التي أُهلِكَتْ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ مِن ذِكرِ قَومِ نوحٍ ومَن عُطِف عليهم أنَّ الهلاكَ لَمْ يَتجاوَزْهم؛ ولذلك اقتُصِر فيها على ذِكرِ الإهلاكِ دون الإمهالِ. وهذه الآيةُ القصدُ منها التَّذكيرُ بأنَّ تأخيرَ الوعيدِ لا يقتَضي إبطالَه؛ ولذلك اقتُصِر فيها على ذِكرِ الإمهالِ، ثمَّ الأخذِ بَعدَه المناسبِ للإملاءِ، مِن حيثُ إنَّه دُخولٌ في القبضةِ بَعدَ بُعْدِه عنها[2].

٤- مَن نظَرَ إلى الأشياءِ بغَيرِ قَلبٍ، أو استمَعَ إلى كَلِماتِ أهلِ العِلمِ بغَيرِ قَلبٍ؛ فإنَّه لا يَعقِلُ شَيئًا؛ فمدارُ الأمرِ على القَلبِ، وعند هذا تَستبينُ الحِكمةُ في قَولِه تعالى: ﵟأَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاﵞ، حتى لم يذكُرْ هنا العينَ، كما في آياتٍ أُخرى، كقَولِه تعالى: ﵟوَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآﵞ [الأعراف: ١٧٩]؛ وذلك لأنَّ سِياقَ الكَلامِ هنا في أمورٍ

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣). ويُنظر أيضًا ما تقدَّم في بلاغةِ الآياتِ في هذه الآية: ﵟفَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞﵞ (ص: ٢٥٩).

غائبةٍ وحِكمةٍ مَعقولةٍ مِن عواقِبِ الأمورِ لا مجالَ لنَظَرِ العَينِ فيها، ومِثْلُه قَولُه تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾[1] [الفرقان: ٤٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ فيه سؤالٌ: ظاهِرُ هذه الآيةِ أنَّ الأبصارَ لا تَعمى، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عَمى الأبصارِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]، وكقَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]؟

الجوابُ: أنَّ التَّمييزَ بينَ الحَقِّ والباطِلِ، وبين الضَّارِّ والنَّافِعِ، وبين القَبيحِ والحَسَنِ، لَمَّا كان كُلُّه بالبصائرِ لا بالأبصارِ، صار العَمى الحقيقيُّ هو عَمى البصائِرِ لا عمَى الأبصارِ، فصِحَّةُ العَينَينِ لا تُفيدُ معَ عَدَمِ العَقلِ كما هو ضروريٌّ، وقَولُه: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ يعني بصائِرَهم، أو أعمى أبصارَهم عن الحَقِّ، وإن رأت غَيرَه[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فيه أنَّ الوعدَ يُطْلَقُ في الخيرِ والشَّرِّ؛ لأنَّ ظاهِرَ الآيةِ الذي لا يَجوزُ العُدولُ عنه: ولن يُخلِفَ اللهُ وعْدَه في حُلولِ العذابِ الذي يَستَعجِلونك به لهم؛ لأنَّه مُقترنٌ بقولِه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، فتَعلُّقُه به هو الظَّاهِرُ، وقد أُطلِق الوعدُ في القرآنِ على التَّوعُّدِ بالنَّارِ والعذابِ، كقولِه تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3] [الحج: ٧٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ مِقدارَ اليومِ عندَ اللَّهِ ألْفُ سنَةٍ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿يُدَبِّرُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١١).
(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٨).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٦).

ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]. وقدْ جاءَتْ آيةٌ أخرى تدُلُّ على خلافِ ذلك، هي قولُه تعالَى في سورةِ (المعارج): ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ الآيةَ [المعارج: ٤].

وللجمعِ بيْنَهما وجهانِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أن يومَ الألْفِ في سُورةِ (السجدة) هو مِقدارُ سَيرِ الأمْرِ وعُروجِه إليه تعالى، ويومَ الألْفِ في سُورةِ (الحجِّ) هو أحَدُ الأيَّامِ السِّتَّةِ الَّتي خلَقَ اللهُ فيها السَّمواتِ، ويومَ الخمسينَ ألْفًا في سورة (المعارج) هو يومُ القيامةِ[١].

الوجهُ الثاني: أنَّ المُرادَ بها جَميعِها يوم القيامةِ، وأنَّ الاختلافَ باعتبارِ حالِ المُؤمِن والكافِرِ، بدليلِ قولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾[٢] [المدثر: ٩، ١٠].

بلاغة الآيات:

١- قَولُه تعالَى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على القولِ بأنَّ الفاءَ عطْفٌ على الكلامِ السَّابقِ؛ فالهمزةُ دخَلَتْ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه لمَزيدِ الإنكارِ، أي: كأيِّنْ مِن قَريةٍ أهْلَكْناها فهي ظالمةٌ، فلم يَسِيروا في الأرضِ، فيَعْتَبِروا[٣].

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٤)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان))

- والاستفهامُ في ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ تَعجُّبيٌّ مِن حالِهم في عدَمِ الاعتبارِ بمَصارِعِ الأُمَمِ المُكذِّبةِ لأنبيائِها، والتَّعجُّبُ مُتعلِّقٌ بمَن سافَروا منهم ورَأَوا شيئًا مِن تلك القُرى المُهْلَكةِ وبمَن لم يُسافِروا؛ فإنَّ شأْنَ المُسافرينَ أنْ يُخبِروا القاعدينَ بعجائبِ ما شاهَدوهُ في أسفارِهم، كما يُشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ فالمقصودُ بالتَّعجُّبِ هو حالُ الَّذين سارُوا في الأرضِ، ولكنْ جُعِلَ الاستفهامُ داخِلًا على نَفْيِ السَّيرِ؛ لأنَّ سيرَ السَّائرينَ منهم لمَّا لم يُفِدْهم عِبْرةً وذِكْرَى جُعِلَ كالعدَمِ؛ فكان التَّعجُّبُ مِن انتفائِه؛ فالكلامُ جارٍ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ[1].

- قولُه: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ...﴾ في ذِكْرِ الآذانِ اكتفاءٌ عن ذِكْرِ الأبصارِ؛ إذ يُعْلَمُ أنَّ القُلوبَ الَّتي تَعقِلُ إنَّما طَريقُ عِلْمِها مُشاهَدةُ آثارِ العذابِ والاستئصالِ، كما أشار إليه قولُه بعْدَ ذلك: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2]. وقيل: لأنَّ سِياقَ الكَلامِ هنا في أمورٍ غائبةٍ وحِكمةٍ مَعقولةٍ مِن عواقِبِ الأمورِ، لا مجالَ لنَظَرِ العَينِ فيها[3].

- والفاءُ في جُملةِ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ تَفريعٌ على جَوابِ النَّفيِ في قولِه: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾، وفَذْلَكةٌ[4] للكلامِ السَّابقِ، وتَذييلٌ له بما في هذه الجُملةِ من العُمومِ. وحَرْفُ التَّوكيدِ (إنَّ) لغَرابةِ الحُكْمِ، لا لأنَّه

(٧/ ٥٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١١).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ٥٤).

ممَّا يُشَكُّ فيه(١).

- والقَصرُ المُستفادُ مِن النَّفيِ وحَرفِ الاستدراكِ (لكنْ) في قولِه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ قَصرٌ ادِّعائيٌّ(٢)؛ للمُبالَغةِ بجَعْلِ فَقْدِ حاسَّةِ البصَرِ المُسمَّى بالعَمى كأنَّه غيرُ عَمًى، وجَعْلِ عدَمِ الاهتداءِ إلى دَلالةِ المُبْصَراتِ مع سَلامةِ حاسَّةِ البصرِ هو العَمى؛ مُبالَغةً في استحقاقِه لهذا الاسمِ(٣).

- وقولُه: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ صِفَةٌ لـ﴿الْقُلُوبُ﴾، تُفيدُ توكيدًا لِلَفْظِ القُلوبِ؛ فهو لزِيادةِ التَّقريرِ والتَّشخيصِ، ويُفِيدُ هذا الوصْفُ -وراءَ التَّوكيدِ- تَعريضًا بالقومِ المُتحدَّثِ عنهم بأنَّهم لم يَنتفِعوا بأفئدتِهم مع شِدَّةِ اتِّصالِها بهم؛ إذ هي قارَّةٌ في صُدورِهم(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ ...﴾ [الحج: ٤٢] عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ فإنَّ مِن تَكذيبِهم أنَّهم كذَّبوا بالوعيدِ، وقالوا: لو كان محمَّدٌ صادِقًا في وَعيدِه لعُجِّلَ لنا وَعيدُه؛ فكانوا يَسألونَه التَّعجيلَ بنُزولِ العذابِ استهزاءً(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٨٩).
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢١، ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٠).

- وحُكِيَ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ بصِيغَةِ المُضارِعِ؛ للإشارةِ إلى تكريرِهم ذلك تَجْديدًا منهم للاستهزاءِ، وتَهكُّمًا وإنكارًا على المُسلمينَ. والخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمقصودُ: إبلاغه إيَّاهم[1].

- قولُه: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فيه تأنيسٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمنينَ؛ لئلَّا يَستبْطِئوه[2]. وأضاف الوعْدَ إليه تعالى؛ لأنَّ رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هو المُخبِرُ به عن اللهِ تعالى[3]. قيل: المُرادُ بوَعْدِه تعالى ما جُعِل لهَلاكِ كلِّ أُمَّةٍ مِن مَوعدٍ مُعيَّنٍ وأجَلٍ مُسمًّى، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]؛ فتكونُ الجُملةُ الأُولى مُبيِّنةً لبُطلانِ الاستعجالِ به ببَيانِ استحالةِ مَجيئِه قبْلَ وَقْتِه الموعودِ، والجُملةُ الأخيرةُ بَيانًا لبُطلانِه ببَيانِ ابتنائِه على استطالةِ ما هو قَصيرٌ عندَهُ تعالى؛ فلا يكونُ في النَّظمِ الكريمِ حينئذٍ تَعرُّضٌ لإنكارِهم الَّذي دَسُّوه تحتَ الاستعجالِ، بل يكونُ الجوابُ مَبْنيًّا على ظاهرِ مَقالِهم، ويُكْتَفى في رَدِّ إنكارِهم ببَيانِ عاقبةِ مَن قَبْلَهم مِن أمثالِهم[4].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾؛ فإنَّ اللهَ توعَّدَهم بالعذابِ، وهو صادِقٌ على عَذابِ الدُّنيا والآخرةِ، وهم إنَّما استعْجَلوا عذابَ الدُّنيا تَهكُّمًا وكِنايةً عن إيقانِهم بعدَمِ وُقوعِه بلازمٍ واحدٍ، وإيماءً إلى عدَمِ وُقوعِ عَذابِ الآخرةِ بلازمَينِ؛ فرَدَّ اللهُ عليهم رَدًّا عامًّا بقولِه: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾، وكان ذلك تثبيتًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢).

للمُؤمنينَ، ثمَّ أعقَبه بإنذارِهم بأنَّ عذابَ الآخرةِ لا يفلِتونَ منه أيضًا، وهو أشَدُّ العذابِ؛ فقولُه: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالوعيدِ، وهذا اليومُ هو يومُ القيامةِ[١]، على قولٍ في التفسيرِ.

- والخِطابُ في قولِه: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ على القولِ بأنَّه خِطابٌ للَّذين يَستعجِلون العذابَ؛ فيكونُ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عطَفَ هذه الجُملةَ بالواوِ؛ بينما عطَفَ الجُملةَ الأُولى بالفاءِ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾؛ لأنَّ الأُولى بدَلٌ مِن قولِه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وهذه الجُملةُ ﴿وَكَأَيِّن ...﴾ في حُكْمِ ما تقدَّمَها مِن الجُملتينِ ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ﴾؛ لبَيانِ أنَّ المُتوعَّدَ به يَحِيقُ بهم لا مَحالةَ، وأنَّ تأْخيرَه لِعادَتِه تعالى[٣].

- قولُه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا﴾ أي: وكم مِن أهْلِ قَريةٍ، فحُذِفَ المُضافُ، وأُقِيمَ المُضافُ إليه مُقامَه، وأرجَعَ الضَّمائرَ (لها- وهي - ظالمة- أخذتها) والأحكامَ إلى القريةِ؛ مُبالَغةً في التَّعميمِ والتَّهويلِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث تكرَّرَ التَّكثيرُ بـ(كأيِّن) في القُرى؛ لإفادةِ مَعنًى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢).

غيرِ ما جاءت له الأُولى؛ لأنَّه ذكَرَ فيها القُرى الَّتي أهْلَكَها دونَ إملاءٍ وتأْخيرٍ، بل أعقَبَ الإهلاكُ التَّذكيرَ، وهذه الآيةُ لمَّا كان تعالى قد أمهَلَ قُريشًا حتَّى استعجَلَتْ بالعذابِ، جاءت بالإهلاكِ بعْدَ الإملاءِ؛ تَنبيهًا على أنَّ قُريشًا وإنْ أمْلى تعالى لهم وأمْهَلَهم فإنَّه لا بُدَّ مِن عَذابِهم، فلا يَفْرَحوا بتأْخيرِ العَذابِ عنهم[١].

- وجُملةُ: ﴿أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ حاليَّةٌ مُفيدةٌ لكَمالِ حِلْمِه تعالى، ومُشعِرةٌ بطَريقِ التَّعريضِ بظُلْمِ المُستعجِلينَ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، ومُصرِّحٌ بما أفادهُ ذلك بطَريقِ التَّعريضِ مِن أنَّ مآلَ أمْرِ المُستعجِلينَ أيضًا ما ذُكِرَ مِن الأخْذِ الوَبيلِ[٣].

- وتَقديمُ المَجرورِ (إليَّ) للحَصرِ الحقيقيِّ، أي: لا يَصيرُ النَّاسُ إلَّا إلى اللهِ، وهو يَقْتضي أنَّ المصيرَ إليه كائنٌ لا مَحالةَ؛ فهو كِنايةٌ عن عدَمِ الإفلاتِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٣).

الآيات (٤٩-٥١)

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَعَوْا﴾: السَّعْيُ: المشيُ السَّريعُ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، يُقالُ: سعَى في الأمرِ: إذا جَدَّ فيه لقصدِ إصلاحِه أو إفسادِه[١].

﴿مُعَاجِزِينَ﴾: أي: مُشاقِّينَ مُعانِدينَ مُغالِبينَ، ومعنى المعاجَزةِ في اللُّغةِ: مُحاولةُ عَجْزِ المغالَبِ، يُريدُ كُلُّ واحدٍ أن يُظهِرَ عَجْزَ صَاحِبِه، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على ضَعفٍ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحَمَّدُ: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّما أنا مُنذِرٌ لكم واضِحُ النِّذارةِ، فالذينَ آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ لهم عِندَ اللهِ مَغفِرةٌ لذُنوبِهم، ورِزقٌ حَسَنٌ، والذينَ سَعَوا في الكَيدِ لإبطالِ آياتِ القُرآنِ مُعانِدينَ، ظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ، أولئك هم أهلُ النَّارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الاستِعجالُ لا يُطلَبُ مِنَ الرَّسولِ، وإنَّما يُطلَبُ مِنَ المُرسِلِ؛ أمَرَه اللهُ تعالى بأن يُديمَ لهم التَّخويفَ والإنذارَ، بقَولِه تعالى[1]:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ-: يا أيُّها النَّاسُ[2]، إنَّما أنا لكم نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ، ولا أملِكُ تَعجيلَ العَذابِ عن وَقتِه ولا تأخيرَه، وليس عليَّ حِسابُكم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٥٨).

(٢) قيل: المرادُ بهم هنا: مُشركو قريشٍ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٨).

وقيل: المرادُ بهم: جميعُ النَّاسِ. وممن قال بذلك: البقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨١).

وممَّن قال بأنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى بيِّنِ النِّذارةِ وظاهِرِها، في الجملةِ: مقاتِلُ بن سليمان، وجلال الدين المحلي، والسعدي، واستظهره الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨١).

قال ابن جرير: (﴿مُّبِينٌ﴾ يقول: أبيِّنُ لكم إنذاري ذلك، وأظهِرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٠).

وذهب القرطبيُّ والشوكانيُّ إلى أنَّ معنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: أُبَيِّنُ لكم ما تحتاجونَ إليه من أمرِ دينِكم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٥).

قال الشنقيطيُّ: (قولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿مُّبِينٌ﴾ الظَّاهِرُ أنَّه الوصفُ مِن «أبان» الرُّباعيَّةِ اللازمةِ التي بمعنى «بان»، والعربُ تقول: أبانَ فهو مُبينٌ، بمعنى بانَ فهو بَيِّنٌ، مِن اللازمِ الذي ليس بمتعَدٍّ إلى المفعول... ويحتمِلُ أن يكونَ قَولُه في هذه الآيةِ: ﴿مُّبِينٌ﴾: اسمَ «أبان» المتعدية، والمفعولُ محذوفٌ؛ للتَّعميمِ، أي: مُبينٌ لكم في إنذاري كلَّ ما ينفَعُكم، وما =

كما قال تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٧٠].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه يَجِبُ أن يقولَ للكافِرينَ: ﴿أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؛ أردَفَ ذلك بأنْ أمَرَه بوَعْدِهم ووَعيدِهم؛ لأنَّ الرَّجُلَ إنَّما يكونُ مُنذِرًا بذِكرِ الوَعدِ للمُطيعينَ، والوَعيدِ للعاصينَ(١).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾.

أي: فالذين آمَنوا بكُلِّ ما وجب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ لهم مِنَ اللهِ سَترٌ لذُنوبِهم، وتَجاوُزٌ عن مُؤاخَذتِهم بها، ولهم رِزْقٌ حَسَنٌ(٢).

= يضُرُّكم؛ لِتَجتَلِبوا النَّفعَ، وتجتَنِبوا الضرَّ. والأولُ أظهَرُ، واللهُ تعالى أعلمُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨١).

ممَّن قال بأنَّ الرِّزقَ الكريمَ لهم في الجنَّة: ابنُ جرير، وابن عطية، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨١).

قال ابنُ كثير: (قال محمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظي: إذا سَمِعتَ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فهو الجنَّةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١).

وقيل: المرادُ: رِزقٌ في الدُّنيا، ورزقٌ في الآخرة. وممَّن قال بذلك: البقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٥). إلَّا أنَّ ابنَ عاشور جعَلَ رِزقَ الدُّنيا مَعنويًّا.

وقولُه: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فيه وَصفُ الرِّزقِ بالكريمِ، وهو يَجمَعُ وَفْرَتَه وصَفاءَه مِن المُكدِّراتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٤).

كما قال تعالى: ﴿... لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: ٤].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ بتشديدِ الجيمِ، قيل معناه: مُبَطِّئينَ مُثَبِّطينَ، أي: يُثَبِّطونَ النَّاسَ عن اتِّباعِ الحَقِّ. وقيل: معناه: يَنسُبونَ المؤمنينَ إلى العَجزِ[1].

٢- قِراءةُ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بالتَّخفيفِ والألف، قيل: معناه: مُعانِدينَ. وقيل: معناه: ظانِّينَ أنَّهم يَغلِبونَ الرَّسولَ وأتباعَه. وقيل معناه: يَحسَبونَ أنَّهم يَفوتونَنا لإنكارِهم البَعثَ والثَّوابَ والعِقابَ، فلا نَقدِرُ على إعادتِهم ومُعاقَبَتِهم[2]!

---

(١) قرأ بها: ابنُ كثير، وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٥٤)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٨٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٨١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٥٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٥)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٨٤).

قال ابنُ جريرٍ: (الصَّوابُ مِن القول في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّهما قِراءتانِ مَشهورتان؛ قد قَرأَ بكلِّ واحدةٍ منهما علماءُ مِنَ القرَّاءِ، مُتقارِبَتَا المعنى؛ وذلك أنَّ مَن عَجَّزَ عن آياتِ اللهِ، فقد عاجزَ اللهَ، ومِن معاجزةِ اللهِ التَّعجيزُ عن آياتِ اللهِ، والعملُ بمعاصيه، وخلافِ أمْرِه. وكان مِن صِفَةِ القومِ الذين أَنزلَ اللهُ هذه الآياتِ فيهم أنَّهم كانوا يُبطِّئون الناسَ عن الإيمانِ باللهِ، واتِّباعِ رسولِه، ويُغالِبون رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَحسَبون أنَّهم يُعجِزونه، ويَغلِبونه، وقد ضَمِن اللهُ له نصْرَه عليهم، فكان ذلك مُعاجزتَهمُ اللهَ. فإذْ كان ذلك كذلك، فبأيِّ القِراءتَينِ قَرأَ القارئُ فمُصيبٌ الصَّوابَ في ذلك. وأمَّا المُعاجَزةُ فإنَّها المُفاعَلةُ، مِنَ العَجْزِ، ومعناه: مغالبةُ اثنَينِ أحدِهما صاحبَه، أيُّهما يُعجِزُه فيَغلِبُه الآخرُ ويَقهَرُه. وأمَّا التَّعجيزُ: فإنَّه التَّضعيفُ، وهو التَّفعيلُ مِنَ العَجْزِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٢).

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾.

أي: والذينَ سَعَوْا فِي إبطالِ آياتِ القُرآنِ وردِّها، مُعانِدينَ ومُشاقِّينَ لله وظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ فلا يَقدِرُ عليهم، أو يَغلِبونَ أولياءَه فلا يَنصُرُهم؛ أولئك في الآخرةِ سُكَّانُ الجَحيم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [سبأ: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠١، ٦٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٢).

قال الشِّنقيطي: (الظَّاهِرُ بحَسَبِ الوَضعِ العربيِّ في قراءة الجمهورِ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: هو اقتِضاءُ طَرَفينِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ لا يُعدَلُ عنه إلَّا لدليلٍ يجِبُ الرجوعُ إليه، والمفاعلةُ تقتضي الطَّرفَينِ إلَّا لدليلٍ يَصرِفُ عن ذلك، واقتِضاءُ المفاعلةِ الطَّرفينِ في الآيةِ مِن طَريقَينِ:

الأولى: هي ما قاله ابنُ عَرَفةَ مِن أنَّ معنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ في الآية: أنَّهم يُعاجِزونَ الأنبياءَ وأتباعَهم، فيُحاوِلُ كُلُّ واحدٍ منهما إعجازَ الآخَرِ، فالأنبياءُ وأتباعُهم يُحاوِلونَ إعجازَ الكُفَّارِ وإخضاعَهم لِقَبولِ ما جاء عن اللهِ تعالى، والكُفَّارُ يُقاتِلونَ الأنبياءَ وأتباعَهم ويُمانِعونَهم؛ لِيُصَيِّروهم إلى العَجزِ عن أمرِ الله، وهذا الوجهُ ظاهِرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ وعليه فمَفعولُ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ محذوفٌ، أي: مُعاجِزينَ الأنبياءَ وأتباعَهم، أي: مُغالِبينَ لهم؛ لِيُعجِزوهم عن إقامةِ الحَقِّ.

الطريقةُ الثانيةُ: هي التي ذكَرْناها آنفًا عن الزَّجَّاجِ أنَّ معنى مُعاجِزينَ: ظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَ رَبَّهم، فلا يَقدِرُ عليهم؛ لِزَعمِهم أنَّه لا يَقدِرُ على بَعثِهم بعد الموتِ... والوجهُ الأوَّلُ أظهرُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٨٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إنَّ العملَ لا ينفعُ إلَّا إذا كان صالحًا، والصالحُ ما تضمَّن شيئينِ: الإخلاصَ لله، واتِّباعَ شريعتِه[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يُبيِّنُ أنَّ مَن جمَعَ بينَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، فاللهُ تعالى يجمَعُ له بينَ المَغفِرةِ والرِّزقِ الكَريمِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فيه سؤالٌ: إنْ قيل: إنَّ النبيَّ -عليه السَّلامُ- في هذه الآيةِ بَشَّرَ المؤمنين أوَّلًا، وأنذَرَ الكافرين ثانيًا، فكان القياسُ أنْ يُقالَ: قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنَّما أنا لكم بَشيرٌ ونَذيرٌ؟

والجواب مِن عِدَّةِ أوجُهٍ:

منها: أنه عبَّرَ بقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ولم يقُلْ: (إنَّما أنا لكم بَشيرٌ ونَذيرٌ) مع أنَّه ذكَرَ الفريقينِ بعْدَهُ؛ لأنَّ الحديثَ مَسوقٌ إلى المُشركينَ. و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نِداءٌ لهم، وهم الَّذين قِيلَ فيهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ووُصِفوا بالاستعجالِ. وإنَّما ذُكِرَ المُؤمِنون هنا وما أعَدَّ اللهُ لهم مِن الثَّوابِ؛ ليُغاظَ المُشرِكون بذلك، ولِيُحرِّضَهم على نَيلِ هذه الرُّتبةِ الجليلةِ. ومنها: أنَّ فيه إيجازًا بالحَذْفِ، والتَّقديرُ: بَشيرٌ ونَذيرٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٢).

ومنها: أنَّه يَحتمِل أنَّ الآيةَ واردةٌ لبَيانِ ما يَترتَّبُ على الإنذارِ؛ مِن انتفاعِ مَن قَبِلَه، وهَلاكِ مَن رَدَّهُ، فكأنَّه قيل: أنذِرْ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكَفَرةَ وبالِغْ فيه؛ فمَن قَبِلَ منك وآمَنَ فلهُ الثَّوابُ، ومَن دام على ما كان في إبطالِ ما جِئْتَ به وسَعى فيه، فقد أدَّيْتَ حَقَّك؛ فقاتِلْهم ليُعَذِّبَهم اللهُ تعالى في الدُّنيا بالقتْلِ، وفي الآخرةِ بالجحيمِ؛ فلا يكونُ ذِكْرُ المُؤمنينَ لاغتمامِهم[١].

ومنها: أنَّ النِّذارةَ هي المقصودُ الأَعظَمُ مِنَ الدَّعوةِ؛ لأنَّه لا يُقدِمُ عليها إلَّا المؤيَّدون برُوحٍ مِنَ الله[٢].

٢- السَّعْيُ يُطْلَقُ على العملِ في الأمرِ لإفسادِه وإصلاحِه، ومِن استعمالِه في الإفسادِ قولُه تعالَى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، ومِنْ إطلاقِ السَّعيِ في العملِ للإصلاحِ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، وقولُه: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ * وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ الآيةَ [عبس: ٨ - ٩]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ. ومِن إطلاقِ السَّعيِ على الخيرِ والشَّرِّ مَعًا قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[٣] [الليل: ٤ - ١١].

بلاغة الآيات:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ استِئنافٌ، وافتِتاحُه بـ﴿قُلۡ﴾؛ للاهتمامِ به، وافتتاحُ المَقولِ بنِداءِ النَّاسِ؛ لِلَفْتِ ألْبابِهم إلى الكَلامِ. وفيه تَثبيتٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَسليةٌ له فيما يَلْقاهُ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٣، ٢٩٤).

- وقَصْرُ النَّبيِّ على صِفَةِ النِّذارةِ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: لسْتُ طالِبًا نِكايَتَكم، ولا تَزلُّفًا إليكم؛ فمَن آمَن فلِنفْسِه، ومَن عَمِيَ فعليها(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فرَّعَ على الأمْرِ بالقولِ تَقْسيمَ النَّاسِ في تَلقِّي هذا الإنذارِ المأْمورِ الرَّسولُ بتَبْليغِه إلى مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ؛ لِبَيانِ حالِ كِلَا الفريقينِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ تَرغيبًا في الحالةِ الحُسْنى، وتَحذيرًا مِن الحالةِ السُّوأَى(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، وقال بَعْدَه بآياتٍ: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج: ٥٦]؛ فاختلَفَ الجزاءُ مع اتِّفاقِ وَصْفِهم بالإيمانِ وعمَلِ الصَّالحاتِ؛ فوقَعَ في الأوَّلِ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، وفي الثَّاني: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ قيل: ووَجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأُولى إخبارٌ لهم عندَ دُعائِهم قبْلَ أنْ يُؤمِنوا، ولَمَّا ذَكَرَ في الآيةِ الأُولى حالَهم في الدَّارِ الأُخرى بعْدَ انصرامِ الدُّنيا، وحُصولِ اتِّصافِهم بالإيمانِ وأعمالِ الطَّاعاتِ، أُخْبِروا فيها بالحاصلِ مِن المَغفرةِ، وبُيِّنَ لهم الرِّزقُ الكريمُ، وأنَّه نَعيمُ الجنَّةِ والخُلودُ الأبديُّ فيها؛ فالآيةُ الأُولى تَضمَّنَت وَعْدَهم إنْ آمَنُوا، وذلك عندَ دُعائِهم إلى الإيمانِ، ثمَّ أُخْبِروا ثانيًا بالحاصِلِ لهم؛ بَيانًا لِمَضمونِ البِشارةِ الأُولى، وإخْبارًا لهم بغايةِ الجَزاءِ؛ فالآيةُ الثَّانيةُ بَيانٌ وتَفصيلٌ لِمَا أُجْمِلَ في الأُولى، مُرَتَّبٌ عليه وآتٍ بعْدَه بما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٤).

يجِبُ فيما يأْتي فيه الإجمالُ والتَّفصيلُ، فكأنَّهم قالوا: ما الرِّزقُ الكريمُ؟ فقيل لهم: جنَّاتُ النَّعيمِ؛ فورَدَ كلٌّ مِن الآيتينِ على ما يُناسِبُ ويُلائِمُ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: والَّذين استمَرُّوا على الكُفْرِ، وعبَّر عن الاستمرارِ بالسَّعيِ في الآياتِ؛ لأنَّه أخَصُّ مِن الكُفْرِ، وذلك حالُ المُشركينَ المُتحدَّثِ عنهم. والكلامُ تَمثيلٌ؛ شُبِّهَت هَيئةُ تَفنُّنِهم في التَّكذيبِ بالقُرآنِ، وتَطلُّبِ المعاذيرِ لنَقضِ دَلائلِه مِن قولِهم: هو سِحرٌ، هو شِعرٌ، هو أساطيرُ الأوَّلينَ، هو قولُ مَجنونٍ، وتَعرُّضِهم بالمُجادَلاتِ والمُناقَضاتِ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بهَيئةِ السَّاعي في طَريقٍ يُسابِقُ غيرَه؛ ليَفُوزَ بالوُصولِ[٢].

- قولُه: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في تَقديمِ المجرورِ المُؤْذِنِ بالاهتمامِ بنِذارتِهم: إشارةٌ إلى أنَّهم مُشرِفون على شَرٍّ عظيمٍ؛ فهم أحْرِياءُ بالنِّذارةِ[٣].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فيه التَّصديرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُخبَرَ عنهم جَديرونَ بما سيَرِدُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكْمِ؛ لأجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَه مِن الأوصافِ[٤].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٦١، ٣٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٩٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٩٦).

الآيات (٥٢-٥٤)

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: أي: تلا القُرآنَ وقَرَأه، و﴿أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾: أي: تِلاوَتِه، وأصلُ (مني): يدُلُّ على تَقديرِ شَيءٍ؛ لأنَّ القِراءةَ تَقديرٌ ووَضعُ كلِّ آيةٍ مَوضِعَها. وقيل: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ مِنَ التَّمَنِّي المعروفِ[(١)].

﴿فَيَنسَخُ﴾: أي: يُبطِلُ ويُزيلُ، وأصلُ النَّسخِ: يدُلُّ على إزالةِ شَيءٍ بشَيءٍ يتعَقَّبُه[(٢)].

﴿يُحۡكِمُ﴾ أي: يخلِّصُ أو يُثبِتُ، وأصلُ (حكم): هو المنعُ[(٣)].

﴿فَتُخۡبِتَ﴾: أي: تَخضَعَ وتَلِينَ، وأصلُ (خبت): يدُلُّ على خُشوعٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحمَّدُ- مِن رَسولٍ ولا نَبيٍّ إلَّا إذا قرأ وتلا ألقَى الشَّيطانُ في قِراءَتِه الشُّبَهَ والوَساوِسَ؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عن اتِّباعِ ما يَقرَؤُه ويَتلُوه، لكِنَّ اللهَ يُبطِلُ كَيدَ الشَّيطانِ، فيُزيلُ وَساوِسَه، ويُثبتُ آياتِه الواضِحاتِ في مَبانيها ومَعانيها، واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ.

وهذا الفِعلُ مِنَ الشَّيطانِ جعَلَه اللهُ فتنةً للذينَ في قُلوبِهم شَكٌّ ونِفاقٌ، ولِقُساةِ القُلوبِ مِن المُشرِكينَ الذين لا يُؤَثِّرُ فيهم زَجرٌ، وإنَّ الظَّالِمينَ مِن هؤلاء وأولئك في عداوةٍ شَديدةٍ لله ورَسولِه، وخِلافٍ للحَقِّ بَعيدٍ عن الصَّوابِ؛ ولِيَعلَمَ أهلُ العِلمِ الذين يُفَرِّقونَ بعِلمِهم بين الحَقِّ والباطِلِ أنَّ القُرآنَ الكريمَ هو الحَقُّ النَّازِلُ مِن عندِ اللهِ عليك، لا شُبهةَ فيه، ولا سَبيلَ للشَّيطانِ إليه، فيَزدادَ به إيمانُهم، وتَخضَعَ له قلوبُهم، وإنَّ اللهَ لهادي الذين آمَنوا به وبرَسولِه إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ، وهو الإسلامُ، يُنقِذُهم به من الضَّلالِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

أي: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحمَّدُ- مِن رَسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تلا وقرَأ[1]

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧).

(١) نسبَ ابنُ الجوزي، والخازنُ، والشنقيطي معنى التمنِّي المذكورِ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٨٠). =

= قال ابنُ القيم: (والسَّلَفُ كُلُّهم على أنَّ المعنى: إذا تلا ألقَى الشَّيطانُ فى تلاوتِه). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٩٣).

وممن قال به مِن السلفِ: مجاهدٌ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠٩، ٦١٠). ونسَبه الرسعنيُّ لابنِ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٨٠).

وقال ابنُ جرير: (فتأويلُ الكلام إذَنْ: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك مِن رَسولٍ ولا نَبيٍّ إلَّا إذا تلا كتابَ اللهِ وقرَأَ، أو حدَّث وتكَلَّم؛ ألقى الشَّيطانُ في كتابِ الله الذي تلاهُ وقَرأه، أو في حديثِه الذي حدَّث وتكَلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٠).

وقيل: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ في الآيةِ مِنَ التَّمَنِّي المعروف، وهو تمنِّيه إسلامَ أمَّتِه وطاعتَهم لله ولرُسُلِه. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الخازن، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٨).

وممن قال مِن السلفِ إنَّ التمنِّي مِن الأمنيَّةِ: محمدُ بن كعب القُرَظي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٦).

قال الشنقيطي: (ومفعولُ ﴿أَلْقَى﴾ محذوفٌ؛ فعلى أنَّ ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بمعنى: أحبَّ إيمانَ أمَّتِه وعَلَّقَ أمَلَه بذلك؛ فمفعولُ ﴿أَلْقَى﴾ يظهَرُ أنَّه من جنسِ الوَساوِسِ، والصَّدِّ عن دينِ اللهِ؛ حتى لا يَتِمَّ للنبيِّ أو الرَّسولِ ما تمنَّى. ومعنى كونِ الإلقاءِ في أمنيَّتِه على هذا الوجهِ: أنَّ الشَّيطانَ يُلقي وساوِسَه وشُبَهَه؛ لِيَصُدَّ بها عمَّا تَمَنَّاه الرسولُ أو النبيُّ، فصار الإلقاءُ كأنَّه واقعٌ فيها بالصَّدِّ عن تمامِها والحيلولةِ دونَ ذلك). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٨٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (للنَّاسِ فيها قولانِ مَشهوران؛ بَعدَ اتِّفاقِهم على أنَّ التَّمنِّي هو التِّلاوةُ والقرآنُ كما عليه المفسِّرون مِنَ السَّلفِ، كما في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، وأمَّا مَن أوَّلَ التمنِّي على تَمنِّي القلبِ، فذاكَ فيه كلامٌ آخَرُ؛ وإنْ قيل: إنَّ الآيةَ تَعُمُّ النَّوعينِ؛ لكنَّ الأوَّلَ هو المعروفُ المشهورُ في التَّفسيرِ، وهو ظاهرُ القرآنِ، ومُرادُ الآيةِ قَطْعًا؛ لقولِه بَعدَ ذلك: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٢، ٥٣]. وهذا كلُّه لا يَكونُ في مُجرَّدِ القلبِ إذا لَمْ يتكلَّم به النَّبيُّ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٩٠، ١٩١).

وممَّن جَمَع بين المعاني السَّابقة: البقاعيُّ؛ حيث قال: (﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تلا على النَّاسِ ما أمرَه اللهُ به، أو حَدَّثَهم به، واشتهى في نَفسِه أن يَقبَلوه؛ حِرصًا منه على إيمانِهم، وشَفَقةً عليهم ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: ما تلاه أو حَدَّث به واشتهى أن يُقبَلَ، مِن الشُّبَهِ والتخيُّلاتِ =

أَلقَى الشَّيطانُ في قراءتِه الشُّبَهَ والوَساوِسَ؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عن اتِّباعِ ما يَقرَؤُه ويَتْلوه(١).

= ما يتلقَّفُه منه أولياؤُه فيُجادِلون به أهلَ الطَّاعةِ؛ لِيُضِلُّوهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٧٠).

وقال الراغب: (لمَّا كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كثيرًا ما كان يبادرُ إلى ما نزَل به الرُّوحُ الأمينُ على قلبِه حتى قيل له: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [طه: ١١٤]، و﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]؛ سمَّى تلاوتَه على ذلك تمنِّيًا، ونبَّه أنَّ للشيطانِ تسلُّطًا على مثلِه في أمنيَّتِه، وذلك من حيثُ بيَّن أنَّ العجلةَ مِن الشَّيطانِ). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٧٨٠).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨).

قال الشنقيطي: (الذي يَظهَرُ لنا أنَّه الصَّوابُ، وأنَّ القُرآنَ يدُلُّ عليه دَلالةً واضِحةً، وإن لم يَنتَبِهْ له مَن تكَلَّمَ على الآيةِ من المفَسِّرينَ: هو أنَّ ما يلقيه الشَّيطانُ في قراءةِ النبيِّ: الشكوكُ والوساوِسُ المانِعةُ من تصديقِها وقَبولِها، كإلقائِه عليهم أنَّها سِحرٌ أو شِعرٌ، أو أساطيرُ الأوَّلينَ، وأنَّها مُفتراةٌ على اللهِ ليست مُنَزَّلةً مِن عنده. والدَّليلُ على هذا المعنى: أنَّ اللهَ بَيَّنَ أنَّ الحِكمةَ في الإلقاءِ المذكورِ امتِحانُ الخَلقِ؛ لأنَّه قال تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾؛ فقَولُه: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآيةَ، يدُلُّ على أنَّ الشَّيطانَ يُلقي عليهم أنَّ الذي يَقرَؤه النبيُّ ليس بحَقٍّ، فيُصَدِّقُه الأشقياءُ، ويكونُ ذلك فِتنةً لهم، ويكَذِّبُه المؤمِنونَ الذين أوتُوا العِلمَ، ويَعلَمونَ أنَّه الحَقُّ لا الكَذِبُ، كما يزعم لهم الشَّيطانُ في إلقائِه، فهذا الامتحانُ لا يُناسِبُ شَيئًا زاده الشَّيطانُ مِن نَفْسِه في القراءةِ، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((المصدر السابق)).

وقال ابن تيميَّةَ: (وإذا كان التَّمنِّي لا بدَّ أنْ يَدخُلَ فيه القولُ، ففيه قولان: «الأوَّل»: أنَّ الإلقاءَ هو في سمْعِ المُستَمعينَ، ولمْ يَتكلَّمْ به الرَّسولُ. وهذا قولُ مَن تأوَّلَ الآيةَ بمنعِ جَوازِ الإلقاءِ في كلامِه. و«الثاني» -وهو الذي عليه عامَّةُ السَّلفِ ومَنِ اتَّبعَهم-: أنَّ الإلقاءَ في نفْسِ التلاوةِ، كما دلَّتْ عليه الآيةُ وسياقُها مِن غَيرِ وجْهٍ، كما ورَدَتْ به الآثارُ المتعدِّدةُ، ولا مَحذورَ في ذلك إلَّا إذا أُقِرَّ عليه، فأمَّا إذا نَسَخَ اللهُ ما أَلْقى الشَّيطانُ وأَحكَمَ آياتِه فلا مَحذورَ في ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٩١).

وقد رُويَ في سببِ نُزولِ هذه الآيةِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرَأَ بمكَّةَ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، فلمَّا بَلَغَ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، أَلْقى الشَّيطانُ =

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

أي: فيُذهِبُ اللهُ ويُزيلُ ما يُلقيه الشَّيطانُ مِن الباطِلِ في قراءةِ نَبيِّه، ولا يتأثَّرُ بباطِلِه المُؤمِنونَ[1].

﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: ثمَّ يُخَلِّصُ اللهُ آياتِ كِتابِه مِنَ الباطِلِ الذي ألقاه الشَّيطانُ، ويَحفَظُها

= على لسانِه: تلك الغَرانيقُ [أي: الأصنامُ] العُلى، وإنَّ شَفاعتَهُنَّ لتُرتَجى! فقال المشركون: ما ذَكَرَ آلهتَنا بخَيرٍ قَبلَ اليَومِ! فسَجَد وسَجَدوا؛ فنزلتْ هذه الآيةُ.

قال القرطبي عن هذه الروايةِ وغيرِها: (الأحاديثُ المرويَّةُ في نزولِ هذه الآيةِ ليس منها شَيءٌ يَصِحُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٠).

وقال ابنُ كثير: (قد ذكر كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ هاهنا قِصَّةَ الغرانيقِ، وما كان من رجوعِ كَثيرٍ مِن المُهاجِرةِ إلى أرضِ الحَبَشةِ؛ ظنًّا منهم أنَّ مُشركي قريشٍ قد أسلموا، ولكِنَّها من طرقٍ كُلُّها مُرسَلةٌ، ولم أرَها مُسنَدةً مِن وَجهٍ صَحيحٍ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١).

وقال الشَّوكانيُّ: (لَمْ يَصِحَّ شيءٌ مِن هذا، ولا ثَبَتَ بوجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، ومع عدَمِ صِحَّتِه -بل بُطلانِه- فقد دفعَه المُحقِّقون بكِتابِ اللهِ سُبحانَه؛ قال اللهُ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ * لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، وقولُه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، وقولُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الإسراء: ٧٤]، فنَفى المقاربةَ للرُّكونِ، فضْلًا عن الرُّكونِ. قال البَزَّارُ: هذا حديثٌ لا نَعْلَمُه يُروى عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإسنادٍ مُتَّصِلٍ. وقال البَيهقيُّ: هذه القصَّةُ غيرُ ثابتةٍ مِن جهةِ النَّقلِ. ثمَّ أَخَذ يَتكلَّمُ أنَّ رُواةَ هذه القصَّةِ مَطعونٌ فيهم. وقال إمامُ الأئمَّةِ ابنُ خُزيمةَ: إنَّ هذه القصَّةَ مِن وضْعِ الزَّنادقةِ. قال القاضي عِياضٌ في الشِّفا: إنَّ الأُمَّةَ أجمَعَتْ فيما طريقُه البَلاغُ أنَّه معصومٌ فيه مِنَ الإخبارِ عن شيءٍ بخلافِ ما هو عليه، لا قصْدًا ولا عَمْدًا، ولا سَهْوًا ولا غلَطًا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٦).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٣٧).

ويُنظَرُ الكلامُ عن رواياتِ هذه القصَّةِ وعِلَلِها في: ((نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)) للألباني (ص: ١٠) فما بعدها.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٣/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨).

ويُبيِّنُها، ويُظهِرُ أنَّها وحيٌ مُنَزَّلٌ منه بحَقٍّ(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، فيَعلَمُ ما يكونُ مِن الأمورِ، وما يَحدُثُ في خَلْقِه، ومِن جملةِ ذلك عِلمُه بما يُوحيه إلى نبيِّه، وبقَصدِ الشَّيطانِ؛ حَكيمٌ في كُلِّ ما يفعَلُه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللائِقِ به، ومِن جُملةِ ذلك حِكمَتُه في تمكينِ الشَّيطانِ مِن إلقاءِ الباطِلِ، ومِن حِكمَتِه أنَّه لا يَدَعُه حتى يَكشِفَه ويُزيلَه(٢).

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه ما حكَمَ به مِن تمكينِ الشَّيطانِ مِن هذا الإلقاءِ؛ ذكَرَ العِلَّةَ في ذلك، فقال(٣):

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: مِن كَمالِ حِكمَتِه سُبحانَه أنْ مكَّن الشَّيطانَ مِن الإلقاءِ المَذكورِ؛ ليَجعَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨).

قال الشنقيطي: (معنى ﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يُتقِنُها بالإحكامِ، فيُظهِرُ أنهَّا وَحيٌ مُنَزَّلٌ منه بحَقٍّ، ولا يُؤَثِّرُ في ذلك محاولةُ الشيطانِ صَدَّ النَّاسِ عنها بإلقائِه المذكورِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٥)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٢).

إلقاءَه فِتنةً للذينَ في قُلوبِهم شَكٌّ ونفاقٌ، ولأصحابِ القُلوبِ القاسيةِ التي لا تَلينُ للحقِّ، ولا تَرْجِعُ إلى الصَّوابِ، وهم المشركونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۞ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

أي: وإنَّ هذَينِ الفريقَينِ لَفي خِلافٍ ومُعانَدةٍ لأمرِ اللهِ، وضَلالٍ بَعيدٍ عن الحقِّ والصَّوابِ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١، ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٩).

قيل: المرادُ بالفتنةِ: الاختبارُ، وممن اختاره: ابن جرير، ومكي، والبقاعي، والعليمي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١١)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٩١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٤١).

وقيل: المرادُ بها الضلالةُ، وممن اختاره: القرطبي، والشوكاني. ينظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٧).

وقال الشنقيطي: (ومعنَى كونِه: فِتْنَةً لهم أنَّه سَبَبٌ لِتَمادِيهم فِي الضَّلالِ والكفرِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٢).

لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾.

أي: ولِيَعلَمَ الذين آتاهم اللهُ العِلمَ النَّافِعَ الذي يُفَرِّقونَ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ أنَّ ما أنزَلَه اللهُ هو الحَقُّ لا غيرُه مِمَّا ألقاه الشَّيطانُ، فيُؤمِنوا بالقُرآنِ، ويَعمَلوا به، ويَزدادوا هُدًى[1].

﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: فتَخضَعَ وتَلينَ قلوبُهم للحَقِّ الذي جاء مِن عِندِ اللهِ، وتَطمَئِنَّ به، وتُذعِنَ إليه وتُقِرَّ[2].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَمُرشِدُ المؤمِنينَ إلى طريقِ الحَقِّ، ومُوَفِّقُهم لاتِّباعِه واجتِنابِ الباطِلِ، فلا يَضُرُّهم كَيدُ الشَّيطانِ وإلقاؤُه الباطِلَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢). =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾، في هذه الآيةِ أخبَرَ اللهُ سُبحانَه أنَّه ما أرسَلَ مِن رسولٍ ولا نبيٍّ إلَّا إذا تمنَّى ألقى الشَّيطانُ في أُمنيَّتِه، أي: إذا تَلَا ألقى الشَّيطانُ في تِلاوتِه، فإذا كان هذا فِعْلَ الشَّيطانِ مع الرُّسُلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فكيف بغَيرِهم؟! ولهذا يُغَلِّطُ القارئَ تارةً، ويُخَبِّطُ عليه القِراءةَ ويُشَوِّشُها عليه؛ فيُخَبِّطُ عليه لسانَه، أو يُشَوِّشُ عليه ذِهنَه وقلبَه، فإذا حضَرَ عِندَ القِراءةِ لم يَعْدَمْ منه القارئُ هذا أو هذا، وربَّما جمَعَهما له؛ فكان مِن أهمِّ الأمورِ: الاستعاذةُ باللهِ تعالى منه عِندَ القِراءةِ[1].

٢- قد ذكر سُبحانَه أنواعَ القُلوبِ في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ * وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾؛ فذكَرَ القَلبَ المَريضَ، وهو الضَّعيفُ المُنحَلُّ الذي لا تَثبُتُ فيه صورةُ الحَقِّ، والقَلبَ القاسِيَ اليابِسَ الذي لا يَقبَلُها ولا تَنطَبِعُ فيه؛ فهذانِ القَلبانِ شَقِيَّانِ

= قال ابنُ كثير: (﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرةِ؛ أمَّا في الدنيا فيُرشِدُهم إلى الحَقِّ واتِّباعِه، ويوَفِّقُهم لمخالفةِ الباطِلِ واجتنابِه، وفي الآخرةِ يهديهم إلى الصِّراطِ المُستقيمِ المُوصِلِ إلى دَرَجاتِ الجنَّاتِ، ويُزَحزِحُهم عن العذابِ الأليمِ والدَّرَكاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٣).

مُعَذَّبانِ، ثمَّ ذكَرَ القَلبَ المُخبِتَ المُطمَئِنَّ إليه، وهو الذي ينتَفِعُ بالقُرآنِ ويزكو به[١]، فجَعَل اللهُ سُبحانَه وتعالى القلوبَ في هذه الآياتِ ثلاثةً: قلبَينِ مَفْتونَينِ، وقلْبًا ناجيًا؛ فالمَفْتونانِ: القلبُ الذي فيه مرَضٌ، والقلبُ القاسي. والناجي: القلبُ المؤمِنُ المُخْبِتُ إلى ربِّه، وهو المُطْمَئِنُّ إليه، الخاضعُ له، المُستسلِمُ المُنقادُ.

وذلك أنَّ القلبَ وغَيرَه مِنَ الأعضاءِ يُرادُ منه أنْ يَكونَ صحيحًا سليمًا لا آفةَ به، يَتأتَّى منه ما هُيِّئ له وخُلِق لأجْلِه. وخُروجُه عن الاستقامةِ إمَّا ليُبْسِه وقَساوتِه، وعدمِ التَّأتِّي لِما يُرادُ منه، كاليَدِ الشَّلَّاءِ، واللِّسانِ الأخرسِ، والعَينِ التي لا تُبصِرُ شيئًا، وإمَّا بمرضٍ وآفةٍ فيه تَمنَعُه مِن كمالِ هذه الأفعالِ ووُقوعِها على السَّدادِ؛ فلذلك انقسمَتِ القلوبُ إلى هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ.

فالقلبُ الصَّحيحُ السَّليمُ: ليس بيْنه وبيْن قَبولِ الحقِّ ومَحبَّتِه وإيثارِه سِوى إدراكِه، فهو صحيحُ الإدراكِ للحقِّ، تامُّ الانقيادِ والقَبولِ له.

والقلبُ المَيِّتُ القاسي: لا يَقبَلُه، ولا يَنقادُ له.

والقلبُ المريضُ: إنْ غَلَبَ عليه مرَضُه التَحَقَ بالمَيِّتِ القاسي، وإنْ غلبَتْ عليه صِحَّتُه التَحَقَ بالسَّليمِ.

فما يُلقيه الشَّيطانُ في الأسماعِ مِنَ الألفاظِ، وفي القلوبِ مِنَ الشُّبَهِ والشُّكوكِ: فيه فِتنةٌ لهذَينِ القلبَينِ، وقوَّةٌ للقلبِ الحيِّ السَّليمِ؛ لأنَّه يَرُدُّ ذلك ويَكرَهُه ويُبغِضُه، ويَعلَمُ أنَّ الحقَّ في خلافِه، فيُخبِتُ للحقِّ قلْبُه، ويَطمئنُّ ويَنقادُ، ويَعلمُ بُطلانَ ما ألْقاه الشَّيطانُ؛ فيَزدادُ إيمانًا بالحقِّ ومحبَّةً له، وكُفرًا بالباطل وكَراهةً له. فلا يَزالُ القلبُ المَفتونُ في مِرْيةٍ مِن إلقاءِ الشَّيطانِ، وأمَّا القلبُ الصَّحيحُ

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٦).

السَّليمُ فلا يَضُرُّه ما يُلقيه الشَّيطانُ أبدًا(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ دالٌّ على أنَّ للنَّبيِّ معنًى غيرَ معنَى الرَّسولِ، وليس مرادفًا له؛ وذلك لعطفِه عليه(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ * لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ * وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فيه عِصمةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما استقرَّ تَبليغُه مِن الرِّسالةِ، باتِّفاقِ المُؤمِنينَ(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٧).

والفرقُ بينَ النبيِّ والرسولِ: أنَّ النبيَّ هو الذي يُنبِّئُه الله، وهو ينبِّئُ بما أنبأ الله به؛ فإن أُرسِل مع ذلك إلى مَن خالَف أمرَ الله؛ ليبلغَه رسالةً مِن الله إليه؛ فهو رسولٌ، وليس مِن شرطِ الرسولِ أن يأتيَ بشريعةٍ جديدةٍ، وأمَّا إذا كان يعملُ بشريعةِ مَن قبلَه، ولم يُرسَلْ هو إلى أحدٍ يبلغه عن الله رسالةً؛ فهو نبيٌّ، وليس برسولٍ، فالأنبياءُ يأتيهم وحيٌ مِن الله بما يفعلونه، ويأمرون به مَن آمَن بهم. وقيل: الرسول: مَن أُنزل إليه كتابٌ مستقلٌّ، كمحمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وموسى عليه السلامُ، والنبيُّ: مَن أُمِر بأن يتعبَّدَ بكتابٍ منزَّلٍ على غيرِه، كأنبياءِ بني إسرائيلَ الذين يُؤمرون بالتعبُّدِ بما في التوراةِ. يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٥٠١).

ﵟٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦﵞ هذه الآيةُ لا تعارُضَ بيْنها وبين الآيةِ المصرِّحةِ بأنَّ الشَّيطانَ لا سُلطانَ له على عبادِ الله المؤمِنينَ المتوكِّلينَ، ومعلومٌ أنَّ خيارَهم الأنبياءُ، كقوله تعالى: ﵟإِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَﵞ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقولِه تعالى: ﵟإِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَﵞ [الحجر: ٤٢]، وقولِه تعالى: ﵟقَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَﵞ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقولِه تعالى: ﵟوَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيﵞ [إبراهيم: ٢٢]. ووجهُ كونِ الآياتِ لا تعارُضَ بينها: أنَّ سُلطانَ الشَّيطانِ المنفيَّ عن المؤمنينَ المتوكِّلينَ في معناهُ وجهانِ للعلماءِ:

الأول: الحُجَّةُ الواضِحةُ، وعليه فلا إشكالَ؛ إذ لا حُجَّةَ مع الشيطانِ البتَّةَ، كما اعترف به فيما ذكَر اللهُ عنه في قولِه: ﵟوَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيﵞ [إبراهيم: ٢٢].

الثاني: أنَّ معناه: لا تَسلُّطَ له عليهم بإيقاعِهم في ذنْبٍ يَهلِكونَ به، ولا يتوبونَ منه، فلا يُنافي هذا ما وقَع مِن آدمَ وحوَّاءَ وغيرِهما؛ فإنَّه ذنْبٌ مغفورٌ؛ لوقوعِ التوبة منه، فإلقاءُ الشَّيطانِ في أمنيةِ النبيِّ -سواءٌ فسَّرناها بالقراءةِ، أو التمنِّي لإيمانِ أمَّتِه- لا يتضمَّنُ سُلطانًا للشيطانِ على النبيِّ، بل من جنسِ الوسوسةِ وإلقاءِ الشُّبَهِ لصَدِّ النَّاسِ عن الحَقِّ، كقَولِه: ﵟوَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِﵞ[1] [النمل: ٢٤].

٤- في قَولِه: ﵟوَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٥٩-١٦١).

بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ ﴾ دليلٌ على أنَّ العِلمَ يدُلُّ على الإيمانِ، ليس أنَّ أهلَ العِلمِ ارتَفَعوا عن دَرجةِ الإيمانِ -كما يتوهَّمُه طائفةٌ مِنَ المتكَلِّمةِ- بل معهم العِلمُ والإيمانُ، كما قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ [النساء: ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٥٦] الآيةَ[(١)].

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾

- القصْرُ المُستفادُ مِن النَّفيِ والاستثناءِ في قولِه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ قَصْرُ مَوصوفٍ على صِفَةٍ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: دونَ أنْ نُرسِلَ أحدًا منهم في حالِ الخُلُوِّ مِن إلْقاءِ الشَّيطانِ ومَكْرِه[(٢)].

- و(مِن) في قولِه: ﴿ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ زائدةٌ، تُفِيدُ استغراقَ الجِنْسِ؛ فأفادَ أنَّ ذلك لم يَعْدُ أحدًا مِن الأنبياءِ والرُّسلِ[(٣)].

- قَولُه: ﴿ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ مَفعولُ ﴿ أَلۡقَى ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه المَقامُ؛ لأنَّ الشَّيطانَ إنَّما يُلْقِي الشَّرَّ والفسادَ، فإسنادُ التَّمنِّي إلى الأنبياءِ دَلَّ على أنَّه تَمنِّي الهُدى والصَّلاحِ -وذلك على أحدِ القولينِ في معنَى التمنِّي-، وإسنادُ الإلْقاءِ إلى الشَّيطانِ دَلَّ على أنَّه إلْقاءُ الضَّلالِ والفسادِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٨).

- قولُه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ في كِلْتا الجُملتينِ إيجازٌ بالحَذْفِ، أي: يَنسَخُ آثارَ ما يُلْقِي الشَّيطانُ، ويُحكِمُ آثارَ آياتِه[١]. والإتيانُ بصِيغَةِ المُضارِعِ في الفِعْلينِ (فَيَنْسَخُ - يُحْكِمُ)؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ التَّجدُّديِّ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إظهارٌ لِلَفْظِ الجَلالةِ في مَوقِعِ الإضمارِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بأنَّ الأُلوهيَّةَ مِن مُوجِباتِ إحكامِ آياتِه الباهرةِ[٣].

- و(ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لأنَّ إحكامَ الآياتِ وتَقريرَها أهَمُّ مِن نَسْخِ ما يُلْقِي الشَّيطانُ؛ إذ بالإحكامِ يَتَّضِحُ الهُدى، ويَزدادُ ما يُلْقِيه الشَّيطانُ نَسْخًا[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ[٥]، وفيه أيضًا إظهارٌ لِلَفْظِ الجَلالةِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بأنَّ الأُلوهيَّةَ مِن مُوجِباتِ إحكامِ آياتِه الباهرةِ، ولتأْكيدِ استِقلالِ الاعتراضِ التَّذييليِّ[٦].

٢- قولُه تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾

- قولُه: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عِلَّةٌ لتَمكينِ الشَّيطانِ مِن الإلْقاءِ، وذلك يدُلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٣).

على أنَّ المُلْقى أمْرٌ ظاهِرٌ عرَفَه المُحِقُّ والمُبْطِلُ[١]. وقيل: هي لامُ العاقِبةِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[٣].

- وذِكْرُ الظَّالمينَ في ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ من الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ عِلَّةَ كَونِهم في شِقاقٍ بَعيدٍ هي ظُلْمُهم[٤].

- قولُه: ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ في وَصْفِ الشِّقاقِ بالبعيدِ: مُبالَغةٌ في انتهائِه، وأنَّهم غيرُ مَرْجُوٍّ رَجْعَتُهم منه؛ فالبَعيدُ هنا مُستعمَلٌ في معنى: البالِغ حَدًّا قَوِيًّا في حَقيقتِه؛ تَشبيهًا لانتشارِ الحقيقةِ فيه بانتشارِ المسافةِ في المكانِ البعيدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، أي: دُعاءٍ كَثيرٍ مُلِحٍّ[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

- قَولُه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ اللامُ في ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ للتَّعليلِ، أي: يَنسَخُ اللهُ ما يُلْقي الشَّيطانُ؛ لإرادةِ أنْ يَعلَمَ المُؤمِنون أنَّه الحقُّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠١).

- والضَميرُ في ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ عائدٌ إلى العِلْمِ الَّذي أُوتُوه، أي: لِيَزدادوا يَقينًا بأنَّ الوحيَ الَّذي أُوتُوه هو الحقُّ لا غيرُه؛ فالقَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ الجُزأينِ في ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ قَصرٌ إضافيٌّ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿أَنَّهُ﴾ عائدًا إلى ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: أنَّ المذكورَ هو الحقُّ(١).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ الجُملةُ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قَبْلَه(٢).

- وإظهارُ لفْظِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في مَقامِ ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ لِقَصْدِ مَدْحِهم بوَصفِ الإيمانِ، والإيماءِ إلى أنَّ إيمانَهم هو سبَبُ هَدْيِهم(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٧).

الآيات (٥٥-٥٧)

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِرۡيَةٖ﴾: أي: شكٍّ، وقيل: المِرْيةُ: التردُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ مِن الشَّكِّ(١).

﴿بَغۡتَةً﴾: أي: فجأَةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغَتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذَا أتاه فجأةً، وأصْلُ (بغت): مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيث لا يحتسِبُ(٢).

﴿عَقِيمٍ﴾: أي: لا خَيْرَ فيه للكافرينَ، كأنَّ ذلك اليومَ عليهم يومٌ لا ليلَ لهم بَعدَه؛ مِن العُقمِ: وهو القَطعُ والمَنعُ، يُقالُ: رجُلٌ عَقيمٌ: إذا مُنِعَ مِن الوَلَدِ(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: ولا يَزالُ الكافِرونَ المُكَذِّبونَ في شَكٍّ مِنَ القُرآنِ إلى أن تأتيَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٤).

السَّاعةُ فَجأةً، وهم على تكذيبِهم، أو يأتيَهم عذابُ يومٍ عقيمٍ.

المُلكُ والسُّلطانُ يومَ القيامةِ لله وَحْدَه، وهو سُبحانَه يقضي بين المُؤمِنينَ والكافرينَ؛ فالذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ، لهم النَّعيمُ الدَّائِمُ في الجَنَّاتِ، والذينَ كَفَروا باللهِ ورَسولِه وكذَّبوا بآياتِ القُرآنِ لهم عذابٌ مُخزٍ مُذِلٌّ في جَهنَّمَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه حالَ الكافِرينَ أوَّلًا، ثمَّ حالَ المؤمنين ثانيًا، عاد إلى شرْحِ حالِ الكافرينَ مرَّةً أخرى[(١)].

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٖ مِّنۡهُ﴾.

أي: ولا يَزالُ الذين كَفَروا في شَكٍّ ورَيبٍ مِنَ القُرآنِ؛ لإعراضِهم وعنادِهم[(٢)].

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾.

أي: هم مُستَمِرُّونَ على تلك الحالِ إلى أن يأتيَهم يومُ القيامةِ فَجأةً، أو يأتيَهم عذابُ يَومٍ عقيمٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٥ - ٦١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٨).=

= اختلف المفسِّرون في المرادِ بقَولِه تعالى: ﴿عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ فقيل: المرادُ به يومُ القيامةِ. وممن قال بذلك: أبو حيان، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦- ٤٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩١).

وممن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ، وعِكرمةُ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في رواية عنه، والحَسَنُ البصري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦).

قال الزمخشريُّ: (عن الضَّحَّاكِ أنَّه يومُ القيامةِ، وأنَّ المرادَ بالسَّاعةِ مُقَدِّماتُه، ويجوزُ أن يرادَ بالسَّاعةِ وبِيَومٍ عَقيمٍ: يومُ القيامةِ، وكأنَّه قيل: حتى تأتيَهم الساعةُ أو يأتيَهم عذابُها، فوُضِعَ ﴿يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٦).

وقال ابنُ كثير: (وهذا القَولُ هو الصَّحيحُ، وإن كان يومُ بدرٍ مِن جملةِ ما أُوعِدوا به، لكِنَّ هذا هو المرادُ؛ ولهذا قال: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦، ٤٤٧).

وقال الشنقيطيُّ: (القرينةُ القُرآنيَّةُ هنا دلَّت على أنَّ المرادَ باليَومِ العَقيمِ: يومُ القيامةِ، لا يومُ بَدرٍ، وذلك أنَّه تعالى أتبَعَ ذِكرَ اليَومِ العَقيمِ بقَولِه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾، وذلك يومُ القيامةِ، وقَولُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يومَ إذْ تأتيهم السَّاعةُ، أو يأتيهم عذابٌ عَقيمٌ، وكلُّ ذلك يومَ القيامةِ. فظهر أنَّ اليَومَ العَقيمَ: يومُ القيامةِ، وإن كان يومُ بَدرٍ عَقيمًا على الكُفَّارِ؛ لأنَّهم لا خيرَ لهم فيه، وقد أصابَهم ما أصابهم). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٩١).

قيل: سُمِّيَ يَومُ القيامةِ عَقيمًا؛ لأنَّه لا ليلةَ بعدَه ولا يومَ، والأيَّامُ كأنَّها نتائجُ؛ لمجيءِ واحدٍ إثرَ واحدٍ، فكأنَّ آخِرَ يَومٍ قد عُقِمَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٠).

وقيل: المرادُ باليَومِ العَقيمِ: يومُ بَدرٍ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري، والرسعني -ونسبه لجمهور المفسرين-، وابن جزي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٦، ٦١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٨).

ومن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: أُبَيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جُبَير، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وعِكرمةُ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، والسُّدِّي، وابنُ جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٦).

قيل: إنَّما قيل له: يَومٌ عَقيمٌ؛ لأنَّهم لم يُنظَروا إلى اللَّيلِ، ولم يُؤَخَّروا فيه إلى المساءِ، لكِنَّهم =

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بيَّن سبحانَه حالَ الفريقينِ في الدُّنيا؛ أرشَد إلى حالِهم في الآخرةِ[1].

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: السُّلطانُ يومَ القيامةِ لله وَحْدَه، لا مُنازِعَ له فيه، يَحكُمُ فيه بالعَدلِ بينَ عِبادِه المُؤمِنينَ والكافرينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

= قُتِلوا قبلَ المساءِ؛ فكان لهم عقيمًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٠).

وقيل: يومُ بَدرٍ كان عقيمًا عن أن يكونَ للكافرينَ فيه فَرَحٌ أو راحةٌ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٨).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

قال ابنُ عاشور: (الحُكمُ بينهم: الحُكمُ فيما اختَلَفوا فيه مِن ادِّعاءِ كُلِّ فَريقٍ أنَّه على الحَقِّ، وأنَّ ضِدَّه على الباطِلِ... فقد يكونُ الحُكمُ بالقَولِ، وقد يكونُ بظهورِ آثارِ الحَقِّ لفَريقٍ، وظهورِ آثارِ الباطِلِ لفريقٍ، وقد فصَّلَ الحُكمَ بقَولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وهو تفصيلٌ لأثَرِ الحُكمِ يَدُلُّ على تفصيلِ أصلِه، أي: ذلك حُكمُ اللهِ بيْنَهم في ذلك اليومِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٩).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

أي: فالذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه وما جاء به مِن عندِ اللهِ تعالى، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ يكونونَ يومَ القيامةِ في جنَّاتِ النَّعيمِ، يَتنَعَّمونَ فيها بأرواحِهم وأبدانِهم(١).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ ثوابَ المُؤمِنينَ العامِلينَ للصَّالحاتِ؛ ثَنَّى بذِكرِ مَن يُقابِلُهم(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾.

أي: والذينَ كَفَروا باللهِ ورَسولِه وكذَّبوا بآياتِ القُرآنِ، فأولئك لهم يَومَ القيامةِ عَذابٌ مُخْزٍ ومُذِلٌّ في النَّارِ؛ جزاءً لهم على استِكبارِهم عن الحَقِّ، واستِهانتِهم بآياتِ اللهِ ورُسُلِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

قال ابنُ جرير: (﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ باللهِ ورَسولِه ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ بآياتِ كتابِه وتنزيلِه، وقالوا: ليس ذلك مِن عندِ اللهِ، إنَّما هو إفكٌ افتراه مُحمَّدٌ، وأعانه عليه قَومٌ آخَرونَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨).

وقال السعدي: (﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ باللهِ ورُسُلِه ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ بآياتِه الهاديةِ للحَقِّ والصَّوابِ، فأعرَضوا عنها، أو عاندوها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصالحُ مبنيٌّ على الإيمانِ، فعملٌ بلا إيمانٍ لا فائدةَ منه، فالمنافقون يَعملون، ويَذْكرون الله، ويُصَلُّون، ويتصدَّقون، ولكن ليس عندَهم إيمانٌ؛ فلا ينفعُهم، ولهذا يقدِّمُ الله عزَّ وجلَّ الإيمانَ على العملِ الصالحِ[(١)].

٢- الإيمانُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن عملٍ، والعملُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنةَ إلَّا مَن جمَع بينَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وإذا ذُكِر ثوابُ الجنةِ مقيَّدًا أو معلَّقًا بالإيمانِ وحْدَه، فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصالحِ[(٢)].

٣- العملُ لا ينفعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا؛ قال تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصالحُ هو: الخالصُ الصوابُ؛ أي: ما ابتُغِي به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لَمَّا ذكَرَ عزَّ وجَلَّ أهلَ الإيمانِ وثوابَهم، ذكَرَ أصحابَ الشِّمالِ بعد ذلك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ لأنَّ القُرآنَ مَثانٍ، تُثَنَّى فيه الأمورُ والمعاني؛ ولهذا تجِدُ القُرآنَ الكريمَ في الغالبِ إذا ذكَرَ اللهُ الجنَّةَ ذكَرَ النَّارَ، وإذا ذكَرَ أولياءَ اللهِ ذكَرَ أعداءَ الله، والحِكمةُ مِن ذلك ألَّا يَمَلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٣).

الإنسانُ؛ لأنَّه كُلَّما تَنقَّلَ المعنى إلى معنًى آخَرَ نَشِطَ الإنسانُ، وحِكمةٌ أُخرى: أن يكونَ الإنسانُ سائرًا إلى الله، أي: مُتعَبِّدًا إلى الله بين الخَوفِ والرَّجاءِ؛ لأنَّه إذا مَرَّت به صفاتُ المؤمِنينَ قَوِيَ جانِبُ الرَّجاءِ، وإذا ذُكِرَت أحوالُ الكافِرينَ غَلَب جانِبُ الخَوفِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الكُفرُ قد يَصحَبُه التَّكذيبُ وقد لا يَصحَبُه؛ ولهذا أحيانًا يَذكُرُ اللهُ الكُفرَ فقط، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وأحيانًا يَذكُرُ التَّكذيبَ فقط، قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، وأحيانًا يَقرِنُ بينهما كما هنا؛ وذلك لأنَّ كُلًّا منهما قد يكونُ وَحْدَه مُوجِبًا للخُلودِ في النَّارِ، فإذا اجتَمَعا جميعًا صار ذلك أشَدَّ وأعظَمَ. والعياذُ باللهِ(٢).

٣- لم يَجِئْ إعدادُ العذابِ المُهينِ في القُرآنِ إلَّا في حَقِّ الكُفَّارِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧]، وقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٠٢]، وقَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [الحج: ٥٧] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، وأمَّا العذابُ العظيمُ فقد جاء وعيدًا للمُؤمِنينَ في قَولِه: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وقَولِه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]، وفي المحارِبِ: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٣) [المائدة: ٣٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ يدُلُّ على أنَّ الأعصارَ إلى قيامِ السَّاعةِ لا تخلو مِمَّن هذا وَصْفُه(١).

بلاغةُ الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ خصَّ في هذه الآيةِ الكافرينَ بالقُرآنِ بعْدَ أنْ عَمَّهم مع جُملةِ الكافرينَ بالرُّسلِ؛ فخَصَّهم بأنَّهم يَستمِرُّ شَكُّهم فيما جاء به محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَتردَّدونَ في الإقدامِ على الإسلامِ إلى أنْ يُحالَ بينهم وبينه بحُلولِ السَّاعةِ بَغتةً، أو بحُلولِ عَذابِ يومٍ عقيمٍ(٢).

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه وَضْعُ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ، أي: لا يَزالونَ في مِرْيةٍ، وهم الشَّاكُّون الَّذين في قُلوبهم مَرضٌ(٣).

- قولُه: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ المُرادُ به السَّاعةُ، كأنَّه قيل: أو يأْتِيَهم عَذابُها، فوُضِعَ ذلك مَوضِعَ ضَميرِها؛ لمَزيدِ التَّهويلِ(٤). وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ فقد آذَنَتِ الغايةُ الَّتي في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ [الحج: ٥٥] أنَّ ذلك وَقْتُ زَوالِ مِرْيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٧، ٣٠٨).
(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٥).

الَّذين كَفَروا، فكان ذلك مَنشَأَ سُؤالِ سائلٍ عن صُورةِ زَوالِ المِرْيَةِ، وعن ماذا يَلْقَونه عندَ زَوالِها؟ فكان المَقامُ أنْ يُجابَ السُّؤالُ بجُملةِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، إلى آخِرِ ما فيها من التَّفصيلِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ تَعريفُ الجِنْسِ؛ فدَلَّتْ جُملةُ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ على أنَّ ماهيَّةَ المُلْكِ مَقصورةٌ يَومَئذٍ على الكونِ مُلْكًا للهِ، أي: لا مُلْكَ لغَيرِه يومَئذٍ[٢].

- والمقصودُ بالكَلامِ هو جُملةُ ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ إذ هم البدلُ. وإنَّما قُدِّمَت جُملةُ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾؛ تَمهيدًا لها، ولِيقَعَ البَيانُ بالبَدلِ بعْدَ الإبهامِ الَّذي في المُبْدَلِ منه[٣]. وقيل: جُملةُ ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ مُستأْنَفةٌ، وقعَتْ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ من الإخبارِ بكَونِ المُلْكِ يَومئذٍ للهِ؛ كأنَّه قيل: فماذا يُصْنَعُ بهم حينئذٍ؟ فقيل: يَحكُمُ بين فريقَيِ المؤمنينَ به والمُمارينَ فيه بالمُجازاةِ[٤].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلخ تَفسيرٌ للحُكمِ المذكورِ، وتَفصيلٌ له[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فيه التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ) وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنزِلَتِهم في الشَّرِّ والفسادِ[٦]، وللتَّنبيهِ على أنَّهم استحَقُّوا العذابَ المُهينَ؛ لأجْلِ ما تقدَّمَ مِن صِفَتِهم بالكُفْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٥، ١١٦).

والتَّكذيبِ بالآياتِ(١).

- وتَصديرُ الخبرِ بالفاءِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ تَعذيبَ الكُفَّارِ بسبَبِ أعمالِهم السَّيِّئةِ(٢). وقيل: قُرِنَ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ بالفاءِ؛ لِمَا تضمَّنَه التَّقسيمُ مِن معنى حَرفِ التَّفصيلِ وهو (أمَّا)، كأنَّه قيل: وأمَّا الَّذين كَفَروا... لأنَّه لَمَّا تقدَّمَ ثَوابُ الَّذين آمَنوا، كان المَقامُ مُثيرًا لسُؤالِ مَن يَترقَّبُ مُقابَلةَ ثَوابِ المُؤمِنين بعِقابِ الكافرينَ، وتلك المُقابَلةُ مِن مَواقِعِ حَرفِ التَّفصيلِ(٣).

- وعَطَف التَّكذيبَ على الكُفرِ وهو نَوعٌ منه، في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لأنَّه أشَدُّ، فالذي يَكفُرُ ولم يُكَذِّبْ أهوَنُ مِن الذي يَكفُرُ ويُكَذِّبُ؛ فعَطفُ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على ﴿كَفَرُواْ﴾ مِن بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، كعَطفِ الرُّوحِ على الملائِكةِ، وهو منهم، قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، والرُّوحُ جبريلُ عليه السَّلامُ، وهو مِن الملائِكةُ(٤).

- وفي قولِه: ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ قابَلَ النَّعيمَ بالعذابِ، ووصَفَهُ بالمُهينِ مُبالَغةً فيه(٥)؛ فـ﴿مُّهِينٞ﴾ مُؤكِّدةٌ لِمَا أفادَهُ التَّنوينُ مِن الفَخامَةِ، وفيه مِن المُبالَغةِ مِن وُجوهٍ شَتَّى ما لا يَخْفَى(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٥، ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا
حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ
لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّدۡخَلٗا﴾: أي: الجنةَ، والمُدخلُ: مكانٌ أو مصدرُ (أَدْخَل) أي: إدخالًا، يُقالُ: أدخلتُه مُدْخَلًا، وهذا مُدْخلُه، أي: المكانُ الذي يدخلُ منه وقتَ إدخالِه، والدُّخولُ: نقيضُ الخروجِ، ويُستعمَلُ ذلك في المكانِ، والزَّمانِ، والأعمالِ[(١)].

﴿بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾: أي: ظُلِم، وتُعُدِّي عليه، يُقالُ بَغَى الجرحُ: تجاوَز الحدَّ في فسادِه، وأصلُ (بغي): هنا جِنسٌ مِن الفسادِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: والذين خَرَجوا مِن دِيارِهم طَلَبًا لِرِضا اللهِ، ونُصرةً لِدِينِه، ثم قُتِلوا أو ماتوا؛ لَيَرزُقَنَّهم اللهُ رِزقًا كريمًا حَسَنًا، وإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَهُو خَيرُ الرَّازِقينَ؛ لَيُدخِلَنَّهم اللهُ المُدْخَلَ الذي يُحبُّونَه وهو الجنَّةُ، وإنَّ اللهَ لَعليمٌ بمَن يَخرُجُ في سَبيلِه، ومَن يَخرُجُ طَلَبًا للدُّنيا، حَليمٌ بمن عصاه، فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٦٤) (١٥/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٤٤).

ذلك، ومَن عاقَبَ مِن العِبادِ مَن اعتَدَى عليه بمِثلِ اعتِدائِه، بالعَدلِ دُونَ زِيادةٍ، ثمَّ ظُلِمَ بالمُعاوَدةِ إلى عُقوبتِه؛ فإنَّ اللهَ يَنصُرُه على مَن ظَلَمَه، إنَّ اللهَ لعَفُوٌّ غَفورٌ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ المُلْكَ له يومَ القيامةِ، وأنَّه يَحكُمُ بينهم، ويُدخِلُ المُؤمِنينَ الجَنَّاتِ؛ أتبَعَه بذِكرِ وَعْدِه الكريمِ للمُهاجِرينَ، مُفرِدًا لهم بالذِّكرِ(١).

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾.

أي: والذين فارَقوا دِيارَهم وأهلِيهم؛ طلبًا لِرِضا اللهِ وطاعَتِه، ثُمَّ قُتِلوا أو ماتوا دُونَ قَتلٍ؛ فإنَّ اللهَ سيُثيبُهم رِزقًا كريمًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨، ٦١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

قيل: الرزقُ الحَسَنُ يكونُ في الجنَّة. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٨، ٦١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧).

وممن قال بهذا القول من السلف: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٧).

وقيل: الرزقُ الحسنُ: الحلالُ. وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وعن سَلمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((رِباطُ(١) يَومٍ ولَيلةٍ خَيرٌ مِن صِيامِ شَهرٍ وقِيامِه، وإنْ مات جرى عليه عَمَلُه الذي كان يَعمَلُه، وأُجرِيَ عليه رِزقُه، وأَمِنَ الفتَّانَ(٢)))(٣).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَهُو أفضَلُ مَن يَرزُقُ عِبادَه، ويُعطيهم مِن فَضْلِه(٤).

= قال السعدي: (يحتملُ أنَّ المعنى أنَّ المُهاجِرَ في سبيلِ الله قد تكَفَّلَ اللهُ برِزقِه في الدُّنيا رِزقًا واسِعًا حَسَنًا، سواءٌ عَلِمَ الله منه أنَّه يموتُ على فِراشِه، أو يُقتَلُ شَهيدًا؛ فكُلُّهم مضمونٌ له الرِّزقُ، فلا يُتوَهَّمُ أنَّه إذا خرج مِن ديارِه وأموالِه سيَفتَقِرُ ويحتاجُ؛ فإنَّ رازِقَه هو خيرُ الرَّازِقينَ، وقد وقع كما أخبَرَ؛ فإنَّ المهاجِرينَ السَّابِقينَ تَركوا ديارَهم وأبناءَهم وأموالَهم؛ نُصرةً لدينِ اللهِ، فلم يَلبَثوا إلَّا يَسيرًا، حتى فتحَ اللهُ عليهم البلادَ، ومكَّنَهم مِنَ العبادِ، فاجتَبَوا مِن أموالِها ما كانوا به مِن أغنى النَّاسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(١) الرِّباطُ: مُراقبةُ العَدُوِّ في الثُّغورِ المُتاخِمةِ لبِلادِهم بحِراسةِ مَن بها مِن المُسلِمينَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٨٩).

(٢) الفتَّان: الذي يَفتِنُ المقبورَ بالسُّؤالِ فيُعَذِّبُه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤٥٨).

(٣) رواه مسلم (١٩١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير الجلالين)) =

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الرِّزقُ لا يَتِمُّ إلَّا بحُسنِ الدَّارِ، وكان ذلك مِن أفضَلِ الرِّزقِ؛ قال دالًّا على خِتامِ التي قَبلُ[(١)]:

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾.

أي: ليُدخِلَنَّ اللهُ المُهاجِرينَ -الذين قُتِلوا أو ماتوا في سَبيلِه- الجنَّةَ، فيَرضَونَ بذلك، ولا يَبغُونَ بها بَدَلًا؛ جزاءً لهم على خُروجِهم مِن ديارِهم وأوطانِهم في سَبيلِه[(٢)].

= (ص: ٤٤١).

قال البقاعي: (﴿لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يرزُقُ الخَلقَ عامَّةً؛ البَرَّ منهم والفاجِرَ، فكيف بمَن هاجَرَ إليه؟! ويُعطي عطاءً لا يَدخُلُه عَدٌّ، ولا يَحويه حَدٌّ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٨٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمُدخَلِ الذي يَرضَونَه: الجنَّةُ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلف: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٠٣).

وقال الألوسي: (و﴿مُّدْخَلًا﴾: إمَّا اسمُ مكانٍ، أُريدَ به الجَنَّةُ، كما قال السُّدِّيُّ وغيرُه... أو مَصدَرٌ مِيميٌّ، وهو على الاحتمال الأوَّلِ مفعولٌ ثانٍ للإدخال، وعلى الثاني مفعولٌ مُطْلَقٌ، ووصْفُه بـ ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ على الاحتمالَينِ لِما أنَّهم يَرَون إذا أُدخِلوا ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلْبِ بشَرٍ. وقيل على الثاني: إنَّ رِضاهُم لِما أنَّ إدخالَهم مِن غَيرِ مَشقَّةٍ تَنالُهم، بل براحةٍ واحترام). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٨٠).

وذهب السعديُّ إلى أنَّ قولَه: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ إمَّا ما يَفتَحُه اللهُ عليهم مِنَ البُلدانِ، خُصوصًا فتحَ مَكَّةَ المُشَرَّفةِ؛ فإنَّهم دَخَلوها في حالةِ الرِّضا والسُّرورِ، وإمَّا المرادُ به =

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَعليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بنِيَّةِ مَن يُهاجِرُ ويُجاهِدُ، حَليمٌ لا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ مَن عصاه مِن خَلْقِه، بل يُواصِلُ لهم مِن رِزْقِه، ويَمنَحُهم مِن فَضْلِه[١].

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ثوابَ مَن هاجَرَ وقُتِلَ أو ماتَ في سَبيلِ اللهِ؛ أخبَرَ أنَّه لا يَدَعُ نُصرَتَهم في الدُّنيا على مَن بغَى عليهم[٢].

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾.

أي: ذلك[٣] ومَن عاقَبَ مِن العِبادِ مَن اعتَدَى عليه بمِثلِ اعتِدائِه بالعَدلِ دُونَ زِيادةٍ، ثمَّ ظُلِمَ بالمُعاوَدةِ إلى عُقوبتِه؛ فإنَّ اللهَ يَنصُرُه على مَن ظَلَمَه[٤].

= رِزقُ الآخرةِ، وأنَّ ذلك دُخولُ الجنَّةِ، فتكونُ الآيةُ جَمَعت بينَ الرِّزقَينِ؛ رِزقِ الدُّنيا، ورِزقِ الآخرةِ، وذهب إلى أنَّ اللَّفظَ صالحٌ لذلك كُلِّه، وأنَّ المعنى صَحيحٌ، فلا مانِعَ مِن إرادةِ الجَميعِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٩، ٥٣٠).

(٣) قال الشوكاني: (الإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تَقدَّم. قال الزَّجَّاجُ: أَي: الأمرُ ما قَصَصْنا عليكم مِن إنجازِ الوعدِ للمهاجرين خاصَّةً إذا قُتِلوا أو ماتوا، فهو على هذا خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٠).

وقال البقاعي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمرُ المقرَّرُ مِن صفةِ الله تعالى ذلك). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ كَثيرُ العَفوِ والغُفرانِ لِعِبادِه المُؤمِنينَ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ يَجوزُ لمَن جُنيَ عليه وظُلِمَ مُقابلةُ الجاني بمِثْلِ جِنايتِه، فإنْ فَعَل ذلك فليس عليه سَبيلٌ، وليس بمَلومٍ، فإنْ بُغِيَ عليه بَعدَ هذا فإنَّ اللهَ يَنصُرُه؛ لأنَّه مَظلومٌ، فلا يَجوزُ أنْ يُبغَى عليه بسبَبِ أنَّه استَوْفَى حقَّه. وإذا كان المُجازي غَيرَه بإساءتِه إذا ظُلِم بَعدَ ذلك نَصَرَه اللهُ، فالَّذي بالأصلِ لمْ يُعاقِبْ أَحدًا إذا ظُلِم وجُنِيَ عليه؛ فالنَّصرُ إليه أَقرَبُ(٢).

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فمُعامَلتُه لعِبادِه في جميعِ الأوقاتِ بالعَفوِ والمغفرةِ، فيَنبَغي لكم أيُّها المَظلومون المَجنيُّ عليهم، أنْ تَعفوا وتَصفَحوا وتَغفِروا؛ ليُعامِلَكُمُ اللهُ كما تُعامِلون عِبادَه ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(٣) [الشورى: ٤٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، وإنَّما سَوَّى بينَ مَن قُتِلَ في الجهادِ ومَن مات

= (٤/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حَتْفَ أنْفِه في الوعْدِ؛ لاستوائِهما في القَصدِ وأصْلِ العمَلِ(١)، وقد استدلَّ به فَضالةُ بنُ عبيدٍ الأنصاريُّ الصحابيُّ على أنَّ المقتولَ والميِّتَ في سبيلِ الله سواءٌ في الفضلِ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾ هذه بِشارةٌ كُبرى لِمن هاجَرَ في سَبيلِ اللهِ، فخرَجَ مِن دارِه ووَطنِه وأولادِه ومالِه؛ ابتغاءَ وَجهِ اللهِ، ونُصرةً لدينِ اللهِ، فهذا قد وجب أجرُه على اللهِ، سواءٌ مات على فِراشِه، أو قُتِلَ مُجاهِدًا في سَبيلِ اللهِ(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾، فيه التعبيرُ بأداةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾؛ إشارةً إلى طولِ العمرِ، وعلوِّ الرُّتبةِ بسببِ الهجرةِ(٤).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، فيه سؤالٌ: إنْ قيل: الرَّازق في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى، فكيف قال: ﴿لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؟

والجوابُ على ذلك مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ صِيغةَ التَّفْضيلِ في قولِه: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ نظرًا إلى أنَّ بعضَ المخلوقينَ يَرْزُقُ بعضَهم، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ [النساء: ٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٤).

قال السيوطي: (وهو رأيٌ قاله جماعةٌ، وخالفَه آخرونَ؛ ففضَّلوا المقتولَ). يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

وأثر فضالة أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٦/ ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٧٧).

وقولِه تعالَى: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٣٣]، ولا شَكَّ أنَّ فضلَ رِزْقِ اللَّهِ خلقَه على رِزْقِ بعضِ خلقِه بعضَهم، كفضلِ ذاتِه وسائِرِ صفاتِه على ذواتِ خلقِه وصفاتِهم؛ فرَزْق اللهِ لخَلْقِه ليس كرَزْق الناسِ بعضِهم لبعضٍ، فبيْن الفِعلِ والفِعلِ مِنَ المُنافاةِ كمِثلِ ما بيْن الذَّاتِ والذَّاتِ[١].

الثاني: أنَ يَكونَ المرادُ: أنَّه الأصلُ في الرِّزقِ، وغَيرُه إنَّما يَرزُقُ بما تَقدَّمَ مِنَ الرِّزقِ مِن جِهةِ اللهِ تعالى.

الثالثُ: أنَّ غَيرَه إنَّما يَرزُقُ لو حَصَل في قلْبِه إرادةُ ذلك الفعلِ، وتلك الإرادةُ مِنَ اللهِ؛ فالرَّازقُ في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى.

الرابعُ: أنَّ الغَيرَ إذا رَزقَ، فلولا أنَّ اللهَ تعالى أَعطى ذلك الإنسانَ أنواعَ الحَواسِّ، وأَعطاهُ السَّلامةَ والصِّحَّةَ والقدرةَ على الانتِفاعِ بذلك الرِّزقِ، لَما أَمكَنه الانتِفاعُ به، ورِزقُ الغَيرِ لا بدَّ وأنْ يَكونَ مَسبوقًا برِزقِ اللهِ، ومَلحوقًا به؛ حتَّى يَحصُلَ الانتِفاعُ. وأمَّا رِزقُ اللهِ تعالى فإنَّه لا حاجةَ به إلى رِزقِ غَيرِه؛ فثَبَتَ أنَّه سُبحانَه خَيرُ الرَّازقين. وقيل غَيرُ ذلك[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾ فيه وَصْفُ الرِّزقِ بالحُسْنِ؛ لإفادةِ أنَّه يُرْضيهم بحيث لا يَتطلَّبون غيرَه؛ لأنَّه لا أحسَنَ منه[٣].

٦- تَغييرُ أُسلوبِ الجَمْعِ الَّذي في قولِه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ...﴾ إلى أُسلوبِ الإفرادِ في قولِه: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ﴾؛ للإشارةِ إلى إرادةِ العُمومِ مِن هذا الكلامِ؛ لِيَكونَ بمَنزِلَةِ القاعدةِ الكُلِّيَّةِ لسُنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ تعالى في الأُمَمِ، ولمَّا

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٠).

أتى في الصِّلةِ هنا بفِعْلِ ﴿عَاقَبَ﴾، مع قَصدِ شُمولِ عُمومِ الصِّلةِ للَّذينَ أُذِنَ لهم بأنَّهم ظُلِموا؛ عَلِمَ السَّامِعُ أنَّ القِتالَ المأْذونَ لهم به قِتالُ جَزاءٍ على ظُلْمٍ سابقٍ، وفي ذلك تَحديدٌ لقانونِ العِقابِ: أنْ يكونَ مُماثِلًا للعُدْوانِ المَجْزِيِّ عليه، أي: ألَّا يكونَ أشَدَّ منه[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ كان هذا شَرعًا لأصولِ الدِّفاعِ عن جماعةِ المُسلِمينَ، وأمَّا آياتُ التَّرغيبِ في العَفوِ فليس هذا مقامَ تَنزيلِها، وإنَّما هي في شَرعِ مُعاملاتِ الأمَّةِ بَعضِها مع بَعضٍ، وقد أكَّدَ لهم اللهُ نَصْرَه إن هم امتَثَلوا لِما أُذِنوا به، وعاقَبوا بمِثلِ ما عُوقِبوا به[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ سُمِّيَ الابتداءُ بالعِقابِ الَّذي هو الجزاءُ؛ لأنَّه سببٌ وذاك مُسبَّبٌ عنه، كما يَحمِلون النَّظيرَ على النَّظيرِ، والنَّقيضَ على النَّقيضِ للمُلابَسةِ[٣]. وقيل: سُمِّي جَزاءُ العُقوبةِ عُقوبةً؛ لاستِواءِ الفِعلَينِ في جِنسِ المَكروهِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فالأوَّلُ سَيئةٌ، والمُجازاةُ عليها سُمِّيَت سَيِّئةً بأنَّها وقَعَت إساءةً بالمَفعولِ به؛ لأنَّه فعَلَ به ما يَسوؤُه[٤]. وسُمِّيَ اعتداءُ المُشرِكين على المُؤمِنين عِقابًا؛ لأنَّ الَّذي دفَعَ المُعتدِينَ إلى الاعتداءِ قَصْدُ العِقابِ على خُروجِهم عن دِينِ الشِّركِ، ونَبْذِ عِبادةِ أصنامِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ جُملةٌ ابتدائيَّةٌ لابتداءِ معنًى آخَرَ[(١)]. وفيها تَخصيصٌ للَّذين هاجَروا في سَبيلِ اللهِ بالذِّكْرِ؛ تَنويهًا بشأْنِ الهجرةِ[(٢)]، وتَفخيمًا لشأنِ المهاجرينَ[(٣)].

- وجُملةُ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه. وصَريحُ هذه الجُملةِ: الثَّناءُ على اللهِ. وكِنايتُها: التَّعريضُ بأنَّ الرِّزقَ الَّذي يَرزُقُهم اللهُ هو خيرُ الأرزاقِ؛ لصُدورِه مِن خَيرِ الرَّازقينَ. وأُكِّدَتِ الجُملةُ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)، ولامِه، وضَميرِ الفصلِ (هو)؛ تَصويرًا لعَظَمةِ رِزْقِ اللهِ تعالى[(٤)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ بدَلُ اشتمالٍ مِن قولِه: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ كَرامةَ المَنزِلِ مِن جُملةِ الإحسانِ في العطاءِ، بل هي أبهَجُ لَدى أهْلِ الهِمَمِ؛ ولذلك وُصِفَ المدْخَلُ بـ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾. أو استئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِه[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٠، ٣١١).

- وجُملةُ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ، أي: عليمٌ بما تَجشَّموهُ مِن المَشاقِّ في شأْنِ هِجْرَتِهم مِن دِيارِهم وأهْلِهم وأموالِهم، وهو حليمٌ بهم فيما لاقَوهُ، فهو يُجازِيهم بما لَقُوهُ مِن أجْلِه[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: الأمْرُ ذلك، وهي جُملةٌ لتَقريرِ ما قبْلَه، والتَّنبيهِ على أنَّ ما بعْدَه كَلامٌ مُستأنَفٌ[2]. وأيضًا اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للفصْلِ بين الكلامينِ؛ لَفْتًا لأذهانِ السَّامعينَ إلى ما سيَجِيءُ من الكَلامِ. وجُملةُ ﴿وَمَنْ عَاقَبَ ...﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ [الحج: ٥٨]، والغرَضُ منها التَّهيئةُ للجهادِ، والوعْدُ بالنَّصرِ الَّذي أُشيرَ إليه سابقًا بقولِه تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، إلى قولِه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]؛ فإنَّه قد جاء مُعترِضًا في خِلالِ النَّعيِ على تَكذيبِ المُكذِّبين وكُفْرِهم النِّعَمَ، فأُكْمِلَ الغرَضُ الأوَّلُ بما فيه مِن انتقالاتٍ، ثمَّ عُطِفَ الكلامُ إلى الغرَضِ الَّذي جَرَتْ منه لَمحةٌ؛ فعاد الكلامُ هنا إلى الوعْدِ بنَصرِ اللهِ القومَ المُعْتَدى عليهم، كما وعَدَهم بأنْ يُدخِلَهم في الآخرةِ مُدخَلًا يَرضَونَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١١، ٣١٢).

- و(ثمَّ) مِن قولِه: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾؛ فـ(ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ البَغْيَ عليه أهَمُّ مِن كَونِه عاقَبَ بمِثْلِ ما عُوقِبَ به؛ إذ كان مَبْدوءًا بالظُّلْمِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تَعليلٌ للاقتصارِ على الإذنِ في العِقابِ بالمُماثَلةِ في ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ دونَ الزِّيادةِ في الانتقام. ويَجوزُ أنْ يكونَ تَعليلًا للوعْدِ بجَزاءِ المُهاجِرينَ؛ اتِّباعًا للتَّعليلِ في ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ الكلامَ مُستمِرٌّ في شأْنِهم(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث طابَقَ ذِكْرُ العَفُوِّ الغفورِ هذا الموضِعَ، ووَجْهُ تَعلُّقِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ بما تقدَّمَ: أنَّ اللهَ تعالى ندَبَ المُعاقِبَ إلى العَفْوِ عن الجاني، والعَفْوُ عن الجاني مَندوبٌ إليه، ومُستوجِبٌ عندَ اللهِ المدْحَ إنْ آثَرَ ما نُدِبَ إليه وملَكَ سَبيلَ التَّنزيهِ؛ فحينَ لم يُؤثِرْ ذلك وانتصَرَ وعاقَبَ، ولم يَنظُرْ في قولِه: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]؛ فإنَّ اللهَ لعَفُوٌّ غفورٌ، أي: لا يَلومُه على تَركِ ما بعَثَهُ عليه، وهو ضامِنٌ لنَصرِهِ في كرَّتِه الثَّانيةِ مِن إخلالِه بالعَفْوِ وانتقامِه مِن الباغي عليه؛ فلمَّا لم يأْتِ بهذا المَندوبِ فهو نَوعُ إساءةٍ، فكأنَّه سُبحانَه قال: إنِّي قد عفَوتُ عن هذه الإساءةِ وغفَرْتُها؛ فإنِّي أنا الَّذي أذِنْتُ لك فيه. ويَجوزُ أنَّه سُبحانَه وإنْ ضَمِنَ له النَّصرَ على الباغي، لكنَّه عرَّضَ مع ذلك بما كان أَولى به مِن العَفْوِ والمغفرةِ؛ فلَوَّحَ بذِكْرِ هاتينِ الصِّفتينِ؛ ففي ذِكرِهما إشعار بأنَّ العفوَ أفضلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣١٣، ٣١٤).

مِن العقوبةِ فكأنَّه حضٌّ على العفوِ، فلمَّا قال: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، اتَّجَهَ لسائلٍ أنْ يَسألَ: لماذا يَنصُرُهُ؟ قال: لأنَّ اللهَ عَفُوٌّ غفورٌ، وكان من الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (إنَّ اللهَ يَنصُرُ المَظْلومين)؛ فعرَّضَ بهاتينِ الصِّفتينِ على سَبيلِ الكِنايةِ التَّلويحيَّةِ؛ لأنَّه أشار إلى المطلوبِ مِن بُعْدٍ. أو دَلَّ بذِكْرِ العَفْوِ والمغفرةِ على أنَّه قادِرٌ على العُقوبةِ؛ لأنَّه لا يُوصَفُ بالعفْوِ إلَّا القادرُ على ضِدِّه[1].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٧).

الآيتان (٦١-٦٢)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ذلك النَّصرُ المَذكورُ كائِنٌ بسَبَبِ أنَّه سُبحانَه قادِرٌ لا يَعجِزُ عن نُصرةِ مَن شاء نُصرَتَه، ومِن قُدرتِه أنَّه يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، فيَزيدُ في أحَدِهما ما يَنقُصُه مِنَ الآخَرِ، وبالعَكسِ، وأنَّ اللهَ سَميعٌ لكُلِّ صَوتٍ، بصيرٌ بكُلِّ فِعلٍ، لا يخفى عليه شَيءٌ. ذلك بأنَّ اللهَ هو الإلهُ الحَقُّ الذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له، وأنَّ ما يَعبُدُه المُشرِكونَ مِن دُونِه مِنَ الأصنامِ والأندادِ هو الباطِلُ الذي لا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ، وأنَّ اللهَ هو العليُّ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تعَلُّقُ هذه الآيةِ بما قَبلَها مِن ثلاثةِ أوجهٍ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢، ٨٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

الأوَّل: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك النَّصرُ بسَبَبِ أنَّه قادِرٌ، ومِن آياتِ قُدرتِه البالغةِ كَونُه خالِقًا لِلَّيلِ والنَّهارِ، ومتصَرِّفًا فيهما؛ فوجَبَ أن يكونَ قادِرًا عالِمًا بما يَجري فيهما، وإذا كان كذلك كان قادِرًا على النَّصرِ مُصيبًا فيه.

الثاني: المرادُ أنَّه سُبحانَه مع ذلك النَّصرِ يُنعِمُ في الدُّنيا بما يَفعَلُه مِن تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وولوجِ أحَدِهما في الآخَرِ[١].

الثالث: أنَّه لَمَّا ختَمَ بهذينِ الوَصفَينِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، ذكَرَ مِنَ الدَّليلِ عليهما أمرًا جامِعًا للمَصالحِ، عامًّا للخلائِقِ، يكونُ فيه وبه الإحسانُ بالخَلقِ والرِّزقِ؛ فقال[٢]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

أي: ذلك النَّصرُ المَذكورُ[٣] كائِنٌ بسَبَبِ أنَّه سُبحانَه قادِرٌ لا يَعجِزُ عن نُصرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨٠).

(٣) ممَّن اختار أنَّ الإشارةَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى نَصرِ المَظلومِ على الظَّالمِ، المذكورِ في الآياتِ السَّابقةِ: ابنُ جرير، وابن الجوزي، والرسعني، والرازي، والقرطبي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٥).

وقيل: المرادُ بالإشارةِ: مَعرِفةُ اتِّصافِه سُبحانَه بالوَصفَينِ المَذكورينِ في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨٠).

وقيل: المرادُ: ذلك الذي شرَعَ لكم تلك الأحكامَ الحَسَنةَ العادِلةَ، هو حَسَنُ التصَرُّفِ في تقديرِه وتَدبيرِه، الذي ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾. وممن قال بهذا المعنى: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣).

واختار الشنقيطيُّ أنَّ الإشارةَ ترجِعُ لقولِه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الحج: ٥٦]، إلى ما ذَكَره مِن نُصرةِ المظلومِ، أي: ذلك المذكورُ مِن كونِ الملكِ له وحْدَه يومَ القيامةِ، =

مَن شاء نُصرَتَه، ومِن علاماتِ قُدرتِه الباهِرةِ أنَّه يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، فيَزيدُ في أحَدِهما ما يَنقُصُه مِنَ الآخَرِ، وبالعَكسِ؛ فتارةً يَطولُ النَّهارُ ويَقصُرُ اللَّيلُ، وتارةً يكونُ بعَكسِ ذلك[١].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾.

أي: وذلك أيضًا بسَبَبِ أنَّه سَميعٌ لِما يقولُ عِبادُه، بَصيرٌ بأحوالِهم وأعمالِهم، حافِظٌ لكُلِّ ذلك، ثمَّ يجازيهم جَميعًا على ما قالوا وما عَمِلوا[٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ

= وأنَّه الحاكِمُ وحْدَه بيْن خَلْقِه، وأنَّه المُدخِلُ الصَّالحين جنَّاتِ النَّعيم، والمُعذِّبُ الَّذين كفَروا العذابَ المُهينَ، والنَّاصرُ مَن بُغيَ عليه مِن عِبادِه المؤمِنين؛ بسببِ أنَّه القادرُ على كلِّ شَيءٍ، ومِن أدلَّةِ ذلك: أنَّه يولِجُ الليلَ في النهارِ... إلخ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٣).

وممَّن اختار المعنى المذكورَ لإيلاجِ كلٍّ مِن اللَّيلِ والنَّهارِ في الآخَرِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، واستظهره الشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المراد: إدخالُ ظُلْمةِ هذا في مكانِ ضياءِ ذاك بغيبوبةِ الشَّمسِ، وضياءِ ذاك في مكانِ ظُلمةِ هذا بطُلوعِها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، وابن جزي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٩).

قال البِقاعي: (﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بجَلالِه وعظَمتِه ﴿سَمِيعُۢ﴾ لِما يُمكِن أنْ يُسمع، ﴿بَصِيرٞ﴾ أي: مُبصِرٌ عالِم لِما يُمكِنُ أنْ يُبصَر، دائمُ الاتِّصافِ بذلك، فهو غيرُ مُحتاجٍ إلى سُكونِ اللَّيلِ ليَسمعَ، ولا لضياءِ النَّهارِ ليُبصِرَ... وهو لتَمامِ قُدرتِه وعِلمِه لا يَخافُ في عَفْوِه غائلةً، ولا يُمكِنُ أنْ يَفوتَه أمْرٌ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٨٠).

﴿هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ ذلك الوَصفَ الَّذي تَقدَّمَ ذِكرُه مِنَ القدرةِ على هذه الأمورِ إنَّما حَصَل لأجْلِ أنَّ اللهَ هو الحقُّ؛ فلا جَرَمَ أتَى بالوعدِ والوعيدِ[١]، فلمَّا وصَف نفْسَه سُبحانَه بما ليس لغيرِه؛ علَّله بقولِه[٢]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: ذلك الفِعلُ الذي فعَل -مِن إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ-، واتِّصافُه سبحانَه بكمالِ القدرةِ وتمامِ العلمِ؛ بسَبَبِ أنَّ اللهَ هو الإلهُ الحَقُّ الثَّابِتُ الإلهيَّةِ، الذي يَستحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه دونَ ما سِواه[٣].

﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾.

أي: وأنَّ ما يَدْعوه المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها: هو الباطلُ الذي لا يَنفَعُ ولا يَستَحِقُّ العِبادةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٣).
قال القرطبيُّ: (قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ذو الحقِّ، فدِينُه الحقُّ، وعِبادتُه حقٌّ. والمؤْمِنون يستحقُّون منه النَّصرَ بحُكمِ وعْدِه الحقِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٩).
قال ابن تيميَّة: (الآلهةُ مَوجودةٌ، ولكِنْ عِبادتُها ودعاؤُها باطِلٌ لا ينفَعُ، والمقصودُ منها لا يَحصُلُ؛ فهو باطِلٌ، واعتِقادُ ألوهيَّتِها باطِلٌ، أي: غيرُ مُطابقٍ، واتِّصافُها بالإلهيَّةِ في أنفُسِها باطِلٌ لا بمعنى أنَّه معدومٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥١٦). =

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ هو العالي على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وقَهرِه وقَدْرِه، الكبيرُ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه، وكلُّ شَيءٍ دُونَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

مِن أسماءِ اللهِ تعالى (السَّميعُ البَصيرُ): يَسمَعُ كُلَّ شَيءٍ، ويرى كُلَّ شَيءٍ، لا يخفى عليه دَبيبُ النَّملةِ السَّوداءِ، على الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ، في اللَّيلةِ الظَّلماءِ؛ إنْ جهَرْتَ بقَولِك سَمِعَه، وإن أسرَرْتَ به لصاحِبِك سَمِعَه، وإن أخفَيتَه في نَفْسِك سَمِعَه، وأبلَغُ من ذلك أنَّه يَعلَمُ ما تُوسوِسُ به نَفْسُك وإن لم تَنطِقْ به! وإذا آمَنَ الإنسانُ بهذه الصِّفةِ العَظيمةِ -صِفةِ السَّمعِ- فإنَّ إيمانَه بذلك يقتَضي ألَّا يُسمِعَ اللهَ تعالى ما يكونُ سَببًا لغَضَبِه على عَبدِه.

وهو سُبحانَه البَصيرُ: فإنْ فعَلْتَ فِعلًا ظاهِرًا رآك، وإن فعَلْتَ فِعلًا باطِنًا ولو في جَوفِ بَيتٍ مُظلمٍ رآك، وإن تحرَّكْتَ بجَميعِ بدَنِك رآك، وإن حرَّكْتَ عُضوًا مِن أعضائِك رآك، وأبلَغُ مِن ذلك أنَّه يَعلَمُ خائِنةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصُّدُورُ[2]! فإذا آمَنَ العَبدُ بذلك انبَعَث منه قُوَّةُ الحياءِ، فيَسْتَحِي مِن رَبِّه أن يراهُ على مَا يَكرَهُ،

= وقال أيضًا: (هو مِن جِهةِ كَونِه مَعبودًا: باطِلٌ لا يُنتَفَعُ به، ولا يحصُلُ لعابِدِه مَقصودُ العبادةِ، وإنْ كان مِن جِهةٍ أخرى هو شَمسٌ وقَمرٌ يُنتفَعُ بضيائِه ونُورِه، وهو يَسجُدُ لله ويُسَبِّحُه). ((الرد على الإخنائي)) (ص: ٤٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٧٢).

أو يَسمَعَ منه ما يَكرَهُ، أو يُخفيَ في سَريرتِه ما يَمقُتُه عليه؛ فتبقى حَركاتُه وأقوالُه وخواطِرُه مَوزونةً بميزانِ الشَّرعِ، غيرَ مُهمَلةٍ ولا مُرسَلةٍ تحت حُكمِ الطَّبيعةِ والهَوى[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ فيه سُؤالٌ: أيُّ تعَلُّقٍ لقَولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ بما تقَدَّمَ؟

الجوابُ: المرادُ أنَّه كما يَقدِرُ على ما لا يَقدِرُ عليه غَيرُه، فكذلك يُدرِكُ المَسموعَ والمُبصَرَ، ولا يجوزُ المنعُ عليه، ويكونُ ذلك كالتَّحذيرِ مِنَ الإقدامِ على ما لا يجوزُ في المَسموعِ والمُبصَرِ[٢]. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ عَطفَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ على السَّبَبِ؛ للإشارةِ إلى عِلمِ اللهِ بالأحوالِ كُلِّها؛ فهو يَنصُرُ مَن يَنصُرُه بعِلمِه وحِكمَتِه، ويَعِدُ بالنَّصرِ مَن عَلِمَ أنَّه ناصِرُه لا محالةَ، فلا يَصدُرُ منه شَيءٌ إلَّا عن حِكمةٍ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحقَّ مِن أسماءِ الله الحُسنى[٤].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٤٣).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكَلامِ السَّابقِ الدَّالِّ على تكفُّلِ النَّصرِ؛ فإنَّ النَّصرَ يَقْتضي تَغليبَ أحَدِ الضِّدَّينِ على ضِدِّه، وإقحامِ الجيشِ في الجيشِ الآخَرِ في المَلْحمةِ، فضَرَب له مثَلًا بتَغليبِ مُدَّةِ النَّهارِ على مُدَّةِ اللَّيلِ في بَعْضِ السَّنةِ، وتَغليبِ مُدَّةِ اللَّيلِ على مُدَّةِ النَّهارِ في بَعضِها؛ لِمَا تَقرَّرَ مِن اشتهارِ التَّضادِّ بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الإشارةِ تَكريرًا لشَبِيهِه السَّابقِ؛ لقَصرِ تَوكيدِه؛ لأنَّه مُتَّصِلٌ به؛ لأنَّ جُملةَ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ...﴾ إلخ، مُرتبِطةٌ بجُملةِ ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ...﴾ إلخ[1]. وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلُوِّ رُتْبَةِ ذلك النَّصرِ[2].

- والجَمْعُ بين ذِكرِ إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ؛ للإشارةِ إلى تقلُّبِ أحوالِ الزَّمانِ؛ فقد يَصيرُ المغلوبُ غالِبًا، ويَصيرُ ذلك الغالِبُ مَغلوبًا، مع ما فيه مِن التَّنبيهِ على تَمامِ القُدرةِ بحيث تَتعلَّقُ بالأفعالِ المُتضادَّةِ، ولا تَلزَمُ طَريقةً واحدةً كقُدرةِ الصُّنَّاعِ من البشَرِ. وفيه: إدماجُ التَّنبيهِ بأنَّ العذابَ الَّذي استبطأَهُ المُشرِكون مَنوطٌ بحُلولِ أجَلِه، وما الأجَلُ إلَّا إيلاجُ ليلٍ في نَهارٍ، ونَهارٍ في لَيلٍ. وفي ذِكْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ في هذا المَقامِ: إدماجُ تَشبيهِ الكُفْرِ باللَّيلِ، والإسلامِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ الكُفْرَ ضَلالةُ اعتقادٍ، فصاحِبُه مِثْلُ الَّذي يَمْشي في ظُلمةٍ، ولأنَّ الإيمانَ نُورٌ يَتجلَّى به الحقُّ والاعتقادُ الصَّحيحُ، فصاحِبُه كالَّذي يَمْشي في النَّهارِ، ففي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الإيلاجَ المقصودَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٧).

هو ظُهورُ النَّهارِ بعْدَ ظُلمةِ اللَّيلِ، أي: ظُهورُ الدِّينِ الحقِّ بعْدَ ظُلمةِ الإشراكِ؛ ولذلك ابتُدِئَ في الآيةِ بإيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، أي: دُخولِ ظُلمةِ اللَّيلِ تحْتَ ضَوءِ النهارِ. وقولُه: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ تَتميمٌ[(١)]؛ لإظهارِ صَلاحيَّةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ[(٢)].

- وقولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ مِن بابِ التَّكميلِ[(٣)]، إذا كان المعنى: ذلك النَّصرُ بسبَبِ أنَّه قادِرٌ، ومِن آياتِ قُدرتِه البالغةِ أنَّه يُولِجُ اللَّيْلَ... أو مِن بابِ التَّتميمِ، إذا كان المعنى: ذلك بسبَبِ أنَّه خالِقُ اللَّيلِ والنَّهارِ[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾

---

(١) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللبسَ، وتُقرِّبُه للفَهم، ومِن أمثلةِ التتميم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٥، ٣١٦).

(٣) التكميلُ هو الاحتراسُ، والفَرقُ بينه وبين التَّتميم: أنَّ الاحتراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التتميم فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنهما إذَنْ هي التباينُ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٢٠).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الاتِّصافِ بما ذُكِرَ مِن كَمالِ القُدرةِ والعِلْمِ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلُوِّ رُتْبَتِه[1].

- والقَصرُ المُسْتفادُ مِن ضَميرِ الفَصلِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ قَصرٌ حَقيقيٌّ. وأمَّا القَصرُ في ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾؛ فهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ لعدَمِ الاعتدادِ بباطِلٍ غَيرِها، حتَّى كأنَّه ليس من الباطِلِ. وهذا مُبالَغةٌ في تَحقيرِ أصنامِهم[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، وقال في سُورةِ لُقمانَ: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾[لقمان: ٣٠]؛ فخُصَّتْ سُورةُ الحجِّ بالتَّوكيدِ بضَميرِ الفَصلِ، ولم يُؤْتَ به في سُورةِ لُقمانَ. ووَجْهُه: أنَّ ما في سُورةِ الحجِّ وقَعَ بعْدَ عشْرِ آياتٍ، كلُّ آيةٍ مُؤكَّدةٌ مرَّةً أو مرَّتينِ[3]. وقيل: وَجْهُ ذلك: أنَّه لمَّا تقدَّمَ في هذه السُّورة ذِكْرُ اللهِ سُبحانَه وذِكْرُ الشَّيطانِ، أكَّدَهما؛ فإنَّه خبَرٌ وقَعَ بين خَبرينِ، ولم يَتقدَّمْ في لُقمانَ ذِكْرُ الشَّيطانِ؛ فأُكِّدَ ذِكْرُ اللهِ تعالى، وأُهمِلَ ذِكْرُ الشَّيطانِ، وهذه دَقيقةٌ[4].

وقيل: وَجْهُ ذلك: أنَّه لم يتقدَّمْ هنا من الدَّليلِ على بُطلانِ الأوثانِ مِثْلُ ما ذَكَرَه في لُقمانَ لداعي الحالِ إلى التَّأكيدِ بضَميرِ الفَصلِ؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾؛ لأنَّه مُمكِنٌ وُجودُه وعدَمُه، فليس له مِن ذاتِه إلَّا العدَمُ كغيرِه من المُمْكِناتِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص:٩٣٠، ٩٣١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٨٠).

الآيات (٦٢-٦٩)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ
خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤)
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن
تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ
نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن
جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَالْفُلْكَ﴾: أي: السُّفنَ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفن سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ(١).

﴿لَرَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، والرَّأفةُ أعلَى معاني الرَّحمةِ، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: لقد رأيتَ ببَصَرِك وعَلِمْتَ ببَصيرتِك -أيُّها المُخاطَبُ- أنَّ اللهَ أنزل مِنَ السَّماءِ مَطَرًا، فتُصبِحُ الأرضُ مُخضَرَّةً بما يَنبُتُ فيها مِنَ النَّباتِ، إنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤)، و(٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

لَطيفٌ بعبادِه، ومِن لطفِه استخراجُ النَّباتِ مِنَ الأرضِ بذلك الماءِ، خَبيرٌ، ومن خبرتِه أنَّه لا تخفَى عليه الحَبَّةُ التي في باطِنِ الأرضِ، فيَسوقُ إليها الماءَ لتنبُتَ.

لله سُبحانَه وتعالى ما في السَّمَواتِ والأرض؛ خَلْقًا ومُلْكًا وعُبوديَّةً، كلٌّ مُحتاجٌ إلى تَدبيرِه وإفضالِه، إنَّ اللهَ لَهُو الغنيُّ المحمودُ في كُلِّ حالٍ.

ألم تَرَ أنَّ الله تعالى ذلَّل لكم جميعَ ما في الأرضِ، كالحَيَواناتِ والأشجارِ والأنهارِ، وسهَّل لكم أنواعَ الانتِفاعِ بها، وذلَّل لكم السُّفُنَ تَجري في البَحرِ بقُدرتِه وأمْرِه، فتَحمِلُكم مع أمتِعَتِكم إلى حيثُ تشاؤون مِن البلادِ والأماكِنِ، ويُمسِكُ السَّماءَ فيَحفَظُها؛ حتى لا تقَعَ على الأرضِ فيَهلِكَ مَنْ عليها، إلَّا بإذنِه سُبحانَه بذلك؟ إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لرَؤوفٌ رَحيمٌ.

وهو اللهُ تعالى الذي أحياكم بأن أوجَدَكم مِنَ العَدَمِ، ثمَّ يُميتُكم عند انقِضاءِ أعمارِكم، ثمَّ يُحييكم بالبَعثِ؛ لِمُحاسبتِكم على أعمالِكم، إنَّ الإنسانَ لَجحودٌ لِما ظهَرَ مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على قُدرةِ اللهِ ووحدانيَّتِه، جَحودٌ لنِعَمِ اللهِ فلا يَشكُرُ.

لكُلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ جعَلْنا شريعةً، فهُم عامِلونَ بها، فلا يُجادِلُنَّك -يا مُحمَّدُ- في شَريعتِك، وادْعُ إلى توحيدِ رَبِّك وإخلاصِ العبادةِ له واتِّباعِ أمْرِه؛ إنَّك لعلى طَريقٍ قَويمٍ لا اعوِجاجَ فيه.

وإنْ أصرَّ كُفَّارُ قَومِك على مُجادَلتِك بالباطِلِ فيما تدعوهم إليه، فلا تُجادِلْهم، بل قُلْ لهم: اللهُ أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ فهم معانِدونَ مُكابِرونَ. اللهُ يَقضي ويَفصِلُ بيْنكم يومَ القيامةِ فيما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ مِن أمرِ دينِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ

خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما دَلَّ على قُدرتِه الباهرةِ مِن إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ والنَّهارِ في اللَّيلِ، وهما أمْرانِ مُشاهَدانِ: مجيءُ الظُّلمةِ والنُّورِ- ذكَرَ أيضًا ما هو مُشاهَدٌ مِن العالَمِ العُلويِّ والعالَمِ السُّفليِّ، وهو: نُزولُ المطَرِ، وإنباتُ الأرضِ. وإنزالُ المطَرِ واخضِرارُ الأرضِ مَرئيَّانِ[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾.

أي: ألَمْ ترَ[2] أنَّ اللهَ أنزَلَ المطرَ مِنَ السَّماءِ، فتَصيرُ به الأرضُ اليابِسةُ خَضراءَ بالنَّباتِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣١).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الخِطابُ لكُلِّ مَن تَصلُحُ منه الرؤيةُ؛ لأنَّ المرئيَّ مَشهورٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٧).

وقيل: الخطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٣٣٨).

قال الألوسي: (﴿أَلَمْ تَرَ﴾... أي ألم تعلَمْ ذلك، وجُوِّز كونُ الرؤيةِ بصريةً نظرًا للماءِ المنزَلِ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٨٢).

وقال الشنقيطي: (الظَّاهِرُ: أنَّ ﴿تَرَ﴾ هنا مِنْ «رأى» بمعنى: «عَلِم»؛ لأنَّ إنزالَ المطرِ وإن كان مشاهَدًا بالبصرِ فكونُ اللهِ هو الَّذي أنْزلَه، إنَّما يُدرَكُ بالعلمِ لا بالبصرِ، فالرُّؤيةُ هنا علميَّةٌ على التَّحقيقِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٩٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٧).

وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لَطيفٌ في فِعلِ ما يشاءُ، ومِن ذلك إنباتُ الأرضِ بالماءِ، خَبيرٌ يَعلَمُ خَفايا كُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك أنَّه لا تخفَى عليه الحَبَّةُ التي في باطِنِ الأرضِ، فيَسوقُ إليها الماءَ بلُطفِه ليُنبِتَها به[١].

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦٤﴾.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لله وَحْدَه مُلكُ جَميعِ ما في السَّمَوات ومُلكُ جَميعِ ما في الأرضِ مِنَ الخَلقِ؛ فكُلُّهم عَبيدُه، وتحتَ تَدبيرِه، لا شَريكَ له في ذلك[٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَهُو الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، المحمودُ في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه[٣].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٦٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).
قال السعدي: (وهو الغنيُّ في حَمدِه، الحَميدُ في غِناه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألم تَرَ أنَّ اللهَ ذلَّل لكم جميعَ ما في الأرضِ، كالحَيَواناتِ والأشجارِ والأنهارِ، وسهَّل لكم أنواعَ الانتِفاعِ بها[1].

﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

أي: وذلَّل لكم السُّفُنَ تجري في البِحارِ بقُدرتِه وتَيسيرِه، فتَحمِلُكم وتَحمِلُ بَضائِعَكم مِن مَوضِعٍ إلى آخَرَ[2].

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾.

أي: ويُمسِكُ اللهُ السَّماءَ بقُدرتِه؛ كيْ لا تَسقُطَ على الأرضِ فيَهلِكَ مَن فيها، إلَّا إذا أذِنَ اللهُ لها بالوُقوعِ، فتَقَعُ بإذنِه[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٦).

قيل: قولُه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: يومَ القيامةِ، كأنَّ طَيَّ السَّماءِ بَعْضُ هذه الهيئةِ لوُقوعِها، ويجوزُ أنْ يكونَ ذلك وَعيدًا لهم في أنَّه إنْ أذِنَ في سُقوطِها كِسفًا عليكم سقَطَتْ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٣، ٥٣٤).

أي: إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَذُو رأفةٍ ورَحمةٍ، ومِن رأفتِه ورَحمتِه بهم سَخَّر لهم جميعَ تلك الأشياءِ[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذكَرَ سُبحانَه -فيما سلف- عظيمَ قدرتِه وبالِغَ حِكمتِه في ولوجِ اللَّيلِ في النَّهارِ والنَّهارِ في اللَّيلِ، ونبَّه بذلك على سابغِ نِعَمِه على عبادِه؛ أردَف ذلك بذِكرِ أنواعٍ أُخرى مِن الدَّلائِلِ على قدرتِه، فقال[(٢)]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾.

أي: واللهُ هو الذي أحياكم وأوجَدَكم مِنَ العَدَمِ، ثُمَّ يُميتُكم عندَ انقضاءِ آجالِكم، ثمَّ يُحييكم يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لَجَحودٌ لآياتِ اللهِ فلا يُؤمِنُ بها، جَحودٌ لنِعَمِ اللهِ فلا يَشكُرُ اللهَ عليها، ولا يُخلِصُ عِبادَتَه له وَحْدَه[(٤)]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٧/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ٦٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قدَّمَ اللهُ تعالى ذِكْرَ نِعَمِه، وبيَّنَ أنَّه رَؤوفٌ رَحيمٌ بعِبادِه، وإن كان منهم مَن يَكفُرُ ولا يَشكُرُ؛ أتبَعَه بذِكرِ نِعَمِه بما كَلَّف؛ فقال[1]:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾.

أي: لكلِّ جماعةٍ مُؤمِنةٍ ممَّن قَبْلَكم وضَعْنا شريعةً، هم عاملونَ بها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٢).

وممن اختار أنَّ المنسكَ معناه هنا الشريعةُ: الواحديُّ، والرازي، والقرطبي، والبيضاوي، والعليمي، والشوكاني، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١٣).

قال الرازي: (المَنسَكُ: هو الشَّريعةُ والمِنهاجُ، وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ، واختيارُ القَفَّالِ، وهو الأقربُ؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ ولأنَّ المَنسَكَ مأخوذٌ مِنَ النُّسُكِ، وهو العِبادةُ، وإذا وقَعَ الاسمُ على كلِّ عِبادةٍ، فلا وجْهَ للتَّخصيصِ. فإنْ قيل: هلَّا حملْتُموه على الذَّبحِ؛ لأنَّ المَنسَكَ في العُرفِ لا يُفهَمُ منه إلَّا الذَّبحُ؟ وهلَّا حملْتُموه على مَوضِعِ العِبادةِ أو على وقْتِها؟ الجوابُ عن الأوَّلِ: لا نُسلِّمُ أنَّ المَنسَكَ في العُرفِ مَخصوصٌ بالذَّبحِ؛ والدَّليلُ عليه أنَّ سائرَ ما يُفعَلُ في الحجِّ يوصَفُ بأنَّه مَناسكُ، ولأجْلِه قال عليه السَّلامُ: «خُذوا عَنِّي مَناسِكَكُم». وعن الثاني: أنَّ قولَه: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أَلْيَقُ بالعِبادةِ منه بالوقتِ والمكانِ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٩).

وقيل: المرادُ به: إراقةُ الدَّمِ أيامَ النحرِ بمِنًى. وممَّن اختارَ هذا القولَ: ابنُ جَريرٍ.

قال ابن جَريرٍ: (الصَّوابُ مِنَ القولِ في ذلكَ أنْ يقالَ: عُنِيَ بذلك إراقةُ الدَّمِ أيَّامَ النَّحرِ بمِنًى؛ =

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾.

أي: فلا يُجادِلُنَّك[١] -يا مُحمَّدُ- فيما شرَعَ اللهُ لك[٢].

= لأنَّ المَناسكَ التي كان المُشرِكون جادَلوا فيها رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانت إراقةَ الدَّمِ في هذه الأيَّامِ، على أنَّهم قد كانوا جادَلوه في إراقةِ الدِّماءِ التي هي دماءُ ذَبائحِ الأنعامِ، بما قد أخبَرَ اللهُ عنهم في سورةِ «الأنعامِ». غيرَ أنَّ تلك لم تكُنْ مَناسكَ، فأمَّا التي هي مَناسكُ فإنَّما هي هَدايا أو ضَحايا؛ ولذلك قُلنا: عُنيَ بالمَنسكِ في هذا الموضعِ: الذَّبحُ، الذي هو بالصِّفةِ التي وصَفْنا). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٧).

وقال الشِّنقيطيُّ: (الأظهر في معنى قوله: ﴿مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ أي: مُتعبَّدًا هُم مُتعبِّدون فيه؛ لأنَّ أصلَ النُّسكِ التَّعبُّدُ، وقد بيَّن تعالى أنْ مَنسَكَ كلِّ أُمَّةٍ فيه التَّقرُّبُ إلى اللهِ بالذَّبحِ، فهو فَرْدٌ مِن أفرادِ النُّسكِ صَرَّحَ القرآنُ بدُخولِه في عُمومِه، وذلك مِن أنواعِ البيانِ الذي تَضمَّنها هذا الكتابُ المبارَكُ. والآيةُ التي بيَّن اللهُ فيها ذلك هي قولُه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [الحج: ٣٤]). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٩٨).

وقال السعديُّ: (جَعَل لكلِّ أُمَّةٍ مَعبدًا وعِبادةً، قد تَختلِفُ في بعضِ الأمورِ، مع اتِّفاقِها على العدلِ والحِكمةِ، كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ [المائدة: ٤٨] الآيةَ. ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ أي: عامِلون عليه، بحسَبِ أحوالِهم، فلا اعتِراضَ على شريعةٍ مِنَ الشَّرائعِ، خُصوصًا مِنَ الأُمِّيِّينَ، أهلِ الشِّركِ والجهلِ المُبينِ، فإنَّه إذا ثَبَتَتْ رسالةُ الرَّسولِ بأدلَّتِها، وَجَب أنْ يُتلقَّى جميعُ ما جاء به بالقَبولِ والتَّسليمِ، وترْكِ الاعتِراضِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

وقال القاسمي: (﴿مَنسَكًا﴾ أي: شريعةً ومتعبدًا). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٣).

وقيل: المرادُ بالنُّسكِ هنا: مواضعُ الحجِّ، بخِلافِ المرادِ به في الآية السابقةِ؛ فهو موضعُ القُربانِ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٨).

(١) قال الشوكاني: (والضَّميرُ راجعٌ إلى الأُممِ الباقيةِ آثارُهم، أي: قد عَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ شَريعةً، ومِن جملةِ الأُممِ هذه الأمَّةُ المحَمَّديَّةُ، وذلك مُوجبٌ لعدمِ منازعةِ مَن بَقِي منهم لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُستلْزِمٌ لطاعَتِهم إيَّاه في أمرِ الدِّينِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٣).

وقيل: الضميرُ يرجعُ إلى المشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨].

= (٥/ ٤٥١).

وقال القاسمي: (﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في ذلك الجَعْلِ والوَضعِ والحوارِ في تَنوُّعِه في كلِّ أُمَّةٍ، وعدَمِ وحْدَتِه. أو في أمرِ ما جِئتَهُم به، زعمًا بأنَّه يُستغنى عنه بما شُرِع قَبْلَه؛ لأنَّه جهْلٌ بحكمتِه تعالى في تكوينِ الأُممِ وتربيتِها بالشَّرائعِ المناسبةِ لِزَمنِها ومكانِها، وحياتِها ومَنشئِها؛ ولذلك كانت هذه الشَّريعةُ أَهدى الشَّرائعِ للامتِنان بها، حينما بَلَغ الإنسانُ أعلى طَورِ الرُّشدِ؛ ولذلك وجَبَتِ الدَّعوةُ إليها خاصَّةً). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٣).

وذهَبَ ابنُ جَريرٍ إلى أنَّ المعنى: فلا يُنازعنَّكَ المُشرِكون في ذبْحِكَ، بقولِهم: أَتأكُلون ما قَتَلْتُم، ولا تَأكُلون المَيْتةَ التي قَتَلَها اللهُ؟! فإنكَ أَوْلى بالحقِّ منهم؛ لأنَّك مُحِقٌّ، وهُم مُبْطِلون. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٧).

وذهَبَ الزَّجَّاجُ إلى أنَّ المعنى: لا يُجادِلُنَّكَ، ولا تُجادِلَنَّهُم. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٣٧).

قال الزمخشريُّ: (هو نَهيٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: لا تَلتَفِتْ إلى قَولِهم، ولا تُمكِّنْهم مِن أنْ يُنازِعوك. أو هو زجْرٌ لهم عنِ التَّعرُّضِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمُنازعةِ في الدِّينِ وهُم جُهَّالٌ لا عِلمَ عِندَهم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٩).

وقال ابن كثير: (إنْ كان... المراد: «لِكُلِّ أُمَّةِ نبيٍّ جَعَلْنَا مَنْسَكًا»؛ فيكونُ المرادُ بقولِه: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أَي: هؤلاء المشركونَ. وإنْ كان المرادُ: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ جعلًا قَدَرِيًّا -كما قال: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أَي: فاعِلوه- فالضَّميرُ هاهنا عائدٌ على هؤلاءِ الَّذين لهم مناسِكُ وطرائِقُ، أي: هؤلاء إنَّما يفعلونَ هذا عن قَدَرِ اللَّهِ وإرادتِه، فلا تَتَأَثَّرْ بمنازَعتِهم لك، ولا يَصْرِفْكَ ذلك عمَّا أنت عليه مِنَ الحقِّ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريقٍ واضحٍ مستقيمٍ موصِلٍ إلى المقصودِ. وهذه كقولِه: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥١).

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

أي: وادْعُ -يا مُحمَّدُ- إلى عبادةِ رَبِّك وَحْدَه، والإيمانِ به، واتِّباعِ شَريعَتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧].

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: داوِمْ على هذه الدَّعوةِ ولا يَثنِيَنَّك عنها شَيءٌ؛ فإنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ لا عِوَجَ فيه، مُوصلٍ إلى المَقصودِ(٢).

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾.

أي: وإنْ جادَلَك كُفَّارُ قَومِك -يا مُحمَّدُ- فقُلْ لهم: اللهُ أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ، وهو مُجازيكم على ذلك، ففَوِّضْ أمْرَهم إلى اللهِ، وأعرِضْ عنهم، ولا تُجادِلْهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٨، ٢٩٩).
قال الرسعني: (أكثرُ المفسرينَ يقولون: هذا منسوخٌ بآيةِ السيفِ. وبعضُهم يقولُ: هذا في حقِّ المنافقين، وكانت تظهرُ منهم فَلَتاتٌ، فإذا عُوتِبوا أنكَروا وحلَفوا وجادَلوا. فعلى هذا: لا نسخَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٩٠).
وقال أبو الحسن السخاوي: (وقالوا في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ نسَخَها آيةُ السَّيفِ. وقد قُلْنا: إنَّ آيةَ السَّيفِ لا يَصِحُّ أن تكونَ ناسِخةً لِشَيءٍ من هذا؛ لأنَّه صلَّى =

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عن الكافِرينَ، وكان ذلك شَديدًا على النَّفْسِ؛ لِتَشَوُّفِها إلى النُّصرةِ- رجَّاه في ذلك؛ فقال[(١)]:

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: اللهُ يَقضي ويَفصِلُ بينكم يومَ القيامةِ فيما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ مِن أمرِ دينِكم، ويتبَيَّنُ حِينَئذٍ المُحِقُّ مِن المُبطِلِ[(٢)].

= الله عليه وسلَّم لم يكن قادِرًا على القِتالِ مَنهيًّا عنه، وإنَّما تَنسَخُ آيةُ السَّيفِ آيةً يكونُ فيها نهيُه عن القِتالِ، ولا نجِدُ ذلك في القُرآنِ؛ لأنَّ العاجِزَ عن القِتالِ لا يُنهى عنه، أفتَرى أنَّه بعد آيةِ السَّيفِ لا يجوزُ له أن يقولَ لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؟! وما يُروى عن السَّلَفِ -رَحِمَهم اللهُ- مِثلِ ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه مِن إطلاقِ النَّسخِ في هذا إنَّما يريدونَ به: الانتِقالَ مِن حالٍ الى أُخرى؛ فأطلقوا على ذلك النَّسخَ، ونحن نريدُ بالنَّسخِ: رَفْعَ الحُكمِ الثَّابتِ نَصًّا بنصٍّ آخَرَ لولاه لكان الأوَّلُ ثابِتًا، وابنُ عبَّاسٍ وغيرُه لا يريدونَ بالنَّسخِ هذا). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٧٦٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

قيل: هذا خِطابٌ مِنَ اللهِ للمُؤمِنينَ والكافرينَ، أي: يَفصِلُ بينكم بالثَّوابِ والعِقابِ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٠). =

كما قال الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ * لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ هذا حَثٌّ منه تعالى وترغيبٌ في النَّظَرِ إلى آياتِه الدَّالَّاتِ على وحدانيَّته[(١)].

٢- الإنسانُ مأمورٌ بالدَّعوةِ إلى الخَيرِ -أي: الدَّعوةِ إلى الله عزَّ وجلَّ- كما في قَولِه تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ * ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ في هذه الآيةِ أدَبٌ حَسَنٌ عَلَّمَه اللهُ عِبادَه في الرَّدِّ على مَن جادَلَ تعنُّتًا ومِراءً: ألَّا يُجابَ ولا يُناظَرَ، ويُدفَعَ بهذا القَولِ الذي عَلَّمَه اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٣)].

= وقيل: هذا مِن ضِمنِ ما أُمِرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَقولَه على معنى أنَّ اللهَ يَحكُمُ بين المُسلِمينَ والكافرينَ يومَ القيامةِ. قاله الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٣).

وقيل: جملة ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ ليس مِن المقولِ، فهو خطابٌ للنبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليس خطابًا للمشركين؛ بقرينةِ قولِه: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾. والمقصودُ: تأييدُ الرسولِ والمؤمنينَ. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنْ قيل: ما وجْهُ الرَّفعِ في قوله: ﴿فَتُصۡبِحُ﴾، مع أنَّ قَبلَها استِفهامًا؟

والجوابُ: أنَّ الرَّفعَ في قولِه: ﴿فَتُصۡبِحُ﴾؛ لأنَّه ليس مُسبَّبًا عن الرُّؤيةِ التي هي موضعُ الاستِفهامِ، وإنما هو مُسبَّبُ الإنزالِ في قولِه: ﴿أَنزَلَ﴾، والإنزالُ الذي هو سببُ إصباحِ الأرضِ مُخضرَّةً ليس فيه استِفهامٌ، ومعلومٌ أنَّ الفاءَ التي يُنصَبُ بَعدَها المضارعُ إنْ حُذفَتْ جازَ جعْلُ مَدخولِها جزاءً للشَّرطِ، ولا يُمكنُ أنْ تقولَ هنا: إنْ ترَ أنَّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، تُصبِحِ الأرضُ مُخضرَّةً؛ لأنَّ الرُّؤيةَ لا أثَرَ لها الْبتَّةَ في اخضِرارِ الأرضِ، بل سببُه إنزالُ الماءِ، لا رؤْيةُ إنزالِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ استوعبَت الآيةُ العوالِمَ الثَّلاثةَ: البَرَّ، والبَحرَ، والجَوَّ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ قال: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنَّه سُبحانَه لَمَّا كان المُجريَ لها بالرِّياحِ، نسَبَ ذلك إلى أمْرِه توسُّعًا؛ لأنَّ ذلك يفيدُ تَعظيمَه بأكثَرَ مِمَّا يُفيدُ لو أضافَه إلى فِعلِه؛ بِناءً على عادةِ المُلوكِ في مِثلِ هذه اللَّفظةِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ دَلالةً قاطِعةً لا تَقبَلُ الشَّكَّ على أنَّ السَّمَواتِ أجرامٌ مَحسوسةٌ حَقيقيَّةٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((الضياء اللامع)) لابن عثيمين (١/ ٣٤).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ هذا كما قد يُعَدِّدُ المَرءُ نِعَمَه على وَلَدِه، ثمَّ يقولُ: إنَّ الوَلَدَ لكَفورٌ لنِعَمِ الوالِدِ؛ زَجرًا له عن الكُفرانِ، وبَعثًا له على الشُّكرِ؛ فلذلك أورد تعالى ذلك في الكُفَّارِ، فبيَّنَ أنَّهم دفعوا هذه النِّعَمَ، وكَفَروا بها، وجَهِلوا خالِقَها، مع وضوحِ أمْرِها[١]!

٦- سَبيلُ اللهِ وصِراطُه المُستَقيمُ هو الذي كان عليه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصَحابتُه، بدَليلِ قَولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ١ - ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فمَنِ اتَّبع رسولَ اللهِ صلَّى الله تعالى عليه وآله وسلَّم في قولِه وفعلِه فهو على صِراطِ الله المستقيمِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ استئنافٌ ابْتِدائيٌّ؛ انتقالٌ إلى التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ تعالى. والمقصودُ: التَّعريضُ بشُكْرِ اللهِ على نِعَمِه، وألَّا يَعْبُدوا غيرَه، كما دَلَّ عليه التَّذييلُ عَقِبَ تَعدادِ هذه النِّعَمِ بـ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾. وفي ذلك كلِّه: إدماجُ الاستدلالِ على انفرادِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فهو الرَّبُّ الحقُّ المُستحِقُّ للعِبادةِ[٣].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَقريريٌّ[٤]. وقيل: الاستفهامُ إنكاريٌّ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٧)

وإنَّما حُكِيَ الفِعْلُ المُستفهَمُ عنه الإنكاريُّ مُقترِنًا بحَرفِ (لم) الَّذي يُخلِّصُه إلى المُضِيِّ، وحُكِيَ مُتعلَّقُه -وهو الإنزالُ- بصِيغَةِ الماضي كذلك في قولِه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ولم يُراعَ فيهما معنى تَجدُّدِ ذلك؛ لأنَّ مَوقِعَ إنكارِ عدَمِ العِلْمِ بذلك هو كونُه أمْرًا مُتقرِّرًا ماضيًا لا يُدَّعى جَهْلُه(1).

- قولُه: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فيه التَّعبيرُ عن مَصيرِ الأرضِ خَضراءَ بصِيغةِ (تُصْبِحُ مُخْضرَّة) -مع أنَّ ذلك مُفرَّعٌ على فِعْلِ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الَّذي هو بصِيغةِ الماضي-؛ لأنَّه قُصِدَ مِن المُضارِعِ استحضارُ تلك الصُّورةِ العجيبةِ الحَسَنةِ، ولإفادةِ بَقاءِ أثَرِ إنزالِ المطَرِ زمانًا بعْدَ زَمانٍ(2)، والفاءُ هاهنا للتعقيب، وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسَبِه(3)؛ فمعلومٌ أنَّ النباتَ يَخرُجُ بعدَ نُزولِ المطرِ بمُدَّةٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] وبينهما أربعونَ يومًا.

- وخُصَّ (تُصبِحُ) دون سائِرِ أوقاتِ النَّهارِ؛ لأنَّ رُؤيةَ الأشياءِ المحبوبةِ أوَّلَ النَّهارِ أبهَجُ وأسَرُّ للرَّائي(4).

- وإذا كان الاخضِرارُ مُتأخِّرًا عن إنزالِ المطَرِ؛ فثَمَّ جُمَلٌ مَحذوفةٌ، والتَّقديرُ: فتهتزُّ وتَرْبو، فتُصبِحُ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ﴾(5).

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٨).

(2) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٧٢).

(3) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٠).

(4) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٣).

(5) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعبَّرَ عنِ النَّباتِ -الَّذي هو مُقْتضى الشُّكرِ؛ لِمَا فيه من إقامةِ أقواتِ النَّاسِ والبهائمِ- بذِكْرِ لَونِه الأخضرِ؛ لأنَّ ذلك اللَّونَ مُمتِعٌ للأبصارِ؛ فهو أيضًا مُوجِبُ شُكْرٍ على ما خلَقَ اللهُ مِن جَمالِ المصنوعاتِ في المَرْأى، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[1] [النحل: ٦].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ تَعليلٌ للإنزالِ[2]، ووَجْهُ تَعلُّقِه بما تقدَّمَ: أنَّه أراد أنَّه رحيمٌ بعِبادِه، ولِرَحمتِه فعَلَ ذلك حتَّى عظُمَ انتفاعُهم به؛ لأنَّ الأرضَ إذا أصبَحَتْ مُخضرَّةً، والسَّماءَ إذا أمطَرَتْ، كان ذلك سببًا لعَيشِ الحيواناتِ على اختلافِها أجمَعَ. ومعنى ﴿خَبِيرٌ﴾ أنَّه عالِمٌ بمَقاديرِ مَصالحِهم، فيَفعَلُ على قَدْرِ ذلك مِن دونِ زيادةٍ ونُقْصانٍ. وقيل: وَجْهُه: أنَّه أراد أنَّه لَطيفٌ بأرزاقِ عِبادِه، خَبيرٌ بما في قُلوبِهم من القُنوطِ. وقيل: لَطيفٌ في أفعالِه، خبيرٌ بأعمالِ خَلْقِه. وقيل: لَطيفٌ باستخراجِ النَّبتِ، خَبيرٌ بكيفيَّةِ خَلْقِه[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فُصِلَت هذه الجُملةُ ولم تُعْطَفْ على الَّتي قبْلَها مع اتِّحادِهما في الغرَضِ؛ لأنَّ هذه تَتنزَّلُ مِن الأُولى مَنزِلَةَ التَّذييلِ بالعُمومِ الشَّاملِ لِمَا تَضمَّنَته الجُملةُ الَّتي قبْلَها، ولأنَّ هذه لا تَتضمَّنُ تَذكيرًا بنِعمةٍ[4].

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالةِ على القَصرِ، أي: له ذلك لا لغَيرِه مِن أصنامِكم، هذا على جَعْلِ القَصرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٠).

إضافيًّا. أو لعدَمِ الاعتدادِ بغِنَى غيرِه ومَحمودِيَّتِه، إنْ جُعِلَ القَصرُ ادِّعائيًّا[١].

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ نبَّهَ بوَصْفِ الغِنَى على أنَّه غيرُ مُفتقِرٍ إلى غيرِه؛ تَنبيهًا على أنَّ افتقارَ الأصنامِ إلى مَن يَصنَعُها، ومَن يَنقُلُها مِن مكانٍ إلى آخَرَ، ومَن يَنفُضُ عنها القَتامَ -أي: الغُبارَ- والقذَرَ: دَليلٌ على انتفاءِ الإلهيَّةِ عنها. وأمَّا وَصْفُ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ فذِكْرُه لِمُزاوَجةِ وَصْفِ الغِنَى؛ لأنَّ الغَنِيَّ مُفيضٌ على النَّاسِ، فهُم يَحمَدونَه. وفي ضَميرِ الفَصلِ (هو) إفادةُ أنَّه المُختَصُّ بوَصْفِ الغِنَى دونَ الأصنامِ، وبأنَّه المُختَصُّ بالمَحْمودِيَّةِ؛ فإنَّ العرَبَ لم يَكونوا يُوجِّهونَ الحمْدَ لغَيرِ اللهِ تعالى. وأُكِّدَ الحَصرُ بحَرفِ التَّوكيدِ وبلامِ الابتداءِ (إنَّ - لـهو)؛ تَحقيقًا لِنِسبةِ القَصرِ إلى المقصورِ، وهذا التَّأكيدُ لِتَنزيلِ تَحقُّقِهم اختصاصَه بالغِنَى أو المَحْمودِيَّةِ مَنزِلةَ الشَّكِّ أو الإنكارِ؛ لأنَّهم لم يَجْرُوا على موجَبِ عِلْمِهم حين عَبَدوا غيرَه، وإنَّما يُعبَدُ مَن وَصْفُه الغِنَى[٢].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، بإعادةِ (ما)، وأدخَلَ اللَّامَ على قولِه: (هو)، بخِلافِ آيةِ سُورةِ لُقمانَ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]؛ ووَجْهُ ذلك: إفادةُ التَّوكيدِ المُحتاجِ إليه هنا في سُورةِ الحجِّ؛ فلا تَدخُلُ اللَّامُ الخبَرَ لغيرِ ذلك، وتَكرارُ الموصولِ أيضًا لذلك؛ فدخَلَتا في آيةِ هذه السُّورة بعْدَ عشْرِ آياتٍ، كلُّ آيةٍ مُؤكَّدةٍ مرَّةً أو مرَّتينِ، وخالَفَتِ الَّتي في سُورةِ لُقمانَ تلك بمَوقِعِها، فلم تُؤكَّدْ كما أُكِّدَتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأُولى لذلك(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا ابتِدائيًّا. والاستفهامُ إنكاريٌّ. وهذا مِن نسَقِ التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ، واقِعٌ مَوقِعَ قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]؛ فهو مِن عِدادِ الامتنانِ والاستدلالِ؛ فكان كالتَّكريرِ للغَرَضِ؛ ولذلك فُصِلَتِ الجُملةُ ولم تُعْطَفْ. وهذا تَذكيرٌ بنِعمةِ تَسخيرِ الحيوانِ وغيرِه، وفيه: إدماجُ الاستدلالِ على انفرادِه بالتَّسخيرِ والتَّقديرِ، فهو الرَّبُّ الحقُّ(٢).

- قولُه: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿مَّا﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ؛ لتَعجيلِ المَسرَّةِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ نبَّهَ على تَسخيرِ الفُلْكِ وإنْ كانت مُندرِجةً في عُمومِ (ما)؛ تَنبيهًا على غَرابةِ تَسخيرِها، وكثرةِ مَنافِعِها(٤). وخُصَّ الجَريانُ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ ذلك الجرْيَ في البحرِ هو مَظهَرُ التَّسخيرِ؛ إذ لولا الإلهامُ إلى صُنعِها على الصِّفةِ المعلومةِ لكان حَظُّها مِن البحرِ الغرَقَ(٥).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٣٢، ٩٣٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٢)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٦٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٢).

- قولُه: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ مُناسَبةُ عَطْفِ إمساكِ السَّمواتِ على تَسخيرِ ما في الأرضِ وتَسخيرِ الفُلْكِ: أنَّ إمساكَ السَّماءِ عن أنْ تقَعَ على الأرضِ ضَرْبٌ من التَّسخيرِ؛ لِمَا في عَظمةِ المخلوقاتِ السَّماويَّةِ مِن مُقتضياتِ تَغلُّبِها على المخلوقاتِ الأرضيَّةِ وحَطْمِها إيَّاها، لولا ما قدَّرَ اللهُ تعالى لكلِّ نَوعٍ منها مِن سُننٍ ونُظُمٍ تَمنَعُ مِن تسلُّطِ بَعضِها على بَعضٍ[1].

- ولَفْظُ السَّماءِ في قولِه: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ بمعنى (ما قابَلَ الأرضَ) في اصطلاحِ النَّاسِ؛ فيكونَ كُلًّا شامِلًا للعوالِمِ العُلويَّةِ كلِّها الَّتي لا نُحيطُ بها عِلْمًا؛ كالكواكبِ السَّيَّارةِ، وما اللهُ أعلَمُ به، وما يَكشِفُه للنَّاسِ في مُتعاقَبِ الأزمانِ. ويكونَ وُقوعُها على الأرضِ بمعنى الخُرورِ والسُّقوطِ؛ فيكونَ قولُه: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ امتنانًا على النَّاسِ بالسَّلامةِ ممَّا يُفْسِدُ حَياتَهم، ويكونَ قولُه: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ احتراسًا؛ جمْعًا بين الامتنانِ والتَّخويفِ؛ لِيَكونَ النَّاسُ شاكِرينَ مُستزِيدينَ مِن النِّعَمِ، خائفينَ مِن غضَبِ رَبِّهم أنْ يأذَنَ لبعضِ السَّماءِ بالوُقوعِ على الأرضِ.

ويَجوزُ أنْ يكونَ لفْظُ السَّماءِ قد أُطلِقَ على جَميعِ الموجوداتِ العُلويَّةِ الَّتي يَشمَلُها لفْظُ السَّماءِ، الَّذي هو ما علا الأرضَ، فأُطْلِقَ على ما يَحْويهِ، كما يُطلَقُ لفْظُ الأرضِ على سُكَّانِها؛ فاللهُ يُمسِكُ ما في السَّمواتِ مِن الشُّهُبِ ومِن كُريَّاتِ الأثيرِ والزَّمهريرِ عن اختراقِ كُرَةِ الهواءِ، ويُمْسِكُ ما فيها من القُوى -كالمطَرِ والبَرَدِ، والثَّلجِ والصَّواعقِ- مِن الوُقوعِ على الأرضِ والتَّحكُّكِ بها إلَّا بإذنِ اللهِ فيما اعتادَ النَّاسُ إذْنَه به؛ مِن وُقوعِ المطَرِ والثَّلجِ والصَّواعقِ والشُّهبِ، وما لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٢).

يَعتادُوهُ مِن تَساقُطِ الكواكبِ؛ فيكونُ مَوقِعُ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ بعْدَ قولِه تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ كمَوقِعِ قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ❁ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٢- ١٣]. ويكونُ في قولِه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ إدماجٌ بَين الامتنانِ والتَّخويفِ؛ فإنَّ مِن الإذنِ بالوُقوعِ على الأرضِ ما هو مَرغوبٌ للنَّاسِ، ومنه ما هو مَكروهٌ(١).

- ومَوقِعُ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ مَوقِعُ التَّعليلِ للتَّسخيرِ والإمساكِ؛ لأنَّ في جَميعِ ذلك رأفةً بالنَّاسِ بتَيسيرِ مَنافِعِهم الَّذي في ضِمْنِه دَفْعُ الضُّرِّ عنهم(٢).

- قولُه: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الجَمْعُ بين هاتينِ الصِّفتينِ يُفِيدُ ما تختَصُّ به كلُّ صِفَةٍ منهما، ويُؤكِّدُ ما تَجتمعانِ عليه(٣).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾

- جُملةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ [الحج: ٦٥]؛ لأنَّ صَدْرَ هذه مِن جُملةِ النِّعَمِ؛ فناسَبَ أنْ تُعطَفَ على سابِقَتِها المُتضمِّنةِ امتنانًا واستدلالًا كذلك(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ الجُملةُ تَذييلٌ يَجمَعُ المَقصدَ مِن تَعدادِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٣، ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٢٦).

نِعَمِ المُنعِمِ بجلائلِ النِّعَمِ المُقتضيةِ انفرادَهُ باستحقاقِ الشُّكرِ، واعترافَ الخَلقِ له بوَحدانيَّةِ الرُّبوبيَّةِ. وتَوكيدُ الخبَرِ بحَرفِ (إنَّ)؛ لِتَنزيلِهم مَنزِلَةَ المُنكِرِ أنَّهم كُفراءُ(١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ وَصْفٌ للجِنْسِ بوَصْفِ بَعْضِ أفرادِه؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ تَعريفُ الاستغراقِ العُرْفيِّ المُؤْذِنِ بأكثَرِ أفرادِ الجِنْسِ؛ مِن بابِ قولِهم: جمَعَ الأميرُ الصَّاغةَ، أي: صاغةَ بَلَدِه، وقوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨]، وقد كان أكثَرُ العرَبِ يومئذٍ مُنكرينَ للبَعْثِ. أو أُريدَ بالإنسانِ خُصوصُ المُشرِكِ، كقولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]. والكَفُورُ مُبالَغةٌ في الكافِرِ؛ لأنَّ كُفْرَهم كان عن تَعنُّتٍ ومُكابَرةٍ. ويَجوزُ كونُ الكَفُورِ مأْخوذًا مِن كُفْرِ النِّعمةِ، وتكونُ المُبالَغةُ باعتبارِ آثارِ الغَفلةِ عن الشُّكرِ، وحينَئذٍ يكونُ الاستغراقُ حَقيقيًّا(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ؛ جِيءَ به لِزَجْرِ مُعاصِريه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أهْلِ الأديانِ الأخرى عن مُنازَعتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ببيانِ حالِ ما تَمسَّكُوا به مِن الشَّرائعِ، وإظْهارِ خَطَئِهم في النَّظرِ. وقولُه: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ صِفَةٌ لـ ﴿مَنسَكًا﴾، مُؤكِّدةٌ للقَصرِ المُستفادِ من تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ على الفِعْلِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٦، ٣٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٨).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ لِتَرتيبِ النَّهيِ أو مُوجِبِه على ما قبْلَها؛ فإنَّ تَعيينَه تعالى لكلِّ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ الَّتي مِن جُمْلَتِهم هذه الأُمَّةُ شريعةً مُستقِلَّةً، بحيث لا تَتخطَّى أُمَّةٌ منهم شريعتَها المُعيَّنَةَ لها: مُوجِبٌ لطاعةِ هؤلاء لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعدَمِ مُنازعتِهم إيَّاهُ في أمْرِ الدِّينِ. والنَّهيُ إمَّا على حَقيقتِه، أو كِنايةٌ عن نَهْيِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الالتفاتِ إلى نِزاعِهم للنَّبيِّ على زَعْمِهم المَذكورِ، وإنَّما أُسْنِدَ الفِعْلُ هنا لضَميرِ المُشركين ﴿يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ مُبالَغةً في نَهْيِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مُنازَعتِه إيَّاهم الَّتي تُفْضي إلى مُنازَعتِهم إيَّاهُ؛ فيكونُ النَّهْيُ عن مُنازَعتِه إيَّاهم كإثباتِ الشَّيءِ بدَليلِه[1].

- وقولُه: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ عُطِفَ على انتهاءِ المُنازَعةِ في الدِّينِ أمْرٌ بالدَّوامِ على الدَّعوةِ، وعدَمِ الاكتفاءِ بظُهورِ الحُجَّةِ؛ لأنَّ المُكابَرةَ تُجافي الاقتناعَ، ولأنَّ في الدَّوامِ على الدَّعوةِ فوائدَ للنَّاسِ أجمعينَ. وفي حَذْفِ مَفعولِ (ادْعُ) إيذانٌ بالتَّعميمِ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تَعليلٌ للدَّوامِ على الدَّعوةِ، وأنَّها قائمةٌ مَقامَ فاءِ التَّعليلِ، لا لِرَدِّ الشَّكِّ[3].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاءت هذه الآيةُ غيرَ مَعطوفةٍ، وجاءت نَظيرتُها مَعطوفةً بالواوِ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ [الحج: ٣٤]؛ ووَجْهُه: أنَّ تلك وقَعَتْ مع ما يُدانِيها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٨، ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٠).

ويُناسِبُها مِن الآياتِ الواردةِ في أمْرِ النَّسائكِ؛ فعُطِفَت على أخَواتِها، وأمَّا هذه فواقعةٌ مع أباعِدَ عن مَعناها؛ فلم تَجِدْ مَعْطفًا[1]. وقيل: إنَّ هذه الآية تَقْدِمَةُ نَهْيِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا يُوجِبُ مُنازَعةَ القومِ، وتَسليةٌ له، وتَعظيمٌ لأمْرِه، حيثُ جُعِلَ أمْرُه نُسُكًا ودِينًا. وأمَّا اتِّصالُه بما سبَقَ مِن الآياتِ؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٖ مِّنْهُ﴾ يُوجِبُ القَلْعَ عن إنذارِ القومِ، والإياسَ منهم ومُتاركَتَهم، والآياتُ المُتخلِّلةُ كالتَّأكيدِ لِمَعنى التَّسليةِ؛ فجِيءَ بقولِه: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ تَحريضًا له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على التَّأسِّي بالأنبياءِ السَّابقةِ في مُتارَكةِ القومِ، والإمساكِ عن مُجادَلَتِهم بعْدَ الْيأسِ مِن إيمانِهم؛ فالرَّبطُ على طَريقةِ الاستئنافِ، وهو أقْوى مِن الرَّبْطِ اللَّفظيِّ[2]. وهذا مُتَّصِلٌ في المعنى بقولِه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ [الحج: ٣٤] الآيةَ. وقد فصَلَ بين الكلامينِ ما اقْتَضى الحالُ استطرادَهُ؛ مِن قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٧- ٣٨]، إلى هنا، فعاد الكلامُ إلى الغرَضِ الَّذي في قولِه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٤] الآيةَ؛ لِيُبْنى عليه قولُه: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ فهذا استِدْلالٌ على توحيدِ اللهِ تعالى بما سبَقَ مِن الشَّرائعِ لِقَصْدِ إبطالِ تَعدُّدِ الآلهةِ، بأنَّ اللهَ ما جعَلَ لأهْلِ كلِّ مِلَّةٍ سبَقَتْ إلَّا مَنْسكًا واحِدًا يَتقرَّبونَ فيه إلى اللهِ؛ لأنَّ المُتقرَّبَ إليه واحدٌ. وقد جعَلَ المُشرِكون مَناسِكَ كثيرةً، فلكلِّ صَنَمٍ بيتٌ يُذبَحُ فيه؛ فالجُملةُ استئنافٌ. والمُناسَبةُ ظاهرةٌ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٤، ٥٣٥).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٢٥، ٥٢٦).

ولذلك فُصِلَتِ الجُملةُ ولم تُعْطَفْ كما عُطِفَت نَظيرتُها المُتقدِّمةُ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيه تَفويضُ أمْرِهم إلى اللهِ تعالى، وهو كِنايةٌ عن قَطْعِ المُجادَلةِ معهم، وإدماجٌ بتَعريضٍ بالوعيدِ والإنذارِ بكَلامٍ مُوجَّهٍ صالِحٍ لِمَا يَتظاهَرون به مِن تطلُّبِ الحُجَّةِ[٢]، فهو وَعيدٌ وإنْذارٌ؛ ولكنْ برِفْقٍ ولِينٍ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٥).

الآيات (٧٠-٧٢)

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٞ ٧٠ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنٗا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِن نَّصِيرٖ ٧١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَۖ
يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ
وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ٧٢﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿سُلْطَٰنٗا﴾: أي: حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القُوَّةُ والقَهرُ[1].

﴿يَسْطُونَ﴾: أي: يَبطِشونَ ويَقَعونَ، والسَّطوةُ: البَطشُ برَفعِ اليَدِ، وأصلُ (سطو): يدُلُّ على القَهرِ والعُلوِّ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قد علمْتَ -أيُّها الرَّسولُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في السَّماءِ والأرضِ عِلمًا كامِلًا قد أثبَتَه في اللَّوحِ المَحفوظِ، إنَّ ذلك أمرٌ سَهلٌ على اللهِ الذي لا يُعجِزُه شَيءٌ.

ويَعبُدُ كُفَّارُ قُرَيشٍ آلِهةً لم يُنَزِّلِ اللهُ حُجَّةً على صِحَّةِ عبادتِها، ولا عِلمَ لهم فيما اختَلَقوه وافتَرَوه على اللهِ، وما للمُشرِكينَ ناصِرٌ يَنصُرُهم ويَدفَعُ عنهم عَذابَ الله.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٤).

وإذا تُتلى آياتُ القُرآنِ الواضِحةُ على هؤلاءِ المُشرِكينَ، ترى الكَراهةَ ظاهِرةً على وُجوهِهم، يَكادونَ يَبطِشونَ بالمُؤمِنينَ الذين يَدْعونَهم إلى اللهِ تعالى ويتلونَ عليهم آياتِه. قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: أفلا أخبِرُكم بما هو أشَدُّ شَرًّا عليكم مِمَّا سَمِعتُموه مِنَ القُرآنِ؟ النَّارُ أعدَّها اللهُ للكافرينَ في الآخرةِ، وبِئسَ المكانُ الذي يَصيرونَ إليه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى مِن قَبلُ: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ٦٩]؛ أتبَعَه بما به يُعلَمُ أنَّه سُبحانَه عالِمٌ بما يَستَحِقُّه كُلُّ أحدٍ منهم، فيقَعُ الحُكمُ منه بيْنَهم بالعَدلِ لا بالجَورِ، فقال لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١):

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألم تعلَمْ -يا مُحمَّدُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ كُلَّ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، ويَعلَمُ أعمالَ عِبادِه واختلافَهم، فمُجازيهم على ذلك(٢)؟

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾.

أي: إنَّ عِلمَ اللهِ بكلِّ ما يكونُ في السَّماءِ والأرضِ قد أثبَتَه اللهُ في اللَّوحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

المَحفوظِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم يقولُ: ((كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ))[٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أي: إنَّ إحاطةَ عِلمِ الله بجميعِ ذلك وكتابتَه في كتابٍ[٣] هَيِّنٌ سَهلٌ على اللهِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٣) قيل: الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى كَتبِ المعلوماتِ في كتابٍ. وممن قال بذلك المعنى: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والرازي، واستظهرَه ابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦).

وقيل: المراد: إنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: علمَه بجميعِ ذلك. وممن قال بذلك: الثعلبيُّ، والبغوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٥٤).

وممن جمع بين المعنيين السابقين: السعديُّ، فقال: (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان تصوُّرُه عندَكم لا يُحاطُ به، فالله تعالى يسيرٌ عليه أن يُحيطَ عِلمًا بجميعِ الأشياءِ، وأن يكتُبَ ذلك في كتابٍ مُطابِقٍ للواقِعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

وقال الزمخشري: (والإحاطةُ بذلك وإثباتُه وحفظُه عليه يَسيرٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٠).

وقيل: المراد: إنَّ الفَصلَ بين المختَلِفينَ على الله يسيرٌ. وممن قال بذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ أصنامًا لم يُنزِّلِ اللهُ على رُسُلِه حُجَّةً على صِحَّةِ عبادتِها[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾.

أي: وليس للمُشرِكينَ عِلمٌ يَقينيٌّ بجَوازِ وصِحَّةِ عِبادةِ الأصنامِ، وإنَّما يَعبُدونَها تقليدًا لآبائِهم[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: ٢٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٣).

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

أي: وما للمُشرِكينَ بسَبَبِ ظُلمِهم مِن ناصرٍ يَنصُرُهم ويُنقِذُهم مِن عذابِ اللهِ، ويَدفَعُ عنهم عِقابَه[1].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى اعترافَ الكافرينَ بما لا يُعرَفُ بنقلٍ ولا عقلٍ؛ ذكَر إنكارَهم لِمَا لا يصحُّ أن يُنكرَ، فقال[2]:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾.

أي: وإذا تُتلى على المُشرِكينَ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها واضِحاتُ الحُجَجِ والدَّلالةِ على توحيدِ اللهِ، وصِدقِ رَسولِه، تتبَيَّنُ في وجوهِهم الغَمَّ والكراهيَةَ، والعُبوسَ والغَضَبَ[3]!

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾.

أي: يَكادُ المُشرِكونَ يَبطِشونَ بالذينَ يَتلونَ عليهم القُرآنَ، ويَبْسُطونَ إليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

أيدِيَهم وألسِنَتَهم بالسُّوءِ؛ لشِدَّةِ كراهتِهم وبُغضِهم آياتِ اللهِ وما فيها مِنَ الدَّعوةِ إلى الحَقِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أفأُخبِرُكم بما هو أشَدُّ عليكم وأكرَهُ إليكم مِمَّا سَمِعتُموه مِنَ القُرآنِ؟ هو النَّارُ التي وعَدَها اللهُ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٥).

قال ابن عاشور: («الَّذِينَ يَتْلُونَ» يَجوزُ أنْ يَكونُ مُرادًا به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن إطلاقِ اسمِ الجَمعِ على الواحِدِ، كقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧]، أي: كَذَّبوا الرَّسولَ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ به مَن يَقرأُ عليهمُ القرآنَ مِنَ المُسلِمينَ والرَّسولِ، أمَّا الذين سَطَوا عليهم مِنَ المؤمنين فلعلَّهم غَيرُ الذين قرَؤوا عليهمُ القرآنَ، أو لعلَّ السَّطوَ عليهم كان بَعدَ نُزولِ هذه الآيةِ؛ فلا إشكالَ في ذِكرِ فِعْلِ المُقارَبةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٦، ٣٣٧).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ في ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ تعودُ إلى القرآنِ: الواحديُّ، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٦، ٣٣٧).

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى التَّالينَ عليهم القُرآنَ. قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٤).

قال ابن جرير: (أفأُنبِّئُكم أيُّها المشركونَ بأكرَهَ إليكم مِن هؤلاء الذين تتكرَّهون قراءتَهم القرآنَ عليكم؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٤).

وقيل: الإشارة بـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى السطوِ. وممن اختاره: الزمخشريُّ، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٣). =

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ المكانُ الذي يصيرُ إليه هؤلاء المُشرِكونَ يومَ القيامةِ: النَّارُ[١]!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه عُمومُ عِلمِ اللهِ. والآياتُ في العِلمِ مُتنوِّعةٌ؛ تارةً تكونُ مُجمَلةً، وتارةً تكونُ مُفصَّلةً، وتارةً تكونُ فيما يتعَلَّقُ بفِعلِ الإنسانِ، وتارةً تكونُ فيما يتعَلَّقُ بفِعلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّ صِفةَ العِلمِ متَّى آمَنَ بها الإنسانُ أوجَبَ له ذلك أمْرَينِ:

الأمرُ الأوَّلُ: الهُروبُ مِن مَعصيةِ اللهِ، فلا يَجِدُه اللهُ عزَّ وجَلَّ حيث نهاه.

الأمرُ الثَّاني: الرَّغبةُ في طاعةِ اللهِ، فلا يَفقِدُه حيثُ أمَرَه[٢]؛ لأنَّك متى عَلِمْتَ أنَّ اللهَ عالِمٌ بك فإنَّ ذلك يُوجِبُ لك مُراقبةَ اللهِ سُبحانَه؛ فلا يَفقِدُك حيثُ أمَرَك، ولا يَجِدُك حيثُ نهاك[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى كتَب في اللَّوحِ المَحفوظِ

= وقال البقاعي: ((﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أتَعُونَ فأُخبِرَكم خبرًا عظيمًا ﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الأمرِ الكَبيرِ مِنَ الشَّرِّ الذي أردتُموه بعبادِ اللهِ التَّالينَ عليكم للآياتِ، وما حصَلَ لكم من الضَّجَرِ مِن ذلك؟)). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٩٤). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٦، ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٤).

ما هو كائنٌ إلى يَومِ القِيامةِ[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ فيه إثباتُ العِلمِ وإثباتُ الكِتابةِ، وهما المَرتبتانِ الأُولى والثَّانيةُ مِن مراتِبِ الإيمانِ بالقَدَرِ، وأمَّا المرتبةُ الثَّالِثةُ: فهي المَشيئةُ. والمَرتبةُ الرَّابِعةُ: هي الخَلقُ[(٢)].

٣- قال تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ فاللهُ سُبحانَه قد عَلِمَ قَبلَ أنْ يُوجِدَ عِبادَه أحوالَهم، وما هُم عامِلون، وما هُم إليه صائِرون، ثمَّ أَخرجَهم إلى هذه الدَّارِ؛ ليَظهَرَ مَعلومُه الذي عَلِمَه فيهم كما عَلِمَه، وابتَلاهُم مِنَ الأمرِ والنَّهيِ والخَيرِ والشَّرِّ بما أَظهَر مَعلومَه، فاستَحقُّوا المدحَ والذَّمَّ، والثَّوابَ والعِقابَ بما قام بهم مِنَ الأفعال والصِّفاتِ المُطابقةِ للعِلمِ السَّابقِ، ولمْ يَكونوا يَستحِقُّون ذلك وهي في عِلمِه قَبْلَ أنْ يَعمَلوها، فأَرسَلَ رُسُلَه، وأَنزل كُتُبَه، وشَرَعَ شرائعَه؛ إعذارًا إليهم، وإقامةً للحُجَّةِ عليهم؛ لئلَّا يقولوا: كيف تُعاقِبُنا على عِلمِكَ فينا، وهذا لا يَدخُلُ تحتَ كَسْبِنا وقُدرتِنا؟! فلمَّا ظَهَر عِلمُه فيهم بأفعالِهم، حَصَلَ العِقابُ على مَعلومِه الذي أَظهَرَه الابتلاءُ والاختبارُ، وكما ابتلاهُم بأمْرِه ونَهْيِه ابتلاهُم بما زَيَّنَ لهم مِن الدنيا، وبما ركَّب فيهم مِنَ الشَّهواتِ؛ فذلك ابتلاءٌ بشَرْعِه وأمْرِه، وهذا ابتلاءٌ بقَضائِه وقدَرِه[(٣)].

٤- الدِّينُ الذي نزَلَ به الوحيُ هو الدِّينُ الذي شَرَعه اللهُ عزَّ وجَلَّ، وأهلُ الضَّلالِ يَتَّبِعونَ دِينًا ليس مُوافقًا للشَّرعِ المُنزَّلِ، ولا لهم به عِلمٌ، بل يَتَّبعونَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٥).

أهواءَهم وما يَذوقونَه ويَجِدونه في أَنفُسِهم بغيرِ شرْعٍ ولا عِلمٍ؛ ولهذا كان شُيوخُ أهلِ المَعرفةِ يُوصونَ باتِّباعِ الشَّرعِ والعِلمِ، ويذُمُّونَ أهلَ العباداتِ الذين لا يتَّبعونَ الشَّرعَ والعِلمَ، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ أهلَ الباطِلِ تَضيقُ صُدورُهم مِن الحَقِّ[2]، وهكذا ترى أهلَ البِدَعِ المُضِلَّةِ: إذا سَمِعَ الواحِدُ منهم ما يتلوه العالِمُ عليهم من آياتِ الكِتابِ العَزيزِ أو مِنَ السُّنَّةِ الصَّحيحةِ مُخالِفًا لِما اعتَقَده مِن الباطِلِ والضَّلالةِ، رأيتَ في وَجْهِه مِن المُنكَرِ ما لو تمكَّنَ مِن أن يَسطوَ بذلك العالِمِ لفَعَل به ما لا يَفعَلُه بالمُشرِكينَ! واللهُ ناصِرُ الحَقِّ، ومُظهِرُ الدِّينَ، وداحِضُ الباطِلَ، ودامِغُ البِدَعَ، وحافِظُ المُتكَلِّمينَ بما أخَذه عليهم، المُبَيِّنينَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوَكيلُ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ؛ لِزيادةِ تَحقيقِ التَّأييدِ الَّذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: فهو لا يَفوتُه شَيءٌ مِن أعمالِكم؛ فيُجازي كُلًّا على حِسابِ عَمَلِه؛ فالكَلامُ

(١) يُنظر: ((قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق)) لابن تيميَّة (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٤).

كِنايةٌ عن جَزاءِ كلٍّ بما يَلِيقُ به. والاستفهامُ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ تقريريٌّ، أي: إنَّك تَعلَمُ ذلك، وهذا الكَلامُ كِنايةٌ عنِ التَّسليةِ، أي: فلا تَضِقْ صَدْرًا ممَّا تُلاقِيه منهم[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ بَيانٌ للجُملةِ قبْلَها، أي: يَعلَمُ ما في السَّماءِ والأرضِ عِلْمًا مُفصَّلًا لا يَختلِفُ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ قيل: هذا بَيانٌ لمَضمونِ الاستفهامِ من الكِنايةِ عن الجزاءِ. واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائدٌ إلى مَضمونِ الاستفهامِ من الكِنايةِ؛ فتَأويلُه بالمذكورِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ بَيانًا لجُملةِ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، ويكونَ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائدًا إلى العِلْمِ المأخوذِ مِن فِعْلِ ﴿يَعْلَمُ﴾، أي: أنَّ عِلْمَ اللهِ بما في السَّماءِ والأرضِ للهِ حاصِلٌ دونَ اكتسابٍ؛ لأنَّ عِلْمَه ذاتيٌّ لا يَحتاجُ إلى مُطالَعةٍ وبَحْثٍ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ على مُتعلَّقِه وهو ﴿يَسِيرٌ﴾؛ للاهتمامِ بذِكْرِه؛ للدَّلالةِ على إمكانِه في جانبِ عِلْمِ اللهِ تعالى[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ يَجوزُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنْ يكونَ الواوُ حَرفَ عطْفٍ، وتكونَ الجُملةُ مَعطوفةً على الجُملةِ السَّابقةِ بما تفرَّعَ عليها عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ الواوُ للحالِ، والجُملةُ بعْدَها حالًا منَ الضَّميرِ المرفوعِ في قولِه: ﴿جَٰدَلُوكَ﴾ [الحج: ٦٨]، والمعنى: جادَلوك في الدِّينِ، مُستمرِّينَ على عِبادةِ ما لا يَستحِقُّ العِبادةَ بَعْدما رأَوا مِن الدَّلائلِ، وتَتضمَّنُ الحالُ تعجُّبًا مِن شأْنِهم في مُكابَرتِهم وإصرارِهم(١).

- وعبَّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ (يَعْبُدُونَ) المُفيدِ للتَّجدُّدِ؛ لأنَّ في الدَّلائلِ الَّتي تَحُفُّ بهم، والَّتي ذُكِّروا ببَعضِها في الآياتِ الماضيةِ: ما هو كافٍ لإقلاعِهم عن عِبادةِ الأصنامِ، لو كانوا يُريدونَ الحقَّ(٢).

- قولُه: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فيه تَقديمُ انتفاءِ الدَّليلِ النقليِّ، وهو قولُه: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ على انتفاءِ الدَّليلِ العقليِّ، وهو قولُه: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ لأنَّ الدَّليلَ النقليَّ أهَمُّ(٣).

- والمُرادُ بالظَّالمينَ في قولِه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ المُشركونَ المُتحدَّثُ عنهم؛ فهو مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ سبَبَ انتفاءِ النَّصيرِ لهم هو ظُلْمُهم، أي: كُفْرُهم. وقد أفاد ذلك ذَهابَ عِبادَتِهم الأصنامَ باطِلًا؛ لأنَّهم عبَدوها رجاءَ النَّصرِ. ويُفيدُ بعُمومِه أنَّ الأصنامَ لا تَنصُرُهم؛ فأغْنى عن مَوصولٍ ثالثٍ هو مِن صفاتِ الأصنامِ، كأنَّه قِيلَ: وما لا يَنصُرُهم، كقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾(٤) [الأعراف: ١٩٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٣، ٣٣٤).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ معنى التَّتميمِ والتَّنزُّلِ؛ إذِ المعنى: ليس لهم دَليلٌ قاطعٌ على صِحَّةِ ما هم فيه، ولا لهم أيضًا ما يَصِحُّ عندَ الضَّرورةِ أنْ يُتمسَّكَ به، ولا لهم ذُو شَوكةٍ يَقهَرُ النَّاسَ بالتَّعدِّي والظُّلْمِ الصِّرْفِ على عِبادةِ ما يَدْعُون[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ عَطْفٌ على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ لِبَيانِ جُرْمٍ آخَرَ مِن أجرامِهم مع جُرْمِ عِبادةِ الأصنامِ، وهو جُرْمُ تكذيبِ الرَّسولِ والتَّكذيبِ بالقُرآنِ، وما بيْنهما اعتراضٌ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ إيثارُ صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ[3].

- وتَقييدُ الآياتِ بوَصْفِ البيِّناتِ؛ لِتَفظيعِ إنكارِهم إيَّاها؛ إذ ليس فيها ما يُعْذَرُ به مُنكِروها[4].

- قولُه: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، ومُقْتَضى الظَّاهرِ أنْ يكونَ (تَعرِفُ في وُجوهِهم)، أي: وُجوهِ الَّذين يَعْبُدون مِن دونِ اللهِ ما لم يُنزِّلْ به سُلْطانًا؛

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٥).

فخُولِفَ مُقْتضى الظَّاهِرِ، فقال: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتَّسجيلِ عليهم بالإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ ذلك هو ما يُبْطِنونه مِن الكُفْرِ[(١)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ كِنايةٌ عن امتلاءِ نُفوسِهم مِن الإنكارِ والغَيظِ حتَّى تَجاوَزَ أثَرُه بَواطِنَهم؛ فظهَرَ على وُجوهِهم، ولأجْلِ هذه الكِنايةِ عُدِلَ عن التَّصريحِ بنحْوِ: (اشتَدَّ غَيظُهم)، أو (يَكادُون يتميَّزون غيظًا)[(٢)].

- قولُه: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وَعيدٌ وتَقريعٌ[(٣)]، وهو استئنافٌ ابتدائيٌّ يُفيدُ زِيادةَ إغاظَتِهم، بأنْ أمَرَ اللهُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَتْلُوَ عليهم ما يُفِيدُ أنَّهم صائِرونَ إلى النَّارِ. والتَّفريعُ بالفاءِ ناشِئٌ مِن ظُهورِ أثَرِ المُنكَرِ على وُجوهِهم، فجُعِلَ دَلالةُ مَلامِحِهم بمَنزِلَةِ دَلالةِ الألفاظِ، ففُرِّعَ عليها ما هو جَوابٌ عن كلامٍ، فيَزيدُهم غَيظًا. ويَجوزُ كونُ التَّفريعِ على التِّلاوةِ المأخوذةِ من قولِه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾، أي: اتْلُ عليهم الآياتِ المَنْذِرةَ والمُبيِّنةَ لِكُفْرِهم، وفُرِّعَ عليها وَعيدُهم بالنَّارِ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في الاستئذانِ، وهو استئذانٌ تَهكُّمِيٌّ؛ لأنَّه قد نبَّأهم بذلك دونَ أنْ يَنتظِرَ جَوابَهم[(٤)].

- قولُه: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه قولُه: ﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾، والتَّقديرُ: شَرٌّ مِن ذلِكُم النَّارُ، والجُملةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٦).

استئنافٌ بَيانيٌّ، أي: إنْ سألْتُم عن الَّذي هو أشَدُّ شَرًّا، فاعْلَموا أنَّه النَّارُ.
وجُملةُ ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلنَّارُ﴾، أو هي استئنافٌ[(١)]. أو جوابُ سائلٍ قال: ما هو؟ ويجوزُ أن يكونَ مبتدأً، خبرُه: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[(٢)].

- والتَّعبيرُ عنهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قولِه: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، أي: وعَدَها اللهُ إيَّاكم لِكُفْرِكم[(٣)].

- قولُه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: بِئْسَ مَصيرُهم هي؛ فحَرْفُ التَّعريفِ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه؛ فتكونُ الجُملةُ إنشاءَ ذَمٍّ مَعطوفةً على جُملةِ الحالِ على تَقديرِ القولِ. ويجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للجِنْسِ، فيُفِيدَ العُمومَ، أي: بِئْسَ المصيرُ هي لِمَن صار إليها؛ فتكونَ الجُملةُ تَذييلًا؛ لِمَا فيها مِن عُمومِ الحُكْمِ للمُخاطبينَ وغيرِهم، وتكونُ الواوُ اعتراضيَّةً تَذييليَّةً[(٤)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٢-٧٦)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿يَسۡلُبۡهُمُ﴾: أي: يختَطِفْ منهم، والسَّلبُ: نَزعُ الشَّيءِ مِن الغَيرِ على القَهْرِ، وأصلُ (سلب): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بخِفَّةٍ واختِطافٍ[(١)].

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾: أي: ما أجلُّوا اللهَ حَقَّ إجلالِه، ولا عَظَّموه حقَّ تَعظيمِه، ولا عَرَفوه حقَّ مَعرِفتِه. والقَدْرُ: العَظَمةُ. يُقالُ لكُلِّ مَن عَرَف شَيئًا: هو يَقدُرُ قَدْرَه. وإذا لم يَعرِفْه بصِفاتِه: لا يَقدُرُ قَدْرَه، و﴿حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: ما قدَروا اللهَ قَدْرَه الحَقَّ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ وكُنْهِه[(٢)].

﴿يَصۡطَفِي﴾: أي: يَختارُ ويُخلِصُ، والاصطِفاءُ: تَناوُلُ صَفْوِ الشَّيءِ، وتخيُّرُ الأصفَى، وأصلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ مِن كُلِّ شَوبٍ[(٣)].

---

(١) ينظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) (٣/ ٩٢).

(٢) ينظر: ((تفسير الطبري)) (١١/ ٥٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٢٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٢) (٢٤/ ٦١).

(٣) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٥)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها النَّاسُ، ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعوا له وتدَبَّروه: إنَّ الأصنامَ والأندادَ التي تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ لن تَقدِرَ مُجتَمِعةً على خَلقِ ذُبابةٍ واحدةٍ، ولا تَقدِرُ أن تَستخلِصَ ما يَسلُبُه الذُّبابُ ممَّا عليها مِن طِيبٍ أو طَعامٍ ونحوِه، ضَعُفَ الطَّالِبُ -الذي هو المعبودُ مِن دُونِ اللهِ- أن يَستَنقِذَ ما أخَذَه الذُّبابُ منه، وضَعُفَ المطلوبُ الذي هو الذُّبابُ، وضَعُفَ العابِدُ لغيرِ الله، وضعُف معبودُه، فكيف تُتَّخَذُ هذه الأصنامُ والأندادُ آلِهةً، وهي بهذا العَجزِ التامِّ والهوانِ؟!

هؤلاءِ المُشرِكونَ لم يُعَظِّموا اللهَ حَقَّ تعظيمِه؛ إذ جعَلوا له شُرَكاءَ، وهو القَويُّ العزيزُ.

اللهُ سُبحانَه وتعالى يختارُ مِنَ المَلائِكةِ رُسُلًا إلى أنبيائِه، ويَختارُ مِنَ النَّاسِ رُسُلًا لتبليغِ رِسالاتِه إلى الخَلقِ، إنَّ اللهَ سَميعٌ لكُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك سماعُه لأقوالِ عِبادِه، بصيرٌ بجَميعِ الأشياءِ، وبمَن يختارُه للرِّسالةِ مِن خَلْقِه، وهو سُبحانَه يَعلَمُ ما بيْن أيدِي الرُّسُلِ مِنَ الملائكةِ والنَّاسِ، وما خَلْفَهم، وإلى الله وَحْدَه تُرجَعُ الأمورُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ٧٣﴾.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ يَعبُدونَ ما لا دَليلَ على عبادتِه لا مِن سَمعٍ ولا مِن عَقلٍ، ويَترُكون عبادةَ مَن خلَقَهم؛ ذكَرَ ما عليه مَعبوداتُهم مِن انتِفاءِ القُدرةِ على خَلقِ أقَلِّ الأشياءِ، بل على رَدِّ ما أخَذَه ذلك الأقَلُّ منه، وفي ذلك تجهيلٌ عَظيمٌ لهم؛ حيثُ عَبَدوا مَن هذه صِفَتُه[١].

وأيضًا فإنَّه أُعقِبَت تضاعيفُ الحُجَجِ والمواعِظِ والإنذاراتِ التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ مِمَّا فيه مَقنَعٌ للعِلمِ بأنَّ إلهَ النَّاسِ واحِدٌ، وأنَّ ما يُعبَدُ من دونِه باطِلٌ- أُعقِبَت تلك كُلُّها بمَثَلٍ جامعٍ لوَصفِ حالِ تلك المعبوداتِ وعابديها[٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ[٣] ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا للآلِهةِ التي يَعبُدُها المُشرِكونَ، فأنصِتُوا لهذا المَثَلِ، وتفهَّموا ما احتَوى عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٧).

(٣) قال ابنُ عطية: (الخطابُ بقَولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قيل: هو خِطابٌ يعُمُّ العالَم، وقيل: هو خِطابٌ للمُؤمِنينَ حينئذٍ، الذين أراد اللهُ تعالى أن يبَيِّنَ عِندَهم خطأَ الكافرينَ، ولا شَكَّ أنَّ المُخاطَبَ هم، ولكنَّه خِطابٌ يعُمُّ جَميعَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٣).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بالنَّاسِ هنا المُشرِكونَ، على ما هو المُصطلَحُ الغالِبُ في القرآنِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالنَّاسِ جميعَ النَّاسِ مِن مُسلِمينَ ومُشرِكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

وممن قال بهذا المعنى في الجملة: ابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

ويُنظر أيضًا: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٩).

=

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾.

أي: إنَّ الذين تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها، لن يَقدِروا على خَلقِ ذُبابةٍ واحِدةٍ، ولو تَعاونوا جميعًا على ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ومَن أظلَمُ مِمَّن ذهَبَ يَخلُقُ كخَلْقي، فلْيَخلُقوا ذَرَّةً، أو لِيَخلُقوا حَبَّةً أو شَعيرةً!))[٢].

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾.

أي: وإنْ يَختَطِفِ الذُّبابُ ويَختَلِسْ مِنَ الأصنامِ شَيئًا ممَّا عليها مِن طِيبٍ أو مما يُجعَلُ لها مِن طَعامٍ ونحوِه، لا تَستطِعِ الأصنامُ أن تَرُدَّ ما استَلَبَه الذُّبابُ، مع ضَعفِه وحَقارتِه[٣]!

= وقيل: المرادُ: أنَّ المشركين شَبَّهوا الأصنامَ بالله، فعبَدوها معه، وأشرَكوها في عِبادتِه. وممَّن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والسمعانيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥١).

قال ابنُ عطية: (واختَلَف المُتأوِّلون في فاعل ﴿ضُرِبَ﴾، مَن هو؟ فقالت فِرقةٌ: المعنى: ضَرَبَ أهلُ الكفرِ مَثَلًا للهِ أصنامَهم وأوثانَهم، فاستَمِعوا أنتم أيُّها النَّاسُ لأمرِ هذه الآلهةِ. وقالت فِرقةٌ: ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لهذه الأصنام، وهو كذا وكذا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٦، ٤٦٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٣، ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

(٢) رواه البخاري (٧٥٥٩) واللفظ له، ومسلم (٢١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير =

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

أي: ضعُفَت الآلِهةُ المعبودةُ مِن دُونِ اللهِ -كالأصنامِ- وعَجَزت عن استِنقاذِ ما يَسلُبُه الذُّبابُ منها، وضعُفَ الذُّبابُ، وضَعُفَ العابِدُ لغيرِ الله، وضعُف معبودُه، فكيف يَعبُدُ المُشرِكونَ ما لا قُدرةَ له على خَلقِ ذُبابٍ، ولا على رَدِّ ما استَلَبَه منه[1]؟!

= القرطبي)) (١٢/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤).

قال ابنُ الجوزي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: كانوا يَطلُونَ أصنامَهم بالزَّعفرانِ فيَجِفُّ، فيأتي الذبابُ فيَختَلِسُه. وقال ابنُ جُريج: كانوا إذا طَيَّبوا أصنامَهم عَجَنوا طِيبَهم بشيءٍ مِن الحلواءِ، كالعَسَلِ ونحوه، فيقَعُ عليها الذُّبابُ فيَسلُبُها إيَّاه، فلا تَستطيعُ الآلهةُ ولا مَن عبَدَها أن يمنَعَه ذلك!). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

وممَّن قال بأنَّ الطَّالِبَ هو الأصنامُ، والمطلوبَ هو الذُّبابُ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والنسفي، وابن جُزَي، وابن كثير، والنيسابوري، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

قال الشوكاني: (فالصَّنَمُ كالطَّالِبِ؛ من حيثُ إنَّه يَطلُبُ خَلْقَ الذُّبابِ، أو يَطلُبُ استِنقاذَ ما سَلَبَه منه، والمطلوبُ الذُّبابُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٥).

وقيل: الطالبُ: هو الدَّاعي المُشرِكُ، والمطلوبُ: الأصنامُ المدعُوَّةُ. أي: ضَعُفتُم أنتم في دعوتِهم آلهةً، وضَعُفَت الأصنامُ عن صِفاتِ الإله. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٢).

قال ابنُ الجوزيِّ: (فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنَّ الطَّالِبَ: الصَّنَمُ، والمطلوبَ: الذُّبابُ. رواه عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثاني: الطالِبُ: الذُّبابُ يَطلُبُ ما يَسلُبُه مِنَ الطِّيبِ الذي على الصَّنمِ، والمطلوبُ: الصَّنَمُ يطلُبُ الذُّبابُ منه سَلْبَ ما عليه. رُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ أيضًا. والثالثُ: =

﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ﴾.

﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾.

أي: ما عظَّمَ المُشرِكونَ اللهَ حَقَّ تَعظيمِه، ولا عَرَفوا صفاتِ كَمالِه حينَ جَعَلوا الأصنامَ الضَّعيفةَ شُركاءَ له، فلم يُخلِصوا له العِبادةَ[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لَقَويٌّ قادِرٌ على خَلْقِ ما يَشاءُ، مَنيعٌ في مُلكِه، غالِبٌ وقاهِرٌ لكُلِّ شَيءٍ، لا يَقدِرُ شَيءٌ دُونَه أن يَسلُبَه مِن مُلكِه شَيئًا، وليس كآلِهَتِكم -أيُّها المُشرِكونَ- التي لا تَقدِرُ على خَلقِ ذبابٍ، ولا على الامتناعِ منه إذا استَلَبها شيئًا، فكيف تَدْعُونها مِن دونِ الله[٢]؟!

= الطَّالِبُ: عابِدُ الصَّنمِ يَطلُبُ التقرُّبَ بعبادتِه، والمطلوبُ: الصَّنَمُ. هذا معنى قَولِ الضَّحَّاكِ، والسُّدِّي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٠).

وممن اختار الجَمْعَ: ابنُ القيم، والبِقاعي؛ فقال ابن القيم: (الصَّحيحُ أنَّ اللَّفظَ يتناوَلُ الجَميعَ، فضَعُفَ العابِدُ والمعبودُ، والمُستَلِبُ والمُستَلَبُ؛ فمَن جعَلَ هذا إلهًا مع القويِّ العزيزِ فما قَدَره حَقَّ قَدْرِه، ولا عَرَفَه حَقَّ معرفتِه، ولا عَظَّمَه حَقَّ تعظيمِه!). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٣٩، ١٤٠).

وقال البِقاعي: (﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ أي: للاستِنقاذِ مِن الذُّبابِ، وهو الأصنامُ وعابِدوها ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي: الذُّبابُ والأصنامُ اجتَمَعوا في الضَّعفِ، وإن كان الأصنامُ أضعَفَ بدَرَجاتٍ!). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٦٣، ١٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤).

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قَدَّمَ اللهُ سُبحانَه ما يتعَلَّقُ بالإلهيَّاتِ، ذكَرَ هاهنا ما يتعَلَّقُ بالنبُوَّاتِ(١).

وأيضًا لَمَّا نَصَب اللهُ تعالى الدَّليلَ على أنَّ ما دعاه المُشرِكونَ لا يَصلُحُ أن يكونَ شَيءٌ منه إلهًا، بعد أن أخبَرَ أنَّه لم يُنَزِّلْ إليهم حُجَّةً بعِبادتِهم لهم، وختَم بما له سُبحانَه مِن وَصفَي القُوَّةِ والعِزَّةِ، بعد أن أثبَتَ أنَّ له المُلكَ كُلَّه؛ تلا ذلك بدَليلِه الذي تَقتَضيه سَعةُ المُلكِ وقُوَّةُ السُّلطانِ مِن إنزالِ الحُجَجِ على ألسِنَةِ الرُّسُلِ بأوامِرِه ونواهيه، المُوجِبِ لإخلاصِ العبادةِ له، المُقتَضي لِتَعذيبِ تارِكِها؛ فقال تعالى(٢):

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: اللهُ يَختارُ مِنَ المَلائِكةِ رُسُلًا، كالذينَ يُرسِلُهم إلى أنبيائِه ومَن شاء مِن عِبادِه، ويَختارُ مِن النَّاسِ أيضًا رُسُلًا يُبَلِّغونهم وَحْيَه(٣).

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر: ١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سَميعٌ لكُلِّ شَيءٍ، بصيرٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك سَماعُه لأقوالِ عِبادِه، ورُؤيتُه لهم، فهو يَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ مِن خَلْقِه اصطِفاءَه لرِسالتِه؛ فاختيارُه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٨)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٠).

لهم عن عِلمٍ منه بأنَّهم أهلٌ لهذه الرِّسالةِ[١].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ ما بين أيدِي الرُّسُلِ مِنَ الملائكةِ والنَّاسِ، وما خَلْفَهم[٢].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه تُرجَعُ جَميعُ أمورِ عِبادِه، فيَحكُمُ بيْنَهم يومَ القيامةِ، ويُجازيهم على ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٩٨).

قيل المراد: يعلَمُ ما كان قبْلَ خَلقِ الملائكةِ والأنبياءِ، ويعلَمُ ما يكونُ مِن بَعدِهم. قاله مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والثعلبي، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٤).

وقيل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن أمرِ الآخرةِ. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمرِ الدُّنيا. وممن اختاره: يحيى بنُ سلام، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧١).

وقيل: يعلَمُ ما قَدَّموا مِن الأعمالِ، وما أخَّروا منها فترَكوه ولم يَعمَلوه. وممن ذهب إلى ذلك: السمعانيُّ، والقرطبي، الشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٥).

قال السعدي: (﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: هو يُرسِلُ الرُّسُلَ يَدْعونَ النَّاسَ إلى اللهِ؛ فمنهم المجيبُ، ومنهم الرادُّ لِدَعوتِهم، ومنهم العامِلُ، ومنهم النَّاكِلُ؛ فهذه وَظيفةُ الرُّسُلِ، وأمَّا =

كما قال تعالى في خاتمةِ سورةِ هُودٍ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾، أي: تدَبَّروه حَقَّ تَدَبُّرِه؛ لأنَّ نَفْسَ السَّماعِ لا يَنفَعُ، وإنَّما ينفَعُ التدَبُّرُ[1].

٢- قد ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى هذه الكَلِمةَ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ في ثلاثةِ مواضِعَ؛ لِيُثبِتَ عَظَمتَه في نَفْسِه، وما يَستَحِقُّه مِنَ الصِّفاتِ، ولِيُثبِتَ وَحدانيَّتَه وأنَّه لا يستَحِقُّ العبادةَ إلَّا هو، ولِيُثبِتَ ما أنزَلَه على رُسُلِه، فقال هنا في سورةِ الحجِّ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، وقال في الزُّمَر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. وفي المواضِعِ الثَّلاثةِ ذَمَّ الذين ما قَدَروه حَقَّ قَدْرِه مِنَ الكُفَّارِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّه يجِبُ على المؤمِنِ أن يَقدُرَ اللهَ حَقَّ قَدرِه، كما يجِبُ عليه أن يتَّقِيَه حَقَّ تُقاتِه، وأن يجاهِدَ فيه حَقَّ جِهادِه؛ قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[2] [آل عمران: ١٠٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى العِلمِ التَّامِّ، وقَولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ إشارةٌ إلى القُدرةِ التَّامَّةِ والتفَرُّدِ بالإلهيَّةِ والحُكمِ،

= الجزاءُ على تلك الأعمالِ فمَصيرُه إلى اللهِ تعالى، فلا تَعدَمُ منه فَضلًا أو عَدلًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٦٠، ١٦١).

ومجموعُهما يتضَمَّنُ نهايةَ الزَّجرِ عن الإقدامِ على المَعصيةِ[١].

٤- قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ فلم يَقْدُرِ اللهَ حَقَّ قَدْرِه مَن هان عليه أمرُه فعَصاه، ونهيُه فارتَكَبه، وحَقُّه فضَيَّعه، وذِكْرُه فأهْمَله، وغَفَل قلبُه عنه، وكان هواه آثَرَ عندَه مِن طَلَبِ رضاه، وطاعةُ المخلوقِ أهمَّ مِن طاعتِه، فللَّهِ الفضْلَةُ مِن قلبِه وقولِه وعملِه، هواه المقدَّمُ في ذلك لأنَّه المهمُّ عندَه، يَسْتَخِفُّ بنظَرِ اللَّهِ إليه، واطِّلاعِه عليه بكلِّ قَلْبِه وجوارِحِه، ويَسْتَحي مِن النَّاسِ ولا يَسْتحي مِن اللَّهِ، ويخشَى النَّاسَ ولا يخشَى اللَّهَ، ويعامِلُ الخلقَ بأفضلِ ما يَقْدِرُ عليه، وإنْ عامَل اللَّهَ عامَله بأهونِ ما عندَه وأحقرِه، وإنْ قامَ في خدمةِ مَن يُحِبُّه مِن البشرِ قامَ بالجدِّ والاجتهادِ وبذلِ النَّصيحةِ، وقد أفْرَغ له قلبَه وجوارِحَه، وقَدَّمَه على الكثيرِ مِن مصالِحِه، حتَّى إذا قامَ في حقِّ رَبِّه -إنْ ساعَد القَدَرُ- قامَ قيامًا لا يَرْضاه مخلوقٌ مِن مخلوقٍ مِثْلِه، وبَذَل له مِن مالِه ما يستَحي أنْ يُواجِهَ به مخلوقًا مِثْلَه، فهل قَدَر اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه مَن هذا وصْفُه[٢]؟

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ...﴾ فتأمَّلْ هذا المَثَلَ الذي أمَرَ النَّاسَ كُلَّهم باستماعِه؛ فمَن لم يَستَمِعْه فقد عصى أمْرَه: كيف تضَمَّنَ إبطالَ الشِّركِ وأسبابِه بأصَحِّ بُرهانٍ في أوجَزِ عِبارةٍ وأحسَنِها وأحلاها؟ وأسْجَلَ على جميعِ آلهةِ المُشرِكينَ أنَّهم لو اجتَمَعوا كُلُّهم في صعيدٍ واحدٍ وساعَدَ بعضُهم بعضًا وعاوَنَه بأبلَغِ المعاوَنةِ لعَجَزوا عن خَلْقِ ذُبابٍ واحدٍ! ثمَّ بيَّن ضَعْفَهم وعَجْزَهم عن استِنقاذِ ما يَسلُبُهم الذُّبابُ إيَّاه حين يَسقُطُ عليهم! فأيُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٤٢).

إلهٍ أضعَفُ مِن هذا الإلهِ المطلوبِ، ومِن عابِدِه الطَّالِبِ نَفْعَه وخَيْرَه -على قَولٍ في التَّفسيرِ-؟! فهل قَدَر القَويَّ العزيزَ حَقَّ قَدْرِه مَن أشرَكَ معه آلِهةً هذا شأنُها؟! فأقام سُبحانَه حُجَّةَ التَّوحيدِ، وبَيَّن إفكَ أهلِ الشِّركِ والإلحادِ بأعذَبِ ألفاظٍ وأحسَنِها، لم يَستكْرِهْها غُموضٌ، ولم يَشِنْها تطويلٌ، ولم يَعِبْها تقصيرٌ، ولم تُزْرِ بها زيادةٌ ولا نَقصٌ، بل بلَغَت في الحُسنِ والفَصاحةِ والبَيانِ والإيجازِ ما لا يَتوهَّمُ مُتوهِّمٌ ولا يَظُنُّ ظانٌّ أن يكونَ أبلَغُ في معناها منها، وتحتَها من المعنى الجَليلِ القَدْرِ العظيمِ الشَّرَفِ البالِغِ في النَّفْعِ ما هو أجَلُّ مِن الألفاظِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ دَلالةٌ على عِلمِه سُبحانَه بالمُستَحيلِ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ أي: الصَّنَمُ بطَلَبِ ما سُلِبَ منه ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الذُّبابُ بما سَلَب -على قَولٍ في التَّفسيرِ- وهذا كالتَّسويةِ بينهم وبين الذُّبابِ في الضَّعفِ، ولو حقَّقْتَ وجَدْتَ الطَّالِبَ أضعَفَ وأضعَفَ؛ فإنَّ الذُّبابَ حيوانٌ وهو جمادٌ، وهو غالِبٌ وذاك مغلوبٌ[3].

٤- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فكلمةُ (مِن) للتَّبعيضِ، وقال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١]؛ فهنا جَعَل المَلائكةَ كلَّهم رُسُلًا؟

والجوابُ عن ذلك: أنَّ الملَكَ في اللُّغة: هو حاملُ الأَلُوكةِ؛ وهي الرِّسالة. فاسمُ الملائكةِ والملَكِ يَتضمَّنُ أنَّهم رُسُلُ اللهِ. أمَّا قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٥٥).

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فالمرادُ به الذين يُرسِلُهم بالوحيِ؛ كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وأمَّا عُمومُ الملائكةِ: فإنَّ إرسالَها لِتَفعلَ فِعلًا، لا لِتُبلِّغَ رسالةً، فالملائكةُ رُسُلُ اللهِ في تنفيذِ أمْرِه الكَونيِّ الذي يُدبِّرُ به السَّمواتِ والأرضَ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وكما قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠][١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فيه: تَقريرٌ للنُّبوَّةِ[٣]، وردٌّ لِمَا أنْكروهُ مِن أنْ يكونَ الرَّسولُ مِن البشَرِ، وبَيانُ أنَّ رُسلَ اللهِ على ضَربينِ: ملائكةٍ، وبشَرٍ[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ فيه: تَزييفٌ لقولِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، و: الملائكةُ بَناتُ اللهِ تعالى، ونحْوِ ذلك[٥]!

٧- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وهذا نظيرُ قولِه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٨، ٦٩]، ونظيرُ قولِه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فأخبَر في

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢١).

ذلك كلِّه عن علمِه المتضمِّنِ لتخصيصِه محالَّ اختيارِه بما خصَّصها به، لعلمِه بأنَّها تصلحُ له دونَ غيرِها، فتدبَّرِ السِّياقَ في هذه الآياتِ تجِدْه متضمِّنًا لهذا المعنى، زائدًا عليه، واللهُ أعلمُ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ﴾ في افتتاحِ السُّورة بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وتَنْهيتِها بمِثْلِ ذلك: شَبَهٌ بِرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، وممَّا يَزِيدُه حُسْنًا: أنْ يكونَ العَجُزُ جامِعًا لِمَا في الصَّدرِ وما بَعْده؛ حتَّى يكونَ كالنَّتيجةِ للاستدلالِ، والخُلاصةِ للخُطبةِ، والحَوصلةِ للدَّرسِ[2].

- وبُنِيَ فِعْلُ ﴿ضُرِبَ﴾ بصِيغةِ النَّائبِ، فلم يُذْكَرْ له فاعِلٌ، بعَكْسِ ما في المواضعِ الأُخرى الَّتي صُرِّحَ فيها بفاعِلِ ضَرْبِ المثَلِ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾ [البقرة: ٢٦]، و﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ [النحل: ٧٥]؛ إذ أُسْنِدَ في تلك المواضعِ وغَيرِها ضَرْبُ المثَلِ إلى اللهِ، ونحوُ قولِه: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥ﴾ [يس: ٧٨]؛ إذ أُسْنِدَ ضَرْبُ المثَلِ إلى المُشرِكين؛ لأنَّ المقصودَ هنا نَسْجُ التَّركيبِ على إيجازٍ صالحٍ لإفادةِ احتمالينِ: أحدِهما: أنْ يُقدَّرَ الفاعِلُ اللهَ تعالى، وأنْ يكونَ المثَلُ تَشبيهًا تَمثيليًّا، أي: أوضَحَ اللهُ

---

(١) ينظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٨).

تَمثيلًا يُوضِّحُ حالَ الأصنامِ في فَرطِ العَجْزِ عن إيجادِ أضعَفِ المخلوقاتِ، كما هو مُشاهَدٌ لكلِّ أحدٍ. والثَّاني: أنْ يُقدَّرَ الفاعِلُ المُشرِكينَ، ويكونُ المثَلُ بمعنى المُماثِلِ، أي: جَعَلوا أصنامَهم مُماثِلةً للهِ تعالى في الإلهيَّةِ، وفُرِّعَ على ذلك المعنى مِن الإيجازِ قولُه: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾؛ لاسترعاءِ الأسماعِ إلى مُفادِ هذا المثَلِ ممَّا يُبْطِلُ دَعْوى الشَّركةِ للهِ في الإلهيَّةِ، أي: استَمِعوا استماعَ تَدبُّرٍ؛ فصِيغَةُ الأمْرِ في ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّحريضِ على الاحتمالِ الأوَّلِ، وفي التَّعجيبِ على الاحتمالِ الثَّاني(١).

- واسْتُعْمِلَتْ صِيغَةُ الماضي في ﴿ضُرِبَ﴾ مع أنَّه لَمَّا يُقَلْ؛ لِتَقريبِ زمَنِ الماضي من الحالِ، وذلك تَنبيهٌ للسَّامعينَ بأنْ يَتهَيَّؤوا لِتَلقِّي هذا المثَلِ؛ لِمَا هو مَعروفٌ لَدى البُلغاءِ مِن استشرافِهم للأمثالِ ومَواقِعِها(٢). وقيل: اسْتُعْمِلَتْ صِيغَةُ الماضي معَ أنَّ الله تعالى هو المتكلِّمُ بهذا الكلامِ ابتداءً؛ لأنَّ ما أُورِد مِن الوصفِ كان معلومًا مِن قَبْلُ، فجاز ذلك فيه، ويكونُ ذِكرُه بمنزلةِ إعادةِ أمرٍ قد تقدَّم(٣).

- وقولُه: ﴿ضُرِبَ مَثَلٞ﴾ مُجمَلٌ بُيِّنَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وقولُه: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ تَقريرٌ لِمَا يُرادُ مِن الإبهامِ والتَّبيينِ؛ مِن تَوخِّي التَّفطُّنِ لِمَا يُتْلى بعْدَ المُجمَلِ، وتَطلُّبِ إلْقاءِ الذِّهنِ، ويُؤيِّدُه تَصدُّرُ الآيةِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وتَذييلُ المثَلِ بقولِه تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾، وتَعليلُه بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٣٠).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ بَيانٌ لـ ﴿مَثَلٞ﴾؛ فإنَّ المثَلَ في مَعنى القولِ، فصَحَّ بَيانُه بهذا الكلامِ[١]. وقيل: بَيانٌ للمَثلِ وتَفسيرٌ له، على أنَّ ضارِبَ المثَلِ هو اللهُ، وتَعليلٌ لبُطلانِ جَعْلِهم الأصنامَ مِثْلَ اللهِ سُبحانه في استحقاقِ العِبادةِ، على تَفسيرِ المَثلِ بالمُماثِلِ[٢].

- وفي جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ أُكِّدَ إثباتُ الخبَرِ بحَرفِ تَوكيدِ الإثباتِ وهو (إنَّ)، وأُكِّدَ ما فيه مِن النَّفيِ بحَرفِ تَوكيدِ النَّفيِ (لن)؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ المُنكِرينَ لِمَضمونِ الخبَرِ؛ لأنَّ جَعْلَهم الأصنامَ آلِهةً يَقْتضي إثباتَهم الخَلْقَ إليها، وقد نُفِيَ عنها الخَلقُ في المُستقبَلِ؛ لأنَّه أظهَرُ في إفْحامِ الَّذين ادَّعَوا لها الإلهيَّةَ؛ لأنَّ نَفْيَ أنْ تَخلُقَ في المُستقبَلِ يَقْتَضي نَفْيَ ذلك في الماضي بالأحرى؛ لأنَّ الَّذي يَفعَلُ شيئًا يكونُ فِعْلُه مِن بَعْدُ أيسَرَ عليه[٣].

- وخُصَّ الذبابُ؛ لأربعةِ أمورٍ تخصُّه: لمهانتِه، وضَعفِه، ولاستقذارِه، وكثرتِه[٤].

- قولُه: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ جوابُ (لو) محذوفٌ؛ لدلالةِ ما قبلَه عليه، والجملةُ معطوفةٌ على شرطيةٍ أُخرى محذوفةٍ؛ ثقةً بدلالةِ هذه عليها، أي: لو لم يجتَمِعوا عليه لن يخلقُوه، ولو اجتمعُوا له لن يخلقُوه، وهما في موضعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٧).

الحالِ، كأنَّه قيل: لن يخلقوا ذبابًا على كلِّ حالٍ[١].

- وقيل: قولُه: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ حالٌ؛ جِيءَ به للمُبالَغةِ، أي: لا يَقدِرونَ على خَلْقِه مُجْتَمعينَ له، مُتعاونينَ عليه؛ فكيف إذا كانوا مُنفَرِدينَ[٢]؟!

- والاستنقاذُ في قولِه: ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ﴾ مُبالَغةٌ في الإنقاذِ، مثْلُ الاستحياءِ، والاستجابةِ[٣].

- وقولُه: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ تَذييلٌ وفَذْلكةٌ[٤] للغرَضِ مِن التَّمثيلِ، أي: ضعُفَ الدَّاعي والمَدْعُوُّ، إشارةً إلى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ ...﴾ إلخ، أي: ضَعُفْتُم أنتم في دَعوتِهم آلهةً، وضَعُفَتِ الأصنامُ عن صِفاتِ الإلهِ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-. وهذه الجُملةُ كَلامٌ أُرْسِلَ مثَلًا، وذلك مِن بَلاغةِ الكلامِ[٥]. وقيل: معناهُ التَّعجُّبُ، أي: ما أضعَفَ الطَّالِبَ والمطلوبَ[٦]!

- والتَّشبيهُ في هذه الآيةِ ضِمْنِيٌّ خَفِيٌّ، يُنْبِئُ عنه قولُه: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، وقولُه: ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾؛ فشُبِّهَتِ الأصنامُ المُتعدِّدةُ المُتفرِّقةُ في قَبائلِ العربِ -وفي مكَّةَ بالخُصوصِ- بعُظماءَ، أي: عندَ عابِدِيها، وشُبِّهَتْ هَيئتُها في العَجْزِ بهَيئةِ ناسٍ تَعذَّرَ عليهم خَلْقُ أضعَفِ المخلوقاتِ، وهو الذُّبابُ، بَلْهَ المخلوقاتِ العظيمةِ كالسَّمواتِ والأرضِ، وقد دَلَّ إسنادُ نَفْيِ الخَلْقِ إليهم على تَشبيهِهم بذَوي الإرادةِ؛ لأنَّ نَفْيَ الخَلْقِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٢).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٨).

يَقْتَضي مُحاولةَ إيجادِه، ولو فُرِضَ أنَّ الذُّبابَ سَلَبَهم شيئًا لم يَسْتَطيعوا أخْذَه منه، ودَليلُ ذلك مُشاهَدةُ عدَمِ تَحرُّكِهم، فكما عجَزَتْ عن إيجادِ أضعَفِ الخَلْقِ، وعن دَفْعِ أضعَفِ المخلوقاتِ عنها؛ فكيف تُوسَمُ بالإلهيَّةِ؟! ورُمِزَ إلى الهيئةِ المُشبَّهِ بها بذِكْرِ لوازمِ أركانِ التَّشبيهِ مِن قولِه: ﴿لَن يَخۡلُقُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ إلى آخِرِه؛ لا جرَمَ حصَلَ تَشبيهُ هَيئةِ الأصنامِ في عَجْزِها بما دونَ هَيئةِ أضعَفِ المخلوقاتِ(١).

- وفي الآيةِ ما يُعرَفُ بسَلامةِ الاختِراعِ؛ وهو اختراعُ القائِلِ معنًى لم يُسْبَقْ إليه؛ فقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ الآيةَ، مِن أبلَغِ ما أنزَلَ اللهُ في تَجْهيلِ الكافرينَ وتَقريعِهم والاستِخفافِ بعُقولِهم؛ لِغَرابةِ التَّمثيلِ الَّذي تضمَّنَ الإفراطَ في المُبالَغةِ مع كونِها مُلازِمةً للحقِّ والواقعِ؛ فقدِ اقتصَرَ سُبحانَه على ذِكْرِ أضعَفِ المخلوقاتِ وأقَلِّها سَلْبًا لِمَا تَسلُبُه، وتَعجيزِ كلِّ مَن دُونَه عن خَلْقِ مِثْلِه، مع التَّضافُرِ والاجتماعِ، ثمَّ عدَلَ عن رُتْبةِ الخَلْقِ -لِمَا فيه مِن تَعجيزٍ- إلى استِنقاذِ النَّزْرِ القليلِ الَّذي يَسلُبُه الذُّبابُ؛ فقد تدرَّجَ في النُّزولِ على ما تَقْتَضيه خُطَّةُ البَلاغةِ في التَّرتيبِ. ولم يُسْمَعْ مِثْلُ هذا التَّمثيلِ في بابِه لأحدٍ قبْلَ نُزولِ الكتابِ العزيزِ(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَها مِن نَفْيِ مَعرِفَتِهم له تعالى(٣). وهو أيضًا تَذييلٌ للمثَلِ بأنَّ عِبادَتَهم الأصنامَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((بديع القرآن)) لابن أبي الأصبع (ص ٢٠٠- ٢٠١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٧/ ١٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٨١-٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢١).

مع اللهِ استخفافٌ بحَقِّ إلهيَّته تعالى[١].

- وقولُه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ تَعليلٌ لِمَضمونِ الجُملةِ قبْلَها؛ فإنَّ ما أشْرَكوهم مع اللهِ في العِبادةِ كلُّ ضَعيفٍ ذَليلٍ، فما قَدَروهُ حَقَّ قَدْرِه؛ لأنَّه قَوِيٌّ عَزيزٌ، فكيف يُشارِكُه الضَّعيفُ الذَّليلُ؟! والعُدولُ عن أنْ يُقالَ: (ما قدَرْتُم اللهَ حقَّ قَدْرِه) إلى أُسلوبِ الغَيبةِ: الْتِفاتٌ؛ تَعريضًا بهم بأنَّهم لَيسوا أهْلًا للمُخاطَبةِ تَوبيخًا لهم، وبذلك يَندمِجُ في قولِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ تَهديدٌ لهم بأنَّه يَنتقِمُ منهم على وَقاحَتِهم. وتَوكيدُ الجُملةِ بحَرفِ التَّوكيدِ ولامِ الابتداءِ، مع أنَّ مَضمونَها ممَّا لا يُخْتَلَفُ فيه؛ لِتَنزيلِ عِلْمِهم بذلك مَنزِلةَ الإنكارِ؛ لأنَّهم لم يَجْرُوا على موجَبِ العِلْمِ حين أشْرَكوا مع القوِيِّ العزيزِ ضُعفاءَ أذِلَّةً[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وَضْعُ اسْمِه الأعظمِ (الله) الجامِعِ لأسمائِه الحُسْنى مَوضِعَ الضَّميرِ؛ تَقريرًا للقُوَّةِ الكاملةِ، والعِزَّةِ القاهرةِ، أو هو بمَنزِلَةِ اسمِ الإشارةِ المُؤْذِنِ بأنَّ ما بَعْدَه جديرٌ بمَن قبْلَه؛ لاتِّصافِه بتلك الصِّفاتِ الفائقةِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

- جُملةُ: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وتَقديمُ المُسنَدِ إليه -وهو اسمُ الجَلالةِ- على الخبَرِ الفِعْليِّ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٣٢، ٥٣٣).

قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: اللهُ وحْدَه هو الَّذي يَصْطفي لا أنتم تَصْطَفون وتَنْسِبون إليه. والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ هنا حيث لم يقُلْ: (هو يَصْطفي من الملائكةِ رُسلًا)؛ لأنَّ اسْمَ الجَلالةِ أصْلُه الإلهُ، أي: الإلهُ المعروفُ الَّذي لا إلهَ غيرُه، فاشْتِقاقُه مُشيرٌ إلى أنَّ مُسمَّاهُ جامِعٌ كلَّ الصِّفاتِ العُلى؛ تَقريرًا للقُوَّةِ الكاملةِ، والعِزَّةِ القاهرةِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ تَعليلٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي﴾؛ لأنَّ المُحيطَ عِلْمُه بالأشياءِ هو الَّذي يَختَصُّ بالاصطفاءِ. وفيه: كِنايةٌ عن عُمومِ العِلْمِ بالأشياءِ بحسَبِ المُتعارَفِ في المعلوماتِ أنَّها لا تَعْدُو المسموعاتِ والمُبْصَراتِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ جُملةٌ مُقرِّرةٌ لِمَضمونِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾، وفائدتُها -زيادةً على التَّقريرِ-: أنَّها تَعريضٌ بوُجوبِ مُراقَبَتِهم ربَّهم في السِّرِّ والعلانيةِ؛ لأنَّه لا تَخفى عليه خافيةٌ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ بُنِيَ فِعْلُ ﴿تُرۡجَعُ﴾ إلى النَّائبِ؛ لظُهورِ مَن هو فاعِلُ الإرجاعِ؛ فإنَّه لا يَليقُ إلَّا باللهِ تعالى، فهو يُمْهِلُ النَّاسَ في الدُّنيا، وهو تُرْجَعُ الأُمورُ إليه يومَ القيامةِ[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ على الفِعْلِ ﴿تُرۡجَعُ﴾؛ لإفادةِ الحصْرِ الحقيقيِّ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٤٥).

أي: إلى اللهِ لا إلى غيرِه يَرجِعُ الجَزاءُ؛ لأنَّه مَلِكُ يومِ الدِّينِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ للاستغراقِ، أي: كلُّ أمْرٍ. وذلك جَمْعٌ بينَ البِشارةِ والنِّذارةِ؛ تَبعًا لِمَا قبْلَه مِن قولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٧٧-٧٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾: أي: اختارَكم واصطَفاكم واستخلَصَكم، وأصلُ (جبي): يدُلُّ على الجَمعِ على طَريقِ الاصطِفاءِ[1].

﴿مِّلَّةَ﴾: أي: دِينَ وطَريقةَ، وإنَّما سُمِّيَ الدِّينُ مِلَّةً؛ لأنَّه يُمَلُّ، أي: يُملَى على المَدعُوِّ إليه، فالمِلَّةُ تُبنَى على مَسموعٍ ومتلوٍّ[2].

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾: أي: استَمسِكوا وامتنِعوا، وأصلُ العَصْم: المنعُ، فكلُّ مانعٍ شيئًا فهو عاصِمُه، والمُمتنِعُ به مُعتصِمٌ به، يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: مَنعَه مِن الجوعِ، وأصلُ (عصم) أيضًا: يَدُلُّ على إمساكٍ ومُلازمةٍ، والمعنَى في ذلك كُلِّه معنًى واحِدٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٣٣١)، ((المفردات)) =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾

في نَصبِ ﴿مِلَّةَ﴾ أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّها مَنصوبةٌ على المصدريَّةِ بِفِعلٍ دلَّ عليه ما قَبْلَه مِن نَفيِ الحَرَجِ بعد حَذفِ مُضافٍ، أي: وسَّعَ دينَكم تَوسِعةَ مِلَّةِ أبيكم، ثم حُذِف المضافُ، وأُقيم المضافُ إليه مُقامَه. الثَّاني: أنَّها مَنصوبةٌ على الاختِصاصِ بتَقديرِ أعني أو أخُصُّ. الثالثُ: أنَّها مَنصوبةٌ على الإغراءِ بتَقديرِ: (اتَّبِعوا) أو (الزَمُوا)؛ لأنَّ الكلامَ قَبْلَه أمْرٌ، فكأنَّه قيل: اركَعوا واسجُدوا، والزَموا مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ. الرَّابعُ: أنَّها مَنصوبةٌ بنَزعِ الخافِضِ، أي: كمِلَّةِ أبيكم، فلَمَّا حُذِفَ حَرفُ الجَرِّ نُصِبَ، وتقديرُه: وسَّعَ عليكم في الدِّينِ كمِلَّةِ أبيكم؛ لِأَنَّ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يدُلُّ على وسَّعَ عليكم[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أيُّها الذينَ آمَنوا، اركَعوا واسجُدوا في صَلاتِكم، واعبُدوا ربَّكم وَحْدَه لا شَريكَ له، وافعَلوا الخيرَ؛ لِتُفلِحوا، وجاهِدوا لله ومِن أجْلِه أنفُسَكم، وجاهِدوا الشَّيطانَ والكفَّارَ وأهلَ الظُّلمِ والزَّيغِ والهوَى جهادًا خالصًا لوجهِ الله، هو اصطفاكم لحَملِ هذا الدِّينِ ونَصْرِه، وقد مَنَّ عليكم بأنْ جعَلَ شريعتَكم سَمْحةً، فما جعَلَ عليكم مِن ضِيقٍ وعُسرٍ في دِينِ الإسلامِ، بل وَسَّعَ دينَكم كمِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ.

= للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٣١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٤٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير الآلوسي)) (٩/ ١٩٩).

وقد سَمَّاكم اللهُ المُسلِمينَ مِن قبْلُ في الكتُبِ المنزَّلةِ السَّابقةِ، وفي هذا القُرآنِ، وقد اختصَّكم بهذا الفَضلِ والاجتباءِ؛ ليكونَ خاتَمُ الرُّسُلِ مُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شاهِدًا عليكم بأنَّه بلَّغكم رِسالةَ رَبِّه، وتكونوا شُهَداءَ على الأُمَمِ أنَّ رُسُلَهم قد بلَّغَتْهم؛ فعليكم أن تَشكُروا هذه النعمةَ بأداءِ الصَّلاةِ بأركانِها وحُدودِها، وإخراجِ الزَّكاةِ المَفروضةِ، وأن تَلجَؤوا إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، وتتوكَّلوا عليه في جَميعِ أمورِكم؛ فهو نِعْمَ المَولى، ونِعْمَ النَّصيرُ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تَكلَّم اللهُ سبحانه في الإلهيَّاتِ، ثُمَّ في النُّبوَّاتِ؛ أتبَعَه بالكلامِ في الشَّرائعِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه اصطفى رُسلًا مِن البَشرِ إلى الخَلقِ؛ أمَرَهم بإقامةِ ما جاءتْ به الرُّسُلُ مِن التكاليفِ(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها الذينَ آمَنوا، اركَعوا واسجُدوا لله في صَلاتِكم، وذِلُّوا واخضَعوا لرَبِّكم بطاعتِه، مُخلِصينَ له في عبادتِه(٣).

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٦).

أي: وافعَلوا -أيُّها المُؤمِنونَ- أنواعَ الخَيراتِ مِمَّا أمَرَكم اللهُ به؛ لعَلَّكم تفوزونَ بما تَرغَبونَ فيه في الدُّنيا والآخِرةِ، وتنجَوْنَ ممَّا ترهبونَه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الجِهادُ أساسَ العِبادةِ، وهو -مع كَونِه حقيقةً في قِتالِ الكُفَّارِ- صالِحٌ لأنْ يَعُمَّ كُلَّ أمرٍ بمَعروفٍ ونَهيٍ عن مُنكَرٍ؛ بالمالِ والنَّفسِ، بالقَولِ والفِعلِ، بالسَّيفِ وغَيرِه، وكُلَّ اجتِهادٍ في تهذيبِ النَّفسِ وإخلاصِ العَمَلِ- ختَمَ به، فقال تعالى[٢]:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

أي: جاهِدوا -للهِ ومِن أجْلِه- أنفُسَكم، وجاهِدوا الشَّيطانَ والكفَّارَ وأهلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

قال الثعلبي: (هذه الآيةُ الكريمةُ عامَّةٌ في أنواعِ الخَيراتِ، ومِن أعظَمِها الرَّأفةُ والشَّفَقةُ على خَلقِ اللهِ، ومُواساةُ الفُقَراءِ وأهلِ الحاجةِ). ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٠، ١٠١).

الظُّلمِ والزَّيغِ والهوَى جهادًا خالصًا لوجهِ الله؛ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم، مُستَفرِغينَ فيه طاقتَكم(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ قيل: عَنى به جِهادَ الكُفَّارِ. وقيل: هو إشارةٌ إلى امتِثالِ جميعِ ما أمَرَ اللهُ به، والانتهاءِ عن كُلِّ ما نهى اللهُ عنه، أي: جاهِدوا أنفُسَكم في طاعةِ اللهِ، ورُدُّوها عن الهوى، وجاهِدوا الشَّيطانَ في رَدِّ وَسوَستِه، والظَّلَمةَ في رَدِّ ظُلْمِهم، والكافِرينَ في رَدِّ كُفرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٩٩).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٧).

قال ابنُ جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك: قَولُ مَن قال: عنى به الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ؛ لأنَّ المعروفَ مِن الجِهادِ ذلك، وهو الأغلَبُ على قَولِ القائِلِ: جاهَدْتُ في اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠).

قال ابن عطية: (والعمومُ حسَنٌ، وبيِّنٌ أنَّ عرفَ اللفظةِ تقتضي القتالَ في سبيلِ الله). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٥).

وممن اختار القولَ الثانيَ -وهو العمومُ-: الزمخشريُّ، والرازي، وأبو حيان، والبقاعي، والسيوطي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠١)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٥)،))تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

وعزا ابنُ الجوزي القولَ بأنَّ معناه: فعلُ جميعِ الطاعاتِ، إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٢، ٢٥٣).

قال الرازي: (والأَوْلَى أن يُحملَ ذلك على كلِّ التكاليفِ، فكلُّ ما أُمِر به ونُهِي عنه فالمحافظةُ عليه جهادٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٥).

وقال ابنُ الجوزي: (فأمَّا حَقُّ الجِهادِ ففيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّه الجِدُّ في المجاهَدةِ، واستيفاءُ الإمكانِ فيها.

والثَّاني: أنَّه إخلاصُ النيَّةِ لله عزَّ وجَلَّ. =

كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((جاهِدوا المُشرِكينَ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم))(١).

وعن فَضالةَ بنِ عُبَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

= والثَّالِثُ: أنَّه فِعلُ ما فيه وَفاءٌ لحَقِّ اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٣).

وقال البغوي: (قال أكثَرُ المفَسِّرينَ: حَقُّ الجهادِ أن تكونَ نيَّتُه صادِقةً خالِصةً لله عَزَّ وجلَّ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥٤).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾: استفراغُ الوسعِ والطاقةِ: ابنُ جرير، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٤٥).

قال البقاعي: (﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ باستِفراغِ الطَّاقةِ في إيقاعِ كُلِّ ما أمَرَ به؛ مِن جِهادِ العَدُوِّ والنَّفْسِ على الوَجهِ الذي أمَرَ به من الحَجِّ والغَزْوِ وغَيرِهما جِهادًا يليقُ بما أفهَمَتْه الإضافةُ إلى ضميرِه سُبحانَه مِن الإخلاصِ والقُوَّةِ؛ فإنَّه يُهلِكُ جَميعَ مَن يَصُدُّكم عن شَيءٍ منه). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠١).

وقال مكِّي: (وأكثَرُ النَّاسِ على أنَّه غيرُ مَنسوخٍ، وواجِبٌ على كلِّ مُسلمٍ أن يجاهِدَ في اللهِ حَقَّ جهادِه على قَدْرِ استطاعتِه، ويكونُ قَولُه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] بيانًا لهذا، وليس بناسِخٍ له). ((الهداية)) (٧/ ٤٩٣٧).

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦) واللفظُ له، وأحمد (١٢٢٦٨).

أخرجه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (٤٧٠٨)، وقال ابن حزم في ((أصول الأحكام)) (١/ ٢٧): (في غاية الصحَّةِ)، وصحَّح إسناده النووي في ((رياض الصالحين)) (٤٣٧)، وصحَّحَ الحديثَ ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١١٤)، وقال محمد ابن عبد الهادي في ((المحرر)) (٢٨٦): (إسناده على رسم مُسلِم)، وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٨/ ٢٧): (رجالُه رجال الصحيح)، وصَحَّحه ابن باز في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٩٦)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٠٩٦).

((المجاهِدُ مَن جاهَدَ نَفسَه))[1].

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾.

أي: اللهُ هو الذي اختاركم -أيُّها المُؤمِنونَ- لاتِّباعِ دينِه، ونَصْرِه، والجِهادِ في سَبيلِه[2].

كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعن أبي عِنَبَةَ الخَوْلانيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَزالُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَغرِسُ في هذا الدِّينِ بغَرسٍ يَستَعمِلُهم في طاعتِه))[3].

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

أي: وما جعل اللهُ عليكم -أيُّها المُؤمِنونَ- مِن ضِيقٍ وعُسرٍ ومشقَّةٍ في دِينِ الإسلامِ، بل يسَّرَ لكم هذا الدِّينَ غايةَ التيسيرِ[4].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢١)، وأحمد (٢٣٩٥١).

قال الترمذي: (حسن صحيح)، وأخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٤٦٢٤)، وقال ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٦٣٥): (ثابت)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٨)، وأحمد (١٧٧٨٧) واللفظ له.

أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٣٢٦)، وصحَّح إسنادَه ووثَّقَ رِجالَه البوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (١/ ٤٤)، وحَسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧). =

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا نزَلَت هذه الآيةُ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخَلَ قُلوبَهم منها شَيءٌ لم يَدخُلْ قُلوبَهم مِن شَيءٍ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: سَمِعْنا، وأطَعْنا، وسَلَّمْنا. قال: فألقى اللهُ الإيمانَ في قُلوبِهم، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعَلْتُ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعَلْتُ، ﴿وَٱغْفِرْ

= قيل: المرادُ: أنَّه سُبحانَه ما جعَلَ عليهم حَرَجًا بتكليفِ ما يَشُقُّ عليهم، ولكِنْ كَلَّفَهم بما يَقدِرونَ عليه، ورَفَع عنهم التَّكاليفَ التي فيها حَرَجٌ، فلم يتعَبَّدْهم بها؛ ومن ذلك: قَصرُ الصَّلاةِ في السَّفَرِ، والإفطارُ في رَمَضانَ فيه، وصلاةُ العاجِزِ عن القيامِ قاعِدًا، وإباحةُ المحظورِ للضَّرورةِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: البيضاويُّ، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٠، ٣٠١).

وقيل: المرادُ: أنه جَعَل لهم مِن الذَّنْبِ مَخرَجًا، بفتْحِ بابِ التَّوبةِ وقَبولِ الاستغفارِ والتَّكفيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٠).

قال الشوكانيُّ بَعد أنْ ذكَر اختلافَ العُلماءِ في الحرَجِ المرفوعِ: (والظَّاهرُ أنَّ الآيةَ أعَمُّ مِن هذا كلِّه، فقد حَطَّ سُبحانَه ما فيه مَشقَّةٌ مِن التَّكاليفِ على عِبادِه، إمَّا بإسقاطِها من الأصلِ وعدَمِ التَّكليفِ بها كما كُلِّف بها غَيرُهم، أو بالتَّخفيفِ وتَجويزِ العُدولِ إلى بَدَلٍ لا مَشقَّةَ فيه، أو بمَشروعيَّةِ التَّخلُّصِ عن الذَّنبِ بالوجْهِ الذي شَرَعه اللهُ، وما أنفعَ هذه الآيةَ، وأجَلَّ موقِعَها، وأعظمَ فائدتَها!). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٦، ٥٥٧).

لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعَلْتُ))[١].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قيل لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أيُّ الأديانِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: الحَنيفيَّةُ السَّمْحةُ))[٢].

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

أي: وما جعَلَ عليكم في الدِّينِ مِن حَرَجٍ، بل وسَّعه كمِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ[٣].

(١) رواه مسلم (١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم قبل حديث (٣٩) باختلاف يسيرٍ، وأخرجه موصولًا في ((الأدب المفرد)) (٢٨٧)، وأحمد (٢١٠٧)، والطبراني (١١/ ٢٢٧) (١١٥٧٢).

قال ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (٣/ ٨٠): (إسنادُه لا بأس به)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١/ ١١٦)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٥٥)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (١٦٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٥٣).

ممن اختار المعنى المذكورَ: الفرَّاءُ، وابن جرير، والعليمي. يُنظر: ((المصادر السابقة)).

وقيل: المعنى: وَسَّع عليكم دينكم توسعةَ مِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ. وممَّن اختاره: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٧)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٣).

وقيل: المرادُ: اتَّبِعوا والْزَموا مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزجَّاجُ، وابن أبي زمنين، والواحديُّ، والسمعاني، والسعديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٩١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

ونسبه الواحديُّ لأكثرِ النحْويِّينَ. يُنظر: ((البسيط)) (١٥/ ٥٠٨).

وقيل: قوله: ﴿مِّلَّةَ﴾ منصوبةٌ على الاختصاصِ، أي: أعني الدينَ ملةَ أبيكم. وممَّن اختاره: النيسابوريُّ. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٠٣).

قال الشِّنقيطيُّ: (ولا يَبعُدُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] شامِلًا لِما ذُكِر =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا﴾.

أي: اللهُ سمَّاكم المُسلِمينَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ في كُتُبِ الأنبياءِ السَّابقةِ، وسمَّاكم المُسلِمينَ أيضًا في هذا القُرآنِ(١).

= قَبْلَه مِنَ الأوامرِ في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، ويُوضِّحُ هذا قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، والدِّينُ القَيِّمُ الذي هو مِلَّةُ إبراهيمَ: شاملٌ لِما ذُكِر كله). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٠٢).

وقال السَّمعاني: (وقَولُه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه قَولانِ: أحَدُهما: أنَّ الآيةَ خِطابٌ مع العَرَبِ، وقد كان إبراهيمُ أبًا لهم. والقَولُ الثَّاني: أنَّ الآيةَ خِطابٌ مع جميعِ المُسلِمينَ، وجَعْلُ إبراهيمَ أباهم على معنَى وُجوبِ احترامِه وحِفظِ حَقِّه، كما يَجِبُ احترامُ الأبِ وحِفظُ حَقِّه). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٤، ٦٤٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ١٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٢).

قال الواحدي: (قال جماعةُ المُفَسِّرينَ وأهلُ المعاني: هو كنايةٌ عن اللهِ تعالى، أي: اللهُ تعالى سَمَّاكم المُسلِمينَ قبلَ إنزالِ القُرآنِ في الكُتُبِ التي أُنزِلَت قَبْلَه). ((البسيط)) (١٥/ ٥١١).

ونَسَبه البغوي لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥٥).

وقيل: المعنى: إبراهيمُ سَمَّاكم المُسلِمينَ. وهو قَولُ عبدِ الرَّحمنِ بنِ زَيدِ بنِ أسلَمَ، قال ابنُ =

كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وعن الحارِثِ الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... ومَن دعا بِدَعوى الجاهليَّةِ، فهو مِن جُثا[1] جهنَّمَ. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وإنْ صام وإن صلَّى؟ قال: وإن صام وإن صَلَّى وزعَمَ أنَّه مُسلِمٌ، فادْعُوا المُسلِمينَ بأسمائِهم؛ بما سَمَّاهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ: المُسلِمينَ المُؤمِنينَ عبادَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ))[2].

= جريرٍ: (ولا وَجْهَ لِما قال ابنُ زيدٍ مِن ذلك؛ لأنَّه معلومٌ أنَّ إبراهيمَ لم يُسَمِّ أمَّةَ مُحمَّدٍ مُسلِمينَ في القُرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ أُنزِلَ مِن بَعدِه بدَهرٍ طويلٍ، وقد قال الله تعالى ذِكرُه: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨]، ولكِنَّ الذي سَمَّانا مُسلِمينَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ وفي القُرآنِ: اللهُ الذي لم يَزَلْ ولا يَزالُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٦).

وذكَرَ الشنقيطيُّ قرينةً أُخرى تدُلُّ على أنَّ هذا القَولَ غيرُ صَوابٍ، وهي (أنَّ الأفعالَ كُلَّها في السِّياقِ المذكورِ راجِعةٌ إلى الله تعالى لا إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فقَولُه: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ أي: اللهُ. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ أي: اللهُ. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: اللهُ. فإنْ قيل: الضَّميرُ يَرجِعُ إلى أقرَبِ مَذكورٍ، وأقرَبُ مَذكورٍ للضَّميرِ المذكورِ هو إبراهيمُ؛ فالجَوابُ: أنَّ محَلَّ رُجوعِ الضَّميرِ إلى أقرَبِ مَذكورٍ محَلُّه ما لم يَصرِفْ عنه صارِفٌ، وهنا قد صَرَف عنه صارِفٌ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٦).

(١) الجُثَا: جمعُ جُثْوةٍ، والجُثوةُ: الشَّيءُ المجموعُ، والمرادُ: مِن جماعاتِ جَهَنَّمَ. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن الجوزي (١/ ١٣٧).

(٢) أخرجه مطوَّلًا الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (١٧١٧٠) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٤٩) باختلافٍ يسيرٍ.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريب)، وأخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٦٢٣٣)، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٨)، وابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (١/ ٢٠٨)، =

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: اجتَباكم اللهُ وفضَّلَكم، ونَوَّهَ باسمِكم؛ لِيَكونَ الرَّسولُ -الذي هو خَيرُكم- شَهيدًا عليكم يومَ القيامةِ أنَّه قد بلَّغكم رسالةَ ربِّه[1]، وتكونوا شُهَداءَ على جَميعِ الأُمَمِ أنَّ رُسُلَهم قد بلَّغُوهم ما أرسَلَهم اللهُ به[2].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾[البقرة: ١٤٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= وحسنه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٨٧)، وقال ابن باز في ((الفوائد العلمية)) (٦/ ٢٦٤): (جيد عظيمٌ جدًّا؛ جيد الإسناد جيدُ المعنى)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٦٣).

(١) ممن اختار أنَّ المرادَ: يشهَدُ بأنَّه بلَّغَهم رسالةَ ربِّه: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٣).
وقال يحيى بن سلام: (﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ على الأُمَمِ، بأنَّ الرُّسُلَ قد بلَّغَت قومَها). ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٩١).
وقيل: شهيدٌ على الأمَّةِ الإسلاميَّةِ بأنَّها آمنت به. وممن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥١).
وقيل: شهيدٌ على صِدقِ الأمَّةِ فيما شَهِدَت به للرُّسُلِ على أُمَمِهم مِنَ التَّبليغِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٣).

وسلَّم: ((يُدعَى نوحٌ يَومَ القيامةِ، فيَقولُ: لبَّيكَ وسَعْديكَ[(١)] يا رَبِّ، فيقولُ: هل بلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعَمْ، فيُقالُ لأُمَّتِه: هل بلَّغَكم؟ فيقولونُ: ما أتانا مِن نَذيرٍ! فيقولُ: مَن يَشهَدُ لك؟ فيقولُ: مُحمَّدٌ وأمَّتُه. فتَشهَدونَ أنَّه قد بلَّغَ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]))[(٢)].

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: قابِلُوا تلك النِّعمةَ العَظيمةَ بالقيامِ بشُكرِها، فأقيمُوا -أيُّها المُسلِمونَ- الصَّلاةَ للهِ بحُدودِها وأركانِها، وأعطُوا زَكاةَ أموالِكم لِمُستحِقِّيها[(٣)].

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾.

أي: وثِقُوا باللهِ وتوَكَّلوا عليه في جَميعِ أمورِكم، واعمَلوا بوَحْيِه وتمَسَّكوا به؛ لأنَّه وليُّكم وحافِظُكم، ومُدَبِّرُ أمورِكم، وناصِرُكم على أعدائِكم[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

---

(١) لبَّيك: أي: أدومُ على طاعتِك دوامًا بعد دوامٍ، وأُقيمُ على طاعتِك إقامةً بعد إقامةٍ، مِن: ألَبَّ بالمكانِ: إذا أقام به. وسعديك: أي: ساعدتُ طاعتَك يا ربِّ مساعدةً بعد مساعدةٍ، وهي الموافَقةُ والمسارعةُ، أو أسعدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدعوتِك سعادةً بعد سعادةٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٧٣).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٩٨، ٤٥٧-٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٢).

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

أي: فنِعْم المَولى هو سُبْحانَه، ونِعْمَ النَّاصِرُ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ فيه أمرٌ بإسداءِ الخَيرِ إلى النَّاسِ مِنَ الزَّكاةِ، وحُسنِ المُعامَلةِ؛ كصِلةِ الرَّحِمِ، والأمرِ بالمَعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ، وسائِرِ مَكارِمِ الأخلاقِ، وهذا مُجمَلٌ بيَّنَتْه وبيَّنَت مراتِبَه أدِلَّةٌ أُخرى(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (لعلَّ) كَلِمةُ تَرَجٍّ تُشعِرُ بأنَّ الإنسانَ قَلَّما يخلو في أداءِ فَريضةٍ مِن تَقصيرٍ، وليس هو على يقينٍ مِن أنَّ الذي أتى به مَقبولٌ عندَ اللهِ، والعواقِبُ مَستورةٌ، وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ علَّق تعالى الفَلاحَ على هذه الأمورِ، فلا طريقَ للفَلاحِ سِوى الإخلاصِ في عبادةِ الخالِقِ، والسَّعيِ في نَفعِ عَبيدِه، فمن وُفِّقَ لذلك فله القِدْحُ المُعَلَّى(٤) مِنَ السَّعادةِ والنَّجاحِ والفَلاحِ(٥).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ باستِفراغِ الطَّاقةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٦٧).

(٤) القِدْحُ المُعَلَّى: أي: الحَظُّ الأوفَرُ. والقِدْحُ: السَّهمُ: والمعلَّى: السَّابِعُ مِن سِهامِ المَيسِرِ، وهو أفضَلُها عندَهم. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٨)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).

إيقاع كلِّ ما أَمَر به مِنَ الجهادِ للعدوِّ والنَّفْسِ على الوجْهِ الَّذي أَمَر به، مِنَ الحجِّ والغَزوِ وغَيرِهما، جهادًا يَليقُ بما أَفهَمَتْه الإضافةُ إلى ضَميرِه سبحانه مِنَ الإخلاصِ والقوَّةِ(١).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ فمتى اعتصَمْتُم به سُبحانَه تولَّاكم ونصَرَكم على أنفُسِكم وعلى الشَّيطانِ، وهما العدوَّانِ اللَّذانِ لا يُفارِقانِ العبدَ، وعداوتُهما أضَرُّ مِن عَداوةِ العَدُوِّ الخارجِ؛ فالنَّصرُ على هذا العدوِّ أهمُّ، والعَبدُ إليه أحوَجُ، وكمالُ النُّصرةِ على العَدُوِّ بحَسَبِ كَمالِ الاعتصامِ باللهِ(٢).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾، والاعتِصامُ به نوعانِ: اعتِصامُ توكُّلٍ واستعانةٍ، وتَفويضٍ ولَجَأٍ وعِياذٍ، وإسلامُ النَّفْسِ إليه، والاستِسلامُ له سُبحانَه. والثاني: اعتِصامٌ بوَحْيِه، وهو تحكيمُه دونَ آراءِ الرِّجالِ ومقاييسِهم ومَعقولاتِهم، وأذواقِهم وكُشوفاتِهم ومَواجيدِهم، فمَن لم يكُنْ كذلك فهو مُنسَلٌّ مِن هذا الاعتصامِ؛ فالدِّينُ كُلُّه في الاعتصامِ به وبحَبلِه؛ عِلمًا وعمَلًا، وإخلاصًا واستِعانةً، ومُتابعةً واستِمرارًا على ذلك إلى يومِ القيامةِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تخصيصُ المُؤمِنينَ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نَفيِ ذلك عمَّا عداهم، بل قد دَلَّت هذه الآيةُ على كَونِهم على التَّخصيصِ مأمورينَ بهذه الأشياءِ، ودَلَّت سائِرُ الآياتِ على كَونِ الكُلِّ مأمورينَ بها. ويُمكِنُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))(٣/ ٣٠٣).

أن يُقالَ: فائِدةُ التَّخصيصِ أنَّه لَمَّا جاء الخِطابُ العامُّ مَرَّةً بعدَ أخرى، ثمَّ إنَّه ما قَبلَه إلَّا المُؤمِنونَ، خَصَّهم اللهُ تعالى بهذا الخِطابِ؛ لِيَكونَ ذلك كالتَّحريضِ لهم على المُواظَبةِ على قَبولِه، وكالتَّشريفِ لهم في ذلك الإقرارِ والتَّخصيصِ(١).

٢- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ دلالةٌ على أنَّ الركوعَ ركنٌ في الصلاةِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ بالركوعِ، ومِن المعلومِ أنَّه لا يُشرَعُ لنا أنْ نركعَ ركوعًا مجرَّدًا، وإذا لم يُشرعْ لنا الرُّكوعُ المجرَّدُ وَجَب حَمْلُ الآيةِ على الرُّكوع الذي في الصلاةِ(٢).

٣- تَضمَّنَ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ ذِكْرَ الواجِباتِ والمُستحبَّاتِ كلِّها؛ توَحيدًا، وصلاةً وزكاةً، وحَجًّا وصِيامًا، فيدخُلُ في قَولِه: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ كلُّ واجِبٍ ومُستحَبٍّ، فخَصَّصَ في هذه الآيةِ وعمَّمَ، ثمَّ قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، فهذه الآيةُ وما بَعْدَها لم تَترُكْ خَيرًا إلَّا جمعَتْه؛ ولا شَرًّا إلَّا نفَتْه(٣).

٤- إنَّ حَقَّ تُقاتِه وحَقَّ جِهادِه سُبحانَه في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقَولِه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ هو ما يُطيقُه كلُّ عَبْدٍ في نَفْسِه، وذلك يختَلِفُ باختِلافِ أحوالِ المكلَّفينَ في القُدرةِ والعَجزِ، والعِلمِ والجَهلِ؛ فحَقُّ التَّقوى وحقُّ الجِهادِ بالنِّسبةِ إلى القادِرِ المتمَكِّنِ العالِمِ شَيءٌ، وبالنِّسبةِ إلى العاجِزِ الجاهِلِ الضَّعيفِ شَيءٌ، وتأمَّلْ كيف عَقَّبَ الأمرَ بذلك بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، والحَرَجُ:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٣/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦٦).

الضِّيقُ، بل جَعَلَه واسِعًا يَسَعُ كلَّ أَحَدٍ[١]!

٥- عن الحَسَنِ رَضِي اللهُ عنه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، قال: (إنَّ الرجُلَ لَيُجاهِدُ في اللَّهِ حقَّ جِهادِه وما ضَرَب بسيفٍ)[٢].

٦- قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ قاعِدةٌ شَرعيَّةٌ، وهي أنَّ (المشقَّةَ تَجلِبُ التَّيسيرَ)، و(الضَّروراتُ تُبيحُ المحظوراتِ)، فيَدخُلُ في ذلك مِنَ الأحكامِ الفَرعيَّةِ شَيءٌ كثيرٌ مَعروفٌ في كُتُبِ الأحكامِ[٣].

٧- قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ورفعُ الحرَجِ إنَّما هو لِمَنِ استقامَ على مِنهاجِ الشَّرْعِ، وأمَّا السَّلَّابَةُ وَالسُّرَّاقُ وأصحابُ الحُدودِ فعليهم الحَرَجُ، وهم جاعِلوه على أنفسِهم بمُفارَقَتِهم الدِّينَ[٤].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، فقد أخبَرَ أنَّه ما جَعَلَ علينا في الدِّينِ مِن حَرَجٍ، ونفاه نفيًا عامًّا مؤكَّدًا، فمَنِ اعتقدَ أنَّ فيما أمَرَ اللهُ به مِثقالَ ذرَّةٍ مِن حَرَجٍ، فقد كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه، فكيف بمَن اعتقدَ أنَّ المأمورَ به قد يكونُ فَسادًا وضَررًا لا مَنفعةَ فيه ولا مَصلحةَ لنا؟! ولهذا لَمَّا لم يكُنْ فيما أمَرَ اللهُ ورَسولُه حَرَجٌ علينا، لم يكُنِ الحَرَجُ من ذلك إلَّا مِن النِّفاقِ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال الله تعالى فيما أمَرَ به مِن الصِّيامِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:

(١) يُنظر: ((زاد المَعاد)) لابن القيم (٣/ ٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠١).

١٨٥]، فإذا كان لا يُريدُ فيما أمَرَنا به ما يَعسُرُ علينا، فكيف يريدُ ما يكونُ ضَررًا وفَسادًا لنا بما أمَرَنا به إذا أطعناه فيه(١)!!

٩- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فيه بيانُ أنَّ هذه الحنيفِيَّةَ السَّمحةَ الَّتي جاءَ بها نبيُّنا مُحَمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم، أنَّها مَبْنِيَّةٌ على التَّخفيفِ والتَّيسيرِ، لا على الضِّيقِ والحرجِ، وقد رَفَعَ اللَّهُ فيها الآصارَ والأغلالَ الَّتي كانت على مَنْ قبْلَنا. وهذا المعنَى الَّذي تَضَمَّنَتْه هذه الآيةُ الكريمَةُ ذَكَره -جَلَّ وعَلا- في غيرِ هذا الموضعِ؛ كقولِه تعالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقولِه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(٢) [النساء: ٢٨].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ المقصودُ مِن ذِكرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ التَّنبيهُ على أنَّ هذه التَّكاليفَ والشَّرائعَ هي شَريعتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والعَرَبُ كانوا مُحبِّينَ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّهم مِن أولادِه، فكان التَّنبيهُ على ذلك كالسَّبَبِ لصَيرورتِهم مُنقادينَ لِقَبولِ هذا الدِّينِ(٣).

١١- في قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اسمَ «الآباءِ» يَشمَلُ الأجدادَ؛ وإنْ عَلَوا(٤).

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ هذا يقتَضي أن تكونَ مِلَّةُ مُحمَّدٍ كمِلَّةِ إبراهيمَ -عليهما السَّلامُ- سواءً، فيكونَ الرَّسولُ ليس له

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١١٩).

شَرعٌ مَخصوصٌ، ويؤكِّدُه قَولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]؟

والجوابُ: أنَّ هذا الكلامَ إنَّما وَقَع مع عَبَدةِ الأوثانِ، فكأنَّه تعالى قال: عبادةُ اللهِ وتَرْكُ الأوثانِ هي مِلَّةُ إبراهيمَ، فأمَّا تفاصيلُ الشَّرائعِ فلا تعَلُّقَ لها بهذا الموضِعِ(١).

وقيل: إنَّ الإسلامَ احْتَوى على دِينِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَعلومٌ أنَّ للإسلامِ أحكامًا كثيرةً، ولكنَّه لَمَّا اشتمَلَ على ما لم يَشتمِلْ عليه غيرُه مِن الشَّرائعِ الأُخرى مِن دِينِ إبراهيمَ، جُعِلَ كأنَّه عَينُ مِلَّةِ إبراهيمَ(٢).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أُخِذَ منه ما يدُلُّ على أنَّ الإجماعَ حُجَّةٌ(٣).

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ شهادةَ غيرِ المسلمِ ليسَتْ مقبولةً(٤).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث خُتِمَتِ السُّورة بالإقبالِ على خِطابِ المُؤمنينَ بما يُصلِحُ أعْمالَهم، ويُنَوِّهُ بشأْنِهم، بعْدَ استيفاءِ ما سِيقَ إلى المُشرِكينَ من الحُجَجِ والقوارِعِ والنِّداءِ على مَساوي أعمالِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٠، ٣٥١).

قال ابن عاشور: (فعلى هذا الاعتبارِ يكونُ انتصابُ ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ على الحالِ مِن الدِّين باعتبارِ أنَّ الإسلامَ حَوَى مِلَّةَ إبراهيمَ) ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٥٧) و (٤/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٦٩).

حيث كان خِطابُ المُشرِكين فاتِحًا لهذه السُّورة، وشاغِلًا لمُعْظَمِها، عدا ما وقَعَ اعتراضًا في خلالِ ذلك، فقد خُوطِبَ المُشرِكون بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أربعَ مرَّاتٍ. وفي هذا التَّرتيبِ إيماءٌ إلى أنَّ الاشتغالَ بإصلاحِ الاعتقادِ مُقدَّمٌ على الاشتغالِ بإصلاحِ الأعمالِ[١].

- قولُه: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ فيه حُسْنُ تَرتيبٍ؛ حيث يَظهَرُ في هذا التَّرتيبِ أنَّهم أُمِرُوا أوَّلًا بالصَّلاةِ، وهي نَوعٌ من العِبادةِ، وثانِيًا بالعِبادةِ، وهي نَوعٌ من فِعْلِ الخيرِ، وثالِثًا بفِعْلِ الخيرِ، وهو أعَمُّ من العِبادةِ؛ فبدَأَ بخاصٍّ، ثمَّ بعامٍّ، ثمَّ بأعمَّ[٢]. وتَخصيصُ الصَّلاةِ بالذِّكْرِ قبْلَ الأمْرِ ببقيَّةِ العِباداتِ المَشمولةِ بقولِه: ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾: تَنبيهٌ على أنَّ الصَّلاةَ عِمادُ الدِّينِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ كان القِياسُ أنْ يُقالَ: (حَقَّ الجِهادِ فيه)، أو: (حَقَّ جِهادِكم فيه)؛ ووَجْهُ العُدولِ عن ذلك: أنَّ الإضافةَ تكونُ بأدْنى مُلابَسةٍ واختصاصٍ؛ فلمَّا كان الجِهادُ مُخْتَصًّا باللهِ، من حيث إنَّه مَفعولٌ لِوَجْهِه ومِن أجْلِه؛ صَحَّتْ إضافَتُه إليه، فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٥، ٣٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٦).

جِهَادِهِۦ﴾[1]. أو التَّقديرُ: جِهادًا فيه حَقًّا خالِصًا لِوَجْهِه؛ فعُكِسَ، وأُضِيفَ الحَقُّ إلى الجِهادِ؛ مُبالَغةً[2].

- وجُملةُ: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ إنْ حُمِلَتْ على أنَّها واقعةٌ مَوقِعَ العِلَّةِ لِمَا أُمِرُوا به، ابتداءً مِن قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ ...﴾ [الحج: ٧٧] إلخ، أي: لأنَّه لَمَّا اجْتَباكم، كان حَقيقًا بالشُّكرِ له بتلك الخِصالِ المأْمورِ بها، أي: هو اختارَكم لِتَلقِّي دِينِه ونَشْرِه ونَصْرِه على مُعانديهِ، فيَظهَرُ أنَّ هذا مُوجَّهٌ لأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصالةً، ويُشارِكُهم فيه كلُّ مَن جاء بَعْدهم بحُكْمِ اتِّحادِ الوَصفِ في الأجيالِ، كما هو الشَّأنُ في مُخاطَباتِ التَّشريعِ. وإنْ حُمِلَ قولُه: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ على معنى التَّفضيلِ على الأُمَمِ، كان مَلحوظًا فيه تَفضيلُ مَجموعِ الأُمَّةِ على مَجْموعِ الأُمَمِ السَّابقةِ، الرَّاجعِ إلى تَفضيلِ كلِّ طَبقةٍ مِن هذه الأُمَّةِ على الطَّبقةِ المُماثِلَةِ لها مِن الأُمَمِ السَّالفةِ. وأُعقِبَ ذلك بتَفضيلِ هذا الدِّينِ المُستتبعِ تَفضيلَ أهْلِه بأنْ جعَلَه دِينًا لا حرَجَ فيه؛ لأنَّ ذلك يُسهِّلُ العمَلَ به، مع حُصولِ مَقْصدِ الشَّريعةِ مِن العمَلِ، فيَسعَدُ أهْلُه بسُهولةِ امتثالِه[3].

- ولَفظةُ (هو) في قولِه: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ فيها تَفخيمٌ واختصاصٌ[4]. والجملةُ فيها تأكيدٌ للأمرِ بالمجاهدةِ، أي: وجَب عليكم أن تُجاهِدوا؛ لأنَّ الله

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٣٩).

اختاركم له[١].

- وقولُه: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عِلَّةٌ لِرَفْعِ الحرَجِ عن هذه الأُمَّةِ المرحومةِ[٢].

- قولُه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه زِيادةٌ في التَّنويهِ بهذا الدِّينِ، وتَحضيضٌ على الأخْذِ به، بأنَّه اخْتُصَّ بأنَّه دِينٌ جاء به رسولانِ: إبراهيمُ، ومحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليهما وسلَّمَ، وهذا لم يَستتِبَّ لِدِينٍ آخَرَ، فمحملُ الكلامِ أنَّ هذا الدِّينَ دينُ إبراهيمَ، أيْ: أنَّ الإسلامَ احْتَوى على دينِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهذا على قولٍ في التفسيرِ.

ثمَّ إنْ كان الخِطابُ مُوجَّهًا إلى الَّذين صَحِبوا النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإضافةُ أُبُوَّةِ إبراهيمَ إليهم باعتبارِ غالِبِ الأُمَّةِ يومَئذٍ. وإنْ كان الخِطابُ لِعُمومِ المُسلمينَ، كانت إضافةُ أُبُوَّةِ إبراهيمَ لهم على معنى التَّشبيهِ في الحُرْمةِ واستحقاقِ التَّعظيمِ، كقولِه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ولأنَّه أبو النَّبيِّ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومحمَّدٌ له مَقامُ الأُبُوَّةِ للمُسلمينَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على طَريقةِ التَّعظيمِ؛ كأنَّه قال: مِلَّةَ أبيك إبراهيمَ، والضَّميرُ في ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عائدٌ إلى الجَلالةِ كضَميرِ ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾؛ فتكون الجُملةُ استئنافًا ثانيًا، أي: هو اجْتَباكم وخَصَّكم بهذا الاسمِ الجليلِ، فلم يُعْطِه غيرَكم، ولا يعودُ إلى إبراهيمَ[٣]؛ فالقاعدةُ: أنَّ الضمائرَ إذا تعاقبتْ فالأصلُ أنْ يتَّحدَ مَرجعُها؛ فتوحيدُ مرجعِ الضمائرِ أَوْلَى مِن تَفريقِها؛ فالضمائرُ السابقةُ كلُّها ترجِعُ إلى اللهِ تعالى، وهذا أرجحُ مِن كونِ الضميرِ في

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٠، ٣٥١).

الآيةِ يعودُ إلى إبراهيمَ عليه السلامُ باعتبارِ أنَّه أقربُ مذكورٍ[(١)].

- قولُه: ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قُدِّمت شَهادةُ الرَّسولِ للأُمَّةِ هنا، وقُدِّمَت شَهادةُ الأُمَّةِ في سُورةِ (البقرةِ) في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ هنا في سُورةِ (الحجِّ) في مَقامِ التَّنويهِ بالدِّينِ الَّذي جاء به الرَّسولُ؛ فالرَّسولُ هنا أسبَقُ إلى الحُضورِ؛ فكان ذِكْرُ شَهادتِه أهَمَّ، وأنَّ آيةَ البقرةِ صُدِّرَت بالثَّناءِ على الأُمَّةِ؛ فكان ذِكْرُ شَهادةِ الأُمَّةِ أهَمَّ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ وما بَعْدها، أي: فاشْكُروا اللهَ بالدَّوامِ على إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ والاعتصامِ باللهِ[(٣)]. وخَصَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بالذِّكْرِ؛ لإنافَتِهما وفضْلِهما على غَيرِهما من العِباداتِ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ جُملةُ: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ مُستأْنفةٌ مُعلِّلةٌ للأمرِ بالاعتصامِ باللهِ، وفُرِّعَ عليها إنشاءُ الثَّناءِ على اللهِ بأنَّه (نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)، أي: نِعْمَ المُدبِّرُ لِشُؤونِكم، ونِعْمَ النَّاصِرُ لكم. و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ مُبالَغةٌ في النَّصرِ؛ أي: نِعْمَ المولى لكم، ونِعْمَ النَّصيرُ لكم، وهذا الإنشاءُ يَتضمَّنُ تَحقيقَ حُسْنِ ولايةِ اللهِ تعالى وحُسْنِ نَصْرِه، وبذلك الاعتبارِ حَسُنَ تَفريعُه على الأمرِ بالاعتصامِ به، وهذا مِن بَراعةِ الخِتامِ[(٥)].

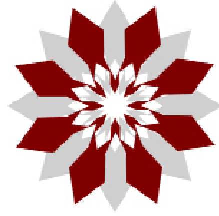
(١) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٤١٤- ٤١٩).

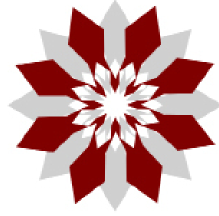
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٢).

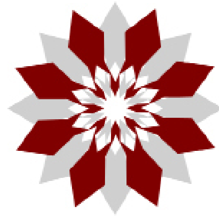
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٣٥٢، ٣٥٣).

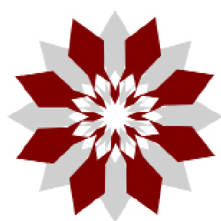
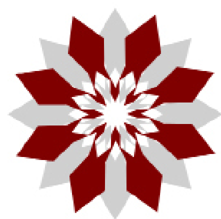
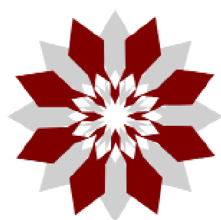






تَفْسِيرُ

سُورَةِ المؤمِنونَ

سورةُ المُؤْمِنونَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (المؤمنون)[١].

فعن عبدِ الله بنِ السَّائبِ رضي الله عنه، قال: ((صلَّى لنا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الصبحَ بمكةَ، فاستفتح سورةَ المؤمنينَ حتَّى جاء ذِكرُ موسَى وهارونَ أو ذِكرُ عيسَى -محمدُ بنُ عبَّادٍ[٢] يشكُّ، أو اختلفوا عليه- أخَذَتِ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَعْلةٌ[٣] فركع، وعبدُ الله بنُ السَّائبِ حاضرٌ ذلك))[٤].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ (المؤمنون) مكيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ من المفسِّرين[٥].

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مقاصدِ هذه السورةِ:

١- تحقيقُ الوحدانيَّةِ، وإبطالُ الشِّركِ[٦].

---

(١) وسمِّيت هذه السورةُ بـ«المؤمنون»؛ لافتتاحِها بفلاحِ المؤمنينَ، واشتمالِها على أوصافِهم وجزائِهم في الآخرةِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٨٠).

(٢) هو أحدُ رجالِ الإسنادِ.

(٣) السَّعلةُ: فَعلةٌ مِن السُّعالِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٩٣).

(٤) أخرجه مسلم (٤٥٥).

(٥) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، وأبو حيانَ، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٢٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٠٢).

(٦) قال ابنُ عاشورٍ: (هذه السورةُ تدورُ آيُها حولَ محورِ تحقيقِ الوحدانيَّةِ، وإبطالِ الشِّركِ ونقضِ قواعدِه، والتنويهِ بالإيمان وشرائعِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦).

٢- تقريرُ النُّبُوةِ للنَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والردُّ على مَن ينكرونَها مِن الكفَّارِ[١].

٣- الدَّلالةُ على أخلاقِ أهلِ الإسلامِ[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ التي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

١- بيانُ صِفاتِ المؤمِنينَ، وما أعدَّه اللهُ لأصحابِ هذه الصِّفاتِ.

٢- ذِكرُ أطوارِ خَلقِ الإنسانِ الدالِّ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه على البَعثِ.

٣- بيانُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ في هذا الكَونِ.

٤- ذِكرُ جانبٍ مِن قَصَصِ بَعضِ الأنبياءِ، ومَوقِفِ أقوامِهم منهم، وكيف كانت العاقبةُ.

٥- توجيهُ الرُّسُلِ إلى أكلِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، والمداومةِ على العَمَلِ الصَّالحِ؛ وبيانُ وَحدةِ دينِ الأنبياءِ جَميعًا.

٦- بيانُ مَوقِفِ المُشرِكينَ مِن الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، ومَصيرِهم يومَ القيامةِ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِهم الفاسِدةِ، وتسليةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما يُثَبِّتُ قَلبَه.

٧- ذِكرُ بَعضِ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه؛ كخَلقِ سَمعِهم وأبصارِهم وأفئِدتِهم، ونَشأتِهم مِن الأرضِ، وإشهادِهم على أنفُسِهم بأنَّ الخالِقَ هو اللهُ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٩٦).

(٢) قال الفيروزابادي: (مقصودُ السورةِ ومُعظَمُ ما اشتملَتْ عليه: الفتوى بفلاحِ المؤمنينَ، والدَّلالةُ على أخلاقِ أهلِ الإسلامِ). ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ٣٢٩).

٨- إرشادُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أن يغُضَّ عن سوءِ مُعاملةِ المُشرِكينَ، ويَدفعَها بالتي هي أحسَنُ، وأن يستعيذَ باللهِ مِن الشَّياطينِ.

٩- ذِكرُ أحَدِ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ وما يَنتظِرُ المُشرِكينَ في هذا اليومِ، وحالِهم عند نُزولِ الموتِ بهم.

١٠- خُتِمت السُّورةُ بأمرِ اللهِ لِنَبيِّه بالتوجُّهِ إليه طلَبًا للرَّحمةِ والغُفرانِ.



الآيات (١-١١)

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ
مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥
إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ
صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَفۡلَحَ﴾: أي: فازَ وسعِد، والفَلاحُ: الظَّفَرُ وإدراكُ البُغيةِ، والبقاءُ، وأصلُ (فلح): يدلُّ على فوزٍ وبقاءٍ[1].

﴿خَٰشِعُونَ﴾: أي: ساكِنونَ مُتواضِعونَ، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ الخشوعُ فيما يُوجَدُ على الجوارحِ، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التطامُنِ[2].

﴿ٱللَّغۡوِ﴾: أي: الباطِلِ، وما يجبُ أن يُلغَى مِن اللعبِ والهزلِ والمعاصي، واللَّغْوُ مِن الكلامِ: ما لا يُعتدُّ به، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٤٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((تذكرة =

﴿مُعۡرِضُونَ﴾: أي: مُنصَرِفونَ، والإعراضُ: هو أن تولِّيَ الشَّيءَ عُرضَك، أي: جانِبَك، ولا تُقبِلَ عليه(١).

﴿ٱلۡعَادُونَ﴾: أي: المجاوِزونَ الحَدَّ، والمُعتَدونَ، وأصلُه: يدُلُّ على تَجاوُزِ الحَدِّ(٢).

﴿رَٰعُونَ﴾: أي: قائِمونَ بالحِفظِ والإصلاحِ، وأصلُ (رعي): يدلُّ على مُراقَبةٍ وحِفْظٍ(٣).

﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾: أي: أعلَى الجنَّةِ، وأوسطَها، وقيل: هو البستانُ المخصوصُ بالحسنِ وذلك بلسانِ الرُّومِ، وأصلُ الفردوسِ: البستانُ الواسعُ الجامعُ لأصنافِ الثَّمرِ(٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢١).

قَولُه تعالى: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ ﴾ ﴿ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿ حَٰفِظُونَ ﴾ لتَضمينِه معنى (مُمسِكونَ)، والإمساكُ يتعَدَّى بـ (على) كما في قَولِه تعالى: ﴿ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، والاستِثناءُ مُفرَّغٌ على اعتبارِ معنى النَّفي المفهومِ مِن الإمساكِ؛ ليَصِحَّ التَّفريغُ، لأنَّه لا يكونُ إلَّا بعدَ نَفيٍ أو ما في مَعناه، فكأنَّه قيلَ: حافِظونَ فُروجَهم لا يَكشِفونَها إلَّا على أزواجِهم. وقيل: (على) بمعنى (مِنْ)، وهي مُتعَلِّقةٌ بـ (حَافِظُونَ)، أي: يَحفَظونَها إلَّا مِنْ أزواجِهم.

وقيل: (عَلَى) مُتعَلِّقةٌ بمَحذوفٍ يدُلُّ عليه ﴿ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴾، كأنَّه قيل: يُلامُونَ إلَّا على أزواجِهم، أي: يُلامونَ على كُلِّ مُباشَرٍ إلَّا على ما أُطلِقَ لهم؛ فإنَّهم غيرُ ملومينَ عليه. وقيل غيرُ ذلك(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله تعالى أنَّ المؤمنينَ قد فازوا وأفلحوا، وذلك لجمعهم صفاتِ الفوزِ والفلاحِ، فمِن صِفاتِهم أنَّهم خاشعونَ لله في صلاتِهم، وأنَّهم معرِضونَ عن الباطل، وأنَّهم لزَكاةِ أموالِهم مُؤَدُّونَ، وأنهم لفُروجِهم حافِظونَ مِن الوقوعِ فيما حرَّمَ اللهُ إلَّا مِن زَوجاتِهم أو ما ملَكَت أيمانُهم مِنَ الإماءِ؛ فلا لَومَ عليهم ولا حَرَجَ في الاستِمتاعِ بهِنَّ، وجِماعِهنَّ على الوجهِ المَشروعِ، فمَن طلَبَ خِلافَ ما أحلَّه الله فهو مِن المجاوِزينَ الحَلالَ إلى الحَرامِ. ومِن صفاتِ المفلحينَ أيضًا أنهم يحفظونَ كُلَّ ما اؤتُمِنوا عليه، ويُوفون بكُلِّ عُهودِهم، وأنَّهم يواظِبون على أداءِ صَلَواتِهم في أوقاتِها بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها. هؤلاء المُؤمِنونَ الذين

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٦٤٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣١٧)، ((تفسير الآلوسي)) (٩/ ٢٠٩).

اتَّصفوا بتلك الصفاتِ هم الوارِثونَ في الآخرةِ مَنازِلَ أهلِ النَّارِ مِن الجَنَّةِ، الذين يَرِثونَ يومَ القيامةِ جناتِ الفردوسِ، هم فيها خالِدونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾.

أي: قد فاز وظفِر بخَيرِ الدُّنيا والآخرةِ المُؤمِنونَ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجبَ عليهم الإيمانُ به[(١)].

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾.

أي: الذينَ مِن صِفاتِهم أنَّهم في صَلاتِهم خاضِعونَ، مُتَذلِّلونَ لله ساكِنونَ، مُتدَبِّرونَ لِما يقولونَ فيها[(٢)].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا وصَف اللهُ سُبحانَه وتعالى المؤمِنينَ بالخُشوعِ في الصَّلاةِ؛ أتبَعَه الوَصفَ بالإعراضِ عن اللَّغوِ؛ ليجمَعَ لهم الفِعلَ والتَّركَ الشَّاقَّينِ على الأنفُسِ، اللذينِ هما قاعِدتا بناءِ التَّكليفِ[(٣)].

وأيضًا عقَّبَ ذِكْرَ الخُشوعِ بذِكْرِ الإعراضِ عنِ اللَّغوِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ في الأصْلِ الدُّعاءُ، وهو مِن الأقوالِ الصَّالحةِ؛ فكان اللَّغوُ ممَّا يَخطُرُ بالبالِ عندَ ذِكْرِ الصَّلاةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥، ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦، ١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٢)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٥).

بجامِعِ الضِّدِّيَّةِ، فكان الإعراضُ عن اللَّغوِ بمَعنَيِي الإعراضِ (إعراضِ السَّمْعِ عن اللَّغْوِ، وإعراضِ الألْسِنَةِ عنه) ممَّا تَقْتَضيه الصَّلاةُ والخُشوعُ؛ لأنَّ مَن اعتادَ القولَ الصَّالِحَ تجنَّبَ القولَ الباطِلَ، ومَن اعتادَ الخُشوعَ للهِ تجنَّبَ قولَ الزُّورِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان كلٌّ مِن الصَّلاةِ والخُشوعِ صادًّا عن اللَّغوِ؛ أتبَعَه قولَه[2]:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم معرِضونَ عن الباطِلِ وجميعِ ما يَكرَهُه الله؛ كالمعاصي وما لا فائِدةَ ولا خَيرَ فيه؛ تَنزيهًا لأنفُسِهم عنه، وانشِغالًا منهم بما يَنفَعُ مِن الحَقِّ والخَيرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ باللَّغوِ هاهنا خمسةُ أقوالٍ:

أحدُها: الشِّركُ. رواه أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثاني: الباطِلُ. رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثالثُ: المعاصي. قاله الحَسَنُ.

والرابعُ: الكَذِبُ. قاله السُّدِّيُّ.

والخامسُ: الشَّتمُ والأذى الذي كانوا يَسمَعونَه مِن الكُفَّارِ. قاله مقاتِلٌ.

قال الزَّجَّاج: واللَّغوُ: كُلُّ لَعِبٍ ولَهوٍ، وكلُّ مَعصيةٍ فهي مُطَّرَحةٌ مُلغاةٌ، فالمعنى: شَغَلَهم الجِدُّ فيما أمَرَهم اللهُ به عن اللَّغوِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٦).

وممَّن قَصَر اللَّغوَ على ساقِطِ الكلامِ: السمرقندي، وابن عطية، والنَّسَفي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨). =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لمَّا ذكَر الصَّلاةَ عَقَّبَ بذكرِ الزَّكاةِ؛ لكثرةِ التَّآخِي بيْنَهما في آياتِ القرآنِ[(١)].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم لزَكاةِ أموالِهم مُؤَدُّونَ[(٢)].

= قال ابنُ جُزَي: (اللَّغوُ هنا: السَّاقِطُ مِن الكلامِ؛ كالسَّبِّ واللَّهوِ، والكلامِ بما لا يَعني، وعددُ أنواعِ المنهيِّ عنه من الكلامِ عِشرون نَوعًا، ومعنى الإعراضِ عنه: عدمُ الاستماعِ إليه والدُّخولِ فيه، ويحتَمِلُ أن يريدَ أنَّهم لا يتكلَّمونَ به، ولكِنَّ إعراضَهم عن سَماعِه يقتضي ذلك من بابِ أَولى وأَحرى). ((تفسير ابن جزي)) (٢/٤٨).

وقيل: اللَّغوُ هو ما لا يَعنيك مِن قَولٍ أو فِعلٍ؛ كاللَّعِبِ والهَزلِ. وممَّن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٨١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: الباطِلُ وما يَكرَهُه اللهُ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٩٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢).

قال ابن كثير: (﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي: عن الباطِلِ، وهو يَشمَلُ: الشِّركَ -كما قاله بعضُهم-، والمعاصيَ -كما قاله آخَرون-، وما لا فائِدةَ فيه من الأقوالِ والأفعالِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢).

وقال النيسابوري: (﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللَّغوُ... يَشمَلُ كُلَّ ما كان حرامًا، أو مكروهًا، أو مباحًا لا ضرورةَ إليه ولا حاجةَ قَولًا أو فِعلًا). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٠٩).

وقال الواحدي: (﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ عن كلِّ ما لا يَجمُلُ في الشَّرعِ مِن قَولٍ وفِعلٍ). ((الوجيز)) (ص: ٧٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن =

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أشار إلى أنَّ بَذْلَ المالِ على وجهِه طُهرةٌ، وأنَّ حبسَه عن ذلك تَلَفٌ؛ أتبعه

= عاشور)) (١٨/ ١٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالزَّكاةِ هنا: زكاةُ الأموال: ابنُ جريرٍ، والبقاعي، وابنُ عاشور، ونسبه ابنُ كثير إلى الأكثرينَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبيرٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٨٧).

واللَّامُ على هذا القَولِ للتعَدِّي؛ لأنَّ اسمَ الفاعِلِ لا تبلُغُ قُوَّتُه قوَّةَ الفِعلِ، فقَوِيَ باللَّامِ، كقَولِه: ﴿لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٧٧٠).

قال الشوكاني: (ومعنى فِعلِهم للزَّكاةِ تأديتُهم لها، فعبَّرَ عن التَّأديةِ بالفِعلِ؛ لأنَّها ممَّا يَصدُقُ عليه الفِعلُ، والمرادُ بالزَّكاةِ هنا المصدَرُ؛ لأنَّه الصَّادرُ عن الفاعِلِ. وقيل: يجوزُ أن يرادَ بها العينُ على تقديرِ مُضافٍ، أي: والذين هم لتأديةِ الزَّكاةِ فاعِلونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦١).

واختار الرَّاغبُ أنَّ الزَّكاةَ بمعنى الطَّهارةِ، واللَّامَ للتَّعليلِ، والمعنى: والذين يَفعَلونَ ما يَفعَلونَ مِن العبادةِ؛ لِيُزَكِّيَهم اللهُ تعالى، أو لِيُزكُّوا أنفُسَهم. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٠٨).

وقيل: المرادُ: زكاةُ الأموالِ وزكاةُ النُّفوسِ، بتطهيرِها مِن مساوي الأخلاقِ والأعمال. وممن قال بذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

قال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾: الأكثرونَ على أنَّ المرادَ بالزكاةِ هاهنا زكاةُ الأموال، مع أنَّ هذه الآيَة مكيَّةٌ، وإنَّما فُرِضَت الزكاةُ بالمدينةِ في سنة اثنتينِ مِن الهجرة، والظاهِرُ أنَّ التي فُرِضَت بالمدينةِ إنَّما هي ذاتُ النُّصُبِ والمقاديرِ الخاصَّةِ، وإلَّا فالظاهِرُ أنَّ أصلَ الزَّكاةِ كان واجبًا بمكَّةَ، كما قال تعالى في سورة «الأنعام»، وهي مكيَّةٌ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وقد يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بالزَّكاةِ هاهنا: زكاةُ النَّفسِ مِنَ الشِّركِ والدَّنَسِ، كقَولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وكقَولِه تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصِّلت: ٦- ٧]، على أحَدِ القَولَينِ في تفسيرِها، وقد يحتَمِلُ أن يكون كِلا الأمرينِ مُرادًا، وهو زكاةُ النُّفوسِ وزَكاةُ الأموالِ؛ فإنَّه من جملةِ زكاةِ النُّفوسِ، والمؤمِنُ الكامِلُ هو الذي يتعاطَى هذا وهذا، واللهُ أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٧، ٣٠٨).

الإيماءَ إلى أنَّ بذْلَ الفرْجِ في غيرِ وَجهِه نجاسةٌ، وحِفظَه طُهرةٌ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾، وذِكْرُ الشَّهوةِ بعدَ اللَّغوِ الدَّاعي إليها، وبذْلِ المالِ الذي هو مِن أعظَمِ أسبابِها- عظيمُ المناسَبةِ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم صائِنونَ لفُروجِهم مِن الحَرامِ، فلا يَقَعونَ فيما نهاهم اللهُ عنه مِنَ الفواحِشِ[2].

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦﴾.

أي: هُم يَحفَظونَ فُروجَهم إلَّا مِن زَوجاتِهم أو مِن إمائِهم اللَّاتي يَملِكونَهنَّ؛ فإنَّهم لا يُلامُونَ على وَطْئِهنَّ على الوَجهِ المَشروعِ[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).

قال الواحدي: (قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ قال الفرَّاءُ: معناه: إلَّا مِن أزواجِهم. وعلى هذا القَولِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى: مِن. وحروفُ الصِّفاتِ مُتعاقِبةٌ. وقال الزَّجَّاجُ: دخلت ﴿عَلَىٰٓ﴾ هاهنا؛ لأنَّ المعنى: أنَّهم يُلامُونَ في إطلاقِ ما حُظِرَ عليهم إلَّا على أزواجِهم؛ فإنَّهم لا يُلامُونَ، والمعنى: أنَّهم يُلامُونَ على سِوى أزواجِهم ومِلْكِ أيمانِهم). ((البسيط)) (١٥/ ٥٢٤).

وقيل: ضَمَّنَ ﴿حَٰفِظُونَ﴾ مَعنَى: مُمْسِكونَ أو قاصِرونَ، وكِلاهما يَتعدَّى بـ (على). واختاره: أبو حيان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٨).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣١٩).

قال أبو حيان: (وفي قَولِه ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ دَلالةٌ على تعميمِ وطْءِ ما مُلِكَ باليمينِ، =

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾.

أي: فمَنِ التَمس التمَتُّعَ بفَرجِه فيما سِوى زَوجتِه وأمَتِه، فأولئك هم المُعتَدونَ، المتعَدُّونَ حُدودَ اللهِ، المجاوِزونَ ما أحلَّه لهم إلى ما حرَّمَه عليهم[١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان حِفظُ الفُروجِ مِن الأماناتِ العظيمةِ؛ أتبَعَه عمومَها، فقال[٢]:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم لِمَا ائتَمَنَهم اللهُ والنَّاسُ عليه، ولِعُهودِهم مع اللهِ وعبادِه مُراعونَ، قائمونَ بحِفظِها، والوَفاءِ بها، فلا يَخونونَ الأماناتِ، ولا يَنقُضونَ العُهودَ[٣].

= وهو مختَصٌّ بالإناثِ بإجماعٍ، فكأنَّه قيل: أو ما مَلَكَت أيمانُهم مِنَ النِّساءِ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٩).

وقال الشنقيطي: (أهلُ العِلمِ أجمَعوا على أنَّ حُكمَ هذه الآيةِ الكريمةِ في التمَتُّعِ بمِلْكِ اليَمينِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ خاصٌّ بالرِّجالِ دونَ النِّساءِ، فلا يحِلُّ للمرأةِ أن تتسَرَّى عبدَها وتتمَتَّعَ به بمِلْكِ اليَمينِ، وهذا لا خِلافَ فيه بينَ أهلِ العِلمِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣١٦). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣١٩).

قال ابنُ جُزي: (﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ أمانةَ النَّاسِ وعَهدَهم، وأمانةَ اللهِ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كانت الصَّلاةُ أجَلَّ ما عُهِدَ فيه مِن أمرِ الدِّينِ وآكَدَ، وهي مِن الأمورِ الخَفيَّةِ التي وقَع الائتِمانُ عليها، لِما خفَّفَ اللهُ فيها على هذه الأمَّةِ بإيساعِ زمانِها ومكانِها؛ قال[١]:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم مُواظِبونَ على أداءِ صَلَواتِهم في أوقاتِها، بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها[٢].

= وعَهدَه في دينِه، أو العُمومَ، والأمانةُ أعَمُّ مِن العَهدِ؛ لأنَّها قد تكونُ بعَهدٍ وبغيرِ عَهدٍ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٠).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠ ﴾.

أي: أولئك المُؤمِنونَ المَوصوفونَ بتلك الصِّفاتِ هم الوارِثونَ يَومَ القيامةِ مَنازِلَ أهلِ النَّارِ مِن الجَنَّةِ[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾))[٢].

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾.

أي: أولئك المُؤمِنونَ يَرِثونَ يومَ القيامةِ جَنَّاتِ الفِردَوسِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣٤١)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٣٧٧) واللفظ لهما، والبزار (٩١٥٢) مختصرًا.

صحَّح إسنادَه البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١) وقالا: (على شرطِ الشَّيخينِ)، وذكَر الشوكاني في ((تفسيره)) (٣/ ٦٧٣) أنَّ له شاهدًا في مسلم، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢١).

((فإذا سألتُمُ اللهَ فسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفَوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ))[١].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ أمَّ الرُّبَيِّعِ بِنتَ البراءِ -وهي أمُّ حارِثةَ ابنِ سُراقةَ- أتَتِ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، فقالت: ((يا نبيَّ اللهِ، ألَا تُحَدِّثُني عن حارِثةَ -وكان قُتِلَ يومَ بَدرٍ؛ أصابَه سَهمٌ غَرْبٌ[٢]- فإن كان في الجنَّةِ صَبَرتُ، وإن كان غيرَ ذلك اجتَهَدْتُ عليه في البُكاءِ؟ قال: يا أُمَّ حارِثةَ، إنَّها جِنانٌ في الجنَّةِ، وإنَّ ابنَك أصاب الفِردَوسَ الأعلى!!))[٣].

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: هم في تلك الجنَّاتِ ماكِثونَ لا يَخرُجونَ منها أبَدًا؛ فهم في خُلودٍ لا مَوتَ معه، ولذَّةٍ ونَعيمٍ لا انقِطاعَ له، ومُلكٍ عَظيمٍ لا زَوالَ عنه[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧- ١٠٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ...﴾ الآياتِ، هذا تنويهٌ مِن اللهِ تعالى بذِكرِ عبادِه المؤمِنينَ، وذِكرِ فلاحِهم وسعادتِهم، وبأيِّ شيءٍ وصَلوا إلى ذلك، وفي ضِمنِ ذلك الحثُّ على الاتِّصافِ بصفاتِهم، والتَّرغيبُ فيها، فَلْيَزِنِ العبدُ

---

(١) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٢) سهمٌ غَرْبٌ: أي: لا يُدرَى مَن رماه. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥).

(٣) رواه البخاري (٢٨٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢١).

نفْسَه وغيرَه على هذه الآياتِ، يَعرِفْ بذلك ما معه، وما مع غيرِه من الإيمانِ، زيادةً ونَقصًا، كثرةً وقِلَّةً(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ الإعراضُ عن جنسِ اللَّغوِ: مِن خُلقِ الجدِّ، ومَن تخلَّق بالجِدِّ في شؤونِه كَمَلَت نفْسُه، ولم يصدُرْ منه إلَّا الأعمالُ النَّافِعةُ؛ فالجِدُّ في الأمورِ مِن خُلُقِ الإسلامِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ أنَّهم لا يُمْضون أوقاتَهم الثَّمينةَ إلَّا فيما فيه فائدةٌ، وإذا كان مِن وصفِهم الإعراضُ عن اللَّغوِ -وهو ما لا فائِدةَ فيه- فإعراضُهم عن المحرَّمِ وما فيه مضرَّةٌ مِن بابِ أولى وأحرى، وإذا ملَكَ العبدُ لسانَه وخزَنَه -إلَّا في الخيرِ- كان مالكًا لأمرِه؛ فالمؤمنون مِن صفاتِهم الحميدةِ كَفُّ ألسنتِهم عن اللَّغوِ والمحرَّماتِ(٣).

٤- عَلَّقَ سُبحانَه فلاحَ العبدِ على حِفْظِ فرْجِه مِن الزِّنا؛ فلا سبيلَ إلى الفلاحِ بدونِه، فقال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إلى قَولِه سبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾، وهذا يتضمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ: أنَّ مَن لم يحفَظْ فرْجَه لم يكُنْ مِن المفلحينَ، وأنَّه مِن المَلومينَ، ومِن العادينَ؛ ففاته الفلاحُ، واستحقَّ اسمَ العُدوانِ، ووقعَ في اللَّومِ؛ فمقاساةُ ألَمِ الشَّهوةِ ومعاناتُها أيسَرُ مِن بعضِ ذلك(٤).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ أي: في الجِماعِ وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٥١).

داناه بالظَّاهِرِ والباطِنِ، فهم دائمًا لا يُتبِعونَها شهوتَها، بل هم قائِمونَ عليها يُذِلُّونَها ويَضبِطونَها[١]. وقولُه: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ قُوَّتَهم الشَّهْويَّةَ داعيةٌ لهم إلى ما لا يَخْفى، وأنَّهم حافِظون لها مِن استيفاءِ مُقْتَضاها، وبذلك يَتحقَّقُ كَمالُ العِفَّةِ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ هذا عامٌّ في جميعِ الأماناتِ التي هي حقٌّ لله، والتي هي حقٌّ للعبادِ؛ فجميعُ ما أوجبه اللهُ على عبدِه أمانةٌ، على العبدِ حِفظُها بالقيامِ التَّامِّ بها، وكذلك يدخُلُ في ذلك أماناتُ الآدميِّينَ؛ كأماناتِ الأموالِ والأسرارِ ونحوِهما، فعلى العبدِ مُراعاةُ الأمْرينِ، وأداءُ الأمانتينِ، وكذلك العهدُ يشمَلُ العهدَ الذي بينهم وبينَ رَبِّهم، والذي بينَهم وبينَ العبادِ، وهي الالتِزاماتُ والعُقودُ التي يَعقِدُها العبدُ؛ فعليه مراعاتُها، والوفاءُ بها، ويَحرُمُ عليه التَّفريطُ فيها، وإهمالُها[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ مدَحَهم بالخُشوعِ في الصَّلاةِ في بدايةِ السُّورةِ حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، وبالمحافَظةِ عليها في هذه الآيةِ؛ لأنَّه لا يَتِمُّ أمرُهم إلَّا بالأمْرينِ؛ فمَن يداوِمْ على الصَّلاةِ مِن غَيرِ خُشوعٍ، أو على الخُشوعِ مِن دونِ مُحافظةٍ عليها؛ فإنَّه مذمومٌ ناقِصٌ[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ الآياتِ، جمَعت هذه الآياتُ أُصولَ التَّقوى الشَّرعيَّة؛ لأنَّها أتت على أعسَرِ ما تُراضُ له النفْسُ مِن أعمالِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

القلبِ والجوارحِ، فجاءت بوصفِ الإيمانِ وهو أساسُ التقوى، ثمَّ ذكَرَت الصَّلاةَ وهي عِمادُ التقوى، والتي تنهَى عن الفحشاءِ والمنكَرِ؛ لِما فيها مِن تكرُّرِ استحضارِ الوقوفِ بينَ يديِ الله ومناجاتِه، وذكَرَت الخشوعَ وهو تمامُ الطاعةِ؛ لأنَّ المرءَ قد يعمَلُ الطاعةَ للخروجِ مِن عهدةِ التكليفِ غيرَ مُستحضِرٍ خُشوعًا لربِّه الذي كلَّفه بالأعمالِ الصالحةِ، فإذا تخلَّق المؤمِنُ بالخشوعِ اشتَدَّت مراقبتُه رَبَّه، فامتثل واجتنَبَ، فهذان مِن أعمالِ القلبِ.

وذكَرَت الإعراضَ عن اللَّغوِ، واللَّغوُ مِن سوءِ الخُلقِ المتعلِّقِ باللسانِ الذي يعسُرُ إمساكُه، فإذا تخلَّق المؤمِنُ بالإعراضِ عن اللَّغوِ فقد سهُلَ عليه ما هو دونَ ذلك، وفي الإعراضِ عن اللَّغوِ خُلقٌ للسَّمعِ أيضًا. وذكَرَت إعطاءَ الصَّدَقاتِ، وفي ذلك مقاومةُ داءِ الشُّحِّ، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]. وذكَرَت حِفظَ الفَرجِ، وفي ذلك خُلقُ مُقاومةِ اطِّرادِ الشَّهوةِ الغريزيَّةِ، بتعديلِها وضبطِها، والترفُّعِ بها عن حضيضِ مُشابهةِ البهائمِ. وذكَرَت أداءَ الأمانةِ، وهو مظهَرٌ للإنصافِ، وإعطاءِ ذي الحقِّ حَقَّه، ومغالبةِ شَهوةِ النفْسِ لأمتعةِ الدُّنيا. وذكَرَت الوفاءَ بالعهدِ، وهو مظهرٌ لخُلقِ العدلِ في المعاملةِ، والإنصافِ من النفْسِ بأن يَبذُلَ لأخيه ما يحِبُّ لنفسِه من الوفاءِ. وذكَرَت المحافظةَ على الصَّلواتِ، وهو التخلُّقُ بالعنايةِ بالوقوفِ عند الحدودِ والمواقيتِ. وأنت إذا تأمَّلتَ هذه الخِصالَ وجدْتَها ترجِعُ إلى حِفظِ ما مِن شأنِ النُّفوسِ إهمالُه؛ مثلُ: الصَّلاةِ، والخُشوعِ، وتَركِ اللَّغوِ، وحِفظِ الفرجِ، وحفظِ العهدِ؛ وإلى بَذْلِ ما من شأنِ النفوسِ إمساكُه؛ مثلُ: الصَّدقةِ، وأداءِ الأمانةِ. فكان في مجموعِ ذلك إعمالُ ملَكتَيِ الفعلِ والتَّركِ في المهِمَّاتِ، وهما منبَعُ الأخلاقِ الفاضلةِ لمن تتبَّعَها[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- جعَلَ اللهُ تعالى فاتحةَ السُّورةِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وأَورَدَ في خاتمتِها: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾؛ فشَتَّانَ ما بيْنَ الفاتحةِ والخاتمةِ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف حكَمَ على الموصوفينَ بالصِّفاتِ المذكورةِ بالفلاحِ، مع أنَّه تعالى ما تمَّم ذِكرَ العباداتِ الواجبةِ كالصَّومِ والحَجِّ والطَّهارةِ؟

الجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ يأتي على جميعِ الواجِباتِ مِن الأفعالِ والتُّروكِ، والطَّهاراتُ دخَلتْ في جملةِ المحافظةِ على الصَّلواتِ الخَمسِ؛ لكَونِها مِن شرائِطِها[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ...﴾ الآياتِ، فيها مِن شُعَبِ الإيمانِ: الخُشوعُ في الصَّلاةِ، واجتِنابُ اللَّغوِ، وأداءُ الزَّكاةِ، وحِفظُ الفَرجِ إلَّا على الأزواجِ والسَّراريِّ، وحِفظُ الأماناتِ والعُهودِ، والمحافظةُ على الصَّلواتِ لأوقاتِها[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ استُدِلَّ به على وجوبِ الخشوعِ في الصلاةِ؛ فقد أخبرَ سُبحانَه وتعالى أنَّ هؤلاء الذين ذُكِرتْ خِصالُهم هم الذين يَرِثونَ فِردَوسَ الجنَّةِ، وذلك يقتضي أنَّه لا يَرِثُها غيرُهم، وقد دَلَّ هذا على وجوبِ هذه الخصالِ؛ إذ لو كان فيها ما هو مُستحَبٌّ لكانت جنَّةُ الفردوسِ تُورَثُ بدونِها؛ لأنَّ الجنَّةَ تُنالُ بِفعلِ الواجباتِ دونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٦).

المُستحبَّاتِ؛ ولهذا لم يُذكَرْ في هذه الخِصالِ إلَّا ما هو واجِبٌ[(١)].

٥- في قولِه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قَولِه سبحانَه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُرجِئةِ واضحةٌ؛ ألَا تراه كيف نَعَتَ المؤمِنينَ بنُعوتِ العَمَلِ، ولم يجعَلْهم وارِثي جنَّتِه وفِردَوسِه إلَّا بها، فكيف يكونُ مُستَكمِلَ الإيمانِ مَن عَرِيَ مِن هذه النُّعوتِ المذكورةِ في وصفِ المؤمنينَ[(٢)]؟!

٦- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ استُدِلَّ به على تحريمِ نِكاحِ المُتعةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى إنَّما أباح في كتابِه الأزواجَ ومِلْكَ اليَمينِ، وحَرَّمَ ما زاد على ذلك، والمُستَمتَعُ بها بعدَ التَّحريمِ ليست زَوجةً ولا مِلْكَ يمينٍ؛ فتكونُ حَرامًا بنَصِّ القُرآنِ؛ أمَّا كَونُها ليست مملوكةً فظاهِرٌ، وأمَّا كونُها ليست زَوجةً فلانتِفاءِ لوازِمِ النِّكاحِ فيها؛ فإنَّ مِن لوازِمِ النِّكاحِ كونَه سبَبًا للتَّوارُثِ، وثبوتَ عِدَّةِ الوفاةِ فيه، والطَّلاقَ الثَّلاثَ، وتَنصيفَ المهرِ بالطَّلاقِ قبلَ الدُّخولِ، وغيرَ ذلك مِن اللَّوازِمِ[(٣)].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ استُدِلَّ به على تحريمِ نِكاحِ المحَلِّلِ؛ فإنَّ مَن تزوَّجها لذلك ليسَتْ زوجةً حقيقةً مقصودًا بقاؤُها، ولا مملوكةً[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ١٩١). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٩٢)، ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّه يُشترَطُ في حِلِّ المملوكةِ أن تكونَ كُلُّها في مِلكِه، فلو كان له بَعضُها لم تحِلَّ؛ لأنَّها ليست ممَّا ملكت يمينُه، بل هي مِلكٌ له ولغيرِه(١).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ فيه سؤالٌ: هلَّا قيل: (مَن مَلَكَتْ)، فالمملوكاتُ مِن جملةِ العقلاءِ، والعقلاءُ يُعبَّرُ عنهم بـ(مَن) لا بـ(ما)؟

الجوابُ من وجهين:

الأول: أنَّ التعبيرَ عن الإماءِ باسمِ (ما) الموصولةِ الغالِبِ استعمالُها لغيرِ العاقلِ- جرى على خلافِ الغالبِ، وهو استعمالٌ كثيرٌ لا يُحتاجُ معه إلى تأويلٍ(٢)، وإطلاقُ (ما) مُرادًا بها (مَنْ) كثيرٌ في القرآنِ، كقولِه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] أي: مَنْ طابَ لكم(٣).

الثاني: أنَّ الإماءَ لَمَّا كُنَّ يَتَّصِفْنَ ببعضِ صفاتِ غيرِ العقلاءِ، كبيعِهنَّ وشرائِهنَّ ونحوِ ذلك، كان ذلك مُسوِّغًا لإطلاقِ لفظةِ (ما) عليهنَّ(٤). وقيل غيرُ ذلك(٥).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ظاهرُ عمومِه يقتضي جوازَ أنْ يستمتعَ الرجلُ بزوجتِه فيما شاء، ما عدا الدُّبُرَ؛ فإنَّه لا يجوزُ للرجُلِ أنْ يجامِعَ زوجتَه فيه(٦).

١١- في عمومِ قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٥١).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٨).
(٦) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٣٢٥).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ دليلٌ على تحريمِ الاستمناءِ، الذي يُسمَّى: (العادةَ السِّرِّيَّةَ)؛ لأنَّه عمليةٌ في غيرِ الزوجاتِ والمملوكاتِ[1]، فظاهرُ الآيةِ يدلُّ على أنَّه حرامٌ ظهورًا بيِّنًا، ولم يَرِدْ في كتابِ الله ولا في سُنةِ رسولِ اللَّهِ شيءٌ يعارضُ ظاهرَ هذه الآيةِ، فالله تعالى لم يَسْتَثْنِ إلا نوعينِ، وهو قولُه: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، ثمَّ جاء بحكمٍ عامٍّ شاملٍ، وهو قولُه: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾، ولا شَكَّ أنَّ الناكحَ يدَه مِمَّنِ ابتغى وراءَ ذلك، فهو داخلٌ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[2].

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فيه دليلٌ على حرمةِ إتيانِ البهيمةِ، وأنَّه معصيةٌ، فأيُّ شيءٍ وراءَ الأزواجِ ومِلْكِ اليمينِ يُعتبرُ عُدوانًا وظُلمًا[3].

١٣- في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ التعرِّيَ عند الجماعِ لا حَرَجَ فيه؛ لأنَّه إذا كان لا مَلامةَ في عدمِ سَتْرِ الفرجِ عندَ الجماعِ، فما سِواه مِن بابِ أَولى[4].

١٤- قَال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٦٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٤/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٣٢٤).

﴿هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾، لا يخفَى ما في افتتاحِ هذه الأوصافِ واختتامِها بالصلاةِ مِن التعظيمِ لها، كما قال صَّلى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((واعْلَموا أنَّ خيرَ أعمالِكُمُ الصلاةُ))[١].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لِمَ سُمِّيَ ما يجدونَه مِن الثَّوابِ والجنَّةِ بالميراثِ، مع أنَّه سبحانَه حكمَ بأنَّ الجنَّةَ حَقُّهم في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]؟

الجواب من وجوهٍ:

الأولُ: ما ورد عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢]، وهو أبينُ على ما يقالُ فيه، وهو: أنَّه لا مُكلَّفَ إلَّا أعدَّ اللهُ له في النَّارِ ما يستحِقُّه إن عصى، وفي الجنَّةِ ما يستحِقُّه إن أطاع، وجعل لذلك علامةً، فإذا آمَنَ منهم البعضُ ولم يؤمِنِ البعضُ، صار مَنزِلُ مَن لم يؤمِنْ كالمنقولِ إلى المؤمنينَ؛ فسُمِّيَ ذلك ميراثًا لهذا الوجهِ[٣].

الثاني: أنَّ انتقالَ الجنَّةِ إليهم بدونِ مُحاسَبةٍ ومعرفةٍ بمقاديرِه يشبِهُ انتقالَ المالِ إلى الوارثِ.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٠٩).
والحديث رواه ابن ماجه (٢٧٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٦) (٢٢٤٣٢)، والدارمي (٦٥٥)، وابن حبان (٣/ ٣١١) (١٠٣٧).
صحَّح إسنادَه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (١٤٩)، وقال: (له شواهدُ)، وجوَّد إسناده ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (١/ ١٤٣)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٧٧).
(٢) يُنظرُ حديثُ أبي هريرةَ المتقدم (ص: ٤٣٠).
(٣) ولم يُصوِّب الشنقيطي حملَ الآيةِ على هذا الحديثِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٢).

الثالثُ: أنَّ الجنَّةَ كانت مسكَنَ أبينا آدمَ عليه السَّلامُ، فإذا انتقلَت إلى أولادِه صار ذلك شبيهًا بالميراثِ(١).

الرابعُ: أنَّه ذكَر لفظَ الوراثةِ؛ لكونِها أقوى الأسبابِ في التمليكِ والاستحقاقِ، مِن حيثُ إنَّها لا تُعقَبُ بفسخٍ، ولا استرجاعٍ، ولا تبطلُ بردٍّ وإسقاطٍ(٢).

الخامسُ: أنَّ الأتقياءَ يَلْقَوْنَ ربَّهم يومَ القيامةِ قد انقضَتْ أعمالُهم، وثمرَتُها باقيةٌ وهي الجنَّةُ، فإذا أدخَلَهم الجنَّةَ فقَدْ أورَثَهم مِنْ تَقْواهم كما يورثُ الوارِثُ المالَ مِنَ المُتَوَفَّى(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ افتِتاحٌ بَديعٌ؛ لأنَّه مِن جوامِعِ الكَلِمِ؛ فإنَّ الفلاحَ غايةُ كلِّ ساعٍ إلى عمَلِه؛ فالإخبارُ بفَلاحِ المُؤمِنينَ دونَ ذِكْرِ مُتعلَّقٍ بفِعْلِ الفَلاحِ: يَقْتضي في المَقامِ الخِطابيِّ تَعميمَ ما به الفَلاحُ المطلوبُ، فكأنَّه قِيلَ: قد أفلَحَ المُؤمِنون في كلِّ ما رَغِبوا فيه. وتَضمَّنَ بِشارةً بِرضَا اللهِ عنهم، ووَعدًا بأنَّ اللهَ مُكمِّلٌ لهم ما يَتطلَّبونَه مِن خيرٍ(٤)، فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿أَفۡلَحَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم أفْلَحوا فَلاحًا كامِلًا(٥).

- وجاءتْ كَلِمةُ ﴿قَدۡ﴾ هاهنا؛ لإفادةِ ثُبوتِ ما كان مُتوقَّعَ الثُّبوتِ مِن قَبْلُ. والإخبارُ به على صِيغَةِ الماضي ﴿أَفۡلَحَ﴾ إنْ أُرِيدَ بالإفلاحِ حَقيقةُ الدُّخولِ في الفَلاحِ الَّذي لا يَتحقَّقُ إلَّا في الآخرةِ؛ فالإخبارُ به على صيغةِ الماضي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((التفسير المظهري)) (٦/ ١٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للدَّلالةِ على تَحقُّقِه لا مَحالةَ بتَنزيلِه مَنزِلةَ الثَّابِتِ. وإنْ أُرِيدَ كونُهم بحالٍ تَسْتتبِعُه الْبَتَّةَ؛ فصيغةُ الماضي في مَحلِّها[(١)]. وقيل: وَجْهُ تَوكيدِ هذا الخبرِ هنا بحَرفِ (قد) -الذي إذا دخَلَ على الفِعلِ الماضي أفادَ التَّحقيقَ، أي: التوكيدَ-: أنَّ المُؤمِنين كانوا مُؤمِّلينَ مِثلَ هذه البِشارةِ فيما سبَقَ لهم مِن رَجاءِ فَلاحِهم؛ فكانوا لا يَعرِفون تَحقُّقَ أنَّهم أَتَوا بما أرْضى رَبَّهم، فلمَّا أُخْبِروا بأنَّ ما تَرجَّوه قد حصَلَ، حُقِّقَ لهم بحَرفِ التَّحقيقِ، وبفِعْلِ المُضِيِّ المُستعمَلِ في معنى التَّحقُّقِ؛ فالإتيانُ بحَرفِ التَّحقيقِ لتَنزيلِ تَرقُّبِهم إيَّاهُ -لفَرطِ الرَّغبةِ والانتظارِ- مَنزِلةَ الشَّكِّ في حُصولِه[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ نِيطَ الفَلاحُ بوَصفِ الإيمانِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه السَّببُ الأعظمُ في الفَلاحِ، فإنَّ الإيمانَ وَصفٌ جامِعٌ للكَمالِ؛ لتَفرُّعِ جَميعِ الكَمالاتِ عليه[(٣)].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ﴾ أُضِيفَتِ الصَّلاةُ إليهم؛ لأنَّ الصَّلاةَ دائرةٌ بين المُصلِّي والمُصلَّى له؛ فالمُصلِّي هو المُنتفِعُ بها وَحْدَه، وهي عُدَّتُه وذَخيرَتُه، فهي صَلاتُه، وأمَّا المُصلَّى له فغَنِيٌّ مُتعالٍ عن الحاجةِ إليها، والانتفاعِ بها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٤١، ٥٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٧).

- وإجْراءُ الصِّفاتِ على ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ بالتَّعريفِ بطَريقِ الموصولِ، وبتكريره؛ للإيماءِ إلى وَجْهِ فَلاحِهم وعِلَّتِه، أي: أنَّ كلَّ خَصلةٍ مِن هاتِهِ الخِصالِ هي مِن أسبابِ فَلاحِهم؛ ولمَّا كانت كلُّ خَصلةٍ مِن هذه الخِصالِ تُنبِئُ عن رُسوخِ الإيمانِ مِن صاحِبِها، اعْتُبِرَتْ لذلك سَببًا للفَلاحِ، على أنَّ ذِكْرَ عِدَّةِ أشياءَ لا يَقْتَضي الاقتصارَ عليها في الغرضِ المذكورِ[١].

- وتَقييدُ الخُشوعِ بكَونِه في الصَّلاةِ؛ لقَصْدِ الجَمْعِ بين وَصْفِهم بأداءِ الصَّلاةِ وبالخُشوعِ. وذُكِرَ مع الصَّلاةِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ أَوْلى الحالاتِ بإثارةِ الخُشوعِ وقُوَّتِه؛ ولذلك قُدِّمَت، ولأنَّه بالصَّلاةِ أعلَقُ؛ فإنَّ الصَّلاةَ خُشوعٌ للهِ تعالى وخُضوعٌ له، ولأنَّ الخُشوعَ لمَّا كان للهِ تعالى كان أَوْلى الأحوالِ به حالَ الصَّلاةِ؛ لأنَّ المُصلِّيَ يُناجِي ربَّهُ، فيُشعِرُ نَفْسَه أنَّه بين يدَيْ رَبِّه، فيَخشَعُ له؛ ولهذا الاعتبارِ قُدِّمَ هذا الوَصْفُ على بَقيَّةِ أوصافِ المُؤمِنينَ، وجُعِلَ مُواليًا للإيمانِ؛ فقد حصَلَ الثَّناءُ عليهم بوَصفينِ[٢].

- وأيضًا قُدِّمَ ﴿فِي صَلَاتِهِمۡ﴾ على ﴿خَٰشِعُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالصَّلاةِ، وللإيذانِ بأنَّ لهم تَعلُّقًا شَديدًا بالصَّلاةِ؛ لأنَّ شأْنَ الإضافةِ أنْ تُفِيدَ شِدَّةَ الاتِّصالِ؛ لأنَّها على مَعْنى لامِ الاختصاصِ، فلو قيل: (الَّذين إذا صَلَّوا خَشَعُوا) فات هذا المعنى. وأيضًا لم يتأَتَّ وَصْفُهم بكَونِهم خاشعينَ إلَّا بُواسطةِ كَلمةٍ أُخرى، نَحْو: (كانوا خاشِعينَ)، وإلَّا يَفُتْ ما تدُلُّ عليه الجُملةُ الاسميَّةُ مِن ثَباتِ الخُشوعِ لهم ودَوامِه، أي: كونِ الخُشوعِ خُلُقًا لهم، بخِلافِ نَحوِ: (الَّذين خَشَعوا)؛ فحصَلَ الإيجازُ، ولم يَفُتِ الإعجازُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٩، ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ فيه إعادةُ اسمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ دونَ اكتفاءٍ بعَطْفِ صِلَةٍ على صِلَةٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ كلَّ صِفَةٍ مِن الصِّفاتِ مُوجِبةٌ للفَلاحِ، فلا يُتوهَّمُ أنَّهم لا يُفْلِحون حتَّى يَجْمَعوا بين مَضامينِ الصَّلاةِ كلِّها، ولِمَا في الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ مِن زِيادةِ تَقريرٍ للخَبرِ في ذِهْنِ السَّامعِ[١].

- والتَّعبيرُ بـ ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: (لا يَلْهُون)، مِن وُجوهٍ؛ وهي: جَعْلُ الجُملةِ اسميَّةً، وبِناءُ الحُكْمِ على الضَّميرِ، والتَّعبيرُ عنه بالاسمِ، وتَقديمُ الصِّلةِ عليه، وإقامةُ الإعراضِ مَقامَ التَّركِ؛ لِيَدُلَّ على تَباعُدِهم عنه رأْسًا؛ مُباشرةً وتَسبُّبًا، ومَيلًا وحُضورًا[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وَصَفَهم بذلك بعْدَ وَصْفِهم بالخُشوعِ في الصَّلاةِ؛ لِيدُلَّ على أنَّهم بَلَغوا الغايةَ في القِيامِ على الطَّاعاتِ البَدنيَّةِ والماليَّةِ، والتَّجنُّبِ عن المُحرَّماتِ، وسائرِ ما تُوجِبُ المُروءةُ اجتِنابَه[٣]. أو لكَثرةِ التَّآخي بينَ الصلاةِ والزكاةِ في القُرآنِ، وإنَّما فُصِلَ بينهما هنا بالإعراضِ عن اللَّغوِ؛ لأنَّ اللَّغوَ ممَّا يَخطُرُ بالبالِ عندَ ذِكْرِ الصَّلاةِ بجامِعِ الضِّدِّيَّةِ[٤].

- وعبَّرَ بقولِه: ﴿فَٰعِلُونَ﴾ ولم يقُلْ: (مُؤدُّون)؛ لأنَّه لمَّا كانتِ الزَّكاةُ تُوجِبُ زَكاءَ المالِ، كان لَفْظُ (الفِعْلِ) أليَقَ به مِن لَفْظِ (الأداءِ)؛ كأنَّه قِيلَ: لأجْلِ زَكاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).

المالِ يَفْعلون ما يَفْعلون، فالمُؤدَّى يَصيرُ زَكاةً بفِعْلِ المُزكِّي. وفي ﴿فَـٰعِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى المُداومَةِ ما ليس في الأداءِ؛ تقولُ: هذا فِعْلُه، أي: شأنُه ودأْبُه وعادَتُه[(١)]. وقيل: لا تُسمَّى العينُ المُخرَجةُ زَكاةً، فكان التَّعبيرُ بالفِعْلِ عن إخراجِه أوْلى منه بالأداءِ[(٢)]. وقيل: إنَّما أُوثِرَ هنا الاسمُ الأعَمُّ -وهو فاعِلونَ-؛ لأنَّ مادَّةَ (ف ع ل) مُشْتهَرةٌ في إسداءِ المعروفِ، واشْتُقَّ منها الفَعَالُ[(٣)].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ ذُكِرَ حِفْظُ الفَرجِ هنا عَطْفًا على الإعراضِ عن اللَّغوِ؛ لأنَّ مِن الإعراضِ عن اللَّغوِ تَرْكَ اللَّغوِ بالأحرى؛ لأنَّ زَلَّةَ الصَّالحِ قد تأْتيهِ مِن انفلاتِ أحَدِ هذينِ العُضوينِ (اللسانِ والفرجِ) مِن جِهةِ ما أُودِعَ في الجِبلَّةِ مِن شَهوةِ استعمالِهما[(٤)]. أو أُفرِدَ ذلك بالذِّكرِ بعْدَ تَعميمِ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾؛ لأنَّ المُباشَرةَ أشْهَى الملاهي إلى النَّفسِ، وأعظَمُها خَطرًا[(٥)].

- قولُه: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ تَعليلٌ لِمَا يُفيدُه الاستثناءُ مِن عدَمِ حِفْظِ فُروجِهم مِنهنَّ[(٦)]؛ فالفاءُ في ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾ تَفريعٌ للتَّصريحِ على مَفهومِ الاستِثناءِ الَّذي هو في قُوَّةِ الشَّرطِ، فأشبَهَ التَّفريعُ عليه جَوابَ الشَّرطِ، فقُرِنَ بالفاءِ؛ تَحقيقًا للاشتراطِ. وزِيدَ ذلك التَّحذيرُ تَقريرًا بأنْ فُرِّعَ عليه ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾؛ لأنَّ داعيةَ غَلبةِ شَهوةِ الفَرْجِ على حِفظِ صاحِبِه

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٢، ٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٥٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٤).

إيَّاهُ غَريزةٌ طبيعيَّةٌ، يُخْشَى أنْ تَتغلَّبَ على حافِظِها[١].

- وأُتِيَ لهم باسمِ الإشارةِ (أولئك) في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾؛ لزِيادةِ تَمييزِهم بهذه الخَصلةِ الذَّميمةِ؛ ليَكونَ وَصْفُهم بالعُدوانِ مَشهورًا مُقرَّرًا. وتَوسيطُ ضَميرِ الفصلِ (هُم)؛ لتَقويةِ الحُكْمِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ فيه جَمْعُ الأماناتِ باعتبارِ تَعدُّدِ أنواعِها، وتَعدُّدِ القائمينَ بالحِفْظِ؛ تَنصيصًا على العُمومِ[٣]. والجَمْعُ بين رَعْيِ الأماناتِ ورَعْيِ العهدِ؛ لأنَّ العَهدَ كالأمانةِ؛ لأنَّ الَّذي عاهَدَك قدِ ائتَمَنَك على الوفاءِ بما يَقْتَضيه ذلك العَهدُ. وذِكْرُهما عقِبَ أداءِ الزَّكاةِ؛ لأنَّ الزَّكاةَ أمانةُ اللهِ عندَ الَّذين أنعَمَ عليهم بالمالِ؛ ولذلك سُمِّيَت: حَقَّ اللهِ، وحَقَّ المالِ، وحَقَّ المِسكينِ[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ فيه تَكرارُ ذِكْرِ الصَّلاةِ أوَّلًا وآخِرًا؛ لأنَّهما ذِكْرانِ مُختلفانِ وليس بتَكريرٍ؛ فالخُشوعُ في الصَّلاةِ غيرُ المُحافَظةِ عليها، حيث وُصِفُوا أوَّلًا بالخُشوعِ في صَلاتِهم، وآخِرًا بالمُحافَظةِ عليها؛ وذلك ألَّا يَسْهُوا عنها، ويُؤدُّوها في أوقاتِها، ويُقِيموا أركانَها، ويُوكِلُوا نُفوسَهم بالاهتمامِ بها، وبما يَنْبَغي أنْ تَتِمَّ به أوصافُها. وأيضًا وُحِّدَتْ أوَّلًا؛ لِيُفادَ الخُشوعُ في جِنْسِ الصَّلاةِ أيِّ صَلاةٍ كانت، وجُمِعَت آخِرًا؛ لِتُفادَ المُحافظةُ على أعدادِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨).

- وأيضًا حصَلَ بذلك تكريرُ ذِكْرِ الصَّلاةِ؛ تَنويهًا بها، ورَدًّا للعجُزِ على الصَّدرِ؛ تَحْسينًا للكلامِ الَّذي ذُكِرَت فيه تلك الصِّفاتُ؛ لِتَزدادَ النفْسُ قَبولًا لِسَماعِها ووَعْيِها، فتَتأسَّى بها[١].

- والمُحافَظةُ في قولِه: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ مُستعمَلةٌ في المُبالَغةِ في الحِفْظِ، وأتَى بلَفْظِ الفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾، ولم يقُلْ: (مُحافِظون)؛ لِمَا في الصَّلاةِ مِنَ التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ، وهو السِّرُّ في جَمْعِها. وفصَلَ المحافظةَ على الصلاةِ عن الخشوعِ فيها، المذكورِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]؛ للإيذانِ بأنَّ كلًّا منهما فَضيلةٌ مُستقِلَّةٌ على حِيالِها، ولو قُرِنَا في الذِّكْرِ لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ مَجموعَ الخُشوعِ والمُحافظةِ فَضيلةٌ واحدةٌ، وفي تَصديرِ الأوصافِ وخَتْمِها بأمْرِ الصَّلاةِ: تَعظيمٌ لِشأْنِها[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِيُفيدَ أنَّ جَدارتَهم بما سيُذْكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ حَصَلَت مِن اتِّصافِهم بتلك الصِّفاتِ المُتقدِّمةِ[٣]، وإيثارُه على الإضمارِ؛ للإشعارِ بامتيازِهم بها عن غَيرِهم، ونُزولِهم مَنزِلةَ المُشارِ إليه حِسًّا، وما فيه مِن مَعنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بعُلُوِّ طَبقتِهم، وبُعْدِ دَرجتِهم في الفضلِ والشَّرفِ[٤].

- وتَوسيطُ ضَميرِ الفصلِ (هُم)؛ لتَقويةِ الخَبرِ عنهم بذلك. أو أفادَ تَعريفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥).

الخبرِ وتَوسيطُ ضَميرِ الفصلِ الحَصْرَ[١].

- وحُذِفَ مَعمولُ ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾؛ لِيَحصُلَ إبهامٌ وإجمالٌ، فيَترقَّبَ السَّامِعُ بَيانَه؛ فبُيِّنَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ قَصْدًا لتَفخيمِ هذه الوِراثةِ وتأْكيدِها[٢]. والإتيانُ في البَيانِ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الَّذي شأْنُه أنْ يَكونَ مَعلومًا للسَّامعِ بمَضمونِ صِلَتِه؛ إشارة إلى أنَّ تَعريفَ ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ تَعريفُ العَهْدِ، كأنَّه قِيلَ: هم أصحابُ هذا الوَصفِ المَعْروفونَ به[٣].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠).

الآيات (١٢-١٦)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُلَالَةٍ﴾: أي: ما يُسَلُّ مِن كُلِّ تُربةٍ، والسُّلالةُ: فُعالةٌ مِن السَّلِّ، وهو استخراجُ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، ومنه قولُهم: سلَلْتُ الشَّعرَ من العَجينِ فانسَلَّ[١].

﴿نُطْفَةً﴾: النُّطفةُ: هي المنيُّ[٢]، وقيل: الماءُ الصَّافي، وقيل: الماءُ القليلُ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[٣].

﴿قَرَارٍ مَكِينٍ﴾: أي: مُستَقَرٍّ حصينٍ، وهو الرَّحِمُ، وأصلُ (قرر): يدلُّ على تمكُّنٍ، والمكينُ: المُتمكِّنُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) وقال الشنقيطي: (النُّطْفة مختلِطةٌ مِن ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدليلَ على ذلك، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾[الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِنْ ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

﴿عَلَقَةً﴾: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

﴿مُضْغَةً﴾: المُضْغةُ: القِطعةُ الصَّغيرةُ مِن اللَّحمِ قَدْرَ ما يُمضَغُ، وأصلُها: مِن المَضْغِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى أنه خلَقَ آدَمَ مِن طينٍ مأخوذٍ مِن جَميعِ الأرضِ، ثمَّ جعل سبحانه وتعالى ابنَ آدم نطفةً تَستَقِرُّ محفوظةً في رحمِ المرأةِ، ثمَّ صَيَّرَ اللهُ تعالى النُّطفةَ قِطعةَ دَمٍ، فجعَلها قِطعةَ لَحمٍ صغيرةٍ، فجعَلها عِظامًا مختلفةً، وشَكَّلها ذاتَ رأسٍ ويدينِ ورِجلَينِ، ثم ألبس تلك العِظامَ لَحمًا، ثمَّ أنشَأه خَلقًا آخَرَ بأن نفخَ فيه الرُّوحَ، فتبارَكَ اللهُ الذي أحسَنَ وأتقنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَه!

ثمَّ يُذكِّرُ الله البشَرَ أنَّهم بعدَ ذلك سيموتونَ، ثمَّ بعدَ موتِهم سيُبْعثون يومَ القيامةِ مِن قُبورِهم؛ للحِسابِ والجَزاءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ سبحانه بالعباداتِ في الآيةِ المتقدِّمةِ، والاشتغالُ بعبادةِ الله لا يَصِحُّ إلَّا بعد معرفةِ الإلهِ الخالقِ؛ لا جرَمَ عقَّبَها بذِكرِ ما يدُلُّ على وجودِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

واتِّصافِه بصفاتِ الجلالِ والوحدانيَّةِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكر اللهُ تعالى أنَّ المتَّصفينَ بتلك الأوصافِ الجليلةِ هم يَرِثونَ الفِردَوسَ، فتضَمَّنَ ذلك المعادَ الأُخرويَّ- ذكَرَ النشأةَ الأولى؛ ليستَدِلَّ بها على صِحَّةِ النشأةِ الآخرةِ[٢].

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾.

أي: ولقد خلَق اللهُ تعالَى آدَمَ عليه السلامُ مِن طينٍ أُخِذ مِن جميعِ الأرضِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالإنسانِ: آدمُ: مقاتلُ بنُ سليمان، ويحيى بن سلام، والزجَّاج، والسمرقندي، والقصَّاب، وابن أبي زمنين، وابن كثير، وابن القيم، والعُليمي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٩٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٥)، ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٣)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٢).

قال ابن كثير: (وقال قتادَةُ: استُلَّ آدمُ مِنَ الطِّينِ. وهذا أظهرُ في المعنَى، وأقربُ إلى السِّياقِ، فإنَّ آدَمَ عليه السَّلامُ خُلِق مِن طينٍ لازِبٍ، وهو الصَّلصالُ مِنَ الحمَأِ المسنونِ، وذلك مخلوقٌ مِنَ التُّرابِ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٥).

وقال ابنُ عاشور في معنى السُّلالةِ بِناءً على هذا القولِ: (السُّلالةُ: الطِّينَةُ الخاصَّةُ الَّتي كوَّنَ اللَّهُ منها آدمَ، وهي الصَّلْصالُ الَّذي مَيَّزَه مِنَ الطِّينِ في مبدأِ الخليقةِ، فتلك الطِّينةُ مسلولةٌ سَلًّا خاصًّا مِنَ الطِّينِ ليتكَوَّنَ منها حَيٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣). =

كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تعالى خلَقَ آدَمَ مِن قَبضَةٍ قَبَضَها مِن جَميعِ الأرضِ، فجاء

= وقيل: المرادُ بالإنسانِ: ابنُ آدَمَ. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والثعلبي، والسمعاني، والواحدي، والبغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٤).

قال ابنُ الجوزي: (﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ فيه قولان: أحدُهما: أنَّه آدمُ عليه السَّلامُ، وإنَّما قيل: ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ﴾؛ لأنَّه استُلَّ مِن كُلِّ الأرضِ. هذا مذهبُ سلمانَ الفارسيِّ، وابنِ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقتادةَ. والثاني: أنَّه ابنُ آدم، والسُّلالةُ: النُّطفةُ استُلَّت من الطينِ، والطينُ: آدمُ عليه السلامُ. قاله أبو صالحٍ عن ابن عباسٍ. قال الزجَّاج: والسُّلالةُ: فُعالةٌ، وهي القليلُ مما يَنسَلُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٧).

وقال السمعاني: (وقولُه: ﴿مِّن طِينٍ﴾ الطينُ هاهُنا هو آدمُ، وعليه الأكثرونَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٦).

وقال ابن جُزي: (ويحتملُ عندي أن يرادَ بالإنسانِ الجنسُ الذي يعُمُّ آدمَ وذريتَه، فأجمَلَ ذِكرَ الإنسانِ أوَّلًا، ثم فصَّلَه بعد ذلك إلى الخِلقةِ المختصَّةِ بآدمَ: وهي من طينٍ، وإلى الخِلقةِ المختصَّةِ بذريَّتِه، وهي النطفةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩).

وقولُه: ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (مِن) الأولى ابتدائيَّةٌ متعلِّقةٌ بالخَلقِ، و(مِنْ) الثانية بيانيَّةٌ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقَعَ صفةً لسُلالة، أي: خلقناهُ مِن سُلالةٍ كائنةٍ مِن طينٍ. ويجوزُ أنْ تتعلَّق بسُلالة على أنَّها بمعنى مسلولةٍ؛ فهي ابتدائيَّةٌ كالأُولى. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٠، ٥٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٦).

بنو آدَمَ على قَدْرِ الأرضِ[١]، فجاء منهم الأحمَرُ والأبيَضُ، والأسْوَدُ وبيْنَ ذلك، والسَّهلُ والحَزْنُ[٢]، والخَبيثُ والطَّيِّبُ))[٣].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ثمَّ جعَلْنا ابنَ آدمَ[٤] نُطفةً[٥]، ....

(١) على قَدْرِ الأرضِ، أي: مَبْلَغِها من الألوانِ والطِّباعِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١٧٦).

(٢) والسَّهلُ، أي: اللَّيِّنُ. والحَزْنُ، أي: الغَليظُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)، وأحمد (١٩٦٤٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيح)، وصحَّحه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٧٤)، وابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (ص١٢٦)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٦٩٣).

(٤) على القولِ بأنَّ المرادَ بالإنسانِ آدمُ: فالمرادُ بقولِه: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بنو آدمَ، (ويكونُ الضميرُ يعودُ على غيرِ مَن ذُكِرَ أوَّلًا، ولكن يفسِّره سياقُ الكلامِ، وإن أراد بالإنسانِ ابنَ آدم فيستقيمُ عودُ الضمير عليه، ويكون معنى خَلْقِه مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ: أي: خلْقِ أصلِه، وهو أبوه آدمُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩).

وقال القصَّاب: (﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ الهاء: غيرُ راجعةٍ إلى آدمَ، بل راجعةٌ على ولدِه؛ لأنَّهم شاركوه باسم الإنسيَّةِ، وهي عمومٌ منهم، إلَّا عيسى صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّه غيرُ مجعولٍ نطفةً، بل مخلوقٌ بقدرةِ الربِّ في بطن أمِّه، وحواءُ خارجةٌ مِن الطينِ والنُّطفةِ معًا؛ لأنَّ خَلْقَها بعدَ خلقِ آدمَ، وبعدَ نفْخِ الرُّوحِ فيه مِن ضِلَعٍ مِن أضلاعِه، والضِّلَعُ حينئذٍ عظمٌ). ((النكت الدالة على البيان)) (٢/ ٣٤٥).

(٥) قال الشنقيطي: (خُلِقَ الإنسانُ مِن نطفةٍ، وهي مَنيُّ الرجلِ ومَنيُّ المرأةِ... وقال صاحبُ «الدر المنثور» بعد ذكرِ بعضِ الرواياتِ في تفسير الأمشاجِ بالأخلاطِ مِن ماء الرجلِ وماء المرأةِ: وأخرج الطستي عن ابنِ عباسٍ: أنَّ نافعَ بنَ الأزرق، قال: أخبِرْني عن قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ قال: اختلاطُ ماءِ الرجلِ وماء المرأةِ إذا وقع في الرحمِ... إذا عرَفتَ معنى ذلك، فاعلمْ أنَّه تعالى بيَّنَ أنَّ ذلك الماءَ الذي هو النطفةُ: منه ما هو خارجٌ مِن الصُّلبِ، وهو ماءُ الرجلِ، ومنه ما هو خارجٌ مِن الترائبِ، وهو: ماءُ المرأةِ، وذلك في قولِه جلَّ وعلا: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥ - ٧]؛ لأنَّ المرادَ بالصُّلبِ: صُلبُ الرجلِ، وهو ظهرُه، والمرادَ بالترائبِ: ترائبُ المرأةِ، وهي موضِعُ القِلادةِ منها... فقولُه هنا: ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأمشاجَ هي الأخلاطُ المذكورةُ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

مُستَقِرَّةً محفوظةً في رَحِمِ المرأةِ(١).

كما قال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٠- ٢٢].

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾.

أي: ثمَّ صيَّرْنا النُّطْفةَ قِطعةَ دَمٍ تعْلَقُ في الرَّحِمِ(٢).

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾.

أي: فجعَلْنا قِطعةَ الدَّمِ قِطعةَ لَحمٍ صَغيرةً، لا شَكلَ فيها ولا تَخطيطَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٢، ٣٢٣).

قال الشنقيطي: (القرارُ هنا: مكانُ الاستقرارِ، والمكينُ: المتمكِّنُ، وُصِفَ القرارُ به؛ لتمكُّنِه في نفْسِه، بحيث لا يَعرِضُ له اختلالٌ، أو لتمكُّنِ مَن يحُلُّ فيه، قاله أبو حيانَ في «البحر». وقال الزمخشري: القرارُ: المستقَرُّ، والمراد به: الرَّحِمُ، وصِفَت بالمكانةِ التي هي صفةُ المستقِرِّ فيها، أو بمكانتِها في نفْسِها؛ لأنَّها مَكُنَت بحيث هي وأُحرِزت). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٢٤).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥١).

وقال البقاعي: (﴿فِي قَرَارٍ﴾ أي: مِن الصُّلبِ والترائبِ ثمَّ الرَّحِم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك))[١].

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا﴾.

أي: فجعَلْنا قِطعةَ اللَّحمِ عِظامًا مُختَلِفةً، شَكَّلْناها ذاتَ رأسٍ ويدينِ ورِجلَينِ[٢].

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا﴾.

أي: فألبَسْنا تلك العِظامَ لَحمًا[٣].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

أي: ثمَّ نفَخْنا فيه الرُّوحَ، فتحَوَّلَ إنسانًا حَيًّا، وبشَرًا سَوِيًّا[٤].

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾.

أي: فتعاظَمَ وكثُرَ خَيرُ اللهِ أتقنِ الصَّانِعينَ، الذي أتْقَنَ كلَّ شَيءٍ خلقَه[٥]!

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١، ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦، ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٨).

قال الراغب: (كلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه لفظُ «تبارك» فهو تنبيهٌ على اختِصاصِه تعالى بالخَيراتِ المذكورةِ مع ذِكرِ «تبارك»). ((المفردات)) (ص: ١٢٠). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنَّه كان إذا سجَدَ قال: ((اللهمَّ لك سجَدْتُ، وبك آمَنْتُ، ولك أسلَمْتُ، سَجَد وَجْهي للَّذي خلقَه وصَوَّره، وشقَّ سَمْعَه وبصَرَه، تبارك اللهُ أحسَنُ الخالقِينَ))[1].

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥﴾.

أي: ثمَّ إنَّكم -أيُّها النَّاسُ- بعد أنْ خلَقْناكم وأحيَيناكم ستَموتونَ، فتَعودونَ تُرابًا كما كُنتُم[2].

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦﴾.

أي: ثمَّ إنَّكم -أيُّها النَّاسُ- ستُبعَثونَ يومَ القيامةِ مِنَ التُّرابِ؛ للحِسابِ والجَزاءِ[3].

كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى * أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ

= وقال ابنُ جُزي: (أي: أحسنُ الخالقينَ خَلقًا، فحُذِف التمييزُ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه. وفسَّرَ بعضُهم ﴿ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ بالمقدِّرينَ؛ فرارًا مِن وصفِ المخلوقِ بأنَّه خالقٌ، ولا يجِبُ أن يُنفَى عن المخلوقِ أنَّه خالقٌ بمعنى صانعٍ، كقولِه: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وإنما الذي يجبُ أن يُنفَى عنه: معنى الاختراعِ والإيجادِ مِن العدَمِ؛ فهذا هو الذي انفردَ الله به). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣١، ١٣٢).

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ فيه تنبيهٌ للإنسانِ أن يكون الموتُ نُصبَ عينَيه، ولا يَغفُلَ عن ترَقُّبِه؛ فإنَّ مآلَه إليه، لأنَّ الإنسانَ في الحياةِ الدُّنيا يسعَى فيها غايةَ السَّعيِ، ويَكِدُّ ويجمَعُ حتى كأنَّه مُخلَّدٌ فيها، فنبَّه بذِكرِ الموتِ مؤكِّدًا مبالِغًا فيه؛ لِيُقصِرَ، ولِيَعلَمَ أنَّ آخِرَه إلى الفناءِ، فيعمَلَ لدارِ البقاءِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فيه ردٌّ على مَن زعَمَ أنَّ الإنسانَ هو الرُّوحُ فقط، وقد بيَّن تعالى أنَّ الإنسانَ مركَّبٌ مِن هذه الأشياءِ. وفيه ردٌّ أيضًا على الفلاسِفةِ في زَعمِهم أنَّ الإنسانَ شَيءٌ لا ينقَسِمُ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ مِن إعجازِ القُرآنِ العِلميِّ تسميةُ هذا الكائِنِ باسمِ العَلَقةِ؛ فإنَّه وَضعٌ بديعٌ لهذا الاسمِ؛ إذ قد ثبت في عِلمِ التَّشريحِ أنَّ هذا الجزءَ الذي استحالت إليه النُّطفةُ هو كائنٌ له قوَّةُ امتصاصِ القُوَّةِ مِن دَمِ الأمِّ؛ بسبَبِ التِصاقِه بعروقٍ في الرَّحِمِ تدفَعُ إليه قُوَّةَ الدَّمِ[٣].

٣- إن قيل: كيف الجمعُ بينَ قَولِه: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وقَولِه: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣، ٢٤).

فالجوابُ: أنَّ الخَلقَ يكونُ بمعنى الإيجادِ، ولا مُوجِدَ سِوى اللهِ، ويكونُ بمعنى التَّقديرِ، كقولِ زُهَيرٍ(١):

وبعضُ القَومِ يَخلُقُ ثمَّ لا يَفري(٢).

فهذا المرادُ هاهنا: أنَّ بني آدَمَ قد يصوِّرونَ ويُقَدِّرونَ ويَصنَعونَ الشَّيءَ؛ فاللهُ خَيرُ المصوِّرينَ والمقَدِّرينَ. وقال الأخفَشُ: الخالقونَ هاهنا هم الصَّانِعونَ، فاللهُ خيرُ الخالِقينَ(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فيه سؤالٌ: قد يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ نفيُ عذابِ القبرِ؛ لأنَّه لم يَذكُرْ بينَ الأمْرينِ الإحياءَ في القبرِ والإماتةَ؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّه ليس في ذِكرِ الحياتينِ نفيُ الثالثةِ.

الوجه الثاني: أنَّ الغرضَ ذِكرُ هذه الأجناسِ الثلاثةِ -الإنشاءُ والإماتةُ والإعادةُ-، والذي تُرِكَ ذِكرُه فهو مِن جنسِ الإعادةِ(٤).

الوجه الثالث: أنَّه عيَّن البعثَ الأكبرَ التامَّ الذي هو محطُّ الثوابِ والعقابِ؛ لأنَّ مَن أقرَّ به أقرَّ بما هو دونَه مِن الحياةِ في القبرِ وغيرِها(٥).

---

(١) يُنظر: ((ديوان زهير بن أبي سلمى)) (ص: ٥٦).

(٢) الخَلقُ: التَّقديرُ. والفَرْيُ: القَطعُ على وَجهِ الإصلاحِ، ولا يَفْري: أي: لا يَقطَعُ. يُنظر: ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلام (٤/ ٢١٦)، ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (١/ ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١١٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ شُروعٌ في بَيانِ مَبدأِ خَلْقِ الإنسانِ، وتَقلُّبِه في أطوارِ الخِلْقةِ، وأدوارِ الفِطْرةِ بَيانًا إجْماليًّا[1]. والواوُ في ﴿وَلَقَدْ﴾ عاطفةٌ غرَضًا على غرَضٍ، ويُسمَّى عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، فالجُملةُ استئنافٌ؛ لأنَّها عَطْفٌ على جُملةِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] الَّتي هي ابتدائيَّةٌ، وهذا شُروعٌ في الاستدلالِ على انفرادِ اللهِ تعالى بالخلْقِ وبَعظيمِ القُدرةِ الَّتي لا يُشارِكُه فيها غيرُه، وعلى أنَّ الإنسانَ مَربوبٌ للهِ تعالى وَحْدَه، والاعتبارِ بما في خَلْقِ الإنسانِ وغَيرِه مِن دلائلِ القُدرةِ ومِن عَظيمِ النِّعمةِ؛ فالمَقصودُ منه إبطالُ الشِّركِ، ويَتضمَّنُ ذلك امتنانًا على النَّاسِ بأنَّه أخرَجَهم مِن مَهانةِ العدَمِ إلى شَرفِ الوُجودِ؛ وذلك كلُّه لِيَظهَرَ الفَرقُ بين فَريقِ المُؤمِنينَ الَّذين جَرَوا في إيمانِهم على ما يَليقُ بالاعترافِ بذلك، وبينَ فَريقِ المُشرِكين الَّذين سَلَكوا طَريقًا غيرَ بَيِّنَةٍ، فحادُوا عن مُقْتَضى الشُّكْرِ بالشِّركِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ تأْكيدُ الخَبرِ بلامِ القَسمِ وحَرْفِ التَّحقيقِ (قد)، وهو مُراعًى فيه التَّعريضُ بالمُشرِكين المُنزَّلينَ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ هذا الخَبرَ؛ لِعَدمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ العِلْمِ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ...﴾، أي: وَضْعَناها فيه؛ حِفْظًا لها؛ ولذلك غُيِّرَ في الآيةِ التَّعبيرُ عن فِعْلِ الخَلْقِ إلى فِعْلِ الجَعْلِ المُتعدِّي بـ(في) بمعنى الوَضْعِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١، ٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٣).

- و﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ ذلك الجعلَ أعظمُ مِنْ خلقِ السُّلالَةِ[١].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿ جَعَلْنَهُ ﴾ عائدٌ على ابنِ آدَمَ وإنْ كان لم يُذْكَرْ؛ لِشُهرةِ الأمْرِ، أو على حَذْفِ مُضافٍ، أي: ثُمَّ جعَلْنا نَسْلَه؛ ففيه إيجازٌ بالحَذفِ[٢].

- قولُه: ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ المكينُ، أي: الثابِتُ في المكانِ بحيث لا يُقْلَعُ مِن مكانِه؛ فمُقْتَضى الظَّاهرِ أنْ يُوصَفَ بالمَكينِ الشَّيءُ الحالُّ في المكانِ الثَّابتِ فيه، وقد وقَعَ هنا وَصْفًا لنَفْسِ المكانِ الَّذي استقرَّتْ فيه النُّطفةُ؛ للمُبالَغةِ، وحَقيقتُه: مَكينٌ حالُه[٣]. وأيضًا عُبِّرَ عن الرَّحمِ بالقَرارِ الَّذي هو مَصدرٌ؛ مُبالَغةً[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ فيه اخْتِلافُ حُروفِ العَطْفِ (ثمَّ - الفاء)؛ لِتَفاوُتِ الاستحالاتِ[٥]. وعُطِفَ جَعْلُ العَلَقةِ مُضغةً بالفاءِ؛ لأنَّ الانتقالَ مِن العَلقةِ إلى المُضْغةِ يُشْبِهُ تَعقيبَ شَيءٍ عن شَيءٍ؛ إذِ اللَّحمُ والدَّمُ الجامِدُ مُتقارِبانِ، فتَطوُّرُهما قَريبٌ، وإنْ كان مُكْثُ كلِّ طَورٍ مُدَّةً طويلةً[٦]. وجُمِعَ (عظام)؛ لاختلافِها في الهيئةِ والصَّلابةِ[٧].

- وعُطِفَ بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ في قولِه: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾؛ لكَمالِ التَّفاوُتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٦).

بين الخَلْقين[١].

- قولُه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه؛ لأنَّ (تبارَكَ) لمَّا حُذِفَ مُتعلِّقُه كان عامًّا، فيَشمَلُ عَظمةَ الخيرِ في الخَلْقِ وفي غَيرِه. وكذلك حَذْفُ مُتعلِّقِ (الخالقينَ) يَعُمُّ خَلْقَ الإنسانِ، وخلْقَ غيرِه كالجبالِ والسَّمواتِ. والفاءُ في ﴿فَتَبَارَكَ...﴾ تَفريعٌ على حِكايةِ هذا الخَلْقِ العجيبِ بإنشاءِ الثَّناءِ على اللهِ بأنَّه أحسَنُ الخالِقِينَ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ الْتِفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ؛ لتَربيةِ المَهابَةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ، والإشعارِ بأنَّ ما ذُكِرَ مِن الأفاعيلِ العجيبةِ مِن أحكامِ الأُلوهيَّةِ، وللإيذانِ بأنَّ حَقَّ كلِّ مَن سمِعَ ما فُصِّلَ مِن آثارِ قُدرتِه عَزَّ وعَلا أو لَاحَظَهُ: أنْ يُسارِعَ إلى التَّكلُّمِ به؛ إجلالًا وإعظامًا لشُؤونه تعالى[٣].

- وأيضًا في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ ما يُعرفُ بـ«ائتِلافِ الفاصِلةِ»[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ إدماجٌ[٥] في أثناءِ تَعدادِ الدَّلائلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٦).

(٤) ائتلافُ الفاصلةِ أو التمكينُ: هو أن يُمَهَّدَ قبلَ الفاصلةِ تمهيدٌ تأتي به الفاصلةُ مُمَكَّنةً في مكانها، مُستقرَّةً في قرارِها، مُطمئِنَّةً في موضعها، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقةٍ، مُتعلِّقًا معناها بمعنى الكلامِ كلِّه تَعلُّقًا تامًّا، بحيثُ لو طُرِحتْ لاختلَّ المعنى، واضطرَب الفَهمُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٧٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

(٥) الإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ؛ =

على تَفرُّدِ اللهِ بالخَلْقِ على اختلافِ أصنافِ المخلوقاتِ؛ لِقَصدِ إبطالِ الشِّركِ.
و(ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لأنَّ أهميَّةَ التَّذكيرِ بالموتِ في هذا المَقامِ أقْوى مِن أهميَّةِ ذِكْرِ الخَلقِ؛ لأنَّ الإخبارَ عن مَوتِهم تَوطِئةٌ للجُملةِ بَعْدَه -وهي قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾- وهو المقصودُ. وهذه الجُملةُ لها حُكْمُ الجُملةِ الابتدائيَّةِ، وهي مُعترِضةٌ بين الَّتي قبْلَها وبين جُملةِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]. ولِكَونِ (ثمَّ) لم تُفِدْ مُهلةً في الزَّمانِ هنا، صُرِّحَ بالمُهلةِ في قولِه: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾[1].

- وقيل: لَمَّا كانت إماتةُ ما صار هكذا -بعد القوَّةِ العظيمةِ والإدراكِ التامِّ- من الغرائبِ، وكان وجودُها فيه وتَكرارُها عليه في كلِّ وقتٍ قد صيَّرها أمرًا مألوفًا، وشيئًا ظاهرًا مكشوفًا، وكان عُتُوُّ الإنسانِ على خالِقِه وتمرُّدُه ومخالفتُه لأمرِه -نسيانًا لهذا المألوفِ- كالإنكارِ له؛ أشار إلى ذلك بقولِه تعالى مُسبِّبًا مبالغًا في التأكيدِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾، ولَمَّا كان الممكنُ ليس له مِن ذاتِه إلا العَدَمُ، نزع الجارَّ فقال: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: الأمرِ العظيمِ مِن الوصفِ بالحياةِ والمدِّ في العمُرِ في آجالٍ مُتفاوتةٍ ﴿لَمَيِّتُونَ﴾[2].

- قولُه: ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ أي: لَصائِرونَ إلى الموتِ لا مَحالةَ؛ كما يُؤْذِنُ به اسميَّةُ

= كقولِه تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١١٧).

الجُملةِ، و(إنَّ)، واللَّامُ، وصيغةُ النَّعتِ (مَيِّت) الدَّالَّةُ على الثُّبوتِ دونَ الحُدوثِ الذي تُفيدُه صيغةُ الفاعِلِ (مائِت)[١]؛ ففي قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ بُولِغَ في تأْكيدِ ذلك بـ (إنَّ) وباللَّامِ؛ تَنبيهًا للإنسانِ أنْ يكونَ الموتُ نُصْبَ عَينَيه، ولم تُؤكَّدْ جُملةُ البَعثِ إلَّا بـ (إنَّ)؛ لأنَّه أُبرِزَ في صورةِ المقطوعِ به الَّذي لا يُمكِنُ فيه نِزاعٌ، ولا يَقْبَلُ إنكارًا، وأنَّه حَتْمٌ لا بُدَّ مِن كِيانِه، فلم يُحتَجْ إلى تَوكيدٍ ثانٍ[٢].

- وقيل: أُكِّدَ هذا الخبرُ بـ (إنَّ) واللَّامِ مع كَونِهم لا يَرتابونَ فيه؛ لأنَّهم لمَّا أعْرَضُوا عن التَّدبيرِ فيما بعْدَ هذه الحياةِ، كانوا بمَنزِلةِ مَن يُنكِرونَ أنَّهم يَموتونَ، وتَوكيدُ خَبرِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾؛ لأنَّهم يُنكِرونَ البَعثَ، ويكونُ ما ذُكِرَ قبْلَه مِن الخَلْقِ الأوَّلِ دَليلًا على إمكانِ الخَلْقِ الثَّاني؛ فلم يُحتَجْ إلى تَقويةِ التَّأكيدِ بأكثَرَ مِن حَرفِ التَّأكيدِ وإنْ كان إنكارُهم البعثَ قَوِيًّا[٣]. وقيل: لم يُخْلِه عن التأكيدِ؛ لكونِه على خلافِ العادةِ[٤].

- وقيل: أُكِّدَ قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ باللَّامِ دونَ قولِه بَعْدَه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾، مع أنَّ المذكورينَ يُنكِرون البعثَ دونَ الموتِ؛ لأنَّه لمَّا كان العَطفُ بـ (ثُمَّ) المُحتاجُ إليه هنا يَقْتَضي الاشتراكَ في الحُكْمِ، أغْنَى به عن التَّأكيدِ باللَّامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١١٨).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٨).

وقيل: لأنَّ المقصودَ بذِكرِ الموتِ والبعثِ هو الإخبارُ بالجزاءِ والمَعادِ، وأوَّلُ ذلك هو الموتُ؛ فنبَّه على الإيمانِ بالمعادِ والاستعدادِ لِما بعد الموتِ، وهو إنَّما قال ﴿تُبْعَثُونَ﴾ فقط، ولم يقُلْ (تُجازَون)، لكن قد عُلِمَ أنَّ البعث للجزاءِ، وأيضًا ففيه تنبيهٌ على قهرِ الإنسانِ وإذلالِه[1].

- وقيل: دخلَتِ اللَّامُ في قولِه: ﴿لَمَيِّتُونَ﴾، ولم تَدخُلْ في ﴿تُبْعَثُونَ﴾؛ لأنَّ اللَّامَ مُخلِّصةٌ المُضارِعَ للحالِ غالبًا، فلا تُجامِعُ يومَ القيامةِ؛ لأنَّ إعمالَ ﴿تُبْعَثُونَ﴾ في الظَّرفِ المُستقبَلِ تُخلِّصُه للاستقبالِ، فتُنافي الحالَ[2].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ...﴾ فيه نَقْلُ الكلامِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ على طَريقةِ الالتفاتِ، ونُكْتَتُه هنا: أنَّ المقصودَ التَّذكيرُ بالموتِ وما بَعْدَه على وَجْهِ التَّعريضِ بالتَّخويفِ، وإنَّما يُناسِبُه الخِطابُ[3].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ...﴾ فيه التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وما فيه مِن مَعْنى البُعدِ المُشعرِ بعُلُوِّ رُتبةِ المُشارِ إليه، وبُعْدِ مَنزِلَته في الفَضلِ والكَمالِ، وكونِه بذلك مُمْتازًا، مُنزَّلًا مَنزِلةَ الأُمورِ الحِسِّيَّةِ[4].

٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾

- الآياتُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فيها مِن فُنونِ البلاغةِ: ما يُعرَفُ بالمُخالَفةِ في حُروفِ العطفِ؛ ففي حُروفِ العطفِ المُتتابِعةِ في هذه الآياتِ أسرارٌ لَطيفةُ المأْخَذِ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٧).

دَقيقةُ المعنى؛ فقد ذكَرَ تعالى تَفاصيلَ حالِ المخلوقِ في تَنقُّلِه؛ فبدَأ بالخلْقِ الأوَّلِ وهو خلْقُ آدَمَ من طِينٍ، ولمَّا عطَفَ عليه الخلْقَ الثَّاني -الَّذي هو خلْقُ النَّسلِ- عطَفَه بـ (ثُم)؛ لِمَا بينهما مِن التَّراخي، وحيث صار إلى التَّقديرِ الَّذي يَتبَعُ بعْضُه بعضًا مِن غيرِ تراخٍ عطَفَه بالفاءِ، ولمَّا انتهَى إلى جَعْلِه ذَكَرًا أو أُنْثى -وهو آخِرُ الخَلْقِ- عطَفَه بـ (ثمَّ)، ومعلومٌ أنَّ الزَّمنَ الَّذي تَصيرُ فيه النُّطفةُ عَلَقةً طويلٌ، ولكنَّ الحالتينِ مُتَّصلتانِ؛ فأحيانًا يُنظَرُ إلى طُولِ الزَّمانِ، فيُعطَفُ بـ (ثمَّ)، وأحيانًا يُنظَرُ إلى اتِّصالِ الحالينِ ثانيهما بأوَّلِهما مِن غيرِ فاصِلٍ بيْنهما بغَيرِهما، فيُعطَفُ بالفاءِ. وأيضًا صَيرورةُ التُّرابِ نُطفةً أمْرٌ مُستبعَدٌ في ظاهِرِ الحالِ، ومِثلُ ذلك صَيرورةُ النُّطفةِ عَلَقةً؛ لاختِلافِ إحداهما عن الأُخرى اختلافًا ظاهرًا، ولكنْ صَيرورةُ العَلَقةِ مُضْغةً لا غرابةَ فيه؛ لِتَقارُبِهما؛ فلهذا الوَجْهِ عُطِفَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٥] بـ (ثمَّ)، وأمَّا في آيةِ (المُؤمِنون): فلُوحِظَتْ أطوارُ الخلْقِ وتباعُدُ الأوقاتِ بيْن كلِّ طَورينِ؛ فاختلافُ العواطفِ بالفاءِ و(ثمَّ) لِتَفاوُتِ الاستحالاتِ، يعني: أنَّ بعضَها مُستبعَدٌ حُصولُه ممَّا قبْلَه وهو المعطوفُ بـ (ثمَّ)؛ فجُعِلَ الاستبعادُ عقْلًا أو رُتبةً بمَنزِلةِ التَّراخي والبُعْدِ الحِسِّيِّ؛ لأنَّ حُصولَ النُّطفةِ مِن أجزاءٍ تُرابيَّةٍ غريبٌ جدًّا، وكذا جَعْلُ النُّطفةِ البيضاءِ ماءً أحمَرَ، بخِلافِ جَعْلِ الدَّمِ لَحْمًا مُشابِهًا له في اللَّونِ والصُّورةِ، وكذا تَصليبُها حتَّى تَصيرَ عَظْمًا؛ لأنَّه قد يَحصُلُ ذلك بالمُكْثِ فيما يُشاهَدُ، وكذا مَدُّ لَحمِ المُضغةِ عليه لِيَسْتُرَه، وذلك يَقْتَضي عَطْفَ الجميعِ بـ (ثمَّ) إنْ نُظِرَ لآخِرِ المُدَّةِ وأوَّلِها، ويَقْتَضي العطْفَ بالفاءِ إنْ نُظِرَ لآخِرِها فقطْ[1].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٤٩٩، ٥٠٠).

الآيات (١٧-٢٢)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ١٧ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ٢٠ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ٢٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَرَآئِقَ﴾: أي: سمواتٍ، كُلُّ سماءٍ طَريقةٌ، وسُمِّيتْ طرائِقَ؛ لأنَّ بَعضَها فوقَ بَعضٍ، يُقالُ: طارقتُ الشَّيءَ: إذا جعلتَ بعضَه فوقَ بعضٍ[(١)].

﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾: اسمُ جبلٍ معروفٍ، وهو الجَبَلُ الذي كَلَّمَ اللهُ مُوسى عليه[(٢)].

﴿وَصِبْغٍ﴾: أي: زيتٍ يُغمَسُ فيه للائتدامِ، وأصلُ الصِّبغِ: ما يلَوَّنُ به الثَّوبُ، فشُبِّه به ما يُصطَبغُ به؛ وذلك أنَّ الخبزَ يُلوَّنُ بالصِّبغِ إذا غُمِرَ فيه[(٣)].

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: أي: السُّفنِ، واحدُه وجمعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنها تُدارُ في الماءِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ولقد خلَقْنا فوقَكم -أيُّها الناسُ- سَبعَ سَمواتٍ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، وما كنَّا عن الخَلقِ غافلينَ.

ويخبرُ أنه أنزَل مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدْرِ حاجةِ الخلائِقِ، وجَعَل هذا الماءَ ساكنًا في الأرضِ محفوظًا فيها، وهو سبحانَه على إذهابِه لَقادِرٌ، فأنشَأ بهذا الماءِ للناسِ بَساتينَ النَّخيلِ والأعنابِ، لهم فيها فَواكِهُ كثيرةٌ، ولهم منها غِذاءٌ يأكُلونَه، وأنشَأ لهم به أيضًا الشجرةَ العظيمةَ المنافعِ شَجرةَ الزَّيتونِ التي تَخرُجُ مِن جَبَلِ طُورِ «سَيناءَ» يُعصَرُ مِن ثمرِها الذي تُخرِجُه الزَّيتُ، فيُدَّهَنُ ويُؤتَدَمُ به.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن نِعَمِه، فيُخبرُ أنَّ لهم في الأنعامِ ما يعتَبِرونَ به؛ فهو يَسقيهم منها ممَّا في بُطونِها مِنَ اللَّبَنِ، ولهم فيها مَنافِعُ أُخرى كَثيرةٌ، ومِن لحومِها وشحومِها يأكُلونَ، وعلى الإبِلِ برًّا وعلى السُّفُنِ بحرًا يُحمَلونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ١٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى ابتداءَ خَلقِ الإنسانِ، وانتهاءَ أمرِه؛ ذكَّره بنِعَمِه[(١)].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾.

أي: ولقدْ خلَقْنا فَوقَكم -أيُّها النَّاسُ- سَبعَ سَمواتٍ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ[(٢)].

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٩). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ [الملك: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ [نوح: ١٥].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾.

أي: أحاط عِلمُنا بكلِّ مخلوقٍ، فلا نخلقُ مخلوقًا ونغفُلُ عنه أو ننساه، بل نحفظُه وندبِّرُ أمرَه، ونقومُ بمصالحِه، ومِن ذلك حفظُ السمواتِ مِن السقوطِ على الأرضِ(١).

= قال ابن جرير: (العَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ شَيءٍ فَوقَ شَيءٍ طَريقةً، وإنَّما قيل للسَّمواتِ السَّبعِ سَبعَ طرائِقَ؛ لأنَّ بَعضَهنَّ فَوقَ بعضٍ، فكُلُّ سماءٍ منهنَّ طَريقةٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦).
وقيل: سمِّيت طرائقَ؛ لأنها طُرُقُ الملائكةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).
قال القرطبي: (﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: أي: عن خَلقِ السَّماءِ. وقال أكثَرُ المفسِّرينَ: أي: عن الخَلقِ كُلِّهم مِن أن تَسقُطَ عليهم فتُهلِكَهم. قلتُ: ويحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي: في القيامِ بمَصالِحِهم وحِفظِهم، وهو معنى الحيِّ القَيُّوم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١١).
وقال الشنقيطي: (معناه كقولِه: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحج: ٦٥]؛ لأنَّ مَنْ يُمسكُ السَّماءَ لو كان يغفُلُ لسقَطتْ فأهلكَتِ الخَلقَ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٢٧).
قال الشوكاني: (﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ المرادُ بالخَلقِ هنا المخلوقُ، أي: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ عن هذه السَّبعِ الطَّرائِقِ وحِفظِها عن أن تَقَعَ على الأرضِ بغافِلينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٥).
وقال ابن جرير: وقَولُه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ يقولُ: وما كُنَّا في خَلْقِنا السَّمَواتِ السَّبعَ فَوقَكم عن خَلْقِنا الذي تحتَها غافِلينَ، بل كُنَّا لهم حافِظينَ مِن أن تَسقُطَ عليهم فتُهلِكَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩)، =

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا

= ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٩٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٢).

واختار يحيى بن سلام أنَّ معنى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي: عن أن نُنزِّلَ عليهم ما يُحييهم وما يُصلِحُهم مِن هذا المطَرِ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٩٦).

وممن اختارَ عمومَ المعنى: أبو حيانَ، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

وقال السعدي: (﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ فكما أنَّ خَلْقَنا عامٌّ لكلِّ مخلوقٍ، فعِلمُنا أيضًا محيطٌ بما خلَقْنا، فلا نُغفِلُ مخلوقًا ولا ننساه، ولا نخلقُ خَلقًا فنضَيِّعُه، ولا نَغفُل عن السَّماءِ فتقَعُ على الأرض، ولا ننسى ذرَّةً في لُجَج البحار وجوانبِ الفَلَوات، ولا دابَّةً إلا سُقْنا إليها رزقَها ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

وقال البقاعي في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾: (بل دبَّرْناه تدبيرًا محكَمًا ربطْناه بأسبابٍ تنشأ عنها مُسَبَّباتٌ يَكونُ بها صلاحُه، وجعَلْنا في كلِّ سماءٍ ما ينبغي أن يكونَ فيها مِن المنافِعِ، وفي كلِّ أرضٍ كذلك، وحَفِظناه من الفسادِ إلى الوقتِ الذي نريدُ فيه طيَّ هذا العالَمِ وإبرازَ غيره، ونحن مع ذلك كلَّ يوم في شأنٍ، وإظهارِ برهانٍ، نعلَمُ ما يلِجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها، وما ينزِلُ من السماءِ وما يعرُجُ فيها، إذا شِئْنا أنفَذْنا السَّبَبَ فنشأ عنه المسَبَّبُ، وإذا شِئْنا منعناه ممَّا هُيِّئ له، فلا يكونُ شيءٌ مِن ذلك إلا بخلقٍ جديدٍ، فكيف يُظَنُّ بنا أنَّا نتركُ الخَلقَ بعد موتِهم سُدًى، مع أنَّ فيهم المطيعُ الذي لم نوَفِّه ثوابَه، والعاصي الذي لم نُنزِلْ به عقابَه؟! أم كيف لا نقدِرُ على إعادتِهم إلى ما كانوا عليه بعد ما قدَرْنا على إبداعِهم ولم يكونوا شيئًا؟!). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٢٠).

وقال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ نفيٌ عامٌّ في إتقانِ خَلْقِهم، وعن مصالحِهم، وعن أعمالِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٩).

كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

مُناسبةُ عَطفِ إنزالِ ماءِ المطَرِ على جملةِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]: أنَّ ماءَ المطَرِ ينزِلُ مِن صَوبِ السَّماءِ، أي: من جهةِ السَّماءِ، وفي إنزالِ ماءِ المطرِ دَلالةٌ على سَعةِ العِلمِ ودَقيقِ القُدرةِ، وفي ذلك أيضًا مِنَّةٌ على الخَلقِ[1].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بحَسَبِ حاجةِ الخَلقِ وما يَكفيهم، على المِقدارِ الذي يُصلِحُ ولا يُفسِدُ، فجعَلْناه مَحفوظًا في الأرضِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨).

قال البقاعي: (﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾ بعظمتِنا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعضَه على ظهرِها وبعضَه في بطنِها، ولم نعُمَّها بالذي على ظهرِها، ولم نغوِّرْ ما في بطنِها؛ ليَعُمَّ نفعُه، ولِيَسهُلَ الوصولُ إليه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٢١).

وقال ابن عاشور: (هذا الإقرارُ على نوعينِ: إقرارٌ قصيرٌ، مثلُ: إقرارِ ماءِ المطرِ في القشرةِ الظَّاهرةِ مِن الأرضِ عَقِبَ نزولِ الأمطارِ، على حسَبِ ما تقتضيه غزارةُ المطرِ ورخاوةُ الأرضِ، وشِدَّةُ الحرارةِ أو شِدَّةُ البردِ، وهو ما يَنبُتُ به النباتُ في الحرثِ، والبَقلُ في الربيعِ، وتمتَصُّ منه الأشجارُ بعروقِها فتُثمِرُ إثمارَها، وتخرُجُ به عروقُ الأشجارِ وأصولُها من البزورِ التي في الأرضِ. ونوعٌ آخَرُ: هو إقرارٌ طويلٌ، وهو إقرارُ المياه التي تنزِلُ مِن المطرِ وعن ذَوبِ الثُّلوجِ النازلةِ، فتتسَرَّبُ إلى دواخِلِ الأرضِ، فتنشأُ منها العيونُ التي تنبُعُ بنفْسِها، أو تُفجَّرُ بالحفرِ آبارًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾.

أي: وإنَّا على إذهابِ الماءِ الذي أسكَنَّاه في الأرضِ لَقادِرونَ، ولو وقَعَ ذلك لهَلَكَ النَّاسُ وهلَكَت أراضيهم وزُروعُهم وماشيَتُهم[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠].

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا نبَّه اللهُ سُبحانَه على عظيمِ نِعمتِه بخَلقِ الماءِ؛ ذكَرَ بعده النِّعَمَ الحاصِلةَ مِن الماءِ، فقال[٢]:

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾.

أي: فأوجَدْنا لكم بسَبَبِ الماءِ بَساتينَ مِن نَخيلٍ وأعنابٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٢).
قال السعدي: (﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ إمَّا بألَّا نُنزِلَه، أو نُنزِلَه فيَذهبَ نازِلًا لا يُوصَلُ إليه، أو لا يُوجَدُ منه المقصودُ منه، وهذا تنبيهٌ منه لعبادِه أن يشكُروه على نِعمَتِه، ويقدِّروا عدَمَها، ماذا يحصُلُ به مِنَ الضَّرَرِ، كقولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧١).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠- ١١].

﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

أي: لكم -أيُّها النَّاسُ- في البَساتينِ فَواكِهُ كَثيرةٌ سِوى النَّخيلِ والأعنابِ، ولكم مِنَ البَساتينِ غذاءٌ تأكُلونَه(١).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾.

أي: وأنشَأْنا لكم -أيُّها النَّاسُ- شَجرةَ الزَّيتونِ التي تَنبُتُ في جَبَلِ سَيناءَ الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).
وممَّن قال بأنَّ الضميرَ في قولِه تعالى ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ عائدٌ إلى الجناتِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، والبيضاوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).
وذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ الضميرَ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعودُ إلى الفواكِهِ الكثيرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨).
قال البيضاوي: (ويجوزُ أن يكونَ الضميرانِ للنخيلِ والأعنابِ، أي: لكم في ثمراتِها أنواعٌ مِن الفواكِهِ: الرطبُ والعنبُ والتمرُ والزبيبُ والعصيرُ والدبسُ، وغير ذلك، وطعامٌ تأكلونَه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٤).

كَلَّمَ اللهُ عليه مُوسى عليه السَّلامُ[١].

كما قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾.

أي: تُخرِجُ شَجرةُ الزَّيتونِ ثَمَرًا يُعصَرُ منه زَيتٌ يُدَّهَنُ به، ويجعَلُه الآكِلونَ إدامًا يغْمِسونَ فيه خُبزَهم[٢].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤ - ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٠).
قال الواحدي: (أجمع المفَسِّرونَ كُلُّهم على أنَّ هذه شَجرةُ الزيتونِ). ((البسيط)) (١٥/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١، ٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٠).
قال ابن عاشور: (مَعْنَى ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أنَّها تَنْبُتُ مُلابِسةً للدُّهْنِ؛ فالباءُ للمُلابسةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٨).
وقال الشنقيطي: (قوله: ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾: أي: تَنْبُتُ مصحوبَةً بالدُّهنِ الَّذي يُستخرَجُ مِن زَيْتونِها). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٣٠).
وأما على القراءةِ الثانيةِ -قراءةِ ابنِ كثيرٍ وأبي عَمرٍو- بضمِّ التَّاءِ وكسرِ الباءِ ﴿تُنْبِتُ﴾ مُضارِع (أَنْبَتَ) الذي يَتعَدَّى بنفْسِه دونَ الحرفِ، فالباءُ مزيدةٌ للتَّوكيدِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٩).
قال العليمي: (﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ والصِّبغُ: هو الإدامُ، معطوفٌ على الدُّهنِ؛ أي: تنبتُ بالشَّيءِ الجامِعِ بين كَونِه دُهنًا يُدَّهَنُ به ويُسرَجُ منه، وكَونِه إدامًا يُصبَغُ فيه الخُبزُ، أي: يُغمَسُ فيه للائتِدامِ). ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٦٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

بعد أنَّ ذكَّرَنا سبحانَه بنِعمةِ إنزالِ الماءِ مِن السَّماءِ الذي يُنبِتُ به جنَّاتِ النَّخيلِ والأعنابِ، والفواكهَ المُختلفةَ والزيتونَ- أردَفَها بذِكرِ النِّعَمِ المختلِفةِ التي سخَّرها لنا مِن خَلقِ الحيوانِ[١].

وأيضًا لما دَلَّ سبحانَه وتعالى على قُدرتِه بما أحيا بالماءِ حياةً قاصِرةً عن الرُّوحِ، أتبعه ما أفاض عليه به حياةً كاملةً، فقال[٢]:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾.

أي: وإنَّ لكم -أيُّها النَّاسُ- في الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ[٣] ما تَعتَبِرونَ به، فتَعرِفونَ أياديَ اللهِ عندَكم، وسابِغَ رَحمتِه، وانفرادَه بالخَلقِ، وسَعةَ عِلمِه، وعظيمَ قُدرتِه عَزَّ وجَلَّ؛ فتَشكُرونَه ولا تَكفُرونَه[٤].

﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾.

أي: نُسقيكم -أيُّها النَّاسُ- لبنًا مِمَّا في بُطونِها[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢٧).

(٣) وقيل: المرادُ بالأنعامِ هنا: الإبِلُ خاصَّةً. وممن قال بذلك: الزمخشري، وابنُ جزي، والنيسابوري، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٩).
قال النيسابوري: (لعلَّ القصدَ بالأنعامِ هاهنا الإبِلُ خاصَّةً؛ لأنَّها هي المحمولُ عليها في العادةِ، ولأنَّه قرنها بالفُلكِ، وهي سفائِنُ البَرِّ كما أنَّ الفُلكَ سفائِنُ البحرِ). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦].

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾.

أي: ولكم في الأنعامِ مَنافِعُ كَثيرةٌ؛ كاتِّخاذِ أوبارِها لباسًا وأثاثًا، وغيرِ ذلك مِنَ المَنافِعِ(١).

﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾.

أي: ومِن لُحومِ الأنعامِ وشُحومِها تأكُلونَ بعدَ ذَبحِها(٢).

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

أنَّه ذكَر ما تكاد تختَصُّ به بعضُ الأنعامِ، وهو الحَملُ عليها، وقرَنَها بالفُلكِ؛ لأنَّها سفائنُ البَرِّ، كما أنَّ الفُلكَ سفائِنُ البحرِ(٣).

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

= (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير الآلوسي)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

قال ابنُ عاشور: (هذه المنافِعُ هي الأصوافُ والأوبارُ والأشعارُ والنِّتاجُ، وأمَّا الأكلُ منها فهو عِبرةٌ أيضًا؛ إذ أعدَّها الله صالحةً لتغذيةِ البشَرِ بلُحومِها لذيذةِ الطَّعمِ، وألهَمَ إلى طريقةِ شَيِّها وصَلقِها وطَبخِها، وفي ذلك مِنَّةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٦).

أي: وعلى الإبِلِ[(١)] في البَرِّ، وعلى السُّفُنِ في البَحرِ تَركَبونَ -أيُّها النَّاسُ- فتَحمِلُكم وتَحمِلُ مَتاعَكم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩- ٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ

(١) وممن نصَّ هنا على أنَّ المرادَ بذلك الإبِلُ: مقاتلُ بن سليمان، ومكِّيُّ بن أبي طالب، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٤)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٩٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

وقيل المرادُ: الإبِلُ والبَقَرُ. وممن اختاره: البيضاويُّ، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢٨). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٤، ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ فعلى العبادِ أن يَستَعظِموا النِّعمةَ في الماءِ، ويُقيِّدوها بالشُّكرِ الدائمِ، ويخافوا نِفارَها إذا لم تُشكَرْ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ كثيرًا ما يَقرِنُ تعالى بين خَلقِه وعِلمِه، كقولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]؛ لأنَّ خَلقَ المخلوقاتِ مِن أقوى الأدِلَّةِ العَقليَّةِ على عِلمِ خالِقِها وحِكمتِه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ رَدٌّ على مَن يزعمُ أنَّ اللهَ في الأرضِ بنفْسِه كهو في السَّماءِ! ولو كان كذلك ما كان في قَولِه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ فائدةٌ؛ لأنَّ مَن كان مع خلْقِه بنفْسِه عُلِمَ أنَّه لا يَغفُلُ عنهم، ولكِنَّه دَلَّ المُرتابينَ على أنَّ الطَّرائقَ السَّبْعَ لا تَحجُبُ خلْقَه عنه، ولا تُنسيه أمرَهم(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ فيه إثباتُ إحاطةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، فما وَصَف اللهُ به نفْسَه يَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: ثُبوتيٍّ، وسَلبيٍّ أو انتفائيٍّ؛ فالثُّبوتيُّ كلُّه صِفاتُ كَمالٍ، فكُلُّ صِفةٍ أثبتَها اللهُ لِنَفسِه فهي صِفةُ كَمالٍ، والسَّلبيُّ أو الانتِفائيُّ كُلُّه صِفاتُ نَقصٍ، ولكِنَّه مُتضَمِّنٌ لِثُبوتِ كَمالٍ؛ ففي قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ نَفيُ الغَفلةِ؛ لِكَمالِ عِلمِه ومُراقبتِه، وفي قَولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] نفيُ الظُّلمِ؛ لِكَمالِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٤٦).

عَدلِه، وفي قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٤] نَفيُ أن يُعجِزَه شَيءٌ؛ لكَمالِ قُدرتِه وعِلمِه... وهَلُمَّ جرًّا(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه سُبحانه قادرٌ على ما لا يفعَلُه، خِلافًا لبعضِ أهلِ البِدَعِ الذين قالوا: لا يكونُ قادِرًا إلَّا على ما أراده دونَ ما لم يُرِدْه، فقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لَقادرونَ على أنْ نَذهبَ به حتَّى تموتوا عَطَشًا، وتَهْلِكَ مواشِيكم، وتَخْرَبَ أراضِيكم، ومعلومٌ أنَّه لم يَذْهَبْ به(٢).

٥- قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ مَقرَّ ما نزَلَ مِن السَّماءِ هو في الأرضِ؛ فمِنْه الأنهارُ والعُيونُ والآبارُ(٣).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استَدلَّ به مَن قال: إنَّ المياهَ كلَّها مِن السَّماءِ، وأنَّه لا ماءَ مِن الأرضِ(٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ سُمِّيَ الصِّنفُ الأوَّلُ باسمِ شَجَرتِه؛ لكثرةِ ما فيها مِن المنافِعِ المقصودةِ، بخلافِ الثَّاني؛ فإنَّه المقصودُ مِن شجرتِه(٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ فيه التَّنبيهُ على الأُدْمِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠) (٢/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢١، ١٢٢).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٦).

٩- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فذكرَ اللهُ سبحانه أنَّ فيها عِبرةً، مُجمِلًا، ثمَّ أردَفه بالتفصيلِ مِن أربعةِ أوجُهٍ:

أحدها: قولُه: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾، والمرادُ منه جميعُ وجوهِ الانتفاعِ بألبانِها، ووجهُ الاعتبارِ فيه أنَّها تجتمعُ في الضُّروعِ، وتتخلَّصُ مِن بينِ الفَرْثِ والدمِ بإذنِ الله تعالى، فتستحيلُ إلى طهارةٍ وإلى لونٍ وطَعمٍ موافقٍ للشَّهوةِ، وتصيرُ غِذاءً، فمَن استدَلَّ بذلك على قدرةِ الله وحكمتِه كان ذلك معدودًا في النِّعَم الدينيَّةِ، ومَن انتفَع به فهو في نعمةِ الدنيا، وأيضًا فهذه الألبانُ التي تخرجُ مِن بطونِها إلى ضروعِها تجدُها شرابًا طيِّبًا، وإذا ذبحْتَها لم تجِدْ لها أثرًا، وذلك يدلُّ على عظيمِ قُدرةِ الله تعالى.

وثانيها: قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾؛ وذلك بيعُها، والانتفاعُ بأثمانِها، وما يجري مَجرَى ذلك.

وثالثها: قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: كما تنتفعون بها وهي حيَّةٌ، تنتفِعون بها بعد الذَّبحِ أيضًا بالأكلِ.

ورابعها: قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ وجهَ الانتفاعِ بالإبلِ في المحمولاتِ على البَرِّ بمنزلةِ الانتفاعِ بالفُلكِ في البحرِ؛ ولذلك جمع بيْن الوجهينِ في إنعامِه؛ لكي يُشكَرَ على ذلك، ويُستدَلَّ به(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾

- انتِقالٌ مِن الاستدلالِ بخَلْقِ الإنسانِ إلى الاستدلالِ بخَلقِ العوالِمِ العُلويَّةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٠).

لأنَّ أمْرَها أعجَبُ، فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾[1] [المؤمنون: ١٢].

- وإنَّما ذُكِرَ هذا عَقِبَ قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾[المؤمنون: ١٦]؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الَّذي خلَقَ هذا العالَمَ العُلويَّ ما خلَقَه إلَّا لحكمةٍ، وأنَّ الحكيمَ لا يُهمِلُ ثَوابَ الصَّالحينَ على حَسناتِهم، ولا جَزاءَ المُسيئينَ على سَيِّئاتِهم، وأنَّ جَعْلَه تلك الطَّرائقَ فَوقَنا بحيث نَراها؛ لِيَدُلَّنا على أنَّ لها صِلةً بنا؛ لأنَّ عالَمَ الجَزاءِ كائنٌ فيها، ومَخلوقاتِه مُستقِرَّةٌ فيها؛ فالإشارةُ بهذا التَّرتيبِ مِثْلُ الإشارةِ بعَكْسِه في قولِه: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ * إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[2] [الدخان: ٣٨-٤٠].

- وذِكرُ ﴿فَوۡقَكُمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على وُجوبِ النَّظرِ في أحوالِها؛ للاستدلالِ بها على قُدرةِ الخالِقِ لها تعالى؛ فإنَّها بحالةِ إمكانِ النَّظرِ إليها، والتَّأمُّلِ فيها، ولأنَّ كَونَها فوقَ النَّاسِ ممَّا سَهَّلَ انتفاعَهم بها في التَّوقيتِ؛ ولذلك عقَّبَ بجُملةِ ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ المُشعِرِ بأنَّ في ذلك لُطْفًا بالخَلْقِ، وتَيسيرًا عليهم في شُؤونِ حَياتِهم، وهذا امتنانٌ، وفيه تَنبيهٌ للنَّظرِ في أنَّ عالَمَ الجَزاءِ كائنٌ بتلك العَوالِمِ[3].

- ولإرادةِ التعظيمِ أضافَ إلى جمعِ كثرةٍ، فقال: ﴿طَرَآئِقَ﴾[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦، ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١١٨).

- قولُه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ نفيُ الغفلةِ كنايةٌ عن العِنايةِ والمُلاحظةِ[(١)].

- وقولُه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ إنْ أُريدَ بـ ﴿ٱلْخَلْقِ﴾ السَّمواتُ، فهو مُظْهَرٌ أُقِيمَ مُقامَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بأنَّه تعالى خلَقَ السَّمواتِ عن حِكْمةٍ، وأنَّها مَحفوظةٌ بحِفْظِه وإمساكِه. وإنْ أُرِيدَ به النَّاسُ، فهو مَصدرٌ بمعنَى مَخلوقٍ؛ للإشعارِ بفَضيلةِ الإنسانِ، وأنَّ هذه المخلوقاتِ العِظامِ أُوجِدَتْ لِمَنافِعِه دِينًا ودُنْيا؛ امتنانًا عليهم، وعلى التَّقديرينِ يَلزَمُ تَعظيمُ ما يُرادُ منه[(٢)]. وقيل: العُدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (وما كنَّا عنكم غافِلينَ)؛ لِمَا يُفيدُه المُشْتَقُّ مِن مَعْنى التَّعليلِ، أي: ما كُنَّا عنكم غافِلينَ؛ لأنَّكم مَخلوقاتُنا، فنحنُ نُعامِلُكم بوَصفِ الرُّبوبيَّةِ، وفي ذلك تَنبيهٌ على وُجوبِ الشُّكرِ، والإقلاعِ عن الكُفْرِ[(٣)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ يَصِحُّ أنْ يُحمَلَ على صَريحِه، أي: بمِقْدارٍ مُعيَّنٍ مُناسِبٍ للإنعامِ به؛ لأنَّه إذا أُنزِلَ كذلك حَصَلَ به الرِّيُّ والتَّعاقُبُ، وكذلك ذَوبانُ الثُّلوجِ النَّازِلَةِ. ويصِحُّ أنْ يُقصَدُ مع ذلك الكِنايةُ عن الضَّبطِ والإتقانِ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٩).

على المفعولِ الصَّريحِ ﴿مَآءَۢ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ(١).

- وفيه إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيث لم يقُلْ: (أنزَلْنا منها)؛ لأنَّ الإنزالَ لا يُعتَبَرُ فيه عُنوانُ كَونِها طَرائقَ، بل مُجرَّدُ كَونِها جِهَةَ العُلوِّ(٢).

- قولُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما تفرَّعَ عليها(٣). وفيه وَعيدٌ وتَهديدٌ(٤).

- وقولُه: ﴿ذَهَابِۭ﴾ مِن أوقَعِ النَّكراتِ، والمَعْنى: على وَجْهٍ مِن وُجوهِ الذَّهابِ به، وطَريقٍ مِن طُرقِه؛ فالتَّنكيرُ إشارةٌ إلى كَثرةِ طُرقِه. وفيه إيذانٌ باقتدارِ المُذْهِبِ، وأنَّه لا يَتعايَا(٥) عليه شَيءٌ إذا أراده(٦).

- وقولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أبلَغُ في الإيعادِ مِن قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠]؛ لوُجوهٍ كثيرةٍ، منها:

الأوَّلُ: التَّوكيدُ بـ (إنَّ).

الثَّاني: اللَّامُ في الخبَرِ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾.

الثَّالثُ: أنَّ هذه في مُطلَقِ الماءِ المُنزَّلِ من السَّماءِ، وتلك في ماءٍ مُضافٍ إليهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٤).

(٥) يتعايا: أي: يَصعُبُ، مِن قَولِهم: أعيا عليه الأمرُ وتعايا: إذا لم يَهْتَدِ لِوَجهِ مُرادِه أو وَجهِ عَمَلِه، أو عَجَز عنه ولم يُطِقْ إحكامَه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٩/ ١٣٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩).

الرَّابعُ: أنَّ الغائِرَ قد يكونُ باقيًا بخِلافِ الذَّاهِبِ.

الخامسُ: ما في تَنكيرِ ﴿ذَهَابِۭ﴾ مِن المُبالَغةِ.

السَّادسُ: إسنادُه هاهنا إلى مُذهِبٍ بخِلافِه ثَمَّت، حيث قيل: ﴿غَوۡرٗا﴾ [الملك: ٣٠].

السَّابعُ: ما في ضَميرِ المُعظِّمِ نَفْسَه ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ من الرَّوعةِ.

الثَّامنُ: ما في ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ من الدَّلالةِ على القُدرةِ عليه، والفِعلُ الواقِعُ مِن القادِرِ أبلَغُ.

التَّاسِعُ: ما في جَمْعِه.

العاشرُ: ما في لَفْظِ ﴿بِهِۦ﴾ مِن الدَّلالةِ على أنَّ ما يُمْسِكُه فلا مُرسِلَ له.

الحاديَ عشَرَ: إخلاؤُهُ مِن التَّعقيبِ بإطماعٍ، وهنالك ذُكِرَ الإتيانُ المطْمِعُ.

الثَّانيَ عشَرَ: تَقديمُ ما فيه الإيعادُ -وهو الذَّهابُ- على ما هو كالمُتعلَّقِ له أو مُتعلَّقِه.

الثَّالثَ عشَرَ: ما بين الجُملتينِ -الاسميَّةِ والفِعْليَّةِ- مِن التَّفاوُتِ ثَباتًا وغيرَهُ.

الرَّابعَ عشَرَ: ما في لَفْظِ ﴿أَصۡبَحَ﴾ مِن الدَّلالةِ على الانتقالِ والصَّيرورةِ.

الخامسَ عشَرَ: أنَّ الإذهابَ هاهنا مُصرَّحٌ به، وهنالك مَفهومٌ مِن سِياقِ الاستفهامِ.

السَّادسَ عشَرَ: أنَّ هنالك نَفْيَ ماءٍ خاصٍّ -أعني: المَعِينَ- بخِلافِه هاهنا.

السَّابعَ عشَرَ: اعتبارُ مَجموعِ هذه الأُمورِ الَّتي يَكْفِي كلٌّ منها مُؤكِّدًا.

الثَّامنَ عشَرَ: إخبارُه تعالى به بنَفْسِه مِن دُونِ أمْرٍ للغيرِ هاهنا، بخِلافِه هنالك؛

فإنَّه سُبحانَه أمَرَ نَبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يَقولَ ذلك.

التَّاسعَ عشَرَ: عدَمُ تَخصيصِ مُخاطَبٍ هاهنا، وتَخصيصُ الكُفَّارِ بالخِطابِ هنالك.

العِشْرونَ: التَّشبيهُ المُستفادُ مِن جَعْلِ الجُملةِ حالًا؛ فإنَّه يُفِيدُ تَحقيقَ القُدرةِ، ولا تَشبيهَ ثَمَّت.

الحادي والعِشْرونَ: إسنادُ القُدرةِ إليه تعالى مرَّتينِ.

الثَّاني والعِشرونَ: أنَّه ليس الوقْتُ للذَّهابِ مُعيَّنًا هنا بخِلافِه في ﴿إِنْ أَصْبَحَ﴾ [الملك: ٣٠]؛ فإنَّه يُفْهَمُ منه أنَّ الصَّيرورةَ في الصُّبحِ على أحَدِ استعمالَيْ (أصبح) ناقِصًا.

الثالث والعِشرونَ: أنَّ جِهةَ الذَّهابِ به ليست مُعيَّنةً بأنَّها السُّفلُ، أي: ما دَلَّ عليه لَفْظُ ﴿غَوْرًا﴾.

الرابع والعِشرونَ: أنَّ المُوعَدَ به هنا إنْ وقَعَ فهم هالِكونَ الْبَتَّةَ.

الخامس والعِشرونَ: أنَّه لم يَبْقَ هنا لهم مُتشبَّثٌ ولو ضَعيفًا في تأْميلِ امتناعِ المُوعَدِ به، وهناك حيث أُسنِدَ الإصباحُ غَورًا إلى الماءِ، ومعلومٌ أنَّ الماءَ لا يُصبِحُ غَورًا بنَفْسِه، أيضًا احْتُمِلَ أنْ يُتوهَّمَ الشَّرطيَّةُ مع صِدْقِها مُمْتنِعةَ المَقْدَمِ، فيَأْمَنوا وُقوعَه. إلى غيرِ ذلك[1].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٨/ ١٩-٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩ - ٣٢).

قال ابنُ عاشور: (عُنِي هؤلاء النحاريرُ ببيان التفاوتِ بين الآيتينِ، ولم يتعرَّضْ أحدُهم للكشفِ عن وجه توفيرِ الخصائصِ في هذه الآيةِ دونَ الآية الأخرى ممَّا يوازِنُها، وليس ذلك لِخلوِّ الآيةِ عن نُكَت الإعجازِ، ولا عَجْزِ الناظرين عن استخراجِ أمثالِها، ولكِنْ ما يبيَّنُ من الخصائِصِ =

- وأيضًا آيةُ سُورةِ (المُؤمنون) قُصِدَ منها الإنذارُ والتَّهديدُ بسَلْبِ تلك النِّعمةِ العظيمةِ، وأمَّا آيةُ سُورةِ (المُلْكِ) فالقَصْدُ منها الاعتبارُ بقُدرةِ اللهِ تعالى على سَلْبِها، فاخْتِلافُ المَقامَينِ له أثرٌ في اختلافِ المُقتضياتِ؛ فكانت آيةُ سُورةِ (المُؤمنون) آثَرَ بوَفرةِ الخصائصِ المُناسِبةِ لمَقامِ الإنذارِ والتَّهديدِ، على أنَّ سُورةَ (المُلْكِ) نَزَلت عقِبَ نُزولِ سُورةِ (المُؤمنين)، وقد يَتداخَلُ نُزولُ بَعْضِها مع نُزولِ بَعضِ سُورةِ (المُؤمنينَ)، فلمَّا أُشْبِعَت آيةُ سُورةِ (المُؤمنين) بالخُصوصيَّاتِ الَّتي اقْتَضاها المَقامُ، اكتُفِيَ عن مِثْلِها في نَظيرتِها مِن سُورةِ (المُلْكِ)، فسُلِكَ في الثَّانيةِ مَسْلَكُ الإيجازِ؛ لِقُرْبِ العَهدِ بنَظيرِها[١].

٣- قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، لعله قدَّم الظَّرفَ؛ تعظيمًا للامتنانِ بها[٢].

- قولُه: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ ذُكِرَ النَّخيلُ والأعنابُ؛ لكثرةِ منافعِهما؛ فإنَّهما يقومانِ مقامَ الطَّعامِ، ومقامَ الإدامِ، ومقامَ الفواكِهِ رطبًا

= البلاغيةِ في القرآنِ ليس يريدُ مَن يبيِّنُه أنَّ ما لاح له ووُفِّقَ إليه هو قُصارى ما أودعه اللهُ في نظمِ القرآنِ من الخصائصِ والمعاني، ولكنَّه مَبلغُ ما صادف لَوحُه للناظرِ المتدبِّر، والعلماءُ متفاوِتون في الكشفِ عنه على قدرِ القرائحِ والفهومِ؛ فقد يُفاضُ على أحدٍ مِن إدراك الخصائصِ البلاغيَّةِ في بعض الآياتِ، ولا يفاضُ عليه مثلُه أو على مثلِه في غيرِها، وإنما يقصِدُ أهلُ المعاني بإفاضةِ القولِ في بعض الآياتِ أن تكونَ نموذجًا لاستخراج أمثالِ تلك الخصائِصِ في آياتٍ أخرى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢٢).

ويابسًا(١). وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه صَرَّح بهذين الصِّنفينِ لشَرَفِهما، ولأنَّهما أكثَرُ ما عندَ العربِ من الثِّمارِ(٢).

- قولُه: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ فيه وَصْفُ الفواكِهِ بـ ﴿كَثِيرَةٌ﴾ باعتبارِ اختلافِ الأصنافِ؛ كالبُسْرِ والرُّطبِ والتَّمرِ، وكالزَّيتِ والعِنَبِ الرَّطْبِ، وأيضًا باعتبارِ كَثرةِ إثمارِ هَذينِ الشَّجَرينِ(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء قولُه: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بجَمْعِ (فواكه) وبالواوِ في ﴿وَمِنْهَا﴾، وفي سُورةِ (الزُّخرفِ) قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣] بإفرادِ (فاكهة) وحَذْفِ الواو مِن (منها)؛ ووَجْهُه: أنَّه راعَى في السُّورتينِ لَفْظَ الجنَّةِ؛ إذ ما هنا تقدَّمَتْ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ [المؤمنون: ١٩] بالجَمْعِ، فقال: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ بالجَمْعِ، وفي (الزُّخرفِ) ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ [الزخرف: ٧٢] بلَفْظِ الإفرادِ، وإنْ كانت هذه جَنَّةَ الخُلْدِ، لكنْ راعى اللَّفظَ فقال: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ [الزخرف: ٧٣]. وقال في هذه السُّورةِ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بزيادةِ الواوِ؛ لأنَّ تَقديرَ الآيةِ: منها تَدَّخِرون ومنها تَبيعونَ، وليس كذلك فاكهةُ الجنَّةِ؛ فإنَّها للأكْلِ فحَسْبُ؛ فلذلك قال في (الزُّخرفِ): ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ووافَقَ هذه السُّورةَ ما بَعْدَها أيضًا، وهو قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٤) [المؤمنون: ٢١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ أُخِّرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٨، ٣٨٩).

ذِكْرُ شَجرةِ الزَّيتونِ عن ذِكْرِ أخوَيْها (النَّخلِ والعِنَبِ)؛ لأنَّه أُرِيدَ الامتِنانُ بما في ثَمَرتِهما مِن التَّفكُّهِ والقُوتِ؛ فتكونُ مِنَّةً بالحاجيِّ والتَّحسينيِّ[1]. وتَخصيصُها بالذِّكْرِ مع طَيِّ كونِ النَّاسِ منها يأْكُلون: تَنويهٌ بشأْنِها، وإشارةٌ إلى كَثرةِ مَنافِعِها؛ لأنَّ مِن ثَمرتِها طَعامًا وإصلاحًا ومُداواةً، ومِن أعوادِها وَقودًا وغيرَه[2].

- قولُه: ﴿تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ فيه تَخصيصُها بالخُروجِ مِن طُورِ سَيناءَ -مع خُروجِها من سائرِ البِقاعِ أيضًا؛ لِتَعظيمِها، ولأنَّه المنشَأُ الأصليُّ لها[3]. وفيه تَنبيهٌ للتَّنويهِ بشَرَفِ مَنْبَتِها، وكَرَمِ الموطنِ الَّذي ظهَرَت فيه[4].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ في قولِه: ﴿تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ العَجيبةِ المُهِمَّةِ الَّتي كُوِّنَت بها تلك الشَّجرةُ في أوَّلِ تكوينِها، حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُبصِرُها خارجةً بالنَّباتِ في طُورِ سَيناءَ[5].

- قولُه: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ فيه عَطْفٌ للخاصِّ (الصِّبغِ) على العامِّ (الدُّهْنِ)؛ للاهتمامِ[6].

٥- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾

---

(١) لأنَّ مِنْ الطعامِ ما هو فاكهةٌ (يُتَفَكَّه بأكلِه، أي: يُتَلَذَّذُ بِطَعْمِه مِن غيرِ قصدِ القُوتِ)، كاللَّوْزِ والكُمَّثْرَى، ومنها ما يُقصدُ به القُوت -وليس فَاكِهَةً- كَالزَّيْتونِ، ومن الأطعمةِ ما هو فاكهةٌ وطعامٌ كالتَّمرِ والعنبِ لأنَّه يُؤكلُ رَطْبًا ويابسًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- في قولِه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ خُصَّتِ العِبْرةُ بالحيوانِ؛ لِمَا أنَّ مَحَلَّ العِبْرةِ فيه أظهَرُ ممَّا في النَّباتِ[1].

- قولُه: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ تفصيلٌ وبيانٌ لجُملةِ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾[2].

- قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فيه تَقديمُ الظَّرفِ -﴿فِيهَا﴾، ﴿وَمِنْهَا﴾- على عامِلِه -﴿مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾، ﴿تَأْكُلُونَ﴾-؛ لِيُشْعِرَ بالأوَّلِ الاشتراكَ بسائرِ الحيواناتِ الَّتي تُناسِبُها في المنافِعِ، وبالثَّاني اختصاصَها بمَنْفعةٍ زائدةٍ، وكذا عُطِفَ قولُه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ المُرادَ مِن قولِه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ الإبلُ لا غيرُ -على أحدِ القولينِ في التفسيرِ- فحِينئذٍ نَظْمُ الآياتِ قَريبٌ مِن نَظْمِ قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] الآيةَ؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧ - ٢٠] تفصيلٌ لقولِه: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٩ - ٢٠]، وقولَه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ إلى قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ تَفصيلٌ لقولِه: ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، وإنَّما دخَلَ الجِبالُ، وإنْ لم يُنَصَّ عليها في التَّنزيلِ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ يَدُلُّ عليها[3].

٦- قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٦٩).

- في قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ جمَعَ بينَ الأنعامِ وبينَ الفُلكِ في إيقاعِ الحَمْلِ عليها؛ مُبالَغةً في تَحمُّلِها للحِمْلِ، وهو الدَّاعي إلى تأْخيرِ ذِكْرِ هذه المَنفعةِ -مع كَونِها مِن المنافعِ الحاصِلَةِ منها- عن ذِكْرِ مَنفعةِ الأكلِ المُتعلِّقةِ بعَينِها[١].

- وفي ذِكْرِ ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ إدماجٌ وتَهيئةٌ للتَّخلُّصِ إلى قِصَّةِ نُوحٍ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٠).

الآيات (٢٣-٣٠)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ
فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ
ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ
﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾
وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: أي: أشرافُ النَّاسِ ووجُوهُهم، أو الجماعةُ يجتمعونَ على رأيٍ، فيَملؤونَ العيونَ منظرًا، والنفوسَ بهاءً وجلالًا. ويُقالُ: فلانٌ مِلءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه. وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يتمالؤونَ، أي: يتظاهرونَ عليه. وأصلُ (ملأ): يدلُّ على المساواةِ، والكمالِ في الشيءِ[1].

﴿جِنَّةٌ﴾: أي: جُنونٌ، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتَّستُّرُ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣، ٣٠٦).

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: أي: انتَظِروا، وأصلُ التربُّصِ: الانتظارُ والتمكُّثُ[١].

﴿وَفَارَ﴾: أي: نبَع وارتفَع، ومنه: فارت القِدرُ: إذا ارتفعَ ما فيها وغلَى، وأصلُ (فور): يدُلُّ على غَلَيانٍ[٢].

﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: أي: المكانُ الذي يُخبَزُ فيه، أو: مَكانُ النارِ، وقيل: التَّنُّورُ: وجهُ الأرضِ، وأصلُ (نور): يدلُّ على إضاءةٍ، واضطرابٍ، وقِلَّةِ ثَباتٍ[٣].

﴿لَمُبۡتَلِينَ﴾: أي: لَمُختَبِرينَ، وأصلُ البلاءِ: الاختبارُ والامتحانُ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّه أرسَل نُوحًا إلى قَومِه بدَعوةِ التَّوحيدِ، فقال لهم: اعبُدوا اللهَ وحْدَه، ليس لكم مِن إلهٍ يَستَحِقُّ العِبادةَ غَيرُه جَلَّ وعلَا، أفلا تَخشَونَه وتخافون عَذابَه؟! فكذَّبه سادةُ قَومِه وأشرافُهم، وقالوا لعامَّتِهم: ما نوحٌ إلا إنسانٌ مِثلُكم، وليس رسولًا كما يدَّعي، إنَّما يُريدُ أن يكونَ أفضلَ منكم، ولو شاء اللهُ إرسالَ رسلٍ لأرسَلَ المَلائِكةَ يُبلِّغونَنا رسالتَه إلينا؛ ما سَمِعْنا بمِثلِ هذا الذي يدْعُونا إليه فيمَن سبَقَنا مِن القرونِ التي مَضَتْ، وما نُوحٌ إلَّا رجُلٌ به مَسٌّ مِنَ الجُنونِ، فانتَظِروا وقتًا حتى يُفيقَ مِنْ جُنونِه أو يموتَ، فتَستريحوا منه!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٤)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٣) (١٧/ ٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤).

قال نوحٌ: رَبِّ انصُرْني على قَومي؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم لي فيما بلَّغتُهم مِن رِسالتِك.

فأوحَى الله إلى نوحٍ أنْ يصنعَ السَّفينةَ بمرأًى منه تعالى وحِفظِه، وبتعليمِه إيَّاه كيفيةَ صنعِها، وأنَّه إذا جاء أمرُه بإهلاكِ قَومِ نوحٍ بالطوفانِ، ونبَعَ الماءُ بقُوَّةٍ مِنَ المكانِ الذي يُخبَزُ فيه، فليحمِلْ في السَّفينةِ مِن كُلِّ المَخلوقاتِ ذَكَرًا وأنثى، وليُدخِلْ أهلَه فيها أيضًا إلَّا مَن سبَقَ حُكمُ الله تعالى بإهلاكِه لكفرِه، ونهاه الله تعالى أن يَسألَه نَجاةَ قَومِه الكافرينَ؛ فإنَّهم مُغرَقونَ لا مَحالةَ.

وأمَرَه تعالى إذا استقرَّ على السَّفينةِ وركِبَها هو ومَن معَه؛ أن يقولَ: الحَمدُ لله الذي نجَّانا مِنَ القَومِ الظالمين. وأمره أن يدعوَ ربَّه أن يُنزِلَه إنزالًا مباركًا؛ فهو سبحانَه خَيرُ المُنزِلينَ.

ثم بيَّن تعالى أنَّ في إهْلاكِ قَومِ نُوحٍ الكافرينَ وإنجائِه المُؤمِنينَ لَدَلالاتٍ واضحاتٍ على صِدقِ ما جاء به رُسُلُ اللهِ مِن عنده، وإنْ كان الله تعالى لَمُختبِرٌ الأُمَمَ بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم قَبلَ إيقاعِ العُقوبةِ بهم؛ لِينظرَ كيف يَعملونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه وتَعالَى دَلائلَ التَّوحيدِ؛ أرْدَفَها بالقَصصِ؛ كما هو العادةُ في سائِرِ القُرآنِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أولًا بَدْءَ الإنسانِ وتَطوُّرَه في تِلكَ الأطوارِ، وما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٠).

امتَنَّ به عليه ممَّا جَعَله تعالى سَببًا لحياتِهم، وإدراكِ مَقاصدِهم؛ ذَكَر أمثالًا لكُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأممِ السَّابقةِ المُنكِرةِ لإرسالِ اللهِ رُسلًا، المُكذِّبةِ بما جاءَتْهم به الأنبياءُ عن اللهِ؛ فابتَدَأَ بِقصَّةِ نُوحٍ؛ لأنَّه أبو البَشرِ الثاني، كما ذَكَر أولًا آدَمَ وخلقَه مِنْ طِينٍ. ولِقَصَّتِه أيضًا مُناسَبةٌ بما قَبْلَها؛ إذ قَبْلَها ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]؛ فذَكر قِصَّةَ مَن صَنَعَ الفُلكَ أولًا، وأنَّه كان سَببَ نَجاةِ مَن آمَنَ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان الاستدلالُ والامتنانُ -اللَّذانِ تَقدَّما- مُوجَّهَينِ إلى المشركينَ الذين كَفروا بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واعتلُّوا لذلك بأنَّهم لا يُؤمِنون برِسالةِ بَشَرٍ مِثلِهم، وسألوا إنزالَ ملائكةٍ، ووَسَموا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالجُنونِ، فلمَّا شابَهوا بذلك قومَ نُوحٍ ومَن جاءَ بعدَهم، ناسَبَ أنْ يُضرَبَ لهم بقومِ نُوحٍ مَثَلٌ؛ تحذيرًا ممَّا أصابَ قومَ نُوحٍ مِن العَذابِ[(٢)].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: ولقدْ أَرسَلْنا نُوحًا إلى قَومِه، فقال لهم نُوحٌ: يا قَومِ، اعبُدوا اللهَ وَحْدَه، وذِلُّوا بطاعتِه مُخلِصينَ له، ما لكم مِن مَعبودٍ غيرُه يَستَحِقُّ أنْ تَعبُدوه[(٣)].

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي: أفلا تخشونَ اللهَ، وتخافونَ عقوبتَه أن تحِلَّ بكم بسببِ عبادتِكم غيرَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٦، ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤١).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: هذا تَعزيةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ هذا الرَّسولِ الصابرِ؛ ليتأسَّى به في صبرِه، وليَعلَمَ أنَّ الرُّسُلَ قبْلَه قد كُذِّبوا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٠).

وإشراكِكم به[١]؟!

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾.

أي: فقال الكفارُ مِن قومِ نوحٍ مِن الأشرافِ والسَّادةِ: ما نُوحٌ إلَّا إنسانٌ مِثلُكم، وليس رَسولًا كما يَزعُمُ، وإنَّما يُريدُ أنْ يكونَ أفضَلَ منكم، فادَّعى النُّبُوَّةَ لِتَتَّبِعوه[٢]!

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ ألَّا نَعبُدَ شَيئًا سِواه، لَأَنزلَ علينا ملائِكةً رُسُلًا يُبَلِّغونَنا ألَّا نَعبُدَ غيرَه[٣].

﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

أي: ما سَمِعْنا في أسلافِنا مِنَ القُرونِ الماضيةِ بمِثلِ هذا الَّذي يَدْعونا إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٠، ١٣١).

قال البقاعي: (﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: تخافون ما ينبغي الخوفُ منه، فتجعلوا لكم وقايةً مِن عذابِه، فتعمَلوا بما تقتضيه التقوى مِن إفرادِه بالعبادةِ؛ خوفًا من ضَرِّكم، ورجاءً لنفعِكم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٢).

قولُه: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ وَصَفُوه بذلك؛ إغضابًا للمُخاطبينَ عليه -عليه السَّلامُ-، وإغراءً لهم على مُعاداتِه عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

نُوحٌ، مِن أنَّه لا مَعبودَ لنا غيرُ اللهِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ * وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ * مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ * أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ٤ - ٨].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾.

أي: ما نُوحٌ إلَّا رجُلٌ فيه شَيءٌ مِنَ الجُنونِ؛ دفَعه لادِّعاءِ الرسالةِ، فلا يَدري ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٩).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ في قولِه تعالى: ﴿بِهَٰذَا﴾ تعودُ إلى دعوةِ نوحٍ إلى التوحيدِ: ابنُ جريرٍ، والسمرقندي، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٨)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٩٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٩).

قال الماوردي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فيه وجهانِ: أحدُهما: ما سمِعنا بمثلِ دعوتِه. والثاني: ما سمِعنا بمثلِه بشرًا أتى برسالةٍ مِن ربِّه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٥٢).

وممَّن قال بالقولِ الثاني: ابنُ أبي زمنين، والسمعاني، وابنُ كَثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

يقولُ، وهو ليس رَسولًا مِن عِندِ اللهِ كما يَزعُمُ[١]!

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾.

أي: فانتَظِروا بنُوحٍ وَقْتًا ما حتَّى يُفيقَ مِنْ جُنونِه فيترك دعواه هذه، أو يَموتَ؛ فتَستَريحوا منه[٢].

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦)﴾.

أي: قال نُوحٌ: رَبِّ، انصُرْني على قَومي، فأهلِكْهم بسَبَبِ تَكذيبِهم برِسالَتي[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٤).

قال الزمخشريُّ: (الجِنَّةُ: الجُنونُ أو الجِنُّ، أي: به جِنٌّ يخبلونَه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

وممن قال بأنَّ المرادَ: انتظارُ موتِه: الواحديُّ، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

وقيل: المرادُ: انتَظِروا حتى حينٍ؛ لعَلَّه يُفيقُ مِمَّا هو فيه من الجُنونِ. وممن قال بنحو ذلك: الزمخشريُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٢٨).

وقال الشوكاني: (﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ أي: انتَظِروا به حتَّى يَسْتَبِينَ أمرُه، بأنْ يفيقَ مِنْ جُنونِه فيَتْرُكَ هذه الدَّعوَى، أو حتَّى يموتَ؛ فتَسْتَريحوا مِنه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦- ٢٧].

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

أي: فقُلْنا لنُوحٍ: اصنَعِ السَّفينةَ بمرأًى مِنَّا، وفي حِفظِنا، وبتَعليمِنا إيَّاك كيفيَّةَ صُنْعِها(١).

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

أي: فإذا أتَى وَقتُ إهلاكِنا لِقَومِك -يا نوحُ- بالطُّوفانِ، ونَبَع الماءُ بشِدَّةٍ مِنَ المَوضِعِ الَّذي يُخبَزُ فيه؛ فأَدْخِلْ في السَّفينةِ مِن كلِّ صِنفٍ مِن أصنافِ المخلوقاتِ ذَكَرًا وأُنثى(٢).

= (١٢/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

قال ابنُ جرير: (وقَولُه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] اختلف أهلُ التَّأويلِ في معنى ذلك؛ فقال بَعضُهم: معناه: انبَجَس الماءُ مِن وَجهِ الأرضِ، وفار التَّنُّورُ، وهو وَجهُ الأرضِ... وقال آخَرون: هو تنويرُ الصُّبحِ... وقال آخَرون: معنى ذلك: وفارَ أعلى الأرضِ، وأشرَفُ مكانٍ فيها بالماءِ... =

كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [هود: ٤٠].

﴿ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ ﴾.

أي: وأَدخِلْ -يا نُوحُ- في السَّفينةِ أهْلَ بَيتِك، إلَّا مَن سبَقَ حُكمُ اللهِ عليه بإهلاكِه؛ لكُفرِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا

= وقال آخَرون: هو التَّنُّورُ الذي يُختبَزُ فيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١- ٤٠٤).

وقال أيضًا: (وأَولى هذه الأقوالِ عندنا بتأويلِ قَولِه: ﴿ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [هود: ٤٠] قَولُ مَن قال: هو التنُّورُ الذي يُختبَزُ فيه؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ مِن كلامِ العَرَبِ، وكلامُ اللهِ لا يُوجَّهُ إلَّا إلى الأغلَبِ الأشهَرِ مِن معانيه عند العَربِ إلَّا أن تقومَ حُجَّةٌ على شَيءٍ منه بخلافِ ذلك، فيُسَلَّمَ لها. وذلك أنَّه جلَّ ثناؤه إنَّما خاطَبَهم بما خاطَبَهم به؛ لإفهامِهم معنى ما خاطَبَهم به). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٦).

وقال ابن عطية: (الصَّحيحُ من الأقوالِ فيه: أنَّه تنُّورُ الخُبزِ، وأنَّها أمارةٌ كانت بيْنَ الله تعالى وبيْن نوحٍ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤١).

ونسَبه السمعاني للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٢٨).

وقال السعدي: (﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ أي: فارت الأرضُ، وتفجَّرتْ عيونًا، حتى محلُّ النارِ، الذي لم تَجرِ العادةُ إلَّا ببُعدِه عن الماءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآيةِ (٤٠) مِن سورةِ (هودٍ).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣).

تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

أي: ولا تَسألْني -يا نُوحُ- أنْ أُنَجِّيَ الكافرينَ؛ فإنِّي قدْ حَكمْتُ بإغراقِهم جَميعًا[1].

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨﴾.

أي: فإذا استقرَرْتَ -يا نوحُ- أنتَ والمُؤمِنونَ الَّذين معك على السَّفينةِ، وعَلَوتُم فوقَها راكِبينَ، فقُلِ: الحَمدُ للهِ الَّذي خلَّصَنا مِنَ القَومِ المُشرِكينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أشار اللهُ تعالى لنُوحٍ -عليه السَّلامُ- بقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٤).

قال ابن عاشور: (والتَّنجيةُ مِنَ القومِ الظَّالمينَ: الإنجاءُ مِنْ أذاهم والكونِ فيهم؛ لأنَّ في الكونِ بينَهم مُشاهدةَ كفرِهم ومناكِرِهم، وذلك مِمَّا يُؤْذي المؤمنَ. والظُّلْمُ: يجوزُ أنْ يُرادَ به الشِّركُ كما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ويجوزُ أنْ يُرادَ به الاعتداءُ على الحقِّ؛ لأنَّ الكافرينَ كانوا يُؤْذونَ نوحًا والمؤمنينَ بشتَّى الأذى باطلًا وعدوانًا، وإنَّما كان ذلك إنجاءً؛ لأنَّهم قدِ استقلُّوا بجماعَتِهم، فسَلِموا مِنَ الاختلاطِ بأعدائِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٧).

السَّلامةِ بالحمْلِ، أَتْبَعه الإشارةَ إلى الوَعدِ بإسكانِ الأرضِ، فقال[١]:

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿مُنزَلٗا﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿مَنْزِلًا﴾ اسمُ مَكانٍ، بمعنى مَوضِعِ النُّزولِ[٢].

٢- قِراءةُ ﴿مُنزَلٗا﴾ وهو مصدرٌ بمعنى الإنزالِ، أي: أَنْزِلْني إنْزالًا مُبارَكًا. وقيل: هو اسمُ مفعولٍ مِن (أنزله) على حذفِ المجرورِ، أي: مُنزلًا فيه. وقيلَ: يَرجِعُ لمعنى القِراءةِ الأُولَى، بمعنَى: مَوضِعًا مُبارَكًا يَنزِلونَ فيه[٣].

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾.

أي: وقُلْ -يا نُوحُ: رَبِّ أَنْزِلْني إنْزالًا مُبارَكًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٤).

(٢) قرأ بها شعبةُ أبو بكرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٨٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٠).

قال السمعاني: (وفي مَوضِعِ النُّزولِ قولانِ: أحدُهما: أنَّه السَّفينةُ بعدَ الرُّكُوبِ، والآخَرُ: أنَّه الأرضُ بعدَ النُّزُولِ مِن السَّفينةِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٢).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٨٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧، ٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٠).

قال ابن الجوزي: (وفي الوقتِ الذي قال فيه نوحٌ ذاك: قولان: أحدُهما: عند نزولِه في السفينةِ. والثاني: عند نزولِه من السفينةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦١). =

قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: ٤٨].

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾.

أي: وأنتِ -يا ربَّنا- خَيرُ مَن تُنزِلُ عِبادَك(١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هذه القِصَّةَ العظيمةَ، أعقَبَها بالتَّنبيهِ إلى مَوضعِ العِبرةِ منها للمُسلمينَ؛ فأتَى بهذا الاستئنافِ لذلك(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾.

أي: إنَّ في إهْلاكِنا قَومَ نُوحٍ الكافرينَ وإنجائِنا المُؤمِنينَ: لَدَلالاتٍ واضحاتٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وعِلْمِه وحِكمَتِه، وصِدْقِ أنبيائِه، وقُدْرتِه على نَصْرِ المؤمنين، وإهلاكِ أعدائِه(٣).

= وقال البغوي: (فالبَركةُ في السفينةِ: النجاةُ، وفي النزولِ بعدَ الخروجِ: كثرةُ النسلِ مِن أولادِه الثلاثةِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٧٩)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٩٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

قال ابن عاشور: (الآياتُ: الدَّلالاتُ، أي: لَآياتٍ كثيرةً، منها ما هي دلائلُ على صدقِ رسالة نوحٍ، وهي إجابةُ دعوتِه وتصديقُ رسالتِه وإهلاكُ مكذِّبيه، ومنها آياتٌ لأمثالِ قومِ نوحٍ من الأممِ المكذِّبين لرسُلِهم، ومنها آياتٌ على عظيمِ قدرةِ الله تعالى في إحداثِ الطوفانِ وإنزالِ مَن في السفينةِ مَنزِلًا مُباركًا، ومنها آياتٌ على عِلمِ الله تعالى وحكمتِه؛ إذ قدَّر لتطهيرِ الأرضِ مِن =

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

أي: وقدْ كُنَّا مُختَبِرينَ بإرسالِ الرُّسُلِ، والتَّذكيرِ بآياتِنا قَبلَ نُزولِ عُقوبتِنا؛ لِنَنظُرَ كيف يَعمَلونَ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هذا تَعليمٌ منه تعالى لِنُوحٍ عليه السَّلامُ ولِمَن معَه أنْ يَقولوا هذا؛ شُكْرًا له تعالى، وحمْدًا على نَجاتِهم مِنَ القومِ الظَّالمينَ[2]، وهكذا الواجِبُ على كلِّ مَن أنجاه اللَّه مِن الظَّلَمةِ أن يحمَدَ رَبَّه على ذلك، ويسألَه النَّجاةَ إذا ابتُليَ بهم،

= الشِّركِ مِثلَ هذا الاستئصالِ العامِّ لأهلِه، وإذ قدَّر لإبقاءِ الأنواعِ مِثلَ هذا الصُّنعِ الذي أنجَى به مِن كلِّ نوعٍ زوجينِ ليُعادَ التناسُلُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨)، ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٤٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٠).

قيل: المعنى: وقد كنَّا مُختبِرينَ قومَ نوحٍ بإرسالِنا نوحًا إليهم، وتذكيرِهم بآياتنا قَبلَ نُزولِ عُقوبتنا بهم؛ لِنَنظُرَ كيف يعملون. وممَّن قال بذلك في الجُملة: ابنُ جَرير، والواحديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦١).

وقيل: المعنى: ما كُنَّا إلَّا مُبتلِينَ الأممَ قَبلَكم، أي: مختبرينَ لهم بإرسالِ الرُّسلِ إليهم؛ ليَظهرَ المطيعُ والعاصي. وممَّن قال بذلك في الجُملة: القُرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤).

وإلى نحوِ ذلك ذهَب البقاعيُّ، فقال: (﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: فاعلين فِعلَ المختبِرِ لعبادِنا بإرسال الرُّسلِ؛ لِيَظهرَ في عالَمِ الشهادةِ الصالحُ منهم مِن غيرِه، ثمَّ نبتلي الصالحينَ منهم بما يَزيدُ حَسناتِهم، ويَنقُصُ سيِّئاتِهم، ويُعلي دَرجاتِهم، ثم نجعلُ لهم العاقبةَ؛ فنُبلي بهم الظالمينَ بما يُوجِبُ دَمارَهم، ويُخربُ دِيارَهم، ويمحو آثارَهم، هذه عادتُنا المستمرَّةُ إلى أنْ نرِثَ الأرضَ ومَن عليها، فيكونَ البلاءُ المبينُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

كما عَلَّم نوحًا أن يقولَ ما ذَكَر ويحمَدَه على النَّجاةِ منهم[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فيه إبْطالُ أُلوهيَّةِ غَيرِ اللهِ، وإثْباتُ الإلهيَّةِ للهِ تعالى[٢].

٢- الإقرارُ بالملائكةِ عامٌّ في بَني آدَمَ، لم يُنكِرْ ذلك إلَّا شَواذٌّ مِن بَعضِ الأُمَمِ؛ ولهذا قالت الأُمَمُ المُكذِّبةُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، حتَّى قَومُ نُوحٍ وعادٌ، وثمودُ، وقومُ فِرعونَ؛ قال قَومُ نُوحٍ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال تَعالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]، وفِرْعونُ وإنْ كان مُظْهِرًا لِجَحْدِ الصَّانعِ؛ فإنَّه ما قال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، إلَّا وقد سمِعَ بذِكْرِ الملائكةِ؛ إمَّا مُعترِفًا بهم، وإمَّا مُنكِرًا لهم، فذِكْرُ الملائكةِ عامٌّ في الأُمَمِ، وليس في الأُمَمِ أُمَّةٌ تُنكِرُ ذلك إنكارًا عامًّا، وإنَّما يُوجَدُ إنكارُ ذلك في بَعضِهم؛ مِثْلُ مَن قدْ يَتفلسَفُ، فيُنكِرُهم؛ لِعَدمِ العِلْمِ، لا للعِلْمِ بالعَدمِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: نَصْرًا كائنًا بسببِ تَكذيبِهم؛ جعَلَ حَظَّ نَفْسِه فيما اعْتَدَوا عليه مُلْغًى، واهتَمَّ بحَظِّ الرِّسالةِ عن اللهِ؛ لأنَّ الاعتداءَ على الرَّسولِ استخفافٌ بمَن أرسَلَهُ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٥).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ لَمَّا كان نوحٌ عليه السَّلامُ يَخافُ مِن أذاهُم له في عَمَلِه بالإفسادِ وغيرِه، قال: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: إنَّه لا يَغِيبُ عنَّا شَيءٌ مِن أمْرِك ولا مِن أمْرِهم، وأنتَ تَعرِفُ قُدرتَنا عليهم؛ فثِقْ بحِفْظِنا، ولا تَخَفْ شيئًا مِن أمْرِهم. ولَمَّا كان لا يَعلَمُ تلك الصَّنعةَ، قال: ﴿وَوَحْيِنَا﴾[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ألْهَمه اللَّهُ بالوحيِ أنْ يحمَدَ رَبَّه على ما سَهَّل له مِن سبيلِ النَّجاةِ، وأنْ يسألَه نزولًا في منزِلٍ مُبارَكٍ عقبَ ذلك الترحُّلِ، والدُّعاءُ بذلك يتضَمَّنُ سؤالَ سلامةٍ مِن غَرَقِ السَّفينةِ، وفي ذلك التَّعليمِ إشارةٌ إلى أنَّه سيُتقبَّلُ ذلك منه[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ استُدِلَّ به على استحبابِ هذا الدُّعاءِ عندَ النُّزولِ مِن السَّفينةِ، وأنَّه تعليمٌ مِن الله لعبادِه أن يقولوا ذلك[3]، وذلك على أحدِ القولينِ في وقتِ قولِه.

٧- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ جِيءَ بـ(على)؛ لأنَّ السَّابقَ ضارٌّ، كما جِيءَ باللَّامِ حيث كان نافعًا في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[4] [الأنبياء: ١٠١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٠)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٢).

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ لمَّا شابَهَ المشركونَ قَومَ نُوحٍ ومَن جاء بَعْدَهم: ناسَبَ أنْ يُضْرَبَ لهم بقَومِ نُوحٍ مَثَلٌ؛ تَحذيرًا ممَّا أصاب قَومَ نُوحٍ مِن العذابِ، وقد جَرَى في أثناءِ الاستدلالِ والامتنانِ ذِكْرُ الحَمْلِ في الفُلْكِ؛ فكان ذلك مُناسَبةً للانتقالِ، فحصَلَ بذلك حُسْنُ التَّخلُّصِ[١]، فيُعتبَرُ ذِكْرُ قَصصِ الرُّسلِ إمَّا استطرادًا في خِلالِ الاستدلالِ على الوَحدانيَّةِ، وإمَّا انتقالًا[٢]. وهو شُروعٌ في بَيانِ إهمالِ الأُممِ السَّابقةِ، وتَرْكِهم النَّظَرَ والاعتبارَ فيما عُدِّدَ مِن النِّعَمِ الفائتةِ للحصرِ، وعَدَمِ تَذكُّرِهم بتَذكيرِ رُسلِهم وما حاقَ بهم لذلك مِن فُنونِ العذابِ؛ تَحذيرًا للمُخاطَبينَ[٣].

- وتَقديمُ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ على سائرِ القصصِ؛ لأنَّه أبو البَشَرِ الثَّاني، كما ذُكِرَ أوَّلًا آدَمُ في قولِه: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾، وفي إيرادِها إثْرَ قولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ مِن حُسْنِ المَوقِعِ ما لا يُوصَفُ[٤].

---

(١) حُسنُ التخَلُّصِ: هو الانتِقالُ ممَّا ابتُدِئَ به الكلامُ إلى المقصودِ، أو مِن مَوضوعٍ إلى موضوعٍ آخَرَ بأسلوبٍ حَسَنٍ مُستطابٍ، على وَجهٍ سَهلٍ دَقيقِ المعنى، بحيث لا يشعُرُ السَّامِعُ بالانتقالِ مِن المعنى الأوَّلِ إلَّا وقد وقعَ عليه الثَّاني؛ لشِدَّةِ الالتئامِ بيْنهما. وحُسنُ التخَلُّصِ مُتشابِهٌ جِدًّا مع الاستِطرادِ، إلَّا أنَّ بينهما فرقًا دقيقًا، بيانُه: أنَّ التخَلُّصَ تَركُ ما كان الكلامُ فيه بالكُلِّيَّةِ، والإقبالُ على ما تُخُلِّصَ إليه. والاستِطرادُ: مُرورٌ بذِكرِ الأمرِ الذي استُطرِدَ إليه مُرورًا كالبَرقِ الخاطِفِ، ثمَّ تَرْكُه والعودةُ إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكَلِّمَ لم يَقصِدْه وإنَّما عرَضَ عُروضًا. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

- وتَصديرُ جُملةِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ بلامِ القسَمِ؛ لتأكيدِ المضمونِ التَّهديديِّ مِن القِصَّةِ[1].

- قولُه: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ...﴾ فيه عَطْفُ مَقالةِ نُوحٍ على جُملةِ إرسالِه بفاءِ التَّعقيبِ؛ لإفادةِ أدائِه رِسالةَ ربِّه بالفَورِ مِن أمْرِه، وهو شأْنُ الامتثالِ[2].

- قولُه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعْبُدُوه وَحْدَه، كما يُفْصِحُ عنه قولُه تعالى في سُورةِ (هُودٍ): ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦]، وتُرِكَ التَّقييدُ به؛ للإيذانِ بأنَّها هي العِبادةُ فقطْ، وأمَّا العِبادةُ بالإشراكِ فليسَتْ مِن العِبادةِ في شَيءٍ رأْسًا[3].

- جُملةُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ العِبادةِ المأْمورِ بها، أو لِتَعليلِ الأمْرِ بها[4]، وهو تَعليلٌ أخَصُّ مِن المُعلَّلِ، وهو أوقَعُ؛ لِمَا فيه مِن الإيجازِ؛ لاقتضائِه مَعْنى: اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه[5]. و(لكم) للتَّخصيصِ والتَّبْيينِ[6].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الهمزةُ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه، والفاءُ للعَطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المَقامُ، أي: أتعرِفونَ ذلك -أي: مَضمونَ قولِه تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾- فلا تتَّقونَ عذابَهُ بسببِ إشْراكِكم به في العِبادةِ ما لا يَستحِقُّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠).

الوُجودَ لولا إيجادُ اللهِ تعالى إيَّاهُ، فَضْلًا عنِ استحقاقِ العِبادةِ؛ فالمُنكَرُ عدَمُ الاتِّقاءِ مع تَحقُّقِ ما يُوجِبُه، أو: ألَا تُلاحِظونَ ذلك، فلا تتَّقونَه؛ فالمُنكَرُ كِلَا الأمرينِ؛ فالمُبالَغة حِينئذٍ في الكَميَّةِ، وفي الأوَّلِ في الكَيفيَّةِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيه مناسَبةٌ حسنةٌ؛ حيث خُولِفَت في حِكايةِ جَوابِ الملأِ مِن قَومِهِ الطَّريقةُ المألوفةُ في القُرآنِ في حِكايةِ المُحاوَراتِ، وهي تَرْكُ العَطْفِ الَّتي جَرَى عليها قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فعُطِفَ هنا جَوابُ الملأِ مِن قَومِه بالفاءِ؛ لِوَجهينِ:

أحدُهما: أنَّهم لم يُوجِّهوا الكلامَ إليه، بل تَرَكوه وأقْبَلوا على قَومِهم يُفنِّدون لهم ما دَعاهم إليه نُوحٌ.

والثَّاني: لِيُفادَ أنَّهم أسْرَعوا بتَكذيبِه وتَزْييفِ دَعوتِه قبْلَ النَّظرِ[٢].

- ومِن المناسَبةِ الحسنةِ أيضًا: قولُه هنا: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بتقديمِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾، وقال بعْدُ بالعَكْسِ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه اقتصَرَ هنا في صِلَةِ الموصولِ على الفِعلِ والفاعِلِ، وفيما بَعْدُ طالَتْ فيه الصِّلةُ، بزِيادةِ العَطْفِ على الصِّلةِ مرَّةً بعْدَ أُخرى، فقدَّمَ عليها ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ لأنَّ تأْخيرَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤١).

عن المفعولِ مُلْبِسٌ، وتَوسيطَه بَيْنَه وبينَ ما قَبْلَه رَكيكٌ[1].

وفيه وَجْهٌ آخَرُ: أنَّ المجرورَ ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾ رافِعٌ إمكانَ أنْ يكونَ القائلونَ غيرَهم، ويَلِيهِ في الحاجةِ إلى ذِكْرِه وَسْمُهم بالكُفْرِ؛ لأنَّه سبَبُ أخْذِهم وهَلاكِهم، إلَّا أنَّه لمَّا كان قد يُفْهِمُه سِياقُ الكلامِ، لم يَلزَمِ الإفصاحُ به في كلِّ مَوضعٍ، وإنْ أُفْصِحَ به هنا، أمَّا الإفصاحُ بالمجرورِ فالإفصاحُ به أو بضَميرٍ يَقومُ مَقامَه ضَروريٌّ لا بُدَّ منه؛ لِيَحصُلَ منه تَخصيصُ الحُكْمِ بمَن تقدَّمَ. ولا فرقَ بينَ هذه القِصَّةِ وقِصَّةِ نُوحٍ قبْلَها في الحاجةِ إلى هذا المجرورِ أو ما يَقومُ مَقامَه، فلم يُقدَّمْ هناك؛ لأنَّه لم يَرِدْ هناك غيرُ صِفَةٍ واحدةٍ جُعِلَتْ مع مَوصوفِها كشَيءٍ واحدٍ، وإن كان الوصفُ بموصولٍ، والموصولُ يَطولُ بصِلتِه، إلَّا أنَّ طُولَه بصِلتِه لا يُزيلُه عن تقديرِه باسمٍ واحدٍ، فمِن حيثُ جُعلتِ الصِّفةُ مع موصوفِها كشيءٍ واحدٍ للحاجةِ إليها، وكونِها مفردةً: قُرِنتْ بموصوفِها، وتأخَّر المجرورُ، فقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وحيثُ لم يقَعِ الاكتفاءُ بصِفَةٍ واحدةٍ وزِيدَ عليها، ولا يُمكِنُ جَعْلُ صِفَتينِ فما زاد مع مَوصوفِها كشَيءٍ واحدٍ: قُدِّمَ المجرورُ، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]؛ فوقَعَ المَجرورُ في كلٍّ مِن الآيتينِ على ما يَجِبُ، وعُطِفَتِ الصِّفاتُ بَعْضُها على بَعضٍ؛ لِوُرودِها غيرَ صِفَةٍ[2].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا: زِيادةُ ما عُطِفَ على الوَصفِ بالكُفْرِ في القِصَّةِ الثَّانيةِ، وهو قولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٣٤-٩٣٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٣، ١٨٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٧، ٣٦٨).

مع اسْتِحقاقِهم العَذابَ بمُجرَّدِ كُفْرِهم؛ ووَجْهُه: أنَّ هذه الزِّيادةَ مُنْبئةٌ بأنَّ المذكورينَ في القِصَّةِ الثَّانيةِ ليسوا في شُمولِ الكُفْرِ إيَّاهم واستيلائِه على مُعْظَمِهم كقَومِ نُوحٍ عليه السَّلامُ، بلِ الإيمانُ في هؤلاء أفْشَى وأكثَرُ؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨]، ولم يقَعْ هنا وَصْفُ مَن آمَنَ مِن قَومِ هُودٍ بقِلَّةٍ ولا بكَثرةٍ، فبَقِيَ الاحتمالُ في الطَّرفينِ على حَدٍّ سواءٍ، إلَّا أنَّه ورَدَ في وَصْفِ الملَأِ المُكذِّبينَ مِن قَومِ هُودٍ في هذه السُّورةِ، ممَّن أفصَحَ بالرَّدِّ والتَّكذيبِ وصَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِه، ما يُشعِرُ بأنَّهم ليسوا أكثَرَ قومِه، وذلك لِمَا وصَفَهم به بعْدَ الكُفْرِ مِن التَّكذيبِ والإترافِ، وهو التَّنعُّمُ والتَّرفيهُ، والعَقْلُ شاهِدٌ أنَّ المُترفينَ ليسوا جَميعَهم، أمَّا الكُفْرُ فلا يَبعُدُ اتِّصافُ أُمَّةٍ بأسْرِها به، ويَبعُدُ اتِّصافُ جَميعِهم بالامتدادِ في التَّنعُّمِ والتَّرفُّهِ، فأشعَرَ وَصْفُهم بما ذُكِرَ بعْدَ كُفْرِهم بكَثرةٍ فيمَن عَداهم، بخِلافِ الحالِ في قَومِ نُوحٍ، وأشعَرَ أيضًا بامتدادِهم وتَمكُّنِهم في دُنْياهم أكثَرَ مِن غَيرِهم؛ فأشعَرَتْ زِيادةُ الوَصْفِ بتَوسُّعِ الحالِ وامتدادِ الآمادِ، فلم يكُنْ بُدٌّ مِن وَصْفِهم بما ذُكِرَ[1].

- قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وصَفَ الملَأَ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مع اشتراكِ الكلِّ فيه؛ للإيذانِ بكَمالِ عَراقتِهم في الكُفْرِ، وشِدَّةِ شَكيمتِهم فيه[2]. وفيه: إيماءٌ إلى أنَّ كُفْرَهم هو الَّذي أنطَقَهم بهذا الرَّدِّ على نُوحٍ، وهو تَعريضٌ بأنَّ مِثْلَ ذلك الرَّدِّ لا نُهوضَ له، ولكنَّهم رَوَّجُوا به كُفْرَهم؛ خَشيةً على زَوالِ سِيادَتِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤١، ٤٢).

- قولُه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وصَفُوهُ عليه السَّلامُ بذلك؛ مُبالَغةً في وَضْعِ رُتْبتِه العاليةِ وحَطِّها عن مَنصبِ النُّبوَّةِ(١). وهو كِنايةٌ عن تكذيبِه في دَعْوى الرِّسالةِ بدَليلٍ مِن ذاتِه؛ أَوْهَموهُم أنَّ المُساواةَ في البشريَّةِ مانِعةٌ مِن الوساطةِ بينَ اللهِ وبينَ خَلْقِه. واسمُ الإشارةِ مُنصرِفٌ إلى نُوحٍ، وهو يَقْتَضي أنَّ كَلامَ الملأِ وقَعَ بحَضرةِ نُوحٍ في وَقْتِ دَعوتِه، فعَدَلوا مِن اسمِه العَلَمِ إلى الإشارةِ؛ لأنَّ مَقصودَهم تَصغيرُ أمْرِه، وتَحقيرُه لَدى عامَّتِهم؛ كَيْ لَا يَتقبَّلوا قولَه(٢).

- قولُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ فيه حَذْفُ مَفعولِ فِعْلِ المشيئةِ؛ لِظُهورِه من جَوابِ (لو)، أي: لو شاءَ اللهُ إرسالَ رَسولٍ لَأنزَلَ ملائكةً رُسلًا، وذلك مِن الإيجازِ(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء قولُه هنا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ...﴾ الآيَة، بلَفْظِ (الله)، وفي سُورةِ (فُصِّلتْ) قال: ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤] بلَفْظِ ﴿رَبُّنَا﴾؛ ووَجْهُه: أنَّ كلَّ آيةٍ جاءت مُوافِقةً لِمَا قبْلَها؛ إذْ ما هنا تقدَّمَه لَفْظُ ﴿ٱللَّهُ﴾ دونَ ﴿رَبُّنَا﴾، وفي (فُصِّلَت) تقدَّمَ ذِكْرُ ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩] سابقًا على ذِكْرِ (الله)، فصُرِّحَ في هذه السُّورةِ بذِكْرِ (الله)، وهناك بذِكْرِ الرَّبِّ لإضافتِه إلى العالَمينَ، وهم جُملَتُهم، فقالوا -إمَّا اعتقادًا، وإمَّا استهزاءً-: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ فأضافُوا الرَّبَّ إليهم(٤).

- وجُملةُ: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مُستأْنفةٌ، قَصَدوا بها تَكذيبَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٤٢، ٤٣).
(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٠).

الدَّعوةِ بَعْدَ تَكذيبِ الدَّاعي؛ فلذلك جِيءَ بها مُستأْنفةً غيرَ مَعطوفةٍ؛ تَنبيهًا على أنَّها مَقصودةٌ بذاتِها، وليست تَكْمِلةً لِمَا قبْلَها، بخِلافِ أُسلوبِ عَطْفِ جُملةِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ إذ كان مَضمونُها مِن تَمامِ غرَضِ ما قبْلَها[١].

- ولمَّا كان السَّماعُ المَنْفِيُّ ليس سَماعًا بآذانِهم لكَلامٍ في زَمنِ آبائِهم، بلِ المُرادُ ما بلَغَ إلينا وُقوعُ مِثْلِ هذا في زَمنِ آبائِنا- عُدِّيَ فِعْلُ (سمِعَ) بالباءِ؛ لِتَضمينِه معنى الاتِّصالِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

- وقولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ جَميعَ ما قالوه يُثيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ أنْ يَتساءَلوا: إذا كان هذا حالَ دَعوتِه في البُطلانِ والزَّيفِ؛ فماذا دَعاهُ إلى القولِ بها؟ فيُجابُ بأنَّه أصابَهُ خلَلٌ في عَقْلِه، فطلَبَ ما لم يكُنْ لِيَنالَه مِثْلُه مِن التَّفضُّلِ على النَّاسِ كلِّهم بنِسْبَتِهم إلى الضَّلالِ؛ فقد طَمِعَ فيما لا يَطمَعُ عاقِلٌ في مِثْلِه، فدَلَّ طمَعُه في ذلك على أنَّه مَجنونٌ[٣].

- والتَّنوينُ في ﴿جِنَّةٌ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: هو مُتلبِّسٌ بشَيءٍ من الجُنونِ، وهذا اقتصادٌ منهم في حالِه؛ حيث احْتَرَزوا مِن أنْ يُورِّطُوا أنفُسَهم في وَصْفِه بالخَبالِ، مع أنَّ المُشاهَدَ مِن حالِه يُنافي ذلك، فأوْهَموا قَومَهم أنَّ به جُنونًا خَفيفًا لا تَبْدو آثارُه واضحةً[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٤٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والقَصرُ في قولِه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ قَصرٌ إضافيٌّ[(١)]، أي: ليس برَسولٍ مِن اللهِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بما قبْلَه، أي: أنَّه مَجنونٌ، فاصْبِروا إلى زَمانٍ حتَّى يَظهَرَ عاقِبةُ أمْرِه؛ فإنْ أفاقَ، وإلَّا قَتلتُموهُ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ كَلامًا مُستأْنفًا، وهو أنْ يَقولوا لِقَومِهم: اصْبِروا؛ فإنَّه إنْ كان نَبِيًّا حقًّا، فاللهُ يَنصُرُه ويُقوِّي أمْرَه، فنحن حِينئذٍ نَتَّبِعُه، وإنْ كان كاذِبًا، فاللهُ يَخذُلُه ويُبطِلُ أمْرَه، فحينئذٍ نَستريحُ منه[(٣)].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما حُكِيَ عن صَدِّهم النَّاسَ عن تَصديقِ دَعوةِ نُوحٍ، وما لَفَّقُوه مِن البُهتانِ في نِسْبتِه إلى الجُنونِ، ممَّا يُثِيرُ سُؤالَ مَن يسأَلُ: ماذا صنَعَ نُوحٌ حين كذَّبَه قومُه؟ فيُجابُ بأنَّه قال: رَبِّ انْصُرْني... إلخ[(٤)].

- قولُه: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث سأَلَ نوحٌ هنا نَصْرًا مُجْملًا، ولمَّا أعلَمَهُ اللهُ أنَّه لا رجاءَ في إيمانِ قَومِه إلَّا مَن آمَنَ منهم، كما جاء في سُورةِ (هُودٍ)، فلا رجاءَ في أنْ يكونَ نَصْرُه برُجوعِهم إلى طاعَتِه

---

(١) القصرُ الإضافي: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٥).

وتَصديقِه واتِّباعِ مِلَّتِه؛ فسأَلَ نُوحٌ حِينذاك نَصْرًا خاصًّا، وهو استئصالُ الَّذين لم يُؤْمِنوا، كما جاء في سُورةِ (نُوحٍ): ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ فالتَّعقيبُ الَّذي في قولِه تعالى هنا: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ تَعقيبٌ بتَقديرِ جُمَلٍ مَحذوفةٍ، وهو إيجازٌ في حِكايةِ القِصَّةِ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ لِتَرتيبِ مَضمونِ ما بَعْدَها على تَمامِ صُنْعِ الفُلكِ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ التَّنوينُ في قولِه: ﴿كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ تَنوينُ عِوَضٍ[٣] يُشعِرُ بمَحذوفٍ أُضِيفَ إليه (كل)، وتَقديرُه: مِن كلِّ ما أمرْتُك أنْ تَحمِلَه في السَّفينةِ[٤].

- وتأْخيرُ الأمْرِ بإدخالِ الأهْلِ عمَّا ذُكِرَ مِن إدخالِ الأزواجِ فيها في قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣١).

(٣) تَنوينُ العِوَضِ: هو حذفُ حرفٍ مِن كلمةٍ، أو حذفُ كلمةٍ كاملةٍ، أو حذفُ جملةٍ بتمامِها أو أكثرَ؛ فيحلُّ التنوينُ محلَّ المحذوفِ، ويكونُ عوضًا عنه. وحذفُ كلمةٍ ومجيءُ التنوينِ عِوضًا عنها يكثرُ بحذفِ المضافِ إليه بعدَ لفظةِ: (كل)، أو (بعض)، وما في حكمِهما، ومِن أمثلتِه: قسمتُ المالَ بينَ المستحقِّينَ؛ فأعطيتُ كُلاًّ نصيبَه، أي: كلَّ مستحِقٍّ. يُنظر: ((شرح كتاب الحدود في النحو)) للفاكهي (ص: ٢٨٩)، ((جامع الدروس العربية)) للغلاييني (١/ ١٠)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (١/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٦).

﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ﴾؛ لكَونِه عَريقًا فيما أُمِرَ به مِن الإدخالِ؛ فإنَّه يَحتاجُ إلى مُزاوَلةِ الأعمالِ منه عليه السَّلامُ، بل إلى مُعاونةٍ مِن أهْلِه وأتْباعِه، وأمَّا هم فإنَّما يَدْخلونَها باختيارِهم بعْدَ ذلك، ولأنَّ في المُؤخَّرِ ضَرْبَ تَفصيلٍ بذِكْرِ الاستثناءِ وغَيرِه؛ فتَقديمُه يُؤدِّي إلى الإخلالِ بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ(١).

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث عُبِّرَ هنا بقولِه: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾، وفي سُورةِ (هُودٍ) بقولِه: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ [هود: ٤٠]؛ ووَجْهُه: أنَّ آيةَ سُورةِ (هُودٍ) حَكَتْ ما خاطبَه اللهُ به عندَ حُدوثِ الطُّوفانِ، وذلك وقْتٌ ضَيِّقٌ، فأُمِرَ بأنْ يَحمِلَ في السَّفينةِ مَن أرادَ اللهُ إبقاءَهم، فأسنَدَ الحَمْلَ إلى نُوحٍ تَمْثيلًا للإسراعِ بإركابِ ما عُيِّنَ له في السَّفينةِ، حتَّى كأنَّ حالَهُ في إدخالِه إيَّاهم حالُ مَن يَحمِلُ شيئًا لِيَضعَهُ في مَوضِعٍ، وآيةُ هذه السُّورةِ حَكَتْ ما خاطبَهُ اللهُ به مِن قَبْلِ حُدوثِ الطُّوفانِ؛ إنباءً بما يَفعَلُه عندَ حُدوثِ الطُّوفانِ، فأمَرَه بأنَّه حِينئذٍ يُدخِلُ في السَّفينةِ مَن عيَّنَ اللهُ إدْخالَهم، مع ما في ذلك مِن التَّفنُّنِ في حِكايةِ القِصَّةِ(٢).

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، أو لِمَا يُنبِئُ عنه مِن عدَمِ قَبولِ الدُّعاءِ، أي: إنَّهم مَقْضِيٌّ عليهم بالإغراقِ لا مَحالةَ؛ لِظُلْمِهم بالإشراكِ وسائرِ المَعاصي، ومَن هذا شأْنُه لا يُشْفَعُ له، ولا يُشَفَّعُ فيه، كيف لا وقد أُمِرَ بالحمْدِ على النَّجاةِ منهم بهَلاكِهم بقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣١).

﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، على طَريقةِ قولِه تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [الأنعام: ٤٥].

٧- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ﴾ جاء الأمْرُ (قُل) له وَحْدَه، وإنْ كان الشَّرطُ قد شَمِلَه ومَن معهُ؛ لأنَّه نَبِيُّهم وإمامُهم، وهم مُتَّبِعوه في ذلك؛ إذ هو قُدْوتُهم، مع ما فيه مِن الإشعارِ بفَضلِ النُّبوَّةِ، وإظهارِ كِبْرياءِ الرُّبوبيَّةِ، وأنَّ رُتبةَ تلك المُخاطَبةِ لا يَترقَّى إليها إلَّا مَلَكٌ أو نَبِيٌّ[2].

٨- قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ تَعليلٌ لسُؤالِه: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾[3]، وهو ثَناءٌ مُطابِقٌ لدُعائِه، أمَرَهُ بأنْ يَشفَعَهُ به؛ مُبالَغةً فيه، وتَوسُّلًا به إلى الإجابةِ[4].

٩- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لمَّا ذكَرَ هذه القِصَّةَ العظيمةَ؛ أعقَبَها بالتَّنبيهِ إلى مَوضِعِ العِبْرةِ منها للمُسلمينَ، فأتَى بهذا الاستئنافِ لذلك[5].

- وعُطِفَ جُملةُ ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ على جُملةِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

مَضمونَ ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ يُفِيدُ معنَى: إنَّ في ذلك لَبَلْوى؛ فكأنَّه قِيلَ: إنَّ في ذلك لآياتٍ وابتلاءً وكُنَّا مُبْتلينَ، أي: وشأْنُنا ابتلاءُ أوليائِنا[1].

- وقولُه: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يَلْقاهُ مِن المُشركينَ، وتَعريضٌ بتَهديدِ المُشركينَ بأنَّ ما يُواجِهون به الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا بَقاءَ له، وإنَّما هو بَلْوى تَزُولُ عنه وتَحُلُّ بهم، ولكلٍّ حظٌّ يُناسِبُه، ولكونِ هذا ممَّا قد يَغِيبُ عن الألبابِ، نُزِّلَ مَنزِلةَ الشَّيءِ المُتردَّدِ فيه، فأُكِّدَ بـ (إنْ) المُخفَّفةِ، وبفِعْلِ (كنَّا)[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٤٩).

الآيات (٣١-٤٣)

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿قَرْنًا﴾: القَرْنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّة القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصْلُ (قرن): يدلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾: أي: نعَّمْناهم، وأبْقَيناهم في المُلْكِ، ووسَّعْنا عليهم، والمُترَفُ: المُتقلِّبُ فِي لِينِ العَيْشِ، وأصْلُ (ترف): التَّنعُّمُ[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).١٧٣]

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، =

﴿هَيْهَاتَ﴾: أي: بَعيدٌ، وهي كلمةٌ تُستعمَلُ لتبعيدِ الشيءِ، أو هي اسمُ فعلٍ بمعنَى (بعُدَ)[١].

﴿غُثَآءً﴾: أي: هَلْكَى كالغُثاءِ، وهو ما علا السَّيلَ مِن الزَّبَدِ وغيرِه، أو لا بَقِيَّةَ فيهم، أو شَيئًا باليًا، وأصْلُه: ارتِفاعُ شَيءٍ دَنِيٍّ فوقَ شَيءٍ[٢].

﴿فَبُعْدًا﴾: أي: فهَلَاكًا، والبُعدُ أكثرُ ما يُقالُ في الهلاكِ، وأصْلُه: ضِدُّ القُرْبِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَوْلُه تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾

المَصدَرُ المُؤَوَّلُ مِن (أنَّ) الأُولى واسمِها (كُمْ) في ﴿أَنَّكُمْ﴾، وخَبَرِها ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولٌ ثانٍ لـ ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾، وكُرِّرَتْ (أنَّ) الثَّانيةُ تَوكيدًا لَمَّا طال الفَصلُ؛ فالمعنى على هذا: أيَعِدُكم أنَّكم مُخرَجونَ إذا مِتُّم... فلمَّا بَعُدَ ما بينَ (أنَّ) الأُولى وخَبَرِها ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ بقَولِه: ﴿إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أُعِيدَ ذِكرُ (أنَّ). و ﴿إِذَا﴾ ظَرفٌ لـ ﴿مُّخْرَجُونَ﴾. وقيل: خبرُ الأُولى مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ خبَرِ الثَّانيةِ عليه؛ فتقديرُه: أنَّكم تُبعَثون، وهو العامِلُ في الظَّرفِ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٢، ٤١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤).

(إذَا)، و (أنَّ) الثَّانيةُ وما في حَيِّزِها بَدَلٌ مِنَ الأُولى. وقيلَ غيرُ ذلك[(١)].

٢- قَوْلُه تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾

قَولُه: ﴿هَيْهَاتَ﴾: اسمُ فِعلٍ ماضٍ بمعنَى (بَعُدَ). وفي فاعلِه وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه ضَميرٌ مُستَتِرٌ، تَقديرُه: بَعُدَ التَّصديقُ أو الوُقوعُ، ونحوُ ذلك، واللَّامُ في (لِمَا) للتَّبْيينِ. والثَّاني: أنَّ فاعِلَه (ما)، واللَّامُ فيه زائِدةٌ، أي: بَعُدَ ما تُوعَدونَ مِنَ البَعثِ. وقيلَ: ﴿هَيْهَاتَ﴾ اسمٌ بمعنى البُعدِ، وهو مُبتدأٌ مبنيٌّ على الفَتحِ في محلِّ رَفعٍ، والجارُّ والمجرورُ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في محلِّ رَفعٍ خَبَرٌ له. و﴿هَيْهَاتَ﴾ الثَّاني تأكيدٌ للأوَّلِ تأكيدًا لَفْظِيًّا[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى: أنه أنشَأَ مِن بَعدِ قَومِ نُوحٍ قومًا آخَرينَ، فأرسَلَ فيهم رَسولًا منهم، فقال لهم: اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه؛ ليس لكم مَعبودٌ بحَقٍّ غَيرُه؛ أفلَا تَخافونَ عِقابَه إذا عَبدْتُم غَيرَه؟! وقال السادة والأشرافُ مِن قَومِه الَّذين كَفَروا باللهِ، وأنْكَروا الحياةَ الآخِرةَ، وأطْغَتْهم النِّعَمُ التي أنعمَ الله بها عليهم في الدُّنيا: ما هذا الرسولُ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكم، يأكُلُ مِمَّا تأكُلونَ مِنَ الطَّعامِ، ويَشرَبُ مِمَّا تَشرَبونَ مِنَ الشَّرابِ، ولئنِ اتَّبَعتُم إنسانًا مِثلَكم إنَّكم -إذًا- لخاسِرونَ.

وقالوا لقومِهم أيضًا: أيَعِدُكم أنَّكم إذا مِتُّم وصِرتُم تُرابًا وعِظامًا مُفتَّتةً، أنكم

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٣/ ٣٥٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٠٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٣٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعُكْبَري (٢/ ٩٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٣٥)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٢٩٣).

ستُخْرَجونَ مِن قُبورِكم أحياءً؟! بَعِيدٌ بعيدٌ جِدًّا ما يعدُكم به؛ ما حَياتُنا إلَّا في هذه الدُّنيا؛ يَموتُ فيها الأحياءُ مِنَّا فلا يَحْيَوْنَ مرَّةً أخرى، ويُولَدُ آخرون فيَحْيَوْن فيها، وما نحن بمبعوثِينَ أحياءً مَرَّةً أُخرَى بعدَ الموتِ. وما هذا الذي يدَّعي أنَّه رسولٌ إلَّا رجُلٌ اختَلَقَ على اللهِ كَذِبًا، وما نحن بمُصَدِّقينَ له فيما يقولُه!

ثم يخبرُ تعالى أنَّ رَسولَهم دعا رَبَّه قائِلًا: رَبِّ انصُرْني عليهم؛ بسَبَبِ تكذيبِهم لي. فقال اللهُ مُجِيبًا لِدَعوةِ ذلك الرَّسولِ: سنُعَذِّبهم قَريبًا، فيُصبِحونَ نادِمينَ على كُفرِهم وتكذيبِهم. فانتقَم الله منهم بأنْ أخَذتْهم صَيحةٌ شَديدةٌ، وهم يستحِقُّون ذلك العقابَ، فجعَل الله هؤلاء الكافرينَ هامدينَ هلْكَى، كغُثاءِ السَّيلِ الَّذي يَطْفو على الماءِ لا منفعةَ فيه؛ فبُعدًا للقومِ الظَّالِمينَ مِن رَحمةِ اللهِ.

ثمَّ يخبرُ تعالى أنه أنشَأ مِن بَعدِ أولئك القوم المُكَذِّبينَ أقوامًا آخَرينَ، ما تتقدَّمُ أيُّ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ الوَقتَ الذي حدَّده الله لهَلاكِها، ولا تَتأخَّرُ عنه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالَى تَكذيبَ قَومِ نُوحٍ عليه السَّلامُ وما عَذَّبَهم به، وكان القِياسُ مُوجبًا أنَّ مَن يأْتي بَعْدَهم يَخْشى مِثْلَ مَصرَعِهم، فيَسلُكُ غيرَ سَبيلِهم، ويقولُ غيرَ قِيلِهم؛ بيَّنَ أنَّه لم تَنفَعْهم العِبرةُ، فارْتَكبوا مِثْلَ أحوالِهم، وزادوا على أقْوالِهم وأفعالِهم؛ لإرادةِ ذلك مِن الفاعِلِ المُختارِ، الواحِدِ القهَّارِ.

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان المقصودُ -مع التَّهديدِ والدَّلالةِ على القُدرةِ والاختيارِ- الدَّلالةَ على تَخصيصِ المُؤمِنينَ بالفلاحِ والبَقاءِ بعْدَ الأعداءِ، وكان إهْلاكُ

المُتْرفينَ أدَلَّ على ذلك؛ اقْتَصَرَ على ذِكْرِهم، وأبْهَمَهم؛ لِيَصِحَّ تَنزيلُ قِصَّتِهم على كلِّ مَن ادُّعِي فيهم الإتراف مِن الكَفرةِ[١].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ٣١﴾.

أي: ثُمَّ أوجَدْنا مِن بَعدِ قَومِ نُوحٍ قَومًا آخَرينَ[٢].

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: فأرسَلْنا في أولئك القَومِ رَسولًا منهم، فقال لهم: اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه وأطِيعُوه؛ ما لكمْ مِن مَعبودٍ يَستَحِقُّ العِبادةَ غَيرُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢١).

قيل: المُرادُ بقولِه: ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾: ثمودُ؛ قَومُ صالحٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسِّعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٩، ٥٠).

وقيل: المُرادُ به: عادٌ؛ قومُ هودٍ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦١).

قال ابن الجوزي: (﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني: عادًا ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وهو هودٌ. هذا قولُ الأكثرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦١). ونسَبه لأكثرِ المفسرينَ أيضًا: الرازيُّ، والخازن، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

قال السِّعدي: (﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من جِنسِهم، يَعرِفونَ نَسَبَه وحَسَبَه وصِدْقَه؛ لِيكونَ ذلك أسرعَ لانقيادِهم إذا كان منهم، وأبعَدَ عن اشمِئزازِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي: أفَلا تخافونَ عقابَ الله على شركِكم؛ فتَجْتَنِبوا عبادةَ هذه الأصنامِ[1]؟!

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣)﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: وقال الرُّؤساءُ والأشرافُ والسادةُ مِن قَومِ هذا الرسولِ، الَّذين كَفَروا باللهِ، وكذَّبوا بالبَعثِ والحِسابِ، ونعَّمْناهم ووَسَّعْنا عليهم الرِّزقَ في الحَياةِ الدُّنيا حتَّى بَطِروا وطَغَوا[2].

﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.

أي: ما هذا الرَّسولُ إلَّا إنسانٌ مِثلُكم، يأكُلُ مِمَّا تأكُلونَ مِنَ الطَّعامِ، ويَشرَبُ مِمَّا تَشرَبونَ مِنَ الشَّرابِ، وليس رسولًا كما يَزعُمُ[3]!

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤)﴾.

أي: ولئِنْ أطعْتُم إنسانًا مِثلَكم، فصَدَّقتُم أنَّه رَسولٌ واتَّبعتُموه، إنَّكم إذَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٩٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

قال البقاعي: (﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: تجعلونَ لكم وقايةً مما ينبغي الخوفُ منه، فتجعلوا وقايةً تحولُ بينكم وبينَ سخطِ الله). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

لَمَغْبونونَ[١].

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥﴾.

أي: أيَعِدُكم أنَّكم إذا مِتُّم وصِرتُم تُرابًا وعِظامًا في قُبورِكم أنَّكم ستُخرَجون منها أحياءً، كما كُنتُم قَبلَ مَماتِكم[٢]؟!

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦﴾.

أي: بَعيدٌ بَعيدٌ جِدًّا ما يَعِدُكم به مِنَ البَعثِ بَعدَ المَوتِ؛ فلا يكونُ ذلك أبدًا[٣]!

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

أي: ليس هناك حَياةٌ أُخرَى سِوى حياتِنا الدُّنيا، يَموتُ فيها الأحياءُ مِنَّا فلا يَحيَونَ ثانيةً، ويُولَدُ آخَرونَ فيَحيَونَ فيها[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

قال ابنُ جريرٍ: (قالوا: إنَّكم إذَنْ لَمغبونونَ حُظوظَكم مِنَ الشَّرَفِ والرِّفعةِ في الدُّنيا، باتِّباعِكم إيَّاه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠).

وقال الرسعني: (﴿إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾: لمغبونونَ في عقولِكم وآرائِكم). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥١).

قال القُرطبي: (يُقالُ: كيفَ قالوا: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وهم لا يُقِرُّونَ بالبَعثِ؟ ففي هذا أجوبةٌ؛ منها: أنْ يكونَ المعنى: نكونُ مَواتًا -أي: نُطَفًا- ثمَّ نحيا في الدُّنيا. وقيل: فيه تَقديمٌ وتأخيرٌ، أي: =

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

أي: وما نحن بمَبعوثينَ أحياءً بَعْدَ المَوتِ[(١)].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

أي: ما هذا الَّذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ سِوى رَجُلٍ يَختَلِقُ على اللهِ كَذِبًا بأنَّه أرسَلَه بالتَّوحيدِ، وأنَّه يَبعَثُ عِبادَه أحياءً بَعْدَ المَوتِ[(٢)]!

﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وما نحنُ له بمُصَدِّقينَ فيما يقولُه مِن تَوحيدِ اللهِ والبَعثِ بَعدَ المَوتِ[(٣)]!

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾.

أي: قال الرَّسولُ: ربِّ انصُرْني على قَومِي، فأَهلِكْهم بسَبَبِ تَكذيبِهم بِرِسالتي[(٤)].

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾.

أي: قال اللهُ للرَّسولِ: سنُعَذِّبُهم قَريبًا، فيُصبِحونَ نادِمينَ على كُفرِهم

= إنْ هي إلَّا حياتُنا الدُّنيا نَحْيَا فيها ونموتُ، كما قال: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾ [آل عمران: ٤٣].
وقيل: ﴿نَمُوتُ﴾ يعني: الآباءَ، ﴿وَنَحْيَا﴾ يعني: الأولادَ. ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢).

وتكذيبِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: فانتقَمْنا منهم بصَيحةٍ أخذَتْهم، وهم يَستَحِقُّونَ هذا العِقابَ؛ لِكُفرِهم باللهِ وتَكذيبِهم رَسولَه، فلم يَظلِمْهمُ اللهُ، ولكِنْ ظَلَموا أنفُسَهم[(٢)].

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾.

أي: فجعَلْنا الكافرينَ هَلْكى هامِدينَ، حتَّى صاروا كغُثاءِ السَّيلِ الَّذي لا مَنْفعةَ فيه[(٣)].

﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فبُعدًا مِن رَحمةِ اللهِ لِلقومِ الكافرينَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ بربِّهم، ومَعصيةِ رَسولِه[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢).

وقال البقاعي: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالأمرِ الثَّابتِ مِنَ العذابِ الَّذي أُوجِبَ لهم، الَّذي لا تُمكِنُ مُدافَعتُه لهم ولا لأحدٍ غيرِ اللهِ، ولا يكونُ كذلك إلَّا وهو عَدْلٌ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٤، ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٩).

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢﴾.

أي: ثُمَّ أوجَدْنا مِن بَعدِ أولئك القَومِ الظَّالِمينَ أقوامًا آخَرينَ(١).

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٤٣﴾.

أي: ما تَسبِقُ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الوقتَ الَّذي قدَّره اللهُ لإهْلاكِها، وما تتأخَّرُ عن ذلك الوَقتِ المكتوبِ في اللَّوحِ المَحفوظِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨- ٣٩].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تَعقيبُ قِصَّةِ نُوحٍ وقَومِه بقِصَّةِ رسولٍ آخَرَ، وما بَعْدَها مِن القَصصِ يُرادُ منه: أنَّ ما أصاب قَومَ نُوحٍ على تكذيبِهم له

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥).

قال القُرطبي: (وفي الكلامِ حَذْفٌ: فكَذَّبوا أنبياءَهم فأهلَكْناهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥).

قال ابنُ جَريرٍ: (وهذا وعيدٌ مِن اللهِ لِمُشركي قَومِ نَبيِّنا محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإعلامٌ منه لهم أنَّ تأخيرَه في آجالِهم مع كُفرِهم به وتكذيبِهم رَسولَه؛ لِيَبلُغوا الأجَلَ الَّذي أُجِّلَ لهم، فيُحِلَّ بهم نِقمَتَه، كسُنَّتِه فيمَن قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ السَّالِفةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧، ٤٨).

لم يكُنْ صُدْفةً، ولكنَّه سُنَّةُ اللهِ في المُكذِّبينَ لرُسُلِه؛ ولذلك لم يُعيِّنِ القَرْنَ ولا القُرونَ بأسمائِهم[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلَةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزْعُمون أنَّ المقتولَ ميِّتٌ بغَيرِ أجَلِه[2]؛ فهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ المقتولَ مَيِّتٌ بأجَلِه؛ إذ لو قُتِلَ قبْلَ أجَلِه لكان قد تَقدَّمَ الأجَلُ أو تأخَّرَ، وذلك يُنافِيه هذا النَّصُّ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ على القولِ بأنَّ المُرادَ: قَومُ صالحٍ، فلعلَّ تَخصيصَهم بالذِّكْرِ هنا دونَ عادٍ؛ خِلافًا لِمَا تكرَّرَ في غَيرِ هذه الآيةِ؛ لأنَّ العِبْرةَ بحالِهم أظهَرُ؛ لِبَقاءِ آثارِ دِيارِهم بالحِجْرِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4] [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

- عُدِّيَ فِعْلُ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بـ (في) دونَ (إلى)؛ لإفادةِ أنَّ الرَّسولَ كان منهم ونشَأَ فيهم؛ لأنَّ القَرْنَ لَمَّا لم يُعيَّنْ باسمٍ حتَّى يُعرَفَ أنَّ رسولَهم منهم أو وارِدًا إليهم، كان التَّنبيهُ على أنَّ رَسولَهم منهم مَقصودًا؛ إتْمامًا للمُماثَلةِ بين حالِهم وحالِ الَّذين أُرسِلَ إليهم محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكلامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٠).

رسولِهم مِثْلُ كَلامِ نُوحٍ[(١)]. أو لأنَّه لَمَّا كان المقصودُ الإبلاغَ في التَّسليةِ، عُدِّيَ الفِعْلُ بـ (في)؛ دَلالةً على أنَّه عَمَّهم بالإبلاغِ، كما يَعُمُّ المَظْروفَ الظَّرفُ، حتَّى لم يدَعْ واحِدًا منهم إلَّا أبلَغَ في أمْرِه[(٢)]. وقيل: لأن الأُمَّةَ أو القَريةَ جُعِلَتْ مَوضِعًا للإرسالِ، وعلى هذا المعنى جاء (بعَثَ) في قَولِه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾[(٣)] [الفرقان: ٥١].

- قولُه: ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ تَعليلٌ للعِبادةِ المأْمورةِ بها، أو للأمْرِ بها، أو لِوُجوبِ الامتثالِ بهِ[(٤)].

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء قولُ قَومِ هُودٍ -على قولٍ في التفسيرِ- في جَوابِه هنا بالواوِ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ﴾، وفي سُورةِ (الأعرافِ) وسُورةِ (هُودٍ): ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود: ٥٣]، بغَيرِ واوٍ، والفَرقُ بَينهما: أنَّ الَّذي بغَيرِ واوٍ على تَقْديرِ سُؤالِ سائلٍ، قال: فما قال قَومُه؟ فقيل له: قالوا: كَيتَ وكَيتَ. وأمَّا الَّذي مع الواوِ، فعَطْفٌ لِمَا قالوهُ على ما قالَهُ، ومعناه: أنَّه اجتمَعَ في الحُصولِ هذا الحَقُّ وهذا الباطِلُ، وشتَّانَ ما هما[(٥)]. وقيل: جاء قولُهم بطَريقِ العَطفِ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٩).

المُرادَ حِكايةُ مُطْلَقِ تكذيبِهم له عليه السَّلامُ إجْمالًا، لا حِكايةُ ما جَرى بينَه عليه السَّلامُ وبَينَهم مِن المُحاوَرةِ والمُقاوَلةِ تَفْصيلًا، حتَّى يُحْكَى بطَريقِ الاستِئنافِ المَبْنيِّ على السُّؤالِ، كما يُنبِئُ عنه ما سَيَأْتي من حِكايةِ سائرِ الأُمَمِ[1].

- وقيل: سبَبُ الاختلافِ بينَ الآياتِ: أنَّ هُودًا مكَثَ بيْن القومِ أزمنةً مُتطاوِلةً، وله معهم مَقالاتٌ ومُجادلاتٌ في مَقاماتٍ شَتَّى، وذلك يُوجِبُ اختلافَ العِباراتِ؛ فإنَّ لكلِّ قومٍ مَقالًا، فكان كلامُه في سُورةِ (هُودٍ) أبسَطَ مِن هَذينِ المَوضعينِ؛ لأنَّه قد أظهَرَ فيه النَّصيحةَ التَّامَّةَ، وضَمَّ مع الأمْرِ بالعِبادةِ الأمْرَ بالاستغفارِ والتَّوبةِ، وعَدَهم بذلك البركاتِ والخيراتِ، وكان ذلك مَظِنَّةً لِبَعثِ السَّامعِ وتَحرُّكِه على السُّؤالِ: فما كان جَوابُ القومِ عنه بعْدَ تلك النَّصيحةِ البالغةِ؟ أمَّا في (الأعرافِ) وإنْ لم يُبْسَطْ ذلك البسْطَ، لكنْ ذُكِرَ فيه اسمُ هُودٍ بعْدَ التَّوطئةِ بقولِه: ﴿أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٦٥]؛ فدَلَّ على إضمارِ النُّصحِ، بل أهَمَّ وأبلَغَ مِن ذلك؛ فإنَّ الأُخُوَّةَ مَئِنَّةٌ لكلِّ حَدْبٍ ومَرْحمةٍ، ألَا تَرى كيف مَنَّ اللهُ تعالى على قُريشٍ بقولِه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، بخِلافِه هاهنا، بل طَوى اسْمَهُ أيضًا، والقومُ ما الْتَفَتوا إليه وإلى كلامِه، وما أجابوا، بلْ كانت تلك المَقالةُ دَمْدَمةً فيما بيْنهم. واللهُ تعالى أعلَمُ بأسرارِ كَلامِه[2].

- وقيل: وَجْهُ ذلك: أنَّ كَلامَ الملَأِ المَحْكِيَّ هنا غيرُ كَلامِهم المَحْكِيِّ في السُّورتينِ؛ لأنَّ ما هنا كَلامُهم المُوجَّهُ إلى خِطابِ قَومِهم، إذ قالوا: ﴿مَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٥٧٨).

﴿هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ﴾ [المؤمنون: ٣٣] إلى آخِرِه؛ خَشيةً منهم أنْ تُؤثِّرَ دَعوةُ رَسولِهم في عامَّتِهم، فرأَوُا الاعتناءَ بأنْ يَحُولوا دونَ تأثُّرِ نُفوسِ قَومِهم بدَعوةِ رَسولِهم أوْلى مِن أنْ يُجاوِبوا رَسولَهم، وإنَّما لم يُعطَفْ قَولُ الملأِ بفاءِ التَّعقيبِ، كما ورَدَ في قِصَّةِ نُوحٍ آنفًا؛ لأنَّ قَولَهم هذا كان مُتأخِّرًا عن وَقْتِ مَقالةِ رَسولِهم الَّتي هي فاتحةُ دَعوتِه بأنْ يكونوا أجابُوا كَلامَه بالرَّدِّ والزَّجرِ، فلمَّا استمَرَّ على دَعوتِهم وكرَّرَها فيهم، وَجَّهُوا مَقالَتَهم المَحْكيَّةَ هنا إلى قَومِهم، ومِن أجْلِ هذا عُطِفَتْ جُملةُ جَوابِهم، ولم تأْتِ على أُسلوبِ الاستعمالِ في حِكايةِ أقوالِ المُحاوَراتِ. وأيضًا لأنَّ كَلامَ رَسولِهم لم يُحْكَ بصِيغةِ القولِ، بل حُكِيَ بـ(أنْ) التَّفسيريَّةِ لِمَا تَضمَّنَه معنى الإرسالِ في قولِه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾(١) [المؤمنون: ٣٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وُصِفُوا بذلك؛ ذَمًّا لهم، وتَنبيهًا على غُلُوِّهم في الكُفْرِ(٢). وتأْخيرُه عن ﴿مِن قَوۡمِهِ﴾؛ لِيتَّصِلَ به الصِّفتانِ المَعطوفتانِ مِن قولِه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ﴾(٣).

- قولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ في هَذينِ الوَصفينِ إشارةٌ إلى أنَّهما الباعِثُ على تَكذيبِهم رَسولَهم؛ لأنَّ تَكذيبَهم بلِقاءِ الآخرةِ يَنْفِي عنهم تَوقُّعَ المُؤاخَذةِ بعْدَ الموتِ، وثَروتُهم ونِعْمتُهم تُغْريهم بالكِبْرِ والصَّلَفِ؛ إذ ألِفُوا أنْ يَكونوا سادةً لا تَبَعًا(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٢).

- قولُه: ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فيه إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ على (مِثْلنا)؛ للمُبالَغةِ في تَهوينِ أمْرِه عليه السَّلامُ وتَوهينِه[١]. وهو كِنايةٌ عن تكذيبِه في دَعْوى الرِّسالةِ؛ لِتَوهُّمِهم أنَّ البشريَّةَ تُنافِي أنْ يكونَ صاحِبُها رسولًا مِن اللهِ، فأتَوْا بالملزومِ وأرادوا لَازِمَه[٢].

- وجُملةُ: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ في مَوقِعِ التَّعليلِ والدَّليلِ للبَشريَّةِ؛ لأنَّه يأكُلُ مِثْلَهم ويَشرَبُ مِثْلَهم، ولا يَمتازُ فيما يأْكُلُه وما يَشرَبُه[٣].

- قولُه: ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي: ممَّا تَشربونَ منه، وحسَّنَ هذا الحذْفَ ورَجَّحَه كَونُ ﴿تَشْرَبُونَ﴾ فاصِلةً، ولدَلالةِ ﴿مِنْهُ﴾ عليه في قولِه: ﴿مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ وقَعَ ﴿إِذًا﴾ بينَ اسْمِ (إنَّ) وخبَرِها؛ لِتأْكيدِ مَضمونِ الشَّرطِ. والجُملةُ جَوابٌ لِقَسَمٍ مَحذوفٍ، أي: وباللهِ لئنْ أطعْتُم بشَرًا...[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ ما قبْلَه مِن زَجْرِهم عن اتِّباعِه عليه السَّلامُ، بإنكارِ وُقوعِ ما يَدْعُوهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).

إلى الإيمانِ به واستِبعادِه[١].

- وفي قولِهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ اسْتَفْهَموا استفهامَ استبعادٍ وتَوقيفٍ واستهزاءٍ[٢]. أو استفهامَ تَعجُّبٍ، وهو انتقالٌ مِن تَكذيبِه في دَعْوى الرِّسالةِ إلى تَكذيبِه في المُرْسَلِ به[٣].

- وكَلِمةُ ﴿أَنَّكُمْ﴾ في ﴿أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ إعادةٌ لِكَلمةِ (أنَّكم) الأُولى، وحسَّنَ إعادتَها بُعْدُ ما بيْنَها وبينَ خبَرِها. وتُفيدُ إعادتُها تأكيدًا للمُستفهَمِ عنه استفهامَ استبعادٍ؛ تأكيدًا لاستِبعادِه[٤].

- وَتقديمُ التُّرابِ في قولِه: ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾؛ لِعَراقَتِه في الاستِبعادِ[٥].

٦- قولُه تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ فيه تكريرُ ﴿هَيْهَاتَ﴾؛ لتأْكيدِ البُعْدِ[٦].

- اللَّامُ في قولِه: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ للبَيانِ؛ كأنَّهم لَمَّا صَوَّتوا بكلمةِ الاستبعادِ، قيل: فما له هذا الاستبعادُ؟ قالوا: لِمَا تُوعَدُونَ[٧]؛ فجاء ما بَعْدَ ﴿هَيْهَاتَ﴾ مَجْرورًا باللَّامِ، فاسْتُغْنِيَ عن فاعِلِها للعِلْمِ به ممَّا يَسْبِقُها مِن الكلامِ؛ لأنَّها لا تقعُ غالبًا إلَّا بَعْدَ كلامٍ، وتكونُ اللَّامُ للتَّبيينِ، أي: إيضاحِ المُرادِ مِن الفاعِلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).

فيَحصُلُ بذلك إجمالٌ ثمَّ تَفصيلٌ يُفِيدُ تَقْويةَ الخبَرِ، وهذه اللَّامُ تَرجِعُ إلى لامِ التَّعليلِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء هنا فِعْلُ ﴿تُوعَدُونَ﴾ مِن (أوعَدَ)، وجاء قبْلَه فِعْلُ ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾، وهو مِن (وعَدَ)، مع أنَّ الموعودَ به شَيءٌ واحدٌ؛ قيل: لأنَّ الأوَّلَ راجِعٌ إليهم في حالِ وُجودِهم، فجُعِلَ وَعْدًا، والثَّانِيَ راجِعٌ إلى حالَتِهم بعْدَ الموتِ والانعدامِ؛ فناسَبَ التَّعبيرُ عنه بالوعيدِ. أو الأحسَنُ أنَّه عبَّرَ مرَّةً بالوعْدِ ومرَّةً بالوعيدِ على وَجْهِ الاحتباكِ(٢)؛ فإنَّ إعلامَهم بالبَعثِ مُشتمِلٌ على وَعْدٍ بالخيرِ إنْ صَدَّقوا، وعلى وَعيدٍ إنْ كَذَّبوا، فذُكِرَ الفِعْلانِ على التَّوزيعِ إيجازًا(٣).

٧- قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ بيانًا للاستبعادِ الَّذي في قولِه: ﴿هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، أو استدلالًا وتَعليلًا له، ولِكَلا الوَجْهينِ كانت الجُملةُ مَفصولةً عنِ الَّتي قبْلَها، أي: لم تُعْطَفْ عليها(٤).

- قولُه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصْلُه: (إنِ الحياةُ إلَّا حَياتُنا الدُّنْيا)، أُقِيمَ الضَّميرُ مُقامَ الأُولى؛ لدَلالةِ الثَّانيةِ عليها؛ حَذَرًا عن التَّكريرِ، وإشعارًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٥).

(٢) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفان معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواع. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأنَّ تَعيُّنَها مُغْنٍ عن التَّصريحِ بها(١)؛ فضَميرُ (هي) عائدٌ إلى ما لم يَسْبِقْ في الكلامِ، بل عائدٌ على مَذكورٍ بَعْدَه؛ قَصْدًا للإبهامِ ثَمَّ التَّفصيلِ؛ لِيَتمكَّنَ المَعْنى في ذِهْنِ السَّامعِ(٢).

- وجُملةُ: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مُفسِّرةٌ لِمَا ادَّعَوهُ مِن أنَّ الحياةَ هي الحياةُ الدُّنيا، أي: يَموتُ بَعْضُنا ويُولَدُ بَعضٌ إلى انقراضِ العصرِ(٣).

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ باعتبارِ اشتمالِها على إثباتِ حَياةٍ عاجلةٍ ومَوتٍ؛ فإنَّ الاقتصارَ على الأمْرينِ مُفِيدٌ للانحصارِ في المَقامِ الخِطابيِّ، مع قَرينةِ قولِه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾. وأفادَ صَوغُ الخبَرِ في الجُملةِ الاسميَّةِ تَقْويةَ مَدْلولِه وتَحقيقَه(٤).

٨- قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ مُستأْنفةٌ؛ لأنَّها مُسْتقِلَّةٌ على ما تَقدَّمَها؛ فهي تَصريحٌ بما كُنِّيَ عنه آنفًا في قولِه: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وما بَعْدَه مِن تَكذيبِ دَعوتِه، وجُملةُ ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ صِفةٌ لـ﴿رَجُلٌ﴾، وهي مُنْصَبُّ الحَصْرِ؛ فهو مِن قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ قَصْرَ قَلْبٍ إضافيًّا(٥)، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٦).

(٥) القصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. =

لا كما يَزعُمُ أنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ. وإنَّما أجْرَوا عليه أنَّه رجَلٌ؛ مُتابَعةً لِوَصْفِه بالبشريَّةِ في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾؛ تَقريرًا لِدَليلِ المُماثَلةِ المُنافيةِ للرِّسالةِ في زَعْمِهم، أي: زيادةٌ على كَونِه رجُلًا مِثْلَهم فهو رجُلٌ كاذِبٌ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ إنَّما صَرَّحوا بأنَّهم لا يُؤْمِنون به، مع دَلالةِ نِسْبتِه إلى الكذِبِ على أنَّهم لا يُؤمِنون به؛ إعلانًا بالتَّبرِّي مِن أنْ يَنخدِعوا لِمَا دَعاهم إليه، وهو مُقْتَضى حالِ خِطابِ العامَّةِ. وأفادَتِ الجُملةُ الاسميَّةُ التَّقويةَ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما حُكِيَ مِن صَدِّ الملَأِ النَّاسَ عن اتِّباعِه، وإشاعَتِهم عنه أنَّه مُفْترٍ على اللهِ، وتَلْفيقِهم الحُجَجَ الباطلةَ على ذلك: ممَّا يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عمَّا كان مِن شأْنِه وشأْنِهم بَعْدَ ذلك؛ فيُجابُ بأنَّه توَجَّهَ إلى اللهِ الَّذي أرسلَهُ بالدُّعاءِ بأنْ يَنصُرَه عليهم[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ جاء جَوابُ دُعاءِ هذا الرَّسولِ غيرَ مَعطوفٍ؛ لأنَّه جَرى على أُسلوبِ حِكايةِ المُحاوَراتِ[٤].

- و(ما) في قولِه: ﴿عَمَّا قَلِيلٖ﴾ صِلَةٌ بين الجارِّ والمجرورِ؛ لتأْكيدِ مَعْنى القِلَّةِ[٥].

= وأما قصرُ القلْبِ: فهو أنْ يَقلِبَ المتكلمُ فيه حُكمَ السامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمن يعتقدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرفٍ معينٍ، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٥٧، ٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي =

١١- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أفادَتْ تَعجيلَ إجابةِ دَعوةِ رَسولِهم[(١)].

- وفي قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ شَبَّهَهم في دَمارِهم بغُثاءِ السَّيلِ، وهو حَميلُ السَّيلِ، وهو تَشبيهٌ بَليغٌ للهيئةِ؛ فهو تَشبيهُ حالةٍ بحالةٍ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فرَّعَ على حِكايةِ تكذيبِهم دُعاءً عليهم وعلى أمثالِهم دُعاءَ شَتْمٍ وتَحقيرٍ بأنْ يَبْعَدُوا؛ تَحقيرًا لهم وكراهيةً، وليس مُستعمَلًا في حَقيقةِ الدُّعاءِ؛ لأنَّ هؤلاء قد بَعِدُوا بالهلاكِ[(٣)]. وقيل: يَحتمِلُ الإخبارَ والدُّعاءَ، ووَضْعُ الظَّاهِرِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم للتَّعليلِ[(٤)].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِّلْقَوْمِ﴾ للتَّبْيينِ، وهي مُبيِّنةٌ للمقصودِ بالدُّعاءِ؛ زِيادةً في البَيانِ، كما في قولِهم: سُحقًا لك وتبًّا له، فإنَّه لو قِيلَ: (فبُعْدًا) لَعُلِمَ أنَّه دُعاءٌ عليه، فبِزيادةِ اللَّامِ يَزِيدُ بَيانُ المَدْعُوِّ عليهم، وهي مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ مُستأْنَفٍ للبَيانِ[(٥)].

- واخْتِيرَ الوَصْفُ بالظُّلمِ هنا؛ لأنَّ هؤلاءِ ظَلَموا أنفُسَهم بالإشراكِ، وظَلَموا نبيَّهم بزَعْمِهم أنَّه تَعمَّدَ الكَذِبَ على اللهِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى

= حيان)) (٧/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٠).

ﵟٱللَّهِ كَذِبٗاﵞ [المؤمنون: ٣٨]. والتَّعريفُ في ﵟٱلظَّٰلِمِينَﵞ للاستِغراقِ؛ فشَمِلَهم؛ ولذلك تكونُ الجُملةُ بمَنزِلةِ التَّذييلِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قالَه هنا: ﵟلِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَﵞ بالتَّعريفِ، وقال بَعْدُ في سُورةِ (المُؤمنون) أيضًا: ﵟفَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَﵞ [المؤمنون: ٤٤] بالتَّنكيرِ؛ ووَجْهُه: أنَّ الآيةَ الأُولى في أُمَّةٍ مُعيَّنةٍ؛ قد بُيِّنَ حالُها وقَبيحُ مُرْتَكَبِها، وتَحصَّلَ العِلْمُ بكُفْرِهم وظُلْمِهم أنفُسَهم، فقِيلَ: ﵟفَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَﵞ، وأمَّا قولُه بَعْدُ: ﵟفَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَﵞ؛ فورَدَ عقِبَ إجمالِ إخبارٍ بطوائفَ وأُمَمٍ اجْتَمَعوا في التَّكذيبِ ورَدِّ ما جاءَتْهم به رُسُلُهم، فأُعْقِبَ بوَصْفٍ إذا وُجِدَ كان ما سِواهُ مِن قَولٍ وعمَلٍ مُناسِبًا له وبِحَسبِه، وهو عدَمُ الإيمانِ، ولم يكُنْ وَصْفُهم بالظُّلمِ لِيُعطِيَ ذلك؛ لِوُقوعِه على الظُّلمِ بالكُفْرِ وعلى الظُّلمِ بمَعصيةٍ، والمعصيةُ ليست كُفْرًا، أمَّا مَن اتَّصَفَ بعَدمِ الإيمانِ، فلا فَلاحَ معه، فلمَّا اجتمَعَ هؤلاء الطَّوائفُ في عدَمِ الإيمانِ وُسِمُوا به، ولمَّا كان عدَمُ الإيمانِ حاصلًا لمَن تَقدَّمَ بما ذُكِرَ مِن تكذيبِهم، وأخْذِهم بالصَّيحةِ، وجَعْلِهم غُثاءً: أُعْقِبَ وَصْفُهم بما يُنبِئُ بالزِّيادةِ على كُفْرِهم؛ إذِ الكُفْرُ حاصِلٌ. والآيةُ الثَّانيةُ لم يَقَعْ في ذِكْرِ هؤلاء تَفصيلُ مُرْتَكباتِهم كما ورَدَ فيمَن تَقدَّمَهم؛ فناسَبَ إجْمالَ الواقِعِ مِن التَّكذيبِ إجْمالُ الوَصْفِ بعَدمِ الإيمانِ، وجاء كلٌّ مِن ذلك على ما يُناسِبُه(٢).

١٢- قولُه تعالى: ﵟمَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَﵞ جُملةٌ مُعترِضةٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٤٠-٩٤٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٨، ٣٦٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٠).

والفَصلُ بينَ المَعْطوفينِ بهذه الجُملةِ المُعترِضةِ، النَّاطقةِ بعدَمِ تقدُّمِ الأُمَمِ أجَلَها المَضْروبَ لِهَلاكِهم؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ هَلاكِهم على وَجْهٍ إجماليٍّ[١].

- ولعلَّه عبَّرَ بالمُضارِعِ في قولِه: ﴿مَا تَسْبِقُ﴾ إشارةً إلى أنَّه ما كان شَيءٌ مِن ذلك ولا يكونُ، وأشارَ إلى الاستِغراقِ بقولِه: ﴿مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: الَّذي قَدَّرناهُ لِهَلاكِها ﴿وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ﴾ عنه[٢]؛ فـ(مِنْ) في قولِه: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ مَزيدةٌ؛ للاستغراقِ[٣].

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسْتَئْخِرُونَ﴾ زائدتانِ؛ للتَّأكيدِ[٤]. وقيل: صيغةُ الاستفعالِ (يستئخرون) للإشعارِ بعجزِهم عن ذلك معَ طلبِهم له[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٦).

الآيات (٤٤-٥٠)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ
﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

غَريبُ الكلماتِ:

﴿تَتْرَا﴾: أي: تتواترُ واحدًا بعدَ واحدٍ، ويتبعُ بعضُهم بعضًا، وهو مِنَ المُواتَرةِ، أي: المُتابَعةِ، أو: مِن الوِتْرِ، وهو الفَرْدُ(١).

﴿أَحَادِيثَ﴾: أي: أخبارًا وعِبَرًا يُتَمَثَّلُ بهم فِي الشَّرِّ، أو يُتحدَّثُ بهلاكِهم، ولا يُقالُ: جعلتُه حديثًا في الخيرِ. وأصلُ (حدث): كونُ الشَّيءِ لم يَكُنْ، والحديثُ مِن هذا؛ لأنَّه كلامٌ يَحْدُثُ منه الشَّيءُ بعدَ الشَّيءِ(٢).

﴿وَسُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّةٍ، وأصْلُ (سلط): القُوَّةُ والقَهْرُ؛ ولذلكَ سُمِّيَ السُّلطانُ سُلْطانًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠، ٧٢٤).

﴿ءَايَةً﴾: أي: عَلَمًا ودَليلًا، وأمارةً قَاطِعةً، وهي مُشتقَّةٌ مِن التأيِّي الذي هو التثبُّتُ، والإقامةُ على الشيءِ(١).

﴿رَبْوَةٍ﴾: قِيلَ: إنَّها دِمشقُ، وقيل: أرضُ بَيتِ المَقْدِسِ، والرَّبوةُ: المكانُ المُرتفِعُ مِن الأرضِ، وأصْلُ (ربو): العُلُوُّ والزِّيادةُ والنَّماءُ(٢).

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾: أي: مُسْتقَرٍّ، أو مُسْتويةٍ يَستقِرُّ عليها ساكِنُوها، وأصْلُ (قرر): يدلُّ على تمكُّنٍ(٣).

﴿وَمَعِينٍ﴾: أي: مَاءٍ ظَاهرٍ جَارٍ، يُقالُ: معَن الماءُ: أي: جرَى، وأصْلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ، أو غيرِ ذلك(٤).

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسَلَ رُسُلَه يَتبَعُ بَعضُهم بَعضًا، إلى أُمَمٍ أُخرى بعدَ أولئك القَومِ المُهلَكينَ، كلَّما أتى رَسولٌ أُمَّتَه كَذَّبوه ولم يَقْبَلوا ما جاء به مِن الحقِّ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧).

فأتْبَع اللهُ بَعضَهم بَعضًا بالهَلاكِ وعَذابِ الاستِئصالِ، وجعَلهم أخبارًا للناسِ يتحدَّثون بها عنهم. فبُعدًا مِن رحمةِ الله لقَومٍ لا يُؤمِنونَ.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه أرسَل بعدَهم مُوسى وأخاهُ هارونَ بمُعجِزاتِه وحُجَّةٍ بَيِّنةٍ واضِحةٍ إلى فِرعونَ وسادةِ قومِه وأشرافِهم، فاستَكبَروا عنِ الإيمانِ واتِّباعِ الحقِّ، وكانوا قَومًا مُتطاوِلينَ على النَّاسِ، قاهِرينَ لبني إسرائيلَ ظالمينَ لهم، فقال فِرعونُ ومَلَؤُه: أنُصَدِّقُ فَردَينِ مِن البشرِ مِثْلنا، وقَومُهما مُطيعونَ مُتذَلِّلون لنا؟! فكَذَّبوهما فكانوا مِنَ المُهلَكينَ غرقًا في البَحرِ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه آتَى مُوسَى التَّوراةَ؛ لِيَهتَديَ بها قَومُه مِن بني إسرائيلَ إلى الحَقِّ، وجعَل عيسَى ابنَ مَريمَ وأُمَّه علامةً دالَّةً على قُدرَتِه سبحانه على خَلقِ ما يشاءُ؛ إذ خلَقَه مِن أمٍّ بغيرِ أبٍ، وجعَل لهما مأوًى في مكانٍ مُرتَفعٍ مِنَ الأرضِ، مُستوٍ مُستَقِرٍّ، وفيه ماءٌ جارٍ ظاهِرٌ للعُيونِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٤٤﴾.

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَا﴾.

أي: ثمَّ أرسَلْنا رُسُلَنا مُتواتِرينَ يَتبَعُ بَعضُهم بَعضًا، واحدًا بعدَ واحدٍ؛ إلى أُمَمٍ أُخرى بعد أولئك القَومِ المُهلَكينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٢).

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾.

أي: كلَّما جاء رَسولٌ إلى أُمَّةٍ مِن تلك الأُمَمِ كَذَّبوه، فلم يَقبَلوا ما جاء به مِنَ الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾.

أي: فأهلَكْنا تِلك الأُمَمَ بعَذابِ الاستِئصالِ؛ بَعضَهم في إثْرِ بَعضٍ(٢).

كما قال سُبحانَه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾.

أي: وصَيَّرْناهم أخبارًا للنَّاسِ يتحَدَّثونَ بها عنهم(٣).

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: كذَّبه جُمهورُهم، وربَّما كذَّبه جميعُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٣).

أي: فبُعدًا مِن رَحمةِ اللهِ وهَلاكًا لقَومٍ لا يُؤمِنونَ بوَحدانيَّةِ اللهِ، ويُكَذِّبونَ رُسُلَه[(١)].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: ثمَّ أرسَلْنا بَعدَ أولئك الرُّسُلِ مُوسى وأخاهُ هارونَ بمُعجِزاتِنا وحُجَّةٍ بيِّنةٍ واضِحةٍ[(٢)].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه، فاستَكبَروا عنِ الإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ الَّذي جاءَهم مِن عندِ اللهِ، وكانوا قَومًا قاهِرينَ لبني إسرائيلَ ظالِمينَ لهم، خُلُقُهم وسَجِيَّتُهم الكِبْرُ[(٣)].

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: فقال فِرعَونُ ومَلَؤُه: أنُصدِّقُ مُوسى وهارونَ ونُقِرُّ لهما، وهما بَشَرانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٣).

قال أبو حيان: (﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قال ابنُ عباسٍ: هي التِّسعُ؛ وهي: العصا، واليدُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضفادعُ، والدمُ، والبحر، والسِّنونَ، ونقصٌ مِن الثمراتِ. ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: هي العصا واليد، وهما اللَّتان اقترن بهما التحدِّي، ويدخلُ في عمومِ اللفظِ سائرُ آياتِهما؛ كالبحرِ والمُرسَلاتِ الستِّ... وقال الحسن: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بديننا. ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو المعجز. ويجوزُ أن يُرادَ بالآياتِ: نفْسُ المعجزاتِ، و «بسلطانٍ مبينٍ»: كيفيَّةُ دَلالتِها... قيل: ويجوزُ أن يُرادَ بالسلطانِ المبينِ: العصا... ويجوز أن يُراد بسلطانٍ مبينٍ: الآياتُ أنفسُها، أي: هي آياتٌ وحُجَّةٌ بيِّنةٌ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٣).

مِثلُنا في المأكَلِ والمَشرَبِ وغَيرِهما مِمَّا يَعْتري أحوالَ البَشَرِ، وقَومُهما لنا مُطيعونَ ذَليلونَ خاضِعونَ؟! فكيف نَتَّبِعُهما[1]؟!

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨)﴾.

أي: فكذَّب فِرعَونُ ومَلَؤُه مُوسى وهارونَ، فأغرَقَهم اللهُ، فكانوا ممَّنْ أهلكهم الله؛ لِتكذيبِهم رُسُلَ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾[الفرقان: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان ضَلالُ بني إسرائيلَ -الَّذين اسْتنقَذَهُم اللهُ تعالى مِن عُبوديَّةِ فِرعونَ وقَومِه- أعجَبَ، وكان السَّامعُ مُتشوِّفًا إلى ما كان مِن أمْرِهم بَعدَ نَصْرِهم؛ ذَكَرَ ذلك[3].

وأيضًا لَمَّا ذُكِرَت دَعوةُ مُوسى وهارونَ لِفرعونَ ومَلَئِه، وما ترتَّبَ على تَكذيبِهم مِن إهلاكِهم، أُكْمِلَت قِصَّةُ بَعثةِ مُوسى عليه السَّلامُ بالمُهِمِّ منها الجاري، ومِن بَعثةِ مَن سلَفَ مِنَ الرُّسلِ المُتقدِّمِ ذِكْرُهم، وهو إيتاءُ مُوسى عليه السَّلامُ الكِتابَ لِهدايةِ بني إسرائيلَ لِحُصولِ اهتِدائِهم؛ لِيَبْنِيَ على ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٧).

الاتِّعاظَ بخلافِهم على رُسلِهم في قولِه بَعدَ ذلك: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗا﴾ [المؤمنون: ٥٣]؛ فإنَّ مَوعِظةَ المُكذِّبينَ رَسولَهم بذلك أَوْلى[١].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٤٩﴾.

أي: ولقدْ آتَينا مُوسى التَّوراةَ؛ كي يَهتَديَ بنو إسرائيلَ باتِّباعِها[٢].

﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان مَن ذُكِرَ كلُّهم قد رَدُّوا مَن جاءهم؛ لإشعارِهم اسْتِبعادَهم لأنْ يكونَ الرُّسلُ بَشَرًا، وكان بعضُ بني إسرائيلَ الَّذين أعَزَّهُم اللهُ ونصَرَهم على عَدُوِّهم، وأوضَحَ لهم الطَّريقَ بالكتابِ قدِ اتَّخذوا عيسى -مع كونِه بَشرًا- إلهًا: أَتْبَعَ ذلك ذِكْرَه؛ تَعجيبًا مِن حالِ المُكذِّبينَ في هذا الصُّعودِ بَعدَ ذلك النُّزولِ في أمْرِ مَن أُرْسِلوا إليهم، وجَرَتْ على أيديهم الآياتُ لِهدايتِهم، فقال[٣]:

﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾.

أي: وجعَلْنا عِيسى ابنَ مَريمَ وأُمَّه مَريمَ حُجَّةً عَجيبةً واضِحةً للنَّاسِ، تدُلُّهم على قُدرةِ اللهِ على خَلقِ ما يَشاءُ؛ حيثُ خَلَقَ عِيسى مِن أُمٍّ بلا أبٍ[٤]!

كما قال تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣).

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

أي: وصَيَّرْنا عِيسى وأُمَّه مَريمَ إلى مَكانٍ مُرتَفِعٍ مِنَ الأرضِ، مُستَوٍ مُستَقِرٍّ، وفيه نَهرٌ جارٍ ظاهِرٌ للعِيَانِ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢، ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٧).

قال البقاعي: (﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مُنبسَطٍ صالحٍ لأن يُستقَرَّ فيه؛ لِما فيه من المرافِقِ، ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: ماءٍ ظاهرٍ للعينِ، ونافعٍ كالماعون، فرعٌ اشتُقَّ من أصلينِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٤٩).

وقال ابنُ كثير: (أقربُ الأقوالِ في ذلك ما رواه العَوفي عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: المَعينُ: الماءُ الجاري، وهو النَّهرُ الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، وكذا قال الضَّحَّاكُ وقتادةُ: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: هو بيتُ المَقدِسِ، فهذا -والله أعلم- هو الأظهرُ؛ لأنَّه المذكورُ في الآيةِ الأخرى، والقُرآنُ يُفسِّرُ بَعضُه بعضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عباس: يريدُ دِمشقَ. وهو قولُ سعيدِ بنِ المسيِّبِ، ومقاتِلٍ، وروايةُ عِكْرِمةَ عن ابنِ عباسٍ.

وقال عطاءٌ عن ابنِ عباسٍ: يريدُ بيتَ المقدسِ. وهو قولُ قتادةَ وكعبٍ...، وقال السُّدِّيُّ: إنها أرضُ فلسطينَ. وهو قولُ أبي هريرةَ). ((الوسيط)) (٣/ ٢٩١).

وقال السعدي: (﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: مكانٍ مرتفِعٍ، وهذا -والله أعلم- وقتُ وَضعِها، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مُستقَرٍّ وراحةٍ ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: ماءٍ جارٍ؛ بدليلِ قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ [مريم: ٢٤] أي: تحتَ المكانِ الذي أنت فيه؛ لارتفاعِه ﴿سَرِيًّا﴾ أي: نهرًا، وهو المَعِينُ ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٥-٢٦])، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بهذا الإيواءِ وحيُ الله لمريمَ أن تنفرِدَ برَبوةٍ حين اقترب مخاضُها لِتَلدَ عيسَى في منعَزَلٍ مِن الناسِ؛ حفظًا لعيسَى مِن أذاهم. والقرارُ: المكثُ في المكانِ، أي: هي صالحةٌ لأن تكونَ قرارًا، فأُضيفَت الربوةُ إلى المعنى الحاصِلِ فيها لأدنى ملابسةٍ، وذلك بما اشتملت عليه مِن النخيلِ المثمِرِ، فتكونُ في ظِلِّه ولا تحتاجُ إلى طلبِ قُوتِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٧).

جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۞ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٢- ٢٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۞ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۞ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾، فلم تُغْنِ عن فِرْعونَ ومَلَئِه قُوَّتُهم في أنفُسِهم، ثُمَّ قُوَّتُهم على خُصوصِ بني إسرائيلَ باستِعْبادِهم إيَّاهم، ولا ضَرَّ بني إسرائيلَ ضَعْفُهم عن دِفاعِهم، ولا ذُلُّهم لهم وصَغارُهم في أيدِيهم[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۞ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۞ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ فإذا عرَفَ الإنسانُ قَصَصَ الأنبياءِ ومَن اتَّبَعهم، ومَن كذَّبهم، وأنَّ مُتَّبِعيهم كان لهم النَّجاةُ والعاقِبةُ والنَّصرُ والسَّعادةُ، ولِمُكَذِّبِيهم الهَلاكُ والبَوارُ؛ جَعَل الأمرَ في المُستقبَلِ مِثلَما كان في الماضي، فعَلِمَ أنَّ مَن صَدَّقَهم كان سَعيدًا، ومَن كذَّبهم كان شَقيًّا. وهذه سُنَّةُ اللهِ وعادتُه[٢].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۞ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۞ فَقَالُوٓا۟

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٩٦٣).

أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ * وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤ - ٤٩]، ذكر بعضُهم أنَّه بَعْدَ بَعْثِ مُوسى ونُزولِ التَّوراةِ رفَعَ اللهُ العذابَ عن الأُمَمِ، أي: عذابَ الاستِئصالِ، وشرَعَ للمُكذِّبينَ المُعانِدينَ الجِهادَ، وبتدبُّرِ هذه الآياتِ مع الآياتِ التي في سورةِ (القَصصِ) يَتبيَّنُ وجهُ هذا الكلامِ؛ فإنَّ اللهَ في هذه الآياتِ ذكَرَ الأُمَمَ المُهْلَكةَ المُتتابِعةَ على الهَلاكِ، ثمَّ أخبَرَ أنَّه أرسَلَ مُوسى بَعْدَهم، وأنزَلَ عليه التَّوراةَ فيها الهِدايةُ للنَّاسِ، ولا يَرِدُ على هذا: إهْلاكُ فِرعونَ؛ فإنَّه قَبْلَ نُزولِ التَّوراةِ، وأمَّا الآياتُ الَّتي في سُورةِ (القَصصِ) فهي صَريحةٌ جِدًّا؛ فإنَّه لَمَّا ذكَرَ هَلاكَ فِرعونَ، قال: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٣]، فهذا صَريحٌ أنَّه آتاهُ الكِتابَ بَعدَ هَلاكِ الأُمَمِ الباغيةِ، وأخبَرَ أنَّه أنزَلَه بَصائرَ للنَّاسِ وهدًى ورَحمةً، ولعلَّ مِن هذا: ما ذكَرَ اللهُ في سُورةِ (يُونس) مِن قَولِ: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾، أي: مِن بَعدِ نُوحٍ، ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ * ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ الآياتِ [يونس: ٧٤، ٧٥]، واللهُ أعلَمُ[1].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ مُعجزاتِ مُوسى عليه السَّلامُ كانت مُعجزاتِ هَارونَ عليه السَّلامُ أيضًا، وأنَّ النُّبوَّةَ كما أنَّها مُشترِكةٌ بيْنهما، فكذلك المُعْجِزاتُ[2].

٣- قولُه تعالى -إخبارًا عن فِرْعونَ ومَلَئِه-: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُه يُجري نَقْضَ ضَلالةِ الضَّالِّينَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٢). ويُنظر أيضًا: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٧٩).

على أَلْسِنَتِهم، فلا يَشْعُرون بها ولا أتْباعُهم؛ لِيُحِقَّ كَلِمَتَه على مَن قَضى عليه الشِّقوةَ، أَلَا ترى أنَّ فِرعونَ مع ادِّعائِه الرُّبُوبيَّةَ قال مع مَلَئِه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾، ولم يَحْتَرِزْ مِن تَسميةِ نَفْسِه بَشرًا، وقد سمَّاها ربًّا لا مَلَؤُه[١]!! وكذلك فقد أنكَر أنْ يكونَ الرسولُ بشرًا معَ أنَّه ادَّعى لنفْسِه الربوبيةَ والإلهيةَ وهو بشرٌ.

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ نسَبَه إليها؛ تَحقيقًا لكَونِه لا أبَ له، وكَونِه بَشرًا مَحمولًا في البَطنِ مَولودًا، لا يَصلُحُ لِرُتبةِ الإلهيَّةِ؛ وزاد في تَحْقيقِ ذلك بقولِه: ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾[٢].

٥- قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ لمَّا كانتْ آيةُ عِيسى العُظْمَى في ذاتِهِ في كَيفيَّةِ تَكوينِه، كان الاهتمامُ بذِكْرِها هنا، ولم تُذْكَرْ رِسالتُه؛ لأنَّ مُعجزةَ تَخليقِه دالَّةٌ على صِدْقِ رِسالَتِه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدًا لِّقَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث أضاف اللهُ عَزَّ وجَلَّ الرُّسلَ إليه في قولِه: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾، وأضافَها إلى الأُمَمِ ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾؛ لأنَّ الإضافةَ تكونُ بالمُلابَسةِ، والرَّسولُ مُلابِسٌ المُرسِلَ والمُرسَلَ إليه جميعًا؛ فالأوَّلُ كانتِ الإضافةُ لِتَشريفِ الرُّسلِ، والثَّاني كانتِ الإضافةُ إلى الأُمَّةِ، حيث كذَّبَتْه ولم يَنجَحْ فيهم إرسالُه إليهم؛ فناسَبَ الإضافةُ إليهم[٤]. وقيل:

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٤).

إضافةُ الرَّسولِ مع الإرسالِ إلى المُرسِلِ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾، ومع المَجِيءِ إلى المُرسَلِ إليهم ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾؛ لأنَّ الإرسالَ الَّذي هو مَبدَأُ الأمْرِ منه، والمَجِيءَ الَّذي هو مُنتهاهُ إليهم[1]. وقيل: إضافةُ الرَّسولِ إلى الأُمَّةِ مع إضافةِ كُلِّهم فيما سبَقَ إلى نُونِ العَظمةِ؛ لِتَحقيقِ أنَّ كلَّ رَسولٍ جاء أُمَّتَه الخاصَّةَ به، لا أنَّ كلَّهم جاؤوا كلَّ الأُمَمِ، والإشعارِ بكَمالِ شَناعتِهم وضَلالِهم؛ حيثُ كذَّبَتْ كلُّ واحدةٍ منهُم رسولَها المُعيَّنَ لها[2].

- قولُه: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لِمَجيءِ كلِّ رسولٍ لأُمَّتِه، ولِمَا صدَرَ عنهم عندَ تَبْليغِ الرِّسالةِ، والمُرادُ بالمَجِيءِ إمَّا التَّبليغُ، وإمَّا حَقيقةُ المَجيءِ؛ للإيذانِ بأنَّهم كذَّبوه في أوَّلِ المُلاقاةِ[3].

- قولُه: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ كِنايةٌ عن إبادتِهم[4].

- قوله: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال قبلَها: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، فنِيطَ الدُّعاءُ هنا بوَصْفِ أنَّهم ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لِيَحصُلَ مِن مَجموعِ الدعوتينِ التَّنبيهُ على مَذمَّةِ الكُفْرِ، وعلى مَذمَّةِ عَدَمِ الإيمانِ بالرُّسلِ؛ تَعريضًا بمُشرِكِي قُريشٍ، على أنَّه يَشمَلُ كلَّ قَومٍ لا يُؤمِنون برُسلِ اللهِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سِياقِ الدُّعاءِ تعُمُّ[5].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ اقْتُصِرَ على وَصْفِهم بعَدمِ الإيمانِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٢، ٦٣).

حَسَبَما اقْتُصِرَ على حِكايةِ تكذيبِهم إجْمالًا، وأمَّا القُرونُ الأَوَّلُون فحيث نُقِل عنهم ما مَرَّ مِن الغُلوِّ وتَجاوُزِ الحدِّ في الكُفرِ والعُدوانِ، وُصِفوا بالظُّلمِ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

- إضافةُ الآياتِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ للتَّنويهِ بها وتَعظيمِها(٢).

- وقولُه: ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ على القولِ بأنَّ المُرادَ بالسُّلطانِ المُبينِ العَصا؛ فيكونُ فيه إفرادُها بالذِّكْرِ مع اندراجِها في الآياتِ؛ لأنَّها أُمُّ آياتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأُولاها، وقد تعلَّقَتْ بها مُعجِزاتٌ شَتَّى، جُعِلَت كأنَّها ليست بَعْضَ الآياتِ؛ لِمَا استبَدَّتْ به مِن الفَضلِ. وعلى أنَّ المُرادَ بالسُّلطانِ نفْسُ الآياتِ؛ فيكونُ عبَّرَ عنها بذلك على طَريقةِ العَطْفِ؛ تَنبيهًا على جَمْعِها لِعُنوانينِ جَليلينِ، وتَنزيلًا لِتَغايُرِهما مَنزِلةَ التَّغايُرِ الذَّاتيِّ(٣). أو جُرِّدَ مِن نَفْسِ الآياتِ سُلطانٌ مُبينٌ، وعُطِفَ عليها؛ مُبالغةً، وهو هي(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ خُصَّ الملأُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ إرسالَ بني إسرائيلَ مَنوطٌ بآرائِهم لا بآراءِ أعقابِهم(٥)؛ فجُعِلَ الإرسالُ إليهم دونَ بَقِيَّةِ أُمَّةِ القِبْطِ؛ لأنَّ دَعوةَ مُوسى وأخيه إنَّما كانت خِطابًا لِفِرعونَ وأهْلِ دَولتِه الَّذين بيَدِهم تَصريفُ أُمورِ الأُمَّةِ لِتَحريرِ بني إسرائيلَ مِن استِعْبادِهم إيَّاهم؛ قال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٤، ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٦).

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: ٤٧]، ولم يُرسَلَا بشَريعةٍ إلى القِبْطِ، وأمَّا الدَّعوةُ إلى التَّوحيدِ فمُقَدِّمةٌ لإثباتِ الرِّسالةِ لهم(١).

- وعَطْفُ ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ بفاءِ التَّعقيبِ يُفِيدُ أنَّهم لم يتأمَّلوا الدَّعوةَ والآياتِ والحُجَّةَ، ولكنَّهم أفْرَطوا في الكِبْرياءِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّوكيدِ(٢).

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بينَ فِعْلِ (اسْتَكْبَرُوا) وما تفرَّعَ عليه مِن قولِه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ﴾، مُقرِّرةٌ للاستكبارِ، وأفاد وَصْفُ القومِ باسْمِ الفاعِلِ ﴿عَالِينَ﴾ تَمكُّنَ ذلك الوَصفِ مِن الموصوفِ بلَفْظِ (قوم)، أو تَمكُّنَه مِن أولئك القومِ؛ فأفادَ أنَّ استكبارَهم على تَلقِّي دَعوةِ مُوسى وآياتِه وحُجَّتِه إنَّما نشَأَ عن سَجِيَّتِهم مِن الكِبْرِ وتَطبُّعِهم، وبُيِّنَ ذلك بالتَّفريعِ بقولِه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾؛ فهو مُتفرِّعٌ على قولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾، وما بيْنهما اعتراضٌ(٤).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ(٥).

- وجُملةُ: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ حالٌ مِن فاعِلِ (نُؤْمِنُ)، مُؤكِّدةٌ لإنكارِ الإيمانِ لهما؛ كأنَّهم قَصَدوا بذلك التَّعريضَ بشأنِهما عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٣، ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٤).

وحَطَّ رُتْبتِهما العَلِيَّةِ عن مَنصِبِ الرِّسالةِ مِن وَجْهٍ آخَرَ غيرِ البَشريَّةِ. واللَّامُ في ﴿لَنَا﴾ مُتعلِّقةٌ بـ﴿عَٰبِدُونَ﴾؛ قُدِّمت عليه رِعايةً لِفَواصِلِ الآياتِ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ تفرَّعَ على قَولِهم التَّصميمُ على تَكذيبِهم إيَّاهما المَحْكِيِّ بقولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، ثمَّ فرَّعَ على تكذيبِهم أنْ كانوا مِن المُهلَكينَ؛ إذ أهلَكَهم اللهُ بالغرَقِ، أي: فانْتَظَموا في سِلْكِ الأقوامِ الَّذينَ أُهْلِكوا، وهذا أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: فأُهْلِكوا. والتَّعقيبُ هنا تَعقيبٌ عُرفيٌّ؛ لأنَّ الإغراقَ لمَّا نشَأَ عن التَّكذيبِ، فالتَّكذيبُ مُستمِرٌّ إلى حينِ الإهلاكِ(٢).

- وفيه تَعريضٌ بتَهديدِ قُريشٍ على تَكذيبِهم رسولَهم صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ إشارةً إلى أنَّ الإهلاكَ سُنَّةُ اللهِ في الَّذين يُكذِّبون رُسلَهُ(٣).

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أُعِيدَ ذِكْرُ مُوسى عليه السَّلامُ؛ لِيُناطَ به ذِكْرُ الكتابِ، وكَونُه مَبْعوثًا إلى بني إسرائيلَ كما ذُكِرَ في الآيةِ السَّابقةِ، وقرَنَ به الآياتِ والسُّلطانَ وكَونَه مَبْعوثًا إلى فِرعونَ ومَلَئِه(٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث لم يُذْكَرْ هارونُ هنا ووقَع الإعراضُ عنه، بخِلافِ الآيةِ السَّابقةِ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٥]؛ لأنَّ رِسالتَه قدِ انتهَتْ؛ لاقتصارِهِ على تَبليغِ الدَّعوةِ لِفِرعونَ ومَلَئِه؛ إذ كانت مَقامَ مُحاجَّةٍ واستدلالٍ، فسأَلَ مُوسى ربَّهُ إشراكَ أخيهِ هارونَ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٥).
(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٨٨).

تَبْليغِها؛ لأنَّه أفصَحُ منه لِسانًا في بَيانِ الحُجَّةِ والسُّلطانِ المُبينِ[١].

- قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لمَّا كان إيتاؤُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ التَّوراةَ لإرشادِ قَومِه إلى الحقِّ -كما هو شأْنُ الكُتبِ الإلهيَّةِ- جُعِلُوا كأنَّهم أُوتُوها؛ فقيلَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾. وقيل: أُرِيدَ: آتَيْنا قَومَ مُوسى، فحُذِفَ المُضافُ وأُقيمَ المُضافُ إليه مُقامَه[٢]. وقيل: بلْ ضَميرُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ظاهِرُ العَودِ إلى غَيرِ مَذكورٍ في الكلامِ، بل إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ، وهم القومُ المُخاطَبونَ بالتَّوراةِ، وهم بنو إسرائيلَ؛ فاتِّساقُ الضَّمائرِ ظاهِرٌ في المَقامِ دونَ حاجةٍ إلى تأْويلِ قولِه: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ بمعنى: آتَيْنا قَومَ مُوسى[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾ إدماجٌ لِتَسفيهِ اليَهودِ فيما رَمَوا به مَريمَ عليها السَّلامُ؛ فإنَّ ما جعَلَهُ اللهُ آيةً لها ولابْنِها جعَلُوه مَطْعَنًا ومَغْمَزًا فيهما[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ أفرَدَ وقال: ﴿ءَايَةً﴾؛ لأنَّ حالَهُما بمَجموعِهما آيةٌ واحدةٌ؛ وهي وِلادتُها إيَّاهُ مِن غَيرِ فَحْلٍ. أو جَعَلْنا ابنَ مَريمَ آيةً بأنْ تكلَّمَ في المَهْدِ، وظَهَرَتْ منه مُعجِزاتٌ أُخَرُ، ﴿وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ بأنْ ولَدَتْ مِن غَيرِ مَسيسٍ؛ فحُذِفَتِ الأُولى لِدَلالةِ الثَّانيةِ عليها[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٧).

وقيل: قال: ﴿ءَايَةً﴾ إشارةً إلى ظُهورِ الخَوارقِ على أيدِيهما حتَّى كأنَّهما نفْسُ الآيةِ، فلا يُرَى منها شَيءٌ إلَّا وهو آيةٌ، ولو قال: (آيتينِ) لكان ربَّما ظُنَّ أنَّه يُرادُ حَقيقةُ هذا العددِ، ولعلَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّه تكمَّلَتْ به آيةُ القُدرةِ على إيجادِ الإنسانِ بكلِّ اعتبارٍ: مِن غَيرِ ذكَرٍ ولا أُنْثى كآدَمَ عليه السَّلامُ، ومِن ذكَرٍ بلا أُنْثى كحوَّاءَ عليها السَّلامُ، ومِن أُنْثَى بلا ذكَرٍ كعِيسى عليه السَّلامُ، ومِن الزَّوجينِ كبَقيَّةِ النَّاسِ(١).

- وأيضًا تَنكيرُ ﴿ءَايَةً﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّها آيةٌ تَحْتوي على آياتٍ، ولمَّا كان مَجموعُها دالًّا على صِدْقِ عِيسى في رِسالَتِه، جُعِلَ مَجموعُها آيةً عَظيمةً على صِدْقِه(٢).

- والتَّعبيرُ عنهما بما ذُكِرَ من العُنوانينِ -وهما كونُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ابنَها، وكونُها أُمَّهَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بحَيثيَّةِ كَونِهما آيةً؛ فإنَّ نِسْبتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إليها -معَ أنَّ النَّسبَ إلى الآباءِ- دالَّةٌ على أنْ لا أبَ له، أي: جَعَلْنا ابنَ مَريمَ وحْدَها مِن غَيرِ أنْ يَكونَ له أبٌ، وأُمَّه الَّتي ولدَتْهُ خاصَّةً مِن غَيرِ مُشارَكةِ الأبِ: آيةً. وتَقديمُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأصالتِه فيما ذُكِرَ مِن كَونِه آيةً، كما أنَّ تَقديمَ أُمِّه في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]؛ لِأَصالتِها فيما نُسِبَ إليها من الإحصانِ والنَّفخِ(٣).

- قولُه: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ فيه تَنويهٌ بهما؛ إذ جَعَلَهما اللهُ مَحَلَّ عِنايَتِه،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٤٨، ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٧).

ومَظهَرَ قُدرتِه ولُطْفِه[(١)].

- وقولُه: ﴿وَمَعِينٍ﴾ وَصْفٌ جَرى على مَوصوفٍ مَحذوفٍ؛ لِدَلالةِ الوَصْفِ عليه، أي: ماءٍ مَعينٍ[(٢)]. ووُصِفَ ماؤُها بذلك؛ للإيذانِ بكَونِه جامِعًا لفُنونِ المنافِعِ؛ مِن الشُّربِ، وسَقْيِ ما يُسْقَى من الحيوانِ والنَّباتِ بغَيرِ كُلْفةٍ، والتَّنزُّهِ بمَنظَرِه المُونِقِ، وطِيبِ المكانِ[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٨).

الآيات (٥١-٥٦)

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥)
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾.

غَريبُ الكلماتِ:

﴿أُمَّتُكُمْ﴾: أي: مِلَّتُكم ودينُكم وشريعتُكم، والأصلُ أنَّه يُقال للقومِ يجتمعونَ على دينٍ واحدٍ: أُمَّةٌ، فتُقامُ الأُمَّةُ مقامَ الدِّينِ، وتُطلَقُ الأُمَّةُ أيضًا على البُرْهةِ مِن الزَّمنِ، والرَّجلِ المُقتدَى به، والأصلِ، والمرجِعِ، ويُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا لوجودِ شيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أُمٌّ[١].

﴿زُبُرًا﴾: أي: كُتبًا مُختلِفةً، جمعُ زبورٍ، وأصلُ (زبر): يدُلُّ على قراءةٍ وكتابةٍ وما أشبهَ ذلك[٢].

﴿حِزْبٍ﴾: أي: طائفةٍ وفِرْقةٍ، والحزبُ: الجماعةُ مِن الناسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣).

﴿غَمْرَتِهِمْ﴾: أي: عَمايَتِهم وجَهْلِهم وضَلالِهم، وسُمِّيَتْ غَمْرةً؛ لأنَّها شَيءٌ يَستُرُ الحقَّ عن العينِ، وأصْلُ الغَمْرِ: إزالةُ أثَرِ الشَّيءِ، وكذلك تَغطيةٌ وسَتْرٌ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾

قَولُه: ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خبرُ لـ (إنَّ)، ونُصِبَ ﴿أُمَّةً﴾ على الحالِ من ﴿أُمَّتُكُمْ﴾، أو نُصِبَ على البَدَلِ مِن ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾، فيكونُ قد فُصِلَ بالخبَرِ بين البَدَلِ والمُبدَلِ منه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾: (ما) مَوصولةٌ بمعنى (الَّذي)[٣]، وهي اسمُ (أنَّ)، و﴿نُمِدُّهُم﴾ صِلتُها، وعائدُه الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾. و﴿مِن مَّالٍ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ حالٌ مِن الموصولِ (ما). و﴿نُسَارِعُ﴾ خبرُ (أنَّ)، والعائدُ مِن هذه الجُملةِ إلى اسم (أنَّ) مَحذوفٌ، تَقديرُه: نُسارِعُ لهم به، أو فيه. والمصدرُ المُؤوَّلُ سَدَّ مَسدَّ مَفعولَي (يحسَبُ). وقيل غيرُ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

(٢) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٩٥).

(٣) قال الألوسي: (ومَن جوَّز كونَها مصدريةً وجعَل المصدرَ الحاصلَ بعدَ السبكِ اسمَ أنَّ وخبرَها ﴿نُسَارِعُ﴾ على تقديرِ «مسارعة»، بِناءً على أنَّ الأصلَ «أنْ نسارع»، فحُذفت «أنْ» وارتفَع الفعلُ- لم يُوفِّ القرآنَ الكريمَ حقَّه، وكذا مَن جعَلها كافَّةً كالكسائيِّ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٠٣)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٤٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يخاطبُ اللهُ رسلَه آمرًا إيَّاهم بأن يأكُلوا مِنَ الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، وأن يعْمَلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ ويُذكِّرُهم بأنَّه عَليمٌ بما يعمَلونَ، لا يَخْفَى عليه مِن أعمالِهم شَيءٌ. ويبيِّنُ لهم أنَّ دِينَهم جميعًا دِينٌ واحِدٌ، وهو الإسلامُ، وأنه هو رَبُّهم؛ فعليهم أن يتَّقوه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه.

ويخبِرُ تعالى أنَّ الناسَ مِن أُمَمِ الرُّسُلِ تفرَّقتْ في الدِّينِ، وجعلوه كتبًا وضَعوها، دانَ كلُّ فريقٍ منهم بكتابٍ، وجعَل له دينًا، كُلُّ حِزْبٍ مُعْجَبٌ برأيِه، يَعتقِدُ أنَّه على الحَقِّ دون غيره! وأمَر اللهُ نبيَّه أن يَترُكَهم في غَفلَتِهم وحَيرتِهم إلى أنْ يَنزِلَ العَذابُ بهم أو الموتُ.

ثم يقولُ تعالى: أيظُنُّ هؤلاء المُفَرِّقونَ دِينَهم أنَّ ما يبسُطُه لهم جلَّ وعلا مِن أموالٍ وأولادٍ في الدُّنيا هو تعجيلٌ لثوابِهم لِكَرامتِهم علَيْه؟! كلَّا! إنَّما يفعل ذلك فِتنةً لهم واستِدراجًا، ولكِنَّهم لا يَشعُرونَ بذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

المناسبةُ لهذا الاستئنافِ هي قولُه: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ولِيَحصُلَ مِنْ ذلك الرَّدُّ على اعتقادِ الأقوامِ المُعلِّلينَ تكذيبَهم رُسُلَهم بعِلَّةِ أنَّهم يأكُلونَ الطَّعامَ، كما قالَ تعالَى في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ولِيُبْطِلَ بذلك ما ابْتَدَعه النَّصارَى مِنَ الرَّهبانِيَّةِ[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٨).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ عيسَى عليه السَّلامُ على مِنْهاجِ إخوانِه مِنَ الرُّسلِ في الأكْلِ والعِبادةِ، وجميعِ الأحوالِ؛ زاد في تَحقيقِ ذلك بَيانًا لِمَن ضَلَّ بأنِ اعتقَدَ فيه ما لا يَليقُ به، فقال مُخاطِبًا لِجَميعِ الرُّسلِ[١]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾.

أي: يا أيُّها الرُّسُلُ، كُلُوا مِنَ الرِّزقِ الحَلالِ المُستلَذِّ النَّافِعِ، واعْمَلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ الخالِصةَ للهِ، المُوافِقةَ لِشَريعتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٤).

قيل: المرادُ أنَّ كُلَّ رَسولٍ في زمانِه خُوطِبَ بذلك. وممَّن قال بهذا: ابنُ جُزي، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٤).

وقيل: الخِطابُ للنبيِّ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ قتيبة، والزجَّاج. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥).

قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ قال ابنُ عباس، والحسنُ، ومجاهدٌ، وقتادةُ في آخرينَ: يعني بالرُّسُلِ هاهنا محمَّدًا -صلَّى الله عليه وسلَّم- وحْدَه. وهو مذهَبُ العربِ في مخاطبةِ الواحِدِ خِطابَ الجميعِ، ويتضَمَّنُ هذا أنَّ الرسُلَ جميعًا كذا أُمِروا. وإلى هذا المعنى ذهَب ابنُ قتيبةَ والزجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٤).

وقيل: الخِطابُ لعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٦).

((أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المُؤمِنينَ بما أمَرَ به المُرسَلينَ؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أشعَثَ أغبَرَ[١]، يَمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشرَبُه حَرامٌ، ومَلبَسُه حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ؛ فأنَّى يُستَجابُ لذلك؟!))[٢].

﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾.

أي: لا يَخْفى علَيَّ شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسأُجازيكم عليها جَميعًا؛ فاجتَهِدوا في صالحِ الأعمالِ[٣].

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

أي: وقُلْنا للرُّسُلِ: إنَّ دِينَكم جَميعًا دِينٌ واحِدٌ، وهو الإسلامُ[٤].

---

(١) أشعَثَ: أي: مُتفرِّقَ شَعرِ الرَّأسِ. أغبَرَ: أي: مُغْبَرَّ البَدَنِ يعلوه الغُبارُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٤٠٢٤).

(٢) رواه مسلم (١٠١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٩).
قال الشنقيطي: (فقولُه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، أي: إنَّ هذِه شَريعتُكم شَريعة واحِدة، ودِينُكم دِينٌ واحدٌ، وربُّكم واحدٌ؛ فلا تَتفرَّقوا في الدِّينِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٦١). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٤٢).
وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ المعنَى: هذا الَّذي تقدَّم ذكرُه =

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ قال: ((أنا أَولى النَّاسِ بعِيسى ابنِ مَريمَ في الدُّنيا والآخِرةِ، والأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ[1]؛ أُمَّهاتُهم شَتَّى، ودِينُهم واحِدٌ))[2].

﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾.

أي: وأنا رَبُّكم فاتَّقوني بفِعلِ أوامِري، واجتِنابِ نَواهيَّ، ولا تُشرِكوا بي شَيئًا[3].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾.

أي: فتَفرَّقَ النَّاسُ مِن أُمَمِ الرُّسُلِ في هذا الدِّينِ الواحِدِ الَّذي شرَعَه اللهُ لهم؛ وجعلوه كُتبًا وضَعوها، دانَ كلُّ فريقٍ منهم بكتابٍ غيرِ كُتبِ الفِرَقِ الأخرَى، وجعَل كلُّ فريقٍ منهم لنفْسِه دِينًا[4].

= هو دينُكم ومِلَّتُكم فالْتَزِموه. والأُمَّةُ هنا: الدِّينُ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٩).

وقال ابنُ عطية: (الإشارةُ بـ «هذه» إلى الحنيفيةِ السمحةِ ملَّةِ إبراهيمَ عليه السلامُ، وهو دينُ الإسلامِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٦).

(١) أولادُ العَلَّاتِ: الَّذين أُمَّهاتُهم مُختلفةٌ وأبوهُم واحِدٌ؛ أرادَ أنَّ إيمانَهم واحِدٌ، وشرائعَهُم مُختلفةٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١، ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٩، ١٣٠)، =

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال سبحانَه: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٣].

﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

أي: كلُّ فَريقٍ منهم مَسْرورونَ بما اختارُوه لأنفُسِهم، فَرِحونَ بباطِلِهم، يَعتَقِدونَ أنَّهم على الحَقِّ دونَ مَن سِواهم[١].

كما قال تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ

= ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٢، ٧٣).

قال القرطبي: (الافتراقُ المحَذَّرُ منه في الآيةِ والحديثِ [يعني: حديثَ افتراقِ الأمَّةِ] إنَّما هو في أصولِ الدِّينِ وقواعِدِه؛ لأنَّه قد أطلَقَ عليها مِلَلًا، وأخبَرَ أنَّ التمَسُّكَ بشَيءٍ مِن تلك المِلَلِ مُوجِبٌ لدُخولِ النَّارِ. ومِثلُ هذا لا يُقالُ في الفروعِ؛ فإنَّه لا يُوجِبُ تعديدَ المِلَلِ، ولا عذابَ النَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٠).

وقال أيضًا: (قَولُه تعالى: ﴿ زُبُرًا ﴾ يعني: كُتُبًا وَضَعوها، وضَلالاتٍ ألَّفوها، قاله ابنُ زيدٍ. وقيل: إنَّهم فرَّقوا الكُتُبَ، فاتَّبعت فِرقةٌ الصُّحُفَ، وفِرقةٌ التَّوراةَ، وفِرقةٌ الزَّبورَ، وفِرقةٌ الإنجيلَ، ثمَّ حُرِّفَ الكُلُّ وبُدِّلَ، قاله قتادةُ. وقيل: أخَذَ كُلُّ فريقٍ منهم كتابًا آمَنَ به، وكفَرَ بما سِواه). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٠).

وقال ابنُ جريرٍ في معنى ﴿ زُبُرًا ﴾: (إجماعُ أهلِ التأويلِ في تأويلِ ذلك على أنَّه مرادٌ به الكتبُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣).

وقال الشنقيطي: (وقوله في هذه الآيةِ: ﴿ زُبُرًا ﴾ أي: قِطَعًا كزُبَرِ الحديدِ والفضَّةِ، أي: قِطَعِها). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣).

فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٢].

﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَن ذَكَرَ مِنَ الأُمَمِ، ومآلَ أمْرِهم مِنَ الإهلاكِ حين كذَّبوا الرُّسلَ، كان ذلك مِثالًا لِقُريشٍ؛ فخاطَبَ رَسولَه في شأْنِهم بقولِه(١):

﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

أي: فاترُكْ -يا مُحمَّدُ- هؤلاء المُشرِكينَ المُختَلِفينَ في دِينِهم، الَّذين هم بمَنزلةِ مَن تقدَّمَ؛ اترُكْهم في حَيْرَتِهم وضَلالتِهم وغَفلَتِهم الَّتي غَرِقوا فيها، إلى أنْ يأتيَهم العَذابُ أو الموتُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان القومُ في نِعَمٍ عَظيمةٍ في الدُّنيا، جاز أنْ يظُنُّوا أنَّ تلك النِّعمَ كالثَّوابِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال الله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي: فيما يغمُرُ قُلوبَهم مِن حُبِّ المالِ والبنينَ، المانِعِ لهم مِن المُسارَعةِ في الخيراتِ والأعمالِ الصَّالحةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٩٦).

المُعجَّلِ لهم على أديانِهم؛ فبيَّنَ سُبحانَه أنَّ الأمْرَ بخِلافِ ذلك(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان المُوجِبَ لِغُرورِ الكافرينَ ظَنُّهم أنَّ حالَهم -في بَسْطِ الأرزاقِ مِن الأموالِ والأولادِ- حالُ الموعودِ لا المُتوعَّدِ، أنْكَر ذلك عليهم؛ تَنبيهًا لِمَن سبقَتْ له السَّعادةُ، وكُتِبَت له الحُسْنى وزِيادةٌ، فقال(٢):

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: أيظُنُّ أولئك الَّذين فرَّقوا دِينَهم أنَّ ما نَبسُطُه عليهم في الدُّنيا مِنَ الأموالِ والأبناءِ هو تَعجيلٌ لِثَوابِهم؛ لِمَعزَّتِهم وكَرامتِهم عندنا؟! كلَّا! ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ، بلْ هم يُسارِعونَ في أسبابِ الشُّرورِ، ولكِنْ لا يَشعُرونَ أنِّي أُعْطِيهم ذلك فِتْنةً واستِدراجًا لهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤ - ٣٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ دَلَّ هذا على أنَّ الحلالَ عَونٌ على الطاعةِ والعمَلِ الصَّالحِ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، بَعدَ قولِه: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، تَحذيرٌ مِن مُخالَفةِ ما أمَرَهُم به، وإذا كان ذلك تَحذيرًا للرُّسلِ مع عُلُوِّ شأْنِهم، فبأنْ يكونَ تَحذيرًا لِغَيرِهم أَوْلى؛ فهو تَحذيرٌ، والمُرادُ أتْباعُهم[2]. وفيه أيضًا تَحريضٌ على الاستِزادةِ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ لأنَّ ذلك يَتضمَّنُ الوعْدَ بالجَزاءِ عنها، وأنَّه لا يَضِيعُ منه شَيءٌ؛ فالخَبرُ مُستعمَلٌ في التَّحريضِ[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ وقَّفَهم تعالى على خطَأِ رأْيِهم في أنَّ نِعمةَ اللهِ عليهم بالمالِ ونَحْوِه إنَّما هي لِرِضاهُ عن حالِهم، وبيَّنَ تعالى أنَّ ذلك إنَّما هو إملاءٌ واستِدراجٌ إلى المعاصي، واستِجرارٌ إلى زِيادةِ الإثْمِ، وهم يَحْسَبونه مُسارَعةً لهم في الخَيراتِ، ومُعاجَلةً بالإحسانِ[4].

٤- كلُّ لذَّةٍ أعقَبَتْ ألَمًا، أو منَعَتْ لذَّةً أكمَلَ منها؛ فليست بِلَذَّةٍ في الحقيقةِ، وإنْ غالَطَتِ النَّفْسُ في الالتِذاذِ بها؛ فأيُّ لَذَّةٍ لآكلِ طَعامٍ شَهيٍّ مَسمومٍ يُقطِّعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٧).

أمعاءَه عن قَريبٍ؟! وهذه هي لَذَّاتُ الكُفَّارِ والفُسَّاقِ بعُلُوِّهم في الأرضِ وفَسادِهم، وفرَحِهم فيها بغَيرِ الحقِّ ومرَحِهم، وذلك مِثْلُ لَذَّةِ الَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ يُحِبُّونَهم كحُبِّ اللهِ، فنَالوا بهم مَودَّةَ بَيْنِهم في الحياةِ الدُّنيا، ثمَّ استحالَتْ تلك اللَّذَّةُ أعظَمَ ألَمٍ وأمَرَّهُ، ومِن ذلك لَذَّةُ العقائِدِ الفاسدةِ والفرَحِ بها، ولَذَّةُ غَلبةِ أهْلِ الجَورِ والظُّلمِ والعُدوانِ، والزِّنا، والسَّرقةِ، وشُربِ المُسكِراتِ، وقد أخبَرَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى أنَّه لم يُمَكِّنْهم مِن ذلك لِخَيرٍ يُرِيدُه بهم، إنَّما هو استِدراجٌ مِنه؛ لِيُنِيلَهم به أعظَمَ الألَمِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾(١) [التوبة: ٥٥].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، هذا أمْرٌ منه تَعالى لِرُسلِه بأكْلِ الطَّيِّباتِ الَّتي هي الرِّزقُ الطَّيِّبُ الحلالُ، وشُكْرِ اللهِ بالعمَلِ الصَّالحِ الَّذي به يَصلُحُ القَلْبُ والبدَنُ، والدُّنيا والآخرةُ، ويُخبِرُهم أنَّه بما يَعْمَلون عليمٌ، فكلُّ عملٍ عَمِلُوه، وكلُّ سَعْيٍ اكتَسَبوه؛ فإنَّ اللهَ يَعلَمُه، وسيُجازِيهم عليه أتَمَّ الجزاءِ وأفضَلَه، فدَلَّ هذا على أنَّ الرُّسلَ كلَّهم مُتَّفِقون على إباحةِ الطَّيِّباتِ مِنَ المآكِلِ، وتَحريمِ الخبائثِ منها، وأنَّهم مُتَّفِقون على كلِّ عمَلٍ صالحٍ وإنْ تَنوَّعَتْ بَعضُ أجناسِ المأموراتِ، واختلَفَتْ بها الشَّرائعُ؛ فإنَّها كلَّها عمَلٌ صالِحٌ، ولكنْ تَتفاوَتُ بتَفاوُتِ الأزمنةِ(٢).

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ فيه: بيانُ كَرامةِ الرُّسلِ عندَ اللهِ، ونَزاهتِهم في أُمورِهم الجُسمانيَّةِ والرُّوحانيَّةِ؛ فالأكْلُ مِنَ الطَّيِّباتِ نَزاهةٌ جِسْميَّةٌ، والعمَلُ الصَّالِحُ نَزاهةٌ نَفسانيَّةٌ(١).

٣- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وقال: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]؛ فأمَرَ بالأكْلِ والشُّكرِ، فمَن أكَلَ ولم يَشكُرْ كان مَذْمومًا، ومَن لم يأكُلْ ولم يَشكُرْ كان مَذْمومًا(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ دَلالةٌ على أنَّ دِينَ الأنبياءِ واحدٌ(٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ إنْ قِيلَ: لمَّا كانت شَرائعُهم مُختلِفةً؛ فكيف يكونُ دِينُهم واحدًا؟

فالجَوابُ: أنَّ المُرادَ مِنَ الدِّينِ ما لا يَختلِفون فيه مِن مَعرفةِ ذاتِ اللهِ تعالى وصِفاتِه، وأمَّا الشَّرائعُ فإنَّ الاختلافَ فيها لا يُسمَّى اختلافًا في الدِّينِ، فكما يُقالُ في الحائضِ والطَّاهرِ مِنَ النِّساءِ: إنَّ دِينَهنَّ واحدٌ، وإنِ افترَقَ تكليفُهما، فكذا هاهنا. ويدُلُّ على ذلك قولُه: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾، فكأنَّه نبَّهَ بذلك على أنَّ دِينَ الجَميعِ واحدٌ فيما يتَّصِلُ بمَعرفةِ اللهِ تعالى، واتِّقاءِ مَعاصيهِ، فلا مَدخَلَ للشَّرائعِ، وإنِ اختلَفَتْ في ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ؛ اكتِفاءً بالمَقولِ، وهو استِئنافٌ ابتدائيٌّ، أي: قُلْنا: يا أيُّها الرُّسلُ كُلُوا[١]. والخِطابُ لجَميعِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، على معنَى: أنَّ كلًّا منهم خُوطِبَ في زَمانِه؛ فيَدخُلُ تحتَه عِيسى عليه السَّلامُ دُخولًا أوَّلِيًّا، وإنَّما أتى بصُورةِ الجَمْعِ؛ لِيَعتقِدَ السَّامِعُ أنَّ أمْرًا نُودِيَ له جَميعُ الرُّسلِ ووُصُّوا به: حَقيقٌ أنْ يُوحَّدَ به ويُعمَلَ عليه. أو يكونُ ابتداءَ كَلامٍ؛ ذُكِرَ تَنبيهًا على أنَّ تَهيئةَ أسبابِ التَّنعيمِ لم تكُنْ له خاصَّةً، وأنَّ إباحةَ الطَّيِّباتِ للأنبياءِ عليهم السَّلامُ شَرعٌ قديمٌ، واحتجاجًا على الرَّهبانِيَّةِ في رَفْضِ الطَّيِّباتِ، أو حِكايةً لِمَا ذُكِرَ لِعِيسى عليه السَّلامُ ومَريمَ وإيوائِهما إلى الرَّبوةِ؛ لِيَقْتديَا بالرُّسلِ في تَناوُلِ ما رُزِقَا. وقيل: النِّداءُ له، ولَفْظُ الجَمْعِ للتَّعظيمِ. وقيل: هو خِطابٌ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَحْدَه على دأْبِ العرَبِ في مُخاطَبةِ الواحدِ بلَفْظِ الجَمعِ، أو لِقيامِه مقامَ الرُّسلِ، وفيه إبانةٌ لِفَضلِه وقِيامِه مقامَ الكُلِّ في حِيازةِ كَمالاتِهم[٢].

- والأمْرُ في قولِه: ﴿كُلُوا﴾ للإباحةِ، وإنْ كان الأكْلُ أمْرًا جِبليًّا للبشرِ، إلَّا أنَّ المُرادَ به هنا لَازِمُه، وهو إعلامُ المُكذِّبينَ بأنَّ الأكْلَ لا يُنافي الرِّسالةَ، وأنَّ الَّذي أرسَلَ الرُّسلَ أباح لهمُ الأكْلَ. وتَعليقُ ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ بكسْبِ الإباحةِ المُستفادَةِ مِن الأمْرِ شَرْطٌ أنْ يكونَ المُباحُ مِنَ الطَّيِّباتِ، أي: أنْ يكونَ المأْكولُ طَيِّبًا. ويَزيدُ في الرَّدِّ على المُكذِّبينَ بأنَّ الرُّسلَ إنَّما يَجْتنِبونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٨).

الخبائِثَ، ولا يَجتنِبونَ ما أحَلَّ اللهُ لهم مِن الطَّيِّباتِ[١].

- قولُه: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ في تَقديمِ الأكْلِ مِن الطَّيِّباتِ على العمَلِ الصَّالحِ: دَلالةٌ على أنَّه لا يكونُ صالِحًا إلَّا مَسبوقًا بأكْلِ الحلالِ[٢]. وفي عَطْفِ العمَلِ الصَّالحِ على الأمْرِ بأكْلِ الطَّيِّباتِ: إيماءٌ إلى أنَّ هِمَّةَ الرُّسلِ إنَّما تَنصرِفُ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء قولُه: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ بلَفظِ (عليم)، وفي سُورةِ (سبَأٍ) قال: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١] بلَفظِ (بصير)؛ ووَجْهُه: أنَّه تقدَّمَ آيةَ (المُؤمِنون) إيتاءُ الكِتابِ، وجَعْلُ مَريمَ وابْنِها آيةً، والعِلْمُ بهما أنسَبُ مِن بَصَرِهما، وفي سُورةِ (سبَأٍ) تقدَّمَ قولُه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، والبصَرُ بإلَانَةِ الحديدِ أنسَبُ مِن العِلْمِ بها[٤]. وقيل: خَصَّ كلَّ سُورةٍ بما وافَقَ فواصِلَ الآيِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيه تأْكيدُ الكَلامِ بحَرفِ (إنَّ)؛ للرَّدِّ على المُشركينَ مِن أُمَمِ الرُّسلِ، أو المُشرِكينَ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ[٦].

- وإنَّما أُشِيرَ إليها بـ﴿هَذِهِ﴾؛ للتَّنبيهِ على كَمالِ ظُهورِ أمْرِ الأُمَّةِ في الصِّحَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٠، ٣٩١).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٠).

والسَّدادِ، وانتظامِها بسَببِ ذلكَ في سِلْكِ الأُمورِ المُشاهَدةِ[١]. وقيل: الإشارةُ بقولِه: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إلى أمْرٍ مُسْتَحضَرٍ في الذِّهنِ بَيَّنَه الخبرُ والحالُ؛ ولذلك أُنِّثَ اسمُ الإشارةِ، أي: هذه الشَّريعةُ الَّتي أَوْحَينا إليك هي شَريعتُك، ومعنى هذا الإخبارِ: أنَّك تَلتزِمُها ولا تَنقُصُ منها، ولا تُغيِّرُ منها شيئًا، ولِأجْلِ هذا المُرادِ جُعِلَ الخَبرُ ما حَقُّه أنْ يكونَ بَيانًا لاسمِ الإشارةِ؛ لأنَّه لم يُقْصَدْ به بَيانُ اسمِ الإشارةِ، بل قُصِدَ به الإخبارُ عن اسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ الاتِّحادِ بيْن مَدْلولِي اسمِ الإشارةِ وخَبرِه؛ فيُفِيدُ أنَّه هو هو لا يُغيَّرُ عن حالِه؛ فالخَبرُ مُستعمَلٌ في مَعْنى التَّحريضِ والمُلازَمةِ[٢].

- وفِعْلُ الأمْرِ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ في حَقِّ الرُّسلِ للتَّهييجِ والإلهابِ، وفي حَقِّ الأُمَمِ للتَّحذيرِ والإيجابِ، والفاءُ لِتَرتيبِ الأمْرِ، أو وُجوبِ الامتثالِ به على ما قَبْلَه مِن اختِصاصِ الرُّبوبيَّةِ به تعالى واتِّحادِ الأُمَّةِ؛ فإنَّ كُلًّا منهما مُوجِبٌ للاتِّقاءِ حَتْمًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء قولُه هنا: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، وفي (الأنبياءِ): ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]؛ فيجوزُ أنَّ اللهَ أمَرَهم بالعِبادةِ وبالتَّقْوى، ولكنْ حَكَى في كلِّ سُورةٍ أمْرًا مِن الأمْرَينِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ الأمرانِ وقَعَا في خِطابٍ واحدٍ، فاقْتُصِرَ على بَعْضِه في سُورةِ (الأنبياءِ)، وذُكِرَ مُعظَمُه في سُورةِ (المُؤمنينَ)، بحَسَبِ ما اقتضاهُ مَقامُ الحِكايةِ في كِلْتَا السُّورتينِ. ويحتمِلُ أنْ يكونَ كلُّ أمْرٍ مِن الأمْرينِ قد وقَعَ في خِطابٍ مُستقِلٍّ؛ تَماثَلَ بَعضُه، وزاد الآخَرُ عليه بحَسَبِ ما اقتضاهُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧١، ٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٨).

مَقامُ الخِطابِ مِن قَصْدِ إبلاغِه للأُمَمِ كما في سُورةِ (الأنبياءِ)، أو مِن قَصْدِ اختِصاصِ الرُّسلِ كما في سُورةِ (المُؤمِنينَ)، وعلى كلٍّ فوَجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ سُورةِ (الأنبياءِ) لم تُذْكَرْ فيها رِسالاتُ الرُّسلِ إلى أقْوامِهم بالتَّوحيدِ عدَا رِسالةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ثمَّ جاء ذِكْرُ غَيرِه مِن الرُّسلِ والأنبياءِ مع الثَّناءِ عليهم، وطالَ البُعْدُ بيْنَ ذلك وبيْنَ قِصَّةِ إبراهيمَ؛ فكان الأمْرُ بإفرادِ اللهِ تعالى بالعِبادةِ -الَّذي هو المعنى الَّذي اتَّحدَتْ فيه الأديانُ- أَوْلى هُنالِك؛ لأنَّ المَقصودَ مِن ذلك الأمْرِ أنْ يُبلَّغَ إلى أقوامِهم، فكان ذِكْرُ الأمْرِ بالعِبادةِ أَوْلى بالمَقامِ في تلك السُّورةِ؛ لأنَّه الَّذي حَظُّ الأُمَمِ منه أكثَرُ؛ إذِ الأنبياءُ والرُّسلُ لم يَكونوا بخِلافِ ذلك قطُّ، فلا يُقْصَدُ أمْرُ الأنبياءِ بذلك؛ إذ يَصِيرُ مِن تَحصيلِ الحاصلِ، إلَّا إذا أُرِيدَ به الأمْرُ بالدَّوامِ. وأمَّا آيةُ سُورةِ (المُؤمِنون) فقد جاءت بعْدَ ذِكْرِ ما أُرسِلَ به الرُّسلُ إلى أقوامِهم مِن التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ؛ فكان حَظُّ الرُّسلِ مِن ذلك أكثَرَ كما يَقْتضيهِ افتِتاحُ الخِطابِ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١]؛ فكان ذِكْرُ الأمرِ بالتَّقوى هنا أنسَبَ بالمَقامِ؛ لأنَّ التَّقوى لا حَدَّ لها؛ فالرُّسلُ مأْمُورونَ بها، وبالازديادِ منها[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ أبلَغُ في التَّخويفِ والتَّحذيرِ من قولِه في (الأنبياءِ): ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]؛ لأنَّ هذه جاءت عَقِيبَ إهْلاكِ طوائفَ كَثيرينَ مِن قَومِ نُوحٍ والأُمَمِ الَّذين مِن بَعْدِهم، وفي (الأنبياءِ) وإنْ تقدَّمَتْ أيضًا قِصَّةُ نُوحٍ وما قبْلَها: فإنَّه جاء بَعْدَها ما يدُلُّ على الإحسانِ واللُّطفِ التَّامِّ في قِصَّةِ أيُّوبَ ويُونسَ وزكريَّا ومَرْيمَ؛ فناسَبَ الأمْرُ بالعِبادةِ لمَن هذه صِفَتُه تعالى[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦، ٥٦٧).

٣- قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗا﴾ جِيءَ بفاءِ التَّعقيبِ هنا؛ لإفادةِ أنَّ الأُمَمَ لم يَتريَّثوا عَقِبَ تَبليغِ الرُّسل إيَّاهم ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢] أنْ تَقطَّعوا أمْرَهم بيْنهم، وذلك مُبالَغةٌ في عدَمِ قَبولِهم، وفي نِفارِهم عن تَوحيدِ اللهِ وعِبادتِه؛ فالكلامُ مَسوقٌ مَساقَ الذَّمِّ؛ ولذلك قد تُفِيدُ الفاءُ مع التَّعقيبِ معنَى التَّفريعِ، أي: فتفرَّعَ على ما أمَرْناهُم به مِن التَّوحيدِ أنَّهم أتَوْا بعَكْسِ المطلوبِ منهم؛ فيُفِيدُ الكلامُ زِيادةً على الذَّمِّ تَعجيبًا مِن حالِهم. وممَّا يَزيدُ معنَى الذَّمِّ تَذييلُه بقولِه: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾، أي: وهم ليسوا بحالِ مَن يَفرَحُ[(١)]، وجاء في سورةِ (الأنبياءِ) بالواوِ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ [الأنبياء: ٩٣]؛ فاحتمَلَ معنى الفاءِ، واحتمَلَ تأخُّرَ تَقطُّعِهم عن الأمْرِ بالعِبادةِ، وفَرَحُ كلِّ حِزْبٍ بما لدَيْهِ دَليلٌ على نِعْمتِه في ضَلالِه، وأنَّه هو الَّذي يَنْبَغي أنْ يُعتقَدَ، وكأنَّه لا رِيبةَ عندَه في أنَّه الحقُّ[(٢)]!

- والتقطُّعُ: الانقطاعُ الشَّديدُ، وأصلُه مُطاوِعُ (قطَّع) -بالتَّشديدِ- الذي هو مُضاعَفُ (قطَع) -بالتخفيف. واستُعمِلَ فِعلًا مُتعديًا بمعنى قَطَّع بقَصْدِ إفادةِ الشِّدَّةِ في حُصولِ الفِعلِ؛ فالمعنى: قطَّعوا أمْرَهم بيْنهم قِطَعًا كثيرةً، أي: تفرَّقوا على نِحَلٍ كَثيرةٍ، فجَعَل كُلُّ فريقٍ منهم لنَفْسِه دِينًا[(٣)]. وقيل: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾: فتفَرَّقُوا في أمرِهم، على نَزْعِ الخافِضِ، ويجوز أن يكونَ ﴿أَمۡرَهُم﴾ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٦، ٥٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٧) و(١٨/ ٧٢، ٧٣).

هذا نصبًا على التمييزِ عندَ الكوفيينَ المجوِّزينَ تعريفَ التمييزِ[١].

- قولُه: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا قَبْلَه؛ لأنَّ التَّقطُّعَ يَقْتَضي التَّحزُّبَ؛ فذُيِّلَ بأنَّ كلَّ فَريقٍ منهم فَرِحٌ بدِينِه، ففي الكلامِ صِفَةٌ مَحذوفةٌ لـ﴿حِزْبٍ﴾، أي: كلُّ حِزْبٍ منهم؛ بدَلالةِ المَقامِ، أي: إنَّهم فَرِحونَ بدِينِهم عن غَيرِ دَليلٍ ولا تَبصُّرٍ، بل لمجرَّدِ العُكوفِ على المعتادِ، وذلك يُومِئُ إليه ﴿لَدَيْهِمْ﴾ المُقْتَضي أنَّه مُتقرِّرٌ بيْنهم مِن قَبْلُ، أي: بالدِّينِ الَّذي هو لَدَيْهم، فهم لا يَرْضَون على مَن خالَفهم ويُعادُونَه، وذلك يُفْضِي إلى التَّفريقِ والتَّخاذُلِ بين الأُمَّةِ الواحدةِ، وهو خِلافُ مُرادِ اللهِ؛ ولذلك ذُيِّلَ به قولُه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ انتِقالٌ بالكَلامِ إلى خِطابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وضَميرُ الجَمْعِ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ عائدٌ إلى مَعروفٍ مِن السِّياقِ، وهم مُشرِكو قُريشٍ[٣]. وفيه وَعيدٌ لهم بعَذابِ الدُّنيا والآخِرةِ، وتَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونَهْيٌ له عن الاستعجالِ بعَذابِهم، والجَزَعِ مِن تأْخيرِه[٤].

- وفي قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ شبَّهَ جَهْلَهم بغَمرةِ الماءِ إذا وقَعَ فيها الشَّخصُ، فلا يَدْرِي كيف يَتخلَّصُ منها، والجامِعُ: الوُقوعُ في وَرطةِ الهَلاكِ. أو هو تَمثيلٌ؛ شَبَّهَ حالَ هؤلاء مع ما هُم عليه مِن مُحاولَةِ الباطلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩).

والانغماسِ فيه، بحالِ مَن يَدخُلُ في الماءِ الغامِرِ لِلَّعَبِ، والجامِعُ: تَضييعُ السَّعيِ بَعْدَ الكَدْحِ في العَملِ[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ ...﴾ لِتَرتيبِ الأمْرِ بالتَّرْكِ على ما قبْلَه مِن كَونِهم فَرِحينَ بما لَدَيْهم؛ فإنَّ انْهِماكَهم فيما هُم فيه، وإصْرارَهم عليه: مِن مَخايلِ كَونِهم مَطبوعًا على قُلوبِهم، أي: اترُكْهُم على حالِهم[٢].

- وإضافةُ الغَمرةِ إلى ضَميرِهم باعتبارِ مُلازَمَتِها إيَّاهم حتَّى قد عُرِفَتْ بهم[٣].

- وفي تَنكيرِ وإبْهامِ ﴿حِينٍ﴾ ما لا يَخْفَى مِن التَّهويلِ[٤].

- والكَلامُ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ظاهِرُه المُتارَكةُ، والمَقصودُ منه: الإملاءُ لهم، وإنْذارُهم بما يَسْتقبِلُهم مِن سُوءِ العاقبةِ في وَقتٍ ما؛ ولذلك نُكِّرَ لَفظُ ﴿حِينٍ﴾ المَجعولُ غايةً لاستِدراجِهم، أي: زَمنٌ مُبْهَمٌ[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ وتَوبيخيٌّ على هذا الحُسبانِ[٦].

- وقولُه: ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ فيه تَقديمُ المالِ على البنينَ؛ لعَراقتِه فيما نِيطَ به من الزِّينةِ والإمدادِ وغيرِ ذلك، وعُمومِه بالنِّسبةِ إلى الأفرادِ والأوقاتِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٥).

فإنَّه زِينةٌ ومَمَدٌّ لكلِّ أحدٍ من الآباءِ والبنينَ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، وأمَّا البَنونَ فزينتُهم وإمدادُهم إنَّما يكونُ بالنِّسبةِ إلى مَن بلَغَ مَبْلغَ الأُبوَّةِ، ولأنَّ المالَ مَناطٌ لِبَقاءِ النفْسِ، والبنينَ لبقاءِ النَّوعِ، ولأنَّ الحاجةَ إليه أمَسُّ مِن الحاجةِ إليهم، ولأنَّه أقدَمُ منهم في الوُجودِ، ولأنَّه زِينةٌ بدُونِهم مِن غيرِ عكسٍ؛ فإنَّ مَن له بَنونَ بلا مالٍ، فهو في ضِيقِ حالٍ ونَكالٍ[1].

٦- قوله تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (بَلْ) استِدْراكٌ لقولِه: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾، يعني: بل هم أشباهُ البهائمِ، لا فِطْنةَ بهم ولا شُعورَ حتَّى يتأمَّلوا ويَتفكَّروا في ذلك: أهوَ استِدْراجٌ، أم مُسارَعةٌ في الخيرِ؟ وفيه تَهديدٌ ووَعيدٌ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٢٥) و(٦/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٨).

الآيات (٥٧-٦٢)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ
﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا
كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّشْفِقُونَ﴾: أي: خائِفونَ، حَذِرونَ، والإشفاقُ: عِنايةٌ مختلِطةٌ بخوفٍ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وَجِلَةٌ﴾: أي: خائفةٌ، والوَجَلُ: استِشعارُ الخَوفِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ الَّذين همْ -لِخَشيَتِهم مِن رَبِّهم- حَذِرونَ خائِفونَ مِن عِقابِه، يُداوِمونَ على طاعتِه، والذين يُؤمِنونَ بآياتِه، والَّذين يُخْلِصون لِرَبِّهم في عِباداتِهم كلِّها؛ فلا يُشرِكونَ به شَيئًا، والذين يُعطونَ ما يُعطونَ مِنَ الزَّكواتِ والصَّدقاتِ وغيرِ ذلك، وقلوبُهم خائفةٌ مِن رُجوعِهم إلى ربِّهم، فيَخافونَ ألَّا يَتقَبَّلَ الله منهم أعمالَهم: أولئك يُبادِرونَ إلى فِعْلِ الخَيراتِ؛ تقرُّبًا إلى ربِّهم، وهم إلى هذه الخَيراتِ سابِقونَ.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

ويخبرُ تعالى أنَّه لا يكَلِّفَ أحدًا إلَّا ما يُطِيقُه، وأنَّه لديه كتابٌ فيه جميعُ أعمالِ العبادِ، قد سجَّلَتها الملائكةُ الكِرامُ، فهو يُبيِّنُ بالصدقِ المطابقِ للواقعِ ما عمِلوه في الدنيا مِن خيرٍ أو شرٍّ، فيُجازيهم سبحانَه بأعمالِهم وهم لا يُظلمون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَمَّ اللهُ تعالى مَن تقدَّمَ ذِكْرُه بقولِه: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، ثمَّ قال: ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾؛ بيَّنَ بَعدَه صِفاتِ مَن يُسارِعُ في الخَيراتِ، ويَشعُرُ بذلك(١).

وأيضًا لَمَّا فرَغَ اللهُ تعالى مِنْ ذِكْرِ الكَفرةِ وتوَعَّدَهم؛ عقَّبَ ذلك بذِكْرِ المُؤمِنينَ، ووَعَدَهم وذكَرَهم بأبلَغِ صِفاتِهم(٢).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الَّذين جَمَعوا بيْنَ الإساءةِ والأمْنِ، الَّذين يَزْعُمون أنَّ عطاءَ اللهِ إيَّاهم في الدُّنيا دَليلٌ على خَيرِهم وفَضْلِهم؛ ذكَرَ الَّذين جَمَعوا بيْن الإحسانِ والخوفِ، فقال(٣):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ همْ -لِخَشيَتِهم مِن رَبِّهم- حَذِرونَ خائِفونَ مِن عِقابِه، يُداوِمونَ على طاعتِه، وطَلَبِ مَرضاتِه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٢)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٧- ٢٨].

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨)﴾.

أي: والَّذين همْ بآياتِ القُرآنِ وغَيرِها مِنَ الدَّلائِلِ والبَراهينِ والحُجَجِ يُؤمِنونَ(١).

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾.

أي: والَّذين يُخلِصونَ لِرَبِّهم في عِباداتِهم كلِّها؛ فلا يُشرِكونَ به شَيئًا(٢).

= كثير)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٠).

ممَّن قَصَر الآياتِ على القُرآنِ فقط: مقاتلُ بن سليمان، ومكِّي، واستظهره النيسابوري. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٥٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٩٧٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٢٦).

وممَّن حمَلَها على الآياتِ الكونيَّةِ والمخلوقاتِ الدَّالَّةِ على وُجودِ الله: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٣).

وممَّن حمَلَها على العُمومِ، أي: الآياتِ الشَّرعيَّةِ والكونيَّةِ: ابنُ عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٠).

قال ابن عطية: (و«الآياتُ» تعُمُّ القُرآنَ، وتعُمُّ العِبَرَ والمصنوعاتِ التي لله، وغيرَ ذلك ممَّا فيه نظَرٌ واعتبارٌ، وفي كُلِّ شَيءٍ له آيةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧).

قال الشوكاني: (﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ قِيلَ: المرادُ بالآياتِ هي التَّنزيلِيَّةُ، وقِيلَ: هي التَّكوينيَّةُ، وقِيلَ: مجموعُهما). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

ممن اختار أنَّ المرادَ بقوله: ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾ نفيُ الشركِ الجليِّ والخفيِّ: ابنُ جرير، والبيضاوي، والعليمي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩٣)، =

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أثبَتَ اللهُ تعالى لهمُ الإيمانَ الخالِصَ، نَفَى عنهم العُجْبَ بقولِه[1]:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾.

أي: والَّذين يُعطُونَ ما أعْطَوا مِن زَكَواتٍ وصَدَقاتٍ وغيرِ ذلك[2]، والحالُ

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

وقيل: إنَّ المرادَ به نفيُ الشركِ الأكبرِ. وممن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، والواحدي، والرسعني، وابن عطية، وأبو حيان، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٠).

قال أبو حيان: (ثمَّ ذكَر نفيَ الإشراكِ، وهو عبادتُهم آلهتَهم التي هي الأصنامُ؛ إذ لكفارِ قريشٍ أن تقولَ: نحن نؤمِنُ بآياتِ رَبِّنا ونصَدِّقُ بأنَّه المخترعُ الخالقُ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٩).

وقيل: إنَّ المرادَ به نفيُ الشركِ الخفيِّ. وممن اختاره: الرازيُّ، فقال: (قَوْلُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾... المرادُ منه نَفْيُ الشِّركِ الخفِيِّ، وهو أنْ يكونَ مخلصًا في العبادةِ لا يقدِمُ عليها إلَّا لوجهِ اللَّه تعالَى وطَلَبِ رِضوانِه. واللَّه أعلَمُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٩).

(٢) وممن اختار أنَّ قولَه: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ يتعلَّق بإعطاءِ الأموالِ: ابنُ جرير، والبغوي، والرازي، والرسعني، والخازن، وابنُ كثيرٍ، والعُليمي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وابنُ عمر، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والضحَّاكُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧).

قال الرازي: (قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ معناه: يُعطون ما أعطَوا، فدخل فيه =

أنَّ قُلوبَهم خائِفةٌ مِن رُجوعِهم إلى ربِّهم، وبَعْثِهم يومَ القِيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ، فيَخافونَ ألَّا يُتقبَّلَ منهم[1].

= كلُّ حَقٍّ يلزمُ إيتاؤه، سواءٌ كان ذلك مِن حَقِّ الله تعالى: كالزكاةِ والكفَّارةِ وغيرِهما؛ أو مِن حقوقِ الآدميِّينَ: كالودائعِ والديونِ، وأصنافِ الإنصافِ والعدلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٣).

وقال ابن عاشور: (ومعنَى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ يُعطونَ الأموالَ صدَقاتٍ وصِلاتٍ ونَفَقاتٍ فِي سَبيلِ اللهِ. واستعمالُ الإيتاءِ في إعطاءِ المالِ شائعٌ في القرآنِ، مُتَعَيِّنٌ أنَّه المرادُ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

وممن اختار أنَّ المرادَ أعمالُ البرِّ كلُّها: الواحديُّ، واستحسنه ابنُ عطية، وهو اختيار البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عائشةُ، وابنُ عباسٍ في روايةٍ، والحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧).

قال ابن عطية: (وقَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ على قراءةِ الجُمهورِ: يُعطُونَ ما أعطَوا. وقال الطبري: يريدُ الزَّكاةَ المفروضةَ وسائِرَ الصَّدَقةِ. ورُوِيَ نحوُه عن ابنِ عُمَرَ ومجاهدٍ. وإنَّما ضَمَّهم إلى هذا التَّخصيصِ أنَّ العَطاءَ مُستعمَلٌ في المالِ على الأغلَبِ. قال ابنُ عبَّاسٍ وابنُ جُبيرٍ: هو عامٌّ في جميعِ أعمالِ البِرِّ. وهذا أحسَنُ، كأنَّه قال: والذين يُعطُونَ مِن أنفُسِهم في طاعةِ الله ما بَلَغَه جُهدُهم... وذهبت فِرقةٌ إلى أنَّ معناه: مِن المعاصي، وذهَبَت فِرقةٌ إلى أنَّ ذلك في جميعِ الأعمالِ؛ طاعتِها ومَعصيتِها. وهذا أمدَحُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

قال أبو السعود: (﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ حالٌ من فاعلِ يُؤتون... أي يُؤتون ما آتوه... والحالُ أنَّ قلوبهم خائفةٌ أشدَّ الخوفِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

وقال ابن عاشور: (وجملةُ ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ في موضعِ الحالِ، وحَقُّ الحالِ إذا جاءت بعد جُمَلٍ متعاطفةٍ أن تعودَ إلى جميعِ الجُمَلِ التي قبْلَها، أي: يفعلون ما ذُكِرَ من الأعمالِ الصَّالحةِ بقلوبِهم وجوارِحهم، وهم مُضمِرون وجَلًا وخوفًا من ربِّهم أن يرجِعوا إليه فلا يجدوه راضيًا عنهم، أو لا يجدوا ما يجِدُه غيرُهم ممَّن يفوتُهم في الصالحاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾.

أي: أولئك يُبادِرونَ ويُسابِقونَ في عمَلِ الطَّاعاتِ؛ تَقرُّبًا إلى اللهِ تعالى، ونَيلِ الدَّرَجاتِ[1].

﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

أي: وهم إلى الخَيراتِ سابِقونَ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

قال ابنُ جُزَي: (فيه معنيانِ: أحدُهما: أنَّهم يُبادِرونَ إلى فِعلِ الطَّاعاتِ، والآخَرُ: أنَّهم يتعَجَّلونَ ثوابَ الخيراتِ، وهذا مُطابِقٌ للآيةِ المتقدِّمةِ؛ لأنَّه أثبَتَ فيهم ما نفى عن الكُفَّارِ مِن المُسارَعةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٨).

ممَّن اختار المعنى المذكور: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاج، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وأبو حيان. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٠).

قال أبو حيان: (ومفعولُ ﴿سَٰبِقُونَ﴾ محذوفٌ، أي: سابِقونَ النَّاسَ، وتكونُ الجُملةُ تأكيدًا للتي قَبلَها مفيدةً تجَدُّدَ الفِعلِ بقولِه ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾، وثُبوتَه بقَولِه: ﴿سَٰبِقُونَ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٠).

وقيل: المعنى: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ مِن أجْلِها. وممَّن اختاره: الأخفش، وابن الجوزي، والعُليمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٧٩).

قال ابن عطية: (وقالت فِرقةٌ: معناه: وهم مِن أجْلِها سابِقونَ، فالسَّابِقُ على هذا التَّأويلِ هو إلى رِضوانِ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٨). =

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه كَيفيَّةَ أعمالِ المُؤمِنينَ المُخلِصينَ؛ ذكَرَ حُكمينِ مِن أحكامِ أعْمالِ العِبادِ؛ الأوَّلُ: قولُه: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، والثَّاني: قولُه:

= وقال ابنُ جرير: (وأَولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ القَولُ الذي قاله ابنُ عبَّاسٍ من أنَّه سبَقَت لهم مِنَ الله السَّعادةُ قبل مُسارعتِهم في الخيراتِ، ولَمَّا سبَق لهم مِن ذلك سارَعوا فيها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٢).

وقال ابنُ عطية: (وقال الطَّبري عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: المعنى: سَبَقت لهم السَّعادةُ في الأزَلِ، فهُم لها. ورجَّحه الطَّبريُّ بأنَّ اللامَ مُتمَكِّنةٌ في المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٨).

وقال السعدي: (﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: للخيراتِ ﴿سَابِقُونَ﴾ قد بلَغوا ذِرْوتَها، وتبارَوا هم والرَّعيلُ الأوَّلُ، ومع هذا قد سبَقَت لهم مِنَ اللهِ سابقةُ السَّعادةِ؛ أنَّهم سابِقونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

وقال الواحدي: (وقوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ قال أبو إسحاق [الزجَّاج]: فيه وجهان: أحدُهما: هم إليها سابقونَ. وهذا قولُ الفرَّاءِ، ومعنى قولِ ابنِ عباسٍ: ينافِسون فيها أمثالَهم مِن أهلِ البِرِّ والتقوى. وقال الكلبي: سبقوا الأممَ إلى الخيراتِ. وعلى هذا المعنى: هم إلى الخيراتِ سابقون غيرَهم؛ لإسراعِهم فيها، ومبادرتِهم إليها.

والوجهُ الآخَرُ: هم مِن أجلِها، أي: مِن أجلِ اكتسابِها، كما تقولُ: أنا أُكرِمُ فلانًا لك، أي: مِن أجلِك. والمعنى على هذا القولِ: وهم لأجلِ الخيراتِ سابقونَ غيرَهم، أي: إنما يسبِقون غيرَهم لأجلِ اكتسابِها. وذكر صاحب النظم [أبو عليٍّ الجرجاني] على هذا الوجهِ معنًى آخَرَ لقولِه: ﴿سَابِقُونَ﴾ فقال: تأويلُ الآيةِ: وهم مِن أجلِها، أي: مِن أجلِ مسارعتِهم في الخيراتِ سابقونَ يومَ القيامةِ إلى الجنَّةِ، يسبقونَ غيرَهم ممَّن لا يسارعُ في الخيراتِ، وعلى هذا الكنايةُ في ﴿لَهَا﴾ تعودُ إلى المسارعةِ، ودَلَّ عليها قولُه: ﴿يُسَارِعُونَ﴾، وعلى ما قال أبو إسحاقَ يعودُ إلى الخيراتِ). ((البسيط)) (١٦/ ١٢).

وقال الماوَرْدي: (﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ فيه وجهانِ: أحَدُهما: وهم بها سابِقونَ إلى الجنَّةِ. الثَّاني: وهم إلى فِعْلِها سابقون. وفيه وجهٌ ثالثٌ: وهم لِمَن تقدَّمَهم مِن الأُمَمِ سابِقونَ. قاله الكلبي). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٥٩).

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[(١)].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكرَ مُسارَعةَ المُؤمِنينَ إلى الخَيراتِ، وسَبْقَهم إليها، رُبَّما وَهِمَ واهِمٌ أنَّ المطلوبَ منهم ومِن غَيرِهم أمْرٌ غيرُ مَقْدورٍ أو مُتَعَسِّرٌ؛ أخْبَرَ تعالى أنَّه لا يُكلِّفُ نفسًا إلَّا وُسْعَها[(٢)].

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

أي: ولا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا ما تُطِيقُ حَمْلَه والقِيامَ به، مِن عِبادةِ اللهِ والعَمَلِ بشَرعِه[(٣)].

كما قال سُبحانَه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانتِ الأعمالُ إذا تكاثَرَتْ وامتَدَّ زمَنُها، تعسَّرَ أو تعذَّرَ حَصْرُها إلَّا بالكتابةِ؛ عامَلَ العِبادَ سُبحانَه بما يَعرِفونَ مع غِناهُ عن ذلك[(٤)]، فقال:

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

قال البقاعي: (﴿وَلَا﴾ أي: والحالُ أنَّا لا نُكلِّفُهم، ولكنَّه عمَّ فقال: ﴿نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ أي: كافرةً ومؤمِنةً ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فلا يقدِرُ عاصٍ على أن يقولَ: كنتُ غيرَ قادرٍ على الطاعةِ، ولا يظنُّ بنا مؤمِنٌ أنَّا نؤاخِذُه بالزلَّةِ والهَفوةِ؛ فإنَّ أحدًا لا يستطيعُ أن يَقدُرَنا حقَّ قدْرِنا؛ لأنَّ مبنى المخلوقِ على العَجزِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦١).

أي: وعِندَنا كِتابٌ كتَبَتِ الملائِكةُ فيه جَميعَ أعْمالِ العِبادِ؛ فهو يُبَيِّنُ بالصِّدقِ الثَّابتِ المُطابِقِ للواقِعِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فنُجازِيهم بأعمالِهم، ولا نَظلِمُهم بعُقوبتِهم بما لم يَعمَلوا، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِهم، أو بالنَّقصِ مِن حَسَناتِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨- ٢٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- اللهُ سُبحانَه كما جعَلَ الرَّجاءَ لأهْلِ الأعمالِ الصَّالحةِ، فكذلك جعَلَ الخَوفَ لأهْلِ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ فعُلِمَ أنَّ الرَّجاءَ والخوفَ النَّافِعَ: ما اقترَنَ به العمَلُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٦).

قيل: المرادُ بالكتابِ هنا: كتابُ أعمالِ الخَلقِ. وممن قال بذلك: ابنُ جَرير، وابنُ عطيَّة، وابنُ كثير، والشِّنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بالكتابِ: اللَّوحُ المحفوظ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ، والسَّمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

قال الشِّنقيطي: (الظاهِرُ: أنَّ معنى نُطقِ الكتابِ بالحَقِّ: أنَّ جميعَ المكتوبِ فيه حَقٌّ؛ فمَن قرأ المكتوبَ فيه كأنَّه لا يَنطِقُ في قراءتِه له إلا بالحَقِّ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٩).

وقال ابنُ عاشور: (يجوز أن يكون نُطقُ الكتابِ حقيقةً، بأن تكونَ الحروفُ المكتوبةُ فيه ذاتَ أصواتٍ، وقُدرةُ الله لا تُحَدُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٩).

رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[1].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾، فإذا تُلِيَت عليهم آياتُه زادَتْهم إيمانًا، ويَتفكَّرون أيضًا في الآياتِ القُرآنيَّةِ ويَتدبَّرونَها؛ فيَبِينُ لهم مِن مَعاني القُرآنِ وجَلالَتِه واتِّفاقِه، وعدَمِ اختلافِه وتَناقُضِه، وما يَدْعُو إليه مِن مَعرفةِ اللهِ وخَوفِه ورجائِه، وأحوالِ الجَزاءِ؛ فيَحْدُثُ لهم بذلك مِن تَفاصيلِ الإيمانِ ما لا يُعبِّرُ عنه اللِّسانُ، ويَتفكَّرونَ أيضًا في الآياتِ الأُفقيَّةِ، كما في قولِه: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ... ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، إلى آخِرِ الآياتِ[2].

٣- قَولُ اللهِ تَعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾ أي: مُشفِقةٌ قُلوبُهم؛ كلُّ ذلك مِن خَشيةِ ربِّهم؛ خَوفًا أنْ يضَعَ عليهم عَدْلَه، فلا يَبْقى لهم حَسنةٌ، وسُوءَ ظَنٍّ بأنفُسِهم ألَّا يَكُونوا قد قامُوا بحَقِّ اللهِ تَعالى، وخَوفًا على إيمانِهم مِنَ الزَّوالِ، ومَعرِفةً منهم برَبِّهم، وما يَستحِقُّه مِن الإجلالِ والإكرامِ، وخَوفُهم وإشْفاقُهم يُوجِبُ لهم الكفَّ عمَّا يُوجِبُ الأمْرَ المَخُوفَ مِنَ الذُّنوبِ، والتَّقصيرِ في الواجباتِ[3].

٤- كان الحَسنُ يَقولُ: (إنَّ المؤْمِنَ جَمَع إحسانًا وشفَقةً، وإنَّ المُنافِقَ جَمَع إساءةً وأمْنًا)، ثمَّ تَلَا الحَسنُ: (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٧] إلى: ﴿ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وقال المُنافِقُ: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص: ٧٨])[4].

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٨).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: في مَيدانِ التَّسارُعِ في أفْعالِ الخَيرِ، هَمُّهم ما يُقرِّبُهم إلى اللهِ، وإرادَتُهم مَصروفةٌ فيما يُنْجِي مِن عَذابِه؛ فكلُّ خَيرٍ سَمِعُوا به، أو سَنَحَتْ لهم الفُرصةُ إليه؛ انْتَهَزوه وبادَرُوه، قد نظَروا إلى أولياءِ اللهِ وأصْفيائِه، أمامَهم، ويَمْنَةً ويَسْرةً، يُسارِعون في كلِّ خَيرٍ، ويُنافِسون في الزُّلفى عندَ ربِّهم، فنافَسُوهم[1].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ فيه الثَّناءُ على المُبادرينَ إلى امتثالِ أوامِرِ رَبِّهم[2]، وهذا دَليلٌ على أنَّ المُبادَرةَ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ؛ مِن صلاةٍ في أوَّلِ الوقتِ، وغَيرِ ذلكَ مِنَ العِباداتِ، هو الأفضلُ، ومدْحُ الباري أَدَلُّ دَليلٍ على صِفَةِ الفَضلِ في المَمدوحِ على غَيرِه، واللهُ أعلَمُ[3].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ والإشفاقُ: الخوفُ، وقيلَ: الإشفاقُ هو الخشيةُ، فظاهِرُ ما في الآيةِ التَّكرارُ.

وأُجيبَ عن ذلك مِن عدَّةِ وجوهٍ:

منها: حملُ الخشيةِ على العذابِ، أي: مِن عذابِ ربِّهم خائِفونَ.

ومنها: حَملُ الإشفاقِ على ما هو أثَرٌ له، وهو الدَّوامُ على الطَّاعةِ، أي: الَّذينَ هم مِن خشيةِ ربِّهم دائِمونَ على طاعَتِه.

ومنها: أنَّ الإشفاقَ كمالُ الخوفِ؛ فلا تكرارَ. وقيلَ: هو تكرارٌ للتَّأكيدِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٨).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ إنَّما عُبِّرَ بـ﴿مَآ ءَاتَواْ﴾ دُونَ (الصَّدقاتِ) أو (الأموالِ)؛ لِيَعُمَّ كلَّ أصنافِ العطاءِ المطلوبِ شَرعًا، ولِيَعُمَّ القليلَ والكثيرَ؛ فلعَلَّ بَعضَ المُؤمِنينَ ليس له مِن المالِ ما تَجِبُ فيه الزَّكاةُ وهو يُعْطي ممَّا يَكسِبُ[1].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بِشارةٌ للمُشفقينَ مِن خَشيةِ ربِّهم، والوَجِلةِ قُلوبُهم -مع صالحِ أعمالِهم- مِنَ الرُّجوعِ إلى ربِّهم، وتَطْييبٌ لأنفُسِهم بألَّا يَرْهَبوا ظُلْمًا، وأنْ يَطْمَئِنُّوا إلى أنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُه لا يُطالِبُهم فوقَ وُسْعِهم، وأنَّ وُسْعَهم في صالحِ أعمالِهم قد أحصاهُ كِتابٌ يَنطِقُ لهم[2].

٤- قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ استدلَّ بعضُهم بهذه الآيةِ على أنَّ مَن كتَبَ إلى إنسانٍ كتابًا فقد كلَّمه[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ مَن له المُسارَعةُ في الخَيراتِ، بَعْدَ إقْناطِ الكُفَّارِ عنها، وإبْطالِ حُسبانِهم الكاذبِ[4].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بـ(إنَّ) للاهتمامِ بالخبَرِ[5].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ للتَّعليلِ، والمعنى: أنَّهم لِخَشيةِ ربِّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٦، ٧٧).

يَخافونَ عِقابَه؛ فحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿مُّشْفِقُونَ﴾؛ لدَلالةِ السِّياقِ عليه[١]. وقِيلَ: (مِن) لِبَيانِ جِنْسِ الإشفاقِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: شِرْكًا جَلِيًّا ولا خَفِيًّا -على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-؛ ولذلك أُخِّرَ عن الإيمانِ بالآياتِ. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في المواقعِ الثَّلاثةِ؛ للإشعارِ بعِلِّيَّتِها للإشفاقِ والإيمانِ وعَدَمِ الإشراكِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ صِيغةُ المُضارِعِ في الصِّلةِ الأُولى؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ، وصِيغَةُ الماضي في الصِّلةِ الثَّانيةِ؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[٤].

- والآياتُ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ فيها مُقابَلةٌ حَسَنةٌ؛ فهذه الآياتُ مُقابِلُ ما تَضمَّنَتْه الغَمرةُ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾[المؤمنون: ٥٤]؛ مِن الإعراضِ عن عِبادةِ اللهِ وعنِ التَّصديقِ بآياتِه، ومِن إشراكِهم آلِهةً مع اللهِ، ومِن شُحِّهم عن الضُّعفاءِ، وإنْفاقِ مالِهم في اللَّذَّاتِ، ومِن تَكذيبِهم بالبَعثِ؛ كلُّ ذلك ممَّا شَمِلَتْه الغَمرةُ، فجِيءَ في مُقابِلِها بذِكْرِ أحوالِ المُؤمِنينَ ثناءً عليهم؛ ألَا تَرى إلى قولِه بَعدَ هذا: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

فكانتْ هذه الجُملةُ كالتَّفصيلِ لإجمالِ الغَمرةِ مع إفادةِ المُقابَلةِ بأحوالِ المُؤمِنينَ. واختِيرَ أنْ يكونَ التَّفصيلُ بذِكْرِ المُقابِلِ لِحُسنِ تلك الصِّفاتِ وقُبْحِ أضْدادِها؛ تَنزيهًا للذِّكرِ عن تَعدادِ رَذائلِهم، فحصَلَ بهذا إيجازٌ بَديعٌ، وطِباقٌ مِن ألْطَفِ البديعِ، وصَونٌ للفَصاحةِ مِن كَراهةِ الوَصفِ الشَّنيعِ[١].

- والإتيانُ بالموصولاتِ (إنَّ الَّذِينَ - وَالَّذِينَ هُمْ - وَالَّذِينَ هُمْ - وَالَّذِينَ يُؤتُونَ) في الآياتِ السَّابقةِ؛ للإشارةِ إلى وَجْهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، وتكريرُ أسماءِ المَوصولاتِ؛ للاهتمامِ بكلِّ صِلَةٍ مِن صِلاتِها، فلا تُذكَرُ تَبعًا بالعطفِ[٢]. وإيذانًا باستقلالِ كلِّ واحدةٍ مِن تلك الصِّفاتِ بفَضيلةٍ باهرةٍ على حِيالِها، وتَنزيلًا لاستِقلالِها مَنزِلةَ استِقلالِ المَوصوفِ بها[٣].

- وتَقديمُ المَجروراتِ الثَّلاثةِ -﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾- على عوامِلِها؛ لرِعايةِ الفواصلِ، مع الاهتمامِ بمَضمونِها[٤].

- وجاء تَرتيبُ هذه الصِّفاتِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ في نِهايةِ الحُسنِ؛ لأنَّ الأُولى دلَّتْ على حُصولِ الخَوفِ الشَّديدِ المُوجِبِ للاحترازِ، والثَّانيةَ على تَحصيلِ الإيمانِ باللهِ، والثَّالثةَ على تَرْكِ الرِّياءِ في الطَّاعةِ -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، والرَّابعةَ على أنَّ المُستجمِعَ لهذه الصِّفاتِ الثَّلاثةِ يأْتي بالطَّاعاتِ مع خَوفٍ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٧).

التَّقصيرِ، وهو نِهايةُ مَقاماتِ الصِّدِّيقينَ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فيه افتِتاحُ الخَبرِ باسمِ الإشارةِ؛ لِزيادةِ تَمييزِهم للسَّامعينَ؛ لأنَّ مِثْلَهم أحْرِياءُ بأنْ يُعْرَفُوا[٢]، وإفادةِ أنَّ مَن قَبْلَه جَديرٌ بما بَعدَه؛ لاكْتِسابِه تلك الفضائلَ[٣]. وأيضًا التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعْدِ رُتْبَتِهم في الفَضلِ[٤].

- وقولُه: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ أبلَغُ مِن (يُسرِعون)، وَجِهَةُ المُبالَغةِ: أنَّ المُفاعَلةَ تكونُ مِن اثنينِ، فتَقْتَضي حَثَّ النَّفْسِ على السَّبقِ؛ لأنَّ مَن عارضَكَ في شَيءٍ تَشْتَهي أنْ تَغلِبَه فيه[٥].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أثبَتَ لهم ما نُفِيَ عن أضْدادِهم، غيرَ أنَّه غيَّرَ الأُسلوبَ حيثُ لم يقُلْ: (أولئك نُسارِعُ لهم في الخَيراتِ)، بلْ أسنَدَ المُسارَعةَ إليهم؛ إيماءً إلى كَمالِ استِحقاقِهم لِنَيلِ الخَيراتِ بمَحاسِنِ أعمالِهم. وإيثارُ كَلِمةِ (في) على كَلمةِ (إلى)؛ للإيذانِ بأنَّهم مُتقلِّبونَ في فُنونِ الخَيراتِ، لا أنَّهم خارِجُون عنها، مُتوجِّهون إليها بطَريقِ المُسارَعةِ في قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣] الآيةَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٠).

- وجُملةُ: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ تأكيدٌ للَّتي قبْلَها، مُفيدةٌ تَجدُّدَ الفِعْلِ بقولِه: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾، وثُبوتَه بقولِه: ﴿سَٰبِقُونَ﴾[1]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- والسَّبقُ في قولِه: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ تَمثيلٌ للتَّنافُسِ والتَّفاوُتِ في الإكثارِ مِن الخَيراتِ -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، وتَقديمُ المَجرورِ ﴿لَهَا﴾؛ للاهتِمامِ، ولرِعايةِ الفاصِلةِ[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا تقدَّمَ مِن أحوالِ الَّذين مِن خَشيةِ ربِّهم مُشفِقونَ؛ لأنَّه لمَّا ذكَرَ ما اقْتَضى مُخالَفةَ المُشرِكينَ لِمَا أُمِرُوا به مِن تَوحيدِ الدِّينِ، وذكَرَ بَعدَه ما دَلَّ على تَقْوى المُؤمِنينَ بالخَشيةِ وصِحَّةِ الإيمانِ، والبَذلِ، ومُسارعَتِهم في الخيراتِ: ذَيَّلَ ذلك بأنَّ اللهَ ما طلَبَ مِن الَّذين تَقطَّعوا أمْرَهم إلَّا تكليفًا لا يَشُقُّ عليهم، وبأنَّ اللهَ عذَرَ مِن المُؤمِنينَ مَن لم يَبلُغوا مَبلَغَ مَن يَفوتُهم في الأعمالِ، عُذْرًا يَقْتضي اعتبارَ أجْرِهم على ما فاتَهم إذا بذَلُوا غايةَ وُسْعِهم؛ فقولُه: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ خبَرٌ مُرادٌ منه لازِمُه، وهو تَسجيلُ التَّقصيرِ على الَّذين تقطَّعُوا أمْرَهم بَيْنهم، وقَطْعُ مَعذِرَتِهم، وتَيسيرُ الاعتذارِ على الَّذين هم مِن خَشيةِ ربِّهم مُشفِقونَ، كقولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، مع ما في ذلك مِن جَبرِ الخواطِرِ المُنكسِرةِ مِن أهْلِ الإيمانِ الَّذين لم يَلْحَقوا غيرَهم لِعَجزٍ أو خَصاصةٍ، ولمُراعاةِ هذا المعنى عُطِفَ قولُه: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ﴾، وهو معنَى إحاطةِ العِلْمِ بأحوالِهم ونيَّاتِهم؛ فالكِتابُ هنا هو الأمْرُ الَّذي فيه تَسجيلُ الأعمالِ مِن حَسناتٍ وسيِّئاتٍ، وإطلاقُ الكتابِ عليه لإحاطَتِه. وفي قولِه: (لَدَيْنَا) دَلالةٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٨).

أنَّ ذلك مَحفوظٌ، لا يَستطيعُ أحَدٌ تَغييرَه بزِيادةٍ ولا نُقصانٍ[١]. وقيل: على أنَّ معنى الآيةِ: هذا الَّذي وُصِفَ به المُؤمِنون غيرُ خارِجٍ مِن حَدِّ الوُسعِ والطَّاقةِ، وكذلك كلُّ ما كلَّفَه عِبادَه وما عمِلُوه مِن الأعمالِ، فغَيرُ ضائعٍ عندَه؛ فالجُملةُ تَذييلٌ للآياتِ السَّابقةِ، وتأْكيدٌ لمَضمونِها. وعلى أنَّ معنى الآيةِ: إنَّ اللهَ لا يُكلِّفُ إلَّا الوُسْعَ، فإنْ لم يَبلُغِ المُكلَّفُ أنْ يكونَ على صِفَةِ هؤلاء السَّابقينَ بَعدَ أنْ يَستفرِغَ وُسْعَه ويَبذُلَ طاقتَهُ: فلا عليه، ولَدَيْنا كِتابٌ فيه عمَلُ السَّابقِ والمُقتصِدِ؛ فهو استِطرادٌ وبَيانٌ لحُكمِ غيرِ المذكورينَ مِن المُقتصدينَ[٢].

- وقيل: إنَّ جُملةَ: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ مُستأْنفةٌ؛ سِيقَتْ للتَّحريضِ على ما وُصِفَ به السَّابِقون مِن فِعْلِ الطَّاعاتِ المُؤدِّي إلى نَيلِ الخَيراتِ، ببَيانِ سُهولَتِه، وكَونِه غيرَ خارِجٍ عن حَدِّ الوُسعِ والطَّاقةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بَيانٌ لفَضلِه تعالى وعَدلِه في الجزاءِ، بَعدَ بَيانِ لُطفِه في التَّكليفِ. وقيل: تَقريرٌ لِمَا قَبلَه مِن التَّكليفِ وكَتْبِ الأعمالِ، أي: لا يُظْلَمون بتَكليفِ ما ليس في وُسْعِهم، ولا بعدمِ كَتْبِ بَعضِ أعمالِهم[٤]. وقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ مَسوقًا لمُؤاخَذةِ المُفرِّطينَ والمُعرِضينَ، فيَكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾ [المؤمنون: ٥٣] وأشباهُهُ مِن الضَّمائرِ، والاعتمادُ على قَرينةِ السِّياقِ، وقولُه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣] وما بَعدَهُ مِن الضَّمائرِ، والظُّلمُ على هذا الوَجهِ مَحمولٌ على ظاهِرِه، وهو حِرمانُ الحقِّ والاعتداءُ. ويَجوزُ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الضَّميرُ عائدًا إلى عُمومِ الأنفُسِ في قولِه: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾؛ فيَكونَ قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ مِن بَقِيَّةِ التَّذييلِ، والظُّلمُ على هذا الوَجهِ مُستعمَلٌ في النَّقصِ مِن الحقِّ؛ فيكونُ وَعيدًا لفَريقٍ، ووَعدًا لفَريقٍ. وهذا ألْيقُ الوَجهينِ بالإعجازِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٧٩، ٨٠).

الآيات (٦٢-٦٧)

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مُتْرَفِيهِم﴾: المُتْرفونَ: الأغنياءُ والرُّؤساءُ، أو المُنَعَّمُونَ في الدُّنْيا، والمُتقلِّبون فِي لِينِ العَيْشِ، الذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، والتُّرْفَةُ: التوسُّعُ في النِّعمةِ، وأصْلُ (ترف): التَّنعُّمُ(١).

﴿يَجْأَرُونَ﴾: أي: يَضِجُّون (يَصيحونَ)، ويَستَغيثونَ باللهِ، ويَرْفعونَ أصْواتَهم بالدُّعاءِ، وجأَر: إذا أفرَطَ في الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ، والجؤَارُ هو الصَّوتُ(٢).

﴿تَنكِصُونَ﴾: أي: تَرْجِعون عنِ الإيمانِ، وتَرْجِعون القَهْقَرَى، أو تُعرِضون مُدْبرينَ، أو تَستأْخِرونَ، والنُّكوصُ: الإحْجامُ عنِ الشَّيءِ، وعادةً ما يكونُ عن الخيرِ(٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) =

﴿سَٰمِرًا﴾: أي: سُمَّارًا، وهم الجماعةُ يتحدَّثونَ باللَّيلِ، والسَّمرُ: الحديثُ باللَّيْلِ، مأخوذٌ مِنَ السَّمَرِ، وهو ظِلُّ القمرِ، ومنه سُمْرَةُ اللَّونِ، وأصْلُ (سمر): يدُلُّ على خِلافِ البَياضِ في اللَّونِ[1].

﴿تَهْجُرُونَ﴾: أي: تُعرِضونَ؛ مِنَ الهَجْرِ، وهو التَّرْكُ والإعراضُ، وأصلُه: يدُلُّ على قَطيعةٍ وقَطْعٍ، أو تَهْذُونَ؛ مِنَ الهَجْرِ، وهو الهَذَيانُ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾

﴿سَٰمِرًا﴾ مَنصوبٌ على الحالِ؛ إمَّا مِنْ فاعلِ ﴿تَنكِصُونَ﴾، وإمَّا مِنَ الضَّميرِ في ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾، والسَّامِرُ يقَعُ على ما فوقَ الواحِدِ بلَفظِ الإفرادِ، تقولُ: قَومٌ سامِرٌ. وجُملةُ: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ في مَحَلِّ نَصبٍ، حالٌ مِن فاعلِ ﴿تَنكِصُونَ﴾، أو مِنَ الضَّميرِ في ﴿سَٰمِرًا﴾؛ لأنَّه بمعنى الجَماعةِ؛ فهو اسمٌ لجَمعِ السَّامرينَ، أي: المُتحَدِّثينَ في سَمَرِ اللَّيلِ، وهو ظُلمَتُه؛ فالسَّامِرُ كالحاجِّ والحاضِرِ والجامِلِ، بمعنى: الحُجَّاجِ والحاضرينَ وجَماعةِ الجِمالِ[3].

= للكفوي (ص: ٣١٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٤٧٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٥٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٨/ ١٩١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن الكافِرينَ أنَّ قُلوبَهم في جَهالةٍ وغَفلةٍ عنِ القُرآنِ الكريمِ، وأنَّ لهم أعمالًا سيِّئةً كثيرةً دونَ أعمالِ المُؤمِنينَ الصَّالحةِ التي ذكرها اللهُ هم مُستَمِرُّونَ عليها، يُمهِلُهم اللهُ سبحانَه حتَّى يَعمَلوها قبْلَ مَوتِهم؛ فيَحِقَّ عليهمُ العَذابُ.

حتَّى إذا عاقَبَ اللهُ هؤلاء المُترَفينَ -الَّذين أبطَرَتْهمُ النِّعمةُ- بالعذابِ الَّذي يُذِلُّهم، إذا هم يَصْرُخونَ ويَستَغيثونَ، فيُقالُ لهم: لا تَصرُخوا وتَستَغيثوا -أيُّها الكافِرونَ-؛ فلا فائِدةَ مِن هذا الصُّراخِ، ولنْ يُخلِّصَكم مِنَّا أحَدٌ؛ قد كانتْ الآياتُ تُتلَى عليكم، فكُنتُم تُعرِضونَ عنها، حالَ كونِكم مستكبرينَ بسببِ البيتِ الحرامِ، -تقولونَ: لا يَظهَرُ علينا أحدٌ؛ لأنَّا أهلُ الحَرمِ-، متحدِّثينَ ليلًا تَهْذونَ في شأنِ القرآنِ، وتقولونَ فيه الباطلَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

هذا رجوعٌ لأحوالِ الكفارِ المحكيَّةِ فيما سبَق بقولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم ...﴾، والجُمَلُ التي بيْنَهما -وهي قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ إلى قولِه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾- اعتراضٌ في خلالِ الكلامِ المتعلِّقِ بالكفَّارِ[١].

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

أي: بلْ[٢] قُلوبُ المُشرِكينَ في عَمايةٍ وغَفلةٍ عنِ القُرآنِ؛ فهُم لا يُؤمِنونَ به،

(١) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٣/ ٢٠٩).

(٢) قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ما الأمرُ كما يحسَبُ هؤلاء المُشرِكونَ مِن أنَّ إمدادَناهم =

ولا يَتدبَّرونَه[1].

﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾.

أي: وللمُشرِكينَ أعمالٌ سَيِّئةٌ رَديئةٌ دونَ أعمالِ المُؤمِنينَ الصَّالحةِ التي ذكرها الله، يُمهِلُهم اللهُ سبحانَه حتَّى يَعمَلوها قبْلَ مَوتِهم؛ فيَحِقَّ عليهمُ العَذابُ[2].

= بما نُمِدُّهم به مِن مالٍ وبنينَ، بخيرٍ نَسوقُه بذلك إليهم، ورضًا منَّا عنهم؛ لكنَّ قلوبَهم في عَمًى عن هذا القرآنِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

وقيل: (هذه الآياتُ مِن صفاتِ المُشفقينَ، كأنَّه سبحانَه قال بعدَ وصفِهم: ولا نكلِّفُ نفْسًا إلَّا وُسْعَها، ونهايتُه ما أتَى به هؤلاء المشفقونَ، ولدينا كتابٌ يحفظُ أعمالَهم ينطقُ بالحقِّ، وهم لا يُظلمونَ، بل نوفرُ عليهم ثوابَ كلِّ أعمالِهم. ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ هو أيضًا وصفٌ لهم بالحيرةِ، كأنَّه قال: وهم مع ذلك الوجلِ والخوفِ كالمتحيِّرينَ في جعْلِ أعمالِهم مقبولةً أو مردودةً، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: لهم أيضًا مِن النوافلِ ووجوهِ البرِّ سِوى ما هم عليه، إمَّا أعمالًا قد عمِلوها في الماضي، أو سيَعمَلونها في المستقبَلِ، ثمَّ إنَّه سبحانَه رجَع بقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ إلى وصفِ الكفَّارِ). ونسَب الرَّازي هذا القولَ لأبي مسلمٍ، واختاره. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٤، ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّ لهؤلاء الكُفَّارِ أعمالًا لا يرضاها اللهُ مِن المعاصي مِن دونِ أعمالِ المؤمِنينَ التي ذكَرَها اللهُ سُبحانَه لا بُدَّ لهم مِن أن يَعمَلوها فيَدخُلوا بها النَّارَ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والبغوي -ونسبه لأكثرِ المفسِّرينَ-، والنَّسَفيُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٥١).

قال الواحدي: (﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ إجماعُ المفسِّرينَ وأصحابِ المعاني على أنَّ هذا إخبارٌ =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((فوالَّذي لا إلهَ غَيرُه، إنَّ أحَدَكم لَيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجَنَّةِ، حتَّى ما يكونُ بَيْنَه وبيْنَها إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، فيَدخُلُها. وإنَّ أحَدَكم لَيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، حتَّى ما يكونُ بيْنَه وبيْنَها إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه

= عمَّا سيعملونَه مِن أعمالِهم الخبيثةِ التي كُتِبَت عليهم، لا بدَّ لهم أن يَعمَلوها). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٤).

وقال الشوكاني: (فالإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إمَّا إلى أعمالِ المؤمنينَ، أو إلى أعمالِ الكُفَّارِ، أي: لهم أعمالٌ مِن دُونِ أعمالِ المؤمنينَ التي ذَكَرَها اللهُ، أو مِنْ دونِ أعمالِ الكُفَّارِ التي تَقَدَّم ذِكرُها مِن كَونِ قُلوبِهم في غَفلةٍ عظيمةٍ مِمَّا ذُكِر، وهي فُنونُ كُفرِهم ومَعاصِيهم التي مِن جُملتِها ما سيأتي مِن طَعنِهم في القُرآنِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٧٩).

وقال السمعاني: (وقال قتادةُ: الآيةُ تَنصَرِفُ إلى أصحابِ الطَّاعاتِ، ومعناه: أنَّ المؤمنينَ لهم أعمالٌ سِوى ما عَمِلوا مِن الخيرِ ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨١).

وقال ابن الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ: أحدُها: أعمالٌ سَيِّئةٌ دونَ الشِّركِ. رواه عِكرمةُ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثَّاني: خطايا مِن دونِ ذلك الحَقِّ. قاله مجاهِدٌ. وقال ابنُ جريرٍ: مِن دونِ أعمالِ المؤمنينَ وأهلِ التَّقوى والخَشيةِ. والثَّالثُ: أعمالٌ غيرُ الأعمالِ التي ذُكِروا بها سيَعمَلونَها. قاله الزَّجَّاجُ. والرَّابعُ: أعمالٌ -مِن قَبْلِ الحِينِ الذي قدَّرَ الله تعالى أنَّه يُعَذِّبهم عند مجيئِه- مِن المعاصي. قاله أبو سليمان الدمشقي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٦). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: لهم أعمالٌ سَيِّئةٌ دونَ الغَمرةِ التي هم فيها، فالمعنى: أنَّهم يَجمَعونَ بينَ الكُفرِ وسُوءِ الأعمالِ، والإشارةُ بذلك على هذا إلى الغَمرةِ، وإنَّما أشار إليها بالتَّأكيدِ؛ لأنَّها في معنى الكُفرِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقال آخرونَ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: قد كُتِبَ عليهم أعمالٌ سَيِّئةٌ لا بُدَّ أن يَعمَلوها قبْلَ موتِهم لا محالةَ؛ لِتَحِقَّ عليهم كَلِمةُ العذابِ. ورُوِيَ نَحوُ هذا عن مُقاتِلِ بنِ حيَّان، والسُّدِّيِّ، وعبدِ الرَّحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلَمَ. وهو ظاهرٌ قَويٌّ حَسَنٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢).

وقال ابنُ جُزي: (﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ قيل: هي إخبارٌ عن أعمالِهم في الحالِ. وقيل: عن الاستِقبالِ. وقيل: المعنى أنَّهم يتمادَونَ على عَمَلِها حتى يأخُذَهم اللهُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣).

الكِتابُ، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ، فيَدخُلُها))[1].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: فإذا عذَّبَ اللهُ عُظَماءَ المُشرِكينَ المُنعَّمينَ، أخَذوا يَصرُخونَ ويَستَغيثونَ مِن شِدَّةِ عَذابِهم، طالِبينَ الخَلاصَ ممَّا أصابَهم[2].

﴿ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

أي: لا تَضِجُّوا وتَستَغيثوا -أيُّها الكافِرونَ-؛ فلا شَيءَ يُخلِّصُكم مِن عذابي، ولا يَنفَعُكم صُراخُكم[3].

﴿ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّ المُتْرفينَ مِنَ الكُفَّارِ إذا أخَذَهم ربُّهم بالعذابِ، ضَجُّوا

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٧).

قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم ﴾ أي: أغنياءَهم ورؤساءَهم، والإشارةُ إلى قريشٍ. وفي المرادِ ﴿ بِٱلۡعَذَابِ ﴾ قولانِ: أحدُهما: ضربُ السيوفِ يومَ بدرٍ. قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ. والثاني: الجوعُ الذي عُذِّبوا به سبعَ سنينَ. قاله ابنُ السَّائبِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٦).

ممن اختار أنَّ المرادَ ﴿ بِٱلۡعَذَابِ ﴾: القتلُ يومَ بدرٍ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن أبي زمنين، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢).

وصاحُوا واستغاثُوا، وبيَّنَ أنَّهم لا يُغاثُونَ؛ بيَّنَ سبَبَ ذلك[١]، وهو أنَّه متى تُلِيَتْ آياتُ اللهِ عليهم أتَوْا بأُمورٍ ثلاثةٍ: أحدِها: أنَّهم كانوا على أعقابِهم يَنكِصُون، وهذا مَثَلٌ يُضرَبُ فيمَنْ تَباعَد عن الحقِّ كلَّ التَّباعُدِ، وثانيها: قولُه: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾، وثالثِها: يَسْمُرونَ بذِكْرِ القُرآنِ وبالطَّعنِ فيه[٢].

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: قد كانت آياتُ القُرآنِ تُقرَأُ عليكم؛ لِتُؤمِنوا بها قبْلَ أنْ يَحُلَّ بكمُ العَذابُ، فكنتُم تُكذِّبونَ بها، وتَرجِعونَ مُعرِضينَ عنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٨).

مِمن فَسَّر الرجوعَ بمعناه الحقيقي: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٩٨٢).

قال ابن جرير: (ترجِعونَ مولِّينَ عنها إذا سَمِعتُموها؛ كراهيةً منكم لسَماعِها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٩).

وقيل: هو رجوعٌ معنويٌّ، بمعنَى التأخُّرِ عن الإيمان، والإعراضِ عن الحقِّ. وممَّن اختار هذا المعنَى في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥).

قال السعدي: (﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: راجعينَ القَهقرى إلى الخلفِ؛ وذلك لأنَّ باتِّباعِهم القرآنَ يتقدَّمونَ، وبالإعراضِ عنه يستأخِرونَ ويَنزِلونَ إلى أسفَلِ سافِلينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥).

قال البقاعي: (﴿فَكُنتُمْ﴾ أي: كونًا هو كالجبلَّةِ ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ عند تلاوتِها ﴿تَنكِصُونَ﴾ أي: تَرجِعونَ القَهقَرى، إمَّا حِسًّا أو معنًى). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٦٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ٦٧﴾.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾.

أي: والحالُ أنَّكم مُستَكبِرونَ بسببِ البيتِ الحرامِ، تقولونَ: لا يَظهَرُ علينا أحدٌ؛ لأنَّا أهلُ الحرمِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥).
قال الرسعني: (والضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ كنايةٌ عن البيتِ الحرامِ شرَّفه الله تعالى في قولِ عامَّةِ المفسِّرينَ، وكانوا يفتخِرون به، ويقولونَ: نحن أهلُ الحرمِ، وجوارُ الله تعالى وسَدَنَةُ بيتِه، فلا يظهرُ علينا أحدٌ؛ فيكون كنايةً عن غيرِ مذكورٍ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٣٧).
وقال القرطبيُّ: (الضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ قال الجمهورُ: هو عائدٌ على الحَرَمِ، أو المسجِدِ، أو البلد الذي هو مكَّةُ، وإن لم يتقدَّم له ذِكرٌ؛ لشهرتِه في الأمرِ، أي: يقولون: نحن أهلُ الحَرَمِ فلا نخافُ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٦).
وقال ابنُ عطية: (وقالت فرقةٌ: الضميرُ عائدٌ على القرآنِ مِن حيثُ ذُكِرت الآياتُ، والمعنَى يُحدِثُ لكم سماعُ آياتي كِبْرًا وطغيانًا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤٩).
وقال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ في تفسيرِه قولانِ:
أحدُهما: أنَّ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حالٌ منهم حين نكوصِهم عن الحقِّ وإبائهم إيَّاه؛ استكبارًا عليه، واحتقارًا له ولأهلِه، فعلى هذا الضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدُهما: أنَّه الحرمُ بمكَّةَ، ذُمُّوا لأنَّهم كانوا يَسمُرون بالهُجرِ من الكلامِ. والثاني: أنه ضميرُ القرآن، كانوا يسمُرون ويذكُرون القرآنَ بالهُجرِ من الكلام: «إنَّه سِحر، إنه شِعر، إنه كِهانة» إلى غيرِ ذلك من الأقوالِ الباطلةِ. والثالث: أنَّه محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، كانوا يذكرونَه في سَمَرِهم بالأقوال الفاسدةِ، ويضرِبون له الأمثالَ الباطلةَ؛ مِن أنَّه شاعر أو كاهِنٌ أو ساحِرٌ، أو كذَّابٌ أو مجنونٌ. وكلُّ ذلك باطِلٌ، بل هو عبدُ اللهِ ورسولُه، الذي أظهره اللهُ عليهم، وأخرجهم من الحرَمِ صاغرين أذِلَّاءَ.
وقيل: المرادُ بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيتِ، يفتخرون به ويعتَقِدون أنَّهم أولياؤه، =

﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿تُهْجِرُونَ﴾ بضُمِّ التَّاءِ وكَسرِ الجِيمِ، أي: تُفْحِشُونَ، فكان الكفَّارُ إذا سمِعوا قِراءَةَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم تكلَّموا بالهُجْرِ وهو الفُحشُ، وسبُّوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[١]!

٢- قِراءةُ ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفَتحِ التَّاءِ وضَمِّ الجيمِ، مِن الهَجْرِ بالفتحِ، إمَّا بمعنَى القطيعةِ أو الهذيانِ، أي: تُعرِضونَ عن القرآنِ، أو تهذونَ في شأنِه، مِن قولِك: هجرَ المريضُ، إذا هذَى، أي: تقولون اللغوَ مِن القولِ. وقيل: مِن الهُجْرِ بالضمِّ، أي: الفُحْشِ[٢]، فيرجعُ إلى معنى القراءةِ الأُولى.

﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

أي: حالَ كونِكم متحدِّثينَ ليلًا، تَهْذونَ في شأنِ القرآنِ، وتَقولونَ فيه ما لا معنًى له مِن القولِ؛ مِن الباطلِ الذي لا يضرُّه[٣].

= وليسوا بهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٢).

(١) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٨٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٢)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨١). =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا * وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٤- ٥].

وقال تَبارَكَ وتَعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ جعَل تعالى الأخْذَ واقعًا على المترفينَ منهم؛ لأنَّهم الذين أضلُّوا عامَّةَ قَومِهم، والعامَّةُ أقرَبُ إلى الإنصافِ إذا فَهِموا الحقَّ؛ بسببِ سلامتِهم مِن جُلِّ دواعي المكابرةِ: مِن توقُّعِ تقلُّصِ سُؤددٍ، وزوالِ نعيمٍ. وكذلك حقٌّ على قادةِ الأُمَمِ أنْ يُؤاخَذوا

= قال الواحدي: (الأكثرونَ على أنَّ السامرَ هاهنا: اسمٌ للجماعةِ الذين يسمرونَ. وهو معنَى قولِ ابنِ عبَّاسٍ، وأكثرِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٦/ ٢٦).

قال القرطبيُّ: (مِنْ «هَجَرَ المريضُ»: إذا هذَى، معناه: يتكلَّمونَ بهَوَسٍ وسَيِّئٍ مِنَ القَولِ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي القرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٧).

والمعنى الثاني على قراءةِ ﴿تَهۡجُرُونَ﴾: أي تُعرِضون عن القرآنِ، أو البيتِ، أو رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٢).

وقال ابنُ عاشور: (أي: في حالِ كَونِكم مُتحَدِّثينَ هجْرًا، وكان كبراءُ قُرَيشٍ يَسمُرون حَولَ الكعبةِ يتحَدَّثونَ بالطَّعنِ في الدِّينِ، وتكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٦).

وقال البقاعي: (﴿تَهۡجُرُونَ﴾ أي: تُعرِضون عنها [أي: الآياتِ]، وتقولونَ فيها القولَ الفاحشَ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٦٤).

بالتبعاتِ اللاحقةِ للعامَّةِ مِن جرَّاءِ أخطائِهم ومُغامرتِهم عن تضليلٍ أو سُوءِ تَدبُّرٍ، وأن يُسألوا عن الخَيبةِ أنْ ألْقَوا بالذين اتَّبعوهم في مهواةِ الخَطرِ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]، ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[1] [النحل: ٢٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ لعلَّه إنَّما قال: ﴿سَٰمِرًا﴾ بلَفْظِ المُفرَدِ؛ لأنَّ كلًّا منهم يَتحدَّثُ في أمْرِ الآياتِ مُجتمِعًا مع غَيرِه، ومُنفرِدًا مع نفْسِه حَديثًا كثيرًا، كحديثِ المُسامِرِ الَّذي مِن شأْنِه ألَّا يُمَلَّ، وقال: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أي: تُعرِضونَ عنها، وتقولونَ فيها القولَ الفاحِشَ، فأسنَدَه إلى الجمْعِ؛ لأنَّ بَعضَهم كان يَستمِعُها ولم يكُنْ يُفحِشُ القولَ فيها، أو تَعجيبًا مِن أنْ يَجتمِعَ جمْعٌ على مِثْلِ ذلك؛ لأنَّ الجمْعَ جَديرٌ بأنْ يُوجَدَ فيه مَن يُبصِرُ الحَقَّ، فيأمُرُ به[2].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ الآيةُ تدُلُّ على أنَّ السَّمرَ إنَّما يُكرَهُ في غَيرِ الخيرِ؛ لأنَّ (الهُجْرَ) هو القولُ الفاحِشُ[3]. على قَولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ فيه تأْييسٌ لهم مِن النَّجاةِ مِن العَذابِ الَّذي هُدِّدُوا به[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٧). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٤، ٨٥).

- قولُه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إضرابُ انتقالٍ إلى ما هو أغرَبُ ممَّا سبَقَ، وهو وَصْفُ غَمرةٍ أُخرى انغمَسَ فيها المُشرِكون[١].

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ اللَّامُ في قولِه: (لَهُمْ أَعْمَالٌ) للاختصاصِ. وتَقديمُ المَجْرورِ بها على المُبتدأِ ﴿أَعْمَالٌ﴾؛ لقَصْرِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ، أي: لهم أعمالٌ لا يَعمَلون غيرَها مِن أعمالِ الإيمانِ والخَيراتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَقديمُ ﴿لَهَا﴾ على ﴿عَامِلُونَ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ لقَصرِ القلْبِ[٢]، أي: لا يَعمَلون غيرَها مِن الأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي دُعُوا إليها. ويجوزُ أنْ يكونَ للرِّعايةِ على الفاصلةِ؛ لأنَّ القَصرَ قد أُفِيدَ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه[٣].

- ووَصْفُ ﴿أَعْمَالٌ﴾ بجُملةِ ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُستمِرُّونَ عليها لا يُقلِعون عنها؛ لأنَّهم ضُرُّوا بها لكَثْرةِ انغماسِهم فيها. وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادةِ الدَّوامِ على تلك الأعمالِ وثَباتِهم عليها[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ...﴾ في تَخصيصِ المُترفينَ بالتَّعذيبِ -مع أنَّ شأْنَ العَذابِ الإلهيِّ إنْ كان دُنْيويًّا أنْ يعُمَّ النَّاسَ كلَّهم-: إشارةٌ إلى أنَّ المُترفينَ هم سبَبُ نُزولِ العذابِ بالعامَّةِ، ولولا نُفوذُ كَلِمتِهم على قَومِهم لاتَّبعَتِ الدَّهماءُ الحقَّ، ولأنَّ المُترفينَ هم أشَدُّ إحساسًا بالعذابِ؛ لأنَّهم لم يَعتادُوا مَسَّ الضَّراءِ والآلامِ، ولأنَّهم مع كَونِهم مُتمنِّعينَ مَحمِيِّينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بحِمايةِ غَيرِهم مِن المَنَعةِ والحَشَمِ حين لَقُوا ما لَقُوا مِن الحالةِ الفظيعةِ، فلأنْ يَلْقاها مَنْ عَداهم مِن الحُماةِ والخَدمِ أَوْلى وأقدَمُ(١). ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بالمُتْرفينَ جَميعَ المُشرِكينَ؛ فتَكونَ الإضافةُ بَيانِيَّةً(٢)، ويكونَ ذِكْرُ المُتْرفينَ تَهويلًا في التَّهديدِ؛ تَذكيرًا لهم بأنَّ العذابَ يُزِيلُ عنهم تَرَفَهم؛ فيكونَ المعنى: حتَّى إذا أخَذْناهم وهم في تَرَفِهم(٣).

- وقولُه: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ كِنايةٌ عن شِدَّةِ ألَمِ العذابِ، بحيث لا يَستطيعونَ صَبرًا عليه؛ فيَصدُرُ منهم صُراخُ التَّأوُّهِ والوَيلِ والثُّبورِ(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ما قَبْلَها، وما تَفرَّعَ عليه مِن قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾(٥) [المؤمنون: ٦٨]، وهي مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ؛ مَسُوقةٌ لرَدِّهم وتَبكيتِهم وإقْناطِهم ممَّا عَلَّقوا به أطْماعَهم الفارِغةَ مِن الإغاثةِ والإعانةِ مِن جِهَتِه تعالى(٦).

- وتَخصيصُ اليومِ بالذِّكرِ؛ لتَهويلِه، والإيذانِ بتَفويتِهم وَقتَ الجُؤارِ(٧).

- وقولُه: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ المُستعمَلِ في التَّسويةِ؛ فمَوقِعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٢).

(٢) الإضافةُ البَيانيَّةُ: هي الَّتي تَكونُ على تقديرِ (مِن)، ويَكونُ المُضافُ إليه فيها جِنسًا للمُضافِ؛ مِثلُ: «سوارُ ذَهَبٍ، خاتمُ فضةٍ، ثوبُ قُطْنٍ»، أي: سوارٌ مِن ذهبٍ، وخاتمٌ مِن فضةٍ، وثوبٌ مِن قطنٍ. يُنظر: ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٢، ٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٢).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(إنَّ) إفادةُ التَّعليلِ؛ لأنَّها تُغني غَناءَ فاءِ التَّفريعِ[١]. وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿مِّنَّا﴾؛ للاهتمامِ بجانِبِ اللهِ تعالى، ولرِعايةِ الفاصلةِ[٢].

- وضُمِّنَ ﴿تُنصَرُونَ﴾ معنَى النَّجاةِ؛ فعُدِّيَ الفِعْلُ بـ (مِن)، أي: لا تَنْجُون مِن عَذابِنا، فثَمَّ مُضافٌ مَحذوفٌ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ تَعليلٌ لعَدمِ لُحوقِ النَّصرِ مِن جِهَتِه بسَبَبِ كُفْرِهم بالآياتِ[٤]. وقيل: استئنافٌ، والخَبرُ مُسْتعمَلٌ في التَّنديمِ والتَّلهيفِ، وإنَّما لم تُعطَفِ الجُملةُ على جُملةِ ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾؛ لقَصدِ إفادةِ معنًى بها غيرِ التَّعليلِ؛ إذ لا كَبيرَ فائدةٍ في الجَمعِ بيْن عِلَّتينِ[٥].

- قولُه: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ لَمَّا كانتْ عَظمةُ الآياتِ -الَّتي استحَقَّتْ بها الإضافةَ إلى اللهِ تعالى- تَكْفي في الحثِّ على الإيمانِ بمُجرَّدِ سَماعِها؛ بُنِيَ للمَفعولِ قولُه: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٦].

- وذِكْرُ فِعلِ (كُنتم)؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك شأْنُهم. وذِكْرُ المُضارِعِ ﴿تَنكِصُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّكرُّرِ، فذلك خُلُقٌ منهم مُعادٌ مَكرورٌ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٢، ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٥).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٥).

٥- قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ للبَيتِ العَتيقِ أو للحرمِ، والَّذي سَوَّغَ هذا الإضمارَ شُهْرَتُهم بالاستِكبارِ بالبيتِ. ويَجوزُ أنْ يَرجِعَ إلى ﴿ءَايَٰتِى﴾، إلَّا أنَّه ذُكِّرَ؛ لأنَّها في مَعنَى (كتابي). ومعنَى استكبارِهم بالقُرآنِ: تَكذيبُهم به استِكبارًا، ضُمِّنَ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ معنى مُكذِّبينَ، أو يُحدِثُ لكم استِماعُه استِكبارًا وعُتُوًّا، فأنتم مُستكبِرونَ بسَببِه. أو تَتعلَّقُ الباءُ بـ﴿سَٰمِرًا﴾، أي: تَسمُرونَ بذِكْرِ القُرآنِ وبالطَّعنِ فيه. وقيل: الضَّميرُ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُحسِّنُه أنَّ في قولِه: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ دَلالةً على التَّالي، وهو الرَّسولُ عليه السَّلامُ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٥، ٨٦).

الآيات (٦٨-٧٢)

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ ٱتَّبَعَ
ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ
عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جِنَّةٌ﴾: أي: جُنونٌ، وأصلُ (جنن): السَّترُ والتَّستُّرُ، وسُمِّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطِّيه[(١)].

﴿خَرْجًا﴾ ﴿فَخَرَاجُ﴾: الخرْجُ والخراجُ واحدٌ، أي: الأجرُ والجُعلُ والرِّزْقُ، والخرْجُ والخراجُ: الإتاوةُ؛ لأنَّه مالٌ يُخرجُه المُعطي، وقيل: بيْنَهما فرقٌ؛ فالخراجُ ما لَزِمك، والخرجُ ما تَبَرَّعْتَ به، وقيل غيرُ ذلك. وأصلُ (خرج): النَّفاذُ عنِ الشَّيءِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ألم يَتدبَّرْ أولئك المُشرِكونَ القُرآنَ، أمْ جاءهم فيه ما لَمْ يأْتِ آباءَهم الأوَّلينَ حتَّى استبعَدوه وأعرَضُوا عنه؟! أمْ لم يَعرِفوا رَسولَهم محمَّدًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨، ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤).

صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّه الصَّادِقُ الأمينُ، فأنْكَروا ما جاء به؟! أمْ يقولون عنه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: به جنونٌ؟! كلَّا! فليس ما تقدَّم هو سببَ رفضِهم الإيمانَ وتوحيدَ الله، بل السببُ أنَّ الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جاءَهم بالحَقِّ الثَّابِتِ، وأكثَرُهم كارِهونَ للحَقِّ؛ لأنَّه يَتعارَضُ مع أهوائِهم، ولوِ اتَّبَعَ الحقُّ أهواءَ المُشرِكينَ، لَفسَدَتِ السَّمَواتُ والأرضُ ومَن فِيهنَّ، بلْ أتَيناهم بالقُرآنِ الكريمِ الَّذي فيه شَرَفُهم ومَجْدُهم، ولكِنَّهم عنه مُعرِضونَ!

أم تَسألُهم -يا مُحمَّدُ- أجْرًا على ما جِئْتَهم به مِنَ الحقِّ، فيَمنَعُهم ذلك مِن اتِّباعِه؟! لا، ليس الأمرُ كذلك؛ فثَوابُ اللهِ تعالى على ما تُبلِّغُه مِن رسالتِه خيرٌ لك وأعظَمُ مِن عَطاءِ هؤلاءِ الضُّعفاءِ الَّذين لا يَستَغنونَ أبدًا عن عطاءِ الله تعالى، واللهُ تعالى هو خيرُ الرَّازِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانتِ الآياتُ -لِمَا فيها مِنَ البَلاغةِ المُعجزةِ، والحِكَمِ المُعجبةِ- داعيةً إلى تَقبُّلِها بَعدَ تأمُّلِها، وكان الكافِرونَ يُعرِضونَ عنها، ويُفْحِشون في وَصْفِها: تارَةً بالسِّحرِ، وأُخرى بالشِّعرِ، وكرَّةً بالكَهانةِ، ومرَّةً بغَيرِها؛ تسبَّبَ عن ذلك الإنكارُ عليهم(١).

وأيضًا لَمَّا وَصفَ اللهُ تعالى حالَ الكافرينَ، ردَّ عليهم -في هذه الآيةِ وما يَليها- بأنْ بيَّنَ أنَّ إقْدامَهم على هذه الأُمورِ لا بُدَّ أنْ يكونَ لأحدِ أُمورٍ أربعةٍ:

أحدِها: ألَّا يَتأمَّلوا في دَليلِ نُبوَّتِه، وهو المُرادُ مِن قَولِه: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ ﴾؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٤).

فبيَّنَ أنَّ القولَ الَّذي هو القُرآنُ كان مَعروفًا لهم، وقد مُكِّنوا مِنَ التَّأمُّلِ فيه مِن حيثُ كان مُباينًا لكلامِ العرَبِ في الفَصاحةِ، ومُبرَّأً عن التَّناقُضِ في طُولِ عُمرِه، ومِن حيثُ يُنبِّهُ على ما يَلْزَمُهم مِن مَعرفةِ الصَّانعِ، ومَعرِفةِ الوَحدانيَّةِ؛ فلِمَ لا يَتدبَّرونَ فيه لِيَتْرُكوا الباطِلَ، ويَرْجِعوا إلى الحقِّ؟!

وثانيها: أنْ يَعْتَقِدوا أنَّ مَجِيءَ الرُّسلِ أمْرٌ على خِلافِ العادةِ، وهو المُرادُ مِن قولِه: ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ وذلك لأنَّهم عرَفوا بالتَّواتُرِ أنَّ الرُّسلَ كانت تَتواتَرُ على الأُمَمِ، وتَظهَرُ المُعجِزاتُ عليها، وكانتِ الأُمَمُ بيْنَ مُصدِّقٍ ناجٍ، وبيْنَ مُكذِّبٍ هالكٍ بعَذابِ الاستِئصالِ؛ أفمَا دعاهم ذلك إلى تَصديقِ الرَّسولِ؟!

وثالِثِها: ألَّا يَكُونوا عالِمينَ بدِيانَتِه، وحُسْنِ خِصالِه قَبلَ ادِّعائِه للنُّبوَّةِ، وهو المُرادُ مِن قَولِه: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؛ نبَّهَ سُبحانَه بذلك على أنَّهم عرَفوا منه قبْلَ ادِّعائِه الرِّسالةَ كَونَه في نِهايةِ الأمانةِ والصِّدقِ، وغايةِ الفِرارِ مِنَ الكذِبِ والأخلاقِ الذَّميمةِ؛ فكيف كذَّبوهُ بَعدَ أنِ اتَّفقَتْ كَلِمَتُهم على تَسمِيَتِه بالأمينِ؟!

ورابِعِها: أنْ يَعتَقِدوا فيه الجُنونَ، فيَقولوا: إنَّما حمَلَه على ادِّعائِه الرِّسالةَ جُنونُه، وهو المُرادُ مِن قولِه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾، وهذا أيضًا ظاهِرُ الفسادِ؛ لأنَّهم كانوا يَعلمونَ بالضَّرورةِ أنَّه أعقَلُ النَّاسِ، والمَجنونُ كيف يُمكِنُه أنْ يأتِيَ بمِثْلِ ما أتَى به مِنَ الدَّلائلِ القاطِعةِ، والشَّرائعِ الكاملةِ[(١)]؟!

﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾.

أي: أفلَمْ يَتدبَّرْ أولئك المُشرِكونَ القُرآنَ؛ فيَعقِلوا مَعانِيَه، ويَعلَموا ما فيه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٦).

ويَعمَلوا به ويتَّبِعوه، أمْ جاءَهم فيه ما لم يأْتِ آباءَهم الَّذين مِن قَبْلِهم، فأنكَروه وأعرَضوا عنه[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢١ - ٢٤].

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان الرَّجلُ الكامِلُ مَن عرَفَ الرِّجالَ بالحقِّ؛ بدَأَ بما أشارَ إليه، ثمَّ أعقبَه بمَن يَعرِفُ الشَّيءَ للإِلْفِ به، ثمَّ بمَن يَعرِفُ الحقَّ بالرِّجالِ، فقال[(٢)]:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: أمْ لم يَعرِفِ المُشرِكونَ رَسولَهم مُحمَّدًا، وأنَّه مِن أهلِ الصِّدقِ والأمانةِ، فيُنكِروا قَولَه[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٧، ٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣)، ((تفسير =

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان البَشَرُ قد يَعرِضُ له ما يَسلُبُ خِصالَهُ -وهو اختلالُ عقْلِه- عطَفَ على ﴿ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ ﴾ قولَه: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ ﴾، أي: ألَعلَّهم ادَّعوا أنَّ رَسولَهم الَّذي يَعرِفونَه قد أُصِيبَ بجُنونٍ، فانقلَبَ صِدْقُه كذِبًا(١)؟!

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ ﴾.

أي: أمْ يَحتجُّونَ في تَركِ الإيمانِ بدَعوى أنَّ بمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم جُنونًا(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴾ [التكوير: ٢٢].

﴿ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلَها:

لَمَّا كانت هذه الأقسامُ مُنْتفيَةً، ولا سيَّما الأخيرِ المُستَلزِم عادةً للتَّخليطِ المُستلْزِمِ للباطلِ؛ فإنَّهم أعرَفُ النَّاسِ بهذا الرَّسولِ الكريمِ، وأنَّه أكمَلُهم خَلْقًا،

= السعدي)) (ص: ٥٥٥).

قال البِقاعي: (في هذا غايةُ التَّوبيخِ لهم بجَهلِهم وبعِنادِهم، بأنَّهم يَعرِفونَ أنَّه أصدَقُ الخَلقِ وأعلاهم في كُلِّ مَعنًى جَميلٍ، ثمَّ يُكَذِّبونَه!). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٩).

وأشرَفُهم خُلُقًا، وأطهَرُهم شِيَمًا، وأعظَمُهم هِمَمًا، وأرجَحُهم عَقْلًا، وأمتَنُهم رأْيًا، وأرضاهُم قولًا، وأصوَبُهم فِعْلًا: أضرَبَ عنها، وقال[1]:

﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: ليس سَبَبُ رَفْضِهمُ الإيمانَ وتَوحيدَ الرَّحمنِ شيئًا مِمَّا تقَدَّمَ ذِكْرُه، بلِ السَّبَبُ الَّذي دعاهم للتَّمسُّكِ بشِرْكِهم وكُفرِهم هو أنَّ مُحمَّدًا قد جاءَهم بالحَقِّ، وأكثَرُهم يَكرَهونَ القَبولَ والإذعانَ لهذا الحَقِّ المُخالِفِ لأهوائِهم[2]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٠).

قال ابنُ عاشور: (الحقُّ: الثَّابتُ في الواقعِ ونفْسِ الأمرِ، يكونُ في الذواتِ وأوصافِها، وفي الأجناسِ، وفي المعاني، وفي الأخبارِ؛ فهو ضدُّ الكذبِ، وضدُّ السِّحرِ، وضدُّ الشِّعرِ؛ فما جاءهم به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الأخبارِ والأوامرِ والنَّواهي كلُّه مُلابِسٌ للحَقِّ؛ فبَطَل بهذا ما قالوه في القرآنِ وفي الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَقالةَ مَن لم يتدَبَّروا القرآنَ، ومَن لم يُراعُوا إلَّا مُوافقةَ ما كان عليه آباؤُهم الأوَّلونَ، ومَن لم يَعرِفوا حالَ رَسولِهم الذي هو مِن أنفُسِهم؛ ومَقالةَ مَن يَرمي بالبُهتانِ؛ فنَسَبوا الصَّادِقَ إلى التَّلبيسِ والتَّغليطِ! فالحقُّ الذي جاءهم به النبيُّ أوَّلُه إثباتُ الوَحدانيَّةِ لله تعالى، وإثباتُ البَعثِ، وما يَتْبَعُ ذلك مِن الشَّرائعِ النَّازلةِ بمكَّةَ؛ كالأمرِ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ، وصِلةِ الرَّحمِ، والاعترافِ للفاضِلِ بفَضلِه، وزَجْرِ الخَبيثِ عن خُبثِه، وأُخوَّةِ المُسلِمينَ بَعضِهم لِبَعضٍ، والمساواةِ بينهم في الحَقِّ، ومَنْعِ الفواحِشِ؛ مِن الزِّنا، وقَتْلِ الأنفُسِ، ووأْدِ البناتِ، والاعتداءِ وأكْلِ الأموالِ بالباطِلِ، وإهانةِ اليتيمِ والمِسكينِ، ونحوِ ذلك مِن إبطالِ ما كان عليه أمرُ الجاهليَّةِ مِن العُدوانِ، والخِلافةِ التي نَشَؤوا عليها من عَهدٍ قديمٍ؛ فكلُّ ما جاء به الرَّسولُ يومَئذٍ هو الموافِقُ لِمُقتضى نِظامِ العُمرانِ الذي خَلَق اللهُ عليه العالَمَ؛ فهو الحقُّ، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]. ولَمَّا كان قَولُ الكاذبِ وقَولُ المجنونِ المُختَصُّ بهذا الذي لا يُشارِكُهما فيه العُقلاءُ والصَّادِقونَ غيرَ جارِيَينِ على هذا الحقِّ، كان إثباتُ أنَّ ما جاء به الرَّسولُ حَقٌّ نَقضًا لإنكارِهم صِدْقَه. ولِقَولِهم: هو مجنونٌ كان ما بعدَ «بل» نَقضًا لِقَولِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٠).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٥- ١٧].

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

أي: ولو جاء الحَقُّ(١) بما يُوافِقُ أهواءَهم الفاسِدةَ المُختَلِفةَ، لفَسَدتِ السَّمواتُ

(١) قيل: المرادُ بالحَقِّ هنا: هو اللهُ تعالى. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والثعلبي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وابن كثير، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨٢).

قال القرطبي: (﴿ٱلْحَقُّ﴾ هنا هو اللَّهُ سبحانَه وتعالَى، قالَه الأكثرونَ، منهم مُجاهِدٌ، وابنُ جُرَيجٍ، وأبو صالِحٍ، وغيرُهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٠). ونسبه الماورديُّ والعزُّ بن عبد السلام أيضًا للأكثرين، يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٢/ ٣٧٩).

وقيل: المرادُ به: القرآنُ، وممَّن اختاره: الواحدي، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، =

= والشربيني. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٨٦).

وقيل: المرادُ بالحقِّ هنا: ضدُّ الباطلِ، وهو المذكورُ في الآيةِ قبْلَه، ومِن جملته القُرآنُ وما جاء به النبيُّ صلى الله عليه وسلم مِنَ الإسلام والتوحيد والشَّرعِ. وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: ابنُ عطية، وابن جزي، وأبو حيان، وابن القيم، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٣) ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٢).

قال ابنُ جزي: (الحقُّ هنا يُرادُ به الصَّوابُ والأمرُ المستقيمُ، فالمعنى: لو كان الأمرُ على ما تقتضي أهواؤُهم مِن الشِّركِ بالله واتِّباعِ الباطلِ لفَسَدَت السَّمَواتُ والأرضُ، كقَولِه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقيل: إنَّ الحَقَّ في الآيةِ هو اللهُ تعالى، وهذا بَعيدٌ في المعنى، وإنَّما حمَلَه عليه أنْ جَعَل الاتِّباعَ حَقيقةً، ولم يَفهَمْ فيه الاستِعارةَ، وإنَّما الحقُّ هنا هو المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٤).

وقال الشِّنقيطي: (اختلف العُلماءُ في المرادِ بالحقِّ في هذه الآيةِ؛ فقال بعضُهم: الحقُّ: هو اللهُ تعالى. ومعلومٌ أنَّ الحقَّ مِن أسمائِه الحُسنى... وكونُ المرادِ بالحقِّ في الآيةِ هو اللهَ: عزاه القرطبيُّ للأكثرينَ، ومِمَّن قال به: مجاهدٌ، وابنُ جُريجٍ، وأبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ، ورُوي عن قتادةَ، وغيرِهم. وعلى هذا القَولِ فالمعنى: لو أجابهم اللهُ إلى تشريعِ ما أحبُّوا تَشريعَه، وإرسالِ مَن اقترَحوا إرسالَه -بأنْ جَعَل أمرَ التَّشريعِ، وإرسالَ الرُّسلِ، ونَحوَ ذلك؛ تابعًا لأهوائِهم الفاسدةِ- لفَسَدت السَّمواتُ والأرضُ ومَن فيهِنَّ؛ لأنَّ أهواءَهم الفاسِدةَ وشَهَواتِهم الباطِلةَ لا يُمكِنُ أن تقومَ عليها السَّماءُ والأرضُ...

القولُ الثاني: أنَّ المرادَ بالحقِّ في الآيةِ: الحقُّ الذي هو ضِدُّ الباطلِ، المذكورُ في قَولِه قَبلَه: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، وهذا القولُ الأخيرُ اختاره ابنُ عطيَّة، وأنكَر الأوَّلَ. وعلى هذا القَولِ فالمعنى: أنَّه لو فُرِضَ كونُ الحَقِّ مُتَّبعًا لأهوائِهم التي هي الشِّركُ باللهِ، وادِّعاءُ الأولادِ والأندادِ له، ونحوُ ذلك؛ لفَسَد كلُّ شَيءٍ؛ لأنَّ هذا الفَرضَ يَصيرُ به الحقُّ هو أبطلَ الباطِلِ، ولا يمكنُ أن يقومَ نِظامُ السَّماءِ والأرضِ على شَيءٍ هو أبطلُ الباطِلِ؛ لأنَّ استِقامةَ نِظامِ هذا العالَمِ لا تُمكِنُ إلَّا بقُدرةِ وإرادةِ إلهٍ هو الحَقُّ، مُنفَرِدٌ بالتَّشريعِ والأمرِ والنَّهيِ، كما لا يخفَى على عاقِلٍ. والعِلمُ عند اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٤٢، ٣٤٣).

والأرضُ ومَن فيهنَّ مِنَ المَخلوقاتِ، واختَلَّ نِظامُ العالَمِ[(١)].

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: بلْ أتَينا أولئك المُشرِكينَ بالقُرآنِ المُبَيِّنِ للحَقِّ، وفيه شَرَفُهم وعِزُّهم في دُنياهم وأُخراهم؛ فهُمْ عن القُرآنِ -الَّذي فيه شَرَفُهم وعِزُّهم- مُعرِضونَ لا يَتَّبِعونَه[(٢)]!

كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أبطَلَ اللهُ تعالى وُجوهَ طعْنِ الكافرينَ في المُرسَلِ به والمُرسَلِ؛ مِن جِهَةِ جَهْلِهم مرَّةً، ومِن جِهَةِ ادِّعائِهم البُطلانَ أُخرى؛ نبَّهَهم على وَجْهٍ آخَرَ، هم أعرَفُ النَّاسِ ببُطلانِه؛ لِيُثْبِتَ المُدَّعى مِنَ الصِّحَّةِ إذا انتفَتْ وُجوهُ المَطاعِنِ، فقال مُنكِرًا[(٣)]:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾.

أي: أمْ تَسألُ -يا مُحمَّدُ- مُشرِكي قَومِك أجْرًا على ما جِئتَهم به مِنَ الحَقِّ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٨).

فيَمنَعُهم ذلك مِن اتِّباعِه؟! كلَّا! ليس الأمرُ كذلك؛ فثوابُ اللهِ الَّذي يُعْطيك على تَبليغِ رِسالتِه خَيرٌ لك مِن ذلك؛ فما الَّذي يَمنَعُهم -إذَنْ- مِن اتِّباعِ الحقِّ[١]؟!

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: واللهُ خيرُ مَن يُعطي عِبادَه ويَرزُقُهم مِن فَضلِه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: أفلَا يَتفكَّرونَ في القُرآنِ ويَتأمَّلونَه ويَتدبَّرونَه، أي: فإنَّهم لو تَدبَّروهُ لَأوجَبَ لهم الإيمانَ، ولَمنَعَهُم مِنَ الكُفرِ، ولكنَّ المُصيبةَ الَّتي أصابَتْهُم بسَببِ إعراضِهم عنه، ودَلَّ هذا على أنَّ تَدبُّرَ القُرآنِ يَدْعو إلى كلِّ خَيرٍ، ويَعصِمُ مِن كلِّ شَرٍّ، والَّذي منَعَهم مِن تَدبُّرِه أنَّ على قُلوبِهم أقْفالَها[٣].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[النساء: ٨٢][محمد: ٢٤]، وتَدبُّرُ الكلامِ بدُونِ فَهمِ مَعانيه لا يُمكِنُ. وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وعَقْلُ الكلامِ مُتضمِّنٌ لِفَهْمِه. ومِنَ المَعلومِ أنَّ كلَّ كلامٍ فالمقصودُ منه فَهْمُ مَعانيه دُونَ مُجرَّدِ ألْفاظِه؛ فالقُرآنُ أَولى بذلك، وأيضًا فالعادةُ تَمنَعُ أنْ يَقرَأَ قَومٌ كِتابًا في فَنٍّ مِنَ العِلْمِ -كالطِّبِّ والحِسابِ- ولا يَسْتَشرِحوه؛ فكيف بكلامِ اللهِ الَّذي هو عِصْمَتُهم، وبه نَجاتُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٤).

وسَعادَتُهم، وقِيامُ دِينِهم ودُنياهم[1]؟!

٣- التَّأمُّلُ في القُرآنِ هو تَحديقُ ناظِرِ القَلْبِ إلى مَعانِيه، وجمْعُ الفِكْرِ على تَدبُّرِه وتَعقُّلِه، وهو المقصودُ بإنزالِه، لا مُجرَّدُ تِلاوَتِه بلا فَهْمٍ ولا تَدبُّرٍ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. وقال الحسَنُ: (نزَلَ القُرآنُ؛ لِيُتدبَّرَ ويُعمَلَ به، فاتَّخَذوا تِلاوَتَه عمَلًا!). فليس شَيءٌ أنفَعَ للعَبْدِ في مَعاشِه ومَعادِه، وأقرَبَ إلى نَجاتِه؛ مِن تَدبُّرِ القُرآنِ، وإطالةِ التَّأمُّلِ فيه، وجمْعِ الفِكْرِ على مَعاني آياتِه؛ فإنَّها تُطْلِعُ العبْدَ على مَعالِمِ الخيرِ والشَّرِّ بحَذافيرِهما، وعلى طُرقاتِهما وأسبابِهما، وغاياتِهما وثَمراتِهما، ومآلِ أهْلِهما، وتَضَعُ في يَدِه مَفاتيحَ كُنوزِ السَّعادةِ والعُلومِ النَّافعةِ، وتُثبِّتُ قَواعِدَ الإيمانِ في قَلْبِه، وتُشيِّدُ بُنيانَه، وتُوطِّدُ أركانَه، وتُرِيه صُورةَ الدُّنيا والآخرةِ والجنَّةِ والنَّارِ في قَلْبِه، وتُحضِرُه بيْنَ الأُمَمِ، وتُرِيهِ أيَّامَ اللهِ فيهم، وتُبصِّرُه مَواقِعَ العِبَرِ، وتُشهِدُه عَدْلَ اللهِ وفَضْلَه، وتُعرِّفُه ذاتَه وأسماءَه، وصِفاتِه وأفعالَه، وما يُحِبُّه وما يُبغِضُه، وصِراطَه المُوصِلَ إليه، وما لِسالِكِيه بَعدَ الوُصولِ والقُدومِ عليه، وقَواطِعَ الطَّريقِ وآفاتِها، وتُعرِّفُه النَّفْسَ وصِفاتِها، ومُفسداتِ الأعمالِ ومُصحِّحاتِها، وتُعرِّفُه طَريقَ أهْلِ الجنَّةِ وأهْلِ النَّارِ، وأعمالَهم وأحوالَهم وسِيمَاهم، ومَراتِبَ أهْلِ السَّعادةِ وأهْلِ الشَّقاوةِ، وأقسامَ الخلْقِ، واجتماعَهم فيما يَجتَمِعونَ فيه، وافْتِراقَهم فيما يَفترِقونَ فيه.

وبالجُملةِ: تُعرِّفُه الرَّبَّ المَدْعُوَّ إليه، وطَريقَ الوُصولِ إليه، وما له مِنَ الكرامةِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٣١، ٣٣٢).

إذا قَدِمَ عليه.

وتُعرِّفُه في مُقابِلِ ذلك ثلاثةً أُخرى: ما يَدْعُو إليه الشَّيطانُ، والطَّريقَ المُوصِلَةَ إليه، وما للمُستجيبِ لِدَعوتِه مِنَ الإهانةِ والعذابِ بَعدَ الوُصولِ إليه. فهذه سِتَّةُ أُمورٍ ضَروريٌّ للعبْدِ مَعرِفتُها، ومُشاهدَتُها ومُطالعَتُها.

وفي تأمُّلِ القُرآنِ وتَدبُّرِه وتَفهُّمِه: أضعافُ أضعافِ ما ذكَرْنا مِن الحِكَمِ والفوائِدِ. وبالجُملةِ فهو أعظَمُ الكُنوزِ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ فبيَّنَ سُبحانَه أنَّ الحقَّ لا يَتَّبِعُ الهَوى، بلِ الواجِبُ على المُكلَّفِ أنْ يَطرَحَ الهوَى ويَتَّبِعَ الحقَّ؛ فبيَّنَ سُبحانَه أنَّ اتِّباعَ الهَوى يُؤدِّي إلى الفَسادِ العظيمِ[٢].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾، لعلَّهُ عبَّرَ بـ (القول)؛ إشارةً إلى أنَّ مَن لم يَتقبَّلْه ليس بأهْلٍ لِفَهمِ شَيءٍ مِنَ القَولِ، بلْ هو في عِدادِ البَهائمِ[٣].

٢- في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ في سَجايا النَّاسِ نُبُوًّا عمَّا لم يَسْمَعوا به؛ ولم تَجْرِ سُنَّتُه فيمَن قَبْلَهم، فصارتِ الحُجَّةُ عليهم بذلك مِن حيثُ يَعقِلُونها ولا يُنكِرونُ تَخصيصَهم بما دُعُوا إليه؛ لِتَكونَ أوْكَدَ عليهمْ، وأَبْعَدَ لهم مِن أنْ يُعْذَرُوا عندَ أنفُسِهم، لا أنَّها لا تَلْزَمُهم ولا تَجِبُ عليهم إلَّا بما صارَ سُنَّةً في غَيرِهم؛ فقد أُمِرَ آدمُ بتَرْكِ الأكْلِ مِنَ الشَّجرةِ، ولَزِمَتْه حُجَّةُ ربِّه، ولم يَتقدَّمْ له في ذلك مُتَقَدِّمٌ؛ فليس لأحدٍ رَدُّ حُجَّةِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩ - ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٥).

واضحةٍ يُورِدُها عليه مُورِدٌ -وإنْ لم يكُنْ سَمِعَها مِن غَيرِه، ولا سَبَقَ مُورِدَها إليه سِواهُ- اعتمادًا على أنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُه قال في هؤلاء: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ لأنَّ ذلك منه -واللهُ أعلَمُ- على معنَى النَّكيرِ لا على الارتِضاءِ[1].

٣- في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ تَدَبُّرُ الكلامِ هو أنْ يَنْظُرَ في أوَّلِه وآخِرِه، ثمَّ يُعِيدَ نظَرَه مَرَّةً بَعدَ مَرَّةٍ؛ ولهذا جاء (التَّدبُّر) على بِناءِ (التَّفعُّل)؛ كالتَّجرُّعِ، والتَّفهُّمِ، والتَّبيُّنِ[2].

٤- في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجَدَّ أَبٌ[3].

٥- في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ خبَرَ الواحِدِ يَلْزَمُ قَبولُه بشَرْطِ مَعرفةِ المُخْبَرِ بصِدْقِ المُخبِرِ، وثَباتِ عَقْلِه؛ ألَا ترى أنَّ حُجَجَ قُريشٍ كانت مُنقطِعةً بما عَرَفَتْ مِن عَقْلِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وصِدْقِه؛ فلَزِمَهم خبَرُه عن اللهِ جَلَّ جَلالُه؟ إذْ لا عِلَّةَ لهم في رَسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتعلَّقونَ بها، ويأْوونَ في تَكذيبِه إليها، وهذا مِن أكبَرِ ما يُحتَجُّ به في تَثبيتِ خَبرِ الواحِدِ لِمَن تدبَّرَهُ[4].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ الحقَّ لوِ اتَّبَعَ أهواءَ العِبادِ، فجاء شَرْعُ اللهِ ودِينُه بأهوائِهم؛ لَفسدَتِ السَّمواتُ والأرضُ ومَن فِيهنَّ، وأنَّه مِن المُحالِ أنْ يَتَّبِعَ الحقُّ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٧).

أهواءَهم، وأنَّ أهواءَهُم مُشتمِلةٌ على قُبْحٍ عَظيمٍ؛ لو وَرَدَ الشَّرعُ به لَفَسَد العالَمُ: أعلاهُ وأسفَلُه وما بيْن ذلك، ومَعلومٌ أنَّ هذا الفسادَ إنَّما يكونُ لِقُبْحِ خِلافِ ما شرَعَه اللهُ وأمَرَ به، ومُنافاتِه لِصلاحِ العالَمِ عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه، وأنَّ خَرابَ العالَمِ وفَسادَه لَازِمٌ لِحُصولِه ولِشَرْعِه، وأنَّ كَمالَ حِكْمةِ اللهِ وكَمالَ عِلْمِه ورَحْمَتِه ورُبوبيَّتِه يأْبى ذلك ويَمنَعُ منه[1].

٧- قولُه تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ دَلَّ بهذا على عِظَمِ شأْنِ الحقِّ، وأنَّ السَّمواتِ والأرضَ ما قامت ولا مَن فِيهِنَّ إلَّا بِه[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾، كأنَّه سمَّاهُ (خَراجًا) إشارةً إلى أنَّه أوجَبَ رِزْقَ كلِّ أحدٍ على نفْسِه بوَعْدٍ لا خُلْفَ فيه[3].

٩- قولُه تعالى: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ دَلَّ على أنَّ العِبادَ قد يَرزُقُ بَعضُهم بَعضًا[4]، فصِيغةُ التَّفضيلِ في قولِه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ نظرًا إلى أنَّ بعضَ المخلوقينَ يرزُقُ بعضَهم، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٣٣]، ولا شكَّ أنَّ فضلَ رزقِ اللهِ خَلْقَه على رزقِ بعضِ خَلْقِه لبعضِهم كفَضْلِ ذَاتِه وسائِرِ صفاتِه على ذَواتِ خَلْقِه وصِفاتِهم[5]. فقولُه: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ دَلَّ على أنَّه لا يُساويهِ أحدٌ في الإفضالِ على

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤، ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٦).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٤٤).

عِبادِه[(١)]، فكلُّ مَن يَرزُقُ غيرَه -مِن سُلْطانٍ يَرزُقُ جُندَهُ، أو سيِّدٍ يَرزُقُ عبْدَهُ، أو رجُلٍ يَرزُقُ عِيالَهُ- فهو واسطةٌ لا يَقدِرُ إلَّا على ما قدَّرَه اللهُ، وأمَّا هو سُبحانَه فهو يُوجِدُ المَعدومَ، ويَرزُقُ مَن يُطيعُه ومَن يَعْصيه، ولا يَضيقُ رِزْقُه بأحدٍ، ولا يَشغَلُه فيه أحدٌ عن أحدٍ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ هَمزةُ الاستفهامِ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه، والفاءُ للعَطفِ على مُقدَّرٍ يَنسحِبُ عليه الكلامُ، أي: فَعَلُوا ما فعَلُوا مِن النُّكوصِ والاستكبارِ والهَجرِ، فلم يَتدبَّروا القُرآنَ[(٣)]. وهو تَقريعٌ وتَوبيخٌ على إعراضِهم عن اتِّباعِ الحقِّ، والانتفاعِ بالقُرآنِ[(٤)]. وقيل: الفاءُ لتَفريعِ الكلامِ على الكلامِ السَّابقِ، وهو قولُه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ إلى قولِه: ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣-٦٧]. وهذا التَّفريعُ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ وجُملةِ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ ...﴾ إلخ[(٥)] [المؤمنون: ٧٥].

- و(أمْ) في قولِه: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن مَعنَى (بل) للإضرابِ والانتقالِ عنِ التَّوبيخِ بما ذُكِرَ إلى التَّوبيخِ بآخَرَ، والهمزةُ لإنكارِ الوُقوعِ لا لإنكارِ الواقعِ[(٦)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٨).

- قولُه: ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إنْ كان المُرادُ ظاهِرَ مَعنى الصِّلةِ، وهي ما لم يأْتِ آباءَهم الأوَّلِينَ مِن أنَّ الدِّينَ الَّذي جاءهم لا عَهْدَ لهم به، تَعيَّنَ أنْ يكونَ في الكلامِ تَهكُّمٌ بهم؛ إذ قد أنْكَروا دِينًا جاءهم، ولم يَسبِقْ مَجيئُه لآبائِهم. ووَجْهُ التَّهكُّمِ: أنَّ شأْنَ كلِّ رسولٍ جاء بدِينٍ أنْ يكونَ دِينُه أُنُفًا -جديدًا-، ولو كان للقومِ مِثْلُه لكانَ مِجيئُه تَحصيلَ حاصلٍ. وإنْ كان المُرادُ مِن الصِّلةِ أنَّه مُخالِفٌ لِمَا كان عليه آباؤُهم؛ لأنَّ ذلك مِن معنى ﴿لم يأْتِ آباءَهم﴾؛ كان الكلامُ مُجرَّدَ تَغليطٍ، أي: لا اتِّجاهَ لكُفْرِهم به؛ لأنَّه مُخالِفٌ لِمَا كان عليه آباؤُهم؛ إذ لا يكونُ الدِّينُ إلَّا مُخالِفًا للضَّلالةِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ﴾ إضْرابٌ وانتقالٌ مِن التَّوبيخِ بما ذُكِرَ إلى التَّوبيخِ بوَجهٍ آخَرَ، والهمزةُ في ﴿أَمۡ﴾ لإنكارِ الوُقوعِ[٢]. وهو إضْرابٌ على سَبيلِ التَّرقِّي، وكذلك قولُه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾؛ فإنَّه لمَّا أثبَتَ لهم الجَهلَ الموروثَ، أضرَبَ عن ذلك بإثْباتِ الجَهلِ المُكتسَبِ، وهو عدَمُ جَرْيِهم بمُوجَبِ العِلْمِ؛ فإنَّ الهَمزةَ في ﴿أَمۡ﴾ للسُّؤالِ مُجرًى للمعلومِ مَساقَ غَيرِه تَجْهيلًا، أو للتَّوبيخِ؛ فقولُه: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ﴾ واردٌ على سَبيلِ التَّوبيخِ على الإعراضِ، ثمَّ أضرَبَ عنه بقولِه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾[٣].

- قولُه: ﴿فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: جاحِدُون بِنُبوَّتِه؛ فجُحودُهم بها مُترتِّبٌ على عَدَمِ مَعرفَتِهم بشأْنِه عليه السَّلامُ، ومِن ضَرورةِ انتفاءِ المَبْنيِّ: بُطلانُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٠٤، ٦٠٥).

بُنِيَ عليه، أي: فهُمْ غيرُ عارفينَ له عليهِ السَّلامُ؛ فهو تأكيدٌ لِمَا قَبلَه[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ انتقالٌ إلى تَوبيخٍ آخَرَ، والهمزةُ لإنكارِ الواقِعِ كالهمزةِ الأُولى في قولِه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾[٢].

- وقد رُوعِيَ في هذه التَّوبيخاتِ الأربعةِ، الَّتي اثنانِ منها مُتعلِّقانِ بالقُرآنِ، والباقيانِ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: التَّرقِّي مِن الأدْنى إلى الأعلى؛ حيثُ وُبِّخُوا أوَّلًا بعدَمِ التَّدبُّرِ، ثمَّ وُبِّخوا بشَيءٍ لو اتَّصَفَ به القولُ لكان سببًا لِعدَمِ تَصديقِهم به، ثمَّ وُبِّخوا بما يَتعلَّقُ بالرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن عَدمِ مَعرِفَتِهم به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذلك يَتحقَّقُ بعَدمِ المعرفةِ بخَيرٍ ولا شَرٍّ، ثمَّ بما لو كان فيه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك لَقَدَحَ في رِسالَتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما سبَقَ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ﴾ تَقْييدُ الحُكْمِ بـ (الأكثرِ)؛ لأنَّ منهم مَن ترَكَ الإيمانَ استِنكافًا مِن تَوبيخِ قَومِه، أو لِقِلَّةِ فِطْنَتِه وعَدمِ تَفكُّرِه، لا لكَراهَتِه الحقَّ. أو يكونُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ على الجِنسِ للنَّاسِ كافَّةً، ولمَّا ذكَرَ هذه الطَّائفةَ مِن الجِنْسِ، بَقِيَ الكلامُ في قولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ على الجِنْسِ بجُملَتِه. ويحتمِلُ أنْ يُرادَ بالأكثرِ الكلُّ، كما حُمِلَ القليلُ على النَّفيِ؛ فيكونُ قولُه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ تَذْييلًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية الأمير)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٤)، ((فتح =

- وقولُه: ﴿لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فيه الإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ، وهو يُنبِئُ عن كُرْهِهم للحقِّ مِن حيثُ هو حَقٌّ أيَّ حَقٍّ كان، لا لهذا الحقِّ فقطْ(١). وقُدِّمَ المَعمولُ ﴿لِلۡحَقِّ﴾ اهتِمامًا بذِكْرِ الحقِّ؛ حتَّى يَسْتوعِيَ السَّامِعُ ما بَعدَهُ، فيَقَعَ مِن نَفْسِه حُسْنُ سَماعِه مَوقِعَ العجَبِ مِن كارِهِيه، ولمَّا ضَعُفَ العامِلُ فيه بالتَّأخيرِ قُرِنَ المعمولُ بلامِ التَّقويةِ(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه، وهو ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا﴾ [المؤمنون: ٧٢] و﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [المؤمنون: ٧٠](٣). وقيل: هو استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ أنَّ أهواءَهم الزَّائغةَ الَّتي ما كَرِهُوا الحقَّ إلَّا لعَدمِ مُوافَقَتِه إيَّاها مُقْتضيةٌ للطَّامَّةِ(٤). وقيل: عُطِفَ هذا الشَّرطُ الامتناعيُّ على جُملةِ ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]؛ زِيادةً في التَّشنيعِ على أهوائِهم؛ فإنَّها مُفْضيةٌ إلى فَسادِ العالَمِ ومَن فيه، وكَفَى بذلك فَظاعةً وشَناعةً(٥).

- قولُه: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾ انتِقالٌ مِن تَشنيعِهم بكَراهةِ الحقِّ الَّذي به يَقومُ العالَمُ، إلى تَشنيعِهم بالإعراضِ عمَّا جُبِلَ عليه كلُّ نَفْسٍ مِنَ الرَّغبةِ

= الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٢٧، ٥٢٨).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩١).

فيما فيه خَيرُها[1]. وهو إبْطالٌ لِمَا اقْتَضاهُ الفرْضُ في قولِه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أي: بلْ لم يتَّبِعِ الحقُّ أهواءَهم، فأبْلَغْنا إليهم الحقَّ على وَجْهِه بالقُرآنِ الَّذي هو ذِكْرٌ لهم، يُوقِظُ عُقولَهم مِن سُباتِها؛ جُعِلَ إبلاغُ الحقِّ لهم بالأدِلَّةِ بمَنزِلةِ تَذكيرِ النَّاسي شيئًا طال عَهْدُه به[2].

- وفي إسنادِ الإتيانِ بالذِّكرِ إلى نُونِ العَظمةِ ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بَعدَ إسنادِه إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: تَنويهٌ لِشَأْنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَنبيهٌ على كَونِه بمَثابةٍ عَظيمةٍ منه عَزَّ وجَلَّ. وفي إيرادِ القُرآنِ الكريمِ عندَ نِسبَتِه إليه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعُنوانِ الحقِّيَّةِ، وعندَ نِسبَتِه إليه تعالى بعُنوانِ الذِّكرِ- ما لا يَخْفَى؛ فإنَّ التَّصريحَ بحَقِّيَّتِه المُستلْزِمةِ لِحَقِّيَّةِ مَن جاء به هُو الَّذي يَقْتضيهِ مَقامُ حِكايةِ ما قالَهُ المُبطِلون في شأْنِه، وأمَّا التَّشريفُ فإنَّما يَليقُ به تعالى لا سيَّما رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحدَ المُشرَّفينَ[3].

- وفي قولِه: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ الفاءُ لِتَفريعِ إعراضِهم على الإتيانِ بالذِّكرِ إليهم، أي: فتفرَّعَ على الإرسالِ إليهم بالذِّكرِ إعراضُهم عنه[4]. وفيه وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوضِعَ الضَّميرِ، حيث لم يقُلْ: (عنه)، وفي هذا مَزيدُ تَشنيعٍ لهم وتَقريعٍ[5].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ التَّعبيرُ عن إعراضِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٤).

بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ إعراضِهم وتَمكُّنِه منهم. وتَقديمُ المجرورِ ﴿عَن ذِكۡرِهِم﴾ على عامِلِه ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾؛ للاهتمامِ بذِكْرِهم؛ لِيَكونَ إعراضُهم عنه مَحَلَّ عَجَبٍ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾ (أَمْ) للانتقالِ إلى استفهامٍ آخَرَ عن دَواعي إعراضِهم عن الرَّسولِ، واستِمرارِ قُلوبِهم في غَمرةٍ. والاستفهامُ المُقدَّرُ هنا إنكاريٌّ تَوبيخيٌّ، أي: ما تسألُهم خَرْجًا، فيَعتذِروا بالإعراضِ عنك لأجْلِه؛ شُحًّا بأموالِهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿خَرۡجٗا فَخَرَاجُ﴾ تفنُّنٌ في الكلامِ؛ تَجنُّبًا لإعادةِ اللَّفظِ في غَيرِ المقامِ المُقْتَضي إعادةَ اللَّفظينِ مع قُربِ اللَّفظينِ[٣].

- وقولُه: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾ تَعليلٌ لِنَفيِ السُّؤالِ المُستفادِ مِن الإنكارِ. وفي التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مِن تَعليلِ الحُكمِ وتَشريفِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما لا يَخفى[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ؛ تكميلًا للغرَضِ بالثَّناءِ على اللهِ والتَّعريفِ بسَعةِ فَضْلِه. وفيه تَقريرٌ وتأْكيدٌ لِمَعنَى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٨).

الآيات (٧٢-٧٧)

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ
لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾
وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا
عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَنَٰكِبُونَ﴾: أي: لجائِرونَ، مُنحرِفون، مُعْرِضونَ؛ يقال: نَكَبَ عن كذا، أي: عدَلَ عنه ومالَ، وأصلُ (نكب): يدُلُّ على مَيْلٍ[١].

﴿لَّلَجُّوا۟﴾: أي: لَثَبَتُوا، ولتَمادَوْا، ولاستَمرُّوا، واللَّجاجُ: التَّمادي والعِنادُ في تعاطي الفِعلِ المزجورِ عنه، وأصل (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشيءِ بَعضِه على بعضٍ، وترديدِ الشيءِ[٢].

﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾: أي: عُتُوِّهِم وتكبُّرِهم، وأصلُ الطُّغيان: مجاوزةُ الحَدِّ[٣].

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتَحيَّرون ويَجورونَ عَنِ الطَّرِيق، وأصلُ العَمَهِ: التردُّدُ في الأمْرِ مِن التحيُّرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٤٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٤) ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، =

﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾: أي: خشَعوا وذَلُّوا، وخَضَعوا، وأصلُ الاستِكانةِ: إظهارُ الضَّعْفِ[(١)].

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: يَتذلَّلون، ويَدْعُون في خشوعٍ، وأصلُ (ضرع): يَدُلُّ على لِينٍ في الشَّيءِ[(٢)].

﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: مُتحيِّرون، ويائِسون مُلقون بأيديهم، والإبلاسُ: الحُزنُ المعترِضُ مِن شِدَّةِ اليأسِ، وأصلُ (بلس): يدلُّ على اليأسِ[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا: إنَّك -يا محمَّدُ- تَدْعُو قَومَك إلى الإسلامِ؛ وهو الدِّينُ القويمُ، ولكِنَّ هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ مُنحَرِفونَ عن ذلك الصِّراطِ المُستقيمِ إلى غَيرِه.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣، ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

قال الشنقيطي: (المبلِسُ: اسمُ فاعلِ الإبلاسِ، والإبلاسُ في لغةِ العربِ يُطْلَقُ على معانٍ متقاربةٍ، هو في الحقيقةِ يُرادِفُ الوجومَ، والوجومُ هو: أن يكونَ الإنسانُ ساكتًا منقطعًا لا يقدرُ أن يتكلَّمَ؛ لشدةِ اليأسِ مِن الخلاصِ مِن البلايا والدَّواهي التي وَقَع فيها). ((العذب النمير)) (١/ ٢٥٩).

ويبيِّنُ تعالى أنَّه لو رَحِمهم وكشَف عنهم ما أصابهم مِن ضُرٍّ في الدنيا، لَتمادَوْا في الكُفرِ والعِنادِ والضلالِ الذي تجاوَزوا به الحدَّ، وهم يترَدَّدون متحيِّرينَ، لا يُفَرِّقونَ بينَ الحقِّ والباطلِ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه قد أخَذهم بالعذابِ في الدنيا؛ كإصابتِهم بالفقرِ والجوعِ وغيرِ ذلك، فما خَضَعوا لربِّهم، وما تَضَرَّعوا إليه سُبحانَه بالدُّعاءِ الخالِصِ لِيَكشِفَ عنهم البَلاءَ الَّذي حلَّ بهم، بلِ استَمرُّوا على جُحودِهم وعِنادِهم، حتَّى إذا فتَح الله عليهم بابًا مِنَ العذابِ الشَّديدِ إذا هم فيه نادِمونَ على ما فَعلوه مِن كفرٍ وتكذيبٍ بالحقِّ، آيِسُونَ مِن كلِّ نَجاةٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا زيَّفَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى طَريقةَ القَومِ؛ أتبَعَه ببَيانِ صِحَّةِ ما جاء به الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(١)].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى أعقَبَ تَنزيهَ الرَّسولِ عمَّا افتراهُ المُشرِكونَ عليه، بتَنزيهِ الإسلامِ عمَّا وَسَمُوه به مِنَ الأباطيلِ، والتَّنزيهِ بإثباتِ ضِدِّ ذلك؛ وهو أنَّه صِراطٌ مُستقيمٌ، أي: طريقٌ لا الْتِواءَ فيه، ولا عَقَباتٍ[(٢)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كانتْ عَظَمةُ المَلِكِ مُقْتضِيةً لِتَقبُّلِ ما أتَى به، والتَّشرُّفِ به على أيِّ حالٍ كان؛ نبَّهَ على أنَّه حقٌّ، يُكسِبُ قَبولُه الشَّرفَ لو لم يكُنْ مِن عندِ المَلِكِ؛ فكيف إذا كان مِن عِندِه؟! فكيف إذا كان مَلِكَ المُلوكِ ومالِكَ المُلْكِ؟! فكيف

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٨).

إذا كان الآتِي به خالِصةَ العِبادِ، وأشرَفَ الخلْقِ؟! كما قام عليه الدَّليلُ بنَفْيِ هذه المطاعِنِ كلِّها، فقال عاطِفًا على ﴿أَتَيْنَٰهُم﴾[1] [المؤمنون: ٧١]:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٧٣﴾.

أي: وإنَّك -يا محمَّدُ- لَتَدْعُو مُشركي قَومِك إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، وهو دِينُ الإسلامِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ٧٤﴾.

أي: وإنَّ المُكذِّبينَ بالبَعثِ بَعدَ المَوتِ لَمُنحرِفونَ عن طَريقِ الحَقِّ المُستقيمِ، المُوصِلِ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه، فصائِرونَ إلى النَّارِ[3].

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٥﴾.

أي: ولو رَحِمْنا هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، ورفَعْنا ما أصابَهم مِن عذابِ الدُّنيا مِن قَحْطٍ وجَدْبٍ وفَقرٍ؛ لَتَمادَوْا واستَمرُّوا في كُفرِهم وضَلالِهم الَّذي تَجاوَزوا فيه الحَدَّ، وهم يَتردَّدونَ حيارى لا يُميِّزونَ الحقَّ مِنَ الباطِلِ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٥).

وقال ابنُ جزي (﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ...﴾ الآيةَ: قال الأكثرونَ: نزلَتْ هذه الآيةُ حينَ دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على قريشٍ بالقحطِ فنالهم الجوعُ حتَّى أكلوا الجلودَ وغيرَها، =

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّها استِدلالٌ على مَضمونِ قولِه: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، بسابِقِ إصرارِ المُشرِكينَ على الشِّركِ، والإعراضِ عن الالْتِجاءِ إلى اللهِ، وعدَمِ الاتِّعاظِ بأنَّ ما حَلَّ بهم مِن العذابِ هو جَزاءُ شِرْكِهم[(١)].

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾.

أي: ولقدْ أصَبْناهم بعَذابِ الدُّنيا -كإصابتِهم بالجُوعِ وغَيرِه- فما خَضَعوا لربِّهم بالانقيادِ لأوامِرِه، واجتِنابِ نواهِيه، وما دَعَوْه بخُشوعٍ وتذَلُّلٍ وافتِقارٍ؛ لِيَرفَعَ عنهم البلاءَ الذي أصابَهم[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۞ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤].

= فالمعنى رحِمناهم بالخِصبِ، وكشَفنا ما بهم مِن ضرِّ الجوعِ والقحطِ: لتَمادَوا على طغيانِهم. وفي هذا عندي نظرٌ؛ فإنَّ الآيةَ مكِّيَّةٌ باتِّفاقٍ، وإنَّما دعا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على قريشٍ بعدَ الهجرةِ حسَبما ورَد في الحديثِ. وقيل: المعنى: لو رحِمْناهم بالردِّ إلى الدُّنيا لعادُوا لِمَا نُهُوا عنه، وهذا القولُ لا يلزمُ عليه ما لزِم على الآخَرِ، ولكنَّه خرَج عن معنَى الآيةِ)). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٥).

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤- ٩٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾.

أي: حتَّى إذا فتَحْنا عليهم عَذابًا شديدًا، إذا هم في ذلك العَذابِ الشَّديدِ نادِمونَ على ما صدَرَ منهم مِن كُفْرٍ وتَكذيبٍ بالحَقِّ، آيِسُونَ مِن حُصولِ الخَيرِ والفَرَجِ والنَّجاةِ[1]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٣).

واختلَفَ المفسِّرون في المُرادِ بالعذابِ الشَّديدِ هنا؛ فقيل: هو الجوعُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ ابن سليمان، وابن جرير، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٨).

قال ابنُ عطية: (العذابُ الشديدُ، إمَّا يوم بدرٍ بالسيوفِ كما قال بعضُهم، وإمَّا توعُّدٌ بعذابٍ غيرِ معيَّنٍ، وهو الصوابُ؛ لِما ذكرناه مِن تقدُّم بدرٍ للمجاعةِ، ورُوِيَ عن مجاهدٍ أنَّ العذابَ والبابَ الشديدَ هو كلُّه مجاعةُ قريشٍ. وهذا حسَنٌ، كأنَّ الأخذَ كان في صدرِ الأمرِ ثم فُتح البابُ عندَ تناهيهِ حيثُ أُبلِسوا وجاء أبو سفيانَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٢). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٣).

وقيل: المرادُ: عذابُ الآخرةِ، كما ينبئُ عنه التَّهويلُ بفتحِ البابِ، والوصفِ بالشِّدَّةِ. وممَّن قال بذلك: أبو السعودِ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٦).

قال ابن كثير: (أي: حتَّى إذا جاءهم أمرُ اللهِ وجاءتْهم السَّاعةُ بَغتةً، وأخَذَهم مِن عقابِ اللهِ ما لم يكونوا يحتَسِبونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾، ذكَر اللهُ تعالى في هذه الآياتِ الكريماتِ والتي قبْلَها كلَّ سَببٍ مُوجِبٍ للإيمانِ، وذكَرَ الموانِعَ، وبيَّنَ فَسادَها، واحدًا بَعْدَ واحدٍ، فذكَر مِنَ الموانعِ: أنَّ قُلوبَهم في غَمرةٍ، وأنهم لم يَدَّبَّروا القولَ، وأنَّهم اقْتَدَوا بآبائِهم، وأنَّهم قالوا برسولِهم جِنَّةٌ، وذكَرَ مِنَ الأُمورِ المُوجِبةِ لإيمانِهم: تَدبُّرَ القُرآنِ، وتَلقِّيَ نعمةِ اللهِ بالقَبولِ، ومعرفةَ حالِ الرَّسولِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكمالِ صدقِه وأمانتِه، وأنَّه لا يسألُهم عليه أجْرًا، وإنَّما سعيُه لنفعِهم ومصلحتِهم، وأنَّ الَّذي يَدْعوهم إليه صِراطٌ مُستقيمٌ، سَهْلٌ على العاملينَ لاستقامَتِه، مُوصِلٌ إلى المقصودِ مِن قُربٍ، حَنيفيَّةٌ سَمْحةٌ؛ حَنيفيَّةٌ في التَّوحيدِ، سَمْحةٌ في العمَلِ، فدَعوتُك إيَّاهم إلى الصِّراطِ المُستقيمِ مُوجِبٌ لمَن يُريدُ الحقَّ أنْ يَتَّبِعَك؛ لأنَّه ممَّا تَشهَدُ العُقولُ والفِطَرُ بحُسْنِه، ومُوافقتِه للمصالِحِ، فأين يَذْهَبون إنْ لم يُتابِعوك[1]؟!

= وقيل: المُرادُ بالعذابِ الشَّديدِ: عذابُ السَّيفِ يومَ بدْرٍ. وممَّن قال بذلك: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٨).

قال السعدي: (لكنْ وراءَهم العذابُ الذي لا يُرَدُّ، وهو قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾؛ كالقتلِ يومَ بدرٍ وغيرِه، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسونَ مِن كلِّ خيرٍ، قد حضرهم الشرُّ وأسبابُه، فلْيَحْذَروا قبْلَ نزولِ عذابِ الله الشديدِ، الذي لا يُرَدُّ، بخلافِ مجرَّدِ العذابِ؛ فإنَّه ربَّما أقلع عنهم، كالعقوباتِ الدنيويَّةِ التي يؤدِّبُ الله بها عبادَه، قال تعالى فيها: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦).

٢- اللهُ تعالى يَبْتلي عبْدَه؛ لِيَسمَعَ شَكواهُ وتَضرُّعَه ودُعاءَه، وقد ذَمَّ سُبحانَه مَن لم يَتضرَّعْ إليه ولم يَستكِنْ له وقْتَ البلاءِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، والعبْدُ أضعَفُ مِن أنْ يَتجلَّدَ على رَبِّه، والرَّبُّ تعالى لم يُرِدْ مِن عَبْدِه أنْ يَتجلَّدَ عليه، بلْ أراد منه أنْ يَستكينَ له ويَتضرَّعَ إليه، وهو تَعالى يَمقُتُ مَن يَشْكوهُ إلى خلْقِه، ويُحِبُّ مَن يَشْكُو ما به إليه. وقيلَ لِبَعضِهم: كيف تَشْتَكي إليه ما ليس يَخْفَى عليه؟ فقال: ربِّي يَرْضَى ذُلَّ العبْدِ إليه[1].

٣- المُؤمِنُ مَن يَستكينُ قَلْبُه لِرَبِّه، ويَخشَعُ له ويَتواضَعُ، ويُظهِرُ مَسْكنَتَه وفاقَتَه إليه في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ؛ أمَّا في حالةِ الرَّخاءِ: فإظهارُ الشُّكرِ، وأمَّا في حالِ الشِّدَّةِ: فإظهارُ الذُّلِّ والعُبوديَّةِ، والفاقةِ والحاجةِ إلى كشْفِ الضُّرِّ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ فذَمَّ مَن لا يَستكينُ لِرَبِّه عِندَ الشِّدَّةِ، وكان النَّبيُّ يَخرُجُ عندَ الاستِسقاءِ مُتواضِعًا مُتخشِّعًا مُتمسْكِنًا[2].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ هذا تَعذيبٌ لهم في الدُّنيا؛ لِيَتضرَّعوا إليه ولِيَتُوبوا، وذَكَر سُبحانَه هنا أنَّه أخَذَهم بالعذابِ، ولم يقُلْ: بالذُّنوبِ؛ كأنَّه -واللهُ أعلَمُ- ضمَّنَ ذلك معنَى: جذَبْناهم إلينا؛ لِيُنِيبوا

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ١١٥).
ويُنظر في صفةِ خروجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم للاستسقاءِ ما رواه أبو داود (١١٦٥)، والترمذي (٥٥٨)، والنسائي (١٥٢١)، وابن ماجه (١٢٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
قال الترمذيُّ: (حسنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه النوويُّ في ((المجموع)) (٥/ ٦٦)، وابن الملقِّن في ((البدر المنير)) (٥/ ١٤٣)، وحسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٧٦)، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجه)) (١٠٥٣).

ولِيَتوبوا، ويَسْتَكينوا ويَتضرَّعوا، وإذا قال: فأخَذَهم اللهُ بذنوبِهم، يكونُ قد أهلَكَهم، فأخَذَهم إليه بالإهلاكِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

- فيه تَعريضٌ بالَّذين اعْتَقَدوا خِلافَ ذلك. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّامِ في ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾ باعتِبارِ أنَّه مَسوقٌ للتَّعريضِ بالمُنكِرينَ على ما دَعاهم إليه النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكذلك التَّوكيدُ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ وُصِفُوا بذلك؛ تَشنيعًا لهم بما هُم عليهِ مِن الانهماكِ في الدُّنيا، وزَعْمِهم أنْ لا حياةَ إلَّا الحياةُ الدُّنيا، وإشعارًا بعِلَّةِ الحُكمِ؛ فإنَّ الإيمانَ بالآخرةِ وخَوفَ ما فيها مِن الدَّواهي مِن أَقْوى الدَّواعي إلى طَلبِ الحقِّ وسُلوكِ سَبيلِه(٣).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ للجِنْسِ، أي: هم ناكِبونَ عن الصِّراطِ مِن حيثُ هو؛ حيث لم يَتطلَّبوا طَريقَ نَجاةٍ، فهم ناكِبونَ عنِ الطَّريقِ، بَلْهَ الطَّريقَ المُستقيمَ؛ ولذلك لم يكُنِ التَّعريفُ في قولِه: ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ للعهْدِ بالصِّراطِ المذكورِ؛ لأنَّ تَعريفَ الجِنْسِ أتَمُّ في نِسْبَتِهم إلى الضَّلالِ؛ بقَرينةِ أنَّهم لا يُؤمنون بالآخرةِ الَّتي هي غايةُ العامِلِ مِن عمَلِه، فهُم إذَنْ ناكِبونَ عن كلِّ صِراطٍ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٥).

مُوصِّلٍ؛ إذ لا هِمَّةَ لهم في الوُصولِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ على أنَّ معنى الآيةِ: إنَّ هؤلاء -وَصِفَتُهم أنَّهم لا يُؤمِنون بالآخرةِ- لَناكِبُونَ؛ ففيه: إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ حيث عَدَلَ عن أنْ يَقولَ: (وإنَّهم عن الصِّراطِ لناكِبون)؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ مُنكِرَ الحَشرِ ناكبٌ عن الصِّراطِ المُستقيمِ الَّذي هو دِينُ الإسلامِ، وأنَّ مَبْنى دِينِ الإسلامِ على الإيمانِ باليومِ الآخِرِ. أو المعنى: أنَّ كلَّ مَن لا يُؤمِنُ بالآخِرةِ فهو عن القَصدِ ناكِبٌ؛ فعلى هذا لا يكونُ مِن إقامةِ المُظهَرِ مُقامَ المُضْمرِ، بلِ الجُملةُ تَذييلٌ؛ فيَدخُلُ هؤلاء دُخولًا أوَّلِيًّا في هذا المقامِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ﴾ (لو) هنا داخِلةٌ على الفِعْلِ الماضي المُرادِ منه الاستِقبالُ بقَرينةِ المَقامِ؛ إذ المَقامُ للإنذارِ والتَّأييسِ مِن الإغاثةِ عندَ نُزولِ العذابِ الموعودِ به، وليس مَقامَ اعتذارٍ مِن اللهِ عن عدَمِ استجابَتِه لهم، أو عن إمساكِ رَحمَتِه عنهم؛ لِظُهورِ أنَّ ذلك لا يُناسِبُ مَقامَ الوعيدِ والتَّهديدِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للاستشهادِ على مَضمونِ الشَّرطيَّةِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾. واللَّامُ في (لَقَدْ) جَوابُ قَسمٍ مَحذوفٍ، أي: وباللهِ لقد أخَذْناهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٩٩).

بالعذابِ(١).

- قولُه: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قَبلَه، أي: وليس مِن عادَتِهم التَّضرُّعُ إليه تعالى(٢). أو هو مَعطوفٌ على ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾، ولمْ تُراعَ المُوافَقةُ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه في كَونِهما ماضيينِ أو مُضارعينِ؛ وذلك لأنَّ ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾ على ظاهِرِه؛ لأنَّه مُرتَّبٌ على قولِه: ﴿أَخَذْنَـٰهُم﴾، وأمَّا ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ فعُدولٌ عنِ الظَّاهرِ؛ لِتَوخِّي الاستمرارِ على عدَمِ التَّضرُّعِ والدَّوامِ عليه(٣).

- وقولُه: ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَعْمَهُونَ﴾، قُدِّمَ عليه؛ للاهتِمامِ بذِكْرِه، ولرِعايةِ الفاصلةِ(٤).

٥- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾

- فَتْحُ البابِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾ فيه تَمثيلٌ لِمُفاجأَتِهم بالعذابِ بَعدَ أنْ كان مَحْجوزًا عنه؛ شُبِّهَت هَيئةُ إصابَتِهم بالعذابِ بَعدَ أنْ كانوا في سَلامةٍ وعافيةٍ بهَيئةِ ناسٍ في بَيتٍ مُغلَقٍ عليهم، ففُتِحَ عليهم بابُ البيتِ مِن عَدُوٍّ مَكروهٍ. أو شُبِّهَت هَيئةُ تَسليطِ العذابِ عليهم بهَيئةِ بابٍ اختُزِنَ فيه العَذابُ، فلمَّا فُتِحَ البابُ انهالَ العَذابُ عليهم(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٠٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث وُصِفَ البابُ هنا بكونِه ﴿ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ دونَ أنْ يُضافَ (باب) إلى (عذاب)، فيُقالُ: (بابَ عذابٍ)، كما قال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]؛ لأنَّ ﴿ذَا عَذَابٖ﴾ يُفِيدُ مِن شِدَّةِ انتِسابِ العذابِ إلى البابِ ما لا تُفِيدُه إضافةُ (بابٍ) إلى (عذابٍ)، ولِيتأتَّى بذلك وَصْفُ (عذاب) بـ ﴿شَدِيدٍ﴾، بخِلافِ قولِه: ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾؛ فقدِ اسْتُغْنِيَ عن وَصْفِه بـ(شديد) بأنَّه مَعمولٌ لِفِعْلِ (صَبَّ) الدَّالِّ على الوَفرةِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٢).

الآيات (٧٨-٨٣)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذَرَأَكُمْ﴾: أي: أنشَأكُم، وبثَّكُم، وخلَقَكُم، وأصْلُ (ذرأ): كالشَّيءِ يُبذَرُ ويُزرَعُ[1].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يمتنُّ اللهُ تعالى على عبادِه بأنَّه هو الَّذي أنشَأَ لهم السَّمعَ الذي به يسمعونَ، والأبصارَ التي بها يبصرونَ، والقلوبَ التي بها يعقلونَ، لكِنَّهم لا يشْكُرونَ اللهَ إلَّا شُكرًا قَليلًا.

ويخبرُ أيضًا أنَّه هو الَّذي خلَقَهم وبثَّهم في الأرضِ، وإليه وَحْدَه يُجمَعونَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

يومَ القيامةِ للحِسابِ، وأنَّه هو وحْدَه الَّذي يُحيي ويُميتُ، وله اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، فهما يتعاقبانِ بقدرتِه؛ أفليس لهم عقولٌ يُدركونَ بها ذلك؟!

لكِنْ هؤلاء الكفَّارُ لا يعقِلونَ تلك الأدلَّةَ، بل أنكروا البَعثَ، فقالوا مِثلَ ما قال أسْلافُهم المنكِرونَ له؛ قالوا: إذا مِتْنا وصِرْنا ترابًا وعظامًا في قبورِنا هل نُبعثُ بعد ذلك؟! هذا لا يكونُ أبدًا، لقد وُعِدَ آباؤُنا بمِثْلِ هذا مِن قَبْلُ، كما وُعِدْنا نحنُ به الآنَ، لكن لم نَرَ لهذا الوعدِ حقيقةً، ما هذا البعثُ الذي وُعِدنا به إلَّا أكاذيبُ الأوَّلينَ ورواياتُهم المختلقةُ الَّتي سَطَّروها مِنْ عندِ أنفُسِهم في كتُبِهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

بعدَ أنْ ذكَر سبحانَه إعراضَ المشركينَ عن سماعِ الأدلَّةِ، ورؤيةِ العِبَرِ والتأمُّلِ في الحقائقِ- أردفَ ذلك الامتِنانَ على عبادِه بأنَّه قد أعطاهم الحواسَّ؛ مِن السمعِ والبصرِ وغيرِهما، ووفَّقهم لاستعمالِها، وكان مِن حقِّهم أن يَسْتفيدوا بها؛ لِيَستبينَ لهم الرُّشدُ مِن الغيِّ، لكنَّها لم تُغْنِ عنهم شيئًا، فكأنَّهم فقَدوها، كما قال: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[١] [الأحقاف: ٢٦].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي أوجَدَ لكم[٢] السَّمعَ الَّذي تَسمَعونَ به، والأبصارَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ٤٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٩).

(٢) قيل: الخطابُ للمُكذِّبينَ بالبعثِ. وممن قال به: ابنُ جرير، ومكِّي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((الهداية)) لمكِّي (٧/ ٤٩٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩٩). =

الَّتي تُبصِرونَ بها، والقُلوبَ الَّتي تَعقِلونَ بها، فتَنتَفِعونَ بها في مَصالحِ دِينِكم ودُنياكم[1].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾.

أي: لا تَشْكُرونَ اللهَ إلَّا شُكرًا قَليلًا على ما أنْعَمَ به عليكم[2].

= وقيل: الخطابُ للمؤمنينَ. وممن قال به: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٩).
وقيلَ: الخطابُ لِعُمومِ العِبادِ. اختاره أبو حيان، وهو ظاهرُ عبارةِ ابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٤).
قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: واللهُ الذي أحدَث لكم -أيُّها المكذِّبون بالبعثِ بعدَ المماتِ- السمعَ الذي تسمعونَ به، والأبصارَ التي تُبصرونَ بها، والأفئدةَ التي تفقهونَ بها؛ فكيفَ يتعذَّرُ على مَن أنشأَ ذلك ابتداءً إعادتُه بعدَ عدمِه وفقْدِه، وهو الذي يُوجِدُ ذلك كلَّه إذا شاء، ويُفنيه إذا أراد؟!) ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦).
وقال ابنُ كثير: (ذكر تعالى نعمتَه على عبادِه في أن جعَل لهم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، وهي العقولُ والفهومُ التي يُدركونَ بها الأشياءَ، ويَعتبرونَ بما في الكونِ مِن الآياتِ الدالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وأنَّه الفاعلُ المختارُ لِما يشاءُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٦).
قال ابنُ عاشور: (إنْ كان الخِطابُ للمُشرِكينَ فالشُّكرُ مُرادٌ به التَّوحيدُ، أي: فالشُّكرُ الصَّادِرُ منكم قَليلٌ بالنِّسبةِ إلى تَشريكِكم غيرَه معه في العِبادةِ. وإنْ كان الخِطابُ لجميعِ النَّاسِ فالشُّكرُ عامٌّ في كلِّ شُكرِ نِعْمةٍ، وهو قليلٌ بالنِّسبةِ لقِلَّةِ عَددِ الشَّاكرينَ؛ لأنَّ أكثَرَ النَّاسِ مُشرِكونَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. وإنْ كان الخِطابُ للمُسلمينَ والمقصودُ التَّعريضُ بالمشركينَ، فالشُّكرُ عامٌّ، وتَقليلُه تَحريضٌ على الاستِزادةِ منه ونبْذِ الشِّركِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٤).
ممن اختار أن المراد أنهم يشكرون شكرًا قليلًا: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، وابن =

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي خلَقَكم وبثَّكُم -أيُّها النَّاسُ- بالتَّناسُلِ في سائِرِ جِهاتِ الأرضِ، على اخْتِلافِ أجناسِكم وصِفاتِكم ولُغاتِكم(١).

= جزي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٠٠).

قال الشِّنقيطي: (قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ نَعتٌ لمَصدرٍ، أي: تَشكُرونَ شُكرًا قليلًا. و «ما» تأكيدٌ للقِلَّةِ، ولفظةُ «ما» تأتي لتأكيدِ النَّكِرةِ في قِلَّتِها وحقارتِها. قال بعضُ العُلَماءِ: لا يخلو أحدٌ مِنْ شُكْرٍ في الجُملةِ إلَّا أنَّه شُكرٌ قَليلٌ، والشُّكرُ القَليلُ لا يفيدُ؛ لأنَّ مَن عَمِلَ ببَعضِ الكِتابِ وتَرَكَ أكثَرَه كمَن لم يعمَلْ به، كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وبَعضُ عُلَماءِ التَّفسيرِ يقولون: إنَّ القرآنَ تُطلَقُ فيه القِلَّةُ ويُرادُ العَدَمُ، والمرادُ: لا تَشكُرونَ النِّعمةَ أصلًا؛ لأنَّ المفرِّطَ المُستَعمِلَ أغلَبَ نِعَمِ اللهِ فيما يُسخِطُ اللهَ لا يُعَدُّ مِن الشَّاكِرينَ. وهذا التَّفسيرُ مُخالِفٌ لظاهِرِ القُرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ دَلَّ على أنَّ هناك شُكرًا قليلًا، ولا تجوزُ مُخالفةُ ظاهِرِ القُرآنِ إلَّا لدَليلٍ يجِبُ الرُّجوعُ إليه مِن كتابٍ أو سُنَّةٍ، أمَّا استِعمالُ القِلَّةِ في العَدَمِ فهو استِعمالٌ صَحيحٌ في لُغةِ العَرَبِ مَعروفٌ لا شَكَّ فيه بينَ العُلَماءِ.... ولكِنَّ هذا الإطلاقَ وإن كان صَحيحًا في لُغةِ العَرَبِ فظاهِرُ القُرآنِ يُخالِفُه ويدُلُّ على أنَّه لا يخلو إنسانٌ مِن شُكرٍ في الجُملةِ، إلَّا أنَّ الشُّكرَ القَليلَ مع الكُفرِ الكثيرِ لا يَنفَعُ). ((العذب النمير)) (٣/ ١٠٠) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

وقال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرونَ: يريدُ أنَّهم لا يشكرونَ أصلًا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٩).

وممَّن اختار هذا القولَ: السمعانيُّ، والبغوي، والخازن، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُجمَعونَ يومَ القِيامةِ، فيُحْييكم بَعْدَ مَوتِكم لِيُحاسِبَكم ويُجازِيَكم بما عَمِلتُم مِن خَيرٍ وشَرٍّ(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه الَّذي يُحْيي خَلْقَه بنَفخِ الرُّوحِ فيهم، وهو يُمِيتُهم بَعدَ أنْ أحْياهم(٢).

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن الإحياءِ خَلقُ الإيقاظِ، ومِن الإماتةِ خَلقُ النَّومِ،كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] الآيةَ؛ عَطَف على ذلك أنَّ

= كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٦).

بقُدرتِه اختِلافَ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ لِتِلك المُناسَبةِ[1].

وأيضًا لَمَّا كانت حَقيقةُ البَعثِ إيجادَ الشَّيءِ كما هو بَعْدَ إعْدامِه؛ ذَكَّرَهم بأمْرٍ طالَمَا لابَسوهُ وعالَجوهُ ومارسوهُ، فقال[2]:

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

أي: ولله وَحْدَه اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، فهو الذي جعَلَهما يَتناوبانِ ويتعاقبان بقُدرتِه سُبحانَه، فيَذهبُ باللَّيلِ، ويأتي بالنَّهارِ، ثُمَّ يَذهبُ بالنَّهارِ، ويَأْتي باللَّيلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٧).

ممَّن اختار أنَّ الاختلافَ هنا بمعنَى التَّعاقبِ: ابنُ عطية، وأبو حيان، وابنُ كثير، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٧).

وممَّن اختار أنَّ الاختِلافَ هنا في الزِّيادةِ والنُّقصانِ: السمعانيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٥).

قال الماوَرْديُّ: (قَولُه: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فيه قولانِ: أحَدُهما: بالزِّيادةِ والنُّقصانِ. الثاني: تكَرُّرُهما يومًا بعدَ ليلةٍ، وليلةً بعدَ يَومٍ. ويحتَمِلُ ثالثًا: اختِلافُ ما مضى فيهما مِن سَعادةٍ وشَقاءٍ، وضَلالٍ وهُدًى). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٦٤).

وذكر الواحدي أنَّ قولَه: ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فُسِّرَ بتَفسيرينِ يَرجِعانِ إلى أصلٍ واحِدٍ: الأوَّلُ: هو تَعاقُبُهما في الذَّهابِ والمجيءِ. والثَّاني: اختِلافُهما في الطُّولِ والقِصَرِ، والنُّورِ والظُّلمةِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٣).

وقال ابن الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو الذي جعَلَهما مُختَلِفَينِ، يتَعاقَبانِ، ويختَلِفانِ في السَّوادِ والبَياضِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦٩).

وقال النَّسَفي: (﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مَجيءُ أحَدِهما عَقِيبَ الآخَرِ، واختِلافُهما في الظُّلمةِ والنُّورِ، أو في الزِّيادةِ والنُّقصانِ). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفليسَتْ لكم عُقولٌ تُدرِكونَ بها أنَّ الَّذي خلَقَ لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، وذرَأكم في الأرضِ، ويُحْيي ويُميتُ، وله اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ -هو المُستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وأنَّه القادِرُ على بَعْثِكم بَعدَ مَوتِكم[1]؟!

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾.

= قال القرطبي: (﴿... وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: جعْلُهما مُختلفينِ، كقولك: لك الأجرُ والصِّلةُ، أي: إنَّك تُؤجَرُ وتُوصَلُ، قاله الفرَّاء. وقيلَ: اختلافُهما: نُقْصانُ أحدِهما وزيادةُ الآخَرِ. وقِيلَ: اختلافُهما في النُّورِ والظُّلمةِ. وقِيلَ: تكرُّرُهما يومًا بَعدَ ليلةٍ، وليلةً بَعدَ يومٍ. ويَحتمِلُ خامسًا: اختلافُ ما مَضى فيهما مِن سَعادةٍ وشَقاءٍ، وضلالٍ وهُدًى). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٤٠).

وقال البقاعي: (﴿وَلَهُ﴾ أي: وَحْدَه لا لِغَيرِه ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: التصَرُّفُ فيهما على هذا الوَجهِ، يُوجِدُ كلًّا منهما بعدَ أن أعدَمَه، كما كانا سواءً؛ فدلَّ تعاقبُهما على تغَيُّرِهما، وتغيُّرُهما بذلك وبالزِّيادةِ والنَّقصِ على أنَّ لهما مُغَيِّرًا لا يتغَيَّرُ، وأنَّه لا فِعلَ لهما، وإنَّما الفِعلُ له وَحْدَه، وأنَّه قادِرٌ على إعادةِ المعدومِ كما قَدَر على ابتدائِه بما دلَّ على قُدرتِه، وبهذا الدَّليلِ الشُّهوديِّ للجاحِدينَ؛ ولذلك ختَمَه بقولِه مُنكرًا تَسبيبَ ذلك لعَدَمِ عَقلِهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: يكونُ لكم عُقولٌ؛ لتَعرِفوا ذلك فتَعمَلوا بما تَقتَضيه مِن اعتقادِ البَعثِ الذي يُوجِبُ سُلوكَ الصِّراطِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أوضَحَ اللهُ سُبحانَه القولَ في دَلائلِ التَّوحيدِ؛ عقَّبَه بذِكْرِ المَعادِ، فقال: ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ في إنْكارِ البَعثِ مع وُضوحِ الدَّلائلِ[1].

﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

أي: هم لا يَعقِلونَ تلك الأدِلَّةَ والحُجَجَ، ولا يَعتَبِرونَ بها، ولكنَّهم يقولونَ بإنكارِ البَعثِ بَعدَ الموتِ، كما قال أسلافُهم المُكذِّبون به[2]!

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

أي: قالوا: أإذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا في قُبورِنا، أإنَّا لَمُعادونَ بَعدَ ذلك أحياءً؟! ذلك أمْرٌ لا يُعقَلُ، ولا يكونُ أبدًا[3]!

كما قال تعالى: ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٧-٤٨].

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾.

أي: لقد سبَقَ أنْ وُعِدَ آباؤُنا[4] مِن قَبْلِنا بالبَعثِ، كما وُعِدْنا نحنُ به، ولم نَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧).

(٤) قال ابن عطية: (وقولهم ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ إن حكَى المقالةَ عن العربِ فمرادُهم مَن سلَف مِن العالمِ، جعلوهم آباءً مِن حيثُ النوعُ واحدٌ، وإن حكَى ذلك عن الأوَّلينَ فالأمرُ مستقيمٌ فيهم). ((تفسير =

له حَقيقةً[١].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: ما هذا البَعثُ الَّذي وُعِدْنا به إلَّا أخبارٌ باطِلةٌ، وقَصَصٌ وأحاديثُ خُرافيَّةٌ، ورِواياتٌ مُخْتَلَقةٌ لا صِحَّةَ لها، سطَّرَها الأوَّلونَ في كُتُبِهم؛ بقَصدِ المُسامَرةِ والتَّلهِّي بها[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فذَكَر أنَّه قد جعَلَ لهم ما يُدرِكونَ به المسموعاتِ والمُبصَراتِ والمعقولاتِ؛ إيضاحًا للحُجَّةِ، وقَطعًا للمَعذِرةِ، وذمًّا لهم على عدَمِ شُكرِ نِعَمِ اللهِ؛ ولهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فيه ثلاثةُ مَعانٍ: أحدُها: إظهارُ النِّعمةِ. وثانيها: مُطالَبةُ العبادِ بالشُّكرِ عليها. وثالِثُها: الشِّكايةُ أنَّ الشَّاكِرَ قَليلٌ[٤]، والشُّكرُ هو القيامُ بطاعةِ المُنعِمِ إقرارًا بالقَلبِ، واعترافًا باللِّسانِ، وعَمَلًا بالأركانِ، فيَعتَرِفُ بقَلبِه أنَّها مِن اللهِ، كذلك أيضًا

= ابن عطية)) (٤/ ١٥٣).

وقال الشنقيطي: (والظَّاهِرُ أنَّهم يَعْنُونَ أجدادَهم، الَّذينَ جاءَتهم الرُّسلُ، وأخْبَرتْهم بأنَّهم يُبْعَثونَ بعدَ الموتِ للحسابِ والجزاءِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٣٠).

يتحَدَّثُ بها بلِسانِه اعترافًا لا افتِخارًا، وكذلك أيضًا يقومُ بطاعةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بجَوارِحِه؛ وبهذه الأركانِ الثَّلاثةِ يكونُ الشُّكرُ(١).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ مَن لم يُعمِلْ هذه الأعضاءَ فيما خلَقَهُ اللهُ تعالى، وتدبَّرَ ما أودعَه فيها مِن الدَّلائلِ على وَحدانيَّتِه وباهِرِ قُدرتِه: فهو كعادِمِ هذه الأعضاءِ(٢).

٢- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ هذه الأعضاءُ الثَّلاثةُ هي أمَّهاتُ ما يُنالُ به العِلمُ ويُدرَكُ، أعني العِلمَ الذي يمتازُ به البَشَرُ عن سائرِ الحيواناتِ دونَ ما يُشارِكُها فيه مِنَ الشَّمِّ والذَّوقِ واللَّمسِ، وهنا يُدرِكُ به ما يُحِبُّ ويَكرَهُ، وما يمَيِّزُ به بينَ مَن يُحسِنُ إليه ومَن يُسيءُ إليه، إلى غيرِ ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، وقال: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧]، وقال فيما لكُلِّ عُضوٍ مِن هذه الأعضاءِ مِن العَمَلِ والقُوَّةِ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾(٣) [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣٠٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

- هذا رُجوعٌ إلى غَرَضِ الاستدلالِ على انفِرادِ اللهِ تعالى بصِفاتِ الإلهيَّةِ، والامتنانِ بما منَحَ النَّاسَ مِن نِعمةٍ؛ لعلَّهم يَشكُرون بتَخصيصِه بالعِبادةِ، وذلك قدِ انتقَلَ عنه مِن قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]؛ فانتقَلَ إلى الاعتبارِ بآيةِ فُلكِ نُوحٍ عليه السَّلامُ، فأتْبَعَ بالاعتبارِ بقَصصِ أقوامِ الرُّسلِ عقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]؛ فالجُملةُ إمَّا مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ [المؤمنون: ٢١]، والغرَضُ واحدٌ، وما بيْنَهما انتقالاتٌ، وإمَّا مُستأْنَفةٌ؛ رُجوعًا إلى غرَضِ الاستدلالِ والامتِنانِ. وفي هذا الانتِقالِ مِن أُسلوبٍ إلى أُسلوبٍ، ثمَّ الرُّجوعِ إلى الغرَضِ: تَجديدٌ لِنَشاطِ الذِّهنِ، وتَحريكٌ للإصغاءِ إلى الكلامِ[1].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ خَصَّ السَّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّه يَتعلَّقُ بها مِن المنافِعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ما لا يَتعلَّقُ بغَيرِها؛ مِن إعمالِ السَّمعِ والبصَرِ في آياتِ اللهِ، والاستِدلالِ بفِكْرِ القَلْبِ على وَحدانيَّةِ اللهِ وصِفاتِه[2].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ ...﴾ لَمَّا عَبَدوا غيرَه نُزِّلُوا مَنزِلةَ مَن جَهِلَ أنَّه الَّذي أنشَأَ لهم السَّمعَ، فأتَى لهم بكَلامٍ مُفيدٍ لقَصرِ القَلبِ أو الإفرادِ، أي: اللهُ الَّذي أنشَأَ ذلك دونَ أصنامِكم. والخِطابُ للمُشرِكين على طَريقةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٠).

الالْتِفاتِ، أو لِجَميعِ النَّاسِ، أو للمُسلِمينَ، والمقصودُ منه التَّعريضُ بالمُشرِكين[١].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ جمَعَ الأبصارَ والأفئدةَ باعتبارِ تَعدُّدِ أصحابِها. وأمَّا إفرادُ السَّمعِ: فجَرَى على الأصْلِ في إفرادِ المصدرِ؛ لأنَّ أصلَ السَّمعِ أنَّه مَصدرٌ. وقيل: الجَمعُ باعتبارِ المُتعلِّقاتِ؛ فلمَّا كان البصرُ يَتعلَّقُ بأنواعٍ كثيرةٍ مِن المَوجوداتِ، وكانت العُقولُ تُدرِكُ أجناسًا وأنواعًا؛ جُمِعَا بهذا الاعتبارِ، وأُفْرِدَ السَّمعُ؛ لأنَّه لا يَتعلَّقُ إلَّا بنَوعٍ واحدٍ، وهو الأصواتُ[٢]. وقيل: لعلَّهَ جمَعَ الأبصارَ؛ لأنَّ التَّفاوُتَ فيها أكثَرُ مِنَ التَّفاوُتِ في السَّمعِ، وجمَعَ (فُؤاد) -وهو القَلْبُ-؛ لِتَوقُّدِه وتَحرُّقِه، مِنَ (التَّفؤُّدِ) وهو التَّحرُّقُ، ولعلَّهَ جمَعَ الأبصارَ كذلك؛ لاحتِمالِها للبصيرةِ[٣].

- و(ما) في قولِه: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ صِلةٌ؛ للتَّأكيدِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فيه مِن مُحسِّناتِ البَلاغةِ: الطِّباقُ؛ حيثُ قُوبِلَ الذَّرْءُ بضِدِّهِ، وهو الحَشرُ والجَمعُ؛ فإنَّ الحشرَ يَجمَعُ كلَّ مَن كان على الأرضِ مِن البشَرِ، والمقصودُ مِن هذه المُقابَلةِ الرَّدُّ على مُنكِري البَعثِ؛ فتَقديمُ المجرورِ في (إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) تَعريضٌ بالتَّهديدِ بأنَّهم مَحشورونَ إلى اللهِ، فهو يُجازِيهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٣٦، ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٢، ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٥).

- وتقديمُ المعمولِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للاهتِمامِ، والرِّعايةِ على الفاصلةِ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أعقَبَ ذِكْرَ الحَشرِ بذِكْرِ الإحياءِ؛ لأنَّ البعثَ إحياءٌ؛ إدْماجًا للاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ في الاستِدلالِ على عُمومِ التَّصرُّفِ في العالَمِ. وأمَّا ذِكْرُ الإماتةِ فلِمُناسَبةِ التَّضادِّ، ولأنَّ فيها دَلالةً على عَظيمِ القُدرةِ والقَهرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ؛ للقَصرِ، أي: له اختلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ لا لغَيرِه، أي: فغَيرُه لا تَحِقُّ له الإلهيَّةُ[٣].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، وهذا تَذييلٌ راجِعٌ إلى قولِه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وما بَعْدَه[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ هذا إدْماجٌ لِذِكْرِ أصْلٍ آخَرَ مِن أُصولِ الشِّركِ، وهو إحالةُ البَعثِ بَعدَ الموتِ[٥].

- قولُه: ﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ عَطْفٌ على مُضْمَرٍ يَقْتضيهِ المَقامُ، أي: فلَمْ يَعقِلُوا، بلْ قالُوا؛ ففيه إيجازٌ بالحَذفِ[٦]. وقيل: ﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ إبطالًا لكونِهم يَعقلونَ، وإثباتًا لإنكارِهم البَعْثَ مع بَيانِ ما بَعثَهم على إنكارِه، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٠٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧).

تقليدُ الآباءِ[١].

- وفي قولِه: ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الْتِفاتٌ من الخِطابِ في ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ إلى الغَيبةِ ﴿ بَلْ قَالُواْ ﴾؛ لأنَّ الكلامَ انتقَلَ مِن التَّقريعِ والتَّهديدِ إلى حِكايةِ ضَلالِهم؛ فناسَبَ هذا الانتقالَ مَقامُ الغَيبةِ؛ لِمَا في الغَيبةِ مِن الإبعادِ[٢]؛ وللإيذانِ بالغضَبِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ تَفسيرٌ لِمَا قَبلَه مِن المُبْهَم، وتَفصيلٌ لِمَا فيه مِن الإجمالِ[٤]. وفيه الجَمعُ بيْن ذِكْرِ الموتِ والكونِ تُرابًا وعِظامًا؛ لقَصدِ تَقْويةِ الإنكارِ بتَفظيعِ إخبارِ القُرآنِ بوُقوعِ البَعثِ[٥].

- وجُملةُ: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا ﴾ إلخ، بدَلٌ مُطابِقٌ مِن جُملةِ ﴿قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾؛ تَفصيلٌ لإجمالِ المُماثَلةِ. ويجوزُ جَعْلُ ﴿قَالُواْ ﴾ الثَّاني استِئنافًا بَيانيًّا لِبَيانِ ما قال الأوَّلونَ، والمعنى واحدٌ على التَّقديرينِ. وعلى كِلَا الوَجْهينِ: فإعادةُ فِعْلِ (قالوا) مِن قَبِيلِ إعادةِ الَّذي عَمِلَ في المُبدَلِ منه. ونُكْتَتُه هنا: التَّعجُّبُ مِن هذا القولِ[٦].

- قولُه: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ الاستِفهامُ إنكاريٌّ، مفيدٌ لكمالِ الاستِبعادِ والاستِنكارِ للبعثِ بعدَ ما آل الحالُ إلى هذا المآلِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٣٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٧).

- وذِكْرُ حَرفِ (إنَّ) في قولِهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ المقصودُ منه: حِكايةُ دَعوى البَعثِ بأنَّ الرَّسولَ الَّذي يَدَّعيها بتَحقيقٍ وتَوكيدٍ مع كَونِها شَديدةَ الاستِحالةِ؛ ففي حِكايةِ تَوكيدِ مُدَّعِيها زِيادةٌ في تَفظيعِ الدَّعوى في وَهْمِهم[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ، وتَقويةٌ له[٢]. ووَجْهُ ذِكرِ الآباءِ: دَفْعُ ما عَسَى أنْ يَقولَ لهم قائلٌ: إنَّكم تُبْعَثون قبْلَ أنْ تَصيروا تُرابًا وعِظامًا، فأعَدُّوا الجوابَ بأنَّ الوعْدَ بالبَعثِ لم يكُنْ مُقتصِرًا عليهم، فيَقَعوا في شَكٍّ باحتِمالِ وُقوعِه بهم بَعدَ مَوتِهم وقبْلَ فَناءِ أجسامِهم، بلْ ذلك وَعدٌ قَديمٌ وُعِدَ به آباؤُهم الأوَّلونَ، وقد مضَتْ أزمانٌ، وشُوهِدَتْ رُفاتُهم في أجْداثِهم، وما بُعِثَ أحدٌ منهم[٣].

- وجُملةُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن القولِ الأوَّلِ، مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لجوابِ سُؤالٍ يُثيرُه قولُهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾؛ وهو أنْ يقولَ سائلٌ: فكيفَ تمالَأَ على هذه الدَّعوى العدَدُ مِن الدُّعاةِ في عُصورٍ مُختلفةٍ مع تَحقُّقِهم عدَمَ وُقوعِه؟ فيُجيبون بأنَّ هذا الشَّيءَ تَلقَّفوهُ عن بَعضِ الأوَّلينَ، فتَناقَلُوه[٤].

- والقَصرُ في قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قَصرٌ إضافيٌّ[٥]، لا يَعْدو كَونَه مِن الأساطيرِ إلى كَونِه واقعًا كما زعَمَ المُدَّعون[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٨).

- وفي قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عُدولٌ عن الإضمارِ إلى اسمِ الإشارةِ، حيثُ لم يقُلْ: (إنَّه)؛ لقَصدِ زِيادةِ تَمييزِه؛ تَشهيرًا بخَطَئِه في زَعْمِهم[1].

- وفي الآياتِ الثَّلاثةِ السَّابقةِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال تعالى هنا: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقال في سُورةِ (النَّملِ): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٧-٦٨]؛ فهنا في سُورةِ (المُؤمنون) قُدِّمَ تَوكيدُ المُضْمَرِ المرفوعِ بـ ﴿نَحْنُ﴾ وأُخِّرَ المفعولُ، وهو ﴿هَٰذَا﴾، وعُكِسَ ذلك في سُورةِ (النَّملِ)؛ لأنَّه لمَّا كان مَحَطُّ العِنايةِ في هذه السُّورةِ الخلْقَ والإيجادَ والتَّهديدَ لأهْلِ العِنادِ، حكى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ مُقدِّمًا قولَهم: ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ على قولِهم: ﴿هَٰذَا﴾، أي: البعثَ مِن قَبْلُ، بخِلافِ (النَّملِ): فإنَّ محطَّ العِنايةِ فيها الإيمانُ بالآخرةِ؛ فلذلك قُدِّمَ قولُه: ﴿هَٰذَا﴾، والمُرادُ وَعْدُ آبائِهم على ألْسِنةِ مَن أتاهُم مِن الرُّسلِ، غيرَ أنَّ الإخبارَ بشُمولِه جَعَلَه وعْدًا للكلِّ على حَدٍّ سَواءٍ[2].

وقيل: لَمَّا تقدَّمَ قبلَ آيةِ (المُؤمنون) قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، فتقدَّمَ التَّعريفُ في هذه الآيةِ أنَّ آباءَهم قد جاءتهم الرُّسلُ، وأُنْذِروا كما أُنْذِرَ هؤلاء؛ لهذا قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، ولمَّا لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٥).

يَتقدَّمْ في آيةِ (النَّملِ) ذِكْرُ إنذارِ آبائِهم، كان أهمُّ شَيءٍ ذِكْرَ الموعودِ به الَّذي هو (هذا)، فقالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾[1] [النمل: ٦٨]. وقيل غيرُ ذلك[2].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٤٣، ٩٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٤، ١٨٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروابادي (١/ ٣٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩١، ٣٩٢).

الآيات (٨٤-٩٢)

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مَلَكُوتُ﴾: الملكوتُ: المُلْكُ، زِيدَتْ فيه الواوُ والتَّاءُ للمبالغةِ، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ[١].

﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾:أي: يمنعُ ويغيثُ مَن يشاءُ ممن يشاءُ، ولا يمنعُ منه أحدٌ؛ يُقالُ: أجرْتُ فلانًا: إذا حمْيتَه، وأجرتُ على فلانٍ: إذا حميتَ عنه، أو: يؤمِّنُ مَن أخافَه غيرُه، ومَن أخافه هو لم يؤمِّنْه أحدٌ، مِن الجوارِ بمعنَى التأمينِ[٢].

﴿تُسْحَرُونَ﴾: أي: تُخْدَعونَ وتُصْرَفون، وأصلُ (سحر): يدلُّ على الخِداعِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((الغريبين)) للهروي (١/ ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢٨/١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

وشِبْهِه[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لِقَومِه المُشرِكينَ المكذِّبينَ بالبعثِ: لِمَن هذه الأرضُ ومَن عليها إن كنتُم تعلمونَ؟ سيقولونَ مجيبينَ: للهِ، قُلْ لهم: أفلَا تَتذكَّرونَ بأنَّ مَن خلَقَ الأرضَ ومَن فيها قادِرٌ على إحياءِ النَّاسِ بَعدَ مَوتِهم؟!

ويأمرُه أن يقولَ لهم: مَن خالقُ السَّمواتِ السَّبْعِ ومدَبِّرُها ومالِكُها، ومَن خالقُ العرشِ العَظيمِ ومدَبِّرُه ومالِكُه؟ سيَقولون: ذلك كلُّه للهِ خالقِ كُلِّ شَيءٍ، فقُلْ لهم: أفلَا تخافونَ عَذابَه؛ وغضَبَه وسخطَه؟! قلْ لهم: مَن بيَدِه مُلْكُ كُلِّ شَيءٍ، ومَن يُغِيثُ مَن يشاء مِن خَلقِه ممَّن يُريدُ به سوءًا أو ضرًّا، ولا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يَحْمِيَ ويَمنَعَ مَن أراد اللهُ به السوءَ والضرَّ، إنْ كنتُم تَعلمونَ ذلك؟ سيَقولونَ: كُلُّ ذلك للهِ، قُلْ لهم: إنِ اعترَفْتُم بذلك فكيف يُخَيَّلُ إليكم الباطِلُ حقًّا، وكيف تُصْرَفونَ عن الحقِّ إلى الباطِلِ؟!

ثم يقولُ تعالى: بلْ أتَيْناهم بالحَقِّ، وإنَّهم لَكاذبونَ في زعمِهم الشَّريكَ والولدَ لله، ودَعْواهم أنَّ البَعثَ غيرُ واقعٍ!

ويخبرُ تعالى أنَّه ما اتَّخذَ سبحانه وتعالى لنَفْسِه ولدًا كما يَزعُمُ النصارى وغيرُهم، ولم يكُنْ معه مِن إلهٍ آخَرَ، فلو كان معه آلهةٌ أخرَى لانفَرَدَ كلُّ إلهٍ بما خلَقَ، ولأرادَ كلُّ إلهٍ أن يعلوَ على الآخَرِ ويقهرَه، مما يستحيلُ معه أن ينتظمَ أمرُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

هذا الكونِ. تَنزَّهَ اللهُ سُبحانَه وتعالى وتقدَّس عمَّا يَصِفُه به هؤلاء المشركونَ، هو وَحْدَه العليمُ بما غاب عن خَلقِه وما شاهَدوهُ، فتَنزَّهَ اللهُ وتقَدَّس عن شركِ المشركينَ، وتعالى عمَّا يصفونَه به من العيوبِ والنقائضِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا اتَّخَذَ المُشرِكون مِن دُونِ اللهِ تعالى آلهةً، ونَسَبوا إليه الولَدَ، نبَّهَهم على فَرْطِ جَهْلِهم بكَونِهم يُقِرُّون بأنَّه تعالى له الأرضُ ومَن فيها مِلْكٌ، وأنَّه رَبُّ العالَمِ العُلويِّ، وأنَّه مالِكُ كلِّ شَيءٍ، وهم مع ذلك يَنْسُبون له الولَدَ، ويتَّخِذونَ له شُركاءَ[1]!

وأيضًا لَمَّا أنكَرَ المُشرِكونَ البَعثَ هذا الإنكارَ المُؤكَّدَ، ونَفَوهُ هذا النَّفيَ المُحتَّمَ؛ أمَرَهُ أنْ يُقرِّرَهم بأشياءَ هُمْ بها مُقِرُّون، ولها عارِفونَ، يَلْزَمُهم مِن تَسليمِها الإقرارُ بالبعثِ قطْعًا، فقال[2]:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ المُكذِّبينَ بالبَعثِ: لِمَن مُلْكُ الأرضِ ومَن فيها مِن الخلْقِ، إنْ كنتُم تَعلَمونَ مَن هو مالِكُ ذلك وخالِقُه[3]؟

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧).

أي: سيقولُ المُشرِكونَ: الأرضُ ومَن فيها للهِ، فقُلْ لهم حينَ يُجِيبونَك بذلك: أفلَا تتأمَّلونَ وتتفكَّرونَ، فتتذكَّرونَ ما هو مَعلومٌ عندَكم، ومُستَقِرٌّ في فِطَرِكم؛ مِن أنَّ الَّذي قدَرَ على خلْقِ ذلك كُلِّه هو المُستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه، فتُخلِصونَ له، وتَعلَمونَ قُدْرتَه على بَعثِ خَلقِه أحياءً يومَ القيامةِ[(١)]؟!

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لمَّا ذكَّرَهم اللهُ تعالى بالعالَمِ السُّفليِّ لِقُرْبِه؛ تلاهُ بالعُلويِّ؛ لأنَّه أعظَمُ، فقال على ذلك المِنوالِ مُرَقِّيًا لهم إليه[(٢)]:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لقَومِك: مَن خالِقُ السَّمواتِ السَّبْعِ ومالِكُها ومدَبِّرُها، ومَن خالِقُ العرشِ الكبيرِ الواسِعِ المُحيطِ بجَميعِ المخلوقاتِ ومالِكُه ومدَبِّرُه[(٣)]؟

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: سيَقولُ المُشرِكونَ: ذلك كلُّه للهِ؛ فالسَّمواتُ السَّبْعُ والعَرشُ العظيمُ مِلكٌ للهِ وَحْدَه، فقُلْ لهم حينَ يُجِيبونك بذلك: أفلَا تتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وغضَبَه وعذابَه، والحالُ أنَّه كامِلُ القُدرةِ، عظيمُ السُّلطانِ، فتَتوبونَ مِن شِرْكِكم به،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧).

ووَصْفِكم له بما لا يَلِيقُ به سُبحانَه، وتكذيبِكم رسولَه[١]؟!

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّرَهم بالعالَمينِ: العُلويِّ والسُّفليِّ، أمَرَهُ بأنْ يُقرِّرَهم بما هو أعَمُّ منهما وأعظَمُ، فقال[٢]:

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ: مَنِ الَّذي بيَدِه مُلكُ كلِّ شَيءٍ في السَّمواتِ والأرضِ، المُتصرِّفُ فيه بقُدرتِه ومَشيئتِه[٣]؟

كما قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وهو الَّذي يَمنَعُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه ممَّن يُريدُ به السُّوءَ والضُّرَّ، ولا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يَمنَعَ السُّوءَ والضُّرَّ عن أحدٍ إذا شاء اللهُ به ذلك، إنْ كنتُم تَعلمونَ عظَمةَ اللهِ، وأنَّه قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، وبيَدِه مَلكوتُ كُلِّ شَيءٍ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٧، ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٠)، ((السراج المنير)) للخطيب الشربيني (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٨)، =

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

أي: سيقولُ المُشرِكون: ذلك كُلُّه للهِ؛ فالمالِكُ لكُلِّ شَيءٍ الَّذي يُجِيرُ ولا يُجارُ عليه هو اللهُ، وهو المُختَصُّ بذلك وَحْدَه، فقُلْ لهم حين يُجيبونَك بذلك: فكيف يُخَيَّلُ إليكم الباطِلُ حقًّا، فتُخْدَعونَ وتُصْرَفونَ عن اتِّباعِ الحَقِّ، وتَذهَبُ عُقولُكم مع ظُهورِه؛ فلا تُوحِّدونَه سُبحانَه في عِبادتِه، ولا تُؤمِنونَ بقُدرتِه على بَعثِكم أحياءً بَعدَ مَوتِكم[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

أي: بلْ[2] ....

= ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٩، ٣٥٠).

قال القُرطبيُّ: (قيلَ: هذا في الدُّنيا، أي: مَن أراد اللهُ إهْلاكَه وخوْفَه لم يَمْنَعْه منه مانعٌ، ومَن أراد نَصْرَه وأمْنَه لم يَدْفَعْه مِن نَصْرِه وأمْنِه دافِعٌ. وقيلَ: هذا في الآخرةِ، أي: لا يَمْنَعُه مِن مُستحَقِّ الثَّوابِ مانعٌ، ولا يَدفَعُه عن مُستوجَبِ العذابِ دافِعٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٠، ١٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٠).

(٢) قال ابنُ جرير: (يقولُ: ما الأمرُ كما يزعمُ هؤلاء المشركونَ بالله مِن أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وأنَّ الآلهةَ والأصنامَ آلهةٌ دونَ الله). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١).

وقال البقاعي: (ولمَّا كان الإنكارُ بمعنَى النفيِ، حسُن قولُه: ﴿بَلْ﴾، أي: ليس الأمرُ كما يقولونَ، لم نأتِهم بسِحرٍ ﴿بَلْ﴾. أو يكونُ المعنى: ليس هو أساطيرَ، ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم﴾). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٧٩).
=

أَتَيْناهم بالحقِّ(١)، وإنَّ المُشرِكينَ لَكاذِبونَ في دَعْواهم الشَّريكَ والولَدَ للهِ سُبحانَه، ونَفْيِهم البَعثَ(٢).

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾.

= وقال ابنُ عاشورٍ: (إضرابٌ لإبطالِ أن يكونوا مَسْحورينَ، أي: بل ليس الأمرُ كما خُيِّلَ إليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٢).

(١) ممن اختار أنَّ المرادَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: التوحيدُ: مقاتلُ بن سليمان، والرسعني، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١).

وممن اختار أنَّ المرادَ به القرآنُ: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، والواحدي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤١٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٨).

وقيل: المرادُ: بالتوحيدِ والقرآنِ. وممَّن اختاره: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧٠).

وقال ابن جرير: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾ اليقينِ، وهو الدِّينُ الَّذي ابْتَعَث اللَّهُ به نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك الإسلامُ، ولا يُعبَدُ شيءٌ سِوَى اللهِ؛ لأنَّه لا إلهَ غيرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: المرادُ: بالتوحيدِ والوعدِ بالبعثِ. وممن ذهب إليه: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ به: الصدقُ: السمعانيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٨٩).

قال الشوكاني: (﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الأمرِ الواضحِ الَّذي يَحِقُّ اتِّباعُه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أثبَتَ لِنفْسِه الإلهيَّةَ بالدَّلائلِ الإلزاميَّةِ في الآياتِ المُتقدِّمةِ، نفَى عنْ نفسِه الأندادَ والأضْدادَ بقولِه[١]:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾.

أي: ما اتَّخذ اللهُ لنَفْسِه -تعالى- ولدًا كما يَزْعُمُ النَّصارى ومُشرِكو العَرَبِ وغَيرُهم[٢].

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

أي: ولم يكُنْ مع اللهِ شَريكٌ يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ معه[٣].

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

أي: لو كان مع اللهِ آلهةٌ أُخرى، لَاعتزَلَ كلُّ إلهٍ بما يَخْلُقُ وانفرَدَ بتَدبيرِه؛ فلا تَنتَظِمُ شُؤونُ الكونِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤).

قال ابنُ جرير: (ولا كان معه في القديمِ، ولا حِين ابتَدَع الأشياءَ مَن تصلُحُ عبادتُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

قال السِّعدي: (اعتبِرْ ذلك بالشَّمسِ والقمرِ، والكواكبِ الثابتةِ، والسَّيَّارةِ؛ فإنَّها منذ خُلِقَت وهي تَجْري على نِظامٍ واحدٍ، وترتيبٍ واحدٍ، كُلُّها مُسخَّرةٌ بالقُدرةِ، مُدَبَّرةٌ بالحكمةِ لمصالحِ الخَلقِ كُلِّهم، ليست مَقْصورةً على مَصلحةِ أحدٍ دونَ أحدٍ، ولنْ ترى فيها خللًا ولا تناقُضًا، ولا =

كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: ولَطَلَبَ كلُّ إلهٍ أنْ يعلُوَ على غيرِه مِن الآلهةِ ويَقهَرَه، فيَغلِبُ القويُّ منهم الضَّعيفَ، ومع هذا التَّمانُعِ والتَّصارُعِ بيْنَ الآلهةِ لا يُمكِنُ وُجودُ العالَمِ، ولا يُمكِنُ أنْ ينتَظِمَ هذا الانتِظامَ العَجيبَ المُتَّسِقَ[1].

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

مُناسبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا طابَقَ الدَّليلُ الإلزامَ على نَفْيِ الشَّريكِ؛ نزَّهَ نفْسَه الشَّريفةَ بما هو نَتيجةُ ذلك بقولِه[2]:

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أي: تنزَّهَ اللهُ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ مِن اتِّخاذِ الولَدِ، ووُجودِ الشَّريكِ[3].

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٩٢﴾.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

= مُعارضةً في أدنى تصَرُّفٍ، فهل يُتصَوَّرُ أنْ يكونَ ذلك تَقديرَ إلهينِ ربَّينِ؟!) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١).

أي: عالِمِ ما غابَ عن خَلقِه مِمَّا لم يُشاهِدوه، وعالِمِ ما يَرَونَه ويُشاهِدونَه؛ فلا يَخْفى عليه السِّرُّ ولا العَلانيةُ(١).

﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: فارتفَعَ اللهُ وتنَزَّهَ عن شِركِ المُشرِكينَ، وما يَصِفونَه به مِن العُيوبِ والنَّقائِصِ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ معناهُ التَّرغيبُ في التَّدبُرِ؛ لِيَعْلَموا بُطلانَ ما هم عليه(٣).

٢- قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

قال ابنُ جرير: (إنَّما هذا مِن الله خبرٌ عن هؤلاء الذين قالوا مِن المشركين: اتَّخذ الله ولدًا، وعبَدوا مِن دونِه آلهةً، أنَّهم فيما يقولونَ ويفعلونَ مبطلونَ مخطئونَ؛ فإنَّهم يقولونَ ما يقولونَ مِن قولٍ في ذلك عن غيرِ علمٍ، بل عن جهلٍ منهم به؛ وإنَّ العالِمَ بقديمِ الأمورِ، وبحديثِها، وشاهِدِها وغائبِها عنهم، اللهُ الذي لا يخفَى عليه شيءٌ، فخبرُه هو الحقُّ دونَ خبرِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٢).

وقال السعدي: (﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: الذي غاب عن أبصارِنا وعِلمِنا؛ مِن الواجباتِ والمستحيلاتِ والممكناتِ، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو ما نشاهدُ مِن ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٠).

﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾، في هذه الآياتِ دَلالةٌ على جَوازِ مُحاجَّةِ الكُفَّارِ والمُبطِلينَ، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وإظهارُ إبطالِ الباطِلِ مِن قَولِهم ومَذهَبِهم، ووُجوبُ النَّظرِ في الحُجَجِ على مَن خالَفَ دِينَ اللهِ[1].

٣- قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في هاتينِ الآيتَينِ مِن صِفاتِ النَّفيِ: تنزُّهُ اللهِ تعالى عن اتِّخاذِ الوَلَدِ الذي وصَفَه به الكافِرونَ، وعن الشَّريكِ له في الألوهيَّةِ الذي أشرَكَ به المُشرِكونَ، وهذا النَّفيُ لكمالِ غِناه، وكَمالِ رُبوبيَّتِه وإلهيَّتِه، ونَستفيدُ منهما مِن النَّاحيةِ المَسلكيَّةِ: أنَّ الإيمانَ بذلك يَحمِلُ الإنسانَ على الإخلاصِ لله عزَّ وجَلَّ[2].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فالكُفَّارُ المُشرِكونَ مُقِرُّون أنَّ اللهَ خالِقُ السَّمواتِ والأرضَ، وليس في جَميعِ الكُفَّارِ مَن جعَلَ للهِ شَريكًا مُساوِيًا له في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه، هذا لم يَقُلْهُ أحدٌ قطُّ؛ لا مِن المَجوسِ الثَّنويَّةِ[3]، ولا مِن أهْلِ التَّثليثِ، ولا مِن الصَّابئةِ المُشركينَ الَّذين يَعْبُدون الكواكِبَ والملائكةَ، ولا مِن عُبَّادِ الأنبياءِ والصَّالحينَ، ولا مِن عُبَّادِ التَّماثيلِ والقُبورِ وغَيرِهم؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكِّي بن أبي طالب (٧/ ٤٩٩٥).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٦٧).

(٣) الثنويةُ: فِرقةٌ تزعمُ أنَّ النُّورَ والظلمةَ صانعانِ أزليَّانِ قديمانِ، والنورَ منهما فاعلُ الخيراتِ والمنافعِ، والظلامَ فاعلُ الشُّرورِ والمضارِّ، وأنَّ الأجسامَ ممتزجةٌ مِن النُّورِ والظُّلمةِ. يُنظر: ((الفَرْق بين الفِرَق)) للبغدادي (ص: ٢٦٩)، ((المِلَل والنِّحَل)) للشهرستاني (٢/ ٤٩).

جَميعَ هؤلاء -وإنْ كانوا كُفَّارًا مُشركينَ مُتنوِّعينَ في الشِّرْكِ- فهم مُقِرُّونَ بالرَّبِّ الحقِّ الَّذي ليس له مِثْلٌ في ذاتِه وصِفاتِه وجَميعِ أفعالِه، ولكنَّهم مع هذا مُشرِكونَ به في أُلوهيَّتِه؛ بأنْ يَعْبُدوا معه آلهةً أُخرى يَتَّخِذونها شُفعاءَ أو شُركاءَ، أو في رُبوبيَّتِه؛ بأنْ يَجْعَلوا غيرَه ربَّ بَعضِ الكائناتِ دُونَه، مع اعترافِهم بأنَّه ربُّ ذلك الرَّبِّ، وخالِقُ ذلك الخلْقِ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ثمَّ حَكَى عنهم ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، وفي ذلك ما يُوهِمُ التَّعارُضَ؟

الجوابُ: لا تعارُضَ بيْنَ قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وبيْنَ ما حَكَى عنهم مِن قولِهم: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لا يَنْفي عِلْمَهم بذلك، وقد يُقالُ مِثْلُ ذلك في الاحتجاجِ على وَجْهِ التَّأكيدِ لِعلْمِهم[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾، واتِّخاذُ الولَدِ أعَمُّ مِن نَفْيِ الولَدِ؛ فيدُلُّ باللُّزومِ على نَفْيِ الولَدِ[(٣)].

٤- قال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، قُدِّمَتِ النَّتيجةُ على القِياسِ؛ لِتُجْعَلَ هي المطلوبَ؛ فإنَّ النَّتيجةَ والمطلوبَ مُتَّحِدانِ في المعنى، مُختلفانِ بالاعتبارِ؛ فهي باعتبارِ حُصولِها عقِبَ القياسِ تُسمَّى نَتيجةً، وباعتبارِ كَونِها دَعوى مُقامٌ عليها الدَّليلُ -وهو القياسُ- تُسمَّى مَطلوبًا كما في علْمِ المَنطِقِ. ولتَقْديمِها نُكتةٌ: أنَّ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٠، ٥٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٢١٤).

هذا المطلوبَ واضحُ النُّهوضِ، لا يَفتقِرُ إلى دَليلٍ إلَّا لِزيادةِ الاطمئنانِ؛ فقولُه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ هو المطلوب، وقولُه: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ هو الدَّليلُ، وتَقديمُ هذا المَطلوبِ على الدَّليلِ أغْنَى عن التَّصريحِ بالنَّتيجةِ عِقبَ الدَّليلِ[١].

٥- قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ هذا مِن أمْثِلةِ عِلْمِه سُبحانَه بالمُستحيلِ[٢].

٦- قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ذَكَر المُتكلِّمونَ هذا المعنى، وعبَّروا عنه بدليلِ التَّمانُعِ، وهو أنَّه لو فُرِضَ صانِعانِ فصاعِدًا، فأراد واحدٌ تَحريكَ جسمٍ، وأراد الآخَرُ سُكونَه؛ فإنْ لم يَحصُلْ مُرادُ كلِّ واحدٍ منهما كانا عاجزينِ، والواجِبُ لا يكونُ عاجِزًا، ويَمتنعُ اجتماعُ مُرادَيْهما؛ للتَّضادِّ، وما جاء هذا المُحالُ إلَّا مِن فرضِ التَّعدُّدِ، فيكونُ مُحالًا، فأمَّا إنْ حصَل مُرادُ أحدِهما دونَ الآخَرِ، كان الغالبُ هو الواجبَ، والآخرُ المغلوبُ مُمْكِنًا؛ لأنَّه لا يليقُ بصفةِ الواجبِ أنْ يكونَ مقهورًا[٣].

٧- قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فتأمَّلْ هذا البرهانَ الباهرَ بهذا اللفظِ الوجيزِ البيِّنِ، فإنَّ الإلهَ الحقَّ لا بدَّ أنْ يكونَ خالقًا فاعلًا، يُوصلُ إلى عابدِه النفعَ، ويدفعُ عنه الضُّرَّ، فلو كان معه سبحانَه إلهٌ لكان له خلقٌ وفِعلٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٢/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩١). ويُنظر أيضًا: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٩٢-٩٤)، و((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٧٧، ١٧٨).

وحينئذٍ فلا يرضَى بشركةِ الإلهِ الآخَرِ معه، بل إنْ قدَر على قهرِه وتفرُّدِه بالإلهيَّةِ دونَه فعَل، وإن لم يقدِرْ على ذلك انفردَ بخَلقِه، وذهَب به، كما ينفردُ ملوكُ الدُّنيا عن بعضِهم بعضًا بممالكِهم، إذا لم يقدِرِ المنفردُ على قهرِ الآخَرِ، والعلوِّ عليه؛ فلا بدَّ مِن أحدِ أمورٍ ثلاثةٍ: إمَّا أن يذهبَ كلُّ إلهٍ بخَلقِه وسلطانِه. وإمَّا أنْ يعلوَ بعضُهم على بعضٍ. وإمَّا أنْ يكونَ كلُّهم تحتَ قهرِ إلهٍ واحدٍ، ومَلِكٍ واحدٍ، يتصرَّفُ فيهم ولا يتصرَّفونَ فيه، ويمتنِعُ مِن حُكمِهم عليه ولا يمتنعونَ مِن حُكمِه عليهم، فيكون وحْدَه هو الإلهَ الحقَّ، وهم العبيدُ المربوبونَ المقهورونَ. وانتِظامُ أمرِ العالَمِ العلويِّ والسُّفليِّ، وارتباطُ بعضِه ببعضٍ، وجريانُه على نظامٍ مُحكَمٍ لا يختلفُ ولا يفسدُ؛ مِن أدلِّ دليلٍ على أنَّ مدبِّرَه واحدٌ، لا إلهَ غيرُه، كما دلَّ دليلُ التمانعِ على أنَّ خالقَه واحدٌ لا ربَّ له غيرُه، فذاك تمانعٌ في الفعلِ والإيجادِ، وهذا تمانعٌ في العبادةِ والإلهيَّةِ، فكما يستحيلُ أن يكونَ للعالَمِ ربَّانِ خالقانِ متكافئانِ؛ يستحيلُ أن يكونَ له إلهانِ معبودانِ[(١)].

٨- قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ في هذه الآيةِ نفْيُ اتِّخاذِ الولدِ، ونفْيُ تعدُّدِ الآلهةِ، وتنزيهُ الله عمَّا وصَفه به المشركونَ، وهذا يتضمَّنُ مع انتفاءِ ما ذُكِر كمالُ الله، وانفرادُه بما هو مِن خصائصِه[(٢)].

٩- قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ... ﴾ إلى قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ في هذه الآياتِ الدَّلالةُ على أنَّ إنكارَ الحشرِ والبعثِ: أمْرٌ عَظيمٌ، وخَطْبٌ جليلٌ، وأنَّ مُنكِرَه مُعطِّلٌ مُبطِلٌ للذَّاتِ والصِّفاتِ؛

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧٩).

لِتوقُّفِ المُلْكِ -أعني: الأرضَ والسَّمواتِ، والعرشَ ومَلكوتَ كلِّ شَيءٍ- على ذلك، واستتباعِه العِلْمَ بالتَّنزيهِ والتَّوحيدِ والعِلْمِ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ استِئنافُ استِدلالٍ عليهم في إثْباتِ الوَحدانيَّةِ للهِ تعالى. والاستفهامُ تَقريريٌّ، أي: أَجِيبوا عن هذا، والمَقصودُ: إثْباتُ لازِمِ جَوابِهم، وهو انفرادُه تعالى بالوَحدانيَّةِ[(٢)]. وفيه استِهانةٌ بهم، وتَقريرٌ لِفَرطِ جَهالَتِهم حتَّى جَهِلوا مِثْلَ هذا الجَلِيِّ الواضِحِ، إلْزامًا بما لا يُمكِنُ لمَن له مُسكةٌ مِن العِلْمِ إنكارُه؛ ولذلك أخبَرَ عن جَوابِهم قبْلَ أنْ يُجِيبوا، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ العقلَ الصَّريحَ قدِ اضْطَرَّهم بأدْنى نظَرٍ إلى الإقرارِ بأنَّه خالِقُها[(٣)].

- وجاء بـ(مَن) في قولِه: ﴿وَمَن فِيهَآ﴾؛ تَغليبًا للعُقلاءِ على غَيرِهم[(٤)].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ جوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ؛ ثِقةً بدَلالةِ الاستِفهامِ عليه، والتَّقديرُ: فأَجِيبوني عن هذا السُّؤالِ[(٥)]. وفي هذا الشَّرطِ تَوجيهٌ لِعُقولِهم أنْ يتأمَّلوا، فيَظهَرَ لهم أنَّ الأرضَ للهِ، وأنَّ مَن فيها للهِ؛ فإنَّ كونَ جَميعِ ذلك للهِ قد يَخْفى؛ لأنَّ النَّاسَ اعتادُوا نِسبةَ المُسبَّباتِ إلى أسبابِها المُقارِنةِ، والتَّصرُّفاتِ إلى مُباشِريها، فنُبِّهوا بقولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ إلى

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٩).

التَّأمُّلِ، أي: إنْ كُنْتُم تَعلمونَ عِلْمَ اليقينِ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: يُجِيبون عقِبَ التَّأمُّلِ جَوابًا غيرَ بَطِيءٍ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هذا أمْرٌ مُرادٌ منه التَّبكيتُ لهم، أي: قُلْ عندَ اعترافِهم بذلك -تَبْكيتًا لهم-: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2]؟!

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إنكاريٌّ؛ إنكارٌ لِعَدَمِ تَذكُّرِهم بذلك. وخُصَّ بالتَّذكُّرِ؛ لِمَا في بَعضِه مِن خَفاءِ الدَّلالةِ، والاحتياجِ إلى النَّظرِ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ فيه تَكريرُ الأمرِ بالقَولِ، وإنْ كان المَقولُ مُختلِفًا، دونَ أنْ تُعطَفَ جُملةُ ﴿مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ﴾؛ لأنَّها وقَعَتْ في سِياقِ التَّعدادِ؛ فناسَبَ أنْ يُعادَ الأمْرُ بالقَولِ دُونَ الاستِغناءِ بحَرفِ العطفِ. والمَقصودُ وُقوعُ هذه الأسئلةِ مُتتابِعةً؛ دَفْعًا لهم بالحُجَّةِ[4]. ولم يُؤْتَ مع هذا الاستِفهامِ بشَرطِ (إنْ كُنْتُم تَعْلَمونَ) ونَحوِه، كما جاء في سابِقِه؛ لأنَّ انفرادَ اللهِ تعالى بالرُّبوبيَّةِ في السَّمواتِ والعرشِ لا يَشُكُّ فيه المُشرِكونَ؛ لأنَّهم لم يَزْعُموا إلهيَّةَ أصنامِهم في السَّمواتِ والعوالِمِ العُلويَّةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٠٩، ١١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١١١).

- وفي قولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أُعِيدَ الرَّبُّ؛ تَنويهًا لشأْنِ العرشِ، ورَفعًا لِمَحلِّه عن أنْ يكونَ تَبعًا للسَّمواتِ وُجودًا وذِكرًا(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ لَمَّا سُئِلوا بـ(مَن) الَّتي هي للاستفهامِ عن تَعيينِ ذاتِ المُستفهَمِ عنه، كان مُقْتَضى الاستِعمالِ أنْ يكونَ الجَوابُ بذِكْرِ اسمِ ذاتِ المَسؤولِ عنه؛ (سيقولونَ الله)، فكان العُدولُ عن ذلك إلى الجَوابِ عن كَونِ السَّمواتِ السَّبْعِ والعَرشِ مَملوكةً للهِ: عُدولًا إلى جانِبِ المعنَى دونَ اللَّفظِ؛ مُراعاةً لكَونِ المُستفهَمِ عنه لُوحِظَ بوَصفِ الرُّبوبيَّةِ، والرُّبوبيَّةُ تَقْتضي المُلْكَ. وصَوغُ الآيةِ بهذا الأُسلوبِ؛ لِقَصدِ التَّعريضِ بأنَّهم يَحترِزونَ عن أنْ يَقولوا: ربُّ السَّمواتِ السَّبْعِ اللهُ؛ لأنَّهم أثْبَتوا مع اللهِ أربابًا في السَّمواتِ؛ إذ عَبَدوا الملائكةَ، فهم عَدَلُوا عمَّا فيه نَفْيُ الرُّبوبيَّةِ عن مَعْبُوداتِهم، واقْتَصَروا على الإقرارِ بأنَّ السَّمواتِ مِلْكٌ للهِ؛ لأنَّ ذلك لا يُبطِلُ أوهامَ شِرْكِهم مِن أصْلِها؛ ففي حِكايةِ جَوابِهم بهذا اللَّفظِ تَورُّكٌ عليهم؛ ولذلك ذَيَّلَ حِكايةَ جَوابِهم بالإنكارِ عليهم انتفاءَ اتِّقائِهم اللهَ تعالى(٢).

- قولُه: ﴿قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أمْرٌ مُرادٌ منه الإفحامُ لهم والتَّوبيخُ(٣).

- وفي قولِه: ﴿قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ خَصَّ وَعْظَهم عَقِبَ جَوابِهم بالحثِّ على تَقْوى اللهِ؛ لأنَّه لمَّا تبيَّنَ مِن الآيةِ الَّتي قَبلَها أنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الاعترافُ بأنَّ اللهَ مالِكُ الأرضِ ومَن فيها، وعُقِّبَتْ تلك الآيةُ بحَضِّهم على التَّذكُّرِ؛ لِيَظهَرَ لهم أنَّهم عِبادُ اللهِ لا عِبادُ الأصنامِ. وتَبيَّنَ مِن الآيةِ السَّابقةِ أنَّه رَبُّ السَّمواتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨).

-وهي أعظَمُ مِن الأرضِ- وأنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الاعتِرافُ بذلك؛ ناسَبَ حَثُّهم على تَقواهُ؛ لأنَّه يَستحِقُّ الطَّاعةَ له وَحْدَه، وأنْ يُطِيعوا رَسولَهُ(١).

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لتنزيلِ الفِعْلِ مَنزِلةَ القاصِرِ؛ لأنَّه دالٌّ على معنًى خاصٍّ، وهو التَّقوى الشَّامِلةُ لامتِثالِ المأْموراتِ، واجتِنابِ المَنْهيَّاتِ(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ بُنِيَ فِعْلُ ﴿يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ للمَجهولِ؛ لِقَصدِ انتفاءِ الفِعْلِ عن كلِّ فاعلٍ؛ فيُفِيدُ العُمومَ مع الاختصارِ. ولمَّا كان تَصرُّفُ اللهِ هذا خَفِيًّا يَحتاجُ إلى تَدبُّرِ العَقلِ لإدراكِهِ، عُقِّبَ الاستِفهامُ بقولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، كما عُقِّبَ الاستِفهامُ الأوَّلُ بمِثْلِه؛ حَثًّا لهم على عِلْمِه والاهتداءِ إليه، ثمَّ عُقِّبَ بما يدُلُّ على أنَّهم إذا تَدبَّروا عَلِموا، فقيل: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾(٣).

٦- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ تَعجُّبِيٌّ(٤). وفي قولِه: ﴿تُسْحَرُونَ﴾ تَشبيهٌ لِمَا يقَعُ منهم مِن التَّخليطِ ووَضعِ الأفعالِ والأقوالِ غيرَ مَواضِعِها بما يقَعُ مِن المَسحورِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨١).

- وفي التَّذييلاتِ الثَّلاثِ -﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾- ترَقٍّ مِن الأدنى إلى الأغلَظِ في التَّعريضِ، وأنَّها مِن الأُمورِ المُسلَّمةِ؛ لقولِه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[(١)]؛ فقد سُلِكَت في تَرتيبِ هذه الأدِلَّةِ طَريقةُ التَّرقِّي، فابتُدِئَ بالسُّؤالِ عن مالكِ الأرضِ ومَن فيها؛ لأنَّها أقرَبُ العوالِمِ لإدراكِ المُخاطَبينَ، ثمَّ ارْتُقِيَ إلى الاستِدلالِ برُبوبيَّةِ السَّمواتِ والعرشِ، ثمَّ ارْتُقِيَ إلى ما هو أعَمُّ وأشمَلُ، وهو تَصرُّفُه المُطلَقُ في الأشياءِ كلِّها؛ ولذلك اجْتُلِبَت فيه أداةُ العُمومِ وهي (كل)[(٢)].

- وتَكرَّرَ قولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ؛ الأوَّلُ جَوابٌ لقولِه: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ جَوابٌ مُطابِقٌ لَفْظًا ومعنًى؛ لأنَّه قال في السُّؤالِ: ﴿قُل لِّمَنِ﴾، فقال في الجَوابِ: ﴿لِلَّهِ﴾، وأمَّا الثَّاني والثَّالثُ فالمُطابَقةُ فيهما في المعنى. وقُرِئَ الثَّاني والثَّالثُ (اللهُ، اللهُ)[(٣)]؛ مُراعاةً للمُطابَقةِ[(٤)].

- وفي الآياتِ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٣).

(٣) وهي قراءةُ البصريَّينِ: أبي عمرٍو ويعقوبَ؛ بإثباتِ ألفِ الوصلِ قبلَ اللامِ، ورفعِ الهاءِ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ في الآيةِ (٨٧) والآيةِ (٨٩)، وقرأ الباقون: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ بغيرِ ألفٍ وخفضِ الهاءِ. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٥٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٥)، ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٩٨٤، ٩٨٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٥١٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروابادي (١/ ٣٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٢).

لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ إلى قولِه: ﴿قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث خُتِمَ كلُّ سُؤالٍ بما يُناسِبُه؛ فرتَّبَ هذه التَّوبيخاتِ الثَّلاثةَ بالتَّدريجِ؛ فقال أوَّلًا: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، ثمَّ قال ثانيًا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، وذلك أبلَغُ؛ لأنَّ فيه زِيادةَ تَخويفٍ، ثمَّ قال ثالثًا: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾، وفيه مِن التَّوبيخِ ما ليس في غَيرِه؛ فخُتِمَ مُلْكُ الأرضِ ومَن فيها بالتذكُّرِ أي: أفلا تذكَّرونَ فتعلمونَ أنَّ مَن له ملكُ السمواتِ والأرضِ حَقيقٌ ألَّا يُشرَكَ به بَعضُ خَلْقِه -ممَّن في الأرضِ مُلكًا له- في الرُّبوبيَّةِ؟! وخُتِمَ ما بَعدَها بالتَّقوى، وهي أبلَغُ مِن التَّذكُّرِ، وفيها وَعيدٌ شَديدٌ، وخُتِمَ ما بَعْدَ هذه بقولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾؛ مُبالَغةً في التَّوبيخِ بَعدَ إقرارِهم والْتِزامِهم ما يقَعُ عليهم به في الاحتِجاجِ[1].

وقيل: وَجْهُ ذلك: أنَّ هذه الآيَ جاءت بَعْدَما أخبَرَ اللهُ تعالى عن الكُفَّارِ مِن إنكارِ البَعثِ، فأمَرَ نَبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يسألَهم لمَن الأرضُ ومَن فيها؟ فإنَّهم يُقِرُّون أنَّ جميعَ ذلك لِخالِقِها، وهو اللهُ تعالى، فإذا أقَرُّوا بذلك فقُلْ لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؛ فخُصَّتْ بالتَّذكُّرِ؛ لأنَّهم إذا أثْبَتوا الخلْقَ الأوَّلَ لَزِمَهم الخَلْقُ الثَّاني. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ وهذه الأشياءُ مِن أكبَرِ ما يُرى مِن خلْقِ اللهِ تعالى، فإذا أقرَرْتُم للهِ بذلك؛ فلِمَ لا تَجْتَنِبون مَعصِيَتَه، ولا تَتَّقونَ عُقوبتَه. وأمَّا الثَّالثةُ -وهي: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾- فإنَّها جاءت بَعدَ تَقريرٍ ثالثٍ، وهو: ﴿ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ ﴾، أي: مَن الَّذي مُلْكُه على الأشياءِ أتَمُّ مُلْكٍ؛ يَمنَعُ مِن المكروهِ مَن شاء، ولا يَملِكُ أحدٌ مَنْعَ مَن أرادهُ بسُوءٍ؟ فإذا أقَرُّوا بذلك، فقُلْ لهم: كيف

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٦).

تُخْدَعونَ عن عقُولِكم حتَّى تَتَّخِذوا الأوثانَ والأصنامَ آلهةً -وهي لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ- مع القادرِ العليمِ الَّذي قد أقرَرْتُم له بأتَمِّ المُلْكِ؟! وأمَّا قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ أي: مِن أين يأْتِيكم ما يَغلِبُ على عُقولِكم، فيُخيِّلُ الباطلَ إليها حَقًّا، والقَبيحَ عندَها حَسَنًا؟! فهذا الَّذي ختَمَ به الثَّالثةَ ناظِمٌ معناهُ بخواتيمِ ما قَبْلَه، وكلٌّ في مَكانِه اللَّائقِ به(١).

وقيل: وجهُ ذلك: أنَّ تَذكيرَهم ورَدَ أوَّلًا بذِكْرِ ما كانوا يُقِرُّون ولا يَتوقَّفونَ فيه، وهو مُلْكُه سُبحانَه الأرضَ ومَن فيها؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، والخالِقُ مالِكٌ لِمَا خلَقَه، فكأنْ قد قِيلَ لهم: إذا علِمْتُم بانفرادِه سُبحانَه بذلك؛ فهلَّا أفرَدْتُموه بالعِبادةِ، واستدْلَلْتُم بالبَدأةِ على العودةِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟! ثمَّ ذُكِّروا برُبوبيَّتِه سُبحانَه ومُلْكِه السَّمواتِ السَّبْعَ والعرشَ، فاعْتَرَفوا إلى اعترافِهم بما تقدَّمَ وإقرارِهم بمُلْكِه لِمَا ذُكِرَ، وقُدرتِه وقَهْرِه، ولو سبَقَتْ لهم سعادةٌ لكان تذكُّرُهم لذلك يُؤثِّرُ خَوفَهم مِن عَذابِه، فلمَّا لم يقَعْ ذلك منهم، قِيلَ لهم: ﴿قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧]، ثمَّ ذُكِّروا بعَظيمِ سُلطانِه تعالى، وعُلوِّ قَهْرِه لجَميعِ الموجوداتِ، وكَونِها في قَبْضَتِه، وأنَّه لا حُكْمَ لأحدٍ عليه تعالى، فقال: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، ثمَّ ذكَرَ اعتِرافَهم بهذا في قولِه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٩]؛ فلمَّا تمَّ تَقريرُهم على جَميعِ ما تقدَّمَ ممَّا ذُكِّروا به، واعتِرافُهم بكلِّ ذلك، ولم يَعْقُبْ إقرارَهم ولا اعتِرافَهم الإيمانُ والانقيادُ، كانوا كمَن فقَدَ عقْلَه أو سُحِرَ، فاختَلَّ نظَرُه وعقْلُه، فقِيلَ لهم: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾: ما بالُكم كيف تُسحَرُونَ؟! ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٤٦-٩٤٩).

وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢]؛ فوضَح تناسُبُ هذا كلِّه، وتبيَّنَ الْتِحامُه(١).

٧- قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إضرابٌ لإبطالِ أنْ يَكونوا مَسْحُورينَ، أي: بلْ ليس الأمْرُ كما خُيِّلَ إليهم(٢).

- والعُدولُ عن الخِطابِ في قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم﴾: الْتِفاتٌ؛ لأنَّهم المُوجَّهُ إليهم الكلامُ في هذه الجُملةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيه تأْكيدُ نِسْبتِهم إلى الكذِبِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لِتَحقيقِ الخبَرِ(٤).

٨- قولُه تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿مِن وَلَدٍ﴾ و﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ في قولِه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ نَفْيٌ عامٌّ يُفِيدُ استغراقَ الجِنْسِ؛ ولهذا جاء ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ﴾ ولم يأْتِ التَّركيبُ: إذًا لَذهَبَ الإلهُ...(٥)؛ فقولُه: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ استِدلالٌ على امتِناعِ أنْ يكونَ مع اللهِ آلِهةٌ. وإنَّما لم يُستدَلَّ على امتِناعِ أنْ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٧٠، ٣٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨١).

يَتَّخِذَ اللهُ ولدًا؛ لأنَّ الاستِدلالَ على ما بَعْدَه مُغْنٍ عنه؛ لأنَّ ما بَعدَه أعَمُّ منه، وانتفاءُ الأعَمِّ يَقْتضي انتفاءَ الأخصِّ؛ فإنَّه لو كان للهِ ولَدٌ لكان الأولادُ آلِهةً؛ لأنَّ ولَدَ كلِّ مَوجودٍ إنَّما يتكوَّنُ على مِثْلِ ماهيَّةِ أصْلِه[١]. فذَكَر الدَّليلَ على نفْيِ الشَّريكِ، واقتَصَرَ عليه، ولم يَذكُرِ الدَّليلَ على نفْيِ الولدِ؛ لأنَّ الدَّليلَ على نفْيِ الشريكِ يَتضمَّنُ نفْيَ الولدِ؛ وذلك أنَّ الولدَ يُنازِعُ الأبَ في المُلكِ مُنازعةَ الأجانبِ؛ فلو كان للهِ ولدٌ لأظْهرَ المنازعةَ كما يكونُ بينَ الإلَهينِ والمَلِكَينِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ جَوابٌ لِمُحاجَّتِهم، وجَزاءٌ لشَرطٍ مَحذوفٍ؛ لدَلالةِ ما قَبلَه عليه، أي: لو كان معه آلِهَةٌ كما يَزْعُمون لَذَهَبَ...[٣]. وإنَّما حُذِفَ؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ عليه[٤].

- قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لَمَّا اقْتَضى هذا الدَّليلُ بُطلانَ قولِهم، عُقِّبَ الدَّليلُ بتنزيهِ اللهِ تعالى عن أقوالِ المُشرِكين، وهو بمَنزِلةِ نَتيجةِ الدَّليلِ[٥].

٩- قولُه تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أتبَعَ الاستِدلالَ على انتفاءِ الشَّريكِ بقولِه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ المُرادِ به عُمومُ العِلْمِ وإحاطَتُه بكلِّ شَيءٍ -كما أفادَتْهُ لامُ التَّعريفِ في (الغَيْبِ) و(الشَّهَادَةِ) مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٦، ١١٧).

الاستِغراقِ الحقيقيِّ، أي: عالِمِ كلِّ مَغيبٍ وكلِّ ظاهرٍ-: لدَفْعِ تَوهُّمِ أنْ يُقالَ: إنَّ استِقلالَ كلِّ إلهٍ بما خلَقَ قد لا يُفْضِي إلى عُلوِّ بَعضِ الآلهةِ على بَعضٍ؛ لجَوازِ ألَّا يَعلَمَ أحدٌ مِن الآلهةِ بمِقدارِ تَفاوُتِ مَلكوتِه على مَلكوتِ الآخَرِ، فلا يَحصُلُ عُلوُّ بَعضِهم على بَعضٍ؛ لاشتغالِ كلِّ إلَهٍ بمَلكوتِه. ووَجْهُ الدَّفعِ: أنَّ الإلهَ إذا جاز أنْ يكونَ غيرَ خالِقٍ لطائفةٍ مِن المخلوقاتِ الَّتي خلَقَها غيرُه؛ لئلَّا تَتداخَلَ القُدَرُ في مَقدوراتٍ واحدةٍ: لا يَجوزُ أنْ يكونَ غيرَ عالِمٍ بما خلقَه غيرُه؛ لأنَّ صِفاتِ العِلْمِ لا تَتداخَلُ، فإذا عَلِمَ أحدُ الآلهةِ مِقْدارَ مَلكوتِ شُركائِه؛ فالعالِمُ بأشَدِّيَّةِ مَلكوتِه يَعلُو على مَن هو دُونَه في الملكوتِ؛ فظهَرَ أنَّ قولَه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ مِن تَمامِ الاستِدلالِ على انتفاءِ الشُّركاءِ؛ ولذلك فُرِّعَ عنه بالفاءِ قولُه: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٧).

الآيات (٩٢-١٠٠)

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾
وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا
يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ
﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ
إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: أي: نَخساتِهم، وغَمزاتِهم، وطَعَناتِهم، ووساوِسِهم، والهمْزُ: الدَّفْعُ؛ فهَمَزاتُهم: دَفْعُهم بالإغواءِ إلى المعاصي، أو هو دفعٌ بنَخْزٍ وغَمْزٍ يُشبهُ الطَّعنَ، وأصْلُ (همز): يدُلُّ على ضَغطٍ وعصْرٍ[١].

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾: أي: مِن أمامِهم فيما يَستقبلونَ مِن الزَّمانِ، و(وراء) مِن الأضْدادِ، يُقالُ للرَّجل: وراءَك، أي: خلْفَك، ووَراءَك، أي: أمامَك[٢].

﴿بَرۡزَخٌ﴾: البَرزخُ: القَبْرُ، أو ما بيْن الدُّنيا والآخرةِ، وكلُّ حاجزٍ بَيْن شَيْئَيْن فهو بَرزخٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٩)، ((الأضداد)) لابن الأنباري (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) =

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: قُلْ -يا محمَّدُ-: ربِّ إنْ تُرِني العَذابَ الَّذي وعدتَ به هؤلاء المُشرِكينَ، فنَجِّني حِينذاكَ، ولا تجعَلْني في هؤلاء القومِ الظَّالمينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قادِرٌ على أن يُريَه العذابَ الَّذي أعدَّه لهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقابلَ أذاهم بالخَصلةِ التي هي أحسَنُ الخصالِ؛ وأن يصبرَ على أذاهُم، ويبيِّنُ له أنَّه تعالى أعلَمُ بما يَصِفُه هؤلاء المُشرِكونَ مِنَ الشِّركِ والتَّكذيبِ.

ويأمُره كذلك أن يستعيذَ به مِن وَساوسِ الشَّياطينِ، ومِن نَزَغاتِهم المُغريةِ على الباطِلِ، وأن يستجيرَ به مِن حُضورِهم في أيِّ أمْرٍ مِن أُمورِه.

ثمَّ يخبرُ تعالَى عن حالِ المحتضَرينَ مِن المفرِّطينَ الظالمينَ، فإنَّه إذا فاجَأَ أحدَهم الموتُ، ونزَلَت به سكَراتُه، ولاحَتْ لهم علاماتُ العذابِ؛ قال حينَها: ربِّ ارجِعْنى إلى الدُّنيا؛ لكيْ أعملَ عملًا صالحًا أستدرِكُ به ما فرَّطتُ فيه مِن الإيمانِ والطاعاتِ.

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ الأمرَ ليس كما قال هذا الكافرُ النَّادمُ؛ فلن يستجيبَ اللهُ تعالى لهذا الطلبِ، فإنَّ طلبَه هذا مجرَّدُ كَلِمةٍ يقولُها حينَ يأتيه الموتُ، ولا تنفعُه شيئًا؛ ومِن أمامِ هؤلاءِ الموتَى حاجزٌ يَحولُ بيْنهم وبيْن الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، وهذا الحاجِزُ مُستمِرٌّ إلى يومِ البَعثِ والنُّشورِ.

= للكفوي (ص: ٢٢٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما كان عليه الكُفَّارُ مِن ادِّعاءِ الولَدِ والشَّريكِ له، وكان تعالى قد أعلَمَ نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يَنتقِمُ منهم، ولم يُبيِّنْ إذ ذاك هل يقَعُ ذلك في حَياتِه أم بَعْدَ موتِه: أمَرَهُ بأنْ يَدْعوَ بهذا الدُّعاءِ(١).

وأيضًا فإنَّ الآياتِ السَّابقةَ آذنَتْ بأقصى ضَلالِ المُشركينَ، وانتفاءِ عُذْرِهم فيما دانُوا به اللهَ تعالى، وبغَضبِ اللهِ عليهم لذلك، وأنَّهم سواءٌ في ذلك مع الأُمَمِ الَّتي عجَّلَ اللهُ لها العَذابَ في الدُّنيا، وادَّخَرَ لها عذابًا آخَرَ في الآخرةِ؛ فكان ذلك نِذراةً لهم بمِثْلِه، وتَهديدًا بما سيَلْقَونَه، وكان مَثارًا لِخَشيةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَحِلَّ العَذابُ بقَومِه في حَياتِه، والخوفِ مِن هَولِه؛ فلقَّنَ اللهُ نَبيَّه أنْ يَسألَ النَّجاةَ مِن ذلك العذابِ(٢).

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: يا ربِّ، إنْ أرَيتَني ما وعَدْتَ هؤلاء المُشرِكينَ المُكذِّبينَ مِن نُزولِ العذابِ بهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

قال الشنقيطي: (قد بيَّنَ تعالى في مواضِعَ أُخَرَ: أنَّه لا يُنزِلُ بهم العذابَ وهو فيهم، وذلك في قولِه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وبيَّنَ هنا أنَّه قادِرٌ على =

﴿رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤﴾.

أي: ربِّ، فنَجِّني حِينذاكَ، ولا تَجعَلْني فيهم[١].

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما، عنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يَرويه عن ربِّه عزَّ وجَلَّ، أنَّه قال: ((يا محمَّدُ، إذا صلَّيتَ فقُلِ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ فِعلَ الخَيراتِ، وتَرْكَ المُنْكَراتِ، وحُبَّ المَساكينِ، وإذا أردْتَ بعِبادِك فِتنةً[٢] فاقبِضْني إليك غيرَ مَفْتونٍ))[٣].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ٩٥﴾.

أي: وإنَّا -يا محمَّدُ- على أنْ نُريَك ما نَعِدُ المُشرِكينَ المُكذِّبينَ مِن العذابِ لَقادِرونَ، وإنَّما نُؤخِّرُه لحِكمةٍ؛ فلا يَحزُنْك تكذيبُهم[٤].

= أنْ يُرِيَه العذابَ الَّذي وعَدَهُم به في قولِه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥]، وبيَّنَ في سُورةِ «الزُّخرفِ»: أنَّه إنْ ذهَبَ به قَبلَ تَعذيبِهم، فإنَّه مُعذِّبٌ لهم ومُنتقِمٌ منهم لا مَحالةَ، وأنَّه إنْ عذَّبَهم وهو حاضِرٌ فهو مُقتدِرٌ عليهم، وذلك في قولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢]. ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٢).

(٢) فِتنةً: أي: ضلالةً أو عقوبةً دنيويةً. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا القاري (٢/ ٦١١).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٣٣) واللفظ له، وأحمد (٣٤٨٤).

حسَّن إسنادَه ابنُ الجوزي في ((العلل المتناهية)) (١/ ٣٥)، وحسَّن الحديثَ ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٣١٧)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٣٣)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨).

قال القرطبيُّ: (قد أراه اللهُ تعالى ذلك فيهم بالجوعِ والسَّيفِ، ونجَّاه اللهُ ومَن آمن به مِن =

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أنبَأَ اللهُ رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بما يُلمِحُ له بأنَّه مُنجِزٌ وَعيدَه مِنَ الَّذين كذَّبوه، فعَلِمَ الرَّسولُ والمُسلِمون أنَّ اللهَ ضَمِنَ لهمُ النَّصرَ؛ أعقَبَ ذلك بأنْ أمَرَه بأنْ يَدفَعَ مُكذِّبيه بالَّتي هي أحسَنُ، وألَّا يَضِيقَ بتَكذيبِهم صَدْرُه، فذلك دَفْعُ السَّيِّئةِ بالحَسنةِ كما هو أدَبُ الإسلامِ[1].

وأيضًا لَمَّا تبيَّن أنَّ أخْذَهم وتأْخيرَهم في الإمكانِ على حَدٍّ سَواءٍ، وكانوا يَقولون ويَفْعَلون ما لا صَبْرَ عليه إلَّا بمَعونةٍ مِنَ اللهِ؛ كان كأنَّه قال: فماذا أفعَلُ فيما تَعلَمُ مِن أمْرِهم؟ فقال آمِرًا له بمُداواتِه[2]:

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

أي: ادفَعْ -يا محمَّدُ- أذَى أولئك القومِ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ الخِصالِ؛ بأنْ تُحسِنَ إليهم، وتَصفَحَ عنهم، وتَصبِرَ على أذاهُم[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي

= ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٧).

وقال ابنُ عاشور: (قد تحقَّقَ ذلك فيما حلَّ بالمشركين يومَ بدْرٍ ويومَ حُنَينٍ، فالوعيدُ المذكور هنا وَعيدٌ بعقابٍ في الدُّنيا كما يَقْتضيه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٢).

قال ابن جزي: (والأظهرُ أنَّه أمرٌ بالصَّفحِ والاحتمالِ وحُسنِ الخُلقِ، وهو مُحكَمٌ غيرُ منسوخٍ، وإنَّما نُسِخ ما يقتضيه مِن مسالمةِ الكفَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٧).

بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

أي: نحنُ أعلَمُ بما يَصِفُ أولئك المُشرِكونَ به ربَّهم مِنَ الأكاذيبِ والأباطيلِ المُختَلَقةِ؛ كادِّعاءِ الشَّريكِ والولَدِ له سُبحانَه، وبما يقولونَ فيك مِن السُّوءِ(١).

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أدَّبَ اللهُ سُبحانَه رَسولَه بقولِه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، أتْبَعَه بما به يَقْوَى على ذلك؛ وهو الاستِعاذةُ باللهِ مِن أمْرينِ: أحدِهما: مِن هَمزاتِ الشَّياطينِ، وثانيهما: قولُه: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾(٢).

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا ربِّ، أعتصِمُ بك مِن وَساوسِ الشَّياطينِ، ونزَغاتِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

قال البقاعي: (﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ﴾ أي: مِن كلِّ عالِمٍ، ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾ في حَقِّك وحَقِّنا). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

قال الشوكاني: (﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: نَزَغاتُهم ووَساوِسُهم كما قالَه المفسِّرونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٨).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٨].

وعن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((كنتُ جالِسًا مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ ورجُلانِ يَستبَّانِ، فأحدُهما احمَرَّ وجْهُه، وانتفخَتْ أوداجُه[1]، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنِّي لَأعلَمُ كَلِمةً لو قالها ذهَبَ عنه ما يَجِدُ؛ لو قال: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ، ذهَبَ عنه ما يَجِدُ))[2].

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾.

أي: وأعتصِمُ بك -يا ربِّ- أنْ يَحضُرَ الشَّياطينُ شيئًا مِن أُموري، فيُصِيبوني بشَرٍّ وأذًى[3].

عن أبي اليَسَرِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَدْعو:

---

(١) الأوداج: هي ما أحاط بالعنُقِ من العروقِ، واحدُها: ودَجٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٢) واللفظ له، ومسلم (٢٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٨، ١٤٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).
قال الشَّوكانيُّ: (المعنى: وأعوذُ بك أنْ يكونوا معي في حالٍ مِنَ الأحوالِ؛ فإنَّهم إذا حَضَروا الإنسانَ لم يكُنْ لهم عمَلٌ إلَّا الوَسوسةُ والإغراءُ على الشرِّ والصَّرفِ عن الخيرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٨). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٣).
وقال ابنُ كثير: (ولهذا أُمِرَ بذِكْرِ اللهِ في ابتداءِ الأُمورِ -وذلك مَطرَدةٌ للشَّياطينِ-: عندَ الأكلِ والجِماعِ والذَّبحِ، وغيرِ ذلك مِن الأُمورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٢).

((اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك أنْ يَتخبَّطني[١] الشَّيطانُ عندَ الموتِ))[٢].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان أضَرُّ أوقاتِ حُضورِ الشَّياطينِ ساعةَ المَوتِ، وحالةَ الفوتِ، فإنَّه وقْتُ كشْفِ الغِطاءِ، عمَّا كُتِبَ مِنَ القضاءِ، وآنُ اللِّقاءِ، وتَحتُّم السُّفولِ أوِ الارتقاءِ- عقَّبَ ذلك بذِكْرِه؛ تَنبيهًا على بَذلِ الجُهدِ في الدُّعاءِ، والتَّضرُّعِ للعِصمةِ فيه، فقال[٣]:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ ﴾.

أي: حتَّى[٤] إذا حضَرَتِ الوَفاةُ أحدَ المُفرِّطينَ الظَّالِمينَ، فانكشَفَ له الغِطاءُ، وظهَرَ له الحَقُّ، ولاحَتْ له أماراتُ العذابِ؛ قال نادمًا: يا ربِّ، ارجِعُوني إلى الدُّنيا[٥].

---

(١) يتخَبَّطَني: أي: يصرَعَني، ويلعبَ بي، ويُفسِدَ ديني وعقلي. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٨/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣١)، وأحمد (١٥٥٢٣).

صحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٧١٣)، وذكر ابن حجر في ((بذل الماعون)) (١٩٩) أنه حديثٌ ثابتٌ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٤).

(٤) قال ابن عطيَّة: (﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ في هذا الموضِعِ: حَرْفُ ابتداءٍ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ غايةً مُجرَّدةً بتقديرِ كلامٍ مَحذوفٍ، والأوَّلُ أبيَنُ؛ لأنَّ ما بعدَها هو المَعْنيُّ به المقصودُ ذِكرُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٥). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

نقل السَّمعاني الاتِّفاقَ على أنَّ سُؤالَ الرَّجعةِ يَكونُ للكافِرِ لا للمُؤمِنِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٠٠﴾.

﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

أي: لِأعمَلَ[١] عمَلًا صالِحًا أستَدْرِكُ به ما ضيَّعتُه وفرَّطْتُ فيه مِنَ الإيمانِ وما يتبعُه مِن الطَّاعاتِ[٢].

= لكِنْ أثبَتَ الرَّازيُّ الخِلافَ، ونَسَب للأكثَرينَ القَولَ بأنَّ سُؤالَ الرَّجعةِ يَكونُ للكُفَّارِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٢).

قال القرطبي: (ليس سُؤالُ الرَّجعةِ مُختَصًّا بالكافِرِ؛ فقد يَسألُها المؤمِنُ كما في آخِرِ سُورةِ المنافِقينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٩).

وقال ابنُ كثير: (يخبِرُ تعالى عن حالِ المُحتَضَرِ عند الموتِ مِن الكافِرينَ أو المفَرِّطينَ في أمرِ اللهِ تعالى، وقِيلِهم عندَ ذلك، وسُؤالِهم الرَّجعةَ إلى الدُّنيا؛ لِيُصلِحَ ما كان أفسَدَه في مُدَّةِ حَياتِه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٣).

وقال الرازي: (اختَلَفوا في وَقتِ مسألةِ الرَّجعةِ؛ فالأكثَرونَ على أنَّه يَسألُ في حالِ المُعايَنةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٣).

(١) قال القرطبيُّ: («لعلَّ» تتضمَّن تردُّدًا، وهذا الَّذي يَسألُ الرَّجعةَ قدِ استيقنَ العذابَ، وهو يُوطِّنُ نفْسَه على العملِ الصَّالحِ قطْعًا مِن غيرِ تردُّدٍ؛ فالتَّردُّدُ يرجِعُ إمَّا إلى ردِّه إلى الدُّنيا، وإمَّا إلى التَّوفيقِ، أي: أعمَلُ صالحًا إنْ وفَّقتَني؛ إذ ليس على قطْعٍ مِن وُجودِ القُدرةِ والتَّوفيقِ لو رُدَّ إلى الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٥).

قيل: المعنى: فيما تركتُ وضيعتُ مِن العمل بالطاعاتِ. وممَّن اختاره: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩). =

﴿كَلَّآ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما قال هذا الظَّالمُ لنَفْسِه؛ فلنْ يَستجيبَ اللهُ طلَبَ إمهالِه وإرجاعِه إلى الدُّنيا لِيعمَلَ صالِحًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾.

أي: إنَّ طلَبَه الرُّجوعَ إلى الدُّنيا مُجرَّدُ كلامٍ يقولُه الظَّالمُ حين تَحضُرُه الوَفاةُ[2].

= قال الشنقيطي: (والعملُ الصَّالحُ يشملُ جميعَ الأعمالِ؛ مِن الشَّهادتينِ، والحجِّ الَّذي كانَ قد فَرَّط فيه، والصَّلواتِ، والزَّكاةِ، ونحوِ ذلك). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٥٥).

وقيل: ﴿فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ أي: ضيَّعتُ أن أقولَ: لا إلهَ إلا اللهُ. وممَّن اختاره: السمعانيُّ، والبغوي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٤).

وقيل: المرادُ: في الإيمانِ الذي تركتُه. وممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

وقيل: المراد: الإيمانُ وما يتبعُه. وممَّن اختاره: البِقاعيُّ، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٩١).

وقيل: فيما تركتُه من المالِ فأتصدق، أو مِن الدُّنيا، أو فيما مضى مِن عُمُري. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

قال ابنُ القيِّم: (ذكَر سببَ سؤالِ الرَّجعةِ، وهو أن يَستقبلَ العملَ الصالحَ فيما ترَك خلفَه مِن مالِه وجاهِه وسلطانِه وقوَّتِه وأسبابِه). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٤).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾: قال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: أي لا بدَّ أن يقولَها لا محالةَ كلُّ محتضَرٍ ظالمٍ. ويحتمِلُ أن يكونَ ذلك علةً لقولِه: ﴿كَلَّآ﴾، أي: لأنَّها =

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾.

أي: ومِن أمامِ هؤلاء المَوتى حاجِزٌ بيْنَ الدُّنيا والآخرةِ يَحجُزُهم عنِ الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، مِن وقْتِ مَوتِهم إلى يومِ القِيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه النَّاسَ أحياءً مِن قُبورِهم[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، والتَّخلُّقُ بهذه الآيةِ هو: أنَّ المُؤمِنَ الكامِلَ يَنْبَغي له أنْ يُفوِّضَ أمْرَ المُعتدينَ عليه إلى اللهِ؛ فهو يَتولَّى الانتصارَ لمَن توكَّلَ عليه، وأنَّه إنْ قابَلَ السَّيِّئةَ بالحَسَنةِ، كان انتصارُ اللهِ أشْفى لِصَدْرِه، وأرسَخَ في نَصْرِه، وماذا تَبلُغُ قُدرةُ المَخلوقِ تُجاهَ قُدرةِ الخالِقِ، وهو الَّذي هزَمَ الأحزابَ بلا جُيوشٍ ولا فيالِقَ؟! وهكذا كان خلُقُ

= كلمةٌ، أي: سؤالُه الرجوعَ ليعملَ صالحًا هو كلامٌ منه، وقولٌ لا عملَ معه، ولو رُدَّ لَما عمِلَ صالحًا، ولكان يكذبُ في مقالتِه هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٥، ١٨٦).

وقال السعدي: (﴿إِنَّهَا﴾ أي: مقالتَه التي تمنَّى فيها الرجوعَ إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: مجرَّدُ قولٍ باللسانِ، لا يفيدُ صاحبَه إلَّا الحسرةَ والندمَ، وهو أيضًا غيرُ صادقٍ في ذلك؛ فإنَّه لو رُدَّ لعاد لِما نُهي عنه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٠)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٠٨)، ((أهوال القبور)) لابن رجب (ص: ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

ونقَل ابنُ عطيةَ إجماعَ المفسِّرينَ على أنَّ البرزخَ هنا هو المُدَّةُ الَّتي بينَ موتِ الإنسانِ وبيْنَ بَعثِه. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٦).

وقال ابنُ كثير: (في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾: تهديدٌ لهؤلاء المحتضَرينَ من الظَّلَمةِ بعذابِ البرزخِ، كما قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠]، وقال ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقولُه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: يستمرُّ به العذابُ إلى يومِ البعثِ، كما جاء في الحديثِ: «فلا يزالُ معذَّبًا فيها» أي: في الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٥).

النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقد كان لا يَنتقِمُ لِنفْسِه، وكان يَدْعُو رَبَّه[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ فِقْهُ الآيةِ: اسلُكْ مَسلَكَ الكِرامِ ولا تَلحَظْ جانِبَ المكافأةِ، ادفَعْ بغَيرِ عِوَضٍ ولا تَسلُكْ مَسلَكَ المُبايَعةِ. ويَدخُلُ فيه: سَلِّمْ على مَن لمْ يُسلِّمْ عليكَ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، قال قَتادةُ: (طلَبَ الرُّجوعَ لِيَعملَ صالِحًا، لا لِيَجمعَ الدُّنيا، ويَقضيَ الشَّهَواتِ؛ فرحِمَ اللهُ امرأً عَمِلَ فيما يَتمنَّاهُ الكافرُ إذا رأى العَذابَ)[٣].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه إيذانٌ بكَمالِ فَظاعةِ ما وُعِدُوه مِن العَذابِ، وكَونِه بحيثُ يَجِبُ أنْ يَستعيذَ منه مَن لا يكادُ يُمكِنُ أنْ يَحِيقَ به، ورَدٌّ لإنكارِهم إيَّاهُ واستعجالِهم به على طَريقةِ الاستِهزاءِ به[٤]. وقيل: أُمِرَ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هَضْمًا لنَفْسِه؛ إظهارًا للعُبوديَّةِ وتَواضُعًا لرَبِّه، وإخباتًا له. وقيل: لأنَّ شُؤمَ الكَفرةِ قد يَحِيقُ بمَن وَراءَهُم، كقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[٥] [الأنفال: ٢٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَن نُّرِيَكَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّه في مَنجاةٍ مِن أنْ يَلحَقَه ما يُوعَدونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩).

به، وأنَّه سَيَراهُ مَرأى عينٍ دونَ كَونٍ فيه[(١)].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ فِعْلَ العبدِ مَقدورٌ للهِ سُبحانَه؛ فمِنَ المعلومِ أنَّ الإعاذةَ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ ليست بإماتَتِه، ولا تَعطيلِ آلاتِ كَيْدِه، وإنَّما هي بأنْ يَعْصِمَ اللهُ المُستعيذَ مِن أذاهُ له، ويَحولَ بيْنَه وبيْنَ فِعْلِه الاختياريِّ له؛ فدَلَّ على أنَّ فِعْلَه مَقدورٌ له سُبحانَه: إنْ شاء سَلَّطه على العبدِ، وإنْ شاء حالَ بيْنَه وبيْنَه[(٢)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّ أحدًا لا يَموتُ حتَّى يَعرِفَ اضطرارًا أهو مِن أولياءِ اللهِ أمْ مِن أعداءِ اللهِ، ولولَا ذلك لَمَا سأَلَ الرَّجعةَ، فيَعْلَموا ذلك قَبلَ نُزولِ الموتِ وذَوَاقِه[(٣)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ لا يَخْفى ما يَسبِقُ إلى الذِّهنِ فيه مِن رُجوعِ الضَّميرِ إلى الرَّبِّ، والضَّميرُ بصِيغةِ الجمْعِ، والرَّبُّ جَلَّ وعلَا واحدٌ؟ **والجوابُ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:**

الوجْهُ الأوَّلُ: أنَّ الواوَ لِتَعظيمِ المُخاطَبِ، وهو اللهُ، وهذا لفظٌ تَعرِفُه العربُ للجليلِ الشَّأنِ يخبِرُ عن نفسِه بما يخبِرُ به عن الجماعةِ. وذلك النَّادِمُ السَّائلُ الرَّجعةَ يُظهِرُ في ذلك الوقْتِ تَعظيمَه ربَّهُ[(٤)].

الوجْهُ الثَّاني: أنَّ قَولَه: ﴿رَبِّ﴾ استغاثةٌ به تَعالى، وقولُه: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ خِطابٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٩، ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٦١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٥).

وقال الشنقيطي عن هذا الوجهِ في ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ١٦٤): (وهو أظهَرُها).

للملائكةِ، فمَسألةُ القَومِ الرَّدَّ إلى الدُّنيا إنَّما كانت منهم للملائكةِ الَّذين يَقْبِضون رُوحَهم، ومِثلُ هذا يَكثُرُ في الكلامِ عن العَرَبِ؛ أن يُخاطِبوا أحدًا ثمَّ تُصرَفُ المُخاطَبةُ إلى غيرِه؛ لأنَّ المعنى مُشتَمِلٌ على ذلك(١).

الوجْهُ الثَّالثُ: أنَّه جمَعَ الضَّميرَ لِيَدُلَّ على التَّكرارِ، فكأنَّه قال: ربِّ ارْجِعْني ارْجِعني(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، والمرادُ بها قولُه: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾- دلَّ على أنَّ اللَّهُ يُطلِقُ اسمَ الكلمةِ على الكلامِ، وكما في قولِه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، وما جاءَ لفظُ الكَلِمةِ في القرآنِ إلَّا مُرادًا به الكلامُ المفيدُ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ فيه إدخالُ (ما) الزَّائدةِ بَعدَ حَرفِ الشَّرطِ للتَّوكيدِ؛ فاقترَنَ فِعْلُ الشَّرطِ بنُونِ التَّوكيدِ؛ لِزيادةِ تَحقيقِ رَبْطِ الجَزاءِ بالشَّرطِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٦١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٥).

وقال الشنقيطي عن الوجهِ الثالثِ: (ولا يَخْلو هذا القولُ عندي مِنْ بُعْدٍ). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٨).

٢- قوله تعالى: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

- في تكريرِ النِّداءِ، ولَفظِ ﴿رَبِّ﴾، وتَصديرِ كلٍّ مِن الشَّرطِ والجَزاءِ به في قولِه: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: مُبالَغةٌ في الابتِهالِ إلى اللهِ تعالى والتَّضرُّعِ؛ لإبرازِ كَمالِ الضَّراعةِ والابتهالِ[١]. أو ذُكِرَ في هذا الدُّعاءِ لَفْظُ ﴿رَبِّ﴾ مُكرَّرًا تَمهيدًا للإجابةِ؛ لأنَّ وَصْفَ الرُّبوبيَّةِ يَقْتضي الرَّأفةَ بالمَربوبِ[٢].

- ولَقَّنَ اللهُ نَبيَّه أنْ يسأَلَ النَّجاةَ مِن ذلك العَذابِ، وفي هذا التَّلقينِ تَعريضٌ بأنَّ اللهَ مُنَجِّيه مِن العذابِ بحِكْمتِه، وإيماءٌ إلى أنَّ اللهَ يُرِي نَبيَّه حُلولَ العذابِ بمُكذِّبيه؛ فهذه الجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ، جوابًا عمَّا يَختلِجُ في نَفْسِ رسولِ اللهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾

- في قولِه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ عَدَلَ عن مُقْتضى السِّياقِ لسِرٍّ بَليغٍ؛ فالظَّاهرُ أنْ يقولَ: (ادفَعْ بالحَسنةِ السَّيِّئةَ)، ولكنَّه عَدَلَ عن مُقْتضى الكلامِ؛ لِمَا فيه مِن التَّفضيلِ، والمعنى: ادفَعِ السَّيِّئةَ بما أمكَنَ مِن الإحسانِ، حتَّى إذا اجتمَعَ الصَّفحُ والإحسانُ، وبَذْلُ الاستِطاعةِ فيه؛ كانت حَسنةً مُضاعَفةً بإزاءِ سَيِّئةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٢٣، ٦٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) =

- وفي قولِه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ فخَّمَ الأمْرَ بالموصولِ؛ لِمَا فيه مِن الإيهامِ المُشوِّقِ للبَيانِ، ثمَّ بأفعَلِ التَّفضيلِ ﴿أَحۡسَنُ﴾(١).

- وأيضًا في قولِه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ تَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ على المفعولِ؛ للاهتِمامِ(٢).

- قولُه: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ خَبرٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن كَونِ اللهِ يُعامِلُ أصحابَ الإساءةِ لرَسولِه بما همْ أحِقَّاءُ به مِن العِقابِ؛ لأنَّ الَّذي هو أعلَمُ بالأحوالِ يَجْري عمَلُه على مُناسِبِ تلك الأحوالِ بالعَدْلِ. وفي هذا تَطمينٌ لِنفْسِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣)؛ ففي قولِه: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ وَعيدٌ لهم بالجَزاءِ والعُقوبةِ، وتَسليةٌ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإرشادٌ له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تَفويضِ أمْرِه إليه تعالى(٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ أُمِرَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَعوذَ به تعالى مِن حُضورِهم بَعْدَما أُمِرَ بالعَوذِ مِن هَمزاتِهم؛ للمُبالَغةِ في التَّحذيرِ مِن مُلابَسَتِهم. وإعادةُ الفِعْلِ (أعوذُ) مع تكريرِ النِّداءِ ﴿رَبِّ﴾؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتِناءِ بالمأْمورِ به، وعَرْضِ نِهايةِ الابتِهالِ في الاستدعاءِ(٥).

- وقولُه: ﴿يَحۡضُرُونِ﴾ قيل: إنَّه مَقطوعٌ عن مُتعَلِّقِه بمَنزِلةِ اللَّازمِ؛ فالاستِعاذةُ

= (٦/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٥٠).

مِن حُضورِه مُطلقًا[(١)]. وعلى القولِ بتَخصيصِ الاستِعاذةِ بحالِ الصَّلاةِ وقِراءةِ القُرآنِ، أو حالِ حُلولِ الأجَلِ؛ لأنَّها أحْرَى الأحوالِ بالاستِعاذةِ منها[(٢)].

٥- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يَصِفُونَ﴾، وما بَيْنَهما اعتِراضٌ؛ لتأْكيدِ الإغضاءِ بالاستِعاذةِ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ أنْ يُزِلَّه عن الحِلْمِ، ويُغْرِيَه على الانتِقامِ[(٣)]. وقيل: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ، ولا تُفِيدُ أنَّ مَضمونَ ما قَبْلَها مُغيًّا بها؛ فلا حاجةَ إلى تَعليقِ (حتَّى) بـ ﴿يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وقيل: إنَّ (حتَّى) مُتَّصِلةٌ بقولِه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥]؛ فهذا انتِقالٌ إلى وَصفِ ما يَلْقَون مِنَ العذابِ في الآخرةِ بَعْدَ أنْ ذكَرَ عَذابَهم في الدُّنيا؛ فيكونُ قولُه هنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ وَصْفًا أُنُفًا -جديدًا- لعَذابِهم في الآخرةِ[(٤)].

- وفي قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ قدَّمَ المفعولَ فقال: ﴿أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ لِيذْهَبَ الوَهْمُ في فاعِلِه كلَّ مَذهَبٍ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٢).

قال الشِّنقيطي: (الظَّاهرُ عندي: أنَّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذه الآيةِ: هي الَّتي يُبتدأُ بعدها الكلامُ، ويُقال لها: حرفُ ابتداءٍ، كما قاله ابنُ عطيَّة، خِلافًا للزمخشريِّ القائلِ: إنَّها غايةٌ لقولِه: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾... ولأبي حيَّانَ القائلِ: إنَّ الظاهرَ له أنَّ قبْلَها جملةً محذوفةً هي غايةٌ له يدُلُّ عليها ما قبْلَها، وقدَّر الجملةَ المذكورةَ بقولِه: فلا أكون كالكفارِ الذين تهمزُهم الشياطينُ ويحضرونَهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾...). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٤).

- وضَمائرُ الغَيبةِ عائدةٌ إلى ما عادَتْ عليه الضَّمائرُ السَّابقةُ مِن قولِه: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢] إلى ما هنا، وليست عائدةً إلى الشَّياطينِ، ولقَصْدِ إدماجِ التَّهديدِ بما سيُشاهِدون مِن عَذابٍ أُعِدَّ لهم، فيَندَمُون على تَفريطِهم في مُدَّةِ حَياتِهم[1].

٦- قوله تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لمَضمونِ قولِه: ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾[2]. وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث لم يَنظِمْه في سِلْكِ الرَّجاءِ كسائرِ الأعمالِ الصَّالحةِ، بأنْ يقولَ: (لعلِّي أُؤمِنُ فأعمَلَ...) إلخ؛ للإشعارِ بأنَّه أمْرٌ مُقرَّرُ الوُقوعِ، غَنِيٌّ عن الإخبارِ بوُقوعِه قَطْعًا، فضْلًا عن كَونِه مَرْجُوَّ الوُقوعِ[3].

- والتَّركُ هنا في قولِه: ﴿فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ مُستعمَلٌ في حَقيقتِه، وهو معنَى التَّخليةِ والمُفارَقةِ. والمُرادُ بـ﴿فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ عالَمُ الدُّنيا. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالتَّركِ الإعراضُ والرَّفضُ، على أنْ يكونَ المُرادُ بـ (ما) الموصولةِ الإيمانَ باللهِ وتَصديقَ رَسولِه، فذلك هو الَّذي رفَضَه كلُّ مَن يَموتُ على الكُفرِ؛ فالمعنَى: لعلِّي أُسلِمُ، وأعمَلُ صالِحًا في حالةِ إسْلامي الَّذي كنْتُ رَفضْتُه؛ فاشتمَلَ هذا المعنى على وَعْدٍ بالامتِثالِ، واعترافٍ بالخطأِ فيما سلَفَ، ورُكِّبَ بهذا النَّظمِ المُوجَزِ؛ قَضاءً لحَقِّ البلاغةِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٣).

- قولُه: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن طلَبِ الرَّجعةِ، وإنكارٌ واستِبعادٌ[١]. وقولُه: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ تَركيبٌ يَجْري مَجرى المثَلِ، وهو مِن مُبتكَراتِ القُرآنِ، وحاصِلُ معناهُ: أنَّ قَولَ المُشرِكِ: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ...﴾ إلخ، لا يَتجاوزُ أنْ يكونَ كَلامًا صدَرَ مِن لِسانِه لا جَدْوى له فيه، أي: لا يُستجابُ طلَبُه به؛ فجُملةُ ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ وَصفٌ لـ ﴿كَلِمَةٌ﴾، أي: هي كَلِمةٌ هذا وَصْفُها. وإذ كان مِن المُحقَّقِ أنَّه قائِلُها، لم يكُنْ في وَصْفِ ﴿كَلِمَةٌ﴾ به فائدةٌ جديدةٌ؛ فتَعيَّنَ أنْ يكونَ الخبَرُ مُسْتعمَلًا في معنَى أنَّه لا وَصْفَ لكَلِمتِه غيرُ كَونِها صدَرَتْ مِن فِي صاحِبِها، وبذلك يُعلَمُ أنَّ التَّأكيدَ بحَرفِ (إنَّ)؛ لتَحقيقِ المعنى الَّذي استُعمِلَ له الوَصفُ[٢].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ لأحدِهم، والجَمْعُ باعتِبارِ المعنَى؛ لأنَّه في حُكْمِ كلِّهم، كما أنَّ الإفرادَ في الضَّمائرِ الأُوَلِ باعتِبارِ اللَّفظِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ إقناطٌ كُلِّيٌّ لِمَا عُلِمَ أنَّه لا رَجعةَ يومَ البَعثِ إلَّا إلى الآخرةِ؛ ففيه التَّقييدُ بالمُحالِ للمُبالَغةِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٣، ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٤).

الآيات (١٠١-١٠٤)

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ
مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرْنِ الَّذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ، وقيل: الصورُ جمعُ صُورَةٍ يَنْفُخُ فيها رُوحَها فتَحْيا[1].

﴿تَلۡفَحُ﴾: أي: تُحرِقُ، ويُقال: لَفَحتْه النَّارُ بحَرِّها: إذا أصابَه حَرُّها، فتغيَّرَ وَجْهُه[2].

﴿كَٰلِحُونَ﴾: أي: عابِسونَ، والكُلوحُ: بدوُّ الأسنانِ عندَ العبوسِ، أو: مُتَقَلِّصو الشِّفَاهِ عن الأسنانِ؛ مِن إحْراقِ النَّارِ وُجوهَهم، وأصْلُ (كلح): يدُلُّ على عُبوسٍ وقُبحٍ في الوَجهِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ تعالى أنَّه إذا كان يومُ القِيامةِ، ونُفِخ في الصورِ نفخةُ البعثِ، ونهَض

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٥).

النَّاسُ مِن قُبورِهم؛ فلا ينفعُ أحدًا حينَئذٍ نسَبُه، ولا يَفتخرُ به، ولا يسألُ أحدٌ أحدًا.

فمَن ثَقُلَت مَوازينُ أعمالِه الصَّالحةِ، فأولئك هم الفائِزونَ بالجنَّةِ، ومَن خفَّتْ مَوازينُ أعمالِه الصَّالحةِ، فرجَحَت سيِّئاتُه على حَسناتِه؛ فأولئك هم الخاسِرونَ، وسيَمكثونَ في نارِ جهنَّمَ لا يخرجون منها، تُحرِقُ وُجوهَهم النَّارُ، وهم فيها عابِسونَ، مُتقَلِّصو الشِّفاهِ عن الأسنانِ؛ مِن أثرِ العذابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]؛ ذكَرَ أحوالَ ذلك اليومِ، فقال(١):

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ ﴾.

أي: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخةُ البَعثِ(٢)، وقام النَّاسُ مِن قُبورِهم، فلا تَنفَعُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٤).

(٢) ممَّن قال بأنَّ المُرادَ بالنَّفخةِ هنا: النفخةُ الثانيةُ؛ نَفخةُ البَعثِ والنشورِ: مقاتلُ بن سليمان، والقرطبيُّ، وابن كثير، والشوكاني، والسَّعدي، واستظْهَرَهُ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ مسعود. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧١).

وقيلَ: المُرادُ بها: النَّفخةُ الأُولى. وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ =

حينَئذٍ أنسابُهم، ولا يَفتَخِرونَ بها، ولا يَسألُ أحدٌ منهم أحدًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

أي: فمَن ثقُلَت مَوازينُ حَسَناتِه، ورجَحَت على سَيِّئاتِه؛ فأولئك هم الفائِزونَ بالنَّجاةِ مِنَ النَّارِ، والخُلودِ في الجنَّةِ[(٢)].

= عنه، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٦).

اختلَفَ المُفسِّرون في معنى التَّساؤُلِ المَنْفيِّ هنا؛ فقيلَ: المرادُ: لا يَسألُ أحدٌ أحدًا: مِن أيِّ قَبيلةٍ أنت؟ ولا مِن أيِّ نسَبٍ؟ وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢).

وقِيلَ: السُّؤالُ المَنْفيُّ أنْ يسألَ بعضُهم بعضًا النُّصرةَ والمعونةَ والنَّجدةَ. وممَّن قال بذلك: البقاعيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٦).

وقِيلَ: السُّؤالُ المَنفيُّ هو: سُؤالُ بعضِهم العفْوَ مِن بعضٍ فيما بيْنَهم مِن الحقوقِ؛ لقُنوطِهم مِن الإعطاءِ. وممَّن حكَى هذا القولَ: الشنقيطيُّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩). =

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾.

أي: ومَن خفَّت موازينُ حسناتِه، ورجَحَتْ موازينُ سيئاتِه؛ فأولئك الَّذين غَبَنوا أنفسَهم حُظوظَها مِن رَحمةِ اللهِ، وفاتَهم النعيمُ المقيمُ، فخابُوا وهَلَكوا[١]!

﴿ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾.

أي: هم في جَهنَّمَ ماكِثونَ لا يَخرُجونَ منها[٢].

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾.

أي: تُصيبُ نارُ جهنَّمَ وُجوهَهم فتُحرِقُها إحراقًا شديدًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

= قال السَّفَّارِيني: (دلَّت الآثارُ على أنَّه مِيزانٌ حَقيقيٌّ ذو كِفَّتينِ ولِسانٍ، كما قال ابنُ عبَّاسٍ والحَسَنُ البَصريُّ، وصَرَّح بذلك عُلَماؤنا والأشعريَّةُ وغيرُهم، وقد بلَغَت أحاديثُه مَبلَغَ التَّواتُرِ، وانعقد إجماعُ أهلِ الحَقِّ مِن المُسلِمينَ عليه). ((لوامع الأنوار)) (٢ / ١٨٥). ويُنظر: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٧١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٣٨).
وقال الشنقيطي: (التحقيقُ أنَّه وزنٌ حقيقيٌّ بميزانٍ ذي لِسانٍ وكِفَّتينِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٤)، ((الهداية)) لمكِّي (٧/ ٥٠٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٧).

﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾.

أي: وهم في جَهنَّمَ عابِسونَ قد تقلَّصتْ شِفاهُهم، وظهَرَتْ أسنانُهم؛ مِن أثرِ العذابِ (١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- اللهُ تعالى قدْ رتَّبَ الجزاءَ على الأعمالِ لا على الأنسابِ، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾(٢).

٢- عن سَهلِ بنِ عاصمٍ، قال: سَمِعتُ إبراهيمَ يقولُ: سَمِعتُ رَجُلًا يقولُ لزُهَيرِ بنِ نُعَيمٍ: (ممَّن أنتَ يا أبا عبدِ الرَّحمنِ؟ قال: ممَّن أنعَمَ اللهُ عليه بالإسلامِ. قال: إنَّما أُريدُ النَّسَبَ. قال: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١])(٣).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالَى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٥)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٧).

قال البقاعي: (﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ أي مُتقَلِّصو الشِّفاهِ عن الأسنانِ مع عبوسةِ الوجوهِ وتجعدِها وتقطبِها؛ شغلُ مَن هو ممتلئُ الباطنِ كراهيةً؛ لِما دَهِمَه مِن شدةِ المعاناةِ وعظيمِ المقاساةِ في دارِ التجهُّمِ، كما ترَى الرؤوسَ المشويةَ)، ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (الكالحُ: الذي به الكلوحُ، وهو تقلُّصُ الشفتينِ، وظهورُ الأسنانِ مِن أثرِ تقطُّبِ أعصابِ الوجهِ عندَ شدةِ الألمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧).

وقال ابنُ جرير: (وهم فيها متقلِّصو الشِّفاهِ عن الأسنانِ مِن إحراقِ النارِ وجوهَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٠٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١٠/ ١٤٩).

هذه الآيةُ الكريمةُ تَدُلُّ على أنَّهم لا أنسابَ بيْنَهم يومَئذٍ، وأنَّهم لا يَتَساءَلون يومَ القيامةِ، وقد جاءَتْ آياتٌ أُخَرُ تَدُلُّ على ثبوتِ الأنسابِ بيْنَهم، كقولِه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ...﴾ الآيةَ [عبس: ٣٤- ٣٦]؟

والجوابُ: أنَّ المرادَ بنفيِ الأنسابِ انقطاعُ فوائِدِها وآثارِها الَّتي كانت مُترتِّبةً عليها في الدُّنيا؛ مِنَ العواطفِ والنَّفعِ والصِّلاتِ والتَّفاخُرِ بالآباءِ، لا نفيُ حقيقَتِها(١). وقيل غيرُ ذلك(٢).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، قولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ وقولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] لا يُناقِضُ قولَه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، وقولَه: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]؛ وذلك مِن وُجوهٍ:

الوجه الأوَّل: أنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُهُ خَمسونَ ألْفَ سنَةٍ؛ ففيه أزْمِنةٌ وأحوالٌ مُختلِفةٌ، فيَتعارَفونَ ويَتَساءلون في بَعْضِها، ويتحيَّرونَ في بَعضِها؛ لِشدَّةِ الفزَعِ، فقيل: نَفْيُ السُّؤالِ عندَ اشْتِغالِهم بالصَّعقِ والمُحاسَبةِ والجوازِ على الصِّراطِ، وإثباتُه فيما عَدا ذلك.

الوجه الثَّاني: أنَّه إذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفخةٌ واحدةٌ شُغِلوا بأنفُسِهم عن التَّساؤُلِ، فإذا نُفِخَ فيه أُخرى أقبَلَ بعضُهم على بَعضٍ وقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢]، فنفيُ السُّؤالِ بعدَ النَّفخةِ الأُولَى وقبْلَ الثَّانيةِ، وإثباتُه بعدَهما مَعًا.

الوجه الثَّالث: المُرادُ: لا يَتساءلونَ بحُقوقِ النَّسبِ.

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٤، ٢٩٥).

الوجه الرَّابع: أنَّ قولَه: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ صِفَةٌ للكُفَّارِ؛ وذلك لشِدَّةِ خَوفِهم، أمَّا قولُه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فهو صِفةُ أهْلِ الجنَّةِ إذا دَخَلوها[1].

الوجه الخامس: أنَّ قولَه ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: في التناصُرِ، فلا يُناقِضُ نَفْيُ التَّساؤُلِ هنا إثباتَه في غَيرِه؛ لأنَّه في غَيرِ تناصُرٍ، بلْ في التَّلاوُمِ والتَّعاتُبِ والتَّخاصُمِ[2].

الوجه السَّادس: أنَّ السُّؤالَ المَنْفيَّ سُؤالٌ خاصٌّ، وهو سُؤالُ بَعضِهم العفْوَ مِن بَعضٍ فيما بيْنهم مِنَ الحُقوقِ؛ لقُنوطِهم مِنَ الإعطاءِ، ولو كان المَسؤولُ أبًا أو ابنًا، أو أمًّا أو زوجةً[3].

٣- في قولِه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الموازينَ للكافِرِ والمُؤمِنِ معًا[4]، وقد استدَلَّ به مالِكٌ على أنَّ الكُفَّارَ يُنصَبُ لهم المِيزانُ[5].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إنْ قيل: الميزانُ واحِدٌ[6]، فما وجهُ الجَمعِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤، ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٧).

ويُنظر الخلافُ في مسألةِ وزنِ أعمالِ الكفارِ في: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٧١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٣٨)، ((لوائح الأنوار السنية)) للسَّفَّاريني (٢/ ٢٠٣).

(٦) قال ابن عثيمين: (اختلف العُلَماءُ في الميزانِ: هل هو واحِدٌ أو متعَدِّدٌ؛ على قولَينِ؛ وذلك لأنَّ =

فالجوابُ: أنَّ العَربَ قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحِدِ تفخيمًا له. وقيل: إنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عبدٍ مِيزانٌ. وقيل: جُمِعَ لاختلافِ الموزوناتِ، وتعَدُّدِ الجَمعِ، فهو جمعُ مَوزونٍ أو ميزانٍ، فالميزانُ واحدٌ، وأُطلق عليه اسمُ الجمعِ؛ لكثرةِ ما يُوزَنُ فيه مِن أنواعِ الأعمالِ، وكثرةِ الأشخاصِ العاملينَ الموزونةِ أعمالُهم(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]؛ فإنَّ زمَنَ النَّفخِ في الصُّورِ هو يومُ البَعثِ، فالتَّقديرُ: فإذا جاء يومُ يُبْعَثون، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك إلى ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾؛ تَصويرًا لحالةِ يومِ البَعثِ(٢).

= النُّصوصَ جاءت بالنِّسبةِ للمِيزانِ مَرَّةً بالإفرادِ، ومرَّةً بالجَمعِ... والذي يظهَرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ الميزانَ واحِدٌ، لكنَّه مُتعَدِّدٌ باعتبارِ الموزونِ). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٤٣).

وقال ابنُ حجر: (والذي يترجَّحُ: أنَّه مِيزانٌ واحِدٌ، ولا يُشكِلُ بكَثرةِ مَن يُوزَنُ عَمَلُه؛ لأنَّ أحوالَ القيامةِ لا تُكَيَّفُ بأحوالِ الدُّنيا). ((فتح الباري)) (١٣/ ٥٣٨).

وقال الشنقيطي: (وظاهِرُ القُرآنِ تعَدُّدُ هذه الموازينِ؛ لأنَّه قال في سورةِ «الأنبياءِ»: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧]... وقال في القارعة: ﴿... فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ * وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ [القارعة: ٦ - ٩]، وقال في سورة المؤمنون: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ...﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣]؛ فهذه الآياتُ تعَبِّرُ بالجَمعِ في الميزانِ، وظاهِرُها التعَدُّدُ. وذهبت جماعةٌ مِن العُلَماءِ إلى أنَّ الميزانَ واحِدٌ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٦)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٥).

- وأُسْنِدَ ﴿نُفِخَ﴾ إلى المَجهولِ؛ لأنَّ المُعْتَنى به هو حُدوثُ النَّفخِ لا تَعيينُ النَّافخ(١).

- قولُه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ النَّصيرِ(٢) على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ؛ ففي قولِه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ما يُعرَفُ بالتَّنكيتِ؛ فقد قصَدَ بنَفْيِ الأنسابِ -وهي مَوجودةٌ- أمْرًا آخَرَ لِنُكْتةٍ فيه؛ فإنَّ الأنسابَ ثابتةٌ، وقد كان العرَبُ يَتفاخَرون بها في الدُّنيا، ولكنَّه جنَحَ إلى نَفْيِها إمَّا لأنَّها تَلْغُو في الآخرةِ؛ إذ يقَعُ التَّقاطُعُ بيْنهم، فيَتفرَّقونَ مُعاقَبينَ أو مُثابينَ، أو أنَّه قصَدَ بالنَّفْيِ صِفَةً للأنسابِ مَحذوفةً، أي: يُعتَدُّ بها، حيث تَزولُ بالمرَّةِ وتَبطُلُ؛ لِزَوالِ التَّراحُمِ والتَّعاطُفِ مِن فَرطِ البُهْرِ والكَلالِ واستيلاءِ الدَّهشةِ عليهم(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ بيانُ الرَّدِّ على قَولِ قائلِهم: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، المَردودِ إجمالًا بقولِه تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]؛ فقُدِّمَ عليه ما هو كالتَّمهيدِ له، وهو قولُه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ إلى آخِرِه؛ مُبادرةً بتأْييسهم مِن أنْ تَنفَعَهم أنسابُهم أو استِنْجادُهم(٤).

- وذِكْرُ ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ في هذهِ الآيةِ إدْماجٌ؛ للتَّنويهِ بالمُؤمِنينَ، وتَهديدِ المُشرِكين؛ لأنَّ المُشرِكين لا يَجِدون في مَوازينِ الأعمالِ الصَّالحةِ شيئًا(٥).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٢٦).

خَٰلِدُونَ﴾ تَمثيلٌ لحالِ خَيبَتِهم فيما كانوا يأْمُلونَه مِن شَفاعةِ أصنامِهم، وأنَّ لهم النَّجاةَ في الآخرةِ، أو مِن أنَّهم غيرُ صائرينَ إلى البَعثِ، فكذَّبوا بما جاء به الإسلامُ، وحَسِبُوا أنَّهم قد أعَدُّوا لأنفُسِهم الخيرَ، فوَجَدوا ضِدَّه، فكانت نُفوسُهم مَخْسُورةً، كأنَّها تَلِفَتْ منهم؛ ولذلك نُصِبَ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على المفعولِ بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾[١].

- وتَكرارُ اسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لزِيادةِ تَمييزِ الفَريقينِ بصِفاتِهم[٢]. والجَمْعُ فيهما باعتِبارِ معناهُما، كما أنَّ إفرادَ الضَّميرينِ في الصِّلتينِ -﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾- باعتِبارِ اللَّفظِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾

- في قولِه: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ خَصَّ الوَجْهَ باللَّفحِ؛ لأنَّه أشرَفُ ما في الإنسانِ، والإنسانُ أحفَظُ له مِن الآفاتِ مِن غَيرِه مِن الأعضاءِ؛ فإذا لُفِحَ الأشرفُ فما دُونَه مَلفوحٌ[٤]. أو: لأنَّ بيانَ حالِها أزجَرُ عن المعاصي المُؤدِّيةِ إلى النَّارِ، وهو السِّرُّ في تَقديمِها على الفاعِلِ[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥١).

الآيات (١٠٥-١١٤)

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا
وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ
فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا
وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ
﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ
سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ
أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿شِقۡوَتُنَا﴾: الشِّقْوةُ مصدرُ شَقِيَ، كالشَّقاوةِ والشَّقاءِ: خلافُ السَّعادةِ، وأصْلُ (شقو): يدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولةِ والسَّعادةِ[(١)].

﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾: أَيِ: اقْعُدوا وامْكُثوا فيها صاغِرينَ، مُهانينَ، أذلَّاءَ، وابْعُدُوا، وأصْلُ (خسأ): يدُلُّ على الإبعادِ[(٢)].

﴿سِخۡرِيًّا﴾: أي: استِهزاءً، يُقالُ: سَخِرْتُ منه، واسْتَسْخَرْتُه لِلْهُزْءِ، والسِّخْرِيُّ -بكسْرِ السِّينِ- مِنَ: الهُزءِ، وأصْلُ (سخر): يدُلُّ على احتِقارٍ واستِذلالٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه يقولُ لأهْلِ النَّارِ يومَ القِيامةِ: ألَمْ تكُنْ آياتُ كتابي تُقرَأُ عليكمْ في الدُّنيا، فكنتُم تُكذِّبونَ بها؟ فيجيبونَ: رَبَّنا غلَبَ علينا ما سبَقَ لنا في سابِقِ عِلْمِك، وكتبْتَه في اللَّوحِ المحفوظِ، وقدَّرتَه علينا مِن شَقاوةٍ، وكنَّا ضالِّينَ عن الهُدى والرَّشادِ، رَبَّنا أخرِجْنا مِنَ النَّارِ، فإنْ رَجَعْنا إلى الكُفرِ وارتِكابِ السَّيِّئاتِ فإنَّا ظالِمونَ نَستَحِقُّ العقوبةَ.

فيقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهم: امكُثوا في النَّارِ أذِلَّاءَ حقيرينَ مُبعَدينَ، ولا تُخاطِبوني في إخراجِكم مِنَ النارِ؛ إنَّه كان فَريقٌ مِن عِبادي المُؤمِنينَ يَقولونَ: رَبَّنا آمَنَّا فاغفِرْ ذُنوبَنا وارحَمْنا، وأنت خيرُ الرَّاحِمينَ، فسَخِرتُم منهم، واستهزَأتُم بهم، حتَّى أنْسَوكم -لانِشغالِكم بالسُّخريةِ منهم- ذِكْري، وقد كنتُم تَضحَكونَ منهم في الدنيا عِندَما ترَونَهم. إنِّي جَزيتُ هؤلاء المُؤمِنينَ بسَبَبِ صَبرِهم على أذاكُم، وعلى امتِثالِ الأمرِ واجتِنابِ النَّهيِ: أنَّهم هم الفائزونَ بالجنةِ.

ثم أخبرَ اللهُ تعالى أنَّه قال لهم: كم عَدَدُ السِّنينَ الَّتي أقمْتُموها في الدُّنيا؟ قالوا: أقَمْنا فيها يومًا أو بعضَ يومٍ، فاسأَلِ الحاسِبينَ الضَّابِطينَ لمِقْدارِ ذلك. قال اللهُ تعالى لهم: ما لَبِثْتُم في الدُّنيا إلَّا وقْتًا قليلًا، لو كنتُمْ تعلَمونَ أن إقامتَكم في الدنيا قليلةٌ لَمَا آثَرْتُم الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقيةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥﴾.

أي: يقولُ اللهُ تَعالَى لأهْلِ النَّارِ يومَ القِيامةِ: ألَمْ تكُنْ آياتُ كِتابي تَتتابَعُ عليكم قِراءتُها في الدُّنيا شيئًا فشيئًا، فكنتُمْ تُكذِّبون بها[1]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾.

أي: قال أهْلُ النَّارِ: ربَّنا غلَبَ علينا ما سبَقَ لنا في سابِقِ عِلْمِك، وكَتبْتَه في اللَّوحِ المَحفوظِ، وما قدَّرْتَه علينا مِن شَقاوةٍ، فكذَّبْنا الرُّسلَ، ولم نَهْتدِ بعدَ قِيامِ الحُجَّةِ علينا؛ لنصيرَ إلى ما سَبَق في عِلمِك[1].

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾.

أي: وكُنَّا في الدُّنيا قَومًا ضالِّينَ عن طَريقِ الحقِّ، تائهينَ عن سَبيلِ الرَّشادِ[2].

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

أي: قالوا: ربَّنا أخْرِجْنا مِنَ النَّارِ إلى الدُّنيا، فإنْ عُدْنا إلى ما كنَّا عليه مِنَ الكُفْرِ والعِصيانِ، فنَحنُ ظالِمونَ لأنفُسِنا، ومُستحِقُّونَ للعِقابِ[3].

= (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٨).

قال البقاعيُّ: (﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: أهواؤنا الَّتي قادتْنا إلى سُوءِ الأعمالِ الَّتي كانت سببًا ظاهرًا للشَّقاوةِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٨٩).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الغَلَبُ حَقيقتُه: الاستيلاءُ والقهْرُ. وأُطْلِقَ هنا على التَّلبُّسِ بالشِّقوةِ دونَ التَّلبُّسِ بالسَّعادةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧، ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٩).

قال القرطبيُّ: (﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾: طَلَبوا الرَّجعةَ إلى الدُّنيا كما طَلَبوها عندَ الموتِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٣).

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

أي: قال اللهُ لأهْلِ النَّارِ: اقْعُدوا في النَّارِ ذَليلينَ مُبعَدينَ حَقيرينَ، ولا تُكلِّموني في إخراجِكم منها[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ الحالَ الَّتي أوصَلَتِ المُشركينَ إلى العذابِ، وقطَعَتْ عنهم الرَّحمةَ، فقال[2]:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: إنَّه[3] كان في الدُّنيا جَماعةٌ مِن عِبادي المُؤمنينَ المُستضعَفينَ يَقولون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٩، ٣٦٠).
قال السعديُّ: (وهذا القولُ- نسألُه تعالى العافيةَ- أعظَمُ قولٍ على الإطلاقِ يَسمَعُه المُجرِمون في التَّخييبِ، والتَّوبيخِ، والذُّلِّ، والخَسارِ، والتَّأييسِ مِن كلِّ خيرٍ، والبُشرى بكلِّ شَرٍّ، وهذا الكلامُ والغضبُ مِن الرَّبِّ الرَّحيمِ أشَدُّ عليهم وأبلَغُ في نِكايَتِهم مِن عذابِ الجحيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).
وقال ابنُ عاشورٍ: (نُهُوا عن خِطابِ اللهِ، والمقصودُ تأْييسُهم مِنَ النَّجاةِ ممَّا هم فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

(٣) قال الشنقيطي: (قد تقَرَّر في الأصولِ في مسلكِ الإيماءِ وَالتَّنبيهِ، أنَّ «إنَّ» المكسورةَ المشدَّدَةَ مِنْ حروفِ التَّعليلِ، كقولِك: عاقِبْه إنَّه مُسيءٌ؛ أي: لأجلِ إساءَتِه، وقولُه في هذه الآيةِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ يَدُلُّ فيه لفظُ «إنَّ» المكسورةِ المشدَّدةِ على أنَّ الأسبابَ الَّتي أدخلَتْهم النَّارَ هو استهزاؤُهم، وسخريتُهم مِنَ الفريقِ المؤمنِ الَّذي يقولُ: ﴿ربَّنا آمنَّا فاغفِرْ لنا وارحَمْنا وأنتَ خيرُ الرَّاحمينَ﴾، فالكفَّارُ يَسخرونَ مِنْ ضعفاءِ المؤمنينَ في الدُّنيا حتَّى يُنسيَهم ذلك ذِكْرَ اللهِ والإيمانَ به؛ فيَدخُلونَ بذلك النَّارَ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦٠).

في دُعائِهم: ربَّنا آمَنَّا بكَ وبجَميعِ ما جاءتْ به رُسلُكَ؛ فاسْتُرْ ذُنوبَنا، وتَجاوَزْ عن مُؤاخَذَتِنا بها، وارحَمْنا وأنتَ أفضَلُ مَن رحِمَ[(١)].

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿سِخۡرِيًّا﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضَمِّ السِّينِ. قيل: مِنَ السُّخرةِ والاستِخدامِ. وقيل: هي بمعنى الاستِهزاءِ كالقِراءةِ الأُخرى[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٠)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٥٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٠).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي﴾: المؤمنون: ابنُ جرير، والواحدي، والبغوي، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦) ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٩١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٠٤).
وقيل المرادُ: الصحابةُ، وقيل: المرادُ: المهاجرون. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٩١).
قال ابنُ عطيَّةَ: (هذه الآيةُ كلُّها ممَّا يُقالُ للكُفَّارِ على جِهةِ التَّوبيخِ، والفريقُ المُشارُ إليه: كلُّ مُستضعَفٍ مِن المؤمنينَ يَتَّفِقُ أنْ تكونَ حالُه مع كُفَّارٍ في مِثْلِ هذه الحالِ، ونزَلَتِ الآيةُ في كفَّارِ قُريشٍ مع صُهيبٍ وبلالٍ وعمَّارٍ ونظرائِهم، ثمَّ هي عامَّةٌ فيمَن جرى مَجْراهم قديمًا وبقيَّةَ الدَّهرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٧).

(٢) قرأ بها نافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٧، ١٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٧١، ٣٧٢).
قال الشنقيطي: (ومعنى القراءتينِ واحِدٌ، وهو سُخريَّةُ الكُفَّارِ واستِهزاؤُهم بضُعَفاءِ المؤمنينَ...، =

٢- قراءةُ: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكَسرِ السِّينِ، بمعنى: الاستِهزاءِ(١).

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾.

أي: فاسْتهزأْتُم بهؤلاءِ المؤمنينَ إلى أنْ أَنساكُمْ اشتِغالُكم بالسُّخريةِ منهم ذِكْري(٢)، وكنتُمْ تَضْحَكون منهم في الدُّنيا(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ

= وممَّن قال بأنَّ معناهما واحِدٌ: الخليلُ وسيبويهِ، وهو الحَقُّ إن شاء اللهُ تعالى. وعن الكِسائيِّ والفَرَّاءِ: أنَّ السِّخْريَّ -بكَسرِ السِّينِ- مِن قَبيلِ ما ذكَرْنا مِن الاستِهزاءِ، وأنَّ السُّخْريَّ -بضَمِّ السِّينِ- مِن التَّسخيرِ الذي هو التَّذليلُ والعُبوديَّةُ، والمعنى: أنَّ الكُفَّارَ يُسَخِّرونَ ضُعَفاءَ المؤمِنينَ ويَستَعبِدونَهم، كما كان يَفعَلُه أميَّةُ بنُ خَلَفٍ ببَلالٍ. ولا يخفى أنَّ الصَّوابَ هو ما ذكَرْنا إن شاء اللهُ تعالى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦٠).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٧، ١٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) قيل: المرادُ: ذِكرُ اللهِ. وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وأبو حيان، والقنوجي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤١٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٧) ((تفسير القنوجي)) (٩/ ١٥٥).
وقيل: حتَّى أنْساهم ذلك ذكْرَ اللهِ والإيمانَ به. قالَهُ الشنقيطيُّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦١).
وقيل: يعني: الإيمانَ بالقُرآنِ. قاله مقاتلُ بن سليمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٧).
وقيل: يعني: العمَلَ بطاعتي. قاله السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦١).
قال السعديُّ: (وهذا الَّذي أوجَبَ لهم نِسيانَ الذِّكرِ اشتِغالُهم بالاستِهزاءِ بهم، كما أنَّ نِسيانَهم للذِّكرِ يَحثُّهم على الاستِهزاءِ؛ فكلٌّ مِنَ الأمرينِ يمُدُّ الآخَرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

﴿يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

أي: إنِّي جَزَيتُ هؤلاء المُؤمنينَ الَّذين اتَّخذْتُموهم سِخْرِيًّا وكنتُمْ تَضْحَكون منهم؛ بسبَبِ صَبْرِهم على ما نالَهُم في الدُّنيا منكم مِن أذًى واستِهزاءٍ، وصبرِهم على الطَّاعةِ، وعن المعصيةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهُمْ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿إِنَّهُمْ﴾ على معنى الاستِئنافِ، وهو استِئنافٌ مُعَلِّلٌ للجَزاءِ. وقيل: مُبيِّنٌ لِكَيفيَّتِه. ويكونُ الكلامُ تامًّا عندَ قولِه تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾(٢).

٢- قِراءةُ ﴿أَنَّهُمْ﴾ قِيلَ: على معنى التَّعليلِ لِمَا سبَقَ، فتكونُ مُوافِقةً للقِراءةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦١).

قال الشنقيطيُّ: (قولُه: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسببِ صبرِهم في دارِ الدُّنيا على أذى الكفَّارِ الَّذينَ اتَّخذوهم سِخْرِيًّا، وعلى غيرِ ذلك مِن امتثالِ أمْرِ اللهِ واجتنابِ نَهْيِه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦١).

(٢) قرَأَ بها حمزةُ، والكِسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩، ٣٣٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن خالويه (ص: ٢٥٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٦٨).

الأُولى؛ فإنَّ الاستئنافَ يُعَلَّلُ به أيضًا. أي: جَزَيتُهم اليومَ بما صَبَروا؛ لأنَّهم هم الفائِزونَ. وقيلَ: على معنى المفعوليَّةِ، أي: جَزَيتُهم اليومَ بصَبْرِهم الفَوْزَ[١].

﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

أي: أنَّهم الفائِزونَ بالنَّعيمِ المُقيمِ في الجنَّةِ، النَّاجونَ مِن عَذابِ النَّارِ[٢].

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ (قُلْ) على الأمرِ بغَيرِ ألِفٍ، قِيلَ: هو أمْرٌ للمَلَكِ أنْ يسألَهم يومَ البَعثِ عن قَدْرِ مُكْثِهم في الدُّنيا، أو عن قَدْرِ لُبْثِهم في قُبورِهم. وقِيلَ: المعنى: قُولوا: كم لَبِثْتُم؟ فأُخرِجَ الكلامُ مُخرَجَ الأمْرِ للواحِدِ، والمُرادُ: الجَماعةُ. وقِيلَ: المعنى: قُلْ: أيُّها الكُفَّارُ، كم لَبِثْتُم في الدُّنيا أو في قُبورِكم[٣]؟

٢- قِراءةُ ﴿قَالَ﴾ بالألِفِ على الخبَرِ، أي: قالَ اللهُ تعالى لهم، أو قالتِ الملائكةُ لهم: كمْ لَبِثْتُم في الدُّنيا أو في قُبورِكم[٤]؟

---

(١) قرَأَ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩، ٣٣٠).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن خالويه (ص: ٢٥٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين (٨/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٩)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

(٣) قرَأَ بها ابنُ كثيرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٠).
ويُنظَر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥، ١٥٦).

(٤) قرَأَ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٠).
ويُنظَر لمعنى هذه القِراءةِ: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥، ١٥٦).

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾.

أي: قال اللهُ في الآخِرةِ لأُولئكَ الأشقياءِ: كَمْ كانتْ مُدَّةُ مُكْثِكم في الأرضِ مِنَ السِّنينَ[1]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠).

قيلَ: المُرادُ: كَمْ لبِثْتُم في الدُّنيا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والثعلبي، وابنُ كثيرٍ، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٨٤).

وقِيلَ: المُرادُ: كم لَبِثْتُم في القُبورِ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا المعنى: مُقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقندي، ومكِّي، ونسَبَه ابنُ عطيَّة لجُمهورِ المفسِّرينَ ورجَّحَه، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩٢)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٧/ ٥٠١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣١).

وممَّن جمَعَ بيْن القَولينِ: الواحديُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٨).

قال الرازيُّ: (الغرَضُ مِن هذا السُّؤالِ التبكيتُ والتوبيخُ؛ فقد كانوا يُنكرون اللُّبثَ في الآخِرَة أصلًا، ولا يَعدُّون اللُّبثَ إلَّا في دارِ الدنيا، ويظنُّون أنَّ بعدَ الموتِ يدومُ الفناءُ ولا إعادةَ؛ فلمَّا حُصِّلوا في النارِ، وأيقنوا أنَّها دائمةٌ، وهم فيها مخلَّدون سألهم: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ تنبيهًا لهم على أنَّ ما ظنُّوه دائمًا طويلًا فهو يسيرٌ بالإضافةِ إلى ما أنكروه، فحينَئذٍ تحصُلُ لهم الحسرةُ على ما كانوا يَعتقدونَه في الدنيا مِن حيثُ أيقنوا خِلافَه؛ فليس الغرضُ السؤالَ، بل الغرضُ ما ذَكَرْنا). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٨).

وقال القرطبيُّ: (هذا السُّؤالُ للمُشركينَ في عَرصاتِ القيامةِ أو في النَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (يقولُ تعالى مُنبِّهًا لهم على ما أضاعوهُ في عُمرِهم القصيرِ في الدُّنيا؛ مِن طاعةِ اللهِ تعالى وعِبادته وحْدَه، ولو صَبَروا في مُدَّةِ الدُّنيا القصيرةِ لَفازوا كما فازَ أولياؤُه المتَّقونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠). =

﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

أي: قالوا: مَكَثْنا في الأرضِ يومًا أو بعضَ يومٍ[1].

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾.

أي: فاسأَلِ الحاسِبينَ الضَّابطينَ لِمِقدارِ ذلك[2].

﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

= وقال البقاعيُّ: (﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على تلك الحالِ الَّتي كُنْتُم تعُدُّونها فوزًا، ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ أنتم فيها ظافِرونَ، ولأعدائِكم قاهِرونَ، ولعلَّه عبَّرَ بما منه الإسناتُ الَّذي معناهُ القحْطُ؛ إشارةً إلى أنَّ أيَّامَ الدُّنيا ضِيِّقةٌ حرِجةٌ وإنْ كان فيها سَعةٌ، ولا سيَّما للكفَرةِ بكُفْرِهم وخُبْثِهم ومَكْرِهم الَّذي جرَّهم إلى أضيقِ الضِّيقِ وأسوَأِ العَيشِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٢).

قال ابنُ جريرٍ: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: أنْ يُقالَ كما قال اللهُ جَلَّ ثناؤُه: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣]، وهمُ الَّذينَ يعُدُّون عدَدَ الشُّهورِ والسِّنينَ وغيرِ ذلك. وجائزٌ أنْ يكونوا الملائكةَ، وجائزٌ أنْ يكونوا بني آدَمَ وغيرَهم، ولا حُجَّةَ بأيِّ ذلك مِن أيٍّ ثبَتَتْ صِحَّتُها؛ فغيرُ جائزٍ تَوجيهُ معنى ذلك إلى بَعضِ العادِّينَ دونَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢).

وقال البقاعيُّ: (ولَمَّا كان المَكَرةُ في الدُّنيا إذا أرادُوا تَمشيةَ كَذِبِهم، قالوا لمَن أخبَروهُ فتوقَّفَ في خبَرِهم: سَلْ فُلانًا؛ إيثاقًا بإخبارِهم، وسَتْرًا لعَوارِهم، جَرَوا على ذلك تَمادِيًا منهم في الجَهلِ بالعليمِ القديرِ في قولِهم: ﴿فَسْـَٔلِ﴾ أي: لِتعلَمَ صِدْقَ خبَرِنا، أو بسبَبِ تَرَدُّدِنا في العِلْمِ بحقيقةِ الحالِ لتَحريرِ حَقيقةِ المُدَّةِ، ﴿ٱلْعَآدِّينَ﴾. ويحتملُ أيضًا قصْدَ التَّرقيقِ عليهم؛ بالإشارةِ إلى أنَّ ما هم فيه مِنَ العذابِ شاغِلٌ لهم عن أنْ يَتصوَّرُوا شيئًا حاضِرًا مَحسوسًا، فضلًا عن أنْ يكونَ ماضيًا، فضلًا عن أنْ يكون فِكْريًّا، فكيف إنْ كان حسابًا؟!). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٩٣، ١٩٤).

﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ ﴾.

أي: قال اللهُ لهم: ما لَبِثْتُم في الأرضِ إلَّا وقْتًا يَسيرًا(١).

﴿ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

أي: لو أنَّكم كنتُمْ تَعلَمون قِلَّةَ لُبْثِكم في الدُّنيا لَمَا آثَرْتُم الدُّنيا الفانيةَ على الآخِرةِ الباقيةِ، فترَكْتُم طاعةَ اللهِ في تلك المُدَّةِ القَصيرةِ، واستَحْقَقْتُم سَخَطَه، وخَسِرْتُم النَّعيمَ الأبديَّ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ جَمَعوا بيْنَ الإيمانِ المُقتضي لأعمالِه الصَّالحةِ، والدُّعاءِ لِرَبِّهم بالمَغْفرةِ والرَّحمةِ، والتَّوسُّلِ إليه برُبوبيَّتِه، ومِنَّتِه عليهم بالإيمانِ، والإخبارِ بسَعةِ رَحمَتِه، وعُمومِ إحسانِه، وفي ضِمْنِه ما يدُلُّ على خُضوعِهم وخُشوعِهم وانكسارِهم لِرَبِّهم، وخَوفِهم ورَجائِهم. فهؤلاء ساداتُ النَّاسِ وفُضلاؤهم(٣).

٢- مِن أنواعِ التوسُّلِ المشروعِ في دعاءِ الله تعالى: التوسُّلُ إلى اللهِ تعالَى بالإيمانِ به وطاعتِه؛ كقولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٢).

قال البقاعيُّ: (﴿ إِلَّا قَلِيلٗاۖ ﴾ أي: هو مِنَ القِلَّةِ بحيث لا يُسمَّى، بلْ هو عدَمٌ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٩٥).

وقال الشِّنقيطيُّ: (لأنَّ مُدَّةِ مُكثِهم في الدُّنيا قليلةٌ جِدًّا بالنِّسبةِ إلى طُولِ مُدَّتِهم خالدينَ في النَّارِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾، وقولِه عن أُولي الألبابِ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[1][آل عمران: ١٩٣].

٣- في قولِه تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ إلى قولِه سُبحانَه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، هذه الآياتُ تُبيِّنُ أنَّ الإنسانَ يَنْبَغي له أنْ يَنتهِزَ فُرصةَ العُمرِ، وألَّا يَخسَرَ عُمرَه كما خَسِرَه هؤلاءِ، وأنَّه سوف يُبعَثُ ويُجازَى ويُحاسَبُ على عمَلِه، فنسألُ اللهَ تعالى أنْ يَجعَلَنا وإيَّاكم ممَّن حِسابُه يَسيرٌ، ومآلُه إلى دارِ القَرارِ في جنَّاتِ النَّعيمِ[2].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: في عِدادِ مَن يَعلَمُ في ذلك الوقْتِ، لَمَا آثَرْتُمُ الفانيَ على الباقي، ولَأقْبَلْتُم على ما يَنفَعُكم، وتَركْتُم الخَلاعةَ الَّتي لا يَرْضاها عاقِلٌ، ولا يكونُ على تَقديرِ الرِّضا بفِعْلِها إلَّا بعدَ الفراغِ مِنَ المُهِمِّ، ولكنَّكم كنتُمْ في عِدادِ البهائمِ. وفي ذلك تَنبيهٌ للمُؤمنينَ -الَّذين هم الوارِثونَ- على الشُّكرِ على ما منَحَهُم؛ مِن السُّرورِ بإهلاكِ أعدائِهم، وإيراثِهم أرْضَهم ودِيارَهم، مع إعزازِهم، والبَرَكةِ في أعمارِهم، بعدَ إراحَتِهم منهم في الدُّنيا، ثمَّ بإدامةِ سَعادتِهم في الآخرةِ، وشَقاوةِ أعدائِهم[3].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، إنَّما ذكَرَ ﴿قَلِيلٗا﴾؛ لأنَّ الواحِدَ مِن أهْلِ الدُّنْيا وإنْ لَبِثَ في الدُّنْيا سِنينَ كثيرةً، فإنَّه يكونُ قَليلًا في جَنبِ ما يلْبَثُ في الآخرةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (٢/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٤).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، لمَّا كان مُجرَّدُ ذِكْرِ الآياتِ كافيًا في الإيمانِ، نبَّهَ على ذلك بالبِناءِ للمفعولِ: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[١].

٢- عن زَيدِ بنِ أسلَمَ، قال: (واللهِ ما قالَتِ القَدريَّةُ كما قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ، ولا كما قالتِ الملائكةُ، ولا كما قال النَّبيُّونَ، ولا كما قال أهْلُ الجنَّةِ، ولا كما قال أهْلُ النَّارِ، ولا كما قال أخُوهم إبليسُ؛ قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقالتِ الملائكةُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال شُعيبٌ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال أهْلُ الجنَّةِ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال أهْلُ النَّارِ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، وقال أخُوهم إبليسُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩])[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف يَجوزُ أنْ يَطلُبوا ذلك، وقد عَلِموا أنَّ عِقابَهم دائمٌ؟

الجوابُ: يجوزُ أنْ يَلْحَقَهمُ السَّهوُ عن ذلك في أحوالِ شِدَّةِ العذابِ، فيسأَلونَ الرَّجعةَ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ مع عِلْمِهم بذلك، يسألون ذلك على وَجْهِ الغَوثِ والاستِرواحِ[٣].

٤- أنَّ عَذابَ الكافرينَ عَذابٌ مُؤلِمٌ ألَمًا نَفْسيًا، وألَمًا جُسمانيًّا؛ فأمَّا الألَمُ النَّفْسيُّ فدَليلُه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ فهذا مِن أبلَغِ ما

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨).

(٢) أخرجه الفريابي في ((القدر)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٧).

يكونُ مِن الإذلالِ الَّذي به الألَمُ النَّفسيُّ، وأمَّا الألَمُ البَدنيُّ فدليلُه قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، وقولُه تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقولُه تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[1] [الحج: ١٩ - ٢٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ يُستفادُ مِن هذا: التَّحذيرُ مِن السُّخريةِ والاستِهزاءِ بالضُّعفاءِ والمساكينِ، والاحتِقارِ لهم، والإزراءِ عليهم، والاشتِغالِ بهم فيما لا يُغْني، وأنَّ ذلك مُبْعِدٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، احتَجَّ مَن أنكرَ عذابَ القبْرِ بهذه الآيةِ، فقال: قولُه: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يَتناوَلُ زَمانَ كَونِهم أحياءً فوقَ الأرضِ، وزَمانَ كَونِهم أمواتًا في بطْنِ الأرضِ؛ فلو كانوا مُعذَّبينَ في القبْرِ لَعَلِموا أنَّ مُدَّةَ مُكْثِهم في الأرضِ طويلةٌ، فما كانوا يقولونَ: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؟ **والجوابُ مِن وَجْهينِ:**

الوجْه الأوَّل: أنَّ الجوابَ لا بُدَّ أنْ يكونَ بحسَبِ السُّؤالِ، وإنَّما سُئِلوا عن مَوتٍ لا حياةَ بَعدَه إلَّا في الآخرةِ، وذلك لا يكونُ إلَّا بَعدَ عذابِ القبْرِ.

الوَجْه الثَّاني: يَحتمِلُ أنْ يَكونوا سُئلوا عن قَدْرِ اللُّبثِ الَّذي اجْتَمَعوا فيه، فلا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٥).

يَدخُلُ في ذلك تَقدُّمُ مَوتِ بَعضِهم على البعضِ؛ فيَصِحُّ أنْ يكونَ جَوابُهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ عندَ أنفُسِنا(١).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾، فيه سُؤالٌ: إنْ قِيلَ: كيف يصِحُّ في جَوابِهم أنْ يَقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ولا يقَعُ مِن أهْلِ النَّارِ الكذِبُ؟

الجوابُ: لعلَّهم نَسُوا ذلك؛ لكَثرةِ ما هم فيه مِن الأهوالِ، وقدِ اعْتَرَفوا بهذا النِّسيانِ حيث قالوا: ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾.

وقِيلَ: مُرادُهم بقولِهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: تَصغيرُ لُبْثِهم وتَحقيرُه بالإضافةِ إلى ما وَقَعوا فيه وعَرَفُوه مِن أليمِ العذابِ(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾، فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ يَزعُمون يومَ القيامةِ أنَّهم ما لَبِثوا إلَّا يومًا أو بعضَ يومٍ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ يُفهَمُ منها خِلافُ ذلك؛ كقولِه تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]؟

الجوابُ عن هذا بما دَلَّ عليه القُرآنُ؛ وذلك أنَّ بَعضَهم يقولُ: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] [المؤمنون: ١١٣]، وبَعضَهم يقولُ: لَبِثْنا ساعةً، وبعضَهم يقولُ: لَبِثْنا عشْرًا. ووَجْهُ دَلالةِ القُرآنِ على هذا: أنَّه بيَّنَ أنَّ أقْواهم إدراكًا، وأرجَحَهم عقْلًا، وأمثَلَهم طَريقةً، هو مَن يقولُ: إنَّ مُدَّةَ لُبْثِهم يومٌ، وذلك قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]؛ فدَلَّ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٨).

على اختِلافِ أقوالِهم في مُدَّةِ لُبْثِهم، والعِلْمُ عندَ اللهِ تعالى(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمارِ القولِ تَعنيفًا وتَوبيخًا، وتَذكيرًا لِمَا به استَحقُّوا ما ابْتُلوا به مِن العذابِ. والاستفهامُ للإنكارِ(٢).

- وقولُه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ليس بتَكرارٍ لقولِه قَبْلَه: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٦]؛ لأنَّ الأوَّلَ في الدُّنيا عندَ نُزولِ العَذابِ، وهو الجَدبُ عندَ بَعضِهم، ويومُ بَدرٍ عندَ بعضِهم. والثَّاني في القيامةِ وهم في الجَحيمِ؛ بدَليلِ قولِه: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾(٣) [المؤمنون: ١٠٧].

- قَولُه: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهَا﴾؛ للإعلامِ بمُبالَغتِهم في التَّكذيبِ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾

- مَفعولُ ﴿غَلَبَتْ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه ﴿شِقْوَتُنَا﴾؛ لأنَّ الشِّقوةَ تُقابِلُها السَّعادةُ، أي: غلَبَتْ شِقوتُنا السَّعادةَ(٥).

- ومُثِّلَت حالةُ اختيارِهم لأسبابِ الشِّقوةِ بَدَلَ أسبابِ السَّعادةِ بحالةِ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٥، ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨، ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٧، ١٢٨).

غائرةٍ بيْنَ السَّعادةِ والشَّقاوةِ على نُفوسِهم. وإضافةُ الشِّقوةِ إلى ضَميرِهم؛ لاختِصاصِها بهم حين صارَتْ غالِبةً عليهم[١].

- وفي جَعْلِ الخبَرِ ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ دونَ الاقتِصارِ على ﴿ضَآلِّينَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الضَّلالةَ سَجِيَّةٌ فيهم ومن شِيمَتِهم حتَّى كأنَّها مِن مُقوِّماتِ قوميَّتِهم[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ تَدرُّجٌ مِن الإقرارِ بالذَّنْبِ إلى الرَّغبةِ والتَّضرُّعِ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿عُدْنَا﴾؛ لِظُهورِه مِن المَقامِ؛ إذ كان إلْقاؤهم في النَّارِ لأجْلِ الإشراكِ والتَّكذيبِ، كما دَلَّ عليه قولُهم: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ استِئنافٌ قُصِدَ منه إغاظَتُهم بمُقابَلةِ حالِهم يومَ العذابِ بحالِ الَّذين أنعَمَ اللهُ عليهم، وتَحسيرُهم على ما كانوا يُعامِلون به المُسلمينَ[٥]. وقيل: تَعليلٌ لِمَا قَبلَه مِن الزَّجرِ عن الدُّعاءِ[٦]. وهذه الآيةُ مِن الخبَرِ الَّذي يُقالُ للكُفَّارِ على جِهَةِ التَّوبيخِ[٧].

- والإخبارُ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ إلى قولِه: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ مُستعمَلٌ في كَونِ المُتكلِّمِ عالِمًا بمَضمونِ الخَبرِ؛ بقَرينةِ أنَّ المُخاطَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٧).

يَعلَمُ أحوالَ نَفْسِه. وتأْكيدُ الخَبرِ بـ(إنَّ) وضَميرِ الشَّأنِ؛ للتَّعجيلِ بإرهابِهم[١].

٥- قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ مُتضمِّنٌ للتَّخويفِ؛ لِوُرودِه تَوبيخًا للقومِ، وأنَّه إنَّما جَرَّهم إلى السُّخريةِ بأولياءِ اللهِ تَرْكُ الذِّكرِ المُؤدِّي إلى عدَمِ الخَوفِ مِن اللهِ تعالى؛ فقولُه: ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ مُرتَّبٌ على قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾، وهو تَعليلٌ لقولِه: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[٢].

- قولُه: ﴿سِخۡرِيًّا﴾ مَصدرٌ زِيدَتْ فيه ياءُ النِّسبةِ؛ للمُبالَغةِ[٣]، وسُلِّطَ الاتِّخاذُ على المصدرِ في قولِه: ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾؛ للمُبالَغةِ، كما يُوصَفُ بالمَصدرِ[٤].

- قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴾ اسْتِهْزاءً بِهم، وأضافَ الإنساءَ إلى المُؤمنينَ؛ لأنَّهم كانوا سببًا لاشتِغالِهم عن ذِكْرِه، وتَعدِّي شُؤمِ استِهزائِهم بالمُؤمنينَ إلى استِيلاءِ الكُفْرِ على قُلوبِهم[٥].

- ﴿وَكُنتُم﴾ أي: بأخلاقٍ هي كالجِبلَّةِ، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ أي: خاصَّةً، ﴿تَضۡحَكُونَ ﴾ كأنَّهم لَمَّا صَرَفوا قُواهُمْ إلى الاستِهزاءِ بهم، عُدَّ ضَحِكُهم مِن غَيرِهم عدَمًا[٦].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ استِئنافٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٢، ٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٥٥).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩١).

لِبَيانِ حُسنِ حالِهم، وأنَّهم انْتَفَعوا بما آذَوْهم[١]. وقيل: خبَرُ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ﴾؛ لزِيادةِ التَّأكيدِ[٢].

- قولُه: ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ إدماجٌ للتَّنويهِ بالصَّبرِ، والتَّنبيهِ على أنَّ سُخريَّتَهم بهم كانت سَبَبًا في صَبْرِهم الَّذي أكسَبَهم الجَزاءَ. وفي ذلك زِيادةُ تَلْهيفٍ للمُخاطَبينَ بأنْ كانوا هم السَّببَ في ضَرِّ أنفُسِهم، ونَفعِ مَن كانوا يَعُدُّونهم أعداءَهم[٣].

- قولُه: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قِراءةُ فَتْحِ الهمزةِ على معنَى المصدريَّةِ والتَّأكيدِ؛ أي: جَزَيتُهم بأنَّهم. وقِراءةُ كَسْرِ هَمزةِ (إنَّ) على التَّأكيدِ فقطْ؛ فتكونُ استئنافًا بَيانيًّا للجزاءِ[٤]. وقيل: على قِراءةِ فَتحِ الهمزةِ تَعليلٌ، أي: جَزَيتُهم لأنَّهم، والكَسرُ على الاستئنافِ، وقد يُرادُ به التَّعليلُ؛ فيكونُ الكَسرُ مِثْلَ الفَتحِ مِن حيثُ المعنى[٥]. وقيل: كَسرُ الهمزةِ على أنَّه تَعليلٌ للجزاءِ، وبَيانٌ لِكَونِه في غايةِ ما يكونُ مِن الحُسنِ[٦].

- وضَميرُ الفَصلِ ﴿هُمُ﴾؛ للاختصاصِ، أي: هم الفائِزونَ لا أنتم[٧].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ تَذكيرٌ لِمَا لَبِثوا فيما سَألوا الرُّجوعَ إليه مِن الدُّنيا بَعدَ التَّنبيهِ على استِحالَتِه[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٠).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٢).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ؛ لِيَظهَرَ لهم خَطَؤُهم؛ إذْ كانوا يَزعُمون أنَّهم إذا دُفِنوا في الأرضِ لا يَخرُجون منها. وإضافةُ لَفظِ (عدد) إليه تأكيدٌ لِمَضمونِ (كم)؛ لأنَّ (كم) اسمُ استِفهامٍ عن العدَدِ، فذِكْرُ لَفظِ (عدد) معها تأكيدٌ لبَعضِ مَدْلولِها(١).

٨- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ استَقْصَروا مُدَّةَ لُبْثِهم في الدُّنيا بالإضافةِ إلى خُلودِهم، ولِمَا هم فيه مِن عَذابِها؛ لأنَّ المُمْتحَنَ يَستطيلُ أيَّامَ مِحْنَتِه، ويَستقصِرُ ما مَرَّ عليه مِن أيَّامِ الدَّعةِ إليها. أو لأنَّهم كانوا في سُرورٍ، وأيَّامُ السُّرورِ قِصارٌ، أو لأنَّ المُنْقضِيَ في حُكْمِ ما لم يكُنْ(٢).

- وإيقافُهم على ضَلالِ اعتِقادِهم الماضي جِيءَ به في قالَبِ السُّؤالِ عن مُدَّةِ مُكْثِهم في الأرضِ؛ كِنايةً عن ثُبوتِ خُروجِهم مِن الأرضِ أحياءً، وهو ما كانوا يُنكِرونَه، وكِنايةً عن خطَأِ استدلالِهم على إبطالِ البَعثِ باستحالَةِ رُجوعِ الحياةِ إلى عِظامٍ ورُفاتٍ، وهي حالةٌ لا تَقْتَضي مُدَّةَ قَرنٍ واحدٍ؛ فكيف وقد أُعِيدَت إليهم الحياةُ بَعْدَ أنْ بَقُوا قُرونًا كثيرةً، فذلك أدَلُّ وأظهَرُ في سَعةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ، وأدخَلُ في إبطالِ شُبْهَتِهم؛ إذ قد تبيَّنَ بُطلانُها فيما هو أكثَرُ ممَّا قَدَّروهُ مِن عِلَّةِ استِحالةِ عَودِ الحياةِ إليهم. وقد دَلَّ على هذا قولُه في آخِرِ الآيةِ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقد ألْجَأَهم اللهُ إلى إظهارِ اعتقادِهم قِصرَ المُدَّةِ الَّتي بَقُوها؛ زِيادةً في تَشويهِ خطَئِهم، فإنَّهم لمَّا أحسُّوا مِن أنفُسِهم أنَّهم صاروا أحياءً كحياتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣).

الأُولى، وعاد لهم تَفكيرُهم القديمُ الَّذي ماتوا عليه، وكانوا يَتوهَّمون أنَّهم إذا فَنِيَت أجسادُهم لا تعودُ إليهم الحياةُ: أوهَمَهم كَمالُ أجسادِهم أنَّهم ما مَكَثوا في الأرضِ إلَّا زمنًا يَسيرًا لا يَتغيَّرُ في مِثْلِه الهيكلُ الجُثمانِيُّ، فبَنَوا على أصْلِ شُبْهَتِهم الخاطئةِ خطَأً آخَرَ[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ صَدَّقهم اللهُ في مَقالِهم لِسِني لُبْثِهم في الدُّنيا، ووبَّخهم على غَفْلَتِهم الَّتي كانوا عليها[٢].

- ولم يُعْطَفْ فِعْلُ ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ لأنَّه جاء على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ[٣].

- قولُه: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يُؤْذِنُ بكَلامٍ مَحذوفٍ، على طَريقةِ دَلالةِ الاقتِضاءِ[٤]؛ لأنَّهم قد لَبِثُوا أكثَرَ مِن يومٍ أو بعضَ يومٍ بكثيرٍ؛ فكيف يُجعَلُ قليلًا؟! فتعيَّنَ أنَّ قولَه: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ لا يَستقيمُ أنْ يكونَ جوابًا لكَلامِهم إلَّا بتَقديرِ: قال: بلْ لَبِثْتُم قُرونًا، وإنْ لَبِثْتم إلَّا قليلًا فيما عندَ اللهِ[٥].

- قولُه: ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الجَوابُ مَحذوفٌ؛ ثِقةً بدَلالةِ ما سبَقَ عليه، أي: لعَلِمْتُم يومئذٍ قِلَّةَ لُبْثِكم فيها[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣١).

(٤) دلالةُ الاقتِضاءِ: هي دلالةُ اللفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصدقِ أو الصحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣).

الآيات (١١٥-١١٨)

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ
الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ
لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ
خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَبَثًا﴾: العَبَثُ: اللَّعِبُ، وما لا فائدةَ فيه، وكلُّ ما ليس له غَرَضٌ صحيحٌ، يُقالُ: عَبَثَ يَعْبَثُ عَبَثًا: إذا خَلَط عَمَلَه بلَعِبٍ، وأصلُ (عبث): يَدُلُّ على الخَلْطِ[١].

﴿بُرْهَانَ﴾: البرهانُ: الحُجَّةُ والدَّليلُ، وأصْلُه: وُضوحُ الشَّيءِ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: أفظَنَنتُم أنَّما خلَقْناكم لَعِبًا وباطلًا، لا لحِكمةٍ ولا فائدةٍ، وأنَّكم لا تُرجَعونَ إلينا يومَ القِيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ؟! فتعاظَمَ وتقَدَّسَ اللهُ الملِكُ الحَقُّ عن أنْ يَخلُقَ شيئًا من المخلوقات عَبثًا، وعن كُلِّ ما لا يَليقُ بعظمته وجَلالِه وكَمالِه، لا إلهَ غَيرُه، وهو ربُّ العَرشِ الكريم.

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى أنَّ مَن يَعبُدُ مع اللهِ الواحِدِ إلهًا آخَرَ لا دَليلَ له على استِحقاقِه العِبادةَ، فسَيَلْقى الحِسابَ الشَّديدَ في الآخرةِ مِن ربِّه جلَّ وعلا؛ إنَّه لا نَجاةَ ولا فلاحَ للكافرينَ يومَ القيامةِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٧)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٢٤٨).

ثمَّ أمَر اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَدْعوَه فيقولَ: ربِّ اغفِرْ وارحَمْ، وأنت سبحانَك خيرُ مَن يَرحَمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ سُبحانَه صِفاتِ القِيامةِ؛ ختَمَ الكلامَ فيها بإقامةِ الدَّلالةِ على وُجودِها؛ وهي أنَّه لولا القِيامةُ لَمَا تميَّزَ المُطِيعُ مِن العاصي، والصِّدِّيقُ مِن الزِّنديقِ، وحينَئذٍ يكونُ خَلْقُ هذا العالَمِ عبَثًا[1]، فقال:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾.

أي: أفظَنَنْتُم[2] أنِّي خلَقْتُكم لَعِبًا وباطلًا، بلا قصْدٍ ولا فائدةٍ ولا حِكْمةٍ، مُهمَلينَ؛ لا تُؤْمَرونَ ولا تُنهَون، ولا تُثابُون ولا تُعاقَبون[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٩).

(٢) قِيلَ: الضَّميرُ يعودُ على الأشقياءِ المنكرينَ للبعثِ. وممَّن قال بهذا المعنى: يحيى بنُ سلام، وابنُ جريرٍ، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٣).
قال البِقاعيُّ: (ولمَّا كان حالُهم في ظنِّهم أنْ لا بَعثَ، حتَّى اشْتَغلوا بالفرَحِ والبطَرِ والمرَحِ، والاستِهزاءِ بأهْلِ اللهِ، حالَ مَن يظُنُّ العَبَثَ على اللهِ الملِكِ الحقِّ المُبينِ؛ سبَّبَ عن ذلك عطْفًا على قولِه: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾[المؤمنون: ١١٠] إنكارَهُ عليهم في قولِه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ معطوفًا على مُقدَّرٍ، نَحْوُ: أحسِبْتُم أنَّا نُهمِلُكم، فلا نُنصِفُ مَظلومَكم مِن ظالِمِكم، فحَسِبْتم ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾؟!). ((نظم الدرر)) (١٣/ ١٩٥).
وقِيلَ: الخِطابُ لعُموم الخلْقِ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٧٤)، =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تَبارَكَ وتَعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وتَحْسَبون أنَّكم بَعدَ مَوتِكم لا تُبعَثون يومَ القِيامةِ أحياءً للحِسابِ والجَزاءِ على أعْمالِكم خَيرِها وشَرِّها[(١)]؟!

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: فتَعاظَمَ وتقدَّسَ اللهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ به سُبحانَه، ومِن ذلك إيجادُه المخلوقاتِ عَبثًا؛ فإنَّه التَّامُّ المُلْكِ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ، الَّذي لا يَتطرَّقُ الباطِلُ

= ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

قال ابنُ القيِّم: (اتَّفقَ المُفسِّرونَ على أنَّ الحقَّ الَّذي خُلِقَت به السَّمواتُ والأرضُ هو الأمْرُ والنَّهيُ، وما يترتَّبُ عليهما مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ، فمَن جحَدَ ذلك، وجحَدَ رِسالةَ الرُّسلِ، وكفَرَ بالمَعادِ، وأحالَ حَوادِثَ العالَمِ على حركاتِ الكواكِبِ: فقد زعَمَ أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ أبطَلُ الباطِلِ، وأنَّ العالَمَ خُلِقَ عبَثًا، وتُرِك سُدًى، وخُلِّي همَلًا، وغايةُ ما خُلِق له أنْ يكونَ مُتمتِّعًا باللَّذَّاتِ الحِسيَّةِ كالبهائمِ في هذه المُدَّةِ القصيرةِ جِدًّا، ثمَّ يُفارِقُ الوُجودَ، وتُحْدِثُ حَركاتُ الكواكبِ أشخاصًا مِثْلَه، هكذا أبدًا! فأيُّ باطِلٍ أبطَلُ مِن هذا؟! وأيُّ عبَثٍ فوقَ هذا؟!). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

إليه في شَيءٍ مِن ذاتِه ولا صِفاتِه؛ فلا زوالَ له ولا لِمُلْكِه، فأنَّى يأْتيهِ العَبثُ[١]؟!

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان الحَقُّ مِن حيثُ هو قدْ يكونُ له ثانٍ؛ نفَى ذلك في حَقِّه تعالى بقولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ فلا يُوجَدُ له نظيرٌ أصلًا في ذاتٍ ولا صِفَةٍ، ومَن يكونُ كذلك يكونُ حائزًا لجَميعِ أوصافِ الكَمالِ، وخِلالِ الجَلالِ والجَمالِ، مُتعاليًا عن سِماتِ النَّقصِ، والعبَثُ مِن أدْنى صِفاتِ النَّقصِ؛ لِخُلُوِّه عن الحِكمةِ الَّتي هي أساسُ الكَمالِ. ثمَّ زاد في التَّعيينِ والتَّأكيدِ للتَّفرُّدِ بوَصْفِه بصِفَةٍ لا يَدَّعِيها غيرُه، فقال: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ﴾[٢].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣).

قال السعديُّ: (فكونُه مَلِكًا للخَلقِ كلِّهم حقًّا؛ في صِدْقِه، ووَعْدِه ووَعيدِه، مألوهًا مَعبودًا؛ لِمَا له مِنَ الكَمالِ ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾، فما دُونَه مِن بابِ أَولى: يَمنَعُ أنْ يَخلُقَكم عبثًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الحقُّ: ما قابَلَ الباطِلَ، ومَفهومُ الصِّفةِ يَقْتَضي أنَّ مُلْكَ غَيرِه باطِلٌ، أي: فيه شائبةُ الباطِلِ، لا مِن جِهةِ الجَورِ والظُّلمِ؛ لأنَّه قد يُوجَدُ مُلْكٌ لا جَورَ فيه ولا ظُلْمَ؛ كمُلْكِ الأنبياءِ والخُلَفاءِ الرَّاشدينَ، وأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الخُلفاءِ والأُمراءِ، بلْ مِن جِهةِ أنَّه مُلْكٌ غيرُ مُسْتكمِلٍ حَقيقةَ المالكيَّةِ؛ فإنَّ كلَّ مَن يُنْسَبُ إليه المُلْكُ -عدَا اللهَ تعالى- هو مالِكٌ مِن جِهةٍ، وممْلوكٌ مِن جِهةٍ؛ لِمَا فيه مِن نقْصٍ واحتياجٍ، فهو ممْلوكٌ؛ لِمَا يتَطلَّبُه مِن تَسديدِ نقْصِه بقَدْرِ الحاجةِ، ومِن استعانةٍ بالغَيرِ لجَبْرِ احتياجِه، فذلك مُلْكٌ باطِلٌ؛ لأنَّه ادِّعاءُ مُلْكٍ غيرِ تامٍّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٧).

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، وكلُّ ما سِواهُ عَبيدُه؛ فهو المُستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له[١].

﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

أي: رَبُّ العَرْشِ الشَّريفِ الحسَنِ البَهِيِّ المَنْظَرِ، الَّذي هو سَقْفُ المَخلوقاتِ وأعظَمُها[٢].

﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّه هو المَلِكُ الحقُّ لا إلَهَ إلَّا هو؛ أتبَعَه بأنَّ مَنِ ادَّعى إلهًا آخَرَ فقدِ ادَّعى باطِلًا مِن حيثُ لا بُرهانَ لهم فيه، ثمَّ ذكَرَ أنَّ مَن قال بذلك فجزاؤُه العِقابُ العظيمُ؛ بقولِه: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾[٣].

﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾.

أي: ومَن يَعبُدْ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ لا حُجَّةَ له على عِبادتِه؛ فرَبُّه وَحْدَه سيُحاسِبُه يومَ القيامةِ، ويُعذِّبُه على شِرْكِه به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٢٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

قال الشنقيطيُّ: (وصَفَ عرْشَه بالكرَمِ؛ لِعَظَمتِه، وكِبَرِ شأْنِه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أي: إنَّه لا يَنجَحُ الكافِرونَ، ولا يَسْعدون، ولا يَفوزونَ، ولا يَنالونَ الخُلودَ في نَعيمِ الجنَّةِ، بلْ هم أهْلُ النَّارِ الهالِكونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى أحوالَ الكُفَّارِ في جَهْلِهم في الدُّنيا، وعذابِهم في الآخرةِ؛ أمَرَ نَبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالانقطاعِ إليه، والالتِجاءِ إلى دَلائلِ غُفْرانِه ورَحْمَتِه؛ فإنَّهما هما العاصِمانِ عن كلِّ الآفاتِ والمَخافاتِ[2].

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا رَبِّ، استُرْ ذُنوبَنا، وتجاوَزْ عن مُؤاخَذتِنا بها، وارْحَمْنا

= كثير)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤).

قال الشنقيطيُّ: (لا خِلافَ بيْن أهْلِ العِلْمِ أنَّ قولَه هنا: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ لا مَفهومَ مُخالَفةٍ له؛ لِاستحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عِبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، بلِ البراهينُ القَطعيَّةُ المُتواتِرةُ دالَّةٌ على أنَّه هو المعبودُ وَحْدَه، ولا يُمكِنُ أنْ يُوجَدَ دَليلٌ على عِبادةِ غيرِه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٠٠).

في دُنيانا وآخِرَتِنا(١).

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أي: وأنتَ أفضَلُ مَن رحِمَ(٢).

الفوائدُ التربوية:

١- إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى خَلَق الجِنَّ والإنسَ؛ لحِكمةٍ عَظيمةٍ، وغايةٍ حميدةٍ، وهي عبادتُه تبارك وتعالى، كما قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّ لله تعالى حِكمةً بالِغةً مِن خَلقِ الجِنِّ والإنسِ، وهي عبادتُه. وعلى هذا فمَن تمَرَّد على ربِّه واستكبَرَ عن عبادتِه فإنَّه يكونُ نابذًا لهذه الحِكمةِ التي خَلَق اللهُ العِبادَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هذا إرشادٌ مِنَ اللهِ إلى هذا الدُّعاءِ، فالغَفرُ -إذا أُطْلِقَ- معناهُ: مَحْوُ الذَّنْبِ وسَتْرُه عنِ النَّاسِ، والرَّحمةُ معناها: أنْ يُسدِّدَه ويُوفِّقَه في الأقوالِ والأفعالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠٢).

وقال السعديُّ: (﴿وَقُل﴾ داعيًا لرَبِّك مُخلِصًا له الدِّينَ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾ لنَا؛ حتَّى تُنجِّيَنا مِنَ المكروهِ، وارْحَمْنا؛ لِتُوصِّلَنا برَحْمَتِك إلى كلِّ خيرٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).

قال السعدي: (فكلُّ راحمٍ للعبدِ، فاللهُ خيرٌ له منه؛ أرحَمُ بعبدِه مِن الوالدةِ بولدِها، وأرحمُ به مِن نفْسِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

وقال النَّسفيُّ: (رَحْمَتُه إذا أدرَكَتْ أحدًا أغنَتْه عن رَحمةِ غيرِه، ورَحمةُ غيرِه لا تُغْنِيه عن رَحْمتِه). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٨٥).

أجْلِها، وفِعلُه يَشهَدُ أنَّ اللهَ خَلَق الخَلقَ عَبثًا وسُدًى! وهو وإنْ لم يُصَرِّحْ بذلك لكِنْ هذا هو مُقتَضى تمرُّدِه واستِكبارِه عن طاعةِ رَبِّه(١).

٢- قَوْله تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ يدلُّ على أنَّ الآدَمِيَّ لم يُخلَقْ لطلبِ الدُّنيا والاشتِغالِ بها، وإنَّما خُلِق ليَعبدَ الله، ويقومَ بأوامرِه(٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- مَن تأمَّلَ بَعضَ هِدايةِ اللهِ المَبْثوثةِ في العالَمِ، شهِدَ له بأنَّه اللهُ الَّذي لا إلهَ إلَّا هوَ، عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، العزيزُ الحكيمُ، وانتقَلَ مِن مَعرفةِ هذه الهِدايةِ إلى إثباتِ النُّبوَّةِ بأيسَرِ نظَرٍ، وأوَّلِ وَهلةٍ، وأحسَنِ طَريقٍ وأخصَرِها، وأبْعَدِها مِن كُلِّ شُبهةٍ؛ فإنَّه لم يُهمِلِ هذه الحيواناتِ سُدًى، ولم يَترُكْها مُعطَّلةً، بلْ هَداها إلى هذه الهِدايةِ الَّتي تَعجِزُ عُقولُ العُقلاءِ عنها. كيف يَليقُ به أنْ يَترُكَ النَّوعَ الإنسانيَّ -الَّذي هو خُلاصةُ الوُجودِ، الَّذي كرَّمَه وفضَّلَه على كَثيرٍ مِن خَلْقِه- مُهْمَلًا، وسُدًى مُعطَّلًا، لا يَهْديهِ إلى أقْصَى كَمالاتِه، وأفضَلِ غاياتِه، بلْ يَترُكُه مُعطَّلًا لا يأمُرُه ولا يَنهاهُ، ولا يُثيبُه ولا يُعاقِبُه؟! وهل هذا إلَّا مُنافٍ لِحِكمَتِه، ونِسْبةٌ له مَا لا يَليقُ بجَلالِه؟! ولهذا أنكَرَ ذلك على مَن زعَمَه، ونزَّهَ نفْسَه عنه، وبيَّنَ أنَّه يَستحِيلُ نِسْبةُ ذلك إليه، وأنَّه يَتعالى عنه؛ فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾؛ فنزَّهَ نفْسَه عن هذا الحُسبانِ؛ فدَلَّ على أنَّه مُستقِرٌّ بُطلانُه في الفِطَرِ السَّليمةِ، والعُقولِ المُستقيمةِ، وهذا أحَدُ ما يدُلُّ على إثباتِ المَعادِ بالعقْلِ، وأنَّه ممَّا تظاهَرَ عليه العقلُ والشَّرعُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((فتاوى أركان الإسلام)) لابن عثيمين (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٦).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ في هذينِ الاسمين: ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ إبطالٌ لهذا الحُسبانِ الَّذي ظَنَّه أعداؤُه؛ إذْ هو مُنافٍ لكَمالِ مُلْكِه ولكونِه الحَقَّ؛ إذِ ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ هو الَّذي يكونُ له الأمرُ والنَّهيُ، فيَتصرَّفُ في خَلْقِه بقولِه وأمْرِه، وهذا هو الفَرقُ بين (المَلِكِ) و(المالكِ)؛ إذِ المالِكُ هو المُتصرِّفُ بفِعْلِه، والمَلِكُ هو المُتصرِّفُ بفِعْلِه وأَمْرِه، والرَّبُّ تعالى مالِكُ المُلْكِ، فهو المُتصرِّفُ بفِعْلِه وأَمْرِه، فمَن ظَنَّ أنَّه خَلَقَ خلْقَه عَبثًا، لم يأمُرْهم ولم يَنْهَهُم، فقد طعَنَ في مُلْكِه، ولم يَقْدُرْه حَقَّ قَدْرِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فمَن جحَدَ شرْعَ اللهِ وأمْرَه ونَهْيَه، وجعَلَ الخلْقَ بمَنزلةِ الأنعامِ المُهْمَلةِ؛ فقد طعَنَ في مُلْكِ اللهِ، ولم يَقْدُرْه حَقَّ قَدْرِه[(١)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ﴾ لَمَّا كان بعضُ مُلوكِ الدُّنيا قد يَفعَلُ ما يُنافي شِيَمَ المُلوكِ مِن العبَثِ بما فيه مِنَ الباطلِ، أتْبَعَ ذلك بصِفَةٍ تُنزِّهُه عنه، فقال: ﴿الْحَقُّ﴾[(٢)].

٤- دُعاءُ غيرِ اللهِ كُفْرٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، فأثبَتَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أمْرينِ مُهمَّينِ:

الأمرَ الأوَّلَ: أنَّ مَن دعا غيرَ اللهِ فهو كافِرٌ؛ لقولِه: ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

الأمرَ الثَّانيَ: أنَّ مَن دعا غيرَ اللهِ فإنَّه لا يُفلِحُ، لا يَحصُلُ له مَطلوبُه، ولا يَنْجو مِن مَرْهوبِه، فيكونُ داعِي غيرِ اللهِ خاسرًا في دِينِه ودُنياه، وإذا كان غيرَ مُفلِحٍ فهو

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٦، ١٩٧).

أيضًا غيرُ عاقلٍ، بلْ هذا غايةُ السَّفهِ؛ لقولِه تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥]، أي: لا أحَدَ أضَلُّ ممَّن يَدْعو مِن دُونِ اللهِ، ولكنَّه جاء هذا النَّفيُ بِصيغةِ الاستِفهامِ؛ لأنَّه أبلَغُ مِنَ النَّفيِ المحضِ، حيث يكونُ مُشرَبًا معنى التَّحدِّي[١].

٥- صيغةُ التَّفضيلِ في قولِه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ لأنَّ المخلوقينَ قد يرحمُ بعضُهم بعضًا، ولا شكَّ أنَّ رحمةَ اللهِ تُخالِفُ رَحمةَ خَلقِه، كمخالفةِ ذاتِه وسائِرِ صِفاتِه لِذَواتِهم وصِفاتِهم[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا ﴾ فرَّعَ الاستِفهامَ عن حُسبانِهم أنَّ الخلْقَ لأجْلِ العبَثِ على إظهارِ بُطلانِ ما زعَمُوه مِن إنكارِ البَعثِ. والاستِفهامُ تَقريرٌ وتَوبيخٌ؛ لأنَّ لازِمَ إنكارِهم البَعثَ أنْ يكونَ خلْقُ النَّاسِ مُشتمِلًا على عبَثٍ، فنُزِّلُوا مَنزلةَ مَن حَسِبَ ذلك، فقُرِّرُوا ووُبِّخُوا؛ أخْذًا لهم بلازِمِ اعتقادِهم[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾

- وجُملةُ: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ خبَرًا، قُصِدَ منه التَّذكيرُ والاستِنتاجُ ممَّا تقدَّمَ مِنَ الدَّلائلِ المُبيِّنةِ لمعنَى تعالِيه، وأنْ تكونَ إنشاءَ ثَناءٍ عليه بالعُلوِّ[٤].

- قولُه: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ دَليلانِ على ما قبلَه ﴿ فَتَعَـٰلَى

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٥).

﴿ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ وهما: انفرادُه بالإلهيَّةِ، وذلك وَصفٌ ذاتِيٌّ، وبأنَّه مالِكُ أعظَمِ المخلوقاتِ -أعني: العرشَ-، وذلك دَليلُ عَظمةِ القُدرةِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء هنا قولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾، وفي (التَّوبةِ): ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[التوبة: ١٢٩]، وفي (النَّملِ): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]؛ ووَجْهُه: أنَّ الآيةَ الأُولى وُصِفَ العرشُ بالكريمِ؛ لأنَّه في سِياقِ الحُكْمِ بالعَدلِ، والتَّنزُّهِ عن العَبثِ، بخِلافِ سِياقِ سُورةِ (التَّوبةِ) و(النَّملِ)، فإنَّه للقَهرِ والجَبروتِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صِفَةٌ لازِمةٌ، نحوَ قولِه: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾[الأنعام: ٣٨]؛ جِيءَ بها للتَّوكيدِ، وبِناءِ الحُكْمِ عليه، لا أنْ يكونَ في الآلهةِ ما يَجوزُ أنْ يقومَ عليه بُرهانٌ. وتَنبيهًا على أنَّ التَّديُّنَ بما لا دَليلَ عليه باطِلٌ، فكيفَ بما شَهِدَتْ بَديهةُ العُقولِ بخِلافِه؟! ويجوزُ أنْ يكونَ اعتراضًا بيْنَ الشَّرطِ والجَزاءِ؛ لتَوكيدِ مَضمونِهما(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، ولم يقُل: (لَا بُرْهَانَ لَهُ عليه)؛ ووجه ذلك: أنَّه لَمَّا كان المُرادُ ما يُسمَّى بُرهانًا -ولو على أدْنى الوُجوهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٦، ٢٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٦).

الكافيةِ-، عبَّرَ بالباءِ؛ سُلوكًا لِغايةِ الإنصافِ، دُونَ (على) المُفْهِمةِ للاستِعلاءِ بغايةِ البَيانِ، فقال: ﴿بِهِۦ﴾، أي: بسبَبِ دُعائِه؛ فإنَّه إذا اجتهَدَ في إقامةِ بُرهانٍ على ذلك لم يَجِدْ، بلْ وجَدَ البراهينَ كلَّها قائمةً على نفْيِ ذلك[١].

- والقَصرُ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ قَصرٌ حَقيقيٌّ. وفيه إثباتُ الحسابِ، وأنَّه للهِ وَحْدَه؛ مُبالَغةً في تَخطِئَتِهم وتَهديدِهم، ويجوزُ أنْ يكونَ القَصرُ إضافيًّا؛ تَطمينًا للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ لا يُؤاخِذُه باستِمرارِهم على الكُفْرِ، ويدُلُّ على ذلك تَذييلُه بجُملةِ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وُضِعَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ لأنَّ (مَنْ يَدْعُ) في معنَى الجَمعِ، والأصلُ: حِسابُه أنَّه لا يُفلِحُ هو، وإنَّما وجَبَ الجَمْعُ؛ لأنَّ الآيةَ تَذييلٌ للآياتِ الواردةِ في حَقِّ المُعانِدينَ المُصرِّينَ[٣]. ووُضِعَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ المُفرَدِ بَعدَ الإفرادِ في ﴿حِسَابُهُۥ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ عدَمَ الفَلاحِ مُعلَّلٌ بالكُفْرِ، فوُضِعَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِه؛ تَنبيهًا على كُفْرِه، وتَعميمًا للحُكْمِ، فصار أوَّلُ السُّورةِ وآخِرُها مُفْهِمًا لِأنَّ الفَلاحَ مُختَصٌّ به المُؤمِنونَ، ولِيَتطابَقَ أوَّلُ السُّورةِ وآخِرُها[٤]، أو لِرِعايةِ التَّوافُقِ في الفواصِلِ[٥].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٩٨، ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٧، ٦٣٨).

- وفيه: تَسليةٌ للرَّسولِ صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه(١).

- وفيه: ضَرْبٌ مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ؛ إذِ افتُتِحَتِ السُّورةُ بـ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، وخُتِمَت بـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وهو نَفْيُ الفلاحِ عن الكافرينِ ضِدَّ المُؤمِنينَ(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

- في حَذْفِ مُتعلَّقِ ﴿ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾ تَفويضُ الأمرِ إلى اللهِ في تَعيينِ المَغفورِ لهم والمَرحومِينَ، والمُرادُ مَن كانوا مِن المُؤمِنينَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ المعنى: اغْفِرْ لي وارْحَمْني؛ بقَرينَةِ المَقامِ(٣).

- وفيه: إيذانٌ بأنَّ الاستِغفارَ والاستِرحامَ مِن أهمِّ الأُمورِ الدِّينيَّةِ؛ حيثُ أُمِرَ بهما مَن قد غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تأخَّرَ، فكيف بمَن عداهُ(٤)؟!

- وأمْرُه بأنْ يَدعُوَ بذلك يَتضمَّنُ وَعْدًا بالإجابةِ، وهذا الكلامُ مُؤْذِنٌ بانتِهاءِ السُّورةِ؛ فهو مِن بَراعةِ المَقطَعِ(٥).

تَمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثامنَ عَشَرَ
ويليه المجلدُ التاسعَ عَشَرَ
وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ النُّورِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٦٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٧).

الفهرس







الفهرس

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠